طريق الهجرتين
وباب السعادتين

تأليف

الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

٦٩١ — ٧٥١

طبع على نفقة سعادة الفاضل الكريم

محمد الصالح

المدير العام لوزارة الدفاع والطيران السعودي

وقف على طبعه

يوسف بن عبد العزيز النافع

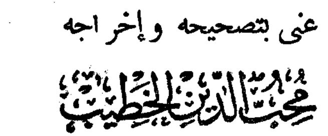
مراقب هيئة الأمر بالمعروف بالمسجد الحرام

المطبعة السلفية - ومكتبتها
٢١ شارع الفتح بالروضة تليفون ٢٩٣٦٤

القاهرة

١٣٧٥

عنى بتصحيحه وإخراجه



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين

وبعد فأني تقدمتُ الى الشابّ التقيّ سلفيّ المذهب طاهر العقيدة الرجل الصالح الأمين محمد الصالح المدير العام لوزارة الدفاع والطيران السعودى ، وعرضتُ عليه طبع ثلاثة كتب جليلة القدر عظيمة النفع كبيرة الفائدة ، وهى : (طريق الهجرتين وباب السعادتين) للامام ابن القيم رحمه الله ، و(جوابُ أهل العلم والإيمان ، فيما أخبر به رسول الرحمن ، من أن قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن) لشيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ، و(مسائل الجاهلية) بشرح علامة العراق السيد محمود شكرى الألوسى وأصلها لشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، فوافق حفظه الله وأكثر فى المسلمين أمثاله السابقين للخيرات ، وقد طلب منى أن أقوم بطبع الكتب المذكورة على نفقته الخاصة احتساباً لوجه الله سبحانه وتعالى ، فالله يجعله عملاً مقبولا وخالصاً لوجهه الكريم ، وأن يجزل له الأجر والثواب فى الدنيا والآخرة . والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

الفقير الى رحمة الله وعفوه

يوسف بن عبد العزيز النافع

مراقب هيئة الأمر بالمعروف

بالمسجد الحرام

مُقدِمة النَاشِر

هذا كتابُ رحلةٍ للمسلم يبتعد بها عن لُؤم الناس وتكالبهم على الدنيا ، وازدحامِهم حول عِظامها وتوافِهِها . واعتلاء بالنفس الكريمة الى الله وما يحبُّه اللهُ من سَجايا وفضائلَ وأعمالٍ طيّبةٍ تكون لصاحبها جَمالاً فى أعين الناس ، وجَوازاً بيسّر له الوصول الى عالَم الرضا والنعيم المقيم فى دار الخلود

هو طريق هجرتين وصفهما الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن القيم رحمه الله فى ص ٧ من كتابه هذا :

« هجرة الى الله بالطلب والمحبــة والعبودية والتوكل والإنابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والاقبال عليه وصدق اللجأ والافتقار فى كل نَفَس اليه

« وهجرة الى رسوله فى حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة ، بحيث تكون موافقة لشرعه الذى هو تفصيل محابّ الله ومرضاته ، ولا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، وكل عمل سواه فعيش النفس وحظها لا زادُ المعاد

« ولما كانت السعادة دائرةً ـ نفياً وإثباتاً ـ على ما جاء به ، كان جديرا بمن نصح نفسه أن يجعل لحظات عمره وقفاً على معرفته ، وإرادته مقصورة على محابّه ، وهذا أعلى همّةٍ شمَّرَ اليها السابقون ، وتنافس فيها المتنافسون »

وبعدُ فان أصدقَ نصيحةٍ يتناصح بها المسلم وأخوه قول كل منهما لصاحبه « كن مع الله » ، وقول أحدهما لأخيه « الله معنا » . ولن تكون الثانية إلا إذا تحققت الاولى عن طريق أولى الهجرتين فى هذا الكتاب وهى الهجرة الى الله . وإنما نقوم بها اذا كنا من أهل السنّة المحمدية ، ولا نكون من أهلها إلاّ عن طريق الهجرة الثانيه فى هذا الكتاب وهى الهجرة الى حامل أكمل رسالات الله محمد ﷺ بالتزام سنّته وآدابه كما لو كنا من أصحابه المعاصرين له

فالى طريق الهجرتين أيُّها المحمديُّون . . .

محب الدين الخطيب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نصب الكائنات على ربوبيته ووحدانيته حججا ، وحجب العقول والأبصار أن تجد الى تكييفه منهجا ، وأوجب الفوز بالنجاة لمن شهد له بالوحدانية شهادة لم يبغ لها عوجا ، وجعل لمن لاذ به واتقاه من كل ضائقة مخرجا ، وأعقب من ضيق الشدائد وضنك الأوابد لمن توكل عليه فرجا ، وجعل قلوب أوليائه متنقلة فى منازل عبوديته من الصبر والتوكل والانابة والتفويض والمحبة والخوف والرجا . فسبحان من أفاض على خلقه النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وضمن الكتاب الذى كتبه ، أن رحمته تغلب غضبه . أسبغ على عباده نعمه الفرادى والتؤام ، وسخر لهم البر والبحر والشمس والقمر والليل والنهار والعيون والأنهار والضياء والظلام ، وأرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه يدعوهم الى جواره فى دار السلام ، ﴿ فمَنْ يُرِدِ اللهُ أنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صدرَه للاسلام ، ومَن يُرِدْ أن يُضلَّه يجعلْ صدرَه ضيِّقا حَرَجا ﴾ (الانعام ١٢٥) ، فسبحان من ﴿ أنزلَ على عبدِهِ الكتابَ ولم يجعلْ له عِوَجا ﴾ ، ورفع لمن ائتم به فأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه وعمل بمحكمه وآمن بمتشابهه فى مراقى السعادة درجا ، ووضع قهره على من أعرض عنه ولم يرفع به رأسه ونبذه وراء ظهره وابتغى الهدى من غيره فجعله فى دركات الجحيم متولجا ، فانه الذكر الحكيم والصراط المستقيم والنبأ العظيم وحبل الله المتين المديد بينه وبين خلقه وعهده الذى من استمسك به فاز ونجا

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا سميّ له ولا كفو له ولا صاحبة له ولا ولد له ولا شبيه له ولا يحصى أحد ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى عليه خلقه شهادة من أصبح قلبه بالايمان بالله وأسمائه وصفاته مبتهجا ، ولم يدع الى شبه الجاحدين المعطلين معرجا

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عباده ، أرسله رحمة للعالمين وقدوة للعاملين ومحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين . أرسله على حين فترة من الرسل ، فهدى به الى أقوم الطرق وأوضح السبل ،

وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره والقيام بحقوقه ، وسد الى جنته جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه ، فشرح له صدره ، ورفع له ذكره ، ووضع عنه وزره ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره . فهدى به من الضلالة ، وعلم به من الجهالة . وكثر به بعد القلة ، وأعز به بعد الذلة ، وأغنى به بعد العيلة . وبصر به من العمى ، وأرشد به من الغى ، وفتح برسالته أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا . فبلغ الرسالة وأدّى الأمانة ونصح الأمة وجاهد فى الله حق جهاده وعبد الله حتى أتاه اليقين فلم يدع خيرا إلا دل أمته عليه ولا شرا إلا حذر منه ونهى عن سلوك الطريق الموصلة اليه . ففتح القلوب بالايمان والقرآن ، وجاهد أعداء الله باليد والقلب واللسان . فدعا الى الله على بصيرة ، وسار فى الأمة - بالعدل والاحسان وخلقه العظيم - أحسن سيرة . الى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها ، وتألفت به القلوب بعد شتاتها . وسارت دعوته سير الشمس فى الأقطار ، وبلغ دينه القيم ما بلغ الليل والنهار . واستجابت لدعوته الحق القلوب طوعا وإذعانا ، وامتلأت بعد خوفها وكفرها أمنا وإيمانا . فجزاه الله عن أمته أفضل الجزاء ، وصلى عليه صلاة تملأ أقطار الأرض والسماء ، وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فان الله سبحانه غرس شجرة محبته ومعرفته وتوحيده فى قلوب من اختارهم لربوبيته ، واختصهم بنعمته ، وفضلهم على سائر خليقته . فهى ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى السَّمَاءِ ، تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾ (ابراهيم ٢٣ - ٢٤) ، فكذلك شجرة الإيمان أصلها ثابت فى القلب وفروعها الكلم الطيب والعمل الصالح فى السماء ، فلا تزال هذه الشجرة تخرج ثمرها كل وقت باذن ربها من طيب القول وصالح العمل ما تقر به عيون صاحب الأصل وعيون حفظته وعيون أهله وأصحابه ومن قرب منه ، فان من قرت عينه بالله سبحانه قرت به كل عين وأنس به كل مستوحش وطاب به كل خبيث وفرح به كل حزين وأمن به كل خائف وشهد به كل غائب ، وذكرت رؤيته بالله ، فاذا رؤى ذكر الله فاطمأن قلبه الى الله وسكنت نفسه الى الله وخلصت محبته لله وقصر خوفه على الله وجعل رجاءه كله لله ، فان سمع سمع بالله وإن أبصر أبصر بالله وإن بطش بطش بالله وإن مشى مشى بالله ، فبه يسمع وبه يبصر وبه يبطش وبه

يمشى ، فاذا أحب فلله واذا أبغض فلله واذا أعطى فلله واذا منع فلله ، قد اتخذ الله وحده معبوده ومرجوه ومخوفه وغاية قصده ومنتهى طلبه ، واتخذ رسوله وحده دليله وإمامه وقائده وسائقه ، فوحد الله بعبادته ومحبته وخوفه ورجائه ، وأفراد رسوله بمتابعته والاقتداء به والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه ، وله فى كل وقت هجرتان : هجرة الى الله بالطلب والمحبة والعبودية والتوكل والانابة والتسليم والتفويض والخوف والرجاء والاقبال عليه وصدق اللجأ والافتقار فى كل نفس اليه ، وهجرة الى رسوله فى حركاته وسكناته الظاهرة والباطنة ، بحيث تكون موافقة لشرعه الذى هو تفصيل محابّ الله ومرضاته ، ولا يقبل الله من أحد دينا سواه ، وكل عمل سواه فعيش النفس وحظها لا زاد المعاد ، وقد قال شيخ الطريقة وامام الطائفة الجنيد بن محمد قدس الله روحه : الطرق كلها مسدودة إلا طريق من اقتفى آثار النبى ﷺ فان الله عز وجل يقول « وعزتى وجلالى لو أتونى من كل طريق ، واستفتحوا من كل باب ، لما فتحت لهم حتى يدخلوا خلفك » . وقال بعض العارفين : كل عمل بلا متابعة فهو عيش النفس

ولما كانت السعادة دائرة ـ نفيا وإثباتا ـ مع ما جاء به كان جديرا بمن نصح نفسه أن يجعل لحظات عمره وقفا على معرفته ، وارادته مقصورة على محابه ، وهذا أعلى همة شمر اليها السابقون ، وتنافس فيها المتنافسون . فلا جرم ضمنا هذا الكتاب قواعد من سلوك الهجرة المحمدية ، وسميناه (طريق الهجرتين ، وباب السعادتين) ، وابتدأناه بباب الفقر والعبودية اذ هو باب السعادة وطريقها الأقوم الذى لا سبيل الى دخولها إلا منه ، وختمناه بذكر طبقات المكلفين من الجن والانس فى الآخرة ، ومراتبهم فى دار السعادة والشقاوة . فجاء الكتاب غريبا فى معناه ، عجيبا فى مغزاه . لكل قوم منه نصيب ، ولكل وارد منه مشرب . وما كان فيه من حق وصواب فمن الله هو المانّ به ، فان التوفيق بيده . وما كان فيه من زلل فمنى ومن الشيطان ، والله ورسوله منه براء

فيا أيها القارىء له والناظر فيه ، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك ، وهذا فهمه وعقله معروض عليك ، لك غنمه وعلى مؤلفه غرمه . ولك ثمرته ، وعليه عائدته . فان عدم منك حمدا وشكرا ، فلا يعدم منك عذرا . وإن أبيت إلا الملام فبابه

مفتوح ، وقد

استأثر الله بالثناء وبالحمـــد وولى الملامة الرجلا

والله المسئول أن يجعله لوجهه خالصا ، وينفع به مؤلفه وقارئه وكاتبه فى الدنيا والآخرة ، انه سميع الدعاء ، وأهل الرجاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل

فصل فى أنَّ اللهَ هو الغنىُّ المطلَق

والخلق فقراء محتاجون إليه

قال الله سبحانه (فاطر ١٥) : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إلى اللهِ واللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الحَمِيد ﴾ بين سبحانه فى هذه الآية أن فقر العباد اليه أمر ذاتى لهم لا ينفك عنهم ، كما أن كونه غنيا حميدا ذاتى له ، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه ، وفقر من سواه اليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه ، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان ، بل هو ذاتى للفقير : فحاجة العبد الى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة ، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته لا لأمر أوجب غناه ، كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية :

والفقر لى وصفُ ذاتٍ لازم أبدا   كما الغنىُ أبدا وصفٌ له ذاتى

فالخلق فقير محتاج الى ربه بالذات لا بعلة ، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهى أدلة على الفقر والحاجة لا علل لذلك ، إذ ما بالذات لا يعلل ، فالفقير بذاته محتاج الى الغنىّ بذاته ، فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهى أدلة على الفقر لا أسباب له ، ولهذا كان الصواب فى مسألة علة احتياج العالم الى الرب سبحانه غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون ، فان الفلاسفة قالوا : علة الحاجة الإمكان ، والمتكلمون قالوا : علة الحاجة الحدوث ، والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان ، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار ، وفقر العالم الى الله سبحانه أمر ذاتى لا يعلل ، فهو فقير بذاته الى ربه الغنىّ بذاته ، ثم يستدل بامكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة على هذا الفقر . والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة اليه سبحانه ، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غنىٌّ حميد ، فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هى ، والغنى المطلق من كل وجه ثابت

لذاته تعالى وحقيقته من حيث هى ، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرا ، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنيا ، كما انه يستحيل أن يكون العبد الا عبدا والرب الا ربا

اذا عرف هذا فالفقر فقران : فقر اضطرارى ، وهو فقر عام لا خروج لبرّ ولا فاجر عنه ، وهذا الفقر لا يقتضى مدحا ولا ذما ولا ثوابا ولا عقابا ، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقا ومصنوعا . والفقر الثانى فقر اختيارى هو نتيجة علمين شريفين : أحدهما معرفة العبد بربه ، والثانى معرفته بنفسه . فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته . وتفاوت الناس فى هذا الفقر بحسب تفاوتهم فى هاتين المعرفتين ، فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق ، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام ، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة ، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل، فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئا ولا يقدر على شىء ، ولا يملك شيئا ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شىء البتة ، فكان فقره فى تلك الحال الى ما به كماله أمرا مشهودا محسوسا لكل أحد ، ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته ، وما بالذات دائم بدوامها . وهو لم ينتقل من هذه الرتبة الى رتبة الربوبية والغنى ، بل لم يزل عبدا فقيرا بذاته الى بارئه وفاطره . فلما أسبغ عليه نعمته ، وأفاض عليه رحمته ، وساق اليه أسباب كمال وجوده ظاهرا وباطنا ، وخلع عليه ملابس إنعامه ، وجعل له السمع والبصر والفؤاد ، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه ، ومكنه من استخدام بنى جنسه ، وسخر له الخيل والإبل ، وسلطه على دواب الماء ، واستنزال الطير من الهواء ، وقهر الوحش العادية ، وحفر الأنهار ، وغرس الأشجار ، وشق الأرض ، وتعلية البناء ، والتحيل على مصالحه ، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه ، ظن المسكين أن له نصيبا من الملك ، وادعى لنفسه ملكا مع الله سبحانه ، ورأى نفسه بغير تلك العين الأولى ، ونسى ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة ، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج ، بل كأن ذلك شخصا آخر غيره ، كما روى الإمام أحمد فى مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشى أن رسول الله ﷺ بصق يوما فى كفه فوضع عليها إصبعه ثم قال « قال اللهُ تعالى : يا ابنَ آدمَ أنَّى تُعْجِزُنِى وقد خَلَقْتُكَ من مِثْلِ هٰذِهِ

حتى اذا سوَّيتُكَ وَعدلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ والأرضِ مِنكَ وَئيد ، فَجَمَعْتَ وَمَنَعْتَ حتى اذا بَلغَتِ التَّراقِيَ قُلْتَ : أَتصَدَّقُ ، وَأَنَّى أَوانُ الصَّدَقَة [١] » ومن ههنا خذل من خذل ووفق من وفق ، فحجب المخذول عن حقيقته ونسى نفسه فنسى فقره وحاجته وضرورته الى ربه ، فطغى وعتا فحقت عليه الشقوة ، قال تعالى (العلق ٦-٧) : ﴿ كَلاَّ انَّ الْإِنْسانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ، وقال (الليل ٥ - ١٠) : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى ، وصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وأَمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى ، وكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهودا لفقره وضرورته وحاجته الى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، ولهذا كان من دعائه ﷺ « أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى الى نفسى طرفة عين ، ولا الى أحد من خلقك » ، وكان يدعو « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » ، يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئا ، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء ، كيف وهو يتلو قوله تعالى (الاسراء ٧٤) : ﴿ وَلَوْلا أَنْ ثَبَّتْناكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شَيْئاً قَلِيلا ﴾ فضرورته ﷺ الى ربه وفاقته اليه بحسب معرفته به ، وحسب قربه منه ومنزلته عنده . وهذا أمر إنما بدا منه لمن بعده ما يرشح من ظاهر الوعاء ، ولهذا كان أقربَ الخلق الى الله وسيلة وأعظمهم عنده جاها وأرفعهم عنده منزلة ، لتكميله مقام العبودية والفقر الى ربه ، وكان يقول لهم : « أَيُّها النَّاسُ ، ما أُحِبُّ أَن تَرْفَعُونى فَوْقَ مَنْزِلَتِى إِنَّما أَنا عبد » وكان يقول « لا تطرونى كما أطرتِ النصارى المسيحَ بن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله »

وذكره الله سبحانه بسمة العبودية فى أشرف مقاماته ، مقام الاسراء ومقام الدعوة ومقام التحدى فقال (الاسراء ١) : ﴿ سُبْحانَ الَّذى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلا ﴾ وقال : (الجن ١٩) : ﴿ وأَنَّهُ لَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوه ﴾ ، وقال (البقرة ٢٣) : ﴿ وإِنْ كُنْتُمْ فى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنا ﴾ ، وفى حديث الشفاعة « انَّ الْمَسِيحَ يَقُولُ لَهُمْ اذْهَبُوا الَى مُحَمَّدٍ عَبْدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ » ، فنال ذلك المقام

---

(١) الوئيد : صوت شدة الوطء على الأرض . والتراقى : عظام بين ثغرة النحر والعاتق

بكمال عبوديته لله وبكمال مغفرة الله له ، فتأمل قوله تعالى فى الآية (فاطر ١٥) : ﴿أَنتمُ الْفقَرَاءُ الىٰ اللهِ﴾ باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعى الفقر ، فانه كما تقدم نوعان : فقر الى ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأسرها ، وفقر الى ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين ، وهذا هو الفقر النافع ، والذى يشير اليه القوم ويتكلمون عليه ويشيرون اليه هو الفقر الخاص لا العام ، وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له وكل أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير ، قال شيخ الاسلام الأنصارى[1] : « الفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة ، وهو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى فقر الزهاد ، وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا ، واسكات اللسان عنها ذما أو مدحا ، والسلامة منها طلبا أو تركا ، وهذا هو الفقر الذى تكلموا فى شرفه . الدرجة الثانية الرجوع الى السبق بمطالعة الفضل ، وهو يورث الخلاص من رؤية الأعمال ، ويقطع شهود الأحوال ، ويمحص من أدناس مطالعة المقامات . والدرجة الثالثة صحة الاضطرار والوقوع فى يد التقطع الوحدانى والاحتباس فى بيداء قيد التجريد وهذا فقر الصوفية »

فقوله « الفقر اسم للبراءة من رؤية الملكة » يعنى أن الفقير هو الذى يجرد رؤية الملك لمالكه الحق ، فيرى نفسه مملوكة لله ، لا يرى نفسه مالكا بوجه من الوجوه ، ويرى أعماله مستحقة عليه بمقتضى كونه مملوكا عبدا مستعملا فيما أمره به سيده ، فنفسه مملوكة ، وأعماله مستحقة بموجب العبودية ، فليس مالكا لنفسه ولا لشىء من ذراته ولا لشىء من أعماله ، بل كل ذلك مملوك عليه مستحق عليه ، كرجل اشترى عبدا بخالص ماله ثم علمه بعض الصنائع ، فلما تعلمها قال له : اعمل وأدّ الىّ فليس لك فى نفسك ولا فى كسبك شىء ، فلو حصل بيد هذا العبد من الأموال والأسباب ما حصل لم ير له فيها شيئا ، بل يراه كالوديعة فى يده ، وأنها أموال استاذه وخزائنه ونعمه بيد عبده ، مستودعا متصرفا فيها لسيده لا لنفسه ، كما قال عبد الله ورسوله وخيرته من خلقه « والله إنى لا أعطى أحدا ولا أمنع أحدا ، وإنما أنا قاسم ، أضع حيث أمرت » ،

---

(١) هو أبو اسماعيل عبد الله بن محمد الهروى (٤٠١ — ٤٨١) مؤلف (منازل السائرين) وهذا الفصل منه ، ولابن القيم كلام عليه فى (مدارج السالكين) ٢ : ٢٢٥ (صوابه ٢٤٥) وما بعدها ، ولعل ما فى (طريق الهجرتين) أنفس مما هناك ، وفى كل منهما علم غزير من علم ابن القيم رحمه الله

فهو متصرف فى تلك الخزائن بالأمر المحض تصرف العبد المحض الذى وظيفته تنفيذ أوامر سيده ، فالله هو المالك الحق ، وكل ما بيد خلقه هو من أمواله وأملاكه وخزائنه أفاضها عليهم ليمتحنهم فى البذل والامساك ، وهل يكون ذلك منهم على شاهد العبودية لله عز وجل ، فيبذل أحدهم الشيء رغبة فى ثواب الله ورهبة من عقابه وتقربا اليه وطلبا لمرضاته ؟ أم يكون البذل والإمساك منهم صادرا عن مراد النفس وغلبة الهوى وموجب الطبع فيعطى لهواه ويمنع لهواه ؟ فيكون متصرفا تصرف المالك لا المملوك ، فيكون مصدر تصرفه الهوى ومراد النفس ، وغايته الرغبة فيما عند الخلق من جاه أو رفعة أو منزلة أو مدح أو حظ من الحظوظ ، أو الرهبة من فوت شيء من هذه الأشياء ، واذا كان مصدر تصرفه وغايته هو هذه الرغبة والرهبة رأى نفسه لا محالة مالكا فادعى الملك وخرج عن حد العبودية ونسى فقره ، ولو عرف نفسه حق المعرفة لعلم أنما هو مملوك ممتحن فى صورة ملك متصرف كما قال تعالى (يونس ١٤) : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ وحقيق بهذا الممتحن أن يوكل الى ما ادعته نفسه من الحالات والملكات مع المالك الحق سبحانه ، فان من ادعى لنفسه حالة مع الله سبحانه وكل إليها ، ومن وكل الى شيء غير الله فقد فتح له باب الهلاك والعطب ، وأغلق عنه باب الفوز والسعادة ، فان كل شيء ما سوى الله باطل ، ومن وكل الى الباطل بطل عمله وضل سعيه ولم يحصل إلا على الحرمان ، فكل من تعلق بغير الله انقطع به أحوج ما كان اليه ، كما قال تعالى (البقرة ١٦٦) : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ فالأسباب التى تقطعت بهم هى العلائق التى بغير الله ولغير الله ، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها ، وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت اضمحلت أسبابها وبطلت ، فان الأسباب تبطل ببطلان غاياتها وتضمحل باضمحلالها ، وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه ، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه ، وكل سعى لغيره باطل ومضمحل ، وهذا كما يشاهده الناس فى الدنيا من اضمحلال السعى والعمل والكد والخدمة التى يفعلها العبد لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال ، فاذا زال ذلك الذى عمل له عدم ذلك العمل وبطل ذلك السعى ولم يبق فى يده سوى الحرمان ، ولهذا يقول الله تعالى يوم

القيامة : « أليس عدلا منى أنى أولى كل رجل منكم ما كان يتولى فى الدنيا ، فيتولى عباد الأصنام والأوثان أصنامهم وأوثانهم فتتساقط بهم فى النار ، ويتولى عابدو الشمس والقمر والنجوم آلهتهم ، فاذا كورت الشمس وانتثرت النجوم اضمحلت تلك العبادة وبطلت وصارت حسرة عليهم (البقرة ١٦٧) : ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ ، ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة وأغبنهم يوم معاده ، فانه يحال على مفلس كل الافلاس بل على عدم ، والموحد حوالته على الملىء الكريم ، فيابُعد ما بين الحوالتين

وقوله « البراءة من رؤية الملكة » ولم يقل من الملكة لأن الانسان قد يكون فقيرا لا ملكة له فى الظاهر وهو عرى عن التحقق بنعت الفقر الممدوح أهله الذين لا يرون ملكة إلا لمالكها الحق ذى الملك والملكوت ، وقد يكون العبد قد فوض إليه من ذلك شىء وجعل كالخازن فيه ، كما كان سليمان بن داود أوتى ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، وكذلك الخليل وشعيب والأغنياء من الانبياء ، وكذلك أغنياء الصحابة ، فهؤلاء لم يكونوا بريئين من الملكة فى الظاهر وهم بريئون من رؤية الملكة لنفوسهم فلا يرون لها ملكا حقيقيا بل يرون ما فى أيديهم لله عارية ووديعة فى أيديهم ابتلاهم به لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبيد أو تصرف الملاك الذين يعطون لهواهم ويمنعون لهواهم ، فوجود المال فى يد الفقير لا يقدح فى فقره ، انما يقدح فى فقره رؤيته لملكته ، فمن عوفى من رؤية الملكة لم يتلوث باطنه باوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره ، وكان كالخازن لسيده الذى ينفذ أوامره فى ماله ، فهذا لو كان بيده من المال أمثال جبال الدنيا لم يضره ، ومن لم يعاف من ذلك ادعت نفسه الملكة وتعلقت به النفس تعلقها بالشىء المحبوب المعشوق ، فهو أكبر همه ومبلغ علمه : إن أعطى رضى ، وإن منع سخط ، فهو عبد الدينار والدرهم ، يصبح مهموما ويمسى كذلك يبيت مضاجعا له ، تفرح نفسه اذا ازداد ، وتحزن وتأسف اذا فات منه شىء ، بل يكاد يتلف اذا توهمت نفسه الفقر وقد يؤثر الموت على الفقر ، والاول مستغن بمولاه المالك الحق الذى بيده خزائن السموات والارض ، واذا أصاب المال الذى فى يده نائبة رأى أن المالك الحق هو الذى أصاب مال نفسه فما للعبد وما للجزع والهلع ، وإنما تصرف مالك المال فى ملكه الذى

هو وديعة فى يد مملوكه ، فله الحكم فى ماله : إن شاء أبقاه ، وإن شاء ذهب به وأفناه ، فلا يتهم مولاه فى تصرفه فى ملكه ويرى تدبيره هو موجب الحكمة ، فليس لقلبه بالمال تعلق ولا له به اكتراث ، لصعوده عنه وارتفاع همته الى المالك الحق ، فهو غنى به وبحبه ومعرفته وقربه منه عن كل ما سواه ، وهو فقير اليه دون ما سواه ، فهذا هو البرىء عن رؤية الملكة الموجبة للطغيان ، كما قال تعالى (العلق ٦ - ٧) : ﴿ كَلَّا إِنَّ الإنسانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ ولم يقل ان استغنى ، بل جعل الطغيان ناشئا عن رؤية غنى نفسه ، ولم يذكر هذه الرؤية فى سورة الليل (٨ - ١٠) بل قال : ﴿ وأَمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ وهذا - والله أعلم - لانه ذكر موجب طغيانه وهو رؤية غنى نفسه ، وذكر فى سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى ، وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته ، فانه لو افتقر اليه لتقرب اليه بما أمره من طاعته ، فعل المملوك الذى لا غنى له عن مولاه طرفة عين ولا يجد بدا من امتثال أوامره ، ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه اعطاء ما وجب عليه من الاقوال والاعمال وأداء المال ، وجمع الى ذلك تكذيبه بالحسنى وهى التى وعد بها أهل الاحسان بقوله (يونس ٢٦) : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وزيادة﴾ ومن فسرها بشهادة أن لا إله إلا الله فلأنها أصل الاحسان ، وبها تنال الحسنى . ومن فسرها بالخلف فى الانفاق فقد هضم المعنى حقه وهو أكبر من ذلك ، وان كان الخلف جزءاً من أجزاء الحسنى . والمقصود أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى ، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه ، وكلاهما مناف للفقر والعبودية

قوله « الدرجة الاولى فقر الزهاد ، وهو نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا ، وإسكات اللسان عنها ذما أو مدحا ، والسلامة منها طلبا أو تركا ، وهذا هو الفقر الذى تكلموا فى شرفه » . فحاصل هذه الدرجة فراغ اليد والقلب من الدنيا والذهول عن الفقر منها والزهد فيها ، وعلامة فراغ اليد نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا ، فهو لا يضبط يده مع وجودها شحا وضنا بها ، ولا يطلبها مع فقدها سؤالا وإلحافا وحرصا. فهذا الإعراض والنفض دال على سقوط منزلتها من القلب ، إذ لو كان لها فى القلب منزلة لكان الامر بضد ذلك ، وكان يكون حاله الضبط مع الوجود لغناه بها ، ولكان

يطلبها مع فقدها لفقره اليها . وأيضا من أقسام الفراغ إسكات اللسان عنها ذما ومدحا لان من اهتم بأمر وكان له فى قلبه موقع اشتغل اللسان بما فاض على القلب من أمره مدحا أوذما ، فانه إن حصلت له مدحها ، وإن فاتته ذمها . ومدحها وذمها علامة موضعها من القلب وخطرها ، فحيث اشتغل اللسان بذمها كان ذلك لخطرها فى القلب ، لان الشيء إنما يذم على قدر الاهتمام به ، والاعتناء شفاء الغيظ منه بالذم . وكذلك تعظيم الزهد فيها إنما هو على قدر خطرها فى القلب ، اذ لولا خطرها وقدرها لما صار للزهد فيها خطر ، وكذلك مدحها دليل على خطرها وموقعها من قلبه ، فان من أحب شيئا أكثر من ذكره ، وصاحب هذه الدرجة لا يضبطها مع وجودها ولا يطلبها مع عدمها ولا يفيض من قلبه على لسانه مدح لها يدل على محبتها ، ولا يفيض من القلب على اللسان ذم يدل على موقعها وخطرها ، فان الشيء اذا صغر أعرض القلب عنه مدحا أو ذما ، وكذلك صاحب هذه الدرجة سالم عن النظر الى تركها ، وهو الذى تقدم من ذكر خطر الزهد فيها ، لان نظر العبد الى كونه تاركا لها زاهدا فيها تتشرف نفسه بالترك ، وذلك من خطرها وقدرها . ولو صغرت فى القلب لصغر تركها والزهد فيها . ولو اهتم القلب بمهم من المهمات المطلوبة التى هى مذاقات أهل القلوب والارواح لذهل عن النظر الى نفسه بالزهد والترك . فصاحب هذه الدرجة معافى من هذه الامراض كلها : من مرض الضبط ، والطلب ، والذم ، والمدح ، والترك . فهى بأسرها ، وإن كان بعضها ممدوحا فى العلم مقصودا يستحق المتحقق به الثواب والمدح ، لكنها آثار وأشكال مشعرة بأن صاحبها لم يذق حال الخلو والتجريد الباطن ، فضلا عن أن يتحقق من الحقائق المتوقعة المتنافس فيها ، فصاحب هذه الدرجة متوسط بين درجتى الداخل بكليته فى الدنيا قد ركن اليها واطمأن اليها واتخذها وطنا وجعلها له سكنا ، وبين من نفضها بالكلية من قلبه ولسانه ، وتخلص من قيودها ورعوناتها وآثارها ، وارتقى الى ما يسر القلب ويحييه ويفرحه ويبهجه من جذبات العزة ، فهو فى البرزخ كالحامل المقرب ينتظر ولادة الروح والقلب صباحا ومساء ، فان من لم تولد روحه وقلبه ويخرج من مشيمة نفسه ويتخلص من ظلمات طبعه وهواه وإرادته فهو كالجنين فى بطن أمه الذى لم ير الدنيا وما فيها . فهكذا هذا الذى بعد فى مشيمة النفس ، والظلمات الثلاث هى : ظلمة النفس ، وظلمة

الطبع ، وظلمة الهوى . فلا بد من الولادة مرتين كما قال المسيح للحواريين : انكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين . ولذلك كان النبي ﷺ أبا للمؤمنين كما فى قراءة أبيّ ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم ﴾ ولهذا تفرع على هذه الأبوة أن جعلت أزواجه أمهاتهم ، فان أرواحهم وقلوبهم ولدت به ولادة أخرى غير ولادة الامهات ، فانه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات الجهل والضلال والغى الى نور العلم والايمان وفضاء المعرفة والتوحيد ، فشاهدت حقائق أخر وأمورا لم يكن لها بها شعور قبله ، قال تعالى (ابراهيم ١) : ﴿ آلر . كتابٌ أنزَلْناهُ اليْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ الى النُّورِ بِاذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ ، وقال (الجمعة ٢) : ﴿هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبين ﴾ ، وقال (آل عمران ١٦٤) : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَإنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبين ﴾ . والمقصود أن القلوب فى هذه الولادة ثلاثة : قلب لم يولد ولم يأن له بل هو جنين فى بطن الشهوات والغى والجهل والضلال . وقلب قد ولد وخرج الى فضاء التوحيد والمعرفة وتخلص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى ، فقرت عينه بالله ، وقرت عيون به وقلوب ، وأنست بقربه الارواح ، وذكرت رؤيته بالله ، فاطمأن بالله ، وسكن اليه ، وعكف بهمته عليه ، وسافرت هممه وعزائمه الى الرفيق الاعلى ، لا يقر بشيء غير الله ، ولا يسكن الى شيء سواه ، ولا يطمئن بغيره ، يجد من كل شيء سوى الله عوضا ، ومحبته قوته ، لا يجد من الله عوضا أبدا ، فذكره حياة قلبه ، ورضاه غاية مطلبه ، ومحبته قوته ، ومعرفته أنيسه ، عدوه من جذب قلبه عن الله « وان كان القريب المصافيا » . ووليه من رده الى الله وجمع قلبه عليه « وان كان البعيد المناويا » ، فهذان قلبان متباينان غاية التباين . وقلب ثالث فى البرزخ ينتظر الولادة صباحا ومساء ، قد أصبح على فضاء التجريد ، وأنس من خلال الديار أشعة التوحيد ، تأبى غلبات الحب والشوق إلا تقربا الى من السعادة كلها بقربه ، والحظ كل الحظ فى طاعته وحبه ، وتأبى غلبات الطباع إلا جذبه وايقافه وتعويقه ،

فهو بين الداعيين تارة وتارة قد قطع عقبات وآفات ، وبقى عليه مفاوز وفلوات . والمقصود أن صاحب هذا المقام اذا تحقق به ظاهرا وباطنا ، وسلم عن نظر نفسه الى مقامه واشتغاله به ووقوفه عنده ، فهو فقير حقيقى ، ليس فيه قادح من القوادح التى تحطه عن درجة الفقر

واعلم أنه يحسن إعمال اللسان فى ذم الدنيا فى موضعين : أحدهما موضع التزهيد فيها للراغب ، والثانى عند ما يرجع به داعى الطبع والنفس الى طلبها ولا يأمن اجابة الداعى ، فيستحضر فى نفسه قلة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها ، فانه إن تم عقله وحضر رشده زهد فيها ولا بد

فصل فى تفسير الفقر ودرجاته

وقوله « الدرجة الثانية الرجوع الى السبق بمطالعة الفضل ، وهو يورث الخلاص من رؤية الاعمال ، ويقطع شهود الاحوال ، ويمحص من أدناس مطالعة المقامات » فهذه الدرجة أرفع من الاولى وأعلى ، والاولى كالوسيلة اليها ، لان فى الدرجة الاولى يتخلى بفقره عن أن يتأله غير مولاه الحق ، وأن يضيع أنفاسه فى غير مرضاته ، وأن يفرق همومه فى غير محابه ، وأن يؤثر عليه فى حال من الاحوال . فيوجب له هذا الخلق وهذه المعاملة صفاء العبودية ، وعمارة السر بينه وبين الله وخلوص الود ، فيصبح ويمسى ولا هم له غير ربه ، قد قطع همه بربه عنه جميع الهموم ، وعطلت ارادته جميع الإرادات ونسخت محبته له من قلبه كل محبة لسواه ، كما قيل :

لقد كان يسبى القلب فى كل ليلة ... ثمانون بل تسعون نفسا وأرجح
يهيم بهذا ثم يألف غيره ... ويسلوهم من فوره حين يصبح
وقد كان قلبى ضائعا قبل حبكم ... فكان بحب الخلق يلهو ويمرح
فلما دعا قلبى هواك أجابه ... فلست أراه عن خبائك يبرح
حرمت منائى منك ان كنت كاذبا ... وان كنت فى الدنيا بغيرك أفرح
وان كان شىء فى الوجود سواكم ... يقر به القلب الجريح ويفرح
اذا لعبت أيدى الهوى بمحبكم ... فليس له عن بابكم متزحزح
فان أدركته غربة عن دياركم ... فحبكم بين الحشا ليس يبرح

وكم مشتر فى الخلق قد سام قلبه   فلم يره إلا لحبك يصلح
هوى غيركم نار تلظى ومحبس   وحبكم الفردوس أو هو أفسح
فياضيم قلب قد تعلق غيركم   ويا رحمة مما يجول ويكدح

والله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين فى جوفه ، فبقدر ما يدخل القلب من هم وإرادة وحب يخرج منه هم وإرادة وحب يقابله ، فهو إناء واحد والأشربة متعددة ، فأى شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره ، وإنما يمتلىء الاناء بأعلى الاشربة اذا صادفه خاليا ، فأما اذا صادفه ممتلئا من غيره لم يساكنه حتى يخرج ما فيه ثم يسكن موضعه ، كما قال بعضهم :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ففقر صاحب هذه الدرجة تفريغه إناءه من كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة ، لان كل شراب فمسكر ولا بد ، وما أسكر كثيره فقليله حرام ، وأين سكر الهوى والدنيا من سكر الخمر ، وكيف يوضع شراب التسنيم ـ الذى هو أعلى أشربة المحبين ـ فى إناء ملآن بخمر الدنيا والهوى ولا يفيق من سكره ولا يستفيق ، ولو فارق هذا السكر القلب لطار باجنحة الشوق الى الله والدار الآخرة ، ولكن رضى المسكين بالدون ، وباع حظه من قرب الله ومعرفته وكرامته بأخس الثمن صفقة خاسر مغبون ، فسيعلم أى حظ أضاع اذا فاز المحبون ، وخسر المبطلون

فصل فى أن حقيقة الفقر توجه العبد بجميع أحواله الى الله

واذا كان التلوث بالأعراض قيدا يقيد القلوب عن سفرها الى بلد حياتها ونعيمها الذى لا سكن لها غيره ، ولا راحة لها إلا فيه ، ولا سرور لها إلا فى منازله ، ولا أمن لها إلا بين أهله ، فكذلك الذى باشر قلبه روح التأله ، وذاق طعم المحبة ، وآنس نار المعرفة ، له أغراض دقيقة حالية تقيد قلبه عن مكافحة صريح الحق ، وصحة الاضطرار اليه ، والفناء التام به ، والبقاء الدائم بنوره الذى هو المطلوب من السير والسلوك ، وهو الغاية التى شمر اليها السالكون ، والعلم الذى أمه العابدون ودندن حوله العارفون ، فجميع ما يحجب عنه أو يقيد القلب نظره وهمه يكون حجابا يحجب الواصل

ويوقف السالك وينكس الطالب ، فالزهد فيه على أصحاب الهمم العليـــة متعين تعين الواجب الذى لا بد منه ، وهو كزهد السالك الى الحج فى الظلال والمياه التى يمر بها فى المنازل ، فالاول مقيد عن الحقائق برؤية الاعراض ، والثانى مقيد عن النهايات برؤية الاحوال ، فتقيد كل منهما عن الغاية المطلوبة ، وترتب على هذا القيد عدم النفوذ ، وذلك مؤخر مخلف

واذا عرف العبد هذا وانكشف له علمه تعين عليه الزهد فى الاحوال والفقر منها ، كما تعين عليه الزهد فى المال والشرف وخلو قلبه منهما . ولما كان موجب الدرجة الاولى من الفقر الرجوع الى الآخرة ، فأوجب الاستغراق فى هم الآخرة نفض اليدين من الدنيا ضبطا أو طلبا ، وإسكات اللسان عنها مدحا أو ذما . وكذلك كان موجب هذه الدرجة الثانيـة الرجوع الى فضل الله سبحانه ، ومطالعة سبقه الاسباب والوسائط . فبفضل الله ورحمته وجدت منه الاقوال الشريفة ، والمقامات العلية . وبفضله ورحمته وصلوا الى رضاه ورحمته ، وقربه وكرامته وموالاته ، وكان سبحانه هو الاول فى ذلك كله كما أنه الاول فى كل شيء ، وكان هو الآخر فى ذلك كما هو الآخر فى كل شيء . فمن عبده باسمه الاول والآخر حصلت له حقيقة هذا الفقر ، فان انضاف الى ذلك عبوديته باسمه الظاهر والباطن فهذا هو العارف الجامع لمتفرقات التعبد ظاهرا وباطنا ، فعبوديته باسمه الاول تقتضى التجرد من مطالعة الاسباب ، والوقوف أو الالتفات اليها ، وتجريد النظر الى مجرد سبق فضله ورحمته ، وأنه هو المبتدىء بالاحسان من غير وسيلة من العبد ، إذ لا وسيلة له فى العدم قبل وجوده ، وأى وسيلة كانت هناك ، وانما هو عدم محض ، وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا ، فمنه سبحانه الإعداد ومنه الإمداد وفضله سابق على الوسائل ، والوسائل من مجرد فضله وجوده لم تكن بوسائل أخرى . فمن نزّل اسمه الاول على هذا المعنى أوجب له فقرا خاصا وعبودية خاصة ، وعبوديته باسمه الآخر تقتضى أيضا عدم ركونه ووثوقه بالاسباب والوقوف معها ، فانها تنعدم لا محالة وتنقضى بالآخرية ، ويبقى الدائم الباقى بعدها ، فالتعلق بها تعلق بما يعدم وينقضى ، والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحى الذى لا يموت ولا يزول ، فالمتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع ، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به ، كذا نظر

العارف اليه بسبق الأولية حيث كان قبـــل الأسباب كلها ، وكذلك نظره اليه ببقاء الآخرية حيث يبقى بعد الأسباب كلها ، فكان الله ولم يكن شيء غيره ، وكل شيء هالك إلا وجهه . فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار الى الله وحده ودوام الفقر اليه دون كل شيء سواه ، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع ، فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة ، واليه تنتهى الأسباب والوسائل ، فهو أول كل شيء وآخره ، وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه ، فهو إلهه وغايته التى لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بان يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده ، فهو الأول الذى ابتدأت منه المخلوقات ، والآخر الذى انتهت اليه عبودياتها وإراداتها ومحبتها ، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله ، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرأ ، فكما كان واحدا فى ايجادك فاجعله واحدا فى تألهك اليه لتصح عبوديتك ، وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتألهك اليه لتصح لك عبوديته باسمه الأول والآخر ، وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه الأول ، وإنما الشأن فى التعبد له باسمه الآخر ، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم ، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده . وأما عبوديته باسمه الظاهر فكما فسره النبى ﷺ بقوله « وأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ ، وأَنْتَ الباطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ »

فاذا تحقق العبد علوه المطلق على كل شيء بذاته ، وأنه ليس فوقه شيء البتة ، وأنه قاهر فوق عباده يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه (فاطر ١٠) : ﴿ اليه يَصْعَدُ الـكَلِمُ الطيِّبُ والعملُ الصالحُ يَرْفعه ﴾ صار لقلبه أمما يقصده ، وربا يعبده ، وإلها يتوجه اليه . بخلاف من لا يدرى أين ربه فانه ضائع مشتت القلب ليس لقلبه قبلة يتوجه نحوها ولا معبود يتوجه اليه قصده . وصاحب هذه الحال إذا سلك وتاله وتعبد طلب قلبه إلها يسكن اليه ويتوجه اليه ، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش شيء إلا العدم ، وأنه ليس فوق العالم إله يعبد ويصلى له ويسجد ، وأنه ليس على العرش من يصعد اليه الـكلم الطيب ولا يرفع اليه العمل الصالح ، جال قلبه فى الوجود جميعه فوقع فى الاتحاد ولا بد ، وتعلق قلبه بالوجود المطلق السارى فى المعينات ، فاتخذ إلهه من دون إله الحق وظن أنه قد وصل الى عين الحقيقة ! وانما تأله وتعبد لمخلوق مثله ، ولخيال نحته بفكره

واتخذه إلها من دون الله سبحانه ، وإله الرسل وراء ذلك كله (يونس ٣ - ٤) : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِه ، ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللهِ حَقًّا ، إِنَّه يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ ، وقال (السجدة ٤ـ٩) : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ما لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ولا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُون . يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ الى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ الَيْهِ فِي يَوْمٍ كان مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون . ذٰلِكَ عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيم . الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ ماءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فيه مِنْ رُوحِهِ وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً ما تَشْكُرُون ﴾

فقد تعرف سبحانه الى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه ، وإن زعم أنه مقرّ به . والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلب على المعبود ، ويجعل له ربا يقصده وصمدا يصمد اليه فى حوائجه ، وملجأ يلجأ اليه . فاذا استقر ذلك فى قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته وصار له معقل وموئل يلجأ اليه ويهرب اليه ويفر كل وقت اليه . وأما تعبده باسمه الباطن فامر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته ، ويكلّ اللسان عن وصفه ، وتصطلم الاشارة اليه ، وتجفو العبارة عنه ، فانه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل ، مخلصة من فرث التشبيه ، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد ، وعبارة مودية للمعنى كاشفة عنه ، وذوقا صحيحا سليما من أذواق أهل الانحراف . فمن رزق هذا فهم معنى اسمه الباطن وصح له التعبد به . وسبحان الله كم زلت فى هذا المقام أقدام ، وضلت فيه أفهام ، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصدّيق ، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين ، لنبوّ الافهام عنه ، وعزة تخلص الحق من الباطل فيه ، والتباس ما فى الذهن بما فى الخارج إلا على من رزقه الله بصيرة فى الحق ،

ونورا يميز به بين الهدى والضلال ، وفرقانا يفرق به بين الحق والباطل ، ورزق مع ذلك اطلاعا على أسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط ، وكان له بصيرة فى الحق والباطل ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم وعظمته ، وأنه العوالم كلها فى قبضته ، وأن السموات السبع والأرضين السبع فى يده كخردلة فى يد العبد ، قال تعالى (الاسراء ٦٠) : ﴿ وإذْ قُلْنا لَكَ إنَّ رَبَّكَ أحاطَ بِالنَّاسِ ﴾ وقال (البروج ٢٠) : ﴿ واللهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيط ﴾ ولهـذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين : اسم العلو الدال على أنه الظاهر وانه لا شيء فوقه ، واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه ، كما قال تعالى (البقرة ٢٥٥ ، الشورى ٤) : ﴿ وهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ ﴾ وقال تعالى (سبأ ٢٣) : ﴿ وهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ ﴾ وقال (البقرة ١١٥) : ﴿ ولِلهِ المَشْرِقُ والمَغْرِبُ ، فأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله ، إنَّ اللهَ واسِعٌ عَلِيم ﴾ وهو تبارك وتعالى كما أنه العالى على خلقه بذاته فليس فوقه شيء ، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء ، بل ظهر على كل شيء فكان فوقه ، وبطن فكان أقرب الى كل شيء من نفسه ، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه ، وكل شيء فى قبضته وليس شيء فى قبضة نفسه ، فهذا أقرب لاحاطة العامة

وأما القرب المذكور فى القرآن والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه ، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن ، قال تعالى (البقرة ١٨٦) : ﴿ وإذا سَأَلَكَ عِبادِى عَنِّى فإنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ اذا دَعانِ ﴾ فهذا قربه من داعيه ، وقال تعالى (الأعراف ٥٦) : ﴿ إنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المُحْسِنِين ﴾ فذكر الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة وهى مؤنثة إيذانا بقربه تعالى من المحسنين ، فكأنه قال : ان الله برحمته قريب من المحسنين . وفى الصحيح عن النبى ﷺ قال : « أقْرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ ساجِد » و « أقْرَبُ ما يَكُونُ الرَّبُّ مِنْ عَبْدِهِ فِى جَوْفِ اللَّيْل » ، فهذا قرب خاص غير قرب الإحاطة وقرب البطون . وفى الصحيح من حديث أبى موسى أنهم كانوا مع النبى ﷺ فى سفر ، فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال : « أيُّها النَّاسُ ارْبَعُوا

على أَنفُسِكُمْ فانَّكمْ لا تَدْعُونَ أصمَّ ولا غائباً ، انَّ الَّذى تَدْعُونَهُ سَميعٌ قَريبٌ ، أَقْرَبُ الى أَحَدِكُمْ منْ عُنُقِ راحِلَتِه » ، فهذا قربه من داعيه وذاكره ، يعنى فاى حاجة بكم الى رفع الأصوات وهو لقربه يسمعها وان خفضت ، كما يسمعها اذا رفعت ، فانه سميع قريب . وهذا القرب هو من لوازم المحبة ، فكلما كان الحب أعظم كان القرب أكثر ، وقد استولت محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها عن غيرها ، ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده ، فان لم يكن عنده معرفة صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه وإلا طرق باب الحلول ان لم يلجه ، وسببه ضعف تمييزه ، وقوة سلطان المحبة ، واستيلاء المحبوب على قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه ، وفى مثل هذه الحال يقول : سبحانى ، أو : ما فى الجبة الا الله ، ونحو هذا من الشطحات التى نهايتها أن يغفر له ويعذر لسكره وعدم تمييزه فى تلك الحال . فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد ، وأن يكون الاله أقرب اليه من كل شىء وأقرب اليه من نفسه ، مع كونه ظاهرا ليس فوقه شىء ، ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا فليضرب عنه صفحا الى ما هو أولى به ، فقد قيل :

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة ، ومعرفة بقرب المحبوب من محبه غاية القرب وان كان بينهما غاية المسافة ـ ولا سيما اذا كانت المحبة من الطرفين ، وهى محبة بريئة من العلل والشوائب والاعراض القادحة فيها ـ فان المحب كثيرا ما يستولى محبوبه على قلبه وذكره ويفنى عن غيره ويرق قلبه وتتجرد نفسه ، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه القريب اليه وبينهما من البعد ما بينهما ، وفى هذه الحال يكون فى قلبه وجوده العلمى ، وفى لسانه وجوده اللفظى ، فيستولى هذا الشهود عليه ويغيب به ، فيظن أن فى عينه وجوده الخارجى لغلبة حكم القلب والروح ، كما قيل :

خيالك فى عينى وذكرك فى فمى ومثواك فى قلبى فأين تغيب

هذا ويكون ذلك المحبوب بعينه بينه وبين عدوه وما بينهما من البعد وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار . والمقصود أن المثال العلمى غير الحقيقة الخارجية وان كان

مطابقا لها ، لـكن المثال العلمى محله القلب والحقيقة الخارجية محلها الخارج ، فمعرفة هذه الأسماء الأربعة وهى : الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن هى أركان العلم والمعرفة ، فحقيق بالعبد أن يبلغ فى معرفتها الى حيث ينتهى به قواه وفهمه

واعلم أن لك أنت أولا وآخرا وظاهرا وباطنا ، بل كل شىء فله أول وآخر وظاهر وباطن ، حتى الخطرة واللحظة والنفس وأدنى من ذلك وأكثر . فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه ، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه . فأوليته سبقه لـكل شىء ، وآخريته بقاؤه بعد كل شىء ، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شىء ، ومعنى الظهور يقتضى العلو ، وظاهر الشىء هو ما علا منه وأحاط بباطنه . وبطونه سبحانه إحاطته بكل شىء بحيث يكون أقرب اليه من نفسه ، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه ، هذا لون وهذا لون . فمدار هذه الأسماء الأربعة على الاحاطة ، وهى إحاطتان : زمانية ومكانية ، فاحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد ، فـكل سابق انتهى الى أوليته وكل آخر انتهى الى آخريته ، فأحاطت أوليته وآخريتـــه بالأوائل والأواخر ، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن ، فما من ظاهر إلا والله فوقه ، وما من باطن إلا والله دونه ، وما من أول إلا والله قبله ، وما من آخر إلا والله بعده : فالأول قدمه ، والآخر دوامه وبقاؤه ، والظاهر علوه وعظمته ، والباطن قربه ودنوه . فسبق كل شىء بأوليته ، وبقى بعد كل شىء بآخريته ، وعلا على كل شىء بظهوره ، ودنا من كل شىء ببطونه ، فلا توارى منه سماء سماء ولا أرض أرضا ، ولا يحجب عنه ظاهر باطنا ، بل الباطن له ظاهر ، والغيب عنده شهادة ، والبعيدمنه قريب ، والسر عنده علانية . فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد ، فهو الأول فى آخريته والآخر فى أوليته ، والظاهر فى بطونه والباطن فى ظهوره ، لم يزل أولا وآخرا وظاهرا وباطنا

والتعبد بهذه الأسماء رتبتان : الرتبة الأولى أن تشهد الأولية منه تعالى فى كل شىء والآخرية بعد كل شىء والعلو والفوقية فوق كل شىء والقرب والدنو دون كل شىء ، فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب ، والرب جل جلاله ليس دونه شىء أقرب الى الخلق منه . والمرتبة الثانية من التعبد أن يعامل كل اسم

بمقتضاه ، فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شيء ، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها بما يقتضيه ذلك من إفراده وعدم الالتفات الى غيره والوثوق بسواه والتوكل على غيره . فمن ذا الذى شفع لك فى الأزل حيث لم تكن شيئا مذكورا حتى سماك باسم الاسلام ، ووسمك بسمة الإيمان ، وجعلك من أهل قبضة اليمين ، وأقطعك فى ذلك الغيب عمالات المؤمنين ، فعصمك عن العبادة للعبيد ، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد ، ثم وجه وجهة قلبك اليه سبحانه دون ما سواه . فاضرع الى الذى عصمك من السجود للصنم ، وقضى لك بقدم الصدق فى القدم ، أن يتم عليك نعمة هو ابتدأها وكانت أوليتها منه بلا سبب منك ، واسمُ بهمتك عن ملاحظة الاختيار ، ولا تركنن الى الرسوم والآثار ، ولا تقنع بالخسيس الدون . وعليك بالمطالب العالية والمراتب السامية التى لا تنال إلا بطاعة الله ، فان الله سبحانه قضى أن لا ينال ما عنده إلا بطاعته ، ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد ، فمن أقبل اليه تلقاه من بعيد ومن تصرف بحوله وقوته ألان له الحديد ، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد ، ومن أراد مراده الدينى أراد ما يريد . ثم اسمُ بسرك الى المطلب الأعلى ، واقصر حبك وتقربك على من سبق فضله واحسانه اليك كل سبب منك ، بل هو الذى جاد عليك بالأسباب ، وهيأ لك وصرف عنك موانعها ، وأوصلك بها الى غايتك المحمودة . فتوكل عليه وحده ، وعامله وحده ، وآثر رضاه وحده ، واجعل حبه ومرضاته هو كعبة قلبك التى لا تزال طائفا بها ، مستلما لأركانها ، واقفا بملتزمها . فيافوزك ويا سعادتك ان اطلع سبحانه على ذلك من قلبك ، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخلع أفضاله . « اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد ، سبحانك وبحمدك » . ثم تعبد له باسمه الآخر بان تجعله وحده غايتك التى لا غاية لك سواه ، ولا مطلوب لك وراءه ، فكما انتهت اليه الأواخر وكان بعد كل آخر فكذلك اجعل نهايتك اليه ، فان الى ربك المنتهى ، اليه انتهت الأسباب والغايات فليس وراءه مرمى ينتهى اليه . وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه الظاهر . وأما التعبد باسمه الباطن فاذا شهدت إحاطته بالعوالم وقرب العبيد منه وظهور البواطن له وبدو السرائر وانه لا شيء بينه وبينها فعامله بمقتضى هذا الشهود ، وطهر له سريرتك فانها عنده علانية

وأصلح له غيبك فانه عنده شهادة ، وزك له باطنك فانه عنده ظاهر

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة جماع المعرفة بالله ، وجماع العبودية له . فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنته فلا يرى لغيره شيئا الا به وبحوله وقوته ، وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند اليه أو يتحلى به أو يتخذه عقده أو يراه ليوم فاقته أو يعتمد عليه فى مهم من مهماته ، فكل ذلك من قصور نظره وانعكاسه عن الحقائق والأصول الى الأسباب والفروع كما هو شأن الطبيعة والهوى وموجب الظلم والجهل ، والانسان ظلوم جهول . فمن جلى الله سبحانه صدأ بصيرته وكمل فطرته وأوقفه على مبادىء الأمور وغاياتها ومناطها ومصادرها ومواردها أصبح كالمفلس حقا من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه يقول : أستغفر الله من علمى ومن عملى ، أى من انتسابى اليهما وغيبتى بهما عن فضل من ذكرنى بهما وابتدأنى باعطائهما من غير تقدم سبب منى يوجب ذلك . فهو لا يشهد غير فضـــل مولاه وسبق منته ودوامه ، فيثيبه مولاه على هذه الشهادة العالية بحقيقة الفقر الأوسط بين الفقرين الأدنى والأعلى ثوابين : أحدهما الخلاص من رؤية الأعمال حيث كان يراها ويتمدح بها ويستكثرها فيستغرق بمطالعة الفضل غائبا عنها ذاهبا عنها فانيا عن رؤيتها ، الثواب الثانى أن يقطعه عن شهود الاحوال ـ أى عن شهود نفسه فيها متكثرة بها ـ فان الحال محله الصدر ، والصدر بيت القلب والنفس ، فاذا نزل العطاء فى الصدر للقلب ثبتت النفس لتاخذ نصيبها من العطاء فتتمدح به وتدل به وتزهو وتستطيل وتقرر إنيتها لانها جاهلة ظالمة ، وهذا مقتضى الجهل والظلم . فاذا وصل الى القلب نور صفة المنة ، وشهد معنى اسمه المنان وتجلى سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه الاول ، ذهل القلب والنفس به ، وصار العبد فقيرا الى مولاه بمطالعة سبق فضله الاول ، فصار مقطوعا عن شهود أمر أو حال ينسبه الى نفسه بحيث يكون بشهادته لحاله مفصوما مقطوعا عن رؤية عزة مولاه وفاطره وملاحظة صفاته . فصاحب شهود الاحوال منقطع عن رؤية منة خالقه وفضله ومشاهدة سبق الاولية للأسباب كلها ، وغائب بمشاهدة عزة نفسه عن عزة مولاه ، فينعكس هذا الامر فى حق هذا العبد الفقير وتشغله رؤية عزة مولاه ومنته ومشاهدة سبقه بالاولية عن حال يعتز بها العبد أو يشرف بها . وكذلك الرجوع

الى السبق بمطالعة الفضل يمحص من أدناس مطالعات المقامات ، فالمقام ما كان راسخا فيه ، والحال ما كان عارضا لا يدوم . فمطالعات المقامة وتشوفه بها وكونه يرى نفسه صاحب مقام قد حققه وكمله فاستحق أن ينسب اليه ويوصف به ، مثل أن يقال زاهد صابر خائف راج محب راض ، فكونه يرى نفسه مستحقا بأن تضاف المقامات اليه وبان يوصف بها ـ على وجه الاستحقاق لها ـ خروج عن الفقر الى الغنى ، وتعد لطور العبودية ، وجهل بحق الربوبية ، فالرجوع الى السبق بمطالعة الفضل يستغرق همة العبد ويمحصه ويطهره من مثل هذه الأدناس ، فيصير مصفى بنور الله سبحانه عن رذائل هذه الأرجاس

قوله « والدرجة الثالثة صحة الاضطرار ، والوقوع فى يد التقطع الوحداني ، والاحتباس فى بيداء قيد التجريد ، وهذا فقر الصوفية » . هذه الدرجة فوق الدرجتين السابقتين عند أرباب السلوك ، وهى الغاية التى شمروا اليها وحاموا حولها ، فان الفقر الأول فقر عن الأعراض الدنيوية ، والفقر الثانى فقر عن رؤية المقامات والأحوال ، وهذا الفقر الثالث فقر عن ملاحظة الموجود الساتر للعبد عن مشاهدة الوجود ، فيبقى الوجود الحادث فى قبضة الحق سبحانه كالهباء المنثور فى الهواء ، يتقلب بتقليبه إياه ، ويسير فى شاهد العبد كما هو فى الخارج ، فتمحو رؤية التوحيد عن العبد شواهد استبداده واستقلاله بأمر من الأمور ، ولو فى النفس واللمحة والطرفة والهمة والخاطر والوسوسة ، إلا بارادة المريد الحق سبحانه وتدبيره وتقديره ومشيئته ، فيبقى العبد كالكرة الملقاه بين صولجانات القضاء والقدر ، تقلبها كيف شاءت بصحة شهادة قيومية من له الخلق والأمر وتفرده بذلك دون ما سواه . وهذا الأمر لا يدرك بمجرد العلم ، ولا يعرفه إلا من تحقق به أو لاح له منه بارق ، وربما ذهل صاحب هذا المشهد عن الشعور بوجوده لغلبة شهود وجود القيوم عليه ، فهناك يصح من مثل هذا العبد الاضطرار الى الحى القيوم ، وشهد فى كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فقرا تاما اليه من جهة كونه ربا ومن جهة كونه إلها معبودا لا غنى له عنه كما لا وجود له بغيره . فهذا هو الفقر الأعلى الذى دارت عليه رحى القوم ، بل هو قطب تلك الرحى . وإنما يصح له هذا بمعرفتين لا بد منهما : معرفة حقيقة الربوبية والإلهية ، ومعرفة حقيقة النفس

والعبودية ، فهنالك تتم له معرفة هذا الفقر ، فان أعطى هاتين المعرفتين حقهما من العبودية اتصف بهذا الفقر حالا ، فما أغناه حينئذ من فقير ، وما أعزه من ذليل ، وما أقواه من ضعيف ، وما آنسه من وحيد . فهو الغنيّ بلا مال ، القوى بلا سلطان ، العزيز بلا عشيرة ، المكفى بلا عتاد . قد قرت عينه بالله فقرت به كل عين ، واستغنى بالله فافتقر اليه الأغنياء والملوك . ولا يتم له ذلك الا بالبراءة من فرث الجبر ودمه ، فانه إن طرق باب الجبر انحل عنه نظام العبودية ، وخلع ربقة الاسلام من عنقه ، وشهد أفعاله كلها طاعات للحكم القدرى الكونى ، وأنشد :

أصبحت منفعلا لما يختاره منى ، ففعلى كله طاعات

واذ قيل له : اتق الله ولا تعصه ، يقول : ان كنت عاصيا لأمره فانا مطيع لحكمه وإرادته ! فهذا منسلخ من الشرائع ، برىء من دعوة الرسل ، شقيق لعدو الله إبليس . بل وظيفة الفقير فى هذا الموضع وفى هذه الضرورة مشاهدة الأمر والشرع ، ورؤية قيامه بالأفعال وصدورها منه كسبا واختيارا ، وتعلق الأمر والنهى بها طلبا وتركا ، وترتب الذم والمدح عليها شرعا وعقلا ، وتعلق الثواب والعقاب بها آجلا وعاجلا . فمتى اجتمع له هذا الشهود الصحيح الى شهود الاضطرار فى حركاته وسكناته ، والفاقة التامة الى مقلب القلوب ومن بيده أزمة الاختيار ومن اذا شاء شيئا وجب وجوده واذا لم يشأ امتنع وجوده ، وأنه لا هادى لمن أضله ولا مضل لمن هداه ، وأنه هو الذى يحرك القلوب بالارادات والجوارح بالأعمال ، وأنها مدبرة تحت تسخيره مذللة تحت قهره ، وأنها أعجز وأضعف من أن تتحرك بدون [مشيئته ، وأن] مشيئته نافذة فيها كما هى نافذة فى حركات الأفلاك والمياه والأشجار ، وأنه حرك كلا منها بسبب اقتضى تحريكه ، وهو خالق السبب المقتضى ، وخالق السبب خالق للمسبب ، فخالق الارادة الجازمة التى هى سبب الحركة والفعل الاختيارى خالق لهما ، وحدوث الارادة بلا خالق محدث محال ، وحدوثها بالعبد بلا إرادة منه محال ، وإن كان بارادة فارادته للارادة كذلك ويستحيل بها التسلسل ، فلا بد من فاعل أوجد تلك الارادة التى هى سبب الفعل ، فهنا يتحقق الفقر والفاقة والضرورة التامة الى مالك الارادات ورب القلوب ومصرفها كيف شاء ، فما شاء أن يزيغه منها أزاغه وما شاء أن يقيمه منها اقامه ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ

هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا من لَدُنْكَ رَحْمَةً إنَّكَ أنْتَ الوَهاب ﴾ (آل عمران ٨) . فهذا هو الفقر الصحيح المطابق للعقل والفطرة والشرع ، ومن خرج عنه وانحرف الى أحد الطرفين زاغ قلبه عن الهدى ، وعطل ملك الملك الحق وانفراده بالتصرف والربوبية عن أوامره وشرعه وثوابه وعقابه . وحكم هذا الفقير المضطر الى خالقه فى كل طرفة عين وكل نفَس أنه إن حرك بطاعة أو نعمة شكرها وقال : هذا من فضل الله ومنّه وجوده فله الحمد . وإن حرك بمبادى معصيته صرخ ولجأ واستغاث وقال : أعوذ بك منك ، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك . فان تم تحريكه بالمعصية التجأ التجاء أسير قد أسره عدوه وهو يعلم أنه لا خلاص له من أسره إلا بان يفتكّه سيده من الأسر ، ففكاكه فى يد سيده ليس فى يده منه شيء البتة ، ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فهو فى أسر العدو ناظر الى سيده وهو قادر ، قد اشتدت ضرورته اليه ، وصار اعتماده كله عليه . قال سهل : إنما يكون الالتجاء ، على معرفة الابتلاء . يعنى وعلى قدر الابتلاء تكون المعرفة بالمبتلى . ومن عرف قوله ﷺ : « وأعوذ بك منك » ، وقام بهذه المعرفة شهودا وذوقا ، وأعطاها حقها من العبودية ، فهو الفقير حقا . ومدار الفقر الصحيح على هذه الكلمة ، فمن فهم سر هذا [فهم سر] الفقر المحمدى ، فهو سبحانه الذى ينجى من قضائه بقضائه ، وهو الذى يعيذ بنفسه من نفسه ، وهو الذى يدفع ما منه بما منه ، فالخلق كله له ، والأمر كله له ، والحكم كله له ، وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وما شاء لم يستطع أن يصرفه إلا مشيئته ، وما لم يشأ لم يمكن أن يجلبه إلا مشيئته ، فلا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ، ولا يهدى لأحسن الأعمال والأخلاق إلا هو ، ولا يصرف سيئها إلا هو ﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فلا كاشفَ لَهُ إلاَّ هُوَ وإنْ يُرِدْكَ بخَيْرٍ فلا رادَّ لفَضْلِهِ ﴾ (يونس ١٠٧) . والتحقق بمعرفة هذا يوجب صحة الاضطرار وكمال الفقر والفاقة ، ويحول بين العبد وبين رؤية أعماله وأحواله والاستغناء بها والخروج عن رفقة العبودية الى دعوى ما ليس له . وكيف يدعى مع الله حالا أو ملكة أو مقاما من قلبه وإرادتهُ وحركاته الظاهرة والباطنة بيد ربه ومليكه لا يملك هو منها شيئا وإنما هى بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء ، فالإيمان بهذا

والتحقق به نظام التوحيد ، ومتى انحل من القلب انحل نظام التوحيد ، فسبحان من لا يوصل اليه إلا به ، ولا يطاع إلا بمشيئته ، ولا ينال ما عنده من الكرامة إلا بطاعته ولا سبيل الى طاعته إلا بتوفيقه ومعونته ، فعاد الأمر كله اليه كما ابتدأ الأمر كله منه ، فهو الأول والآخر وإن الى ربك المنتهى -

ومن وصل الى هذا الحال وقع فى يد التقطع والتجريد ، وأشرف على مقام التوحيد الخاصى ، فان التوحيد نوعان : عامى وخاصى ، كما أن الصلاة نوعان ، والذكر نوعان ، وسائر القرب كذلك خاصية وعامية ، فالخاصية ما بذل فيها العامل نصحه وقصده بحيث يوقعها على أحسن الوجوه وأكملها ، والعامية ما لم يكن كذلك . فالمسلمون كلهم مشتركون فى إتيانهم بشهادة أن لا إله إلا الله ، وتفاوتهم فى معرفتهم بمضمون هذه الشهادة وقيامهم باطنا وظاهرا أمر لا يحصيه إلا الله عز وجل . وقد ظن كثير من الصوفية أن التوحيد الخاصى أن يشهد العبد المحرك له ويغيب عن المتحرك وعن الحركة فيغيب بشهوده عن حركته ، ويشهد نفسه شبحا فانيا يجرى على تصاريف المشيئة ، كمن غرق فى البحر فأمواجه ترفعه طورا وتخفضه طورا ، فهو غائب بها عن ملاحظة حركته فى نفسه ، بل قد اندرجت حركته فى ضمن حركة الموج وكأنه لا حركة له بالحقيقة ، وهذا وإن ظنه كثير من القوم غاية ، وظنه بعضهم لازما من لوازم التوحيد فالصواب أن من ورائه ما هو أجل منه ، وغاية هذا الفناء فى توحيد الربوبية ، وهو أن لا يشهد ربا وخالقا ومدبرا إلا الله ، وهذا هو الحق ، ولكن توحيد الربوبية وحده لا يكفى فى النجاة فضلا عن أن يكون شهوده والفناء فيه هو غاية الموحدين ونهاية مطلبهم ، فالغاية التى لا غاية وراءها ولا نهاية بعدها الفناء فى توحيد الإلهية ، وهو أن يفنى بمحبة ربه عن محبة كل ما سواه ، وبتألهه عن تأله ما سواه ، وبالشوق اليه والى لقائه عن الشوق الى ما سواه ، وبالذل له والفقر اليه من جهة كونه معبوده وإلهه ومحبوبه عن الذل الى كل ما سواه ، وكذلك يفنى بخوفه ورجائه عن خوف ما سواه ورجائه ، فيرى أنه ليس فى الوجود ما يصلح له ذلك إلا الله ، ثم يتصف بذلك حالا وينصبغ به قلبه صبغة ثم يفنى بذلك عما سواه ، فهذا هو التوحيد الخاصى الذى شمر اليه العارفون ، والورد الصافى الذى حام حوله المحبون . ومتى وصل اليه العبد

صار فى يد التقطع والتجريد ، واشتمل بلباس الفقر الحقيقى ، وفرق حب الله من قلبه كل محبة وخوفه كل خوف ورجاؤه كل رجاء ، فصار حبه وخوفه ورجاؤه وذله وإيثاره وإرادته ومعاملته كل ذلك واحد لواحد ، فلم ينقسم طلبه ولا مطلوبه . فتعددُ المطلوب وانقسامه قادح فى التوحيد والاخلاص ، وانقسام الطلب قادح فى الصدق والارادة ، فلا بد من توحيد الطلب والإرادة وتوحيد المطلوب المراد ، فاذا غاب بمحبوبه عن حب غيره وبمذكوره عن ذكر غيره وبمألوهه عن تأله غيره صار من أهل التوحيد الخاصى ، وصاحبه مجرد عن ملاحظة سوى محبوبه أو إيثاره أو معاملته أو خوفه أو رجائه . وصاحب توحيد الربوبية فى قيد التجريد عن ملاحظة فاعل غير الله ، وهو مجرد عن ملاحظة وجوده ، وهو كما كان صاحب الدرجة الأولى مجردا عن أمواله وصاحب الثانية مجردا عن أعماله وأحواله ، فصاحب الفناء فى توحيد الإلهية مجرد عن سوى مراضى محبوبه وأوامره ، قد فنى بحبه وابتغاء مرضاته عن حب غيره وابتغاء مرضاته . وهذا هو التجريد الذى سمت اليه همم السالكين ، فمن تجرد عن ماله وحاله وكسبه وعمله ثم تجرد عن شهود تجريده فهو المجرد عندهم حقا ، وهذا تجريد القوم الذى عليه يحومون ، وإياه يقصدون ، ونهايته عندهم التجريد بفناء وجوده ، وبقاؤه بموجوده ، بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل ، ولا غاية عندهم وراء هذا . ولعمر الله إن وراءه تجريدا أكمل منه ، ونسبته اليه كتفلة فى بحر وشعرة فى ظهر بعير ، وهو تجريد الحب والإرادة عن الشوائب والعلل والحظوظ ، فيتوحد حبه كما توحد محبوبه ، ويتجرد عن مراده من محبوبه بمراد محبوبه منه ، بل يبقى مراد محبوبه هو من نفس مراده ، وهنا يعقل الاتحاد الصحيح وهو اتحاد المراد ، فيكون عين مراد المحبوب هو عين مراد المحب ، وهذا هو غاية الموافقة وكمال العبودية . ولا تتجرد المحبة عن العلل والحظوظ التى تفسدها إلا بهذا . فالفرق بين محبة حظك ومرادك من المحبوب وأنك انما تحبه لذلك وبين محبة مراد المحبوب منك ومحبتك له لذاته أنه أهل أن يحب . وأما الاتحاد فى الارادة فمحال ، كما أن الاتحاد فى المريد محال ، فالإرادتان متباينتان . وأما مراد المحب والمحبوب اذا خلصت المحبة من العلل والحظوظ فواحد . فالفقر والتجريد والفناء من واد واحد . وقد جعله صاحب (منازل السائرين) من قسم النهايات ، وحدّه

بأنه الانخلاع عن شهود الشواهد ، وجعله على ثلاث درجات : الدرجة الأولى تجريد الكشف عن كسب اليقين ، والثانية تجريد عين الجمع عن درك العلم ، والثالثة تجريد الخلاص من شهود التجريد

فقوله فى الأولى : « تجريد الكشف عن كسب اليقين » يريد كشف الايمان ومكافحته للقلب ، وهذا وان حصل باكتساب اليقين من أدلته وبراهينه ، فالتجريد أن يشهد سبق الله بمنته لكل سبب ينال به اليقين أو الايمان ، فيجرد كشفه لذلك عن ملاحظة سبب أو وسيلة ، بل يقطع الأسباب والوسائل وينتهى نظره الى المسبب ، وهذه ان أريد تجريدها عن كونها أسبابا فتجريد باطل ، وصاحبه ضال . وان أريد تجريدها عن الوقوف عندها ورؤية انتسابها اليه وصيرورتها عنوان اليقين انما كان به وحده فهذا تجريد صحيح ، ولكن على صاحبه اثبات الأسباب ، فان نفاها عن كونها أسبابا فسد تجريده

وقوله فى الدرجة الثانية : « تجريد عين الجمع عن درك العلم » لما كانت الدرجة الأولى تجريدا عن الكسب وانتهاء الى عين الجمع الذى هو الغيبة بتفرد الرب بالحكم عن إثبات وسيلة أو سبب ، اقتضت تجريدا آخر أكمل من الأول وهو تجريد هذا الجمع عن علم العبد به ، فالأولى تجريد عن رؤية السبب والفعل ، والثانية تجريد عن العلم والإدراك ، وهذا يقتضى أيضا تجريدا ثالثا أكمل من الثانى وهو تجريد التخلص من شهود التجريد ، وصاحب هذا التجريد الثالث فى عين الجمع قد اجتمعت همته على الحق ، وشغل به عن ملاحظة جمعه وذكره وعلمه به ، قد استغرق ذلك قلبه ، فلا سعة فيه لشهود علمه بتجريده ولا شعوره به ، فلا التفات له الى تجريده ، ولو بقى له التفات اليه لم يكمل تجريده . ووراء هذا كله تجريد نسبة هذا التجريد اليه كشعرة من ظهر بعير الى جملته ، وهو تجريد الحب والإرادة عن تعلقه بالسوى ، وتجريده عن العلل والشوائب والحظوظ التى هى مراد النفس ، فيتجرد الطلب والحب عن كل تعلق يخالف مراد المحبوب ، فهذا تجريد الحنيفية . والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا به

فصل فى تقسيم الغنىٰ الى عال وسافل

ولما كان الفقر الى الله سبحانه هو عين الغنى به ـ فأفقر النـاس الى الله أغناهم به ، وأذلهم له أعزهم ، وأضعفهم بين يديه أقواهم ، وأجهلهم عند نفسه أعلمهم بالله ، وأمقتهم لنفسه أقربهم الى مرضاة الله ـ كان ذكر الغنى بالله مع الفقر اليه متلازمين متناسبين ، فنذكر فصلا نافعا فى الغنى العالى . واعلم أن الغنى على الحقيقة لا يكون إلا بالله الغنى بذاته عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فموسوم بسمة الفقر كما هو موسوم بسمة الخلق والصنع ، وكما أن كونه مخلوقا أمر ذاتى له فكونه فقيرا أمر ذاتى له كما تقدم بيانه ، وغناه أمر نسبي إضافى عارض له ، فانه إنما استغنى بأمر خارج عن ذاته فهو غنى به فقير اليه ، ولا يوصف بالغنى على الاطلاق إلا من غناه من لوازم ذاته ، فهو الغنى بذاته عما سواه ، وهو الأحد الصمد الغنى الحميد

والغنى قسمان : غنى سافل ، وغنى عال . فالغنى السافل الغنى بالعوارى المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث وهذا أضعف الغنى ، فانه غنى بظل زائل ، وعارية ترجع عن قريب الى أربابها ، فاذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها ، وكأن الغنى بها كان حلما فانقضى ، ولا همة أضعف من همة من رضى بهذا الغنى الذى هو ظل زائل . وهذا غنى أرباب الدنيا الذى فيه يتنافسون ، وإياه يطلبون ، وحوله يحومون ، ولا أحب الى الشيطان وأبعد عن الرحمن من قلب ملآن بحب هذا الغنى والخوف من فقده . قال بعض السلف : اذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشىء كفرحهم بثلاثة أشياء : مؤمن قتل مؤمنا ، ورجل يموت على الكفر ، وقلب فيه خوف الفقر . وهذا الغنى محفوف بفقرين : فقر قبله ، وفقر بعده وهو كالغفوة بينهما . فحقيق بمن نصح نفسه أن لا يغتر به ولا يجعله نهاية مطلبه ، بل اذا حصل له جعله سببا لغناه الأكبر ووسيلة اليه ، ويجعله خادما من خدمه لا مخدوما له ، وتكون نفسه أعز عليه من أن يعبِّدها لغير مولاه الحق ، أو يجعلها خادمة لغيره

فصل فى الغنى العالى

وأما الغنى العالى فقال شيخ الاسلام « هو على ثلاث درجات : الدرجة الأولى

غنى القلب ، وهو سلامته من السبب ، ومسالمته للحكم ، وخلاصه من الخصومة . والدرجة الثانية غنى النفس ، وهو استقامتها على المرغوب ، وسلامتها من الحظوظ ، وبراءتها من المراءاة . والدرجة الثالثة الغنى بالحق . وهو ثلاث مراتب : الأولى شهود ذكره إياك ، والثانية دوام مطالعة أوليته ، والثالثة الفوز بوجوده » . قلت : ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس » ، ومتى استغنت النفس استغنى القلب . ولكن الشيخ قسم الغنى إلى هذه الدرجات بحسب متعلقه فقال « غنى القلب سلامته من السبب ، ومسالمته للحكم ، وخلاصه من الخصومة » ومعلوم أن هذا شرط فى الغنى ، لا أنه نفس الغنى ، بل وجود المنازعة والمخاصمة وعدم المسالمة مانع من الغنى . فهذه السلامة والمسالمة دليل على غنى القلب ، لا أن غناه بها نفسها ، وإنما غنى القلب بالدرجة الثالثة فقط كما سيأتى بيانه إن شاء الله . فالغنىُّ إنما يصير غنيا بحصول ما يسد فاقته ويدفع حاجته . وفى القلب فاقة عظيمة وضرورة تامة وحاجة شديدة لا يسدها إلا فوزه بحصول الغنى الحميد الذى إن حصل للعبد حصل له كل شيء ، وان فاته فاته كل شيء . فكما أنه سبحانه الغنىُّ على الحقيقة ولا غنى سواه فالغنىُ به هو الغنى فى الحقيقة ولا غنىُ بغيره ألبتة ، فمن لم يستغن به عما سواه تقطعت نفسه على السوى حسرات ، ومن استغنى به زالت عنه كل حسرة وحضره كل سرور وفرح ، والله المستعان

وإنما قدم شيخ الاسلام الكلام على غنى القلب على الكلام على غنى النفس لأن كمال صلاح النفس غناها بالاستقامة من جميع الوجوه ، وبلوغها الى درجة الطمأنينة لا يكون إلا بعد صلاح القلب ، وصلاح النفس متقدم على إصلاحها . هكذا قيل ، وفيه ما فيه ، لأن صلاح كل واحد منهما مقارن لصلاح الآخر . ولكن لما كان القلب هو الملك وكان صلاحه صلاح جميع رعيته كان أولى بالتقديم ، وقد قال النبي ﷺ « إنَّ فى الْجَسَد مُضْغَةً اذا صَلَحَتْ صَلَحَ لها سائرُ الْجَسَد ، واذا فَسَدَتْ فَسَدَ لها سائرُ الْجَسَد ، ألا وهى القلب » والقلب اذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربه وعطاياه السنية خلع على الأمراء والرعية خلعا تناسبها ، فخلع على النفس خلع الطمأنينة والسكينة والرضا والإخبات ، فأدت الحقوق سماحة لا كظما بانشراح ورضا ومبادرة ، وذلك

لأنها جانست القلب حينئذ ووافقته فى أكثر أموره ، واتحد مرادهما غالبا فصارت له وزير صدق ، بعد أن كانت عدوا مبارزا بالعداوة ، فلا تسأل عما أحدثت هذه المؤازرة والموافقة من طمأنينة ولذة عيش ونعيم هو دقيقة من نعيم أهل الجنة . هذا ولم تضع الحرب أوزارها فيما بينهما ، بل عدتها وسلاحها كامن متوار ، لولا قدرة سلطان القلب وقهره لحاربت بكل سـلاح ، فالمرابطة على ثغرى الظاهر والباطن فرض متعين مدة أنفاس الحياة

وتنقضى الحرب محمودا عواقبها للصابرين ، وحظ الهارب الندم

وخلع على الجوارح خلع الخشوع والوقار ، وعلى الوجه خلعة المهابة والنور والبهاء ، وعلى اللسان خلعة الصدق والقول السديد الثابت والحكمة النافعة ، وعلى العين خلعة الاعتبار فى النظر والغض عن المحارم ، وعلى الأذن خلعة استماع النصيحة واستماع القول النافع استماعه للعبد فى معاشه ومعاده ، وعلى اليدين والرجلين خلعة البطش فى الطاعات أين كانت بقوة وأيد ، وعلى الفرج خلعة العفة والحفظ ، فغدا العبد وراح يرفل فى هذه الخلع ويجر لها فى الناس أذيالا وأردانا . فغنى النفس مشتق من غنى القلب وفرع عليه ، فاذا استغنى سرى الغنى منه الى النفس . وغنى القلب ما يناسبه من تحقيقه بالعبودية المحضة التى هى أعظم خلعة تخلع عليه ، فيستغنى حينئذ بما توجبه هذه العبودية له من المعرفة الخاصة والمحبة الناصحة الخالصة ، وبما يحصل له من آثار الصفات المقدسة وما تقتضيه من الأحكام والعبوديات المتعلقة بكل صفة على الانفراد ومجموعها قائمة بالذات ، وهذا أمر تضيق عن شرحه عدة أسفار ، بل حظ العبد منه علما وإرادة كما يدخل إصبعه فى اليم ، بل الأمر أعظم من ذلك . والله سبحانه ﴿ أنزلَ من السماء ماء فسالتْ أودية بقدَرِها ﴾ (الرعد ١٤) . فاذا استغنى القلب بهذا الغنىُ الذى هو غاية فقره استغنت النفسُ غنى يناسبها ، وذهبت عنها البرودة التى توجب ثقلهـا وكسلها وإخلادها الى الأرض ، وصارت لها حرارة توجب حركتها وخفتها فى الأوامر وطلبها الرفيق الأعلى ، وصارت برودتها فى شهواتها وحظوظها ورعوناتها ، وذهبت عنها أيضا اليبوسة المضادة للينها وسرعة انفعالها وقبولها ، فانها اذا كانت يابسة قاسية كانت بطيئة الانفعال بعيدة القبول لا تكاد تنقاد ، فاذا صارت يبوستها حرارة وبرودتها رطوبة

وسقيت بماء الحياة الذى أنزله الله عز وجل على قلوب أنبيائه وجعلها قرارا ومعينا له ففاض منها على قلوب أتباعهم فأنبتت من كل زوج كريم ، فحينئذ انقادت بزمام المحبة الى مولاها الحق مؤدية لحقوقه قائمة بأوامره راضية عنه مرضية له بكمال طمأنينتها ﴿ يا أيتها النفسُ المطمئنةُ ارجعى الى ربّك راضيةً مرضية ﴾ (الفجر ٢٧ - ٢٨) ، فلنرجع الى كلامه

فقوله فى الدرجة الأولى وهى غنى القلب : « إنه سلامته من السبب » أى من الفقر الى السبب وشهوده والاعتماد عليه والركون اليه والثقة به ، فمن كان معتمدا على سبب غناه واثقا به لم يطلق عليه اسم الغنى ، لأنه فقير الى الوسائط ، بل لا يسمى صاحبه غنيا إلا إذا سلم من علة السبب استغناء بالمسبب ، بعد الوقوف على رحمته وحكمته وتصرفه وحسن تدبيره ، فلذلك يصير صاحبه غنيا بتدبير الله سبحانه . فمن كملت له السلامة من علة الأسباب ، ومن علة المنازعة للحكم بالاستسلام له والمسالمة - أى بالانقياد لحكمه - حصل الغنى للقلب بوقوفه على حسن تدبيره ورحمته وحكمته ، فاذا وقف العبد على حسن تدبيره واستغنى القلب به لم يتم له الاستغناء بمجرد هذا الوقوف ، وإن لم ينضم اليه المسالمة للحكم وهو الانقياد له فان المنازعة للحكم الى حكم آخر دليل على وجود رعونة الاختيار ، وذلك دال على فقر صاحب الاختيار الى ذلك الشيء المختار ، ومن كان فقيرا الى شيء لم يرده الله لم يطلق عليه اسم الغنى بتدبير الله ، فلا يتم الغنى بتدبير الله سبحانه لعبده الا بالمسالمة لحكمه بعد الوقوف على حسن تدبيره ، ثم يبقى عليه الخلاص من معنى آخر وهو مخاصمة الخلق بعد الخلاص من منازعة الرب سبحانه ، فان منازعة الخلق دليل على فقره الى الأمر الذى وقعت فيه الخصومة من الحظوظ العاجلة ، ومن كان فقيرا الى حظ من الحظوظ - يسخط لفوته ويخاصم الخلق عليه - لا يطلق عليه اسم الغنى حتى يسلم الخلق من خصومته بكمال تفويضه الى وليه وقيومه ومتولى تدبيره ، فمتى سلم العبد من علة فقره الى السبب ، ومن علة منازعته لأحكام الله سبحانه ، ومن علة مخاصمته للخلق على حظوظ ، استحق أن يكون غنيا بتدبير مولاه مفوضا اليه لا يفتقر قلبه الى غيره ولا يسخط شيئا من أحكامه ولا يخاصم عباده إلا فى حقوق ربه ، فتكون مخاصمته لله وبالله ، ومحاكمته الى الله ، كما كان النبى ﷺ يقوله فى استفتاح صلاة الليل : « اللهمَّ لكَ أسلمْتُ ، وبكَ آمنْتُ ، وعليكَ توَكَّلْتُ ، واليكَ

أَنبْتُ ، و بكَ خاصَمْتُ ، واليكَ حا كَمْتُ » فتكون مخاصمة هذا العبد لله لا لهواه وحظه ومحا كمته خصمه الى أمر الله وشرعه لا إلى شيء سواه ، فمن خاصم لنفسه فهو ممن اتبع هواه وانتصر لنفسه ، وقد قالت عائشة : ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط ، وهذا لتكميل عبوديته . ومن حاكم خصمه الى غير الله ورسوله فقد حاكم الى الطاغوت ، وقد أمر أن يكفر به ، ولا يكفر العبد بالطاغوت حتى يجعل الحكم لله وحده كما هو كذلك فى نفس الأمر . والحكم نوعان : حكم كونى قدرى ، وحكم أمرى دينى . فهذا الذى ذكره الشيخ فى منازل السائرين وشرحه عليه الشارحون إنما مراده به الحكم الكونى القدرى ، وحينئذ فلا بد من تفصيل ما أجملوه من مسالمة الحكم والاستسلام له وترك المنازعة له ، فان هذا الإطلاق غير مأمور به ولا ممكن للعبد فى نفسه ، بل الأحكام ثلاثة : حكم شرعى دينى ، فهذا حقه أن يتلقى بالمسالمة والتسليم وترك المنازعة ، بل بالانقياد المحض ، وهذا تسليم العبودية المحضة فلا يعارض بذوق ولا وجد ولا سياسة ولا قياس ولا تقليد ، ولا يرى الى خلافه سبيلا البتة ، وإنما هو الانقياد المحض والتسليم والاذعان والقبول ، فاذا تلقى بهذا التسليم والمسالمة اقرارا وتصديقا بقى هناك انقياد آخر وتسليم آخر له إرادة وتنفيذا وعملا ، فلا تكون له شهوة تنازع مراد الله من تنفيذ حكمه ، كما لم تكن له شبهة تعارض إيمانه واقراره ، وهذا حقيقة القلب السليم الذى سلم من شبهة تعارض الحق وشهوة تعارض الأمر ، فلا استمتع بخلاقه كما استمتع به الذين يتبعون الشهوات ، ولا خاض فى الباطن خوض الذين يتبعون الشبهات ، بل اندرج خلاقه تحت الأمر ، واضمحل خوضه فى معرفته بالحق فاطمأن الى الله معرفة به ومحبة له وعلما بأمره وارادة لمرضاته ، فهذا حق الحكم الدينى . الحكم الثانى الحكم الكونى القدرى الذى للعبد فيه كسب واختيار وارادة ، والذى اذا حكم به يسخطه ويبغضه ويذم عليه ، فهذا حقه أن ينازع ويدافع بكل ممكن ولا يسالم ألبتة ، بل ينازع بالحكم الكونى أيضا ، فينازع حكم الحق بالحق للحق فيدافع به وله ، كما قال شيخ العارفين فى وقته عبد القادر الجيلى « الناس اذا دخلوا الى القضاء والقدر أمسكوا ، وأنا انفتحت لى روزنة [1] فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والعارف من يكون منازعا

---

(١) أى نافذة

للقدر لا واقفا مع القدر » اﻫ ، فان ضاق ذرعك عن هذا الكلام وفهمه فتأمل قول عمر بن الخطاب - وقد عوتب على فراره من الطاعون فقيل له - : أتفر من قدر الله ؟ فقال : نفر من قدر الله الى قدر . ثم كيف ينكر هذا الكلام من لا بقاء له فى هذا العالم إلا به ، ولا تتم له مصلحة إلا بموجبه ، فانه اذا جاءه قدر من الجوع والعطش أو البرد نازعه وترك الانقياد له ومسالمته ، ودفعه بقدر آخر من الأكل والشرب واللباس ، فقد دفع قدر الله بقدره ، وهكذا اذا وقع الحريق فى داره فهو بقدر الله ، فما باله لا يستسلم له ويسالمه ويتلقاه بالاذعان؟ بل ينازعه ويدافعه بالماء والتراب وغيره حتى يطفىء قدر الله بقدر الله وما خرج فى ذلك عن قدر الله ، وهكذا اذا أصابه مرض بقدر الله دافع هذا القدر ونازعه بقدر آخر يستعمل فيه الأدوية الدافعة للمرض ، فحق هذا الحكم الكونى أن يحرص العبد على مدافعته ومنازعته بكل ما يمكنه ، فان غلبه وقهره حرص على دفع آثاره وموجباته بالأسباب التى نصبها الله لذلك ، فيكون قد دفع القدر بالقدر ونازع الحكم بالحكم ، وبهذا أمر ، بل هذا حقيقة الشرع والقدر ، ومن لم يستبصر فى هذه المسألة ويعطها حقها لزمه التعطيل للقدر أو الشرع شاء أو أبى ، فما للعبد ينازع أقدار الرب بأقداره فى حظوظه وأسباب معاشه ومصالحه الدنيوية ، ولا ينازع أقداره فى حق مولاه وأوامره ودينه ؟ وهل هذا إلا خروج عن العبودية ونقص فى العلم بالله وصفاته وأحكامه ؟ ولو أن عدوا للاسلام قصده لكان هذا بقدر الله ، ويجب على كل مسلم دفع هذا القدر بقدر يحبه الله وهو الجهاد باليد أو المال أو القلب دفعا لقدر الله بقدره ، فما للاستسلام والمسالمة هنا مدخل فى العبودية ، اللهم إلا اذا بذل العبد جهده فى المدافعة والمنازعة وخرج الأمر عن يده ، فحينئذ يبقى من أهل الحكم الثالث وهو الحكم القدرى الكونى الذى يجرى على العبد بغير اختياره ولا طاقة له بدفعه ولا حيلة له فى منازعته ، فهذا حقه أن يتلقى بالاستسلام والمسالمة وترك المخاصمة وأن يكون فيه كالميت بين يدى الغاسل ، وكمن انكسر به المركب فى لجة البحر وعجز عن السباحة وعن سبب يدنيه من النجاة فهنا يحسن الاستسلام والمسالمة ، مع أن عليه فى هذا الحكم عبوديات أخر سوى التسليم والمسالمة ، وهى أن يشهد عزة الحاكم فى حكمه ، وعدله فى قضائه ، وحكمته فى جريانه عليه ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما

أخطأه لم يكن ليصيبه ، وان الكتاب الأول سبق بذلك قبل بدء الخليقة ، فقد جف القلم بما يلقاه كل عبد ، فمن رضى فله الرضا ومن سخط فله السخط ، ويشهد أن القدر ما أصابه الا لحكمة اقتضاها اسم الحكيم جل جلاله وصفته الحكمة ، وان القدر قد أصاب مواقعه وحل فى المحل الذى ينبغى له أن ينزل به ، وان ذلك أوجبه عدل الله وحكمته وعزته وعلمه وملكه العادل ، فهو موجب أسمائه الحسنى وصفاته العلى ، فله عليه أكمل حمد واتمه ، كما له الحمد على جميع أفعاله وأوامره . وان كان حظ العبد من هذا القدر الذم فحق الرب تعالى منه الحمد والمدح ، لأنه موجب كماله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وهو موجب نقص العبد وجهله وظلمه وتفريطه . فاقتسم الرب والعبد الحظين فى هذا القدر ، وكان للرب سبحانه فيه الحمد والنعمة والفضل والثناء الحسن ، والعبد حظه الذم واللوم والاساءة واستحقاق العقوبة

استأثر الله بالمحامد والفـ ضل وولى الملامة الرجلا

ويتبين هذا المقام فى أربع آيات : إحداها قوله تعالى (النساء ٧٩) : ﴿ ما أصابكَ منْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ ، وما أصابكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِك ﴾ الثانية قوله (آل عمران ١٦٥) ﴿ أَو لَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قد أَصَبْتُمْ مِثْلَيها قُلْتُمْ أَنَّى هٰذا ، قُلْ هُوَ منْ عند أَنْفُسِكُمْ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير ﴾ الثالثة قوله تعالى (الشورى ٣٠) : ﴿ وما أصابكُمْ مِنْ مُصِيبةٍ فبِما كَسَبَتْ أيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِير ﴾ الرابعة قوله تعالى (الشورى ٤٨) : ﴿ وإنَّا اذا أَذَقْنا الْانسانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِها وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فانَّ الانسانَ كَفُور ﴾ فمن نزل هذه الآيات على هذا الحكم علما ومعرفة وقام بموجبها إرادة وعزما وتوبة واستغفارا فقد أدى عبودية الله فى هذا الحكم ، وهذا قدر زائد على مجرد التسليم والمسالمة ، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله

فصل فى تفسير غنى النفس

قوله فى غنى النفس انه « استقامتها على المرغوب ، وسلامتها من الحظوظ ، وبراءتها من المراءاة » يريد استقامتها على الأمر الدينى الذى يحبه الله ويرضاه ، وتجنبها لمناهيه

التى يسخطها ويبغضها ، وأن تكون هذه الاستقامة على الفعل والترك تعظيما لله سبحانه وأمره ، وإيمانا به ، واحتسابا لثوابه ، وخشية من عقابه . لا طلبا لتعظيم المخلوقين له ومدحهم ، وهربا من ذمهم وازدرائهم ، وطلبا للجاه والمنزلة عندهم ، فان هذا دليل على غاية الفقر من الله والبعد منه وأنه أفقر شيء الى المخلوق . فسلامة النفس من ذلك واتصافها بضده دليل غناها ، لأنها اذا أذعنت منقادة لأمر الله طوعا واختيارا ومحبة وإيمانا واحتسابا ، بحيث تصير لذتها وراحتها ونعيمها وسرورها فى القيام بعبوديته كما كان النبي ﷺ يقول : « يا بلال أرحنا بالصلاة » وقال ﷺ : « حُبِّبَ إلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمُ النِّساءُ وَالطِّيبُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلاةِ » فقرة العين فوق المحبة ، فجعل النساء والطيب مما يحبه ، وأخبر أن قرة العين التى يطمئن القلب بالوصول اليها ومحض لذته وفرحه وسروره وبهجته إنما هو فى الصلاة التى هى صلة بالله وحضور بين يديه ومناجاة له واقتراب منه ، فكيف لا تكون قرة العين ، وكيف تقر عين المحب بسواها . فاذا حصل للنفس هذا الحظ الجليل فأى فقر يخشى معه ، وأى غنى فاتها حتى تلتفت اليه ؟ ولا يحصل لها هذا حتى ينقلب طبعها ويصير مجانسا لطبيعة القلب ، فتصير بذلك مطمئنة بعد أن كانت لوّامة ، وانما تصير مطمئنة بعد تبدل صفاتها وانقلاب طبعها ، لاستغناء القلب بما وصل اليه من نور الحق سبحانه ، فجرى أثر ذلك النور فى سمعه وبصره وشعره وبشره وعظمه ولحمه ودمه وسائر مفاصله وأحاط بجهاته من فوقه وتحته ويمينه ويساره وخلفه وأمامه ، وصارت ذاته نورا ، وصار عمله نورا ، وقوله نورا ، ومدخله نورا ، ومخرجه نورا ، وكان فى مبعثه ممن انبهر له نوره فقطع به الجسر . واذا وصلت النفس الى هذه الحال استغنت بها عن التطاول الى الشهوات التى توجب اقتحام الحدود المسخوطة ، والتقاعد عن الأمور المطلوبة المرغوبة ، فان فقرها الى الشهوات هو الموجب لها التقاعد عن المرغوب المطلوب ، وأيضا فتقاعدها عن المطلوب بينهما موجب لفقرها الى الشهوات ، فكل منهما موجب للآخر ، وترك الأوامر أقوى لها من افتقارها الى الشهوات ، فانه بحسب قيام العبد بالأمر تدفع عنه جيوش الشهوة ، كما قال تعالى (العنكبوت ٤٥) : ﴿ انَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ وقال تعالى (الحج ٣٨) ﴿ انَّ اللهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذينَ آمَنُوا ﴾ وفى القراءة الأخرى ﴿ يدفع ﴾

فكمال الدفع والمدافعة بحسب قوة الايمان وضعفه ، وإذا صارت النفس حرة طيبة مطمئنة غنية بما أغناها به مالكها وفاطرها من النور الذى وقع فى القلب ففاض منه اليها استقامت بذلك الغنى على الأمر الموهوب ، وسلمت به عن الأمر المسخوط ، وبرئت من المراءاة . ومدار ذلك كله على الاستقامة باطنا وظاهرا ، ولهذا كان الدين كله فى قوله تعالى (هود ١١٢) : ﴿ فاسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ ﴾ وقال سبحانه (الاحقاف ١٣) : ﴿ انَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنا اللهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون ﴾

فصل فيما يغنى القلب ويسدُّ الفاقة

وهذه الاستقامة ترقيها الى الدرجة الثالثة من الغنى ، وهو الغنى بالحق تبارك وتعالى عن كل ما سواه ، وهى أعلى درجات الغنى . فأول هذه الدرجة أن تشهد ذكر الله عز وجل إياك قبل ذكرك له ، وأنه تعالى ذكرك فيمن ذكره من مخلوقاته ابتداء قبل وجودك وطاعتك وذكرك ، فقدر خلقك ورزقك وعملك وإحسانه اليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئا البتة ، وذكرك تعالى بالاسلام فوفقك له واختارك له دون من خذله قال تعالى (الحج ٧٨) : ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ فجعلك أهلا لما لم تكن أهلا له قط ، وإنما هو الذى أهلك بسابق ذكره ، فلولا ذكره لك بكل جميل أولا كه لم يكن لك اليه سبيل ، ومن الذى ذكرك باليقظة حتى استيقظت وغيرك فى رقدة الغفلة مع النوام؟ ومن الذى ذكرك سواه بالتوبة حتى وفقك لها ، وأوقعها فى قلبك ، وبعث دواعيك ، وأحيى عزماتك الصادقة عليها ، حتى ثُبتَ اليه وأقبلت عليه ، فذقت حلاوة التوبة وبردها ولذتها ؟ ومن الذى ذكرك سواه بمحبته حتى هاجت من قلبك لواعجها ، وتوجهتْ نحوه سبحانه ركائبها ، وعمر قلبك بمحبته بعد طول الخراب ، وآنسك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب ؟ ومن تقرب اليك أولا حتى تقربت اليه ، ثم أثابك على هذا التقرب تقربا آخر فصار التقرب منك محفوفا بتقربين منه تعالى : تقرب قبله وتقرب بعده ، والحب منك محفوفا بحبين منه : حب قبله وحب بعده ، والذكر منك محفوفا بذكرين : ذكر قبله وذكر بعده ، فلولا سابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء ، ولا وصل الى قلبك ذرة مما وصل اليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه

ورجائه والتوكل عليه والانابة اليه والتقرب اليه ، فهذه كلها آثار ذكره لك . ثم إنه سبحانه ذكرك بنعمه المترادفة المتواصلة بعدد الأنفاس ، فله عليك فى كل طرفة عين ونفس نعم عديدة ذكرك بها قبل وجودك ، وتعرف بها اليك وتحبب بها اليك مع غناه التام عنك وعن كل شيء ، وإنما ذلك مجرد إحسانه وفضله وجوده ، إذ هو الجواد المفضل المحسن لذاته لا لمعاوضة ولا لطلب جزاء منك ولا لحاجة دعته الى ذلك ، كيف وهو الغنى الحميد ، فاذا وصل اليك أدنى نعمة منه فاعلم أنه ذكرك بها ، فلتعظم عندك لذكره لك بها ، فانه ما حقرك من ذكرك باحسانه وابتدأك بمعروفه وتحبب اليك بنعمته ، هذا كله مع غناه عنك

فاذا شهد العبد ذكر ربه تعالى له ووصل شاهده الى قلبه شغله ذلك عما سواه ، وحصل لقلبه به غنى عال لا يشبهه شيء ، وهذا كما يحصل للمملوك الذى لا يزال أستاذه وسيده يذكره ولا ينساه ، فهو يحصل له ـ بشعوره بذكر أستاذه له ـ غنى زائد على إنعام سيده عليه وعطاياه السنية له ، فهذا هو غنى ذكر الله للعبد . وقد قال ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى « مَنْ ذَكَرَنى فى نَفْسه ذَكَرْتُهُ فى نَفْسى ، ومَنْ ذَكَرَنى فى مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فى مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ » فهذا ذكر ثان بعد ذكر العبد لربه غير الذكر الأول الذى ذكره به حتى جعله ذاكرا ، وشعور العبد بكلا الذكرين يوجب له غنى زائدا على إنعام ربه عليه وعطاياه له ، وقد ذكرنا فى كتاب (الكلم الطيب والعمل الصالح) من فوائد الذكر استجلاب ذكر الله سبحانه لعبده ، وذكرنا قريبا من مائة فائدة تتعلق بالذكر كل فائدة منها لا نظير لها ، وهو كتاب عظيم النفع جدا . والمقصود أن شعور العبد وشهوده لذكر الله له يغنى قلبه ويسد فاقته ، وهذا بخلاف من نسوا الله فنسيهم ، فان الفقر من كل خير حاصل لهم ، وما يظنون أنه حاصل لهم من الغنى فهو من أكبر أسباب فقرهم

فصل فى بيان الدرجة الثانية من درجات الغنىْ بالله عزَّ وجلّ

الدرجة الثانية من درجات الغنى بالله عز وجل دوام شهود أوّليته سبحانه ، وهذا الشهود عند أرباب السلوك أعلى مما قبله ، والغنى به أتم من الغنى المذكور ، لأنه من

مبادى الغنى بالحقيقة ، لأن العبد اذا فتح الله لقلبه شهود أوليته سبحانه حيث كان ولا شىء غيره وهو الإله الحق الكامل فى أسمائه وصفاته ، الغنىّ بذاته عما سواه ، الحميد بذاته قبل أن يخلق من يحمده ويعبده ويمجده ، فهو معبود محمود حى قيوم له الملك وله الحمد فى الأزل والأبد ، لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الجلال ، منعوتا بنعوت الكمال ، وكل شىء سواه فانما كان به ، وهو سبحانه بنفسه ليس بغيره ، فهو القيوم الذى قيام كل شىء به ، ولا حاجة به فى قيوميته الى غيره بوجه من الوجوه . فاذا شهد العبد سبقه تعالى بالأولية ودوام وجوده الحق وغاب بهذا عما سواه من المحدثات فنى فى وجوده من لم يكن وبقى من لم يزل ، واضمحلت الممكنات فى وجوده الأزلى الدائم بحيث صارت كالظلال التى يبسطها ويمدها ويقبضها ، فيستغنى العبد بهذا المشهد العظيم ويتغذى به عن فاقاته وحاجاته . وإنما كان هذا عندهم أفضل مما قبله لأن الشهود الذى قبله فيه شائبة مشيرة الى وجود العبد ، وهذا الشهود الثانى سائر الموجودات كلها سوى الأول تعالى قد اضمحلت وفنيت فيه ، وصارت كأوليتها وهو العدم ، فافنتها أولية الحق سبحانه ، فبقى العبد محوا صرفا وعدما محضا ، وإن كانت انيته مشخصة مشارا اليها ، لكنها لما نسبت الى أولية الحق عز وجل اضمحلت وفنيت وبقى الواحد الحق الذى لم يزل باقيا ، فاضمحل ما دون الحق تعالى فى شهود العبد كما هو مضمحل فى نفسه ، وشهد العبد حينئذ أن كل شىء ما سواه باطل ، وأن الحق المبين هو الله وحده . ولا ريب أن الغنى بهذا الشهود أتم من الغنى بالذى قبله ، وليس هذا مختصا بشهود أوليته تعالى فقط بل جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه يستغنى العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها . فمن شهد مشهد علو الله على خلقه وفوقيته لعباده واستواءه على عرشه كما أخبر به أعرف الخلق وأعلمهم به الصادق المصدوق ، وتعبد بمقتضى هذه الصفة بحيث يصير لقلبه صمد يعرج القلب اليه مناجيا له مطرقا واقفا بين يديه وقوف العبد الذليل بين يدى الملك العزيز ، فيشعر بأن كلمه وعمله صاعد اليه معروض عليه مع أوفى خاصته وأوليائه ، فيستحى أن يصعد اليه من كلمه ما يخزيه ويفضحه هناك ، ويشهد نزول الأمر والمراسيم الإلهية الى أقطار العوالم كل وقت بأنواع التدبير والمصرف ـ من الإماتة والإحياء والتولية والعزل والخفض والرفع والعطاء

والمنع وكشف البلاء وإرساله وتقلب الدول ومداولة الأيام بين الناس ـ الى غير ذلك من التصرفات فى المملكة التى لا يتصرف فيها سواه ، فمراسمه نافذة فيها كما يشاء ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّماءِ الى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كانَ مِقْدارُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّون ﴾ (السجدة ٥) فمن أعطى هذا المشهد حقه معرفة وعبودية استغنى به . وكذلك من شهد مشهد العلم المحيط الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السموات ولا فى قرار البحار ولا تحت أطباق الجبال بل أحاط بذلك علمه علما تفصيليا ثم تعبد بمقتضى هذا الشهود من حراسة خواطره وإرادته وجميع أحواله وعزماته وجوارحه علم أن حركاته الظاهرة والباطنة وخواطره وإرادته وجميع أحواله ظاهرة مكشوفة لديه علانية له بادية لا يخفى عليه منها شيء . وكذلك اذا أشعر قلبه صفة سمعه سبحانه لأصوات عباده على اختلافها وجهرها وخفائها ، وسواء عنده من أسرَّ القول ومن جهر به ، لا يشغله جهر من جهر عن سمعه لصوت من أسر ، ولا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه الأصوات على كثرتها واختلافها واجتماعها بل هى عنده كلها كصوت واحد ، كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة . وكذلك اذا شهد معنى اسمه البصير جل جلاله الذى يرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء فى حندس الظلماء ، ويرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة ومخها وعروقها ولحمها وحركتها ، ويرى مد البعوضة جناحها فى ظلمة الليل ، وأعطى هذا المشهد حقه من العبودية بحرس حركاتها وسكناتها وتيقن أنها بمرأى منه سبحانه ومشاهدة لا يغيب عنه منها شيء . وكذلك اذا شهد مشهد القيومية الجامع لصفات الأفعال وأنه قائم على كل شيء وقائم على كل نفس ، وأنه تعالى هو القائم بنفسه المقيم لغيره القائم عليه بتدبيره وربوبيته وقهره وإيصال جزاء المحسن اليه وجزاء المسيء اليه ، وأنه بكمال قيوميته لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل ، لا تأخذه سنة ولا نوم ولا يضل ولا ينسى . وهذا المشهد من أرفع مشاهد العارفين ، وهو مشهد الربوبية . وأعلى منه مشهد الإلهية الذى هو مشهد الرسل وأتباعهم الحنفاء ، وهو شهادة أن لا إله إلا هو ، وأن إلهية ما سواه باطل ومحال ، كما أن ربوبية ما سواه كذلك ، فلا أحد سواه يستحق أن يؤله ويعبد ، ويصلى له ويسجد ، ويستحق نهاية الحب مع

نهاية الذل لكمال أسمائه وصفاته وأفعاله ، فهو المطاع وحده على الحقيقة ، والمألوه وحده ، وله الحكم وحده ، فكل عبودية لغيره باطلة وعناء وضلال ، وكل محبة لغيره عذاب لصاحبها ، وكل غنى لغيره فقر وفاقة ، وكل عز بغيره ذل وصغار ، وكل تكثر بغيره قلة وذلة ، فكما استحال أن يكون للخلق رب غيره فكذلك استحال أن يكون لهم إله غيره ، فهو الذى انتهت اليه الرغبات وتوجهت نحوه الطلبات ، ويستحيل أن يكون معه إله آخر ، فان الإله على الحقيقة هو الغنى الصمد الكامل فى أسمائه وصفاته ، الذى حاجة كل أحد اليه ولا حاجة به الى أحد ، وقيام كل شىء به وليس قيامه بغيره ، ومن المحال أن يحصل فى الوجود اثنان كذلك ، ولو كان فى الوجود إلهان لفسد نظامه أعظم فساد واختل أعظم اختلال ، كما يستحيل أن يكون له فاعلان متساويان كل منهما مستقل بالفعل ، فان استقلالهما ينافى استقلالهما واستقلال أحدهما يمنع ربوبية الآخر ، فتوحيد الربوبية أعظم دليل على توحيد الإلهية ، ولذلك وقع الاحتجاج به فى القرآن أكثر مما وقع بغيره ، لصحة دلالته وظهورها وقبول العقول والفطر لها ، ولاعتراف أهل الأرض بتوحيد الربوبية ، وكذلك كان عباد الأصنام يقرون به وينكرون توحيد الالهية ويقولون ﴿ أجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴾ (ص ٥) مع اعترافهم بأن الله وحده هو الخالق لهم وللسموات والأرض وما بينهما ، وأنه المنفرد بملك ذلك كله ، فأرسل الله تعالى يذكر بما فى فطرهم الإقرار به من توحيده وحده لا شريك له ، وأنهم لو رجعوا الى فطرهم وعقولهم لدلتهم على امتناع إله آخر معه واستحالته وبطلانه ، فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء ، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات ، وحظ العباد منه بحسب حظهم من معرفة الأسماء والصفات ، ولذلك كان الاسم الدال على هذا المعنى هو اسم الله جل جلاله ، فان هذا الاسم هو الجامع ، ولهذا تضاف الأسماء الحسنى كلها اليه فيقال : الرحمن الرحيم العزيز الغفار القهار من أسماء الله ، ولا يقال : الله من أسماء الرحمن ، قال الله تعالى (الاعراف ١٨٠) : ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ ، فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها ، وكل مشهد سواه فانما هو مشهد لصفة من صفاته ، فمن اتسع قلبه لمشهد الإلهية وقام بحقه من التعبد الذى هو كمال الحب بكمال الذل والتعظيم والقيام بوظائف العبودية ، فقد تم له غناه بالاله الحق ، وصار من أغنى العباد ، ولسان حال مثل

هذا يقول :

غنيت بلا مال عن النـاس كلهم وان الغنى العالى عن الشيء لا به

فيا له من غنى ما أعظم خطره وأجل قدره ، تضاءلت دونه الممالك فما دونها ، وصارت بالنسبة اليه كالظل من الحامل له ، والطيف الموافى فى المنام الذى يأتى به حديث النفس ويطرده الانتباه من النوم

فصل فى بيان الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالربّ

الدرجة الثالثة من درجات الغنى بالرب سبحانه الفوز بوجوده ، هذا الغنى أعلى درجات الغنى ، لأن الغنى الأول والثانى كانا من آثار ذكر الله والتوجه ، ففاض على القلب من صدق التوجه أنوار الصفات المقدسة ، واستغنى القلب بذلك ، وجعل له أيضا أنوار الشعور بكفالته وكفايته لعبده وحسن وكالته وقيوميته بتدبيره وحسن تدبيره فاستغنت النفس بذلك أيضا . وأما هذا الغنى الثالث ـ الذى هو الغنى بالحق ـ فهو من آثار وجود الحقيقة ، وهو إنما يكون بعد ترقيه من آثار الصفات إلى آثار وجود الذات ، وإنما يكون هـذا الوجود بعد مكاشفة عين اليقين عندما يطلع فجر التوحيد ، فهذا أوله وكماله عند طلوع شمسه فينقطع ضباب الوجود الفانى وتشرق شمس الوجود الباقى فينقطع لها كل ضباب ، وهذا عبارة عن نور يقذف فى القلب يكشف له بذلك النور عن عظمة الذات كما كشف له بالنور الذى قبله عن عظمة الصفات ، فاذا كان أثر من آثار صفات الذات أو صفات الأفعال يغنى القلب والنفس فما ظنك بما تـكاشف به الأرواح من أنوار قدس الذات المتصفة بالجلال والإكرام ، فهذا غنى لا يناله الوصف ولا يدخـــل تحت الشرح فيستغنى العبد الفقير بوجود سيده العزيز الرحيم ، فيالك من فقر ينقضى ومن غنى يدوم ومن عيش ألذ من المنى ، فلا تستعجز نفسك عن البلوغ الى هذا المقام فبينك وبينه صدق الطلب ، وانما هى عزمة صادقة ونهضة حر ممن لنفسه عنده قدر وقيمة يغار عليها أن يبيعها بالدون ، وقد جاء فى أثر إلهى يقول الله عز وجل : « ابنَ آدمَ خَلَقْتُكَ لِنَفْسِي فَلَا تَلْعَبْ ، وَتَـكَفَّلْتُ بِرِزْقِكَ فَلَا تَتْعَبْ . ابْنَ آدمَ اطْلُبْنِي تَجِدْنِي ، فانْ وَجَدْتَـنِي وَجَدْتَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَانْ فُتُّكَ فاتَكَ

كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَنا أَحَبُّ اَلَيْكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » فمن طلب الله بصدق وجده ، ومن وجده أغناه وجوده عن كل شيء ، فأصبح حراً في غنى ومهابة على وجهه أنواره وضياؤه ، وإن فاته مولاه جل جلاله تباعد ما يرجو وطال عناؤه ، ومن وصل الى هذا الغنى قرت به كل عين ، لأنه قد قرت عينه بالله والفوز بوجوده ، ومن لم يصل اليه تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، وقد قال ﷺ : « مَن أصبحَ والدُّنيا أكبرُ همِّه جعلَ اللهُ فقرَه بينَ عَيْنَيْه وشَتَّتَ عليه شَمْلَهُ ولم يأته منَ الدُّنيا إلاَّ ما قُدِّرَ له ، ومَن أصبحَ والآخرةُ أكبرُ همِّه جعلَ اللهُ غِناهُ في قلبه ، وجمعَ عليه شملَه ، وأتته الدُّنيا وهي راغِمة ، وكان اللهُ بكلِّ خيرٍ اليه أسْرَع » . فهذا هو الفقر الحقيقي والغنى الحقيقي ، وإذا كان هذا غنى من كانت الآخرة أكبر همه فكيف من كان الله سبحانه أكبر همه ، فهذا من باب التنبيه والأولى

فصل في ذكر كلمات عن أرباب الطريق في الفقر والغنى

قال يحيى بن معاذ : الفقر أن لا تستغني بشيء غير الله ، ورسمه عدم الاسباب كلها . قلت : يريد عدمها في الاعتماد عليها والطمأنينة بها ، بل تصير عدما بالنسبة الى سبق مسببها بالأولية ، وتفرده بالازلية . وسئل محمد بن عبد الله الفرغاني عن الافتقار الى الله سبحانه والاستغناء به فقال : اذا صح الافتقار الى الله تعالى صح الاستغناء به ، واذا صح الاستغناء به صح الافتقار اليه ، فلا يقال أيهما أكمل لأنه لا يتم أحدهما الا بالآخر . قلت : الاستغناء بالله هو عين الفقر اليه ، وهما عبارتان عن معنى واحد ، لأن كمال الغنى به هو كمال عبوديته ، وحقيقة العبودية كمال الافتقار اليه من كل وجه ، وهذا الافتقار هو عين الغنى به ، فليس هنا شيئان يطلب تفضيل أحدهما على الآخر ، وانما يتوهم كونهما شيئين بحسب المستغنى عنه والمفتقر اليه ، فهي حقيقة واحدة ومقام واحد يسمى « غنى » بالنسبة الى فراغه عن الموجودات الفانية ، و « فقرا » بالنسبة الى قصر همته وجمعها على الله سبحانه وتعالى ، فهي همة سافرت عن شيء واتصلت بغيره ، فسفرها عن الغير غنى ، وسفرها الى الله فقر ، فاذا وصلت اليه استغنت به بكمال فقرها اليه ، اذ يصير لها بعد الوصول فقر آخر غير فقرها الأول ، وانما يكمل فقرها بهذا الوصول . وسئل رويم عن الفقر فقال : إرسال النفس في أحكام الله تعالى . قلت : إن

أراد الحكم الدينى فصحيح ، وإن أراد الحكم الكونى القدرى فلا يصح هذا الاطلاق بل لا بد فيه من التفصيل كما تقدم بيانه . وإرسال النفس فى أحـــكامه التى يسخطها ويبغضها ، وارسالها فى أحكامه التى يجب منازعتها ومدافعتها بأحكامه خروج عن العبودية . وقيل نعت الفقير ثلاثة أشياء : حفظ سره ، وأداء فرضه ، وصيانة فقره . قلت : حفظ السر كتمانه صيانة له من الأغيار ، وغيرة عليه أن ينكشف لمن لا يعرفه ولا يؤمن عليه . واداء الفرض قيام بحق العبودية . وصيانة الفقر حفظه عن لوث مساكنة الأغيار ، وحفظه عن كل سبب يفسده وكتمانه ما استطاع . وقال ابراهيم بن أدهم : طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى ، وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر . وسئل يحيى بن معاذ عن الغنى فقال : هو الأمن بالله عز وجل . وسئل أبو حفص : بما ذا ينبغى أن يقدم الفقير على ربه ؟ فقال : ما ينبغى للفقير أن يقدم على ربه بشئ سوى فقره . وقال بعضهم : ان الفقير الصادق ليخشى من الغنى حذرا أن يدخله فيفسد عليه فقره ، كما يخشى الغنى الحريص من الفقر أن يدخله فيفسد عليه غناه . وقال بشر بن الحارث : أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر الى القبر . قلت ومن ههنا قال القائل :

قالوا : غدا العيد ماذا أنت لابسه ؟ فقلت : خلعة ساق حبه جرعا
فقر وصـــبر هما ثوبان تحتهما قلب يرى ألفة الأعياد والجمعا
الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى والعيد مادمت لى مرأى ومستمعا

وسئل ابن الجلاء : متى يستحق الفقير اسم الفقر ؟ فقال : اذا لم يبق عليه بقية منه . فقيل له : كيف ذلك ؟ فقال : اذا كان له فليس له ، واذا لم يكن له فهو له . قلت : معنى هذا أنه لا يبقى عليه بقية من نفسه ، فاذا كان لنفسه فليس لها ، بل قد أضاع حقها وضيع سعادتها وكمالها . وإذا لم يكن لنفسه بل كان كله لربه فقد أحرز كل حظ له وحصل لنفسه سعادتها ، فانه اذا كان لله كان الله له ، واذا لم يكن لله لم يكن الله له فكيف تكون نفسه له ؟ فهذا من الذين خسروا أنفسهم . وقيل : حقيقة الفقر أن لا يستغنى الفقير فى فقره بشئ إلا بمن اليه فقره . وقال أبو حفص : أحسن ما توسل به العبد الى مولاه دوام الفقر اليه على جميع الأحوال ، وملازمة السنة فى جميع الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال . وقال بعضهم : ينبغى للفقير أن لا تسبق همته خطوته . قلت :

يشير الى تعلق همته بواجب وقته ، وأنه لا تتخطى همته واجب الوقت قبل إكماله . وأيضا يشير الى قصر أمله ، وأن همته غير متعلقة بوقت لا يحدّث نفسه ببلوغه . وأيضا يشير الى جمع الهمة على حفظ الوقت ، ولا يضعفها بتقسيمها على الأوقات . وقيل : أقل ما يلزم الفقير فى فقره أربعة أشياء : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، ويقين يحمله ، وذكر يؤنسه . وقال أبو سهل الخشاب لمنصور المغربى : إنما هو فقر وذل . فقال منصور : بل فقر وعز . فقال أبو سهل : فقر وثرى . فقال منصور : بل فقر وعرش . قلت : أشار أبو سهل الى البداية ومنصور الى الغاية . وقال الجنيد : إذا لقيت الفقير فالقه بالرفق ولا تلقه بالعلم ، فان الرفق يؤنسه والعلم يوحشه . فقلت : يا أبا القاسم ، كيف يكون فقير يوحشه العلم ؟ فقال : نعم ، الفقير اذا كان صادقا فى فقره فطرحت عليه العلم ذاب كما يذوب الرصاص فى النار . وقال المظفر القرميسينى : الفقير هو الذى لا يكون له الى الله حاجة . قال أبو القاسم القشيرى : وهذا اللفظ فيه أدنى غموض على من سمعه على وصف الغفلة عن مرمى القوم ، وإنما أشار قائله الى سقوط المطالبات ، وانتفاء الاختيارات ، والرضى بما يجريه الحق سبحانه . قلت : وبعد فهو كلام مستدرك خطأ ، فان حاجات هذا العبد الى الله بعدد الأنفاس إذ حاجاته ليست كحاجات غيره من أصحاب الحظوظ والأقسام ، بل حاجات هؤلاء فى حاجة هذا العبد كتفلة فى بحر ، فان حاجته الى الله فى كل طرفة عين أن يحفظ عليه حاله ويثبت قلبه ويرقيه فى مقامات العبودية ويصرف عنه ما يفسدها عليه ويعرفه منازل الطريق ومكامنها وأوقاتها ويعرفه مواقع رضاه ليفعلها ويعزم عليها ومواقع سخطه ليعزم على تركها ويجتنبها ، فأى حاجات أكثر وأعظم من هذه ؟ فالصواب أن يقال : الفقير هو الذى حاجاته الى الله بعدد أنفاسه أو أكثر ، فالعبد له فى كل نفس ولحظة وطرفة عين عدة حوائج الى الله لا يشعر بكثير منها ، فأفقر الناس الى الله من شعر بهذه الحاجات وطلبها من معدنها بطريقها ، وان كان لا بد من اطلاق تلك العبارة على أن منها كل بد فيقال : هو الذى لا حاجة له الى الله تخالف مرضاته وتحطه عن مقام العبودية الى منزلة الاستغناء ، وأما أن يقال : لا حاجة له الى الله ، فشطح قبيح . وأما حمل أبى القاسم لكلامه على إسقاط المطالبات وانتفاء الاختيار والرضى بمجارى الأقدار فانما يحسن فى

بعض الحالات ، وهو فى القدر الذى يجرى عليه بغير اختياره ولا يكون مأموراً بدفعه ومنازعته بقدر آخر كما تقدم . وأما اذا كان مأمورا بدفعه ومنازعته بقدر هو أحب الى الله منه ـ وهو مأمور به أمر إيجاب أو استحباب ـ فاسقاط المطالبات وانتفاء الاختيار فيه والسعى عين العجز ، والله سبحانه يلوم على العجز . وقال ابن خفيف : الفقر عدم الاملاك ، والخروج عن أحكام الصفات . قلت : يريد عدم إضافة شىء اليه إضافة ملك ، وأن يخرج عن أحكام صفات نفسه ويبدلها بأحكام صفات مالكه وسيده ، مثاله أن يخرج عن حكم صفة قدرته واختياره التى توجب له دعوى الملك والتصرف والاضافات ويبقى بأحكام صفة القدرة الأزلية التى توجب له العجز والفقر والفاقة ، كما فى دعاء الاستخارة « اللهم إنى استخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فانك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب » فهذا اتصاف بأحكام الصفات العلى فى العبد ، وخروج عن أحكام صفات النفس . وقال أبو حفص : لا يصح لأحد الفقر حتى يكون العطاء أحب اليه من الأخذ ، وليس السخاء أن يعطى الواجدُ المعدمَ ، وإنما السخاء أن يعطى المعدمُ الواجدَ . وقال بعضهم : الفقير الذى لا يرى لنفسه حاجة الى شىء من الأشياء سوى ربه تبارك وتعالى . وسئل سهل ابن عبد الله : متى يستريح الفقير ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذى هو فيه . وقال أبو بكر بن طاهر : من حكم الفقير أن لا يكون له رغبة ، وإن كان لا بد فلا تجاوز رغبته كفايته . وسئل بعضهم عن الفقير الصادق فقال : الذى لا يَملك ولا يُملك . وقال ذو النون : دوام الفقر الى الله مع التخليط أحب الىّ من دوام الصفاء مع العجب والله أعلم

فصل فى تحقيق نعت الفقير

فجملة نعت الفقير حقا أنه المتخلى من الدنيا تطرفا ، والمتجافى عنها تعففا . لا يستغنى بها تكثرا ، ولا يستكثر منها تملكا . وان كان مالكا لها بهذا الشرط لم تضره ، بل هو فقير غناه فى فقره ، وغنىّ فقره فى غناه . ومن نعته أيضا أن يكون فقيرا من حاله وهو خروجه عن الحال تبريا ، وترك الالتفات اليه تسليا ، وترك مساكنة الأحوال

والرجوع عن موافقتها ، فلا يستغنى بها اعتمادا عليها ولا يفتقر اليها مساكنة لها . ومن نعته أنه يعمل على موافقة الله فى الصبر والرضى والتوكل والانابة ، فهو عامل على مراد الله منه لا على موافقة هواه وهو تحصيل مراده من الله ، فالفقير خالص بكليته لله سبحانه ، ليس لنفسه ولا لهواه فى أحواله حظ ونصيب ، بل عمله بقيام شاهد الحق وفناء شاهد نفسه ، قد غيبه شاهد الحق عن شاهد نفسه ، فهو يريد الله بمراد الله ، فعوّله على الله ، وهمته لا تقف دون شيء سواه ، قد فنى بحبه عن حب ما سواه وبأمره عن هواه وبحسن اختياره له عن اختياره لنفسه ، فهو فى واد والناس فى واد ، خاضع متواضع سليم القلب ، سلس القياد للحق ، سريع القلب الى ذكر الله ، برىء من الدعاوى لا يدعى بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله ، زاهد فى كل ما سوى الله ، راغب فى كل ما يقرب الى الله ، قريب من الناس أبعد شيء منهم ، يأنس بما يستوحشون منه ، ويستوحش مما يأنسون به ، منفرد فى طريق طلبه ، لا تقيده الرسوم ولا تملكه الفوائد ، ولا يفرح بموجود ولا يأسف على مفقود ، من جالسه قرت عينه به ومن رآه ذكرته رؤيته بالله سبحانه ، قد حمل كله ومؤنته عن الناس ، واحتمل أذاهم وكف أذاه عنهم ، وبذل لهم نصيحته وسبل لهم عرضه ونفسه لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز ، لا يدخل فيما لا يعنيه ولا يبخل بما لا ينقصه ، وصفه الصدق والعفة والايثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال ، لا يتوقع لما يبذله للناس عوضا منهم ولا مدحة ، لا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يرى له على أحد حقا ولا يرى له على أحد فضلا ، مقبل على شانه مكرم لاخوانه بخيل بزمانه حافظ للسانه ، مسافر فى ليله ونهاره ويقظته ومنامه ، لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل الى مطلبه ، قد رفع له علم الحب فشمر اليه ، وناداه داعى الاشتياق فأقبل بكليته عليه ، أجاب منادى المحبة إذ دعاه حى على الفلاح ، ووصل السرى فى بيداء الطلب فحمد عند الوصول سراه ، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح :

فحىَّ على جنات عدن فانها ... منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبى العدو ، فهل ترى ... نعود الى أوطاننا ونسلم
وحىَّ على روضاتها وخيامها ... وحى على عيش بها ليس يسأم

وحى على يوم المزيد وموعد الـ ... محبين ، طوبى للذى هو منهم
وحى على واد بها هو أفيح ... وتربتـه من أذفر المسك أعظم
ومن حولها كثبان مسك مقاعد ... لمن دونهم هـذا الفخار المعظم
يرون به الرحمن جل جـلاله ... كرؤية بدر التم لا يتـوهم
أو الشمس صحوا ليس من دون أفقها ... ضباب ولا غـيم هنـاك يغيم
وبينـا هم فى عيشهم وسرورهم ... وأرزاقهم تجرى عليهـم وتقسم
اذا هم بنور ساطع قد بدا لهم ... فقيل ارفعوا أبصاركم ، فاذا هم
بربهم من فوقهم وهو قائل : ... سـلام عليـكم طبتم وسلمتم
فيا عجبا ، ما عذر من هو مؤمن ... بهـذا ولا يسعى له ويقـدم
فبادر اذا ما دام فى العمر فسحة ... وعدلك مقبول وصرفك قيم
فما فرحت بالوصـل نفس مهينة ... ولا فاز قلب بالبطالة ينعم
فجِدَّ وسارع واغتنم ساعة السرى ... ففى زمن الامـكان تسعى وتغنم
وسر مسرعا فالسير خلفك مسرع ... وهيهات ما منه مفر ومهزم
فهن المنـايا أىُّ واد نزلتـه ... عليها قدوم أو عليـك ستقدم
وإن تك قد عاقتك سعدى فقلبك الـ ... معنى رهين فى يديهـا مسلم
وقد ساعدت بالوصل غيرك فالهوى ... لهـا منك والواشى بها يتنعم
فدعها وسلِّ النفس عنها بجنة ... من الفقر فى روضاتها الدر يبسم
ومن تحتها الأنهار تخفق دائما ... وطـير الأمانى فوقهـا يـترنم
وقد ذللت منها القطوف فمن يرد ... جناها ينله كيف شاء وينعم
وقد فتحـت أبوابهـا وتزينت ... لخطـابهـا فالحسن فيهـا مقسم
أقام على أبوابها داعىَ الهدى ... هلموا الى دار السعـادة تغنموا
وقد طاب منها نزلها ومقيلهـا ... فطوبى لمن حـلوا بها وتنعموا
وقد غرس الرحمن فيها غراسـه ... من الناس ، والرحمن بالغرس أعلم
فمن كان من غـرس الاله فانه ... سـعيد وإلا فالشـقا متحتم
فيـامسرعين السـير بالله ربكم ... قفوا بى على تلك الربوع وسلموا
وقولوا : محب قاده الشوق نحوكم ... قضى نحبه فيـكم تعيشوا وتسلموا
قضى الله رب العـالمين قضية ... بأن الهوى يعمى القلوب ويبكم
وحبـكم أصل الهدى ومداره ... عليـه وفوز للمحب ومغنم

وتفنى عظام الصب بعد مماته ... وأشواقه وقف عليه محرم
فيا أيها القلب الذى ملك الهوى ... أعنته ، حتام هذا التلوم
وحتام لا تصحو وقد قرب المدى ... ودقت كئوس السير والناس نوم
بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطا ... ويبدو لك الأمر الذى كنت تكتم
ويا موقدا نارا لغيرك ضوؤها ... وحر لظاها بين جنبيك يضرم
أهذا جنى العلم الذى قد غرسته ... وهذا الذى قد كنت ترجوه تطعم
وهذا هو الحظ الذى قد رضيته ... لنفسك فى الدارين لو كنت تفهم
وهذا هو الربح الذى قد كسبته ... لعمرك لا ربح ولا الأصل يسلم
بخلت بشىء لا يضرك بذله ... وجدت بشىء مثله لا يقوم
وبعت نعيما لا انقضاء له ولا ... نظير ببخس عن قليل سيعدم
فهلا عكست الأمر ان كنت حازما ... ولكن أضعت الحزم ان كنت تعلم
وتهدم ما تبنى بكفك جاهدا ... فأنت مدى الأيام تبنى وتهدم
وعند مراد الحق تفنى كميت ... وعند مراد النفس تسدى وتلحم
وعند خلاف الأمر تحتج بالقضا ... ظهيرا على الرحمن للجبر تزعم
تنزه تلك النفس عن سوء فعلها ... وتعتاب أقدار الإله وتظلم
وتزعم مع هذا بأنك عارف ... كذبت يقينا فى الذى أنت تزعم
وما أنت إلا جاهل ثم ظالم ... وانك بين الجاهلين مقدم
اذا كان هذا نصح عبد لنفسه ... فمن ذا الذى منه الهدى يتعلم
وفى مثل هذا كان قد قال من مضى ... وأحسن فيما قاله المتكلم :
فان كنت لا تدرى فتلك مصيبة ... وان كنت تدرى فالمصيبة أعظم
ولو تبصر الدنيا وراء ستورها ... رأيت خيالا فى منام سيصرم
كحلم بطيف زار فى النوم وانقضى الـ ... منام وراح الطيف والصب مغرم
وظل أرته الشمس عند طلوعها ... سيقلص فى وقت الزوال ويفصم
ومزنة صيف طاب منها مقيلها ... فولت سريعا والحرور تضرم
تجزها ممرا لا مقرا ، وكن بها ... غريبا تعش فيها حميدا وتسلم
أو ابن سبيل قال فى ظل دوحة ... وراح وخلى ظلها يتقسم
أخا سفر لا يستقر قراره ... الى أن يرى أوطانه ويسلم
فيا عجبا كم مصرع عطبوا به ... بنوها ولكن عن مصارعها عموا

سقتهم بكأس الحب حتى اذا انثنوا   سقتهم كئوس السم والقوم قد ظموا
واعجب ما فى العبد رؤية هذه الـ   عظائم منها وهو فيها متيم
واعجب من ذا أن أحبابها الألى   تهين وللاعدا تراعى وتكرم
وذلك برهان على أن قدرها   جناح بعوض أو أدق وألأم
وحسبك ما قال الرسول ممثلا   لها ولدار الخلد والحق يفهم :
كما يدخل الانسان فى اليم إصبعا   وينزعها منه فما ذاك يغنم
ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة   على حذر منها وأمرى محكم
وهل أردن ماء الحياة وأرتوى   على ظمأ من حوضه وهو مفعم
وهل تبدون أعلامهم بعد ما سفت   عليها السوافى تستبين وتعلم
وهل أفرشن خدى ثرى عتباتهم   خضوعا لهم كيما يرقوا ويرحموا
وهل أرين نفسى طريحا ببابهم   وطير أمانى الحب فوقى تحوّم
فوا أسفى ، تفنى الحياة وتنقضى   وعتبكم باق ، بقيتم وعشتم
فما منكم بد ولا عنكم غنى   ومالى من صبر فأسلوَ عنكم
فمن شاء فليغضب سواكم فلا أذى   إذا كنتم عن عبدكم قد رضيتم
وعقبى اصطبارى فى رضاكم هوى لكم   حميد ولكنه عقاب ومغرم
وما أنا بالشاكى لما ترتضونه   ولكننى أرضى به وأسلم
وحسبى انتسابى من بعيد اليكم   وذلك حظ مثله يتيمم
إذا قيل هذا عبدهم ومحبهم   تهلل بشرا ضاحكا يتبسم
وها هو قد أبدى الضراعة قائلا   لكم بلسان الحال والحال يعلم :
أحبتنا عطفا علينا فاننا   بنا ظمأ ، والمورد العذب أنتم
فيا ساهيا فى غمرة الجهل والهوى   صريع الأمانى عن قليل ستندم
أفق قد دنا الوقت الذى ليس بعده   سوى جنة أو حر نار تضرم
وبالسنة الغراء كن متمسكا   هى العروة الوثقى التى ليس تفصم
تمسك بها مسك البخيل بماله   وعض عليها بالنواجذ تسلم
وإياك مما أحدث الناس بعدها   فمرتع هاتيك الحوادث أوخم
وهيىء جوابا عند ما تسمع الندا   من الله يوم العرض : ماذا أجبتم
به رسلى لما أتوكم ، فمن يجب   سواهم سيخزى عند ذاك ويندم
وخذ من تقى الرحمن أسبغ جنة   ليوم به تبدو عيانا جهنم

وينصب ذاك الجسر من فوق متنها ... فهاو ومخدوش وناج مسلم
ويأتى إله العالمين لوعده ... فيفصل ما بين العباد ويحكم
ويأخذ للمظلوم اذ ذاك حقه ... فياويح من قد كان للخلق يظلم
وينشر ديوان الحساب وتوضع الـ ... ـموازين بالقسط الذى ليس يظلم
فلا مجرم يخشى هناك ظلامة ... ولا محسن من أجره الذر يهضم
وتشهد أعضاء المسىء بما جنى ... لذاك على فيه المهيمن يختم
ويا ليت شعرى كيف حالك عندما ... تطاير كتب العالمين وتقسم
أتأخذ باليمنى كتابك أم ترى ... بيسراك خلف الظهر منك يسلم
وتقرأ فيه كل شىء عملته ... فيشرق منك الوجه أو هو يظلم
تقول كتابى هاؤمُ اقرأوه لى ... تبشر بالجنات حقا وتعلم
وان تكن الأخرى فانك قائل ... ألا ليتنى لم أوته فهو مغرم
فلا والذى شق القلوب وأودع الـ ... ـمحبة فيها حيث لا تتصرم
وحملها قلب المحب وإنه ... ليضعف عن حمل القميص ويألم
وذللها حتى استكانت لصولة الـ ... ـمحبة لا تلوى ولا تتلعثم
وذلل فيها أنفسا دون ذلها ... حياض المنايا فوقها هى حوم
لقد فاز أقوام وحازوا مرابحا ... بتركهم الدنيا والاقبال منهم
على ربهم طول الحياة وحبهم ... على نهج ما قد سنه فهم هم

قاعدة شريفة عظيمة القدر

حاجة العبد اليها أعظم من حاجته الى الطعام والشراب والنفس بل والى الروح التى بين جنبيه

اعلم أن كل حى سوى الله فهو فقير الى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، والمنفعة للحى من جنس النعيم ، واللذة والمضرة من جنس الألم والعذاب . فلا بد من أمرين : أحدهما هو المطلوب المقصود المحبوب الذى ينتفع به ويتلذذ به ، والثانى هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع لحصول المكروه والدافع له بعد وقوعه . فهاهنا أربعة أشياء : أمر محبوب مطلوب الوجود ، والثانى أمر مكروه مطلوب العدم ، والثالث الوسيلة الى حصول المحبوب ، والرابع الوسيلة الى دفع المكروه . فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد ، بل ولكل حى سوى الله ، لا يقوم صلاحه الا بها

اذا عرف هذا فالله سبحانه هو المطلوب المعبود المحبوب وحده لا شريك له ، وهو وحده المعين للعبد على حصول مطلوبه ، فلا معبود سواه ولا معين على المطلوب غيره ، وما سواه هو المكروه المطلوب بعده ، وهو المعين على دفعه ، فهو سبحانه الجامع للامور الأربعة دون ما سواه ، وهذا معنى قول العبد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ فان هذه العبادة تتضمن المقصود المطلوب على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذى يستعان به على حصول المطلوب ودفع المكروه . فالأول من مقتضى ألوهيته ، والثانى من مقتضى ربوبيته ، لأن الإله هو الذى يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالا وإكراما ، والرب هو الذى يرب عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه الى جميع أحواله ومصالحه التى بها كماله ، ويهديه الى اجتناب المفاسد التى بها فساده وهلاكه . وفى القرآن سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين : أحدها قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ ، الثانى قوله تعالى ﴿ عليه تَوَكَّلْتُ وإليهِ أُنِيب ﴾ ، الثالث قوله تعالى ﴿ فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عليه ﴾ ، الرابع قوله تعالى ﴿ عليكَ تَوَكَّلْنا واليكَ أَنَبْنا ﴾ ، الخامس قوله تعالى ﴿ وتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذى لا يموتُ وسَبِّحْ بِحَمْدِه ﴾ ، السادس قوله ﴿ عليه تَوَكَّلْتُ واليه مَتاب ﴾ ، السابع قوله ﴿ واذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ اليه تَبْتِيلا . رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ لا إلٰه إلاَّ هُوَ فاتَّخِذْهُ وَكِيلا ﴾ . ومما يقرر هذا أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والانابة اليه ومحبته والاخلاص له ، فبذكره تطمئن قلوبهم ، وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم ، ولا شىء يعطيهم فى الآخرة أحب اليهم من النظر اليه ، ولا شىء يعطيهم فى الدنيا أحب اليهم من الأيمان به ومحبتهم له ومعرفتهم به ، وحاجتهم اليه فى عبادتهم له وتألههم له كحاجتهم اليه بل أعظم فى خلقه وربوبيته لهم ورزقه لهم ، فان ذلك هو الغاية المقصودة التى بها سعادتهم وفوزهم ، وبها ولأجلها يصيرون عاملين متحركين ، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة ولا سرور بدون ذلك بحال ، فمن أعرض عن ذكر ربه فان له معيشة ضنكا ، ويحشره يوم القيامة أعمى ، ولهذا لا يغفر الله لمن يشرك به شيئا ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولهذا كانت « لا إله إلا الله » أفضل الحسنات . وكان توحيد الإلهية الذى كلمته لا إله إلا الله رأس الأمر ، فأما توحيد الربوبية الذى أقر به كل المخلوقات

فلا يكفى وحده وان كان لا بد منه ، وهو حجة على من أنكر توحيد الألوهية ، فحق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وحقهم عليه إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم وأن يكرمهم اذا قدموا عليه ، وهذا كما أنه غاية محبوب العبد ومطلوبه وبه سروره ولذته ونعيمه فهو أيضا محبوب الرب من عبده ومطلوبه الذى يرضى به ، ويفرح بتوبة عبده اذا رجع اليه والى عبوديته وطاعته أعظم من فرح من وجد راحلته التى عليها طعامه وشرابه فى أرض مهلكة بعد أن فقدها وأيس منها ، وهذا أعظم فرح يكون ، وكذلك العبد لا فرح له أعظم من فرحه بوجود ربه وأنسه به وطاعته له وإقباله عليه وطمأنينته بذكره وعمارة قلبه بمعرفته والشوق الى لقائه ، فليس فى الكائنات ما يسكن العبد اليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه اليه إلا الله سبحانه ، ومن عبد غيره وأحبه ـ وان حصل له نوع من اللذة والمودّة والسكون اليه والفرح والسرور بوجوده ـ ففساده به ومضرته وعطبه أعظم من فساد أكل الطعام المسموم اللذيذ الشهى الذى هو عذب فى مبدئه عذاب فى نهايته كما قال القائل :

مآرب كانت فى الشباب لأهلها عذابا ، فصارت فى المشيب عذابا

﴿ لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الانبياء ٢٢) ، فان قوام السموات والأرض والخليقة بأن تأله الإله الحق ، فلو كان فيهما إله آخر غير الله لم يكن إلها حقا ، اذ الإله الحق لا شريك له ولا سمىّ له ولا مثل له ، فلو تألهتْ غيره لفسدت كل الفساد بانتفاء ما به صلاحها ، اذ صلاحها بتأله الإله الحق ، كما أنها لا توجد الا باستنادها الى الرب الواحد القهار ، ويستحيل أن تستند فى وجودها الى ربين متكافئين ، فكذلك يستحيل أن تستند فى بقائها وصلاحها الى إلهين متساويين

اذا عرف هذا فاعلم أن حاجة العبد الى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا فى محبته ولا فى خوفه ولا فى رجائه ولا فى التوكل عليه ولا فى العمل له ولا فى الحلف به ولا فى النذر له ولا فى الخضوع له ولا فى التذلل والتعظيم والسجود والتقرب أعظم من حاجة الجسد الى روحه والعين الى نورها ، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به ، فان حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إلا بالهها الذى لا إله إلا هو ، فلا تطمئن فى

الدنيا إلا بذكره وهى كادحة اليه كدحا فملاقيته ، ولا بد لها من لقائه ، ولا صلاح لها الا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه واكرامه لها ، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك ، بل ينتقل من نوع الى نوع ومن شخص الى شخص ويتنعم بهـذا فى وقت ثم يعذب ولا بد فى وقت آخر ، وكثيرا ما يكون ذلك الذى يتنعم به ويلتذ به غير منعم له ولا ملذ ، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك ، وانما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجرب من لذة الأظفار التى تحكه ، فهى تدمى الجلد وتخرقه وتزيد فى ضرره ، وهو يؤثر ذلك لما له فى حكها من اللذة ، وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عـذاب عليه ومضرة وألم فى الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجرب ، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما ، والله الموفق المعين ، وله الحجة البالغة كما له النعمة السابغة . والمقصود أن إله العبد الذى لا بد له منه فى كل حالة وكل دقيقة وكل طرفة عين هو الإله الحق الذى كل ما سواه باطل ، والذى أينما كان فهو معه ، وضرورته وحاجته اليـه لا تشبهها ضرورة ولا حاجة بل هى فوق كل ضرورة وأعظم من كل حاجـة ، ولهذا قال إمام الحنفاء (الانعام ٧٦) : ﴿ لا أحبُّ الآفلين ﴾ . والله أعلم

فصل فى بيان أصلَين عظيمَين مبنىّ عليهما ما تقدم

وهذا مبنى على أصلين : (أحدهما) أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإخلاص العمل له وإفراده بالتوكل عليه هو غذاء الانسان وقوته وصلاحه وقوامه ، كما عليـه أهل الإيمان ، وكما دل عليه القرآن ، لا كما يقوله من يقول إن عبادته تـكليف ومشقة على خلاف مقصود القلب ولذته بل لمجرد الامتحان والابتلاء كما يقوله منكرو الحـكمة والتعليل ، أو لاجل التعويض بالاجر لما فى ايصاله اليه بدون معاوضة منـة تـكدره ، أو لاجل تهذيب النفس ورياضتها واستعدادها لقبول العقليات كما يقوله من يتقرب الى النبوات من الفلاسفة ، بل الأمر أعظم من ذلك كله وأجل ، بل أوامر المحبوب قرة العيون وسرور القلوب ونعيم الأرواح ولذات النفوس وبها كمال النعيم ، فقرة عين المحب فى الصلاة والحج ، وفرح قلبه وسروره ونعيمه فى ذلك وفى الصيام والذكر

والتلاوة ، وأما الصدقة فعجب من العجب ، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة الى الله والصبر على أعداء الله سبحانه ، فاللذة بذلك أمر آخر لا يناله الوصف ولا يدركه من ليس له نصيب منه ، وكل من كان به أقوم كان نصيبه من الالتذاذ به أعظم ، ومن غلظ فهمه وكثف طبعه عن إدراك هذا فليتأمل إقدام القوم على قتل آبائهم وأبنائهم وأحبابهم ومفارقة أوطانهم وبذل نحورهم لأعدائهم ومحبتهم للقتل وايثارهم له على البقاء وايثار لوم اللائمين وذم المخالفين على مدحهم وتعظيمهم ، ووقوع هذا من البشر بدون أمر يذوقه قلبه من حلاوته ولذته وسروره ونعيمه ممتنع ، والواقع شاهد بذلك ، بل ما قام بقلوبهم من اللذة والسرور والنعيم أعظم مما يقوم بقلب العاشق الذى يتحمل ما يتحمله فى موافقة رضى معشوقه ، فهو يلتذ به ويتنعم به لما يعلم من سرور معشوقه به

فيامنكرا هـذا تأخر فانه — حرام على الخفاش أن يبصر الشمسا

فمن كان مراده وجه الله ، وحياته فى معرفته ومحبته ، ونعيمه فى التوجه اليه وذكره ، وطمأنينته به وسكونه اليه وحده عرف هذا وأقر به

(الأصل الثانى) كمال النعيم فى الدار الآخرة أيضا به سبحانه : برؤيته وسماع كلامه وقربه ورضوانه ، لا كما يزعم من يزعم أنه لا لذة فى الآخرة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح ، بل اللذة والنعيم التام فى حظهم من الخالق تعالى أعظم مما يخطر بالبال أو يدور فى الخيال ، وفى دعاء النبى ﷺ الذى رواه الامام أحمد فى مسنده وابن حبان والحاكم فى صحيحيهما « أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ ، والشَّوْقَ الى لِقائِك ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ ، ولا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ » ولهذا قال تعالى فى حق الكفار (المطففين ١٥ – ١٦) : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُو الْجَحِيمِ ﴾ فعذاب الحجاب من أعظم أنواع العذاب الذى يعذب به أعداءه ، ولذة النظر الى وجه الله الكريم أعظم أنواع اللذات التى ينعم بها أولياءه ، ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم من رؤيته وسماع كلامه والدنو منه وقربه

وهذان الاصلان ثابتان بالكتاب والسنة ، وعليهما أهل العلم والإيمان ، ويتكلم

فيهما مشايخ الطريق العارفون ، وعليهما أهل السنة والجماعة ، وهما من فطرة الله التى فطر الناس عليها ، ويحتجون على من ينكرهما بالنصوص والآثار تارة وبالذوق والوجد تارة وبالفطرة تارة وبالقياس والامثال تارة . وقد ذكرنا بمجموع هذه الطرق فى كتابنا الكبير فى المحبة الذى سميناه (المورد الصافى ، والظل الضافى) فى المحبة وأقسامها وأنواعها وأحكامها وبيان تعلقها بالاله الحق دون ما سواه ، وذكرنا من ذلك ما يزيد على مائة وجه . ومما يوضح ذلك ويزيده تقريراً أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ، بل ربه سبحانه الذى خلقه ورزقه وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه وتحبب اليه بها مع غناه عنه ومع تبغض العبد اليه بالمعاصى مع فقره اليه ، فاذا مسه الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، واذا أصابه بنعمة فلا رادّ لها ولا مانع كما قال تعالى (يونس ١٠٧) : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ ، (فاطر ٢) : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا ، وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ . فالعبد لا ينفع ولا يضر ولا يعطى ولا يمنع إلا باذن الله ، فالأمر كله لله أولا وآخرا وظاهرا وباطنا ، هو مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء ، المتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخفض والرفع ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين . وهذا الوجه أعظم لعموم الناس من الوجه الأول ، ولهذا خوطبوا به فى القرآن أكثر من الأول ، لكن من تدبر طريقة القرآن تبين له أن الله سبحانه يدعو عباده بهذا الى الوجه الأول ، فهذا الوجه يقتضى التوكل على الله والاستعانة به والدعاء له ومسألته دون ما سواه ، ويقتضى أيضا محبته وعبادته لاحسانه الى عبده وإسباغ نعمه عليه ، فاذا عبده وأحبه وتوكل عليه من هذا الوجه دخل فى الوجه الأول . وهكذا من نزل به بلاء عظيم وفاقة شديدة أو خوف مقلق فجعل يدعو الله ويتضرع اليه حتى فتح له من لذيذ مناجاته له باب الايمان به والانابة اليه وما هو أحب اليه من تلك الحاجة التى قصدها أولا ، لكنه لم يكن يعرف ذلك أولا حتى يطلبه ويشتاق اليه ، فعرفه إياه بما أقامه له من الأسباب التى أوصلته اليه . والقرآن مملوء من ذكر حاجة العبيد الى الله دون ما سواه ومن ذكر

نعمائه عليهم ، ومن ذكر ما وعدهم به فى الآخرة من صنوف النعيم واللذات ، وليس عند المخلوق شيء من هذا . فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على احسانه . ومما يوضح ذلك ويقويه أن فى تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه اذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته المعينة له على عبودية الله ومحبته وتفريغ قلبه له ، فانه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجاته ضره أو أهلكه ، وكذلك من النكاح واللباس ، وإن أحب شيئا بحيث يخالله فلا بد أن يسأمه أو يفارقه ، فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد ، فان فقد تعذب بالفراق وتألم ، وان وجد فانه يحصل له من الالم اكثر مما يحصل له من اللذة . وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء أن كل من أحب شيئا دون الله لغير الله فان مضرته أكثر من منفعته وعذابه أعظم من نعيمه ، يزيد ذلك إيضاحا أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته ، فانه يخذل من تلك الجهة . وهذا أيضا معلوم بالاعتبار والاستقراء أنه ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ، ولا استنصر بغيره إلا خذل ، قال تعالى (مريم ٨١-٨٢) : ﴿ واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ وقال (يس ٧٤-٧٥) : ﴿ واتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴾

وقال عن إمام الحنفاء أنه قال للمشركين (العنكبوت ٢٥) : ﴿ إنَّما اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثانا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ﴾ ولما كان غاية صلاح العبد فى عبادة الله وحده واستعانته وحده كان فى عبادة غيره والاستعانة بغيره غاية مضرته . ومما يوضح الأمر فى ذلك ويبينه أن الله سبحانه غنى حميد كريم رحيم ، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه يريد به الخير ويكشف عنه الضر ، لا لجلب منفعة اليه سبحانه ولا لدفع مضرة ، بل رحمة وإحسانا وجوداً محضاً ، فانه رحيم لذاته محسن لذاته جواد لذاته كريم لذاته ، كما أنه غنى لذاته قادر لذاته حى لذاته ، فاحسانه وجوده وبره ورحمته من لوازم ذاته لا يكون إلا كذلك ، كما أن قدرته وغناه من لوازم ذاته فلا يكون إلا كذلك ، وأما

العباد فلا يتصور أن يحسنوا إلا لحظوظهم ، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ليجلبوا له منفعة ويدفعوا عنـه مضرة ، وذلك من تيسير الله وإذنه لهم به ، فهو فى الحقيقة ولى هذه النعمة ومسديها ومجريها على أيديهم ، ومع هذا فانهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد ، فانهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر ، فاذا أحبوا الأنبياء والأولياء فطلبوا لقاءهم فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك ، وكذلك من أحب إنسانا لشجاعته أو رياسته أو جماله أو كرمه فهو يحب أن ينال حظه من تلك المحبة ، ولولا التذاذه بها لما أحب ذلك ، وان جلبوا له منفعة أو دفعوا عنه مضرة ـ كمرض وعدو ـ ولو بالدعاء فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله ، فأجناد الملوك وعبيد المماليك وأجراء المستأجر وأعوان الرئيس كلهم انما يسعون فى نيل أغراضهم به ، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم الا أن يكون قد علم وهذب من جهة أخرى فيدخل ذلك فى الجهـة الدينية ، أو يكون فيه طبع عدل واحسان من باب المكافأة والرحمة ، والا فالمقصود بالقصد الاول هو منفعة نفسه ، وهذا من حكمة الله التى أقام بهـا مصالح خلقه اذ قسم بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا

فصل فى بيان منفعة الحقّ ، ومنفعة الخلق ، وما بينهما من التباين

اذا تبين هذا ظهر أن أحداً من المخلوقين لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ، بل انما يقصد منفعته بك ، وقد يكون عليك فى ذلك ضرر اذا لم يراع المحب العـدل ، فاذا دعوته فقـد دعوت من ضرّه أقرب من نفعه . وأما الرب سبحانه فهو يريدك لك ولمنفعتك لا لينتفع بك ، وذلك منفعة لك محضة لا ضرر فيها . فتدبر هذا حق التدبر وراعه حق المراعاة ، فملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعتة لك فانه لا يريد ذلك البتة بالقصد الأول ، بل انما يريد انتفاعه بك عاجلا أو آجلا ، فهو يريد نفسه لا يريدك ، ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه ، فتأمل ذلك فان فيه منفعة عظيمة وراحة ويأسا من المخلوقين ، سدا لباب عبوديتهم ، وفتحا لباب عبودية الله وحده . فما أعظم حظ من عرف هذه المسألة ورعاها حق رعايتها . ولا يحملنك هذا على جفوة الناس وترك الاحسان اليهم واحتمال أذاهم ، بل أحسن اليهم لله لا لرجائهم ،

فكما لا تخافهم لا ترجوهم . ومما يبين ذلك ان غالب الخلق يطلبون إدراك حاجتهم بك وان كان ذلك ضررا عليك ، فان صاحب الحاجة لا يرى إلا قضاءها ، فهم لا يبالون بمضرتك اذا أدركوا منك حاجتهم ، بل لو كان فيها هلاك دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك . وهذا اذا تدبره العاقل علم أنه عداوة فى صورة صداقة ، وانه لا أعدى للعاقل اللبيب من هذه العداوة ، فهم يريدون أن يصيروك كالكير ينفخ بطنك ويعصر أضلاعك فى نفعهم ومصالحهم ، بل لو أبيح لهم أكلك لجزروك كما يجزرون الشاة ، وكم يذبحونك كل وقت بغير سكين لمصالحهم ، وكم اتخذوك جسرا ومعبرا لهم الى أوطارهم وأنت لا تشعر ، وكم بعت آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم ، وربما علمت . وكم بعت حظك من الله بحظوظهم منك ورحت صفر اليدين ، وكم فوّتوا عليك من مصالح الدارين وقطعوك عنها وحالوا بينك وبينها ، وقطعوا طريق سفرك الى منازلك الأولى ودارك التى دعيت اليها وقالوا : نحن أحبابك وخدمك ، وشيعتك وأعوانك ، والساعون فى مصالحك . وكذبوا والله إنهم لأعداء فى صورة أولياء ، وحرب فى صورة مسالمين ، وقطاع طريق فى صورة أعوان . فواغوثاه ثم واغوثاه بالله الذى يغيث ولا يغاث ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّ مِنْ أَزْواجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فاحْذَرُوهُمْ ﴾ (التغابن ١٤) ، ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوالُكُمْ ولا أولادُكم عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يفْعَلْ ذٰلكَ فَأُولٰئكَ هُمُ الخاسِرُون ﴾ (المنافقون ٩) . فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم ولم يعاملهم فى الله ، وخاف الله فيهم ولم يخفهم فى الله ، وأرضى الله بسخطهم ولم يرضهم بسخط الله ، وراقب الله فيهم ولم يراقبهم فى الله ، وآثر الله عليهم ولم يؤثرهم على الله ، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه وأحيي حب الله وخوفه ورجاءه فيه ، فهذا هو الذى يكتب عليهم ، وتكون معاملته لهم كلها ربحا ، بشرط أن يصبر على أذاهم ويتخذه مغنما لا مغرما وربحا لا خسرانا

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة إلا باذن الله ومشيئته وقضائه وقدره ، فهو فى الحقيقة الذى لا يأتى بالحسنات إلا هو ، ولا يذهب بالسيئات إلا هو ﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فلا كاشِفَ لَهُ الاَّ هُو ، وإنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فلا رادَّ لفَضْلِهِ ﴾ (يونس ١٠٧) ، قال النبى ﷺ لعبد الله بن عباس : « وَاعْلَمْ

أنَّ الخَلِيقَةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنفَعُوكَ لم يَنفَعُوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ كَتَبَهُ اللهُ لكَ ، ولَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يُضُّروكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إلاَّ بَشيءٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْك » . واذا كانت هذه حال الخليقة فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع . والله أعلم

فصل فى بيان أنَّ المنفعةَ والمضرَّة لا تكون إلاَّ من الله وحدَه

وجماع هذا أنك إذا كنت غير عالم بمصلحتك ولا قادر عليها ولا مريد لها كما ينبغى فغيرك أولى أن لا يكون عالما بمصلحتك ولا قادرا عليها ولا مريدا لها ، والله سبحانه هو يعلم ولا تعلم ويقدر ولا تقدر ، ويعطيك من فضله لا لمعاوضة ولا لمنفعة يرجوها منك ، ولا لتكثر بك ولا لتعزّز بك ، ولا يخاف الفقر ولا تنقص خزائنه على سعة الإنفاق ، ولا يحبس فضله عنك لحاجة منه اليك واستغنائه بحيث إذا أخرجه أثر ذلك فى غناه ، وهو يحب الجود والبـــذل والعطاء والإحسان أعظم مما تحب أنت الأخذ والانتفاع بما سألته ، فاذا حبسه عنك فاعلم أن هناك أمرين لا ثالث لهما : أحدهما أن تكون أنت الواقف فى طريق مصالحك وأنت المعوّق لوصول فضله اليك وأنت حجر فى طريق نفسك ، وهذا هو الأغلب على الخليقة ، فان الله سبحانه قضى فيما قضى به أن ما عنده لا ينال إلا بطاعته ، وأنه ما استجلبت نعم الله بغير طاعته ، ولا استديمت بغير شكره ، ولا عوقت وامتنعت بغير معصيته ، وكذلك اذا أنعم عليك ثم سلبك النعمة فانه لم يسلبها لبخل منه ولا استئثار بها عليك ، وإنما أنت المسبب فى سلبها عنك ، فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لم يَكُ مُغَيِّراً نعمةً أنعَمَها عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهِم وأنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ (الانفال ٥٣) ، فما أزيلت نعم الله بغير معصيته :

اذا كنت فى نعمة فارعها ... فان المعاصى تزيل النعم

فآفتك من نفسك ، وبلاؤك من نفسك ، وأنت فى الحقيقة الذى بالغت فى عداوتك ، وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك ، كما قيل :

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه

ومن العجب أن هذا شأنك مع نفسك وأنت تشكو المحسن البرىء عن الشكاية ، وتتهم أقداره وتعانيها وتلومها ، فقد ضيعت فرصتك وفرطت فى حظك ، وعجز رأيك عن معرفة أسباب سعادتك وإرادتها ، ثم قعدت تعاتب القدر بلسان الحال والقال ، فأنت المعنى بقول القائل :

وعاجز الرأى مضياع لفرصته حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

ولو شعرت برأيك ، وعلمت من أين دهيت ومن أين أصبت ، لأمكنك تدارك ذلك ، ولكن قد فسدت الفطرة وانتكس القلب وأطفأ الهوى مصابيح العلم والايمان منه ، فأعرضت عمن أصل بلائك ومصيبتك منه ، وأقبلت تشكو مَن كلُّ إحسان دقيق أو جليل وصل اليك فمنه ، فاذا شكوته الى خلقه كنت كما قال بعض العارفين ـ وقد رأى رجلا يشكو الى آخر ما أصابه ونزل به ـ فقال : يا هذا ، تشكو من يرحمك ، الى من لا يرحمك . . .

وإذا أتتك مصيبة فاصبر لها صبر الكريم فانه بك أرحم
وإذا شكوت الى ابن آدم انما تشكو الرحيم الى الذى لا يرحم

وإذا علم العبد حقيقة الأمر ، وعرف من أين أتى ومن أى الطرق أغير على سرحه ومن أى ثغرة سرق متاعه وسلب ، استحى من نفسه ـ إن لم يستح من الله ـ أن يشكو أحدا من خلقه أو يتظلمهم أو يرى مصيبته وآفته من غيره ، قال تعالى (الشورى ٣٠) : ﴿ وما أصابكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ وقال (آل عمران ١٦٥) : ﴿ أَوَلَمَّا أَصابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْها قُلْتُمْ أَنَّى هٰذا ، قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، وقال (النساء ٧٩) : ﴿ ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾

فان أصررت على اتهام القدر وقلت : فالسبب الذى أصبتُ منه وأتيت منه ودهيت منه قد سبق به القدر والحكم وكان فى الكتاب مسطورا ، فلا بد منه على الرغم منى ، وكيف لى أن أنفك منه وقد أودع الكتاب الأول قبل برء الخليقة ، والكتاب الثانى قبل خروجى الى هذا العالم وأنا فى ظلمات الأحشاء حين أمر الملك بكتب الرزق

والأجل والسعادة والشقاوة ، فلو جريتُ الى سعادتى ما جريت حتى بقى بينى وبينها شبر لغلب علىَّ الكتاب فأدركتنى الشقاوة ، فما حيلة من قلبه بيد غيره يقلبه كيف يشاء ويصرفه كيف أراد ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه ، وهو الذى يحول بين المرء وقلبه ، وهو الذى يثبت قلب العبد اذا شاء ويزلزله اذا شاء ، فالقلب مربوب مقهور تحت سلطانه لا يتحرك إلا باذنه ومشيئته ، قال أعلم الخلق بربه ﷺ « ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه » ثم قال « اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك » وكان أكثر يمينه « لا ومقلب القلوب » ، وقال بعض السلف : مثل القلب مثل ريشة فى أرض فلاة تقلبها الرياح ظهرا لبطن ، فما حيلة قلب هو بيد مقلبه ومصرفه ، وهل له مشيئة بدون مشيئته ، كما قال تعالى (التكوير ٢٩) : ﴿ وما تَشاءونَ إلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِين ﴾ وروى عن عبد العزيز بن أبى حازم عن أبيه عن سهل بن سعد قال : تلا رسول الله ﷺ قوله عز وجل (سورة محمد ٢٤) : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوب أَقْفالُها ﴾ وغلام جالس عند رسول الله ﷺ فقال : بلى والله يا رسول الله ، إن عليها لاقفالها ، ولا يفتحها الا الذى أقفلها . فلما ولىَ عمر بن الخطاب طلبه ليستعمله وقال : لم يقل ذلك إلا من عقل . وقال طاوس : أدركت ثلاثمائة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : كل شىء بقدر . وقال أيوب السختيانى : أدركت الناس وما كلامهم إلا : إن قضى ، إن قدر . وقال عطاء عن ابن عباس فى قوله تعالى (الجاثية ٢٩) : ﴿ إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون ﴾ قال : كتب الله أعمال بنى آدم وما هم عاملون الى يوم القيامة . قال : والملائكة تستنسخ مايعمل بنو آدم يوما بيوم فذلك قوله ﴿ إنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون ﴾ وفى الآية قول آخر : ان استنساخ الملائكة هو كتابتهم لما يعمل بنو آدم بعد أن يعملوه . وقد يقال وهو الأظهر : ان الآية تعم الأمرين ، فيأمر الله ملائكته فتستنسخ من أم الكتاب أعمال بنى آدم ثم يكتبونها عليهم إذا عملوها فلا تزيد على ما نسخوه من أم الكتاب ذرة ولا تنقصها ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (القمر ٤٩) : ﴿ إنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَر ﴾ :

خلق الله الخلق كلهم بقدر ، وخلق الخير والشر ، فخير الخير السعادة وشر الشر الشقاوة .
وفى صحيح مسلم عن أبى الاسود الدؤلى قال : قال لى عمران بن حصين : أرأيت مايعمل الناس اليوم ويكدحون ، أشيء قضى عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت به الحجة ؟ قال قلت : لا ، بل فيما قضى عليهم ومضى . قال : أفيكون ذلك ظلماً ؟ قال ففزعت فزعا شديداً وقلت : إنه ليس شيء إلا خلقه وملكه ﴿ ولا يُسْأَلُ عمّا يَفعلُ ، وهم يُسْأَلون ﴾ (الانبياء ٢٣) . فقال : سددك الله انما سألتك لاحرز عقلك ، ان رجلا من مزينة ـ أو جهينة ـ أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيت ما يعمل الناس ويتكادحون فيه ، أشيء قضى عليهم ومضى ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ؟ قال : فيما قضى عليهم ومضى . فقال الرجل : ففيم العمل ؟ قال رسول الله ﷺ : من كان خلقه الله لاحدى المنزلتين فسيستعمله لها . وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل (الشمس ٧ ـ ٨) : ﴿ ونَفْسٍ وما سَوّاها فأَلْهَمَها فُجُورَها وتَقْواها ﴾ وقال مجاهد فى قوله تعالى (البقرة ٣٠) : ﴿ إنِّى أَعْلَمُ مالا تَعْلَمُون ﴾ قال : علم من إبليس المعصية وخلقه لها . وقال تعالى (الاعراف ٣٠) : ﴿ فَرِيقاً هَدَى وفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ ﴾ قال ابن عباس : ان الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمنا وكافرا ثم قال (التغابن ٢) : ﴿ هُوَ الَّذى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كافرٌ ومِنْكُمْ مُؤْمِن ﴾ ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمن وكافر . وقال سعيد بن جبير : عن ابن عباس فى قوله تعالى (الانفال ٢٤) : ﴿ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِه ﴾ قال : يحول بين المؤمن والكفر ومعاصى الله ، ويحول بين الكافر والايمان وطاعة الله . وقال ابن عباس ومالك وجماعة من السلف فى قوله تعالى (هود ١١٨ ـ ١١٩) : ﴿ ولا يَزالُونَ مُخْتَلفين إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، ولِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ قالوا : خلق أهل الرحمة للرحمة ، وأهل الاختلاف للاختلاف . وقال تعالى (البقرة ٢٥٣) : ﴿ ولَوْ شاءَ اللهُ ما اقْتَتَلوا ﴾ ، (السجدة ١٣) : ﴿ ولَوْ شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها ﴾ ، (يونس ٩٩) : ﴿ ولَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فى الْأَرْضِ كُلهم جَميعا ﴾ ، (الانعام ٣٥) : ﴿ ولَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ ، (الانعام ١١٢) : ﴿ ولَوْ شاء رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ ﴾ . وقال تعالى (الأعراف

٣٧) : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ أى نصيبهم مما كتب لهم . وقال (الشعراء ٢٠٠) : ﴿ كَذٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ قال الحسن وغيره : الشرك والتكذيب . وقال سبحانه (المطففين ٧) : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴾ قال محمد بن كعب القرظى : رقم الله سبحانه كتاب الفجار فى أسفل الأرض ، فهم عاملون بما قد رقم عليهم فى ذلك الكتاب . ورقم كتاب الابرار فجعله فى عليين ، فهم يؤتى بهم حتى يعملوا ما قد رقم عليهم فى ذلك الكتاب . وقال ابن عباس ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِى لَهَبٍ ﴾ : بما جرى من القلم فى اللوح المحفوظ . وقال مجاهد فى قوله (يس ٩) : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ قال : عن الحق . وفى قوله (الاسراء ٤٦) : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ قال : كالجعبة فيها السهام . وقال ابن عباس فى قوله تعالى (الجاثية ٢٣) : ﴿ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ قال : أضله فى سابق علمه : وقال فى قوله تعالى حكاية عن عدوه إبليس (الاعراف ١٦) : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى ﴾ قال : أضللتنى . وقال فى قوله (الصافات ١٦٢ — ١٦٣) : ﴿ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ، إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾ قال : من قضيت له أنه صالى الجحيم . وقال عمر بن عبد العزيز : لو أراد الله أن لا يعصى لم يخلق إبليس ، وقد فصل لكم وبين لكم ما أنتم عليه بفاتنين إلا من قدّر أن يصلى الجحيم . وقال وهيب بن خالد : أنبأنا خالد قال : قلت للحسن : ألهذه خلق آدم — يعنى السماء — أم للارض ؟ فقال : لا بل للأرض . قال : قلت أرأيت لو اعتصم من الخطيئة فلم يعملها ، أكان ترك فى الجنة ؟ قال : سبحان الله ، أكان له بد من أن يعملها ؟ وقال تعالى (الانبياء ٧٣) : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ ، وقال تعالى (القصص ٤١) : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ ، وقال (الفرقان ٧٤) : ﴿ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ أى أئمة يهتدى بنا ، ولا تجعلنا أئمة ضالين يدعون الى النار ، وقال (الانعام ٢٨) : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ ، وقال (الانعام ١١٠) : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، وقال (الانعام ١١١) : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ﴾ ، وقال زيد بن أسلم

والله ما قالت القدرية كما قال الله ولا كما قال رسله ولا كما قال أهل الجنة ولا كما قال أهل النار ولا كما قال أخوهم ابليس ، قال الله (الانسان ٣٠ ، التكوير ٢٩) : ﴿ وما تَشاءونَ إلاَّ أنْ يَشاءَ اللهُ ﴾ ، وقالت الملائكة (البقرة ٣٢) : ﴿ لاعِلْمَ لنا إلاَّ ما عَلَّمْتَنا ﴾ وقال شعيب (الاعراف ٨٩) : ﴿ وما يَكُونُ لنا أنْ نَعُودَ فيها إلاَّ أنْ يَشاءَ اللهُ ﴾ ، وقال أهل الجنة (الاعراف ٤٣) : ﴿ الحَمْدُ للهِ الّذى هَدانا لِهٰذا وما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أنْ هَدانا اللهُ ﴾ ، وقال أهل النار (المؤمنون ١٠٦) : ﴿ غَلَبَتْ عَلَيْنا شِقْوَتُنا ﴾ وقال أخوهم إبليس (الحجرات ٣٩) : ﴿ رَبِّ بِما أغْوَيْتَنِى ﴾ . وقال مجاهد فى قوله (الاسراء ١٣) : ﴿ وَكُلَّ إنْسانٍ ألْزَمْناهُ طائِرَهُ فى عُنُقِه ﴾ قال : مكتوب فى عنقه شقى أو سعيد . وقال ابن عباس فى قوله (المائدة ٤١) : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَه مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ يقول : ومن يرد الله ضلالته لم تغن عنه شيئا . وذكر الطبرى وغيره من حديث سويد بن سعد عن سوار بن مصعب عن أبى حمزة عن مقسم عن ابن عباس : صعد النبى ﷺ المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم بسط يده اليمنى فقال « بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب من الله الرحمن الرحيم لأهل الجنة بأسمائهم ، وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم ، فجمل أولهم على آخرهم ، لا ينقص منهم ولا يزاد فيهم . فرغ ربكم . وقد يسلك بأهل السعادة طريق الشقاء حتى يقال كأنهم هم بل هم هم ، ما أشبههم بهم بل هم هم فيردهم ما سبق لهم من الله من السعادة ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها قبل موته بفواق ناقة . وقد يسلك بأهل الشقاء طريق السعادة حتى يقال كأنهم هم بل هم هم ، ما أشبههم بهم بل هم هم ، فيردهم ما سبق لهم من الله ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ولو قبل موته بفواق ناقة . فصاحب الجنة مختوم له بعمل أهل الجنة وان عمل عمل أهل النار ، وصاحب النار مختوم له بعمل أهل النار وإن عمل بعمل أهل الجنة . ثم قال رسول الله « الأعمال بخواتيمها » . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (البقرة ٦) : ﴿ إنَّ الذينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أأنْذَرْتَهُمْ أم لم تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُون ﴾ ، وفى قوله (الانعام ٣٥) : ﴿ ولَوْ شاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى ﴾ ، وفى قوله (الانعام ١٢٥) : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ

ضَيِّقاً حَرَجا ﴾ ، وفى قوله (الانعام ١١١) : ﴿ ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إلاَّ أنْ يَشاءَ اللهُ ﴾ وفى قوله (السجدة ١٣) : ﴿ ولَو شِئْنا لآتَينا كُلَّ نَفْسٍ هُداها ﴾ ، وقوله (يونس ٩٩) : ﴿ ولَوْ شاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فى الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعا ﴾ ، وقوله (يس ٨) : ﴿ إنَّا جَعَلْنا فِى أعْناقِهِمْ أغْلالاً ﴾ ، وقوله (الكهف ٢٨) : ﴿ ولا تُطِعْ مَنْ أغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا ﴾ ونحو هذا من القرآن . وإن رسول الله كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ، ثم قال لنبيه (الشعراء ٣) : ﴿ لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أنْ لا يَكُونُوا مُؤْمِنِين ﴾ ، ويقول (الشعراء ٤) : ﴿ إنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عليْهِم مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أعْناقُهُمْ لها خاضِعِين ﴾ ثم قال (فاطر ٢) : ﴿ ما يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لها وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِه ﴾ ويقول (آل عمران ١٢٨) : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الامرِ شَىْء ﴾ . وفى صحيح مسلم عن طاوس : أدركت ناسا من أصحاب رسول الله يقولون : كل شىء بقدر . وسمعت عبد الله بن عمر يقول : قال رسول الله ﷺ « كل شىء بقدر ، حتى العجز والكيس » . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » ، وفى صحيحه أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير . فاحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز . وان اصابك شىء فلا تقل : لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء الله فعل . فان (لو) تفتح عمل الشيطان » ، وفى صحيحه أيضا عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إنَّ النَّذْرَ لا يُقَدِّرُ لابن آدمَ شيئا لم يَكُنِ اللهُ قَدَّرَه ، ولٰكنِ النَّذْرُ يُوافِقُ القَدَرَ فَيُخْرِجُ ذٰلكَ مِنَ البَخِيلِ ما لم يَكُنْ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَه » ، وفى حديث جبرائيل وسؤاله النبى ﷺ عن الإيمان قال « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره » ، وفى الصحيحين حديث ابن مسعود فى التخليق ، وفيه « فوالذى لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار . وإن أحدكم

ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » ، وذكر الطبرى عن الحسن بن على الطوسى أنبأنا محمد بن يزيد الاسفاطى البصرى محدّث البصرة قال : رأيت رسول الله ﷺ فى النوم فقلت : يا رسول الله ، حديث عبد الله بن مسعود حدثنى الصادق المصدوق ـ أعنى حديث القدر ـ فقال : إى والله الذى لا إله إلا هو حدثت به ، رحم الله عبد الله بن مسعود حيث حدث به ، ورحم الله زيد بن وهب حيث حدث به ، ورحم الله الأعمش حيث حدث به ، ورحم الله من حدث به قبل الأعمش ، ورحم الله من يحدث به بعد الأعمش. وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود « الشقى من شقى فى بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره » وقد روى حديث تقدير السعادة والشقاوة فى بطن الأم من حديث عبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك ، وعبد الله بن عمر ، وعائشة أم المؤمنين ، وحذيفة بن أسيد ، وأبى هريرة . وقال أبو الحسن على بن عبيد الحافظ : سمعت أبا عبد الله بن أبى خيثمة يقول : سمعت عمرو بن على الفلاس يقول : انحدرت من سرّ من رأى إلى بغداد فى حاجة لى ، فبينما أنا أمشى فى بعض الطريق إذا بجمجمة قد نخرت ، فأخذتها ، فاذا على الجبهة مكتوب « شقى » والياء مكسورة الى خلف . وهؤلاء كلهم أئمة حفاظ ، ذكره الطبرى فى السنة . وفى الصحيحين حديث على عن النبى ﷺ « ما منكم من أحد إلا كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » فقالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ فقال « اعملوا ، فكل ميسر لما خلق له : أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة » ثم قرأ (الليل ٥ ـ ١٠) : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وأَمَّا مَنْ بَخِلَ واسْتَغْنَى ، وكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ . وفى الصحيحين عن عمران بن حصين أن النبى سئل : أعلم أهل الجنة من أهل النار ؟ قال « نعم » قيل : ففيم يعمل العاملون ؟ قال « نعم ، كل ميسر لما خلق له » . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت « دعى رسول الله الى جنازة غلام من الأنصار ، فقلت : يا رسول الله ، طوبى لهذا ، عصفور من عصافير الجنة ، لم يدرك السوء ولم يعمله . قال « أو غير ذلك ، إن الله تعالى خلق للجنة أهلا ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم . وخلق للنار أهلا ،

خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » . وفى الصحيحين عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب عن النبى ﷺ قال « الغلام الذى قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا ، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفرا » . وفى مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله يقول « إن الله خلق الخلق فى ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره » وفى لفظ « فجعلهم فى ظلمة واحدة ، فأخذ من نوره فألقاه على تلك الظلمة ، فمن أصابه النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله » . وذكر راشد بن سعد عن أبى عبد الرحمن السلمى أن أبا قتادة سمع النبى ﷺ يقول « خلق الله آدم وأخرج الخلق من ظهره فقال : هؤلاء فى الجنة ولا أبالى ، وهؤلاء فى النار ولا أبالى » قال قيل : على ما نعمل ؟ قال « على مواقع القدر » . وذكر أبو داود فى كتاب القدر عن عبد الله بن مسعود أنه مر على رجل فقالوا : هذا هذا .. ونالوا منه . فقال عبد الله : أرأيتم لو قطعتم يده ، كنتم تستطيعون أن تخلقوا له يدا ؟ قالوا : لا . قال : فلو قطع رأسه ، أكنتم تستطيعون أن تخلقوا له رأسا ؟ قالوا : لا . قال : فكما لا تستطيعون أن تغيروا خلقه لا تستطيعون أن تغيروا خُلقه . إن النطفة إذا وقعت فى الرحم بعث الله ملكا فكتب أجله وعمله ورزقه وشقى أو سعيد . وذكر فيه عن ابن مسعود مرفوعا « إنَّما هُما اثْنَتان : الهَدْىُ والْكَلام . فَأَحْسَنُ الْكَلام كَلامُ الله ، وَأَحْسَنُ الهَدْىِ هَدْىُ مُحَمَّد ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثاتُها ، وانَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ ، وانَّ كُلَّ ما هُوَ آتٍ قَرِيب ، وانَّ الشَّقِىَّ مَنْ شَقِىَ فِى بَطْنِ أُمِّهِ وَالسَّعِيدَ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِه » . وقال ابن وهب : أخبرنى يونس عن ابن شهاب أن عبد الرحمن بن هنيدة حدثه أن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ « اذا أَرادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ النَّسَمَةَ قالَ مَلَكُ الْأَرْحام تَعَرُّفًا : يا رَبِّ ، أَذَكَرٌ أَمْ أُنثَى ؟ فَيَقْضِى اللهُ أَمْرَهُ . ثُمَّ يَقُولُ : يا رَبِّ ، أَشَقِىٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَيَقْضِى اللهُ أَمْرَه . ثُمَّ يَكْتُبُ بَيْنَ عَيْنَيْه ما هُوَ لاقٍ حَتَّى النَّكْبَةَ يُنْكَبُها » . وقال الليث عن عقيل عن ابن شهاب : أخبرنى أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن رسول الله قال .. فذكره سواء . قال الزهرى : وحدثنى عبد الرحمن بن أذينة عن ابن عمر .. مثل ذلك . وذكر أبو داود أيضا عن عائشة يرفعه « إن الله حين يريد أن يخلق الخلق

يبعث ملكا فيدخل على الرحم فيقول : أى رب ماذا ؟ فيقول : غلام ، أو جارية ، أو ما شاء الله أن يخلق فى الرحم . فيقول : أى رب ، أشقى أم سعيد ؟ فيقول : شقى ، أو سعيد . فيقول : أى رب ، ما أجله ؟ فيقول : كذا وكذا . فيقول : أى رب ، ما خلقه ؟ فيقول : كذا وكذا . قال : فيقول يا رب ، ما خلائقه ؟ فيقول : كذا وكذا . قال : فما من شىء إلا وهو يخلق معه فى الرحم . وذكر ابن وهب عن ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن أبى تميم الجيشانى عن أبى ذر أن المنى اذا مكث فى الرحم أربعين ليلة أتاه ملك النفوس فعرج به الى الرب سبحانه فى راحته فيقول : يا رب عبدك ذكر أم أنثى ؟ فيقضى الله ما هو قاض . أشقى أم سعيد ؟ فيكتب ما هو لاق بين عينيه . قال أبو تميم : وقرأ أبو ذر من فاتحة سورة التغابن خمس آيات . وقال ابن وهب : أخبرنى ابن لهيعة عن كعب بن علقمة عن عيسى بن هلال عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : إذا مكثت النطفة فى رحم المرأة أربعين يوما جاءها ملك فاختلجها ، ثم عرج بها الى الرحمن عز وجل فقال : اخلق يا أحسن الخالقين . فيقضى الله فيها بما يشاء من أمره ، ثم يدفع الى الملك ، فيسأل الملك عن ذلك فيقول : يا رب ، سقط أم تم ؟ فيبين له ، ثم يقول : يا رب ، أواحد أو توأم ؟ فيبين له ، ثم يقول : يا رب ، ذكر أم أنثى ؟ فيبين له ، فيقول : يا رب ، أناقص الأجل أم تام الأجل ؟ فيبين له ذلك ، ثم يقول : يا رب ، أشقى أم سعيد ؟ فيبين له ، ثم يقول : يا رب ، اقطع رزقه مع خلقه ، فيهبط بهما جميعا . فوالذى نفسى بيده ما ينال من الدنيا إلا ما قسم له ، فاذا أكل رزقه قبض » . وفى صحيح مسلم : عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبى ﷺ قال « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول : يا رب ، أشقى أم سعيد ؟ فيكتبان ، فيقول : يا رب أذكر أم انثى ؟ فيكتبان ، ويكتب عمله وأثره ورزقه ، ثم تطوى الصحف ولا يزاد فيها ولا ينقص » . وفى الصحيحين عن أنس بن مالك ـ ورفع الحديث ـ قال « إن الله وكل بالرحم ملكا فيقول : أى رب نطفة ، أى رب علقة ، أى رب مضغة . فاذا أراد الله أن يقضى خلقا قال الملك : أى رب ذكر أو أنثى ؟ شقى أو سعيد ، فما الرزق ، فما الأجل ؟ فيكتب ذلك فى بطن أمه » . وفى الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبى ﷺ « إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ،

ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم ينفخ فيه الروح ، ويبعث اليه الملك فيؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد » . وفى حديث ابن مسعود أن هذا التقدير وهذه الكتابة فى الطور الرابع من أطوار التخليق عند نفخ الروح فيه ، وفى الأحاديث التى ذكرت أيضا آنفا أن ذلك فى الأربعين الأولى قبل كونه علقة ومضغة ، وفى رواية صحيحة « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها ، وخلق سمعها وبصرها وجلدها » وفى رواية « ان ذلك يكون فى بضع وأربعين ليلة » والله أعلم

فصلٌ فى الجمع بين الروايات المتقدّمة

الجمع بين هـــذه الروايات أن للملك ملازمة ومراعاة بحال النطفة ، وأنه يقول : يا رب هذه نطفة ، هذه علقة ، هذه مضغة فى أوقاتها . فكل وقت يقول فيه ما صارت اليه بأمر الله ، وهو أعلم بها وبكلام الملك ، فتصرُّفه فى أوقات : أحدها حين يخلقها الله نطفة ثم ينقلها علقة ، وهو أول أوقات علم الملك بانه ولد ، لأنه ليس كل نطفة تصير ولدا ، وذلك بعد الأربعين الأولى فى أول الطور الثانى . ولهذا ـ والله أعلم ـ وقعت الاشارة اليه فى أول سورة أنزلها على رسوله ﴿ اقْرَأْ باسمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الانْسانَ مِنْ عَلَق ﴾ اذ خلقه من علقة هو أول مبدأ الانسانية ، وحينئذ يكتب رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته . ثم للملك فيه تصرُّف آخر فى وقت آخر وهو تصويره وتخليق سمعه وبصره وجلده وعظمه ولحمه وذكوريته وأنوثيته ، وهذا إنما يكون فى الأربعين الثالثة قبل نفخ الروح فيها ، فان نفخ الروح لا يكون إلا بعد تمام تصويره . فهنا تقديران وكتابان : التقدير الأول عند ابتداء تعليق التخليق فى النطفة ، وهو إذا مضى عليها أربعون ودخلت فى طور العلقة . ولهذا فى إحدى الروايات « إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة » . والتقدير الثانى الكتابة إذا كمل تصويره وتخليقه وتقدير أعضائه وكونه ذكراً أو أنثى . فالتمدير الاول تقدير لما يكون للنطفة بعد الأربعين ، والتقدير الثانى تقدير لما يكون للجنين بعد تصويره . ثم إذا ولد قدر مع ولادته كل سنة ما يلقاه فى تلك السنة ، وهو ما يقدر ليلة القدر من العام الى العام ،

فهذا التقدير أخص من التقدير الثانى ، والثانى أخص من الأول . ونظير هذا أيضا أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، ثم قدر مقادير هذا الخلق حين خلقهم وأوجدهم ، ثم يقدر فى كل سنة فى ليلة القدر ما يكون فى ذلك العام . وهكذا تقدير أمر النطفة وشأنها يقع بعد تعلقها بالرحم ، وبعد كمال تصوير الجنين ، وقد تقدم ذكر تقدير شأنها قبل خلق السموات والأرض فهو تقدير بعد تقدير . ونظير هذا أيضا رفع الأعمال وعرضها على الله ، فان عمل العام يرفع فى شعبان كما أخبر به الصادق المصدوق أنه شهر ترفع فيه الأعمال ، قال « فاحب أن يرفع عملى وأنا صائم » ، ويعرض عمل الاسبوع يوم الاثنين والخميس كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ ، ويعرض عمل اليوم فى آخره والليلة فى آخرها كما فى حديث أبى موسى الذى رواه البخارى عن النبي ﷺ « ان الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل » ، فهذا الرفع والعرض اليومى أخص من العرض يوم الاثنين والخميس ، والعرض فيها أخص من العرض فى شعبان ، ثم إذا انقضى الأجل رفع العمل كله وعرض على الله وطويت الصحف ، وهذا عرض آخر . وهذه المسائل العظيمة القدر هى من أهم مسائل الايمان بالقدر ، فصلوات الله وسلامه على كاشف الغمة وهادى الأمة محمد ﷺ

فان قيل : ما تقولون فى قوله « إذا مر بالنطفة ثنتان واربعون ليلة بعث الله اليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها ثم قال : يا رب أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك . ثم يقول : يا رب أجله ؟ فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك » ، وهذه بعض ألفاظ مسلم فى الحديث ، وهذا يوافق الرواية الأخرى « يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر فى الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول : يا رب أشقى أو سعيد » ؟ ويوافق الرواية الاخرى « ان النطفة تقع فى الرحم أربعين ليلة ثم يتسور عليها الملك » ، وهذا يدل على أن تصويرها عقيب الأربعين الأولى . قيل لا ريب أن التصوير المحسوس وخلق الجلد والعظم واللحم إنما يقع فى الاربعين الثالثة ، لا يقع عقيب الاولى ، هذا أمر معلوم بالضرورة . فاما أن يكون المراد بالأربعين فى هذه الألفاظ الأربعين الثالثة وسمى المضغة فيها نطفة اعتباراً بأول أحوالها وما كانت

عليه ، أو يكون المراد بها الأربعين الأولى وسمى كتابة تصويره وتقديره تخليقا اعتباراً بما يئول ، فيكون قوله « صورها وخلق سمعها وبصرها » أى قدر ذلك وكتبه وأعلم به ، ثم يفعله به بعد الأربعين الثالثة . أو يكون المراد به ـ أى الأربعين ـ الأربعين الأولى وحقيقة التصوير فيها ، فيتعين حمله على تصوير خفى لا يدركه إحساس البشر ، فان النطفة إذا جاوزت الأربعين انتقلت علقة ، وحينئذ يكون أول مبدأ التخليق ، فيكون مع هذا المبدأ مبدأ التصوير الخفى الذى لا يناله الحس ، ثم إذا مضت الأربعون الثالثة صورت التصوير المحسوس المشاهد . فاحد التقديرات الثلاثة يتعين ولا بد ، ولا يجوز غير هذا البتة ، إذ العلقة لا سمع فيها ولا بصر ولا جلد ولا عظم ، وهذا التقدير الثالث أليق بألفاظ الحديث وأشبه وأدل على القدر ، والله أعلم بمراد رسوله ، غير أنا لا نشك أن التخليق المشاهد والتقسيم الى الجلد والعظم واللحم إنما يكون بعد الاربعين الثالثة . والمقصود أن كتابة الشقاوة والسعادة وما هو لاق ، عند أول تخليقه . ويحتمل وجها رابعا وهو أن النطفة فى الأربعين الأولى لا يتعرض اليها ولا يعتنى بشأنها ، فاذا جاوزتها وقعت فى أطوار التخليق طورا بعد طور ، ووقع حينئذ التقدير والكتابة . فحديث ابن مسعود صريح بأن وقوع ذلك بعد الطور الثالث عند تمام كونها مضغة ، وحديث حذيفة بن أسيد وغيره من الاحاديث المذكورة إنما فيه وقوع ذلك بعد الأربعين ، ولم يوقت فيها البعدية بل أطلقها ، وقد قيدها ووقتها فى حديث ابن مسعود ، والمطلق فى مثل هذا يحمل على المقيد بلا ريب ، فأخبر بما تكون النطفة بعد الطور الأول من تفاصيل شأنها وتخليقها وما يقدر لها وعليها ، وذلك يقع فى أوقات متعددة ، وكله بعد الاربعين الأولى ، وبعضه متقدم على بعض ، كما أن كونها علقة يتقدم على كونها مضغة وكونها مضغة متقدم على تصويرها والتصوير متقدم على نفخ الروح مع ذلك ، فيصح أن يقال : إن النطفة بعد الأربعين تكون علقة ومضغة ، ويصور خلقها ، وتركب فيها العظام والجلد ، ويشق لها السمع والبصر ، وينفخ فيها الروح ، ويكتب شقاوتها وسعادتها . وهذا لا يقتضى وقوع ذلك كله عقيب الاربعين الأولى من غير فصل ، وهذا وجه حسن جدا

والمقصود أن تقدير الشقاوة والسعادة والخلق والرزق سبق خروج العبد إلى دار

الدنيا ، فأسكنه الجنة أو النار وهو فى بطن أمه . وفى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة » الحديث . وفى صحيح البخارى عن أبى سعيد عن النبى ﷺ قال « ما بعث الله من نبى ولا استخلف من خليفة إلا كان له بطانتان : بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه ، والمعصوم من عصمه الله » ، وفى سنن ابن ماجه عن عدى ابن حاتم أنه قال : أتيت النبى ﷺ فقال « يا عدى ، أسلم تسلم » قلت : وما الاسلام؟ قال « تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، وتؤمن بالأقدار كلها خيرها وشرها وحلوها ومرها » . وفى صحيح البخارى من حديث عمرو بن تغلب قال : أتى النبىَّ ﷺ مال ، فأعطى قوما ومنع آخرين . فبلغه أنهم عتبوا ، فقال « إنى أعطى الرجل وأدع الرجل ، والذى أدع أحب الىَّ من الذى أعطى . أعطى أقواماً لما فى قلوبهم من الجزع والهلع ، وأكل أقواماً الى ما جعل الله فى قلوبهم من القناعة والخير » الحديث . وفى الصحيحين من حديث عمران بن حصين عن النبى ﷺ « كان الله ولم يكن شىء قبله ، وكان عرشه على الماء ، وخلق السموات والأرض وكتب فى الذكر كل شىء » . وفى الصحيح عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال لأشجّ عبد القيس « ان فيك لخلقين يحبهما الله : الحلم والأناة » قال : يا رسول الله خلقين تخلقت بهما ، أم جبلت عليهما؟ قال « بل جبلت عليهما » قال : الحمد لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله . وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ « جف القلم بما أنت لاق » . رواه البخارى تعليقا . وذكر البخارى أيضا عن ابن عباس فى قوله تعالى (المؤمنون ٦١) : ﴿ أُولَئِكَ يُسارِعُونَ فى الخَيراتِ وهُمْ لها سابِقُون ﴾ قال : سبقت لهم السعادة . وفى سنن أبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وأبىّ بن كعب ، وزيد بن ثابت « ان الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرا لهم من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أحد ذهبا فى سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . ولو مت على غير هذا لدخلت النار » وقاله زيد بن ثابت عن النبى ﷺ . وفى سنن أبى داود عن أبى حفص الشامى قال : قال عبادة بن الصامت : يا بنى ، إنك لم تجد طعم

الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . سمعت رسول الله قال « إن أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، قال : يا رب وما أكتب ؟ قال : اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » يا بنى ، سمعت رسول الله يقول « من مات على غير هذا فليس منى » . وفى الصحيحين عن على قال : كنا فى جنازة فيها رسول الله ﷺ ببقيع الغرقد ، فجاء رسول الله ﷺ فجلس ومعه مخصرة ، فجعل ينكت بالمخصرة فى الأرض ، ثم رفع رأسه فقال « ما منكم من أحد من نفس منفوسة إلا قد كتب مكانها فى النار أو فى الجنة ، إلا قد كتبت شقية أو سعيدة » . قال فقال رجل من القوم : يا نبى الله ، أو لا نتكل على كتابنا وندع العمل ، فمن كان من أهل السعادة ليكونن الى السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة ليكونن الى الشقاوة ؟ قال « اعملوا ، فكل ميسر . أما أهل السعادة فييسرون للسعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون للشقاوة » ثم قرأ نبى الله (الليل ٥ — ١٠) : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾ . وفى السنن الأربعة عن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (الاعراف ١٧٢) : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ الآية ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ قد سئل عنها ، فقال رسول الله « خلق الله آدم ، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون » . قال رجل : يا رسول الله ، ففيم العمل ؟ فقال رسول الله « إن الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار » . وفى الترمذى عن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب » . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وذكر الطبرى من حديث مالك بن عبد أن رسول الله قال لابن مسعود « لا يكثر همك ، ما يقدر يكن ، وما ترزق يأتك » ، وذكر عن

طارق بن شهاب عن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « بعثت داعيا ومبلغاً ، وليس إليّ من الهدى شيء . وخلق إبليس مزيناً ، وليس اليه من الضلالة شيء » ، وقال ابن وهب أنبأنا عبد الرحمن بن سليمان عن عقيل عن عكرمة عن ابن عباس قال : خرج النبي ﷺ فسمع ناسا من أصحابه يذكرون القدر فقال « إنكم قد أخذتم فى شعبتين بعيدتى الغور ، فيهما هلك أهل الكتاب من قبلكم » ولقد أخرج يوما كتابا فقال « هذا كتاب من الله الرحمن الرحيم فيه تسمية أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم فحمل على آخرهم لا ينقص منهم أحد : فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير » . وفى الترمذى عن ابن عباس قال : ردفت رسول الله ﷺ يوما فقال : « يا غلام ، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ؟ احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة . اذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، رفعت الأقلام وجفت الصحف . لو جهدت الأمة على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو جهدت الأمة على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك . واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا » . وفى بعض روايات الحديث فى غير الترمذى « فلو أن الناس اجتمعوا على أن يعطوك شيئاً لم يعطه الله لم يقدروا عليه ، ولو أن الناس اجتمعوا على أن يمنعوك شيئاً قدره الله لك ما استطاعوا ، فاعبد الله مع الصبر على اليقين » ، وقال على بن الجعد : أنبأنا عبد الواحد البصرى عن عطاء بن أبى رباح قال : سألت [الوليد بن] عبادة بن الصامت : كيف كانت وصية أبيك حين حضره الموت ؟ قال جعل يقول : يا بنى اتق الله ، واعلم أنك لن تتقى الله ولن تبلغ العلم حتى تعبد الله وحده وتؤمن بالقدر خيره وشره . قلت : يا أبت كيف لى أن أؤمن بالقدر خيره وشره ؟ قال : تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، فان مت على غير هذا دخلت النار ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ان أول ما خلق الله القلم فقال له : اكتب ، فقال : ما أكتب ؟ فجرى تلك الساعة بما كان وما هو كائن الى الأبد » ، وذكر الطبرى من حديث بقية أنبأنا أبو بكر العبسى عن زيد بن أم حبيب ومحمد بن يزيد قالا : حدثنا نافع عن ابن عمر قال : قالت أم سلمة : « يا رسول الله لا تزال نفسك فى كل عام وجعة من تلك الشاة المسمومة التى أكلتها .

قال : ما أصابني شيء منها الا وهو مكتوب عليَّ وآدم في طينته » . وفي صحيح مسلم من حديث ابن عباس في خطبة النبي ﷺ : « الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله » . وفي صحيحه أيضا عن زيد بن أرقم : كان النبي ﷺ يقول « اللهم آت نفسي تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » . وفي صحيحه أيضا عن علي عن النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح « اللهم اهدني لأحسن الأخلاق ، لا يهدي لأحسنها إلا أنت . واصرف عني سيء الأخلاق ، لا يصرف عني سيئها الا أنت » وفي الترمذي والمسند من حديث عمران بن حصين أن النبي ﷺ علم أباه هذا الدعاء « اللهم ألهمني رشدي ، وقني شر نفسي » . وروى سفيان الثوري عن خالد الحذاء عن عبد الله بن الحارث قال : قام عمر بن الخطاب خطيبا فقال في خطبته « من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له » وعنده الجاثليق يسمع ما يقول ، قال فنفض ثوبه كهيئة المنكر ، فقال عمر : ما تقولون ؟ قالوا : يا أمير المؤمنين يزعم أن الله لا يضل أحدا ، قال : كذبت يا عدو الله ، بل الله خلقك وهو أضلك ، وهو يدخلك النار ان شاء الله . أما والله لولا عهد لك لضربت عنقك ، إن الله خلق الخلق فخلق أهل الجنة وما هم عاملون ، وخلق أهل النار وما هم عاملون ، قال هؤلاء لهذه وهؤلاء لهذه . وذكر الطبري عن أبي بكر الصديق قال : خلق الله الخلق فكانوا في قبضته ، فقال لمن في يمينه : ادخلوا الجنة بسلام ، وقال لمن في يده الأخرى : ادخلوا النار ولا أبالي ، فذهبت الى يوم القيامة . وقال ابن عمر : جاء رجل الى أبي بكر فقال : أرأيت الزنا بقدر الله ؟ فقال : نعم . قال : فان الله قدره عليَّ ثم يعذبني ؟ قال : نعم يا ابن اللخناء ، أما والله لو كان عندي انسان أمرت أن يجأ أنفك . وذكر عن علي أنه ذكر عنده القدر يوما فأدخل إصبعيه السبابة والوسطى في فيه فرقم بهما باطن يده فقال أشهد أن هاتين الرقمتين كانتا في أم الكتاب . وذكر عنه أيضا أنه قال : إن أحدكم لن يخلص الإيمان الى قلبه حتى يستيقن يقينا غير ظن أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، ويقر بالقدر كله . وذكر البخاري عن ابن مسعود أنه قال في خطبته : الشقي من شقي في بطن أمه ، والسعيد من وعظ بغيره . وقال ابن مسعود :

لأن أعض على جمرة أو ان أقبض عليها حتى تبرد فى يدى أحب الىَّ من أن أقول لشىء قضاه الله : ليته لم يكن . وقال : لا يطعم رجل طعم الإيمان حتى يؤمن بالقدر ، ويعلم أنه ميت ، وأنه مبعوث من بعد الموت . وقال الأعمش عن ابن مسعود : إن العبد ليهمّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى يتيسر له ، نظر الله اليه من فوق سبع سموات فيقول للملائكة : اصرفوه عنه ، فانى إن يسرته له أدخلته النار . قال فيصرفه الله عنه ، قال فيقول : من أين دهيت ؟ أو نحو هذا ، وما هو إلا فضل الله سبحانه . وذكر الزهرى عن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أن عبد الرحمن بن عوف مرض مرضا شديدا ، أغمى عليه وأفاق فقال : أغمى على ؟ قالوا : نعم . قال : إنه أتانى رجلان غليظان فأخذا بيدى فقالا : انطلق نحاكمك الى العزيز الأمين . فانطلقا بى فتلقاهما رجل فقال : أين تريدان به؟ قالا : نحاكمه الى العزيز الأمين . فقال : دعاه فان هذا ممن سبقت له السعادة وهو فى بطن أمه . وقال ابن جريج عن ابن طاوس عن أبيه قال : أشهد لسمعت ابن عباس يقول : العجز والكيس بقدر . وقال مجاهد : قيل لابن عباس : إن ناسا يقولون فى القدر . قال : يكذبون بالكتاب ، إن أحدث سعر أحدهم لا تصونه (١) ان الله عز وجل كان على عرشه قبل ان يخلق شيئا ، نخلق القلم ، فكتب ما هو كائن الى يوم القيامة ، فانما يجرى الناس على أمر قد فرغ منه . وقال ابن عباس أيضا : القدر نظام التوحيد ، فمن وحد الله ولم يؤمن بالقدر كان كفره بالقضاء نقصا للتوحيد ، ومن وحد الله وآمن بالقدر كانت العروة الوثقى لا انفصام لها . وقال عطاء بن أبى رباح : كنت عند ابن عباس ، فجاءه رجل فقال : يا ابن عباس أرأيت من صدنى عن الهدى وأوردنى دار الضلالة وارداً ، ألا تراه قد ظلمنى ؟ فقال : ان كان الهدى شيئا كان لك عنده فمنعكه فقد ظلمك ، وان كان الهدى هو له يؤتيه من يشاء فلا يظلمك . قم فلا تجالسنى . وقال عكرمة عن ابن عباس : كان الهدهد يدل سليمان على الماء . فقلت له : فكيف ذاك ؟ الهدهد ينصب له الفخ عليه التراب . فقال : أعضك الله بهن أبيك ، إذا جاء القضاء ذهب البصر . وقال الامام أحمد : أنبأنا إسمعيل أنبأنا أبو هرون الغنوى أنبأنا سليمان الأزدى عن أبى يحيى مولى بنى عفراء قال : أتيت ابن عباس ، ومعى

(١) بياض فى الأصل ، وفى الجملة تحريف

رجلان من الذين يذكرون القدر ـ أو ينكرونه ـ فقلت : يا ابن عباس ، ما تقول فى القدر ؟ فان هؤلاء يسألونك عن القدر ، إن زنى وإن شرب وإن سرق . فحسر قميصه حتى أخرج منكبيه وقال : يا يحي(١) لعلك من الذين ينكرون [القدر] ويكذبون به والله لو أعلم أنك منهم وهذين معك لجاهدتكم ، ان زنى فبقدر ، وان سرق فبقدر ، وان شرب الخمر فبقدر . وصح عن ابن عمر أن يحي بن يعمر قال له : ان ناسا يقولون : لا قدر ، وان الأمر أنف(٢) . فقال : إذا لقيت أولئك فاخبرهم أن ابن عمر برىء منهم وأنهم برآء منه . وقد تقدم قول أبىّ بن كعب ، وحذيفة ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت : لو أنفقت مثل جبل أحد ذهبا فى سبيل الله ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وان مت على غير ذلك دخلت النار . وتقدم قول عبادة بن الصامت : لن تؤمن حتى تؤمن بالقدر خيره وشره وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . وقال قتادة عن أبى السوار عن الحسن بن على قال : قضى القضاء وجف القلم ، وأمور بقضاء فى كتاب قد خلا . وقال عمرو بن العاص : انتهى عجبى الى ثلاث : المرء يفر من القدر وهو لاقيه ، ويرى فى عين أخيه القذاة فيعيبها ويكون فى عينه مثل الجذع فلا يعيبها ، ويكون فى دابته الطفر فيقوّمها جهده ويكون فى نفسه الطفر فلا يقوّمها(٣) . قال أبو الدرداء : ذروة الايمان أربع : الصبر للحكم ، والرضا بالقدر ، والاخلاص للتوكل ، والاستسلام للرب . وقال الحجاج الأزدى : سألنا سلمان ما الإيمان بالقدر ؟ فقال : أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك . وقال سلمان أيضا : ان الله لما خلق آدم مسح ظهره فاخرج منه ذرارى الى يوم القيامة ، وكتب الآجال والأعمال والأرزاق والشقاوة والسعادة ، فمن علم السعادة فعل الخير ومجالس الخير ، ومن علم الشقاوة عمل الشر ومجالس الشر . وقال جابر بن عبد الله : لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر كله خيره وشره ، [وأن] ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه . وقال هشام [بن عروة بن الزبير] عن أبيه عن عائشة : إن العبد ليعمل الزمان بعمل أهل الجنة وانه عند

---

(١) تقدم فى السند أنه « أبو يحي » ولم أجد الخبر فى أحاديث ابن عباس بمسند أحمد

(٢) بضمتين أى مستأنف لم يسبق به قضاء (٣) الطفر : الوثوب والاندفاع

الله مكتوب من أهل النار . والآثار فى ذلك أكثر من أن تذكر ، وإنما أشرنا الى بعضها اشارة

﴿ فصل ﴾ فالجواب أن ههنا مقامين : مقام إيمان وهدى ونجاة ، ومقام ضلال وردى وهلاك زلت فيه أقدام فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء

فاما مقام الايمان والهدى والنجاة فمقام إثبات القدر ، والإيمان به ، وإسناد جميع الكائنات الى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها ، وأن ما شاء كان وان لم يشأ الناس ، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس . وهذه الآثار كلها تحقق هذا المقام وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ولبس جلباب الشرك ، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه ، وهذا فى كل كتاب أنزله الله على رسله

وأما المقام الثانى - وهو مقام الضلال والردى والهلاك - فهو الاحتجاج به على ذنبه على الله وحمل العبد ذنبه على ربه وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء وجعل أرحم الراحمين وأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأغنى الأغنياء أضر على العباد من إبليس ، كما صرح به بعضهم واحتج عليه بما خصمه فيه من لا تدحض حجته ولا تطاق مغالبته حتى يقول قائل هؤلاء :

ما حيلة العبد والأقدار جارية ... عليه فى كل حال أيها الرائى
ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

ويقول قائلهم :

دعانى وسد الباب دونى فهل إلى ... دخولى سبيل ؟ بينوا لى قصتى

ويقول الآخر :

وضعوا اللحم للبزا ... ة على ذروتى عدن
ثم لاموا البزاة إذ ... خلعوا عنهم الرسن
لو أرادوا صيانتى ... ستروا وجهك الحسن

وقال بعضهم - وقد ذكر له ما يخاف من إفساده - فقال : لى خمس بنات لا أخاف

على إفسادهن غيره[1]. وصعد رجل يوما على سطح دار له، فأشرف على غلام له يفجر بجاريته، فنزل وأخذهما ليعاقبهما، فقال الغلام: إن القضاء والقدر لم يدعانا حتى فعلنا ذلك. فقال: لعلمك بالقضاء والقدر أحب الىّ من كل شيء، أنت حر لوجه الله. ورأى آخر يفجر بامرأته، فبادر ليأخذه فهرب، فأقبل يضرب المرأة وهى تقول: القضاء والقدر. فقال: يا عدوة الله أتزنين وتعتذرين بمثل هذا؟ فقالت: أوه، تركتَ السنة وأخذتَ بمذهب ابن عباس[2]! فتنبه ورمى بالسوط من يده واعتذر اليها وقال: لولاك لضللت! ورأى آخر رجلا يفجر بامرأته فقال: ما هذا؟ فقالت: هذا قضاء الله وقدره. فقال: الخيرة فيما قضى الله! فلقب بالخيرة فيما قضى الله، وكان إذا دعى به غضب! وقيل لبعض هؤلاء: أليس هو يقول (الزمر ٧): ﴿ولا يَرْضَى لِعبادِه الْكُفْرَ﴾ فقال: دعنا من هذا، رضيه وأحبه وأراده، وما أفسدنا غيره! ولقد بالغ بعضهم فى ذلك حتى قال: القدر عذر لجميع العصاة، وإنما مثلنا فى ذلك كما قيل:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم ... وتذنبون فنأتيكم فنعتذر

وبلغ بعض هؤلاء أن عليا مر بقتلى النهروان فقال: بؤسا لكم، لقد ضركم من غركم. فقيل: من غرهم؟ فقال: الشيطان، والنفس الأمارة بالسوء، والأمانى. فقال هذا القائل: كان علىّ قدريا، وإلا فالله غرهم وفعل بهم ما فعل وأوردهم تلك الموارد. واجتمع جماعة من هؤلاء يوما فتذاكروا القدر، فجرى ذكر الهدهد وقوله (النمل ٢٤): ﴿وزَيَّنَ لهُمُ الشَّيطانُ أعمالَهُمْ﴾ فقال: كان الهدهد قدريا، أضاف العمل اليهم والتزيين الى الشيطان، وجميع ذلك فعل الله. وسئل بعض هؤلاء عن قوله تعالى لابليس ﴿ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيدَيَّ﴾: أيمنعه، ثم يسأله ما منعه؟ قال: نعم، قضى

---

(١) يعنى القضاء والقدر. وقد كذب هذا الفاجر على قضاء الله وقدره، فالله عز وجل خلق البشر ممتازاً عن سائر الخلق بقوة التمييز بين الخير والشر والحق والباطل ﴿وهديناه النجدين﴾، وجعل هذا التمييز مناط التكليف، وقيده بالاستطاعة، وأعفى صاحبه من أحكام الضرورات، وشرع له شريعة عادلة تؤدى به الى الحياة الهنيئة السعيدة ما تمسك بها وكان أمينا لها — محب الدين

(٢) أى ان هذه الزانية ترى عقيدة الجبر سنة للبشر، منكرة آية الله فيه ﴿وهديناه النجدين﴾ فاختارت طريق الفجور، وأنكرت نعمة الله عليها بالاختيار والتمييز. وبعد أن اختارت لنفسها الفجور راضية به مغتبطة حقت عليها شريعة الله باقامة الحد فى الدنيا وعذاب النار فى الآخرة — محب الدين

عليه فى السر ما منعه فى العلانية ولعنه عليه . قال له : فما معنى قوله (النساء ٣٩) : ﴿ وماذا عَلَيهِمْ لَوْ آمَنوا بِاللهِ ﴾ اذا كان هو الذى منعهم ؟ قال : استهزاء بهم . قال : فما معنى قوله (النساء ١٤٧) : ﴿ ما يَفْعَلُ اللهُ بِعَذابِكُمْ إنْ شَكَرْتُمْ وآمَنْتُمْ ﴾ قال : قد فعل ذلك بهم من غير ذنب جنوه ، بل ابتدأهم بالكفر ثم عذبهم عليه ، وليس للآية معنى ! وقال بعض هؤلاء ـ وقد عوتب على ارتكابه معاصى الله ـ فقال : إن كنت عاصيا لأمره فأنا مطيع لارادته . وجرى عند بعض هؤلاء ذكر إبليس وإبائه وامتناعه من السجود لآدم ، فأخذ الجماعة يلعنونه ويذمونه ، فقال : الى متى هذا اللوم ؟ ولو خلى لسجد ، ولكن منع . وأخذ يقيم عذره . فقال بعض الحاضرين : تبا لك سائر اليوم ، أتذب عن الشيطان وتلوم الرحمن ؟ وجاء جماعة الى منزل رجل من هؤلاء فلم يجدوه ، فلما رجع قال : كنت أصلح بين قوم . فقيل له : وأصلحت بينهم ؟ قال : أصلحت ، إن لم يفسد الله . فقيل له : بؤسا لك ، أتحسن الثناء على نفسك وتسيء الثناء على ربك ؟ ومرَّ بلصّ مقطوع اليد على بعض هؤلاء ، فقال : مسكين ، مظلوم ، أجبره على السرقة ثم قطع يده عليها ! وقيل لبعضهم : أترى الله كلف عباده مالا يطيقون ثم يعذبهم عليه ؟ قال : والله قد فعل ذلك ، ولكن لا نجسر أن نتكلم . وأراد رجل من هؤلاء السفر ، فودع أهله وبكى . فقيل : استودعهم الله واستحفظهم إياه . فقال : ما أخاف عليهم غيره . وقال بعض هؤلاء : ذنبة أذنبها أحب الىَّ من عبادة الملائكة . قيل : ولم ؟ قال : لعلمى بأن الله قضاها علىّ وقدرها ، ولم يقضها إلا والخيرة لى فيها . وقال بعض هؤلاء : العارف لا ينكر منكرا ، لاستبصاره بسر الله فى القدر . ولقد دخل شيخ من هؤلاء بلدا ، فأول ما بدأ به من الزيارات زيارة المواخير المشتملة على البغايا والخمور ، فجعل يقول : كيف أنتم فى قدر الله . وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية يقول : عاتبت بعض شيوخ هؤلاء ، فقال لى : المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب ، والكون كله مراد ، فأى شيء أبغض منه ؟ قال فقلت له : اذا كان المحبوب قد أبغض بعض من فى الكون وعاداهم ولعنهم ، فأحببتهم أنت وواليتهم ، أكنت وليا للمحبوب ، أوعدوا له ؟ قال : فكأنما ألقم حجرا . وقرأ قارىء بحضرة بعض هؤلاء (ص ٧٥) : ﴿ قال يا إبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ فقال : هو والله منعه ، ولو قال إبليس

ذلك لـكان صادقا ، وقد أخطأ ابليس الحجة ، ولو كنت حاضرا لقلت له : أنت منعته ! وسمع بعض هؤلاء قارئا يقرأ (فصلت ١٧) : ﴿ وأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ فقال : ليس من هذا شيء ، بل أضلهم وأعماهم . قالوا : فما معنى الآية ؟ قال : مخرقة يمخرق بها !

فيقال : الله أكبر على هؤلاء الملاحدة أعداء الله حقا ، الذين ما قدروا الله حق قدره ، ولا عرفوه حق معرفته ، ولا عظموه حق تعظيمه ، ولا نزهوه عما لا يليق به ، وبغضوه الى عباده وبغضوهم اليه سبحانه ، وأساءوا الثناء عليه جهدهم وطاقتهم ، وهؤلاء خصماء الله حقا الذين جاء فيهم الحديث « يقال يوم القيامة : أين خصماء الله ؟ فيؤمر بهم الى النار » قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى تائيته :

ويدعى خصوم الله يوم معادهم   الى النار طرا فرقة القـــدرية
سواء نفوه أو سعوا ليخاصمـوا   به الله أو ماروا به للشريعـــة

وسمعته يقول : القدرية المذمومون فى السنة وعلى لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثـــلاث : نفاته ، وهم القدرية المجوسية (١) . والمعارضون به للشريعة الذين قالوا (الانعام ١٤٨) : ﴿ لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا ﴾ ، وهم القدرية الشركية (٢) . والمخاصمون به للرب سبحانه وهم أعـداء الله وخصومه وهم القدرية الابليسية (٣) وشيخهم إبليس ، وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال (الحجر ٣٩) : ﴿ بِما أَغْوَيْتَنِي ﴾ ، ولم يعترف بالذنب ويبوء به كما اعترف به آدم ، فمن أقر بالذنب وباء به ونزه ربه فقد أشبه أباه آدم ، ومن اشبه اباه فما ظلم . ومن برأ نفسه واحتج على ربه بالقدر فقد اشبه إبليس . ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبليسية والشركية شر من القدرية النفاة ، لأن النفاة إنما نفوه تنزيها للرب وتعظيما له أن يقدر الذنب ثم يلوم عليه ويعاقب ، ونزهوه أن يعاقب العبد على مالا صنع للعبد فيه البتة بل هو بمنزلة طوله وقصره وسواده وبياضه ونحو ذلك ، كما يحكى عن بعض الجبرية انه حضر مجلس بعض الولاة فأتى بطرّار أحول فقال

---

(١) وعلى رأسهم المعتزلة ومن تبعهم كالشيعة   (٢) وعقيدتهم عقيدة الجبر

(٣) وقد زادوا على الجبرية التمرد والفحة واستعمال نعمة التميز والتخيير فى اختيار الشر والضلاله

له الوالى : ما ترى فيه ؟ فقال : اضربه خمسة عشر ـ يعنى سوطا ـ فقال له بعض الحاضرين ممن ينفى الجبر : بل ينبغى أن يضرب ثلاثين سوطا خمسة عشر لطره ، ومثلها لحوله . فقال الجبرى : كيف يضرب على الحول ولا صنع له فيه ؟ فقال : كما يضرب على الطر ولا صنع له فيه عندك ، فبهت الجبرى . واما القدرية الابليسة والشركية فكثير منهم منسلخ عن الشرع ، عدو لله ورسله ، لا يقر بأمر ولا نهى ، وتلك وراثة عن شيوخهم الذين قال الله فيهم (الانعام ١٤٨) : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ ، كَذٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقوا بَأْسَنا ، قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا ، إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وإِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُون ﴾ وقال تعالى (النحل ٣٥) : ﴿ وقال الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِنْ دُونه مِنْ شَيْء ، كَذٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِين ﴾ وقال تعالى (الزخرف ٢٠) : ﴿ وقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمٰنُ ما عَبَدْناهُمْ ، ما لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ، إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُون ﴾ وقال (يس ٤٧) : ﴿ وإذا قِيلَ لهم أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قال الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فى ضَلالٍ مُبِين ﴾ فهذه أربعة مواضع فى القرآن بين سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل

وقد افترق الناس فى الكلام على هذه الآيات أربع فرق :

الفرقة الأولى : جعلت هذه الحجة حجة صحيحة ، وأن للمحتج بها الحجة على الله . ثم افترق هؤلاء فرقتين : فرقة كذبت بالأمر والوعد والوعيد ، وزعمت ان الأمر والنهى والوعد والوعيد بعد هذا يكون ظلما ، والله لا يظلم من خلقه أحدا . وفرقة صدقت بالأمر والنهى والوعد والوعيد وقالت : ليس ذلك بظلم ، والله يتصرف فى ملكه كيف يشاء ، ويعذب العبد على ما لا صنع له فيه ، بل يعذبه على فعله هو سبحانه لا على فعل عبده ، إذ العبد لا فعل له ، والملك ملكه ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون . فان هؤلاء الكفار انما قالوا هذه المقالة التى حكاها الله عنهم استهزاء منهم ، ولو قالوها اعتقادا للقضاء والقدر واسنادا لجميع الكائنات الى مشيئته وقدرته لم ينكر عليهم !

ومضمون قول هذه الفرقة أن هذه حجة صحيحة اذا قالوها على وجه الاعتقاد لا على جهة الاستهزاء ، فيكون للمشركين على الله الحجة ، وكفى بهذا القول فسادا وبطلانا

الفرقة الثانية : جعلت هذه الآيات حجة لها فى إبطال القضاء والقدر والمشيئة العامة إذ لو صحت المشيئة العامة وكان الله قد شاء منهم الشرك والكفر وعبادة الأوثان لكانوا قد قالوا الحق وكان الله يصدقهم عليه ولم ينكر عليهم ، فحيث وصفهم بالخرص الذى هو الكذب ، ونفى عنهم العلم ، دل على أن هذا الذى قالوه ليس بصحيح ، وأنهم كاذبون فيه ، إذ لو كان علما لكانوا صادقين فى الإخبار به ولم يقل لهم ﴿ هل عندكم من علم ﴾ . وجعلت هذه الفرقة هذه الآيات حجة لها على التكذيب بالقضاء والقدر ، وزعمت بها أن يكون فى ملكه ما لا يشاء ، ويشاء ما لا يكون ، وأنه لا قدرة له على أفعال عباده من الإنس والجن والملائكة ولا على أفعال الحيوانات ، وأنه لا يقدر أن يضل أحدا ولا يهديه ولا يوفقه أكثر مما فعل به ، ولا يعصمه من الذنوب والكفر ، ولا يلهمه رشده ، ولا يجعل فى قلبه الإيمان ، ولا هو الذى جعل المصلى مصليا والبر برا والفاجر فاجرا والمؤمن مؤمنا والكافر كافرا ، بل هم الذين جعلوا أنفسهم كذلك . فهذه الفرقة شاركت الفرقة التى قبلها فى القاء الحرب والعداوة بين الشرع والقدر : فالاولى تحيزت الى القدر وحاربت الشرع ، والثانية تحيزت الى الشرع وكذبت القدر . والطائفتان ضالتان ، وإحداهما أضل من الأخرى

والفرقة الثالثة : آمنت بالقضاء والقدر ، وأقرت بالأمر والنهى ، ونزلوا كل واحد منزلته . فالقضاء والقدر يؤمن به ولا يحتج به ، والأمر والنهى يمتثل ويطاع . فالايمان بالقضاء والقدر عندهم من تمام التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله ، والقيام بالأمر والنهى موجب شهادة أن محمدا رسول الله . وقالوا : من لم يقر بالقضاء والقدر ويقم بالامر والنهى فقد كذب بالشهادتين وان نطق بهما بلسانه . ثم افترقوا فى وجه هذه الآيات فرقتين : فرقة قالت : إنما أنكر عليهم استدلالهم بالمشيئة العامة والقضاء والقدر على رضاه ومحبته لذلك ، فجعلوا مشيئته له وتقديره له دليلا على رضاه به ومحبته له ، إذ لو كرهه وأبغضه لحال بينه وبينهم ، فان الحكيم إذا كان قادرا على دفع ما يكرهه ويبغضه دفعه ومنع من وقوعه ، واذا لم يمنع من وقوعه لزم إما عدم قدرته وإما عدم حكمته ،

وكلاهما ممتنع فى حق الله ، فعلم محبته لما نحن عليه من عبادة غيره ومن الشرك به ! وقد وافق هؤلاء من قال : ان الله يحب الكفر والفسوق والعصيان ويرضى بها ، ولكن خالفهم فى أنه نهى عنها وأمر باضدادها ويعاقب عليها ، فوافقهم فى نصف قولهم وخالفهم فى الشطر الآخر . وهذه الآيات من أكبر الحجج على بطلان قول الطائفتين ، وأن مشيئة الله تعالى العامة وقضاءه وقدره لا تستلزم محبته ورضاه لكل ما شاءه وقدّره . وهؤلاء المشركون لما استدلوا بمشيئته على محبته ورضاه كذبهم وأنكر عليهم وأخبر أنه لا علم لهم بذلك وأنهم خارصون مفترون ، فان محبة الله للشيء ورضاه به إنما يعلم بأمره به على لسان رسوله لا بمجرد خلقه ، فانه خلق إبليس وجنوده وهم أعداؤه وهو سبحانه يبغضهم ويلعنهم وهم خلقه ، فهكذا فى الأفعال خلق خيرها وشرها ، وهو يحب خيرها ويأمر به ويثيب عليه ويبغض شرها وينهى عنه ويعاقب عليه وكلاهما خلقه ، ولله الحكمة البالغة التامة فى خلقه ما يبغضه ويكرهه من الذوات والصفات والأفعال ، كل صادر عن حكمته وعلمه كما هو صادر عن قدرته ومشيئته . وقالت الفرقة الثانيه : انما أنكر عليهم معارضة الشرع بالقدر ودفع الأمر بالمشيئة ، فلما قامت عليهم حجة الله ولزمهم أمره ونهيه دفعوه بقضائه وقدره ، فجعلوا القضاء والقدر إبطالا لدعوة الرسل ودفعا لما جاءوا به ، وشاركهم فى ذلك إخوانهم وذريتهم الذين يحتجون بالقضاء والقدر على المعاصى والذنوب فى نصف أقوالهم ، وخالفوهم فى النصف الآخر وهو إقرارهم بالأمر والنهى

فانظر كيف انقسمت هذه المواريث على هذه السهام ، وورث كل قوم أئمتهم وأسلافهم ، إما فى جميع تركتهم وإما فى كثير منها ، وإما فى جزء منها . وهدى الله بفضله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم وأصحابه ، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض ، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد ، وأنه هو الذى جعل المؤمن مؤمنا والمصلى مصليا والمتقى متقيا ، وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره وأئمة الضلالة يدعون الى النار ، وأنه ألهم كل نفس فجورها وتقواها ، وأنه يهدى من يشاء بفضله ورحمته ويضل من يشاء بعدله وحكمته ، وأنه هو الذى وفق أهل الطاعة لطاعته فاطاعوه ولو

شاء لخذلهم فعصوه ، وأنه حال بين الكفار وقلوبهم فانه يحول بين المرء وقلبه فكفروا به ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه ، وأنه من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأنه لو شاء لآمن من فى الأرض كلهم جميعا إيمانا يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم[1] وانه لو شاء ما اقتتلوا ، ولكن الله يفعل ما يريد ﴿ وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوه ، فَذَرْهُمْ وَما يَفْتَرُونَ ﴾ الأنعام ١١٢

والقضاء والقدر عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى : الأولى علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم . الثانية كتابة ذلك فى الذكر عنده قبل خلق السموات والأرض . الثالثة مشيئته المتناولة لكل موجود ، فلا خروج لكائن عن مشيئته كما لا خروج له عن علمه . الرابعة خلقه له وإيجاده وتكوينه ، فانه لا خالق إلا الله ، والله خالق كل شيء . فالخالق عندهم واحد وما سواه فمخلوق[2] ولا واسطة عندهم بين الخالق والمخلوق[3] ويؤمنون مع ذلك بحكمته ، وأنه حكيم فى كل ما فعله وخلقه ، وان مصدر ذلك جميعه عن حكمة تامة هى التى اقتضت صدور ذلك وخلقه ، وان حكمته حكمة حق عائدة اليه قائمة به كسائر صفاته ، وليست عبارة عن مطابقة علمه لمعلومه وقدرته لمقدوره كما يقوله نفاة الحكمة الذين يقرون بلفظها دون حقيقتها ، بل هى أمر وراء ذلك ، وهى الغاية المحبوبة له المطلوبة التى هى متعلق محبته وحمده ، ولأجلها خلق فسوّى ، وقدّر فهدى ، وأمات وأحيا ، وأسعد وأشقى ، وأضل وهدى ومنع وأعطى . وهذه الحكمة هى الغاية ، والفعل وسيلة اليها ، فاثبات الفعل مع نفيها إثبات للوسائل ونفى للغايات وهو محال ، إذ نفى الغاية مستلزم لنفى الوسيلة ، فنفى الوسيلة

---

(١) وذلك بأن يخلق البشر فى أصل فطرتهم مختارين للخير وحده بلا اختيار منهم بل بفطرتهم كالملائكة ، فلما لم يفعل ذلك ، وخلق فيهم قوة التمييز ومزية الاختيار ، فقد جعل الأمر اليهم بما خلقه فيهم من تمييز ، وهو خالق كل شيء ، واختيارهم مناط تكليفهم ، والجزاء على الاختيار حق وعدل — محب الدين

(٢) وعلى خلاف ذلك الملاحدة القائلون بوحدة الوجود كالبراهمة ومن على مذهبهم كالحلاج وابن عربى وابن سبعين وابن الفارض ، فانهم يعتقدون أن الكون هو الله ، فكل موجود جزء من الله ، والله حالّ فى كل موجود . والباطنية من الاسماعيليين والبهائيين يرون — تبعا لأصلهم من الشيعة — أن الالوهية حالة فى بعض أفراد من البشر ، وهم يؤلهون هؤلاء الافراد ويعبدون أسماءهم وقبورهم وإن كان بعضهم ينافقون فلا يسمونهم آلهة — محب الدين

(٣) بل وسيلة المخلوق الى الخالق العمل الصالح ، وطاعة الله ورسوله ، ومحبتهما — محب الدين

وهى الفعل لازم لنفى الغـاية وهى الحـكمة ، ونفى قيام الفعل والحـكمة به نفى لهما فى الحقيقة ، إذ فعل لا يقوم بفاعله وحكمة لا تقوم بالحـكيم شىء لا يعقل ، وذلك يستلزم إنـكار ربوبيته وإلهيته ، وهذا لازم لمن نفى ذلك ، ولا محيد له عنه وان أبى التزامه . وأما من أثبت حكمته وأفعاله على الوجه المطابق للعقل والفطرة وما جاءت به الرسل لم يلزم من قوله محذور البتة ، بل قوله حق ، ولازم الحق حق كائنا ما كان

والمقصود أن ورثة الرسل وخلفاءهم ـ لكمال ميراثهم لنبيهم ـ آمنوا بالقضاء والقدر والحـكم والغايات المحمودة فى أفعال الرب وأوامره ، وقاموا مع ذلك بالأمر والنهى ، وصدقوا بالوعد والوعيد ، فآمنوا بالخلق الذى من تمام الايمان به إثبات القدر والحكمة ، وبالأمر الذى من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب ، فصدقوا بالخلق والأمر ، ولم ينفوهما بنفى لوازمهما كما فعلت القدرية المجوسية والقدرية المعارضة للأمر بالقدر ، وكانوا أسعد الناس بالخلق وأقربهم عصبة فى هذا الميراث النبوى ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

واعلم أن الايمان بحقيقة القدر والشرع والحـكمة لا يجتمع إلا فى قلوب خواص الخلق ولب العالم ، وليس الشأن فى الإيمان بألفاظ هذه المسميات وجحد حقائقها كما يفعل كثير من طوائف الضلال ، فان القدرية تؤمن بلفظ القدر ، ومنهم من يردّه الى العلم ، ومنهم من يرده الى الأمر الدينى ويجعل قضاءه وقدره هو نفس أمره ونهيه ونفس مشيئة الله لأفعال عباده بأمره لهم بها ، وهذا حقيقة إنـكار القضاء والقدر . وكذلك الحـكمة فان الجبرية تؤمن بلفظها ويجحدون حقيقتها ، فانهم يجعلونها مطابقة علمه تعالى لمعلومه تعالى ، وإرادته لمراده تعالى ، فهى عندهم وقوع الـكائنات على وفق علمه وإرادته . والقدرية النفاة لا يرضون بهذا ، بل يرتفعون عنه طبقة ويثبتون حكمة زائدة على ذلك ، لـكنهم ينفون قيامها بالفاعل الحـكيم ويجعلونها مخلوقا من مخلوقاته كما قالوا فى كلامه وإرادته . فهؤلاء كلهم أقروا بلفظ الحـكمة وجحدوا معناها وحقيقتها . وكذلك الأمر والشرع ، فان من أنـكر كلام الله وقال : ان الله لم يتكلم ولا يتكلم ، ولا قال ولا يقول ، ولا يحب شيئا ولا يبغض شيئا ، وجميع الـكائنات محبوبة له وما لم يكن فهو مكروه له ، ولا يحب ولا يرضى ولا يغضب ، ولا فرق فى نفس الأمر بين الصدق والـكذب

والفجور ، والسجود للأصنام والشمس والقمر والسجود له ، ولم يكلف أحدا ما يقدر عليه بل كل تكليفه تكليف مالا يطاق ولا قدرة للمكلف عليه البتة ، ويجوز أن يعذب رجالا إذ لم يكونوا نساء ويعذب نساء إذ لم يكونوا رجالا وسودا حيث لم يكونوا بيضا وبيضا حيث لم يكونوا سودا ، ويجوز أن يظهر المعجزة على أيدى الكذابين ويرسل رسولا يدعو الى الباطل وعبادة الأوثان ، ويأمر بقتل النفوس وأنواع الفجور . ولا ريب أن هذا يرفع الشرائع والأمر والنهى بالكلية ، ولولا تناقض القائلين به لكانوا منسلخين من دين الرسل ، ولكن مشى الحال بعض المشى بتناقضهم ، وهو خير لهم من طرد أصولهم والقول بموجبها

والمقصود انه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهى والوعد والوعيد حقيقة الايمان إلا أتباع الرسل وورثتهم ، والقضاء والقدر منشأه عن علم الرب وقدرته ، ولهذا قال الامام أحمد : القدر قدرة الله . واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان وقال : إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر . ولهذا كان المنكرون للقدر فرقتين : فرقة كذبت بالعلم السابق ونفته ، وهم غلاتهم الذين كفرهم السلف والأئمة وتبرأ منهم الصحابة . وفرقة جحدت كمال القدرة وأنكرت أن تكون أفعال العباد مقدورة لله تعالى ، وصرحت بأن الله لا يقدر عليها ، فأنكر هؤلاء كمال قدرة الرب ، وأنكرت الأخرى كمال علمه ، وقابلتهم الجبرية فجاءت على إثبات القدرة والعلم وأنكرت الحكمة والرحمة ، ولهذا كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته ، ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين والصفتين من هذه الثلاثة كثيرا كقوله (النمل ٦) : ﴿ وإنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ وقال (الزمر ١) : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ وقال : ﴿ حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ وقال فى حم فصلت (١٢) بعد ذكر تخليق العالم : ﴿ ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ وذكر نظير هذا فى الأنعام (٩٦) فقال : ﴿ فالِقُ الأَصْبَاحِ وجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ، ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضى أن لا يخرج موجود عن قدرته ، وارتباطه بعلمه

التام يقتضى إحاطته به وتقدمه عليه ، وارتباطه بحكمته يقتضى وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه . وكذلك أمره بعلمه وحكمته وعزته ، فهو عليم بخلقه وأمره ، حكيم فى خلقه وأمره . ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنى ، والحكمة من صفاته العلى ، والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة ، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة ، والحكمة هى سنة الرسول ﷺ وهى تتضمن العلم بالحق والعمل به والخبر عنه والأمر به ، فكل هذا يسمى حكمة وفى الأثر « الحكمة ضالة المؤمن » ، وفى الحديث « إن من الشعر حكمة » ، فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده ، وهو محمود على جميع مافى الكون من خير وشر حمدا استحقه لذاته وصدر عنه خلقه وأمره ، فصدر ذلك كله عن الحكمة ، فانكار الحكمة انكار لحمده فى الحقيقة . والله أعلم

فصل فى تفصيل ما أُجْمِلَ فيما مرَّ وتوضيحه

وإنما يتبين هذا ببيان وجود الحكمة فى كل ما خلقه الله وأمر به ، وبيان أنه كله خير من جهة إضافته اليه سبحانه ، وأنه من تلك الاضافة خير وحكمة ، وأن جهة الشر منه من جهة إضافته الى العبد ، كما قال ﷺ فى دعاء الاستفتاح : « لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، والشر ليس إليك » فهذا النفى يقتضى امتناع إضافة الشر اليه تعالى بوجه ، فلا يضاف الى ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله ، فان ذاته منزهة عن كل شر ، وصفاته كذلك إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال لا نقص فيها بوجه من الوجوه ، وأسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب ، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك البتة ، وهو المحمود على ذلك كله فيستحيل إضافة الشر اليه ، وتحقيق ذلك أن الشر ليس هو إلا الذنوب وعقوباتها كما فى خطبته ﷺ « الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » فتضمن ذلك الاستعاذة من شرور النفوس ، ومن سيئات الأعمال وهى عقوباتها . وعلى هذا فالأضافة على معنى « اللام » من باب إضافة المتغايرين ، أو يقال : المراد السيئات من الأعمال ، فعلى هذا الاضافة بمعنى « من » وهى من باب إضافة النوع الى جنسه ، ويدل على الأول قوله تعالى (غافر ٩) : ﴿وَقِهِمُ السيِّئاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَه﴾

قال شيخنا [١] : وهذا أشبه إذا أريد السيئات من الأعمال ، فان أريد ما وقع منها فالاستعاذة إنما تكون من عقوباتها ، إذ الواقع من شر النفس . وأيضا فلا يقال فى هذه التى لم توجد بعد سيئات أعمالنا فانها لم تكن بعد أعمالا فضلا عن أن تكون سيئات ، وإضافة الأعمال إلينا تقتضى وجودها إذ ما لم يوجد بعد ليس هو من أعمالنا ، إلا أن يقال : من سيئات الأعمال التى إذا عملناها كانت سيئات . ولمن رجح التقدير الثانى أن يقول : العقوبات ليست لجميع الأعمال ، بل للمحرمات منها ، والأعمال أعم ، وحملها على المحرمات خاصة خلاف ظاهر اللفظ . بخلاف ما اذا كانت الاضافة على معنى « من » فتكون الأعمال على عمومها ، والسيئات بعضها ، فتكون السيئات على عمومها . ويترجح أيضا أن الاستعاذة تكون قد اشتملت على أصول الشر كله ، وهو شر النفس الكامن فيها الذى لم يخرج الى العمل ، وشر العمل الخارج الذى سولته النفس ، فالأول شر الطبيعة والصفة التى فى النفس والثانى شر العمل المتعلق بالكسب والارادة ، ويلزم من المعافاة من هذين الشرين المعافاة من موجبهما وهو العقوبة ، فتكون الاستعاذة قد شملت جميع أنواع الشر بالمطابقة واللزوم ، وهذا هو اللائق بمن أوتى جوامع الكلم ، فان هذا من جوامع كلمه البديعة العظيمة الشأن التى لا يعرف قدرها إلا أهل العلم والايمان

واذا عرف هذا وأنه ليس فى الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها ، وكونها ذنوبا تأتى من نفس العبد ، فان سبب الذنب الظلم والجهل وهما من نفس العبد ، كما أن سبب الخير الحمد والعلم والحكمة والغنى وهى أمور ذاتيه للرب ، وذات الرب سبحانه مستلزمة للحكمة والخير والجود ، وذات العبد مستلزمة للجهل والظلم ، وما فيه من العلم والعدل فانما حصل له بفضل الله عليه وهو أمر خارج عن نفسه ، فمن أراد الله به خيرا أعطاه هذا الفضل فصدر منه الاحسان والبر والطاعة ، ومن أراد به شرا أمسكه عنه وخلاه ودواعى نفسه وطبعه وموجبها فصدر منه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح ، وليس منعه لذلك ظلما منه سبحانه ، فانه فضله ، وليس من منع فضله ظالما ، لا سيما اذا منعه عن محل لا يستحقه ولا يليق به . وأيضا فان هذا الفضل هو توفيقه

---

(١) هو شيخ الاسلام ابن تيمية

وإرادته من نفسه أن يلطف بعبده ويوفقه ويعينه ولا يخلى بينه وبين نفسه ، وهذا محض فعله وفضله ، وهو سبحانه أعلم بالمحل الذى يصلح لهذا الفضل ويليق به ويثمر به ويزكو به . وقد أشار تعالى الى هذا المعنى بقوله (الانعام ٥٣) : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ فأخبر سبحانه أنه أعلم بمن يعرف قدر هذه النعمة ويشكره عليها ، فان أصل الشكر هو الاعتراف بانعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة ، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلا بها لم يشكرها ، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضا ، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها ، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرض به وعنه لم يشكرها أيضا ، ومن عرفها وعرف المنعم بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضى به وعنه واستعملها فى محابه وطاعته فهذا هو الشاكر لها . فلا بد فى الشكر من علم القلب ، وعمل يتبع العلم — وهو الميل الى المنعم ومحبته والخضوع له — كما فى صحيح البخارى عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها اذا أصبح موقنا بها فمات من يومه دخل الجنة ، ومن قالها إذا أمسى موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة » فقوله « ابوء لك بنعمتك على » يتضمن الإقرار والإنابة الى الله بعبوديته ، فان المباءة هى التى يبوء اليها الشخص — أى يرجع اليها رجوع استقرار — والمباءة هى المستقر ، ومنه قوله « من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » أى ليتخذ مقعده من النار مباءة يلزمه ويستقر فيه ، لا كالمنزل الذى ينزله ثم يرحل عنه . فالعبد يبوء الى الله بنعمته عليه ، ويبوء بذنبه ، ويرجع اليه بالاعتراف بهذا وبهذا رجوع مطمئن الى ربه منيب اليه ، ليس رجوع من أقبل عليه ثم أعرض عنه ، بل رجوع من لا يعرض عن ربه ، بل لا يزال مقبلا عليه اذا كان لا بد له منه ، فهو معبوده وهو مستغاثه ، لا صلاح له إلا بعبادته ، فان لم يكن معبوده هلك وفسد ، ولا يمكن أن يعبده الا باعانته . وفى الحديث

« مثل المؤمن مثل الفرس فى آخيته[١] : يجول ثم يرجع الى آخيته . كذلك المؤمن يجول ثم يرجع الى الايمان » . فقوله « أبوء » يتضمن أنى وإن جلت كما يجول الفرس ـ إما بالذنب وإما بالتقصير فى الشكر ـ فانى راجع منيب أوّاب اليك ، رجوع من لا غنى له عنك . وذكر النعمة والذنب لأن العبد دائما يتقلب بينهما ، فهو بين نعمة من ربه وذنب منه هو ، كما فى الأثر الإلهى « ابن آدم ، خيرى اليك نازل ، وشرك الىّ صاعد ، كم أتحبب إليك بالنعم وأنا غنى عنك ، وكم تتبغض إلىّ بالمعاصى وأنت فقير الىّ ، ولا يزال الملك الكريم يعرج الىّ منك بعمل قبيح » . وكان فى زمن الحسن البصرى شاب لا يرى إلا وحده ، فسأله الحسن عن ذلك فقال : إنى أجدنى بين نعمة من الله وذنب منى فأريد أن أحدث للنعمة شكرا وللذنب استغفارا ، فذلك الذى شغلنى عن الناس . أو كما قال . فقال له : أنت أفقه من الحسن . فالخير كله من الله كما قال تعالى (النحل ٥٣) : ﴿ وما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ وقال (الحجرات ٧) : ﴿ ولٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وزَيَّنَهُ فى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ والْفُسُوقَ والْعِصْيانَ أُولٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُون . فَضْلاً مِنَ اللهِ ونِعْمَة ﴾ وقال (الحجرات ١٧) : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ، قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدا كُمْ للْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين ﴾ وقال تعالى (الفاتحة ٦ ـ ٧) : ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ وهؤلاء المنعم عليهم هم المذكورون فى قوله (النساء ٦٩) : ﴿ ومَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً ﴾ : فالنعم كلها من نعم الله وفضله على عبده ، وهو سبحانه ـ وإن كان أجود الأجودين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين ـ فانه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ، لا يضع الأشياء إلا فى مواضعها اللائقة بها ، ولا يناقض جوده ورحمته وفضله حكمته وعدله . ولو رأى العقلاء واحدا منهم قد وضع المسك فى الحشوش والاخلية ، ووضع النجاسات والقاذورات فى مواضع الطيب والنظافة ، لاشتد نكيرهم عليه والقدح فى عقله ونسبوه الى السفه وخلاف الحكمة ،

(١) الآخية : عروة فى الحائط أو الأرض يشد بها رسن الدابة

وكذلك لو وضع العقوبة موضع الإحسان والإحسان موضع العقوبة لسفهوه وقدحوا في عقله ، كما قال القائل :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وكذلك لو وضع الدواء موضع الغذاء والغذاء موضع الدواء ، والاستفراغ حيث يكون اللائق به عدمه والامساك حيث يليق الاستفراغ ، وكذلك وضع الماء موضع الطعام والطعام موضع الماء ، وأمثال ذلك مما يخل بالحكمة ، بل لو أقبل على الحيوان البهيم يريد تعليمه ما لم يخلق له من العلوم والصنائع ، فمن بهرت حكمته العقول والألباب كيف ينبغى له أن يضع الأشياء فى غير مواضعها اللائقة بها ؟ ومن المعلوم أن أجلَّ نعمه على عبده نعمة الايمان به ومعرفته ومحبته وطاعته والرضا به والإنابة اليه والتوكل عليه والتزام عبوديته . ومن المعلوم أيضا أن الأرواح منها الخبيث الذى لا أخبث منه ، ومنها الطيب ، وبين ذلك . وكذلك القلوب منها القلب الشريف الزكى ، والقلب الخسيس الخبيث . وهو سبحانه خلق الأضداد كما خلق الليل والنهار والبرد والحر والداء والدواء والعلو والسفل ، وهو أعلم بالقلوب الزاكية والأرواح الطيبة التى تصلح لاستقرار هذه النعم فيها ، وإيداعها عندها ، ويزكو بذرها فيها ، فيكون تخصيصه لها بهذه النعمة كتخصيص الأرض الطيبة القابلة للبذر بالبذر ، فليس من الحكمة أن يبذر البر فى الصخور والرمال والسباخ ، وفاعل ذلك غير حكيم ، فما الظن ببذر الايمان والقرآن والحكمة ونور المعرفة والبصيرة فى المحال التى هى أخبث المحال

فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالاته أصلا وميراثا ، فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته فيؤدّيها الى عباده بالأمانة والنصيحة وتعظيم المرسل والقيام بحقه والصبر على أوامره والشكر لنعمه والتقرب اليه ، ومن لا يصلح لذلك . وكذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الأمم لوراثة رسله والقيام بخلافتهم وحمل ما بلغوه عن ربهم[(١)] . قال عبد الله بن مسعود : ان الله نظر فى قلوب العباد فرأى قلب محمد ﷺ خير قلوب أهل

---

(١) وقد عرضنا البراهين على صحة ذلك من التاريخ والواقع فى كتابنا (مع الرعيل الأول) وبينا فيه حكمة الله فى اختيار الجيل المثالى لصحبة الرسول صلى الله عليه وسلم من أكرم المعادن ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس كما وصفهم الله جل ثناؤه محب الدين

الأرض فاختصه برسالته ، ثم نظر فى قلوب العباد فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد فاختارهم لصحبته . وفى أثر بنى اسرائيل أن الله تعالى قال لموسى : أتدرى لم اخترتك لكلامى ؟ قال : لا يارب . قال : انى نظرت فى قلوب العباد فلم أر فيها أخضع من قلبك لى . أو نحو هذا . فالرب سبحانه اذا علم من محل أهلية لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده حبب اليه ذلك ووضعه فيه وكتبه فى قلبه ووفقه له وأعانه عليه ويسر له طرقه وأغلق دونه الأبواب التى تحول بينه وبين ذلك ، ثم تولاه بلطفه وتدبيره وتيسيره وتربيته أحسن من تربية الوالد الشفيق الرحيم المحسن لولده الذى هو أحب شىء اليه ، فلا يزال يعامله بلطفه ويختصه بفضله ويؤثره برحمته ويمده بمعونته ويؤيده بتوفيقه ويريه مواقع إحسانه اليه وبره به ، فيزداد العبد به معرفة وله محبة واليه إنابة وعليه توكلا ، ولا يتولى معه غيره ولا يعبد معه سواه ، وهذا هو الذى عرف قدر النعمة وعرف المنعم وأقر بنعمته وصرفها فى مرضاته . واقتضت حكمة الرب وجوده وكرمه وإحسانه أن بذر فى هذا القلب بذر الايمان والمعرفة ، وسقاه ماء العلم النافع والعمل الصالح ، وأطلع عليه من نوره شمس الهداية ، وصرف عنه الآفات المانعة من حصول الثمرة ، فأنبتت أرضه الزاكية من كل زوج كريم ، كما فى الصحيح من حديث أبى موسى عن النبى ﷺ قال : « مثل ما بعثنى الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى انما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه بما بعثنى الله به ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » . فمثل القلوب بالأرض التى هى محل النبات والثمار ، ومثل الوحى الذى وصل اليها من بارئها وفاطرها بالماء الذى ينزله على الأرض ، فمن الأرض أرض طيبة قابلة للماء والنبات ، فلما أصابها المـــاء أنبتت ما انتفع به الآدميون والبهائم وأقوات المكلفين وغيرهم ، وهذه بمنزلة القلب القابل لهدى الله ووحيه المستعد لزكائه فيه وثمرته ونمائه ، وهذا خير قلوب العالمين . ومن الأرض أرض صلبة منخفضة غير مرتفعة ولا رابية ، قابلة لحفظ الماء واستقراره فيها ، ففيها قوة الحفظ وليس فيها قوة النبات ، فلما حصل فيها الماء أمسكته وحفظته فورده الناس

لشربهم وشرب مواشيهم وسقوا منه زروعهم ، وهذا بمنزلة القلب الذى حفظ الوحى وضبطه وأداه الى من هو أفهم له منه وأفقه منه وأعرف بمراده ، وهذا فى الدرجة الثانية . ومن الأرض أرض قيعان ـ وهى المستوية التى لا تنبت إما لكونها سبخة أو رمالا ، ولا يستقر فيها الماء ـ فاذا وقع عليها الماء ذهب ضائعا لم تمسكه لشرب الناس ولم تنبت به كلأ لأنها غير قابلة لحفظ الماء ولا لنبات الكلأ والعشب ، وهذا حال أكثر الخلق وهم الأشقياء الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسا ، ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين ، بل لا بد لكل مسلم أن يزكو الوحى فى قلبه ، فينبت من العمل الصالح والكلم الطيب ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته ، فمن لم ينبت قلبه شيئا من الخير البتة فهذا من أشقى الأشقياء . فصلوات الله وسلامه على من الهدى والبيان والشفاء والعصمة فى كلامه وفى أمثاله

والمقصود أن الله سبحانه أعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه ، ومن يصلح لها ومن لا يصلح ، وأن حكمته تأبى أن يضع ذلك عند غير أهله ، كما تأبى أن يمنعه من يصلح له . وهو سبحانه الذى جعل المحل صالحا وجعله أهلا وقابلا ، فمنه الإعداد والإمداد ، ومنه السبب والمسبب . ومن اعترض بقوله : فهلا جعل المحالّ كلها كذلك ، وجعل القلوب على قلب واحد ! فهو من أجهل الناس وأضلهم وأسفههم ، وهو بمنزلة من يقول : لم خلق الأضداد ، وهلا جعلها كلها سببا واحدا ! فلم خلق الليل والنهار والفوق والتحت والحر والبرد والدواء والداء والشياطين والملائكة والروائح الطيبة والكريهة والحلو والمر والحسن والقبيح ؟ وهل يسمح خاطر من له أدنى مسكة من عقل بمثل هذا السؤال الدالّ على حمق سائله وفساد عقله ؟ وهل ذلك إلا موجب ربوبيته وإلهيته وملكه وقدرته ومشيئته وحكمته ، ويستحيل أن يتخلف موجب صفات كماله عنها ؟ وهل حقيقة الملك إلا باكرام الأولياء وإهانة الأعداء ؟ وهل تمام الحكمة وكمال القدرة إلا بخلق المتضادات والمختلفات وترتيب آثارها عليها وإيصال ما يليق بكل منها اليه ؟ وهل ظهور آثار أسمائه وصفاته فى العالم إلا من لوازم ربوبيته وملكه ؟ فهل يكون رزّاقا وغفارا وعفوّا وحليما ورحيما ولم يوجد من يرزقه ولا من يغفر له ويعفو عنه ويحلم عنه ويرحمه ؟ وهل انتقامه إلا من لوازم ربوبيته وملكه ؟ فمن ينتقم إن لم يكن له أعداء

ينتقم منهم ، ويرى أولياءه كمال نعمته عليهم واختصاصه إياهم دون غيرهم بكرامته وثوابه ؟ وهل فى الحكمة الإلهية تعطيل الخير الكثير لأجل شر جزئى يكون من لوازمه ؟ فهذا الغيث الذى يحيي به الله البلاد والعباد والشجر والدواب ، كم يحبس من مسافر ، ويمنع من قصاد ، ويهدم من بناء ، ويعوق من مصلحة ؟ ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح ؟ وهل هذه المفاسد فى جنب مصالحه إلا كتفلة فى بحر ؟ وهل تعطيله لئلا تحصل به هذه المفاسد إلا موجبا لأعظم المفاسد والهلاك ؟ وهذه الشمس التى سخرها الله لمنافع عباده وإنضاج ثمارهم وأقواتهم وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير ، وفيها من المنافع والمصالح ما فيها ، كم تؤذى مسافرا وغيره بحرّها ، وكم تجفف رطوبة ، وكم تعطش حيوانا ، وكم تحبس عن مصلحة ، وكم تنشف من مورد وتحرق من زرع ؟ ولكن أين يقع هذا فى جنب ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والمكملة ؟ فتعطيل الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر كثير ، وهو خلاف موجب الحكمة الذى تنزه الله سبحانه عنه

قلت لشيخ الاسلام[1] : فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجردة عن المفاسد مشتملة على المصلحة الخالصة ، فقال : خلق هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع ، فان وجود الملزوم بدون لازمه محال ، ولو خلقت على غير هذا الوجه لكانت غير هذه ، ولكان عالما آخر غير هذا . قال : ومن الأشياء ما تكون ذاته مستلزمة لنوع من الأمور لا ينفك عنه ـ كالحركة مثلا المستلزمة لكونها لا تبقى ـ فاذا قيل : لم لم تخلق الحركة المعينة باقية ؟ قيل : لأن ذات الحركة تتضمن النقلة من مكان الى مكان والتحول من حال الى حال ، فاذا قدر ما ليس كذلك لم يكن حركة . ونفس الانسان هى فى ذاتها جاهلة عاجزة فقيرة كما قال تعالى (النحل ٧٨) : ﴿ واللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ وإنما يأتيها العلم والقدرة والغنى من الله بفضله ورحمته ، فما حصل لها من كمال وخير فمن الله ، وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب الظلم والشر فهو منها ومن حقيقتها . وهذه أمور عدمية ، وليس لها من نفسها وجود ولا كمال ، والأمور العدمية من لوازم وجودها ، ولو جعلت على غير ذلك لم تكن هى هذه النفس الانسانية بل مخلوقا آخر

---

(١) هو إمام المعقول والمنقول ، علامة الدنيا ، تقى الدين ابن تيمية ، تولى الله عنا مكافأته

حقيقة نفس الانسان جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة ، والشر الذى يحصل لها نوعان : عدم ، ووجود . فالأول كعدم العلم والايمان والصبر وإرادة الخيرات وعدم العمل بها وهذا العدم ليس له فاعل إذ العدم المحض لا يكون له فاعل ، لأن تأثير الفاعل إنما هو فى أمر وجودى ، وكذلك عدم استعدادها للخيرات والكمالات هو عدم محض ليس له فاعل ، فان العدم ليس بشيء أصلا ، وما ليس بشيء لا يقال إنه مفعول لفاعل ، فلا يقال إنه من الله ، إنما يحتاج الى الفاعل الأمور الوجودية ، ولهذا من قول المسلمين كلهم « ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن » فكل كائن فبمشيئته كان ، وما لم يكن فلعدم مشيئته . والعدم يعلل بعدم السبب أو الشرط تارة ، وبوجود المانع أخرى . وقد يقال علة العدم عدم العلة . وبعض الناس يقول : الممكن لا يترجح أحد طرفيه إلا بمرجح ، فلا يوجد إلا بسبب ، ولا يعدم الا بسبب . قال[1] : والتحقيق فى هذا أن العدم ليس له فاعل ولا علة فاعلة أصلا ، واذا أضيف الى عدم السبب أو عـــدم الشرط فمعناه الملازمة ، أى عدم العلة استلزم عدم المعلول ، وعدم الشرط استلزم عدم المشروط . فاذا قيل : عدم لعدم علة مستلزمة لعدمه ، والنفس تطلب سبب العدم ، فتقول : لم لم يوجد كذا ؟ فيقال : لعدم كذا ، فيضاف عدم المعلوم الى عدم علته ، لا إضافة تأثير ولكن اضافة استلزام وتعريف . وأما التعليل بالمانع فلا يكون إلا مع قيام السبب إذا جعل المانع مقتضيا للعدم ، وأما إذا أريد قياس الدلالة فوجود المانع يستلزم عدم الحكم سواء كان المقتضى موجودا أو لم يكن

والمقصود أن ما عدمته النفس من كمالها فنها ، فانها لا تقتضى إلا العدم ، أى عدم استعداد نفسها وقوتها هو السبب فى عدم هذا الكمال ، فانه كما يكون أحد الوجودين سببا للآخر فكذلك أحد العدمين يكون سببا لعدم الآخر ، والموجود الحادث يضاف الى السبب المقتضى لايجاده ، وأما المعدوم فلا يحتاج استمراره على العدم الى فاعل يحدث العدم ، بل يكفى فى استمراره عدم مشيئة الفاعل المختار له ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، لانتفاء مشيئته . فانتفاء مشيئة كونه سبب عدمه ، وهذا معنى قولهم : عدم علة الوجود علة العدم ، وبهذا الاعتبار الممكن القابل للوجود والعدم لا يترجح أحد

(١) يعنى شيخ الاسلام ابن تيمية

طرفيه على الآخر إلا بمرجح ، فرجح عدمه عدم مرجحه ، ومعنى الترجيح والسببية هنا الاستلزام لا التأثير كما تقدم ، فظهر استحالة إضافة هذا الشر الى الله عز وجل

وأما الشر الثانى ، وهو الشر الوجودى ـ كالعقائد الباطلة ، والارادات الفاسدة ـ فهو من لوازم ذلك العدم ، فانه متى عدم ذلك العلم النافع والعمل الصالح من النفس لزم أن يخلفه الشر والجهل وموجبهما ولا بد ، لأن النفس لا بد لها من أحد الضدين ، فاذا لم تشتغل بالضد النافع الصالح اشتغلت بالضد الضار الفاسد ، وهذا الشر الوجودى هو من خلقه تعالى إذ لا خالق سواه ، وهو خالق كل شىء ، لكن كل ما خلقه الله فلا بد أن يكون له فى خلقه حكمة لأجلها خلقه ، فلو لم يخلقه فاتت تلك الحكمة ، وليس فى الحكمة تفويت هذه الحكمة التى هى أحب اليه سبحانه من الخير الحاصل بعدمها ، فان فى وجودها من الحكمة والغايات التى يحمد عليها سبحانه أضعاف مافى عدمها من ذلك ، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، وليس فى الحكمة تفويت هذه الحكمة العظيمة لأجل ما يحصل للنفس من الشر مع ما حصل من الخيرات التى لم تكن تحصل بدون هذا الشر ، ووجود الشىء لا يكون إلا مع وجود لوازمه وانتفاء أضداده ، فانتفاء لوازمه يكون ممتنعا لغيره ، وحينئذ فقد يكون هدى هذه النفوس الفاجرة وشهادتها مشروطا بلوازم لم تحصل ، أو بانتفاء أضداد لم تنتف

فان قيل : فهلا حصلت تلك اللوازم وانتفت تلك الأضداد ، فهذا هو السؤال الأول ، وقد بينا ان لوازم هذا الخلق وهذه النشأة وهذا العالم لا بد منها ، فلو قدر عدمها لم يكن هذا العالم بل عالما آخر ونشأة أخرى وخلقا آخر ، وبينا أن هذا السؤال بمنزلة أن يقال : هلا تجرد الغيث والأنهار عما يحصل به من تغريق وتخريب وأذى ؟ وهلا تجردت الشمس عما يحصل منها من حر وسموم وأذى ؟ وهلا تجردت طبيعة الحيوان عما يحصل له من ألم وموت وغير ذلك ؟ وهلا تجردت الولادة عن مشقة الحمل والطلق وألم الوضع ؟ وهلا تجرد بدن الانسان عن قبوله للآلام والأوجاع واختلاف الطبائع الموجبة لتغير أحواله ؟ وهلا تجردت فصول العام عما فيها من البرد الشديد القاتل والحر الشديد المؤذى ؟ فهل يقبل عاقل هذا السؤال أو يورده ؟ وهل هذا الا بمنزلة أن يقال : لم كان المخلوق فقيرا محتاجا ، والفقر والحاجة صفة نقص ، فهلا تجرد منها وخلعت عليه

خلعة الغنى المطلق والكمال المطلق ؟ فهل يكون مخلوقا اذا كان غنيا غنى مطلقا ؟ ومعلوم أن لوازم الخلق لا بد منها فيه ، ولا بد للعلو من سفل ، والسفل من مركز ، ولوازم العلو من السعة والاضاءة والبهجة والخيرات وما هناك من الأرواح العلوية النيرة المناسبة لمحلها وما يليق بها ويناسبها من الابتهاج والسرور والفرح والقوة والتجرد من علائق المواد العلية لا بد منها ، ولوازم السفل والمركز من الضيق والحصر ولوازم ذلك من الظلمة والغلظ والشر وما هناك من الأرواح السفلية المظلمة الشريرة وأعمالها وآثارها لا بد منها ، فهما عالمان علوى وسفلى ، ومحلان وساكنان تناسبهما مساكنهما وأعمالها وطبائعهما ، وقد خلق كلا من المحلين معمورا بأهليه وساكنيه حكمةً بالغة وقدرة قاهرة ، وكل من هذه الأرواح لا يليق بها غير ما خلقت له مما يناسبها ويشاكلها قال تعالى (الاسراء ٨٤) : ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ﴾ أى على ما يشاكله ويناسبه ويليق به ، كما يقول الناس «كل إناء بالذى فيه ينضح» ، فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية فى مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين ، ولو أن ملكا من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سفلة الناس وسقطهم وغرتهم الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم فى القبح والرداءة والدناءة لقدح الناس فى ملكه وقالوا : لا يصلح للملك ، فما الظن بمجاورى الملك الأعظم مالك الملوك فى داره وتمتعهم برؤية وجهه وسماع كلامه ومرافقتهم للملأ الاعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم ، أفيليق بذلك الرفيق الأعلى والمحل الاسنى والدرجات العلى روح سفلية أرضية قد أخلدت الى الأرض وعكفت على ما تقضيه طبائعها مما تشارك فيه بل قد تزيد على الحيوان البهيم وقصرت همتها عليه وأقبلت بكليتها عليه لا ترى نعيما ولا لذة ولا سرورا إلا ما وافق طباعها من كل مأكل ومشرب ومنكح من أين كان وكيف اتفق ، فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد ، وإلا فالقلب والطبع على [شاكلة] قلوب هذه الحيوانات وطباعها ، وربما كانت طباع الحيوانات خيرا من طباع هؤلاء وأسلم وأقبل للخير ، ولهذا جعلهم الله سبحانه شر الدواب فقال تعالى (الانفال ٢٢ – ٢٣) : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُون . وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً

لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكى الخلق وبين شر البرية وشر الدواب في دار واحدة يكونون فيها على حال واحدة من النعيم أو العذاب ؟ قال الله تعالى (القلم ٣٥ - ٣٦) : ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون! ﴾ فأنكر عليهم الحكم بهذا وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار لينبه العقول على أن هذا مما تحيله الفطر وتأباه العقول السليمة ، وقال تعالى (الحشر ١٩) : ﴿ لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة . أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾ وقال تعالى (ص ٢٨) : ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ وقال تعالى (الزمر ٩) : ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ بل الواحد من الخلق لا تستوى أعاليه وأسافله ، فلا يستوى عقبه وعينه ، ولا رأسه ورجلاه ، ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر . فالله عز وجل قد خلق الخبيث والطيب والسهل والحزن والضار والنافع ، وهذه أجزاء الأرض : منها ما يصلح جلاء للعين ، ومنها ما يصلح للأتون والنار . وبهذا ونحوه يعرف كمال القدرة وكمال الحكمة : فكمال القدرة بخلق الأضداد ، وكمال الحكمة تنزيلها منازلها ووضع كل منها في موضعه . والعالم من لا يلقى الحرب بين قدرة الله وحكمته ـ فان آمن بالقدرة قدح في الحكمة وعطلها وان آمن بالحكمة قدح في القدرة ونقصها ـ بل يربط القدرة بالحكمة ، ويعلم شمولهما لجميع ما خلقه الله ويخلقه ، فكما أنه لا يكون إلا بقدرته ومشيئته فكذلك لا يكون إلا بحكمته .

واذا كان لا سبيل للعقول البشرية الى الاحاطة بهذا تفصيلا ، فيكفيها الإيمان بما تعلم وتشاهد منه ، ثم تستدل على الغائب بالشاهد وتعتبر ما علمت بما لم تعلم . وقد ضرب الله الأمثال لعباده في كتابه وبين لهم ما في لوازم ما خلقه لهم وأنزله عليهم من الغيث الذى به حياتهم وأقواتهم وحياة الأرض والدواب وما خلقه لهم من المعادن التي بها صلاح أبدانهم وأقواتهم وصنائعهم من الشر والخير وبين المغمور بالاضافة الى الخير الحاصل بذلك فقال تعالى (الرعد ١٧) : ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك

يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطَلِ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً ، وأمّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فى الأَرْضِ ، كَذٰلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثال ﴾ فأخبر سبحانه أن الماء بمخالطته سبسب الأرض اذا سال فلا بد من أن يحمل السيل من الغثاء والوسخ وغيره زبدا عاليا على وجه السيل ، فالذى لا يعرف ما تحت الزبد يقصر نظره عليه ولا يرى إلا غثاء ووسخا ونحو ذلك ولا يرى ما تحته من مادة الحياة ، وكذلك ما يستخرج من المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها اذا أوقد عليها فى النار ليتهيأ الانتفاع بها خرج منها خبث ليس من جوهرها ولا ينتفع به ، وهذا لا بد منه فى هذا وهذا يجاوزه بصره . وقد ذم تعالى من ضعفت بصيرته من المنافقين ، وعمى عما فى القرآن مما به ينال كل سعادة وعلم وهدى وصلاح وخير فى الدنيا والآخرة ، لمن لم يجاوز بصره وسمعه وعود وعيده وبروقها وصواعقها ، وما أعد الله لأعدائه من عذابه ونكاله وخزيه وعقابه الذى هو – بالاضافة الى ما فيه من حياة القلوب والأرواح ومن المعارف الإلهية – يبين طريق العبودية التى هى غاية كمال العبد ، وهو مقصود لتكميل ذلك وتمامه قال تعالى (البقرة ١٧ – ٢٠) : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمات لا يُبْصِرُون . صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُون . أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصابِعَهُمْ فِى آذانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِين ، يَكادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصارَهُمْ كُلَّما أَضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وإذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا ﴾ . فهكذا حال كل من قصر نظره فى بعض مخلوقات الرب سبحانه على ما لا بد منه من شر جزئى جدا بالاضافة الى الخير الكثير ، ولو لم تكن فى هذه النشأة الانسانية إلا خاصته وأولياؤه من رسله وأنبيائه وأتباعهم لكفى بها خيرا ومصلحة ، ومن عاداهم – وان كانوا أضعاف أضعاف أضعافهم – فهم كالقش والزبالة وغثاء السيل ، لا يعبأ بكثرتهم ، ولا يقدح فى الحكمة الإلهية ، بل وجود الواحد الكامل من هذا النوع يغتفر معه لآلاف مؤلفة من النوع الآخر ، فانه اذا وجد واحد يوازن البرية ويرجح عليها كان الخير الحاصل بوجوده والحكمة والمصلحة أضعاف الشر الحاصل من وجود أضداده ، وأثبت وأنفع وأحب الى الله من فواته

بتفويت ذلك الشر المقابل له ، وهذا كالشمس : فان الخير الحاصل بها أنفع للخلق وأكثر وأثبت وأصلح من تفويته بتفويت الشر المقابل له بها ، وأين نفع الشمس وصلاح النبات والحيوان بها من نفع الرسل وصلاح الوجود بهم ؟ بل أين ذلك من نفع سيد ولد آدم وصلاح الأبدان والدين والدنيا والآخرة به ؟

وقد ضرب للنفس الانسانية وما فيها من الخير والشر مثل بدولاب أو طاحون شديد الدوران ، أيّ شيء خطفه ألقاه تحته وأفسده ، وعنده قيمه الذى يديره وقد أحكم أمره لينتفع به ولا يضر أحدا ، فربما جاء الغر الذى لا يعرف فيتقرب منه فيخرق ثوبه أو بدنه أو يؤذيه ، فاذا قيل لصاحبه : لم لم تجعله ساكنا لا يؤذى من اقترب منه ؟ قال : هذه صفته اللازمة التى كان بها دولابا وطاحونا ، ولو جعل على غير هذه الصفة لم تحصل به الحكمة المطلوبه منه . وكذلك اذا أوقدنا نار الاتون التى تحرق ما وقع فيها ، وعندها وقاد حاذق يحشوها ، فاذا غفل عنها أفسدت ، واذا أراد أحد أن يقرب منها نهاه وحذره ، فاذا استغفله من قرب منها حتى أحرقته لم يقل لصاحب النار : هلا قللت حرها لئلا تفسد من يقرب منها وتحرقه ؟ فانه يقول : هذه صفتها التى لا يحصل المقصود منها إلا بها ، ولو جعلتها دون ذلك لم تحرق أحجار الكلس ، ولم تطبخ الآجر ، ولم تنضج الأطعمة الغليظة ونحو ذلك . فما يحصل من الدولاب والطاحون ومن النار من نفعها هو من فضل الله ورحمته ، وما يحصل بها من شر هو من طبيعتها التى خلقت عليها والتى لا تكون نارا الا بها ، فلو خرجت عن تلك الطبيعة لم تكن نارا ، وكذلك النفس : فما يحصل لها من شر فهو منها ومن طبيعتها ولوازم نقصها وعدمها ، وما حصل لها من خير فهو من فضل الله ورحمته ، والله خالقها وخالق كل شيء قام بها من قدرة وإرادة وعلم وعمل وغير ذلك ، فأما الأمور العدمية فهى باقية على ما كانت عليه من العدم ، والانسان جاهل ظالم بالضرورة كما قال تعالى (الاحزاب ٧٢) : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولا ﴾ فان الله أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئا ، وهى ظالمة نفسها فهى الظالمة المظلومة ، إذ كانت منقوصة من كمالها بعدم بعض الكمالات أو أكثرها بها ، وتلك الكمالات التى عدمت كان وجودها سببا لكمالات أخرى ، فصار عدمها مستلزما لعدم تلك الكمالات التى لا سعادة لها بدونها ، فان أحد الموجودين قد يكون مشروطا

بالآخر فيستحيل وجوده بدونه ، لأن عدم الشرط يستلزم عدم المشروط ، فاذا عدمت النفس هذا الكمال المستلزم لكمال آخر مثله أو أعلى منه ـ وهي موصوفة بالنقص الذى هو الظلم والجهل ولوازمهما من أصل الخلقة ـ صارت مستلزمة للشر ، وقوة شرها وضعفه بحسب قوتها وضعفها في ذاتها . وتأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى الى أولاده كيف كان من عدم العلم والعزم قال تعالى (طه ١١٥) : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ ، والنسيان ، سواء كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فسر بهما ههنا ، فهو أمر عدمى ، ولهذا قال آدم لما رأى ما دخل عليه من ذلك (الاعراف ٢٣) : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فانه إذ اعترف بنقصه ، خص نفسه ـ بما حصل لها من عدم العلم والصبر ـ بالنسيان الذى أوجب فوات حظه من الجنة ، ثم قال : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فانه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها وعقابها ويق العبد من ذلك وإلا ضرته آثارها ولا بد ، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوى بشرب الترياق ونحوه وإلا ضره ولا بد ، وان لم يرحمه سبحانه بايجاد ما يصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به وإلا خسر ، والمغفرة تمنع الشر ، والرحمة توجب الخير ، والرب سبحانه ان لم يغفر للانسان فيقيه السيئات ويرحمه فيؤتيه الحسنات وإلا هلك ولا بد ، اذ كان ظالما لنفسه ظلوما بنفسه ، فان نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها ، وهي متحركة بالذات فان لم تتحرك الى الخير تحركت الى الشر فضرت صاحبها ، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفسا ، لأن ما ليس حساسا متحركا بالإرادة فليس نفسا ، فى الصحيح عن النبي ﷺ « أصدق الأسماء حارث وهمام » فالحارث الكاسب العامل ، والهمام الكثير الهم ، والهم مبدأ الارادة ، فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة ، فان لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت فى الإرادة الفاسدة والعمل الضار ، وقد قال تعالى (المعارج ١٩-٢٢) : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴾ فأخبر سبحانه أن الانسان خلق على هذه الصفة ، وان من كان على غيرها فلأجل ما زكاه الله به من فضله وإحسانه.

وقال تعالى (النساء ٢٨) : ﴿ وخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفا ﴾ قال طاوس ومقاتل وغيرهما : لا يصبر عن النساء . وقال الحسن : هو خلقه من ماء مهين . وقال الزجاج : ضعف عزمه عن قهر الهوى . والصواب أن ضعفه يعم هذا كله ، وضعفه أعظم من هذا وأكثر : فانه ضعيف البنية ، ضعيف القوة ، ضعيف الإرادة ، ضعيف العلم ، ضعيف الصبر ، والآفات اليه مع هذا الضعف أسرع من السيل فى صيب الحدور . فبالاضطرار لا بد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده ، فان تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب اليه من نفسه . وخلقه على هذه الصفة هو من الأمور التى يحمد عليها الرب سبحانه ويثنى عليه بها ، وهو موجب حكمته وعزته ، فكل ما يحدث من هذه الخلقة ويلزم عنها فهو بالنسبة الى الخالق سبحانه خير وعدل وحكمة ، اذ مصدر هذه الخلقة عن صفات كماله من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته ، وبالنسبة الى العبد تنقسم الى خير وشر وحسن وقبيح ، كما تكون بالنسبة اليه طاعة ومعصية وبرا وفجورا ، بل أخص من ذلك ، مثل كونها صلاة وصياما وحجا وزنا وسرقة وأكلا وشربا ، إذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه ، وموجب أمر الله له ونهيه ، ولله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ما خلقه وأمر به ، وعلى ما لم يخلقه مما لو شاءه لخلقه ، وعلى توفيقه الموجب لطاعته وعلى خذلانه الموقع فى معصيته ، وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه ، وكتب على نفسه الرحمة ، وأحسن كل شيء خلقه ، وأتقن كل ما صنع . وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى فله فى ذلك سبحانه أعظم حكمة مطلوبة ، وتلك الحكمة إنما تحصل على الوجه الواقع المقدر بما خلق لها من الأسباب التى لا تنال غاياتها الا بها ، فوجود هذه الأسباب بالنسبة الى الخالق الحكيم سبحانه هو من الحكمة ، ولهذا يقرن سبحانه فى كتابه بين اسمه الحكيم واسمه العليم تارة وبين اسمه العزيز تارة كقوله (النساء ٢٦ ، الانفال ٧١) : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيم ﴾ ، (البقرة ٢٤٠ ، المائدة ٣٨) : ﴿ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيم ﴾ وقوله (النساء ١٥٨ ، ١٦٥ ، الفتح ٧ ، ١٩) : ﴿ وكانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيما ﴾ ، (الفتح ٤) : ﴿ وكانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيما ﴾ ، (النمل ٦) : ﴿ وإنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيم ﴾ فان العزة تتضمن القوة ، ولله القوة جميعا ، يقال : عز يعز ـ بفتح العين ـ اذا اشتد

وقوى ، ومنه الأرض العزاز : الصلبة الشديدة ، وعز يعز بكسر العين اذا امتنع ممن يرومه ، وعز يعز بضم العين اذا غلب وقهر ، فأعطوا أقوى الحركات - وهى الضمة - لأقوى المعانى وهو الغلبة والقهر للغير ، وأضعفها وهى الفتحة لأضعف هذه المعانى وهو كون الشيء فى نفسه صلبا ، ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه ، والحركة المتوسطة وهى الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوى الممتنع عن غيره ، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه . فاعطوا الأقوى للأقوى والأضعف للأضعف والمتوسط للمتوسط . ولا ريب أن قهر المربوب عما يريده من أقوى أوصاف القادر ، فان قهره عن إرادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر ، والعز ضد الذل ، والذل أصله الضعف والعجز ، فالعز يقتضى كمال القدرة ، ولهذا يوصف به المؤمن ولا يكون ذما له بخلاف الكبر . قال رجل للحسن البصرى : انك متكبر . فقال : لست بمتكبر ، ولكنى عزيز. وقال تعالى (المنافقون ٨) : ﴿ وللهِ الْعِزَّةُ ولِرَسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنِين ﴾ . وقال ابن مسعود : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر . وقال النبي ﷺ « اللهم أعز الاسلام بأحد هذين الرجلين : عمر بن الخطاب ، أو أبي جهل بن هشام » وفى بعض الآثار : ان الناس يطلبون العزة فى أبواب الملوك ، ولا يجدونها إلا فى طاعة الله عز وجل . وفى الحديث « اللهُمَّ أعِزَّنا بِطاعَتِكَ ولا تُذِلَّنا بِمَعْصِيَتِك » وقال بعضهم : من أراد عزا بلا سلطان ، وكثرة بلا عشيرة ، وغنى بلا مال ، فلينتقل من ذل المعصية الى عز الطاعة . فالعزة من جنس القدرة والقوة . وقد ثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « المؤمنُ القويّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كلٍ خير » . فالقدرة إن لم يكن معها حكمة بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظر فى العاقبة ، ولا حكمة محمودة يطلبها بارادته ويقصدها بفعله ، كان فعلها فسادا . كصاحب شهوات الغيّ والظلم ، الذى يفعل بقوته ما يريده من شهوات الغى فى بطنه وفرجه ومن ظلم الناس ، فان هذا وان كان له قوة وعزة لكن لما لم يقترن بها حكمة كان ذلك معونة على شره وفساده . وكذلك العلم كماله أن تقترن به الحكمة ، وإلا فالعالم الذى لا يريد ما تقتضيه الحكمة وتوجبه ، بل يريد ما يهواه ، سفيه غاو ، وعلمه عون له على الشر والفساد . هذا اذا كان عالما قادرا مريدا له إرادة من غير حكمة ، وان قدّر أنه لا إرادة له بحال فهذا أولا ممتنع من الحى ، فان

وجود الشعور بدون حب ولا بغض ولا إرادة ممتنع كوجود ارادة بدون الشعور ، وأما القدرة والقوة اذا قدر وجودها بدون إرادة فهى كقوة الجماد ، فان القوة الطبيعية التى هى مبدأ الفعل والحركة [لا إرادة لها[١]] ، وقد قال بعض الناس : ان [للجماد[٢]] شعورا يليق به ، واحتج بقوله تعالى (البقرة ٧٤) : ﴿ وإنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَمَا يَتَفجَّرُ منه الأنهارُ ، وإنَّ منها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ المْاء ، وإنَّ مِنْها لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ الله ﴾ وبقوله تعالى (الكهف ٧٧) : ﴿ جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ ﴾ وهذه مسألة كبيرة تحتاج الى كلام لا يليق بهذا الموضع . والمقصود أن العلم والقدرة المجردين عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح ، وإنما يحصل ذلك بالحكمة معهما ، واسمه سبحانه « الحكيم » يتضمن حكمته فى خلقه وأمره فى إرادته الدينية والكونية ، وهو حكيم فى كل ما خلقه وأمر به

والناس فى هذا المقام أربع طوائف : (الطائفة الأولى) الجاحدة لقدرته وحكمته فلا يثبتون له سبحانه قدرة ولا حكمة ، كما يقوله من ينفى كونه تعالى فاعلا مختارا وأن صدور العالم عنه بالايجاب الذاتى لا بالقدرة والاختيار ، وهؤلاء يثبتون حكمة يسمونها عناية إلهية ، وهم من أشد الناس تناقضا ، إذ لا يعقل حكيم لا قدرة له ولا اختيار ، وإنما يسمون مافى العالم من المصالح والمنافع عناية إلهية من غير أن يرجع منها الى الرب سبحانه ارادة ولا حكمة ، وهؤلاء كما أنهم مكذبون لجميع الرسل والكتب فهم مخالفون لصريح العقل والفطرة ، قد نسبوا الرب سبحانه الى أعظم النقص ، وجعلوا كل قادر مريد مختار أكمل منه وان كان من كان ، بل سلبهم القدرة والاختيار والفعل عن رب العالمين شر من شرك عباد الأصنام به بكثير ، وشر من قول النصارى إنه ـ تعالى عن قولهم ـ ثالث ثلاثة وإن له صاحبة وولدا ، فان هؤلاء أثبتوا له قدرة وإرادة واختيارا وحكمة ، ووصفوه مع ذلك بما لا يليق به . وأما أولئك فنفوا ربوبيته وقدرته بالكلية ، وأثبتوا له أسماء لا حقائق لها ولا معنى

و (الطائفة الثانية) أقرت بقدرته وعموم مشيئته للكائنات ، وجحدت حكمته

---

(١) بياض فى الأصل (٢) فى الاصل « تحملها » وهو تحريف

وما له فى خلقه من الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه التى يفعل لأجلها ويأمر لأجلها ، فحافظت على القدر وجحدت الحكمة ، وهؤلاء هم النفاة للتعليل والأسباب والقوى والطبائع فى المخلوقات ، فعندهم لا يفعل لشيء ولا لأجل شيء ، وليس فى القرآن عندهم لام تعليل ولا باء تسبب ، وكل لام توهم التعليل فهى عندهم لام العاقبة [1] وكل باء تشعر بالتسبب فهى عندهم باء المصاحبة . وهؤلاء سلطوا نفاة القدر عليهم بما نفوه من الحكمة والتعليل والأسباب ، فاستطالوا عليهم بذلك ، ووجدوا مقالا واسعا بالشناعة فقالوا وشنعوا ، ولعمر الله إنهم لمحقون فى أكثر ما شنعوا عليهم به ، إذ نفى الحكمة والتعليل والأسباب له لوازم فى غاية الشناعة ، والتزامها مكابرة ظاهرة عند عامة العقلاء

و (الطائفة الثالثة) أقرت بحكمته وأثبتت الأسباب والعلل والغايات فى أفعاله وأحكامه ، وجحدت كمال قدرته ، فنفت قدرته على شطر العالم وهو أشرف ما فيه من أفعال الملائكة والجن والانس وطاعاتهم ، بل عندهم هذه كلها لا تدخل تحت مقدوره سبحانه ، ولا يوصف بالقدرة عليها ولا هى داخلة تحت مشيئته ولا ملكه ، وليس فى مقدوره عندهم أن يجعل المؤمن مؤمنا والمصلى مصلياً والموفق موفقاً ، بل هو الذى جعل نفسه كذلك . وعندهم ان أفعال العباد من الملائكة والجن والإنس كانت بغير مشيئته واختياره فتعالى الله عن قولهم . وهؤلاء سلطوا عليهم نفاة الحكمة والتعليل والأسباب فمزقوهم كل ممزق ، ووجدوا طريقا وسيعا إلى الشناعة عليهم ، وأبدوا تناقضهم فقالوا وشنعوا ، ورموهم بكل داهية . ونفى قدرة الرب سبحانه على شطر المملكة له لوازم فى غاية الشناعة والقبح والفساد ، والتزامها مكابرة ظاهرة عند عامة العقلاء ، ونفى التزامها تناقض بين ، فصاروا بذلك بين التناقض ـ وهو أحسن حالهم ـ وبين التزام تلك العظائم التى تخرج عن الايمان ، كما كان نفاة الحكمة والأسباب والغايات كذلك

فهدى الله (الطائفة الرابعة) لما اختلفوا فيه من الحق باذنه والله يهدى من يشاء إلى

---

(١) القائلون بذلك هم الجهمية الغلاة فى الجبر . انظر (جواب أهل العلم والايمان) لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٦٠ ـ ٦١ طبع السلفية

صراط مستقيم ، فآمنوا بالكتاب كله ، وأقروا بالحق جميعه ، ووافقوا كل واحدة من الطائفتين على ما معها من الحق ، وخالفوهم فيما قالوه من الباطل ، فآمنوا بخلق الله وأمره بقدره وشرعه ، وأنه سبحانه المحمود على خلقه وأمره ، وأنه له الحكمة البالغة والنعمة السابغة ، وأنه على كل شيء قدير : فلا يخرج عن مقدوره شيء من الموجودات أعيانها وأفعالها وصفاتها ، كما لا يخرج عن علمه ، فكل ما تعلق به علمه من العالم تعلقت به قدرته ومشيئته . وآمنوا مع ذلك بان له الحجة على خلقه ، وأنه لا حجة لأحد عليه بل لله الحجة البالغة ، وأنه لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، بل كان تعذيبهم منه عدلا منه وحكمة لا بمحض المشيئة المجردة عن السبب والحكمة كما يقوله الجبرية ، ولا يجعلون القدر حجة لأنفسهم ولا لغيرهم ، بل يؤمنون به ولا يحتجون به ، ويعلمون أن الله سبحانه أنعم عليهم بالطاعات وأنها من نعمته عليهم وفضله وإحسانه ، وأن المعاصي من نفوسهم الظالمة الجاهلة ، وأنهم هم جناتها وهم الذين اجترحوها ، ولا يحملونها على القضاء والقدر مع علمهم بشمول قضائه وقدره لما في العالم من خير وشر وطاعة وعصيان وكفر وإيمان ، وأن مشيئة الله سبحانه محيطة بذلك كاحاطة علمه به ، وأنه لو شاء ألا يعصى لما عصى ، وأنه تعالى أعز وأجل من أن يعصى قسراً ، والعباد أقل من ذلك وأهون ، وأنه ما شاء الله كان وكل كائن فهو بمشيئته ، وما لم يشأ لم يكن ، وما لم يكن فلعدم مشيئته ، فله الخلق والأمر وله الملك والحمد وله القدرة التامة والحكمة الشاملة البالغة . فهذه الطائفة هم أهل البصر التام ، والأولى لهم العمى المطلق ، والثانية والثالثة كل طائفة منهما له عين عمياء ، ومع هذا فسرى العمى من العين العمياء إلى العين الصحيحة فأعماها ، ولا يستكثر تكرار هذه الكلمات من يعلم شدة الحاجة اليها وضرورة النفوس اليها ، فلو تكررت ما تكررت فالحاجة اليها في محل الضرورة . والله المستعان

فصلٌ في إثبات الحمد كله لله عزَّ وجَلّ

ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصل ثالث هو عقد نظامها وجامع شملهما ، وبتحقيقه وإثباته على وجه يتم بناء هذين الأصلين وهو إثبات الحمد كله لله رب العالمين ،

فانه المحمود على ما خلقه وأمر به ونهى عنه ، فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم ، وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين وعلى خلق الرسل وأعدائهم ، وهو المحمود على عدله فى أعدائه كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه ، فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده ، ولهذا سبح بحمده السموات السبع والأرض ومن فيهن ﴿ وإنْ مِنْ شىءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بحمدِهِ ﴾ (الاسراء ٤٤) ، وكان فى قول النبى ﷺ عند الاعتدال من الركوع « رَبَّنا وَلكَ الْحَمْد ، مِلْءَ السَّماءِ ومِلْءَ الأَرْضِ ، ومِلْءَ ما بَيْنَهُما ومِلْء ماشِئْتَ مِنْ شَىْء بَعْد » ، فله سبحانه الحمد حمدا يملأ المخلوقات والفضاء الذى بين السماوات والأرض ، ويملأ ما يقدر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده . وذاك يحتمل أمرين : أحدهما أن يملأ ما يخلقه الله بعد السموات والأرض ، والمعنى أن الحمد ملء ما خلقته وملء ما تخلقه بعد ذلك . الثانى أن يكون المعنى ملء ما شئت من شىء بعد يملأه حمدك ، أى يقدَّر مملوءا بحمدك وان لم يكن موجودا . ولكن يقال : المعنى الأول أقوى لأن قوله « ما شئت من شىء بعد » يقتضى أنه شىء يشاؤه ، وما شاء كان ، والمشيئة متعلقة بعينه لا بمجرد ملء الحمد له . فتأمله . لكنه اذا شاء كونه فله الحمد ملئه ، فالمشيئة راجعة الى المملوء بالحمد ، فلا بد أن يكون شيئا موجودا يملأه حمده . وأيضا فان قوله « من شىء بعد » يقتضى أنه شىء يشاؤه سبحانه بعد هذه المخلوقات ، كما يخلقه بعد ذلك من مخلوقاته من القيامة وما بعدها . ولو أريد تقدير خلقه لقيل : وملء ما شئت من شىء مع ذلك ، لأن المقدر يكون مع المحقق . وأيضا فانه لم يقل : ملء ما شئت أن يملأه الحمد ، بل قال : ما شئت . والعبد قد حمد حمداً أخبر به ، وإن ثناءه ووصفه بانه يملأ ما خلقه الرب سبحانه وما يشاء بعد ذلك . وأيضا فقوله « وملء ما شئت من شىء بعد » يقتضى إثبات مشيئة تتعلق بشىء بعد ذلك ، وعلى الوجه الثانى قد تتعلق المشيئة بملء المقدر ، وقد لا تتعلق . وأيضا فاذا قيل « ما شئت من شىء بعد ذلك » كان الحمد مالئا لما هو موجود يشاؤه الرب دائما ، ولا ريب أن له الحمد دائما فى الأولى والآخرة ، وأما اذا قدر ما يملأه الحمد وهو غير موجود فالمقدرات لا حد لها ، وما من شىء منها إلا يمكن تقدير شىء بعده وتقدير ما لا نهاية له كتقدير الاعداد ، ولو أريد هذا المعنى لم يحتج إلى تعليقه بالمشيئة ، بل قيل « ملء مالا

يتناهى » فأما ما يشاؤه الرب فلا يكون إلا موجودا مقدرا ، وان كان لا آخر لنوع الحوادث أو بقاء ما يبقى منها فهذا كله مما يشاؤه بعد . وأيضا فالحمد هو الإخبار بمحاسن المحمود على وجه الحب له ، ومحاسن المحمود تعالى إما قائمة بذاته وإما ظاهرة فى مخلوقاته ، فأما المعدوم المحض الذى لم يخلق ولا خلق قط فذاك ليس فيه محاسن ولا غيرها ، فلا محامد فيه البتة ، فالحمد لله الذى يملأ المخلوقات ما وجد منها ويوجد هو حمد يتضمن الثناء عليه بكماله القائم بذاته والمحاسن الظاهرة فى مخلوقاته ، وأما ما لا وجود له فلا محامد فيه ولا مذام ، فجعل الحمد مالئا له جعله مالئا لما لا حقيقة له

وقد اختلف الناس فى معنى كون حمده يملأ السموات والأرض وما بينهما ، فقالت طائفة على جهة التمثيل : أى لو كان أجساما لملأ السموات والأرض وما بينهما . قالوا : فان الحمد من قبيل المعانى والأعراض التى لا تملأ بها الأجسام ، ولا تملأ الأجسام إلا بالأجسام . والصواب أنه لا يحتاج إلى هذا التكلف البارد ، فان ملء كل شيء يكون بحسب المالىء والمملوء ، فاذا قيل امتلأ الإناء ماء وامتلأت الجفنة طعاما فهذا الامتلاء نوع ، واذا قيل : امتلأت الدار رجالا وامتلأت المدينة خيلا ورجالا فهذا نوع آخر . واذا قيل : امتلأ الكتاب سطورا فهذا نوع آخر ، واذا قيل : امتلأت مسامع الناس حمدا أو ذما لفلان فهذا نوع آخر كما فى أثر معروف « أهل الجنة من امتلأت مسامعه من ثناء الناس عليه ، وأهل النار من امتلأت مسامعه من ذم الناس له » . وقال عمر بن الخطاب فى عبد الله بن مسعود : كنيف ملىء علما ، ويقال : فلان علمه قد ملأ الدنيا . وكان يقال : ملأ ابن أبى الدنيا الدنيا علما . ويقال : صيت فلان قد ملأ الدنيا وضيق الآفاق ، وحبه قد ملأ القلوب ، وبغض فلان قد ملأ القلوب ، وامتلأ قلبه رعبا ، وهذا أكثر من أن تستوعب شواهده ، وهو حقيقة فى بابه . وجعل الملء والامتلاء حقيقة للاجسام خاصة تحكم باطل ودعوى لا دليل عليها البتة ، والأصل الحقيقة الواحدة ، والاشتراك المعنوى هو الغالب على اللغة والافهام والاستعمال ، فالمصير اليه أولى من المجاز والاشتراك ، وليس هذا موضع تقرير المسألة

والمقصود أن الرب أسماؤه كلها حسنى ليس فيها اسم سوء ، وأوصافه كلها كمال ليس فيها صفة نقص ، وأفعاله كلها حكمة ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة ، وله

المثل الأعلى فى السماوات والارض وهو العزيز الحكيم ، موصوف بصفة الكمال مذكور بنعوت الجلال منزه عن الشبيه والمثال ومنزه عما يضاد صفات كماله : فمنزه عن الموت المضاد للحياة ، وعن السنة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيومية ، وموصوف بالعلم منزه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه ، موصوف بالقدرة التامة منزه عن ضدها من العجز واللغوب والاعياء ، موصوف بالعدل منزه عن الظلم ، موصوف بالحكمة منزه عن العبث ، موصوف بالسمع والبصر منزه عن أضدادهما من الصمم والبكم ، موصوف بالعلو والفوقية منزه عن أضداد ذلك ، موصوف بالغنى التام منزه عما يضاده بوجه من الوجوه ، ومستحق للحمد كله فيستحيل أن يكون غير محمود كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حى ، وله الحمد كله واجب لذاته فلا يكون الا محمودا كما لا يكون إلا إلها وربا وقادرا . فاذا قيل « الحمد كله لله » فهذا له معنيان : (أحدهما) أنه محمود على كل شيء وبكل ما يحمد به المحمود التام . وإن كان بعض خلقه يحمد أيضا ـ كما يحمد رسله وأنبياؤه وأتباعهم ـ فذلك من حمده تبارك وتعالى ، بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات ، وما نالوه من الحمد فانما نالوه بحمده فهو المحمود أولا وآخرا وظاهرا وباطنا ، وهذا كما أنه بكل شيء عليم ، وقد علم غيره من علمه مالم يكن يعلمه بدون تعليمه ، وفى الدعاء المأثور « اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلُّه ، ولَكَ الْمُلْكُ كُلُّه ، وبِيَدِكَ الْخَيْرُ كُلُّه ، وإلَيْكَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّه . أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّه وأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّه » ، وهو سبحانه له الملك وقد آتى من الملك بعض خلقه ، وله الحمد وقد آتى غيره من الحمد ما شاء . وكما أن ملك المخلوق داخل فى ملكه ، فحمده أيضا داخل فى حمده ، فما من محمود يحمد على شيء مما دق أو جل إلا والله المحمود عليه بالذات والأولوية أيضا ، واذا قال « اللهم لك الحمد » فالمراد به أنت المستحق لكل حمد ، ليس المراد به الحمد الخارجى فقط . (المعنى الثانى) أن يقال : « لك الحمد كله » أى الحمد التام الكامل ، فهذا مختص بالله ليس لغيره فيه شركة . والتحقيق أن له الحمد بالمعنيين جميعا ، فله عموم الحمد وكماله ، وهذا من خصائصه سبحانه ، فهو المحمود على كل حال وعلى كل شيء أكمل حمد وأعظمه ، كما أن له الملك التام العام فلا يملك كل شيء إلا هو وليس الملك التام الكامل إلا له . وأتباع الرسل يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد ، فانهم

يقولون : انه خالق كل شيء وربه ومليكه ، لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء البتة فله الملك كله . والقدرية المجوسية [١] يخرجون من ملكه أفعال العباد ، ويخرجون سائر حركات الملائكة والجن والانس عن ملكه . وأتباع الرسل يجعلون ذلك كله داخلا في ملكه وقدرته ، ويثبتون كمال الحمد أيضا ، وأنه المحمود على جميع ذلك وعلى كل ما خلقه ويخلقه ، لما له فيه من الحكم والغايات المحمودة المقصودة بالفعل . وأما نفاة الحكمة والأسباب من مثبتي القدر فهم في الحقيقة لا يثبتون له حمدا كما لا يثبتون له الحكمة ، فان الحمد من لوازم الحكمة ، والحكمة إنما تكون في حق من يفعل شيئا لشيء فيريد بما يفعله الحكمة الناشئة من فعله ، فأما من لا يفعل شيئا لشيء البتة فلا يتصور في حقه الحكمة . وهؤلاء يقولون : ليس في أفعاله وأحكامه لام تعليل [٢] ، وما اقترن بالمفعولات من قوى وطبائع ومصالح فانما اقترنت بها اقترانا عاديا ، لا أنه هذا كان لأجل هذا ، ولا نشأ السبب لأجل المسبب ، بل لا سبب عندهم ولا مسبب البتة ، إن هو إلا محض المشيئة وصرف الارادة التي ترجح مثلا على مثل ، بل لا مرجح أصلا ، وليس عندهم في الأجسام طبائع وقوى تكون أسبابا لحركاتها [٣] ، ولا في العين قوة امتازت بها على الرِّجْل يبصر بها ، ولا في القلب قوة يعقل بها امتاز بها عن الظهر ، بل خص سبحانه أحد الجسمين بالرؤية والعقل والذوق تخصيصا لمثل على مثل بلا سبب أصلا ولا حكمة ، فهؤلاء لم يثبتوا له كمال الحمد ، كما لم يثبت له أولئك كمال الملك ، وكلا القولين منكر عند السلف وجمهور الأمة ، ولهذا كان منكرو الأسباب والقوى والطبائع يقولون : العقل نوع من العلوم الضرورية كما قاله القاضيان أبو بكر ابن الطيب وأبو يعلى بن الفراء وأتباعهما . وقد نص أحمد على أنه غريزة ، وكذلك الحارث المحاسبي وغيرهما ، فأولئك لا يثبتون غريزة ولا قوة ولا طبيعة ولا سببا ، وأبطلوا مسميات هذه الأسماء جملة وقالوا : ان ما في الشريعة من المصالح والحكم لم يشرع الرب سبحانه ما شرع من الأحكام لأجلها ، بل اتفق اقترانها بها أمرا اتفاقيا ،

---

(١) كالمعتزلة وأذنابهم من الشيعة الإمامية (٢) انظر ص ١١١

(٣) الاشعرية يجنحون لذلك مبالغة منهم في مناقضة المعتزلة ، وأبو الحسن الاشعري رجع في طوره الاخير الى المذهب الوسط مذهب السلف ، فمذهبه الأخير شيء والمذهب المنسوب اليه شيء غيره

كما قالوا نظير ذلك فى المخلوقات سواء ، والعلل عنـدهم أمارات محضة لمجرد الاقتران الاتفاقى . وهم فريقان : أحدهما لا يعرجون على المناسبات ولا يثبتون العلل بها البتة ، وانما يعتمدون على تأثير العلة بنص أو إجماع ، فان فقدا فزعوا الى الاقيسة الشبهية . والفريق الثانى أصلحوا المذهب بعض الاصلاح وقربوه بعض الشيء وأزالوا تلك النفرة عنه ، فأثبتوا الأحكام بالعلل والعلل بالمناسبات والمصالح ، ولم يمكنهم الكلام فى الفقه إلا بذلك ، ولـكن جعلوا اقتران أحكام تلك العلل والمناسبات بها اقترانا عاديا غير مقصود فى نفسه ، والعلل والمناسبات أمارات ذلك الاقتران ، وهؤلاء يستدلون على اثبات علم الرب بما فى مخلوقاته من الإحكام والاتقان والمصالح ، وهذا تناقض بين منهم ، فان ذلك إنما يدل إذا كان الفاعل يقصد أن يفعل الفعل على وجه مخصوص لأجل الحكمة المطلوبة منه ، وأما من لم يفعل لأجل ذلك الإحكام والاتقان وإنما اتفق اقترانه بمفعولاته عادة فان ذلك الفعل لا يدل على العلم ، ففى أفعال الحيوانات[1] من الإحكام والاتقان والحـكم ما هو معروف لمن تأمله ، ولـكن لما لم تكن تلك الحـكم والمصالح مقصودة لها لم تدل على علمها . والمقصود أن هؤلاء اذا قالوا : إنه تعالى لا يفعل لحـكمة امتنع عندهم أن يكون الإحكام دليلا على العلم ، وأيضا فعلى قولهم يمتنع أن يحمد على ما فعله لأمر ما حصل للعباد من نفع ، فهو سبحانه لم يقصد بما خلقه نفعهم ولا خلقه لنفعهم ومصالحهم ، بل انما أراد مجرد وجوده لا لأجل كذا ولا لنفع أحد ولا لضره ، فـكيف يتصور فى حق من يكون فعله ذلك حمد ؟ فلا يحمد على فعل عدل ، ولا على ترك ظلم ، لأن الظلم ــ عندهم ــ هو الممتنع الذى لا يدخل فى المقدور ، وذلك لا يمدح أحد على تركه ، وكل ما أمـكن وجوده فهو عندهم عدل ، فالظلم مستحيل عندهم اذ هو عبارة عن الممتنع المستحيل لذاته الذى لا يدخل تحت المقدور ولا يتصور فيـه ترك اختيارى فلا يتعلق به حمد ، وإخباره تعالى عن نفسه بقيامه بالقسط حقيقته عندهم مجرد كونه فاعلا ، لا أن هناك شيئا هو قسط فى نفسه يمكن وجود ضده ، وكذلك قوله (فصلت ٤٦) : ﴿ وما رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد ﴾ نفى عندهم لما هو مستحيل فى نفسه لا حقيقة له ، كجعل الجسم فى مكانين فى آن واحد ، وجعله موجودا معدوما فى آن واحد ،

(١) كالنحل والنمل ودودة القز وغيرها

فهذا ونحوه عندهم هو الظلم الذى تنزه عنه ، وكذلك قوله(١) « يا عبادى ، إنى حرّمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا » فالذى حرمه على نفسه هو المستحيل الممتنع لذاته كالجمع بين النقيضين ، وليس هناك ممكن يكون ظلما فى نفسه وقد حرمه على نفسه ، ومعلوم أنه لا يمدح الممدوح بترك ما لو أراده لم يقدر عليه . وأيضا فانه قال « وجعلته محرما بينكم » ، فالذى حرمه على نفسه هو الذى جعله محرما بين عباده وهو الظلم المقدور الذى يستحق تاركه الحمد والثناء . والذى أوجب لهم هذا مناقضة القدرية المجوسية ورد أصولهم وهدم قواعدهم ، ولكن ردوا باطلا بباطل وقابلوا بدعة ببدعة وسلطوا عليهم خصومهم بما التزموه من الباطل ، فصارت الغلبة بينهم وبين خصومهم سجالا مرة يغلبون ومرة يغلبون لم يستقر لهم نصرة ، وإنما النصرة الثابتة لأهل السنة المحضة الذين لم يتحيزوا الى فئة غير رسول الله ﷺ ، ولم يلتزموا غير ما جاء به ، ولم يؤصلوا أصلا ببدعة يسلطون عليهم به خصومهم ، بل أصلهم ما دل عليه كتاب الله وكلام رسوله وشهدت به الفطر والعقول

فصلٌ فى بيان أنَّ حمدَه تعالى شاملٌ لكل ما يُحْدِثه

والمقصود بيان شمول حمده سبحانه وحكمته لكل ما يحدثه من إحسان ونعمة وامتحان وبلية ، وما يقضيه من طاعة ومعصية ، والله تعالى محمود على ذلك مشكور حمد المدح وحمد الشكر ، أما حمد المدح فالله محمود على كل ما خلق اذ هو رب العالمين والحمد لله رب العالمين ، وأما حمد الشكر فلأن ذلك كله نعمة فى حق المؤمن اذا اقترن بواجبه من الاحسان ، والنعمة اذا اقترنت بالشكر صارت نعمة ، والامتحان والبلية اذا اقترنا بالصبر كانا نعمة ، والطاعة من أجلّ نعمه ، وأما المعصية فاذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والانابة والذل والخضوع فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمة أيضا وإن كان سببها مسخوطا مبغوضا للرب سبحانه ، ولكنه يحب ما يترتب عليها من التوبة والاستغفار ، وهو سبحانه أفرح بتوبة عبده من الرجل اذا أضل راحلته بأرض دوّية مهلكة عليها طعامه وشرابه فأيس منها ومن الحياة

---

(١) في الحديث القدسي

فنام ثم استيقظ فاذا بها قد تعلق خطامها فى أصل شجرة فجاء حتى أخذها ، فالله أفرح بتوبة العبد حين يتوب اليه من هذا براحلته ، فهذا الفرح العظيم الذى لا يشبهه شىء أحب اليه سبحانه من عدمه ، وله أسباب ولوازم لا بد منها ، وما يحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوبا له فهذا الفرح أحب اليه بكثير ، ووجوده بدون لازمه ممتنع ، فله من الحكمة فى تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة ونعمة سابغة . هـــذا بالاضافة الى الرب سبحانه ، وأما بالاضافة الى العبد فانه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفا على أسباب لا تحصل بدونها ، فتقدير الذنب عليه اذا اتصل به التوبة والانابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يعقبه ، وان كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه ، والرب سبحانه محمود على الأمرين ، فان اتصل بالذنب الآثار المحبوبة للرب سبحانه من التوبة والانابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد ، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية ، وان لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون الا من خبث نفسه وشره وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الزكية الطاهرة فى الملأ الأعلى . ومعلوم أن هذه النفس فيها من الشر والخبث ما فيها ، فلا بد من خروج ذلك منها من القوة الى الفعل ليترتب على ذلك الآثار المناسبة لها ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الأرواح الخبيثة فى المحل الأسفل ، فان هذه النفوس اذا كانت مهيأة لذلك فمن الحكمة أن تستخرج منها الأسباب التى توصلها إلى ما هى مهيأة له ولا يليق بها سواه ، والرب سبحانه محمود على ذلك أيضا كما هو محمود على إنعامه وإحسانه على أهل الاحسان والانعام القابلين له ، فما كل أحد قابلا لنعمته تعالى ، فحمده وحكمته تقتضى أن لا يودع نعمه وإحسانه وكنوزه فى محل غير قابل لها . ولا يبقى إلا أن يقال : فما الحكمة فى خلق هذه الأرواح التى هى غير قابلة لنعمته ؟ فقد تقدم[1] من الجواب عن ذلك ما فيه كفاية ، وأن خلق الأضداد والمقابلات وترتيب آثارها عليها موجب ربوبيته وحكمته وعلمه وعزته ، وأن تقدير عدم ذلك هضم من جانب الربوبية . وأيضا فان هذه الحوادث نعمة فى حق المؤمن ، فانها إذا وقعت فهو مأمور أن ينكرها بقلبه ويده ولسانه أو بقلبه ولسانه فقط أو بقلبه فقط ، ومأمور أن

---

(١) فى ص ١٠٠

يجاهد أربابها بحسب الامكان ، فيترتب له على الانكار والجهاد من مصالح قلبه ونفسه وبدنه ومصالح دنياه وآخرته ما لم يكن ينال بدون ذلك . والمقصود بالقصد الأول إتمام نعمته تعالى على أوليائه ورسله وخاصته ، فاستعمال أعدائه فيما تكمل به النعمة على أوليائه غاية الحكمة ، وكان فى تمكين أهل الكفر والفسوق والعصيان من ذلك إيصال إلى الكمال الذى يحصل لهم بمعاداة هؤلاء وجهادهم والانكار عليهم والموالاة فيه والمعاداة فيه وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له ، فان تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة ، وإنما تكون المحبة صادقة إذا بذل فيها المحب ما يملكه من مال ورياسة وقوة فى مرضاة محبوبه والتقرب اليه ، فان بذل له روحه كان هذا أعلى درجات المحبة . ومن المعلوم أن من لوازم ذلك التى لا يحصل إلا بها أن يخلق ذواتا وأسبابا وأعمالا وأخلاقا وطبائع تقتضى معاداة من يحبه ويؤثر مرضاته لها ، وعند ذلك تتحقق المحبة الصادقة من غيرها فكل أحد يحب الاحسان والراحة والدعة واللذة ، ويحب من يوصل اليه ذلك ويحصله له ، ولكن الشأن فى أمر وراء هذا وهو محبته سبحانه ومحبة ما يحبه مما هو أكره شىء إلى النفوس وأشق شىء عليها مما لا يلائمها ، فعند حصول أسباب ذلك يتبين من يحب الله لذاته ويحب ما يحب ممن يحبه لأجل مخلوقاته فقط من المأكل والمشرب والمنكح والرياسة ، فان أعطى منها رضى وان منعها سخط وعتب على ربه وربما شكاه وربما ترك عبادته ، فلولا خلق الأضداد وتسليط أعدائه وامتحان أوليائه لم يستخرج خاص العبودية من عبيده الذين هم عبيده ، ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه والعطاء له والمنع له ، ولا عبودية بذل الأرواح والأموال والأولاد والقوى فى جهاد أعدائه ومضرته ، ولا عبودية مفارقة الناس أحوج ما يكون اليهم عنده لأجله فى مرضاته ، ولا يتحيز اليهم وهو يرى محابّ نفسه وملاذّها بأيديهم فيرضى بمفارقتهم ومشاققتهم وإيثار موالاة الحق عليهم ، فلولا الأضداد والأسباب التى توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار . وأيضا فلولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر وجهاد النفس ومنعها من خوضها وشهواتها محبة لله وإيثارا لمرضاته وطلبا للزلفى لديه والقرب منه . وأيضا فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الانسانية إنسانية ، بل كانت ملكية ، فان الله سبحانه خلق خلقه أطوارا : فخلق

الملائكة عقولا لا شهوات لها ولا طبيعة تتقاضى منها خلاف ما يراد من مادة نورية لا تقتضي شيئا من الآثار والطبائع المذمومة ، وخلق الحيوانات ذوات شهوات لا عقول لها ، وخلق الثقلين ـ الجن والانس ـ وركب فيهم العقول والشهوات والطبائع المختلفة لآثار مختلفة بحسب موادها وصورها وتركيبها . وهؤلاء هم أهل الامتحان والابتلاء ، وهم المعرضون للثواب والعقاب . ولو شاء سبحانه لجعل خلقه على طبيعة وخلق واحد ولم يفاوت بينهم ، لكن ما فعله سبحانه هو محض الحكمة وموجب الربوبية ومقتضى الإلهية ، ولو كان الخلق كله طبيعة واحدة ونمطا واحدا لوجد الملحد مقالا وقال : هذا مقتضى الطبيعة ، ولو كان فاعلا بالاختيار لتنوعت أفعاله ومفعولاته ولفعل الشيء وضده والشيء وخلافه . وكذلك لولا شهود هذه الحوادث المشهودة لوجد الملحد أيضا مقالا وقال : لو كان لهذا العالم خالقا مختارا لوجدت فيه الحوادث على حسب إرادته واختياره ، كما روى الحسن أو غيره قال : كان أصحاب محمد يقولون : جلّ ربنا القديم ، إنه لو لم يتغير هذا الخلق لقال الشاك فيه أنه لو كان لهذا العالم خالق لأحدثه بينا هو ليل اذ جاء نهار ، بينا هو نهار إذ جاء ليل ، بينا هو صحو اذ جاء غيم ، وبينا هو غيم إذ جاء صحو ، ونحو هذا من الكلام . ولهذا يستدل سبحانه فى كتابه بالحوادث تارة وباختلافها تارة ، إذ هذا وهذا يستلزم ربوبيته وقدرته واختياره ووقوع كل الكائنات على وفق مشيئته ، فتنوع أفعاله ومفعولاته من أعظم الأدلة على ربوبيته وحكمته وعلمه . ولهذا خلق سبحانه النوع الانسانى أربعة أقسام : أحدها لا من ذكر ولا أنثى وهو خلق أبيهم وأصلهم آدم ، الثانى خلقه من ذكر بلا أنثى كخلق أمهم حواء من ضلع من أضلاع آدم من غير أن تحمل بها أنثى أو يشتمل عليها بطن ، الثالث خلقه من أنثى بلا ذكر كخلق المسيح عيسى بن مريم ، الرابع خلق سائر النوع الانسانى من ذكر وأنثى ، وكل هذا ليدل عباده على كمال قدرته ونفوذ مشيئته وكمال حكمته ، وأن الأمر ليس كما يظنه أعداؤه الجاحدون له الكافرون به من أن ذلك أمر طبيعى لم يزل هكذا ولا يزال ، وأنه ليس للنوع أب ولا أم وأنه ليس إلا أرحام تدفع وأرض تبلع وطبيعة تفعل ما يرى ويشاهد ، ولم يعلم هؤلاء الجهال الضلال أن الطبيعة قوة وصفة فقيرة الى محلها محتاجة الى حامل لها ، وأنها من أدل الدلائل على وجود أمره طبعها

وخلقها ، وأودعها الأجسام وجعل فيها هذه الأسرار العجيبة ، فالطبيعة مخلوق من مخلوقاته ومملوك من مماليكه وعبيده مسخرة لأمره تعالى منقادة لمشيئته ، ودلائل الصنعة وأمارات الخلق والحدوث وشواهد الفقر والحاجة شاهدة عليها بأنها مخلوقة مصنوعة ، لا تخلق ولا تفعل ولا تتصرف فى ذاتها ونفسها ، فضلا عن اسناد الكائنات اليها

والمقصود أن تنويع المخلوقات واختلافها من لوازم الحكمة والربوبية والملك ، وهو أيضا من موجبات الحمد ، فله الحمد على ذلك كله أكمل حمد وأتمه أيضا ، فان مخلوقاته هى موَجبات أسمائه وصفاته ، فلكل اسم وصفة أثر لا بد من ظهوره فيه واقتضائه له ، فيمتنع تعطيل آثار أسمائه وصفاته كما يمتنع تعطيل ذاته عنها ، وهذه الآثار لها متعلقات ولوازم يمتنع أن لا توجد كما تقدم التنبيه عليه . وأيضا فان تنويع أسباب الحمد أمر مطلوب للرب محبوب له ، فكما تنوعت أسباب الحمد تنوّع الحمد بتنوّعها وكثر بكثرتها ، ومعلوم أنه سبحانه محمود على انتقامه من أهل الإجرام والإساءة ، كما هو محمود على إكرامه لأهل العدل والاحسان ، فهو محمود على هذا وعلى هذا ، مع ما يتبع ذلك من حمده على حلمه وعفوه ومغفرته وترك حقوقه ومسامحة خلقه بها والعفو عن كثير من جنايات العبيد ، فنبهم باليسير من عقابه وانتقامه على الكثير الذى عفا عنه ، وأنه لو عاجلهم بعقوبته وأخذهم بحقه لقضى اليهم أجلهم ولما ترك على ظهرها من دابة ، ولكنه سبقت رحمته غضبه وعفوه انتقامه ومغفرته عقابه ، فله الحمد على عفوه وانتقامه ، وعلى عدله وإحسانه ، ولا سبيل الى تعطيل أسباب حمده ولا بعضها . فليتدبر اللبيب هذا الموضع حق التدبر ، وليعطه حقه ، يطلعه على أبواب عظيمة من أسرار القدر ، ويهبط به على رياض منه معشبة وحدائق مؤنقة . والله الموفق الهادى للصواب

وأيضا فان الله سبحانه نوّع الأدلة الدالة عليه والتى تعرّف عباده به غاية التنوع ، وصرّف الآيات وضرب الأمثال ، ليقيم عليهم حجته البالغة ويتم عليهم بذلك نعمته السابغة ، ولا يكون لأحد بعد ذلك حجة عليه سبحانه ، بل الحجة كلها له والقدرة كلها له فأقام عليهم حجته ، ولو شاء لسوّى بينهم فى الهداية كما قال تعالى (الانعام ١٤٩) : ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ البالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين ﴾ فأخبر أن له الحجة البالغة ، وهى التى

بلغت إلى صميم القلب وخالطت العقل واتحدت به فلا يمكن العقل دفعها ولا جحدها ، ثم أخبر أنه سبحانه قادر على هداية خلقه كلهم ، ولو شاء ذلك لفعله لكمال قدرته ونفوذ مشيئته ، ولكن حكمته تأبى ذلك وعدله يأبى تعذيب أحد وأخذه بلا حجة ، فأقام الحجة وصرّف الآيات وضرب الأمثال ونوّع الأدلة ، ولو كان الخلق كلهم على طريقة واحدة من الهداية لما حصلت هذه الأمور ولا تنوعت هذه الأدلة والأمثال ، ولا ظهرت عزته سبحانه فى انتقامه من أعدائه ونصر أوليائه عليهم ، ولا حججه التى أقامها على صدق أنبيائه ورسله ، ولا كان للناس آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، ولا كان للخلق آية باقية ما بقيت الدنيا فى شأن موسى وقومه وفرعون وقومه وفلق البحر لهم ودخولهم جميعا فيه ثم إنجاء موسى وقومه ولم يغرق أحد منهم وأغرق فرعون وقومه لم ينج منهم أحد ، فهذا التعرف الى عباده وهذه الآيات وهذه العزة والحكمة لا سبيل الى تعطيلها البتة ولا توجد بدون لوازمها

وأيضا فان حقيقة الملك إنما تتم بالعطاء والمنع والإكرام والإهانة والإثابة والعقوبة والغضب والرضا والتولية والعزل وإعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق به الذل ، قال تعالى (آل عمران ٢٦ - ٢٧) : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشاء وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاء وَتُعِزُّ مَنْ تَشاء وَتُذِلُّ مَنْ تَشاء ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِير . تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهارِ وَتُولِجُ النَّهارَ فِى اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشاء بِغَيْرِ حِساب ﴾ وقال تعالى (الرحمن ٢٩) ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴾ يغفر ذنبا ويفرّج كربا ويكشف غما وينصر مظلوما ويأخذ ظالما ويفك عانيا ويغنى فقيرا ويجبر كسيرا ويشفى مريضا ويقيل عثرة ويستر عورة ويعزّ ذليلا ويذل عزيزا ويعطى سائلا ويذهب بدولة ويأتى بأخرى ويداول الأيام بين الناس ويرفع أقواما ويضع آخرين ، يسوق المقادير التى قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام الى مواقيتها فلا يتقدم شىء منها عن وقته ولا يتأخر ، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ

فيه حكمه وسبق به علمه ، فهو المتصرف فى الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه فى ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض ، فتصرفه فى المملكة دائر بين العدل والاحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك . وفى تفسير الحافظ أبى بكر أحمد بن موسى بن مردويه من حديث الحمانى : حدثنا إسحق بن سليمان عن معاوية بن يحيى عن يونس بن ميسرة عن أبى إدريس عن أبى الدرداء أنه سئل عن قوله تعالى (الرحمن ٢٩) : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَانٍ ﴾ فقال : سئل عنها رسول الله ﷺ فقال « من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ويرفع قوما ويضع آخرين » ، وفيه أيضا من حديث حماد بن سلمة حدثنا الزبير أبو عبد السلام عن أيوب ابن عبد الله بن مكرز عن أبيه قال : قال عبد الله بن مسعود : إن ربكم عز وجل ليس عنده ليل ولا نهار ، نور السموات من نور وجهه . أيامكم عنده ثنتا عشرة ساعة : تعرض عليه أعمالكم بالأمس ثلاث ساعات من أول النهار ، فيطلع منها على ما يكره فيغضب ، فيكون أول من يعلم بغضبه حملة العرش ، فتسبح حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة ، وينفخ جبريل فى القرن فلا يبقى خلق لله فى السموات ولا فى الأرض إلا سمعه إلا الثقلين ، ويسبحون لذلك [ثلاث ساعات] حتى يمتلىء الرحمن رحمة ، فتلك ست ساعات (١) ثم يدعو بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات ﴿ يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران ٦) ، ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (الشورى ٤٩) فتلك تسع ساعات . ثم يدعو بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ (الاسراء ٣٠ ، الروم ٣٧ ، سبأ ٣٦ ، الزمر ٥٢ ، الشورى ١٢) فتلك ثنتا عشرة ساعة . ثم قرأ عبد الله (الرحمن ٢٩) : ﴿ كلَّ يوم هوَ فى شأن ﴾ ثم قال : هذا شأنكم وشأن ربكم عز وجل . وذكره الطبرانى فى المعجم الكبير من وجه آخر . وهذا من تمام تصرفه فى ملكه سبحانه ، فلو قصر تصرفه على وجه واحد ونمط واحد لم يكن تصرفا تاما

---

(١) هنا بياض فى الاصل

والمقصود أن الملك والحمد فى حقه متلازمان ، فكل ما شمله ملكه وقدرته شمل حمده ، فهو محمود فى ملكه وله الملك والقدرة مع حمده ، فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته يستحيل خروجها عن حمده وحكمته ، ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره ، لينبه عباده على أن مصدر خلقه وأمره عن حمده ، فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمد شكر وعبودية ، وحمد ثناء ومدح ، ويجمعهما التبارك ، فتبارك الله يشمل ذلك كله ، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله (الاعراف ٥٤) : ﴿ أَلا لَهُ الخَلْقُ والأَمْر ، تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمِين ﴾ . فالحمد أوسع الصفات وأعم المدائح ، والطرق الى العلم به فى غاية الكثرة ، والسبيل الى اعتباره فى ذرّات العالم وجزئياته وتفاصيل الامر والنهى واسعة جدا ، لأن جميع أسمائه تبارك وتعالى حمد ، وصفاته حمد ، وأفعاله حمد ، وأحكامه حمد ، وعدله حمد ، وانتقامه من أعدائه حمد وفضله فى إحسانه الى أوليائه حمد ، والخلق والأمر إنما قام بحمده ووجد بحمده وظهر بحمده وكان الغاية هى حمده ، فحمده سبب ذلك وغايته ومظهره وحامله ، فحمده روح كل شيء ، وقيام كل شيء بحمده ، وسريان حمده فى الموجودات وظهور آثاره فيه أمر مشهود بالأبصار والبصائر : فمن الطرق الدالة على شمول معنى الحمد وانبساطه على جميع المعلومات معرفة أسمائه وصفاته ، وإقرار العبد بان للعالم إلها حيا جامعا لكل صفة كمال واسم حسن وثناء جميل وفعل كريم ، وأنه سبحانه له القدرة التامة والمشيئة النافذة والعلم المحيط والسمع الذى وسع الاصوات والبصر الذى أحاط بجميع المبصرات والرحمة التى وسعت جميع المخلوقات والملك الأعلى الذى لا يخرج عنه ذرة من الذرات والغنى التام المطلق من جميع الجهات والحكمة البالغة المشهود آثارها فى الكائنات والعزة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات والكلمات التامات النافذات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر من جميع البريات ، واحد لا شريك له فى ربوبيته ولا فى إلهيته ، ولا شبيه له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ، وليس له من يشركه فى ذرة من ذرات ملكه ، أو يخلفه فى تدبير خلقه ، أو يحجبه عن داعيه أو مؤمليه أو سائليه ، أو يتوسط بينهم وبينه بتلبيس أو فرية أو كذب كما يكون بين الرعايا وبين الملوك ، ولو كان كذلك لفسد نظام الوجود وفسد العالم بأسره ﴿ لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا ﴾ (الانبياء ٢٢)

ولو كان معه آلهة أخرى كما يقوله أعداؤه المبطلون لوقع من النقص فى التدبير وفساد الأمر كله مالا يثبت معه حال ، ولا يصلح عليه وجود . ومن أعظم نعمه علينا وما استوجب حمد عباده له أن يجعلنا عبيدا له خاصة ، ولم يجعلنا ربنا منقسمين بين شركاء متشاكسين ، ولم يجعلنا عبيدا لإله نحتته الأفكار[١] ، لا يسمع أصواتنا ولا يبصر أفعالنا ولا يعلم أحوالنا ولا يملك لعابديه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، ولا تكلم قط ولا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى ، ولا ترفع اليه الأيدى ، ولا تعرج الملائكة والروح اليه ، ولا يصعد اليه الكلم الطيب ، ولا يرفع اليه العمل الصالح ، وانه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا فوقه ولا عن يمينه ولا عن يساره ولا خلفه ولا أمامه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ولا محاذيا له ولا مباينا ، ولا هو مستو على عرشه ولا هو فوق عباده ، وحظ العرش منه حظ الحشوش والاخلية ، ولا تنزل الملائكة من عنده بل لا ينزل من عنده شيء ولا يصعد اليه شيء ولا يقرب منه شيء ، ولا يحِب ولا يحَب ، ولا يلتذ المؤمنون بالنظر الى وجهه الكريم فى دار الثواب ، بل ليس له وجه يرى ولا له يد يقبض بها السموات وأخرى يقبض بها الأرض ، ولا فعل يقوم به ولا حكمة تقوم به ، ولا كلم موسى تكليما ، ولا تجلى للجبل فجعله دكا هشيما ، ولا يجيء يوم القيامة لفصل القضاء ، ولا ينزل كل ليلة الى سماء الدنيا فيقول أسأل عن عبادى غيرى ، ولا يفرح بتوبة عبده إذا تاب اليه ، ويجوز فى حكمته تعذيب أنبيائه ورسله وملائكته وأهل طاعته أجمعين من أهل السموات والأرضين ، وتنعيم أعدائه من الكفار به والمحاربين له والمكذبين له ولرسله ، والكل بالنسبة اليه سواء ولا فرق البتة إلا أنه أخبر أنه لا يفعل ذلك ، فامتنع للخبر بأنه لا يفعله ، لا لأنه فى نفسه مناف لحكمته ، ومع ذلك فرضاه عين غضبه وغضبه عين رضاه ومحبته كراهته وكراهته محبته ، إن هى إلا إرادة محضة ومشيئة صرفة يشاء بها لا لحكمة ولا لغاية ولا لأجل مصلحة ، ومع ذلك يعذب عباده على ما لم يعملوه ولا قدرة لهم عليه ، بل يعذبهم على نفس فعله الذى فعله هو ونسبه اليهم ، ويعذبهم اذا لم يفعلوا فعله ويلومهم عليه ، يجوز فى حكمته أن

---

(١) بنفيها عنه سبحانه الصفات التى أثبتها لنفسه فى كتابه المبين ، وعلى لسان خاتم المرسلين ، فترتب على نفى هذه الصفات وتعطيلها ما سيذكره المؤلف من لوازمه المنافية للنصوص الصريحة

يعذب رجالا اذا لم يكونوا نساء ونساء حيث لم يكونوا رجالا وطوالا حيث لم يكونوا قصارا وبالعكس وسودا اذ لم يكونوا بيضا وبالعكس ، بل تعذيبه لهم على مخالفته هو من هذا الجنس اذ لا قدرة لهم البتة على فعل ما أمروا به ولا ترك ما نهوا عنه . فله الحمد والمنة والثناء الحسن الجميل اذ لم يجعلنا عبيدا لمن هذا شأنه فنكون مضيعين ، ليس لنا رب نقصده ، ولا صمد نتوجه اليه ونعبده ، ولا إله نعوّل عليه ، ولا رب نرجع اليه ، بل قلوبنا تنادى فى طرق الحيرة : من دلنا وجمع علينا ربا ضائعا لا هو داخل العالم ولا خارجه ، ولا مباين له ولا محاذ له ، ولا متصل به ولا منفصل عنه ، ولا ينزل من عنده شيء ولا يصعد اليه شيء ، ولا كلم أحدا ولا يكلمه أحد ، ولا ينبغى له أن يعاقب بالقتل أو الضرب والحبس من ذكرها أو أخبر عنه بها أو أثبتها له أو نسبها اليه أو عرفه بها ، بل التوحيد الصرف جحدها وتعطيله عنها ونفى قيامها به واتصافه بها ، وما لم تدركه عقولنا من ذلك فالواجب نفيه وجحده وتكفير من أثبته واستحلال دمه وماله أو تبديعه وتضليله وتفسيقه ، وكلما كان النفى أبلغ كان التوحيد أتم ، فليس كذا وليس كذا أبلغُ فى التوحيد من قولنا هو كذا وهو كذا . فلله العظيم أعظم حمد وأتمه وأكمله على ما منّ به من معرفته وتوحيده ، والإقرار بصفاته العليا وأسمائه الحسنى ، وإقرار قلوبنا بأنه الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة رب العالمين قيوم السموات والأرضين إله الأولين والآخرين ، ولا يزال موصوفا بصفات الجلال ، منعوتا بنعوت الكمال ، منزها عن أضدادها من النقائص والتشبيه والمثال . فهو الحى القيوم الذى لكمال حياته وقيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم . مالك السموات والأرض الذى لكمال ملكه لا يشفع عنده أحد إلا باذنه . العالم بكل شيء الذى لكمال علمه يعلم ما بين أيدى الخلائق وما خلفهم ، فلا تسقط ورقة إلا بعلمه ، ولا تتحرك ذرة إلا باذنه ، يعلم دبيب الخواطر فى القلوب حيث لا يطلع عليها الملك ، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطلع عليه القلب . البصير الذى لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخها وعروقها ، ويرى دبيبها على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء ، ويرى ما تحت الأرضين السبع كما يرى ما فوق السموات السبع . السميع الذى قد استوى فى سمعه سر القول وجهره ، ووسع سمعه الأصوات فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا

تشتبه عليه ولا يشغله منها سمع عن سمع ولا تغلطه المسائل ولا يبرمه كثرة السائلين ، قالت عائشة : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة تشكو الى رسول الله وإنى ليخفى علىّ بعض كلامها ، فأنزل الله عز وجل ﴿ قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِى الىٰ اللهِ واللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِير ﴾ القدير الذى لكمال قدرته يهدى من يشاء ويضل من يشاء ويجعل المؤمن مؤمنا والكافر كافرا والبر برا والفاجر فاجرا ، وهو الذى جعل ابراهيم وآله أئمة يدعون اليه ويهدون بأمره ، وجعل فرعون وقومه أئمة يدعون الى النار . ولكمال قدرته لا يحيط أحد بشىء من علمه إلا بما شاء سبحانه أن يعلمه إياه . ولكمال قدرته خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسه من لغوب ، ولا يعجزه أحد من خلقه ، ولا يفوته ، بل هو فى قبضته أين كان ، فان فر منه فانما يطوى المراحل فى يديه كما قيل :

وكيف يفر المرء عنك بذنبه إذا كان يطوى فى يديك المراحلا

ولكمال غناه استحال إضافة الولد والصاحبة والشريك والشفيع بدون اذنه اليه ، ولكمال عظمته وعلوه وسع كرسيه السموات والأرض ، ولم تسعه أرضه ولا سماواته ولم تحط به مخلوقاته ، بل هو العالى على كل شىء وهو بكل شىء محيط ، ولا تنفد كلماته ولا تبدل ، ولو أن البحر يمده من بعده سبعة أبحر مدادا ، وأشجار الأرض أقلاما ، فكتب بذلك المداد وبتلك الأقلام ، لنفد المداد وفنيت الأقلام ، ولم تنفد كلماته اذ هى غير مخلوقة ، ويستحيل ان يفنى غير المخلوق بالمخلوق . ولو كان كلامه مخلوقا ـ كما قاله من لم يقدره حق قدره ، ولا أثنى عليه بما هو أهله ـ لكان أحق بالفناء من هذا المداد وهذه الأقلام ، لأنه اذا كان مخلوقا فهو نوع من أنواع مخلوقاته ، ولا يحتمل المخلوق إفناء هذا المداد وهذه الأقلام وهو باق غير فان . وهو سبحانه يحب رسله وعباده المؤمنين ويحبونه ، بل لا شىء أحب اليهم منه ولا أشوق اليهم من لقائه ولا أقر لعيونهم من رؤيته ولا أحظى عندهم من قربه ، وأنه سبحانه له الحكمة البالغة فى خلقه وأمره وله النعمة السابغة على خلقه ، وكل نعمة منه فضل وكل نقمة منه عدل ، وأنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وأنه أفرح بتوبة عبده من واجد راحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض المهلكة بعد فقدها واليأس منها ، وأنه سبحانه لم يكلف عباده إلا وسعهم وهو

دون طاقتهم ، فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم ، بخلاف وسعهم فانه ما يسعونه ويسهل عليهم ويفضل قدرهم عنه كما هو الواقع ، وأنه سبحانه لا يعاقب أحدا بغير فعله ولا يعاقبه على فعل غيره ، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله ولا على فعل ما لا قدرة له على تركه ، وانه حكيم كريم جواد ماجد محسن ودود صبور شكور يطاع فيشكر ويعصى فيغفر ، لا أحد أصبر على أذى سمعه منه ، ولا أحب اليه المدح منه ، ولا أحب اليه العذر منه ، ولا أحد أحب اليه الاحسان منه ، فهو محسن يحب المحسنين ، شكور يحب الشاكرين ، جميل يحب الجمال ، طيب يحب كل طيب ، نظيف يحب النظافة ، عليم يحب العلماء من عباده ، كريم يحب الكرماء ، قوى والمؤمن القوىّ أحب اليه من المؤمن الضعيف ، بر يحب الأبرار ، عدل يحب أهل العدل ، حيي ستير يحب أهل الحياء والستر ، عفو غفور يحب من يعفو عن عباده ويغفر لهم ، صادق يحب الصادقين ، رفيق يحب الرفق ، جواد يحب الجود وأهله ، رحيم يحب الرحماء ، وتر يحب الوتر ، ويحب أسماءه وصفاته ويحب المتعبدين له بها ويحب من يسأله ويدعوه بها ويحب من يعرفها ويعقلها ويثنى عليه بها ويحمده ويمدحه بها ، كما فى الصحيح عن النبى ﷺ « لا أحد أحب اليه المدح من الله من أجل ذلك أثنى على نفسه ، ولا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب اليه العذر من الله من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » وفى حديث آخر صحيح « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم » . ولمحبته لأسمائه وصفاته أمر عباده بموجبها ومقتضاها ، فأمرهم بالعدل والإحسان والبر والعفو والجود والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأناة والتثبت . ولما كان سبحانه يحب أسماءه وصفاته كان أحب الخلق اليه من اتصف بالصفات التى يحبها ، وأبغضهم اليه من اتصف بالصفات التى يكرهها ، فانما أبغض من اتصف بالكبر والعظمة والجبروت لأن اتصافه بها ظلم ، إذ لا تليق به هذه الصفات ولا تحسن منه ، لمنافاتها لصفات العبيد ، وخروج من اتصف بها من ربقة العبودية ، ومفارقته لمنصبه ومرتبته ، وتعديه طوره وحدّه ، وهذا خلاف ما تقدم من الصفات كالعلم والعدل والرحمة والاحسان والصبر والشكر فانها لا تنافى العبودية ، بل اتصاف العبد بها من كمال عبوديته ، اذ المتصف بها من العبيد

لم يتعد طوره ولم يخرج بها من دائرة العبودية . والمقصود أنه سبحانه لكمال أسمائه وصفاته موصوف بكل صفة كمال ، منزه عن كل نقص ، له كل ثناء حسن ولا يصدر عنه إلا كل فعل جميل ، ولا يسمى إلا بأحسن الأسماء ولا يثنى عليه إلا بأكمل الثناء ، وهو المحمود المحبوب المعظم ذو الجلال والاكرام على كل ما قدره وخلقه ، وعلى كل ما أمر به وشرعه

ومن كان له نصيب من معرفة أسمائه الحسنى ، واستقرأ آثارها فى الخلق والأمر ، رأى الخلق والأمر منتظمين بها أكمل انتظام ، ورأى سريان آثارها فيهما ، وعلم - بحسب معرفته بها - ما يليق بكماله وجلاله أن يفعله وما لا يليق ، فاستدل بأسمائه على ما يفعله وما لا يفعله ، فانه لا يفعل خلاف موجب حمده وحكمته ، وكذلك يعلم ما يليق به أن يأمر به ويشرعه مما لا يليق به ، فيعلم أنه لا يأمر بخلاف موجب حمده وحكمته . فاذا رأى فى بعض الأحكام جورا وظلما أو سفها وعبثا ومفسدة أو ما لا يوجب حمدا وثناء فليعلم أنه ليس من أحكامه ولا دينه ، وأنه برىء منه ورسوله ، فانه إنما أمر بالعدل لا بالظلم وبالمصلحة لا بالمفسدة وبالحكمة لا بالعبث والسفه ، وانما بعث رسوله بالحنيفية السمحة لا بالغلظة والشدة ، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة ، فانه أرحم الراحمين ، ورسوله رحمة مهداة الى العالمين ، ودينه كله رحمة ، وهو نبى الرحمة وأمته الأمة المرحومة ، وذلك كله موجب أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة ، فلا يخبر عنه إلا بحمده ولا يثنى عليه إلا بأحسن الثناء كما لا يسمى إلا بأحسن الأسماء

وقد نبه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه فى أول الخلق وآخره وعند الأمر والشرع ، وحمد نفسه على ربوبيته للعالمين ، وحمد نفسه على تفرده بالإلهية وعلى حياته ، وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاة أحد من خلقه لحاجته اليه ، وحمد نفسه على علوه وكبريائه ، وحمد نفسه فى الأولى والآخرة ، وأخبر عن سريان حمده فى العالم العلوى والسفلى ، ونبه على هذا كله فى كتابه وحمد نفسه عليه ، فتنوع حمده وأسباب حمده ، وجمعها تارة وفرقها أخرى ليتعرف الى عباده ويعرفهم كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه ، وليتحبب اليهم بذلك ويحبهم اذا عرفوه وأحبوه وحمدوه . قال تعالى ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم . مالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ ، وقال تعالى (الانعام ١) : ﴿ الحَمْدُ لِلّٰهِ الذِى خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون ﴾ وقال تعالى (الكهف ١ ـ ٢) : ﴿ الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنين ﴾ وقال (سبأ ١) : ﴿ الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى لَهُ ما فِى السَّمٰوٰاتِ وما فى الأَرْضِ وَلَهُ الحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِير ﴾ وقال تعالى (فاطر ١) : ﴿ الحَمْدُ لِلّٰهِ فاطِرِ السَّمٰوٰاتِ والأَرْضِ جاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورُباعَ يَزِيدُ فِى الخَلْقِ ما يَشاء إِنَّ اللّٰهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِير ﴾ وقال (القصص ٧٠) : ﴿ وَهُوَ اللّٰهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِى الأُولىٰ والآخِرَةِ ولَهُ الحُكْمُ وإِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ وقال (غافر ٦٥) : ﴿ هُوَ الحَىُّ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ فادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّين ، الحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العالَمِين ﴾ وقال (الروم ١٧ ـ ١٨) : ﴿ فَسُبْحانَ اللّٰهِ حِينَ تُمْسُونَ وحِينَ تُصْبِحُون . ولَهُ الحَمْدُ فِى السَّمٰوٰاتِ والأَرْضِ وعَشِيّاً وحِينَ تُظْهِرُون ﴾ وأخبر عن حمد خلقه له بعد فصله بينهم والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته ﴿ وقُضِىَ بينَهم بالحقّ وقيل الحمدُ للّٰه ربِّ العالمين ﴾ (الزمر ٧٥) . وأخبر عن حمد أهل الجنة له وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده ، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده ، فقال أهل الجنة (الأعراف ٤٣) : ﴿ الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى هَدانا لِهٰذا وما كُنّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلا أَنْ هَدانا اللّٰه ﴾ ، و (يونس ١٠) : ﴿ دَعْواهُمْ فيها سُبْحانَكَ اللّٰهُمَّ وتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلام ، وآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العالَمِين ﴾ ، وقال عن أهل النار (القصص ٧٤ ـ ٧٥) : ﴿ وَيَوْمَ يُنادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكائِىَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُون . وَنَزَعْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنا هاتُوا بُرْهانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ لِلّٰهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُون ﴾ وقال (الملك ١١) : ﴿ فاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِير ﴾ وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم وعلموا أنهم كانوا كاذبين فى الدنيا مكذبين بآيات ربهم مشركين به جاحدين لإلهيته مفترين عليه ، وهذا اعتراف منهم بعدله فيهم وأخذهم

ببعض حقه عليهم وأنه غير ظالم لهم وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده وإنما عوقبوا بأفعالهم وبما كانوا قادرين على فعله وتركه ، لا كما تقول الجبرية . وتفصيل هذه الحكمة مما لا سبيل للعقول البشرية الى الاحاطة به ولا الى التعبير عنه ، ولكن بالجملة فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل وكل حمد ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله عز وجل على أكمل الوجوه وأتمها وأدومها ، وجميع ما يوصف به ويذكر به ويخبر عنه به فهو محامد له وثناء وتسبيح وتقديس ، فسبحانه وبحمده لا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يثنى به عليه خلقه ، فله الحمد أولا وآخرا حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، كما ينبغى لكرم وجهه وعز جلاله ورفيع مجده وعلو جده

فهذا تنبيه على أحد نوعى حمده ، وهو حمد الصفات والأسماء . والنوع الثانى حمد النعم والآلاء ، وهذا مشهود للخليقة برها وفاجرها مؤمنها وكافرها ، من جزيل مواهبه وسعة عطاياه وكريم أياديه وجميل صنائعه وحسن معاملته لعباده وسعة رحمته لهم وبره ولطفه وحنانه وإجابته لدعوات المضطرين وكشف كربات المكروبين واغاثة الملهوفين ورحمته للعالمين وابتدائه بالنعم قبل السؤال ومن غير استحقاق بل ابتداء منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها وصرفها بعد وقوعها ؛ ولطفه تعالى فى ذلك بايصاله الى من أراده بأحسن الألطاف ، وتبليغه من ذلك الى مالا تبلغه الآمال ، وهدايته خاصته وعباده الى سبيل دار السلام ، ومدافعته عنهم أحسن الدفاع وحمايتهم عن مراتع الآثام ، وحبب اليهم الايمان وزينه فى قلوبهم وكره اليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وجعلهم من الراشدين وكتب فى قلوبهم الايمان ، وأيدهم بروح منه وسماهم المسلمين قبل أن يخلقهم ، وذكرهم قبل أن يذكروه وأعطاهم قبل أن يسألوه وتحبب اليهم بنعمه مع غناه وتبغضهم اليه بالمعاصى وفقرهم اليه ، ومع هذا كله فاتخذ لهم دارا وأعد لهم فيها من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وملأها من جميع الخيرات وأودعها من النعيم والحبرة والسرور والبهجة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ثم أرسل اليهم الرسل يدعونهم اليها ، ثم يسر لهم الأسباب التى توصلهم اليها وأعانهم عليها ، ورضى منهم باليسير فى هذه المدة القصيرة جدا بالاضافة

إلى بقاء دار النعيم ، وضمن لهم إن أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشرا وإن أساءوا واستغفروه أن يغفر لهم ، ووعدهم أن يمحو ما جنوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات ، وذكرهم بآلائه وتعرف اليهم بأسمائه ، وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم واحسانا لا حاجة منه اليهم ، ونهاهم عما نهاهم عنه حماية وصيانة لهم لا بخلا منه عليهم ، وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه ونصحهم بأحسن النصائح ووصاهم بأكمل الوصايا وأمرهم بأشرف الخصال ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال ، وصرّف لهم الآيات وضرب لهم الأمثال ووسع لهم طرق العلم به ومعرفته ، وفتح لهم أبواب الهداية وعرفهم الأسباب التي تدنيهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه ، ويخاطبهم بألطف الخطاب ويسميهم بأحسن أسمائهم كقوله : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا ﴾ ، ﴿ وتُوبُوا إلى الله جَميعاً أيُّها الْمُؤْمِنُون ﴾ ﴿ يا عِبادِيَ الَّذينَ أسْرَفُوا عَلَى أنفُسِهِمْ ﴾ ، ﴿ قُلْ لِعِبادِي ﴾ ، ﴿ وإذا سَألَكَ عِبادِي عَنِّي ﴾ فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبة والتلطف كقوله (البقرة ٢١ ـ ٢٢) : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقَكُمْ وَالَّذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون . الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرْضَ فِراشاً والسَّماءَ بِناءً وَأنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ ، فلا تَجْعَلُوا للهِ أنداداً وَأنْتُمْ تَعلَمُون ﴾ . (فاطر ٣) : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأرْضِ لا إلهَ إلاَّ هُوَ فأنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ ، (فاطر ٥) : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَياةُ الدُّنْيا ولا يَغُرَّنَّكُمْ باللهِ الغَرُور ﴾ ، (الانفطار ٦ ـ ٧) : ﴿ يا أيُّها الانسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَريمِ الَّذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ ، (آل عمران ١٠٢ـ١٠٣) : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأنْتُمْ مُسْلِمُونَ . واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ، واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أعْداءً فَألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فأصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخْواناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فأنْقَذَكُمْ مِنْها ، كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون ﴾ ، (آل عمران ١١٨) : ﴿ يا أيُّها

الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالاً وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، (الممتحنة ١) : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِياءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِما جاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهاداً فِي سَبِيلِي وابْتِغاءَ مَرْضاتي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وأَنا أَعْلَمُ بِما أَخْفَيْتُمْ وَما أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ ﴾، (الانفال ٢٤ ـ ٢٦) : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ ولِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً ، واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ . واذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ ورَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾، (الحج ٧٣ ـ ٧٤) : ﴿ يا أَيُّها النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، انَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً ولَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ . ما قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ ، (الكهف ٥٠) : ﴿ وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلا ﴾ ، فتحت هذا الخطاب : إني عاديت إبليس وطردته من سمائي وباعدته من قربي إذ لم يسجد لأبيكم آدم ، ثم أنتم يا بنيه توالونه وذريته من دوني وهم أعداء لكم . فليتأمل اللبيب مواقع هذا الخطاب وشدة لصوقه بالقلوب والتباسه بالأرواح . وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة ، وأعلم عباده أنه لا يرضى لهم إلا أكرم الوسائل وأفضل المنازل وأجل العلوم والمعارف ، قال تعالى (الزمر ٧) : ﴿ إِنْ تَكْفُرُوا فَانَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ ، ولا يَرْضَى لِعِبادِهِ الْكُفْرَ ، وإِنْ تَشْكُرُوا

يرضه لكم ﴾ ، وقال (المائدة ٣) : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الأسلام دينا ﴾ وقال (البقرة ١٨٥) : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، وقال (النساء ٢٦ ـ ٢٨) : ﴿ يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم . والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما . يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا ﴾

ويتنصل سبحانه الى عباده من مواضع الظنة والتهمة التى نسبها اليه من لم يعرفه حق معرفته ولا قدره حق قدره : من تكليف عباده مالا يقدرون عليه ولا طاقة لهم بفعله البتة ، وتعذيبهم ان شكروه وآمنوا به ، وخلق السموات والارض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية ، وأنه لم يخلق خلقه لحاجه منه اليهم ، ولا ليتكثر بهم من قلة ، ولا ليتعزز بهم كما قال (الذاريات ٥٦ ـ ٥٧) : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ﴾ فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه اليهم ، ولا ليربح عليهم ، لكن خلقهم جودا وإحسانا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الارباح كقوله (الاسراء ٧) : ﴿ إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ﴾ ، (الروم ٤٤) : ﴿ ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون ﴾ ، ولما أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذى يحط عنهم أوزارهم ويدخلون به عليه ويرفع به درجاتهم قال تعالى (المائدة ٦) : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾ ، وقال فى الأضاحى والهدايا (الحج ٣٧) : ﴿ لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ﴾ ، وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الردىء من المال (البقرة ٢٦٧) : ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد ﴾ يقول سبحانه : إنى غنى عما تنفقون أن ينالنى منه شيء ، حميد مستحق المحامد كلها ، فانفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجب له حمدا ، بل هو الغنى بنفسه الحميد بنفسه وأسمائه

وصفاته ، وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائدته عليكم . ومن المتعين على من لم يباشر قلبه حلاوة هذا الخطاب وجلالته ولطف موقعه ، وجذبه للقلوب والارواح ومخالطته لها ، أن يعالج قلبه بالتقوى ، وأن يستفرغ منه المواد الفاسدة التى حالت بينه وبين حظه من ذلك ، ويتعرض الى الأسباب التى يناله بها ، من صدق الرغبة واللجأ الى الله أن يحي قلبه ويزكيه ويجعل فيه الايمان والحكمة ، فالقلب الميت لا يذوق طعم الايمان ولا يجد حلاوته ، ولا يتمتع بالحياة الطيبة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . ومن أراد مطالعة أصول النعم فليسم سرح الذكر فى رياض القرآن ، وليتأمل ما عدد الله فيه من نعمه وتعرف بها الى عباده من أول القرآن الى آخره حين خلق أهل النار وابتلاهم بابليس وحزبه وتسليط أعدائهم عليهم وامتحانهم بالشهوات والارادات والهوى لتعظم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربته ، فلله على أوليائه وعباده أتم نعمة وأكملها فى كل ما خلقه من محبوب ومكروه ، ونعمة ومحنة ، وفى كل ما أحدثه فى الأرض من وقائعه بأعدائه ، وإكرامه لأوليائه ، وفى كل ما قضاه وقدره ، وتفصيل ذلك لا تنى به أقلام الدنيا وأوراقها ولا قوى العباد ، وإنما هو التنبيه والإشارة . ومن استقرى الأسماء الحسنى وجدها مدائح وثناء تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كنهها ، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها ، ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء لم تتحرك بها الخواطر ولا هجست فى الضمائر ولا لاحت لمتوسم ولا سنحت فى فكر ، فنى دعاء أعرف الخلق بربه وأعلمهم باسمائه وصفاته ومحامده « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك او استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدرى وجلاء حزنى وذهاب همى وغمى » ، وفى الصحيح عنه ﷺ فى حديث الشفاعة لما يسجد بين يدى ربه قال « فيفتح علىّ من محامده بشىء لا أحسنه الآن » ، وكان يقول فى سجوده « أعوذ برضاك من سخطك ، وبعفوك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » فلا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه البتة ، وله أسماء وأوصاف وحمد وثناء لا يعلمه ملك مقرب ولا نبى مرسل ، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك الى ما لا يعلمونه كنقرة عصفور فى بحر

فان قيل : فكيف تصنعون بما يشاهد من أنواع الابتلاء والامتحان والآلام للاطفال والحيوانات ومن هو خارج عن التكليف ومن لا ثواب ولا عقاب عليه ؟ وما تقولون فى الاسماء الدالة على ذلك من المنتقم والقابض والخافض ونحوها ؟ قيل : قد تقدم من الكلام فى ذلك ما يكفى بعضه لذى الفطرة السليمة والعقل المستقيم . وأما من فسدت فطرته وانتكس قلبه وضعفت بصيرة عقله فلو ضرب له من الأمثال ما ضرب فانه لا يزيده إلا عمى وتحيرا . ونحن نزيد ما تقدم إيضاحا وبيانا ، إذ بسط هذا المقام أولى من اختصاره فنقول : قد علمت أن جميع أسماء الرب سبحانه حسنى وصفاته كمال وأفعاله حكمة ومصلحة ، وله كل ثناء وكل حمد ومدحة ، وكل خير فمنه وله وبيده ، والشر ليس اليه بوجه من الوجوه . لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله ولا فى أسمائه ، وان كان فى مفعولاته فهو خير باضافته اليه وشر باضافته إلى من صدر عنه ووقع به . فتمسك بهذا الأصل ولا تفارقه فى كل دقيق وجليل ، وحكمه على كل ما يرد عليك ، وحاكم اليه واجعله آخيتك التى ترجع اليها وتعتمد عليها . واعلم أن لله خصائص فى خلقه ورحمة وفضلا يختص به من يشاء ، وذلك موجب ربوبيته وإلهيته وحمده وحكمته ، فاياك ثم إياك أن تصغى الى وسوسة شياطين الانس والجن والنفس الجاهلة الظالمة أنه هلا سوى بين عباده فى تلك الخصائص وقسمها بينهم على السواء ، فان هذا عين الجهل والسفه من المعترض به ، وقد بينا فيما تقدم أن حكمته تأبى ذلك وتمنع منه . ولكن اعلم أن الأمر قسمة بين فضله وعدله ، فيختص برحمته من يشاء ويقصد بعذابه من يشاء وهو المحمود على هذا ، فالطيبون من خلقه مخصوصون بفضله ورحمته ، والخبيثون مقصودون بعذابه ، ولكل واحد قسطه من الحكمة والابتلاء والامتحان ، وكل مستعمل فيما هو له مهيأ وله مخلوق ، وكل ذلك خير ونفع ورحمة للمؤمنين ، فانه تعالى خلقهم للخيرات فهم لها عاملون ، واستعملهم فيها فلم يدركوا ذلك إلا به ولا استحقوه إلا بما سبق لهم من مشيئته وقسمته ، فكذلك لا تضرهم الأدواء ولا السموم ، بل متى وسوس لهم العدو واغتالهم بشىء من كيده أو مسهم بشىء من طيفه تذكروا فاذا هم مبصرون ، وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون ، وإذا واقعوا معصية صغيرة أو كبيرة عاد ذلك عليهم رحمة وانقلب فى حقهم دواء وبدل

حسنة بالتوبة النصوح والحسنات الماحية ، لأنه سبحانه عرفهم بنفسه وبفضله وبأن قلوبهم بيده وعصمتهم اليه حيث نقض عزماتهم وقد عزموا أن لا يعصوه ، وأراهم عزته فى قضائه ، وبره واحسانه فى عفوه ومغفرته ، وأشهدهم نفوسهم وما فيها من النقص والظلم والجهل ، وأشهدهم حاجتهم اليه وافتقارهم وذلهم ، وأنه ان لم يعف عنهم ويغفر لهم فليس لهم سبيل الى النجاة أبدا ، فانهم لما أعطوا من أنفسهم العزم أن لا يعصوه وعقدوا عليه قلوبهم ، ثم عصوه بمشيئته وقدرته ، عرفوا بذلك عظيم اقتداره وجميل ستره إياهم وكريم حلمه عنهم وسعة مغفرته لهم برد عفوه وحنانه وعطفه ورأفته ، وأنه حليم ذو أناة لا يعجل ورحيم سبقت رحمته غضبه ، وأنهم متى رجعوا اليه بالتوبة وجدوه غفورا رحيما حليما كريما يغفر لهم السيئات ويقيلهم العثرات ويودهم بعد التوبة ويحبهم ، فتضرعوا اليه حينئذ بالدعاء وتوسلوا اليه بذل العبودية وعز الربوبية ، فتعرف سبحانه اليهم بحسن إجابته وجميل عطفه وحسن امتنانه فى أن ألهمهم دعاءه ويسرهم للتوبة والإنابة وأقبل بقلوبهم اليه بعد إعراضها عنه ، ولم تمنعه معاصيهم وجناياتهم من عطفه عليهم وبره لهم وإحسانه اليهم فتاب عليهم قبل أن يتوبوا اليه ، وأعطاهم قبل أن يسألوه ، فلما تابوا اليه واستغفروه وأنابوا اليه تعرف اليهم تعرفا آخر : فعرفهم رحمته وحسن عائدته وسعة مغفرته وكريم عفوه وجميل صفحه وبره وامتنانه وكرمه وشرعه ، ومبادرته قبولهم بعد أن كان منهم ما كان من طول الشرور وشدة النفور والإيضاع فى طرق معاصيه ، وأشهدهم مع ذلك حمده العظيم وبره العميم ، وكرمه فى أن خلى بينهم وبين المعصية فنالوها بنعمته وإعانته ، ثم لم يخل بينهم وبين ما توجبه من الهلاك والفساد الذى لا يرجى معه فلاح ، بل تداركهم بالدواء الثانى الشافى فاستخرج منهم داء لو استمر معهم لافضى الى الهلاك ، ثم تداركهم بروح الرجاء فقذفه فى قلوبهم ، وأخبر أنه عند ظنونهم به ، ولو أشهدهم عظم الجناية وقبح المعصية وغضبه ومقته على من عصاه فقط لأورثهم ذلك المرض القاتل أو الداء العضال من اليأس من روحه والقنوط من رحمته وكان ذلك عين هلاكهم ، ولكن رحمهم قبل البلاء ، وجعل تلك الآثار التى توجبها المعصية من المحن والبلاء والشدائد رحمة لهم وسببا الى علو درجاتهم ونيل الزلفى والكرامة عنده ، فأشهدهم بالجناية عزة الربوبية وذل العبودية ، ورقاهم بآثارها الى

منازل قربه و نيل كرامته ، فهم على كل حال يربحون عليه ويتقلبون فى كرمه وإحسانه ، وكل قضاء يقضيه للمؤمن فهو خير له يسوقه الى كرامته وثوابه ، وكذلك عطاياه الدنيوية نعم منه عليهم فاذا استرجعها أيضا منهم وسلبهم إياها انقلبت من عطايا الآخرة كما قيل : ان الله ينعم على عباده بالعطايا الفاخرة ، فاذا استرجعها كانت عطايا الآخرة . والرب سبحانه قد تجلى لقلوب المؤمنين العارفين وظهر لها بقدرته وجلاله وكبريائه ومضى مشيئته وعظيم سلطانه وعلو شأنه وكرمه وبره وإحسانه وسعة مغفرته ورحمته وما ألقاه فى قلوبهم من الايمان باسمائه وصفاته الى حيث احتملته القوى البشرية ووراءه مما لم تحتمله قواهم ولا يخطر ببال ولا يدخل فى خلد مما لا نسبة لما عرفوه اليه . فاعلم أن الذين كان قسمهم أنواع المعاصي والفجور وفنون الكفر والشرك والتقلب فى غضبه وسخطه وقلوبهم وأرواحهم شاهدة عليهم بالمعاصى والكفر مقرة بان له الحجة عليهم وأن حقه قبلهم ، ولا يذكر أحـــد منهم النار إلا وهو شاهد بذلك مقر به معترف اعتراف طائع لا مكره مضطهد . فهذه شهادتهم على أنفسهم وشهادة أوليائه عليهم ، والمؤمنون يشهدون فيهم بشهادة أخرى لا يشهد بها أعداؤه ، ولو شهدوا بها وباءوا بها لـكانت رحمته أقرب اليهم من عقوبته ، فيشهدون أنهم عبيده وملكه ، وأنه أوجدهم ليظهر بهم مجـــده وينفذ فيهم حكمه ويمضى فيهم عدله ويحق عليهم كلمته ويصدق فيهم وعيده ويبين فيهم سابق علمه ويعمر بهم ديارهم ومساكنهم التى هى محل عدله وحكمته ، وشهد أولياؤه عظيم ملكه وعز سلطانه وصدق رسله وكمال حكمته وتمام نعمته عليهم وقدر ما اختصهم به ومن أى شيء حماهم وصانهم وأى شيء صرف عنهم ، وأنه لم يكن لهم اليه وسيلة قبل وجودهم يتوسلون بها اليه أن لا يجعلهم من أصحاب الشمال وأن يجعلهم من أصحاب اليمين ، وشهدوا له سبحانه بأن ما كان منه اليهم وفيهم مما يقتضيه إتمام كلماته الصدق والعدل وصدق قوله وتحقق مقتضى أسمائه فهو محض حقه ، وكل ذلك منـه حسن جميل له عليه أتم حمد وأكمله وأفضله ، وهو حكم عدل وقضاء فصل ، وأنه المحمود على ذلك كله فلا يلحقه منه ظلم ولا جور ولا عبث ، بل ذلك عين الحكمة ومحض الحمد وكمال أظهره فى حقه وعز أبداه وملك أعلنه ومراد له أنفذه كما فعل بالبُدْن وضروب الأنعام أتم بها مناسك أوليائه وقرابين عباده ، وإن كان ذلك بالنسبة الى

الأنعام هلاكا وإتلافا ، فأعداؤه الكفار المشركون به الجاحدون أولى أن تكون دماؤهم قرابين أوليائه وضحايا المجاهدين فى سبيله ، كما قال حسان بن ثابت :

يتطهرون - يرونه قربانهم - بدماء من علقوا من الكفار

وكذلك لما ضحى خالد بن عبد الله القسرى بشيخ المعطلة الفرعونية جعد بن درهم فانه خطبهم فى يوم أضحى[1] فلما أكمل خطبته قال : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم ، فانى مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما ، ولم يتخذ إبراهيم خليلا ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا . ثم نزل فذبحه ، فكان ضحيته . ذكر ذلك البخارى فى كتاب خلق الافعال . فهذا شهود أوليائه من شأن أعدائه ، ولكن أعداؤه فى غفلة عن هذا لا يشهدونه ولا يقرون به ، ولو شهدوه وأقروا به لأدركهم حنانه ورحمته ، ولكن لما حجبوا عن معرفته ومحبته وتوحيده وإثبات أسمائه الحسنى وصفاته العليا ووصفه بما يليق به وتنزيهه عما لا يليق به صاروا اسوأ حالا من الأنعام ، وضربوا بالحجاب ، وأبعدوا عنه باقصى البعد ، وأخرجوا من نوره الى الظلمات ، وغيبت قلوبهم فى الجهل به وبكماله وجلاله وعظمته فى غابات ، ليتم عليهم أمده ، وينفذ فيهم حكمه ، والله عليم حكيم . والله أعلم

فصلٌ فى أن اللهَ خَلَقَ دارَيْن وخَصَّ كلَّ دارٍ بأهل

والله سبحانه مع كونه خالق كل شيء فهو موصوف بالرضا والغضب والعطاء والمنع والخفض والرفع والرحمة والانتقام ، فاقتضت حكمته سبحانه أن خلق دارا لطالبى رضاه العاملين بطاعته المؤثرين لأمره القائمين بمحابه وهى الجنة ، وجعل فيها كل شيء مرضىّ ، وملأها من كل محبوب ومرغوب ومشتهى ولذيذ ، وجعل الخير بحذافيره فيها ، وجعلها محل كل طيب من الذوات والصفات والاقوال . وخلق دارا أخرى لطالبى أسباب غضبه وسخطه ، المؤثرين لأغراضهم وحظوظهم على مرضاته ، العاملين بأنواع مخالفته ، القائمين بما يكره من الأعمال والأقوال ، الواصفين له بما لا يليق به ، الجاحدين لما أخبرت به رسله من صفات كماله ونعوت جلاله ، وهى جهنم ، وأودعها كل شيء مكروه ،

---

(١) عام ١١٩ . وفى ذلك اليوم قضى على (الوصفاء) بمثل ما فعل على رضى الله عنه بأمثالهم

وسجنها ملىء من كل شيء مؤذ ومؤلم ، وجعل الشر بحذافيره فيها ، وجعلها محل كل خبيث من الذوات والصفات والاقوال والاعمال . فهاتان الداران هما دارا القرار . وخلق دارا ثالثة هى كالميناء لهاتين الدارين ، ومنها يتزود المسافرون اليهما ، وهى دار الدنيا ، ثم أخرج اليها من أثمار الدارين بعض ما اقتضته أعمال أربابهما وما يستدل به عليهما ، حتى كأنهما رأى عين ، ليصير للإيمان بالدارين ـ وان كان غيبا ـ وجه شهادة تستأنس به النفوس وتستدل به ، فأخرج سبحانه الى هذه الدار من آثار رحمته من الثمار والفواكه والطيبات والملابس الفاخرة والصور الجميلة وسائر ملاذ النفوس ومشتهاها ما هو نفحة من نفحات الدار التى جعل ذلك كله فيها على وجه الكمال ، فاذا رآه المؤمنون ذكرهم بما هناك من الخير والسرور والعيش الرخى ، كما قيل :

فاذا رآكِ المسلمون تيقنوا   حور الجنان لدى النعيم الخالد

فشمروا اليه وقالوا : اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ، وأحدثت لهم رؤيته عزمات وهمما وجداً وتشميراً ، لان النعيم يذكر بالنعيم ، والشيء يذكر بجنسه ، فاذا رأى أحدهم ما يعجبه ويروقه ولا سبيل له اليه قال : موعدك الجنة ، وإنما هى عشية أو ضحاها . فوجود تلك المشتهيات والملذوذات فى هذه الدار رحمة من الله يسوق بها عباده المؤمنين الى تلك الدار التى هى أكمل منها ، وزاد لهم من هذه الدار اليها ، فهى زاد وعبرة ودليل ، وأثر من آثار رحمته التى أودعها تلك الدار ، فالمؤمن يهتز برؤيتها الى ما أمامه ، ويثير ساكن عزماته الى تلك ، فنفسه ذواقة تواقة ، إذا ذاقت شيئا منها تاقت الى ما هو أكمل منه حتى تتوق الى النعيم المقيم فى جوار الرب الكريم . وأخرج سبحانه الى هذه الدار أيضا من آثار غضبه ونقمته من العقوبات والآلام والمحن والمكروهات من الأعيان والصفات ما يستدل بجنسه على ما فى دار الشقاء من ذلك ، مع أن ذلك من آثار النفسين الشتاء والصيف اللذين أذن الله سبحانه بحكمته لجهنم أن تتنفس بهما ، فاقتضى ذانك النفسان آثارا ظهرت فى هذه الدار كانت دليلا عليها وعبرة ، وقد أشار تعالى الى هذا المعنى ونبه عليه بقوله فى نار الدنيا (الواقعة ٧٣) : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ ﴾ تذكرة تذكر بها الآخرة ، ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون ، يقال : أقوى الرجل إذا نزل بالقِيّ والقَوَى وهى الارض الخالية ، وخص

المقوين بالذكر وان كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيها لعباده ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ على أنهم كلهم مسافرون وأنهم فى هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر . والمقصود أنه سبحانه أشهد فى هذه [الدار] ما أعد لأوليائه وأعدائه فى دار القرار ، وأخرج الى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على ما هناك من خير وشر ، وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياطا يسوق بها عباده المؤمنين ، فاذا رأوها حذروا كل الحذر واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه على ما فى تلك الدار من المكروهات والعقوبات ، وكان وجودها فى هذه الدار وإشهادهم اياها وامتحانهم باليسير منها رحمة منه بهم وإحسانا اليهم وتذكرة وتنبيها . ولما كانت هذه الدار ممزوجا خيرها بشرها وأذاها براحتها ونعيمها بعذابها اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن خلص خيرها من شرها وخصه بدار أخرى هى دار الخيرات المحضة ودار السرور المحضة ، فكتب على هذه الدار حكم الامتزاج والاختلاط ، وخلط فيها بين الفريقين ، وابتلى بعضهم ببعض ، وجعل بعضهم لبعض فتنة ، حكمة بالغة بهرت العقول وعزة قاهرة . فقام بهذا الاختلاط سوق العبودية كما يحبه ويرضاه ، ولم تكن تقوم عبوديته التى يحبها ويرضاها إلا على هذا الوجه ، بل العبد الواحد جمع فيه بين أسباب الخير والشر ، وسلط بعضه على بعض ليستخرج منه ما يحبه من العبودية التى لا تحصل إلا بذلك . فلما حصلت الحكمة المطلوبة من هذا الامتزاج والاختلاط أعقبه بالتميز والتخليص ، فميز بينهما بدارين ومحلين ، وجعل لكل دار ما يناسبها ، وأسكن فيها من يناسبها ، وخلق المؤمنين المتقين المخلصين لرحمته ، وأعداءه الكافرين لنقمته ، والمخلطين للأمرين : فهؤلاء أهل الرحمة ، وهؤلاء أهل النقمة ، وهؤلاء أهل النقمة والرحمة . وقسم آخر لا يستحقون ثوابا ولا عقابا . ورتب على كل قسم من هذه الأقسام الخمسة حكمه اللائق به ، وأظهر فيه حكمته الباهرة ، ليعلم العباد كمال قدرته وحكمته وأنه يخلق ما يشاء ، ويختار من خلقه من يصلح للاختيار ، وأنه يضع ثوابه موضعه ، وعقابه موضعه ، ويجمع بينهما فى المحل المقتضى لذلك ، ولا يظلم أحدا ولا يبخسه شيئا من حقه ولا يعاقبه بغير جنايته ، هذا مع مافى ضمن هذا الابتلاء والامتحان من الحكم الراجعة الى العبيد أنفسهم : من استخراج

صبرهم وشكرهم وتوكلهم وجهادهم ، واستخراج كمالاتهم الكامنة فى نفسهم من القوة الى الفعل ، ودفع الاسباب بعضها ببعض ، وكسر كل شيء بمقابله ومصادمته بضده ، لتظهر عليه آثار القهر وسمات الضعف والعجز ، ويتيقن العبد أن القهار لا يكون إلا واحدا ، وأنه يستحيل أن يكون له شريك ، بل القهر والوحدة متلازمان : فالملك والقدرة والقوة والعزة كلها لله الواحد القهار ، ومن سواه مربوب مقهور ، له ضد ومناف ومشارك : فخلق الرياح وسلط بعضها على بعض تصادمها وتكسر سورتها وتذهب بها ، وخلق الماء وسلط عليه الرياح تصرفه وتكسره ، وخلق النار وسلط عليها الماء يكسرها ويطفئها ، وخلق الحديد وسلط عليه النار تذيبه وتكسر قوته ، وخلق الحجارة وسلط عليها الحديد يكسرها ويفتتها ، وخلق آدم وذريته وسلط عليهم إبليس وذريته ، وخلق إبليس وذريته وسلط عليهم الملائكة يشردونهم كل مشرد ويطردونهم كل مطرد ، وخلق الحر والبرد والشتاء والصيف وسلط كلا منها على الآخر يذهبه ويقهره ، وخلق الليل والنهار وقهر كلا منهما بالآخر ، وكذلك الحيوان على اختلاف ضروبه من حيوان البر والبحر لكل منه مضاد ومغالب . فاستبان للعقول والفطر أن القاهر الغالب لذلك كله واحد ، وأن من تمام ملكه إيجاد العالم على هذا الوجه وربط بعضه على بعض وإحواج بعضه الى بعض وقهر بعضه ببعض وابتلاء بعضه ببعض وامتزاج خيره بشره وجعل شره لخيره الفداء ، ولهذا يدفع الى كل مؤمن يوم القيامة كافر فيقال له : هذا فداؤك من النار ، وهكذا المؤمن فى الدنيا يسلط عليه من الابتلاء والامتحان والمصائب ما يكون فداءه من عذاب الله ، وقد تكون تلك الأسباب فداء له من شرور أكثر منها فى هذا العالم أيضا ، فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التدبر يتبين له حكمة اللطيف الخبير

﴿ فصل ﴾ وقد تقرر أن الله سبحانه كامل الصفات ، له الأسماء الحسنى ، ولا يكون عن الكامل فى ذاته وصفاته إلا الفعل المحكم ، وهو سبحانه خلق عباده على الفطرة ، وكل مولود فانما يولد على الفطرة ، ويعدلون بهم عنها ، ولو تركوهم لما اختاروا عليها غيرها ، ولكن أخرجوهم عن سنن الحنيفية وأفسدوا فطرهم وقلوبهم ، وهكذا بالاضداد والاغيار يخرج بعض المخلوقات عن سنن الاتقان والحكمة ، ولولا تلك الاضداد والأغيار لكانت فى مرتبتها كالمولود فى فطرته ، ولذلك أمثلة : ﴿ المثال

الأول ﴾ أن الماء خلقه الله طاهرا مطهرا ، فلو ترك على حالته التى خلق عليها ولم يخالطه ما يزيل طهارته لم يكن إلا طاهرا ، ولكن بمخالطة أضداده من الأنجاس والأقذار تغيرت أوصافه وخرج عن الخلقة التى خلق عليها ، فكانت تلك النجاسات والقاذورات بمعنى أبوى الطفل وكافليه الذين يهوّدونه وينصرونه ويمجسونه ويشركونه ، وكما أن الماء اذا فسد بمخالطته الأنجاس والقاذورات لم يصلح للطهارة فكذلك القلوب اذا فسدت فطرها بالأغيار لم تصلح لحظيرة القدس . ﴿ المثال الثانى ﴾ الشراب المعتصر من العنب فانه طيب يصلح للدواء ولإصلاح الغذاء والمنافع التى يصلح لها ، فلو خلى على حاله لم يكن إلا طاهرا طيبا ، ولكن أفسد بتهيئته للسكر واتخاذه مسكرا ، فخرج بذلك عن خلقته التى خلق عليها من الطهارة والطيب ، فصار أخبث شيء وأنجسه . فلو انقلب خلا ، أو زال تغير الماء ، كان بمنزلة رجوع الكافر الى فطرته الأولى ، فان الحكم اذا ثبت لعلة زال بزوالها والله أعلم . ﴿ المثال الثالث ﴾ الأغذية الطيبة النافعة إذا خالطت باطن الحيوان واستقرت هناك خرجت عن حالتها التى خلقت عليها ، واكتسبت بهذه المخالطة والمجاورة خبثا وفسادا لم يكن فيها ، لسلوكها فى غير طرقها التى بها كمالها . ولما أنزل الله الماء طاهرا نافعا فمازج الأرض وسالت به أوديتها أوجد جل جلاله بينهما بسبب هذه المخالطة والممازجة أنواع الثمار والفواكه والزروع والنخيل والزيتون وسائر الأغذية والأقوات ، وأوجد مع ذلك المر والشوك والحنظل وغير ذلك ، واللقاح واحد ولكن الأم مختلفة ، قال تعالى (الرعد ٤) : ﴿ وفى الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بِماءٍ واحِدٍ ونُفَضِّلُ بَعْضَها عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ ، إنَّ فِى ذٰلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ثم إنه سبحانه يصرف ما أخرجه من هذا الماء ويقلبه ويحيل بعضه الى بعض وينقل بعضه بالمخالطة والمجاورة عن طبيعته الى طبيعة أخرى ، وهذا كما خلق كل دابة من ماء ثم خالف بين صورها وقواها ومنافعها وأوصافها وما يصلح لها ، وأمشى بعضا على بطنه وبعضا على رجلين وبعضا على أربع ؛ حكمة بالغة وقدرة باهرة . وكذلك سبحانه يقلب الليل والنهار ويقلب ما يوجد فيهما ويقلب أحوال العالم كما يشاء ويسلك بذلك مسلك الحكمة البالغة التى بها يتم مراده ويظهر ملكه ﴿ أَلا لَهُ الْخَلْقُ والْأَمْرُ تَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمِينَ ﴾ : (الأعراف ٥٤) .

وهذا القرآن المجيد عمدته ومقصوده الإخبار عن صفات الرب سبحانه وأسمائه وأفعاله وأنواع حمده والثناء عليه والإنباء عن عظمته وعزته وحكمته وأنواع صنعه والتقدم الى عباده بأمره ونهيه على ألسنة رسله ، وتصديقه يفهم بما أقامه من الشواهد والدلالات على صدقهم وبراهين ذلك ودلائله وتبيين مراده من ذلك كله ، وكان من تمام ذلك الإخبار عن الكافرين والمكذبين وذكر ما أجابوا به رسلهم وقابلوا به رسالات ربهم ووصف كفرهم وعنادهم وكيف كذبوا على الله وكذّبوا رسله وردوا أمره ومصالحه ، فكان فى اجتلاب ذلك من العلوم والمعارف والبيان وضوح شواهد الحق وقيام أدلته وتنوعها ، وكان موقع هذا من خلقه موقع تسبيحه تعالى وتنزيهه من الثناء عليه ، وأن أسماءه الحسنى وصفاته العليا هى موضع الحمد ، ومن تمام حمده تسبيحه وتنزيهه عما وصفه به أعداؤه والجاهلون به مما لا يليق به . وكان فى تنوع تنزيهه عن ذلك من العلوم والمعارف وتقرير صفات الكمال وتكميل أنواع الحمد ما فى بيان محاسن الشىء وكماله عند معرفة ما يضاده ويخالفه ، ولهذا كان تسبيحه تعالى من تمام حمده ، وحمده من تمام تسبيحه ، ولهذا كان التسبيح والتحميد قربتين ، وكان ما نسبه اليه أعداؤه والمعطلون لصفات كماله ـ من علوه على خلقه وإنزاله كلامه الذى تكلم به على رسله وغير ذلك ـ مما نزه عنه نفسه وسبح به نفسه ، وكان فى ذلك ظهور حمده بخلقه وتنوع أسبابه وكثرة شواهده وسعة طرق الثناء عليه به وتقرير عظمته ومعرفته فى قلوب عباده ، فلولا معرفة الأسباب التى يسبح وينزه ويتعالى عنها ، وخلق من يضيفها اليه ويصفه بها ، لما قامت حقيقة التسبيح ، ولا ظهر لقلوب أهل الايمان عن أى شىء يسبحونه وعما ذا ينزهونه . فلما رأوا فى خلقه من قد نسبه الى ما لا يليق به وجحد من كماله ما هو أولى به سبحوه حينئذ تسبيح مجل له معظم له منزه له عن أمر قد نسبه اليه أعداؤه والمعطلون لصفاته . ونظير هذا اشتمال كلمة الاسلام ـ وهى شهادة أن لا إله إلا الله ـ على النفى والاثبات ، فكان فى الإتيان بالنفى فى صدر هذه الكلمة من تقرير الاثبات وتحقيق معنى الإلهية وتجريد التوحيد الذى يقصد بنفى الإلهية عن كل ما ادعيت فيه سوى الإله الحق تبارك وتعالى ، فتجريد هذا التوحيد من العقد واللسان بتصور إثبات الإلهية لغير الله كما قاله أعداؤه المشركون ونفيه وإبطاله من القلب واللسان من تمام التوحيد وكماله وتقريره

وظهور أعلامه ووضوح شواهده وصدق براهينه . ونظير ذلك أيضا أن تكذيب أعداء الرسل وردهم ما جاءوهم به كان من الأسباب الموجبة ظهور براهين صدق الرسل ودفع ما احتج به أعداؤهم عليهم من الشبه الداحضة ودحض حججهم الباطلة وتقرير طرق الرساله وايضاح أدلتها ، فان الباطل كلما ظهر فساده وبطلانه أسفر وجه الحق واستنارت معالمه ووضحت سبله وتقررت براهينه ، فكسر الباطل ودحض حججه وإقامة الدليل على بطلانه من أدلة الحق وبراهينه . فتأمل كيف اقتضى الحق وجود الباطل ، وكيف تم ظهور الحق بوجود الباطل ، وكيف كان كفر أعداء الرسل بهم وتكذيبهم لهم ودفعهم ما جاءوا به وهو من تمام صدق الرسل وثبوت رسالات الله وقيام حججه على العباد . ولنضرب لذلك مثالا يتبين به ، وهو ملك له عبد قد توحد فى العالم بالشجاعة والبسالة ، والناس بين مصدق ومكذب ، فمن قائل : هو كذلك ، ومن قائل : هو بخلاف ما يظن به فانه لم يقابل الشجعان ولا واجه الاقران ، ولو بارز الاقران وقابل الشجعان لظهر أمره وانكشف حاله . فسمع به شجعان العالم وأبطالهم فقصدوه من كل أوب وأتوه من كل قطر ، فاراد الملك أن يظهر لرعيته ما هو عليه من الشجاعة فمكن أولئك الشجعان من منازلته ومقاومته وقال : دونكم وإياه وشأنكم به . فهل تسليط الملك لأولئك على عبده ومملوكه إلا لإعلاء شأنه وإظهار شجاعته فى العالم وتخويف أعدائه به ، وقضاء الملك أوطاره به ، كما يترتب على هذا إظهار شجاعة عبده وقوته وحصول مقصوده بذلك ، فكذلك يترتب عليه ظهور كذب من ادعى مقاومته وظهور عجزهم وفضيحتهم وخزيهم وأنهم ليسوا ممن يصلح لمهمات الملك وحوائجه ، فاذا عدل بهم عن مهماته وولايته وعدل بها عنهم كان ذلك مقتضى حكمة الملك وحسن تصرفه فى ملكه وانه لو استعملهم فى تلك المهمات لتشوش أمر المملكة وحصل الخلل والفساد والله أعلم بالشاكرين . والمقصود ان خلق الاسباب المضادة للحق واظهارها فى مقابلة الحق من أبين دلالاته وشواهده ، فكان فى خلقها من الحكمة ما لو فاتت [لفاتت] تلك الحكمة وهى أحب الى الله من تفويتها بتقدير تفويت هذه الأسباب . والله أعلم

فصل فى بيان ما للناس فى دخول الشرّ فى القضاء الإلهى

من الطرق والاصول التى تفرعت عنها هذه الطرق

وللناس فى دخول الشر فى القضاء الإلهى طرق ، فنذكرها ونذكر أصولهم التى تفرعت عليها هذه الطرق قبل ذلك ، فنقول : للناس قولان : أحدهما قول أهل الاسلام وأتباع المرسلين كلهم ان الله سبحانه فعال لما يريد ، يفعل باختياره وقدرته ومشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو الذى يعبر عنه متأخرو المتكلمين بكونه « فاعلا بالاختيار » . وللفريق الثانى قول من نفى ذلك وقال : صدر العلم عنه تعالى صدورا ذاتيا كصدور النور عن الشمس والحرارة عن النار والتبريد عن الماء ، ويسمى المتكلمون هذا « الايجاب الذاتى » ، ومصدره موجبات الذات . وهذا قول الفلاسفة المشائين وهو الذى يذكره ابن الخطيب[1] وغيره عن الفلاسفة ، ولا يحكى عنهم غيره . وانما هو قول المشائين ، وقرّبه متأخرهم وفاضلهم ابن سينا الى الاسلام بعض التقريب ، مع مباينته لما جاءت به الرسل ولما دل عليه صريح العقل والفطرة . والفريقان متفقون على أن مصدر الكائنات بأسرها خير محض من جميع الوجوه وكمال صرف ، ووجود الشر فى العالم مشهود ، والخير لا يصدر عنه إلا خير . ولا جرم اختلفت طرقهم فى كيفية دخول الشر فى القضاء الإلهى وتنوعت الى أربعة طرق :

(الطريق الاول) طريق نفاة التعليل والحكمة والأسباب ، فانهم سدوا على أنفسهم هذا الباب وأثبتوا مشيئة محضة لا غاية لها ولا سبب ولا حكمة تفعل لأجلها ، ولا يتوقف فعل المختار بها على مصلحة ولا حكمة ، ولا غاية لها تفعل ، بل كل مقدور يحسن منه فعله ، ولا حقيقة عندهم للقبيح لولا المستحيل لذاته الذى لا يوصف بالقدرة عليه . وهؤلاء نفوا مسمى الرحمة والحكمة وان أقروا بلفظ لا حقيقة له ، وكان شيخهم الجهم بن صفوان يقف بأصحابه على المجذومين وهم يتقلبون فى بلائهم فيقول : أرحم الراحمين يفعل مثل هذا ! يعنى أنه ليس فى الحقيقة رحمة ، وانما هو محض مشيئة وصرف إرادة مجردة عن الحكمة والرحمة

---

(١) هو الفخر الرازى ابن خطيب الرى

وهؤلاء قابلوا أصحاب (الطريق الثانى[١]) وهم الذين أثبتوا له حكمة وغاية وقالوا لا يفعل شيئا الا لحكمة وغاية مطلوبة ، ولكن حجروا عليه سبحانه فى ذلك ، وشرعوا له شريعة وضعوها بعقولهم وظنوا أن ما يحسن من خلقه يحسن منه وما يقبح منهم يقبح منه ، فجعلوا ما أثبتوه له من الحكمة والرحمة من جنس ما هو للخلق ، ولهذا كانوا « مشبهة الافعال » كما أن من شبهه بخلقه فى صفاته فهو « مشبه الصفات » فاقتسموا التشبيه نصفين : هؤلاء فى أفعاله ، وإخوانهم فى صفاته . وقالوا : إنه تعالى لو خص بعض عبيده عن بعض باعطائه توفيقا وقدرة وإرادة ولم يعطها الآخر لكان ظلما للذى منعه . وقالوا : لو شاء من عباده أفعال المعاصى لكان ينزه عنه كما فى المشاهد ، ولو شاء منهم الكفر والفسوق والعصيان ثم عذبهم عليه لكان ظلما فى المشاهد أيضا ، فان السيد إذا أراد من عبده شيئا ففعل العبد ما أراد سيده فانه إذا عذبه عده الناس ظالما له ، وجعلوا العدل فى حقه تعالى من جنس العدل فى حق عباده ، والظلم الذى تنزه عنه كالظلم الذى يتنزهون عنه ، وجعلوا ما يحسن منه من جنس ما يحسن منهم وما يقبح منه من جنس ما يقبح منهم . وقالوا : لو أراد الشر لكان شريرا كما فى المشاهد ، فان مريد الشر شرير . وقالوا : لو ختم على قلوب أعدائه وأسماعهم وحال بينهم وبين قلوبهم وأضلهم عن الإيمان وجعل على أبصارهم غشاوة وجعل من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا ثم عذبهم لكان ظالما لهم ، لأن أحدنا لو فعل ذلك بعبده ثم عذبه لكان ظالما له . فهؤلاء المشبهة حقا فى الافعال ، فعدلهم تشبيه ، وتوحيدهم تعطيل ، فجمعوا بين التشبيه والتعطيل . وهؤلاء قسموا الشر الواقع فى العالم إلى قسمين : أحدهما « شرور هى أفعال العباد » وما تولد منها فهذه لا تدخل عندهم فى القضاء الإلهى تنزيها للرب عن نسبتها إليه ، ولا تدخل عندهم تحت قدرته ولا مشيئته ولا تكوينه . والثانى « الشرور التى لا تتعلق بافعال العباد » كالسموم والأمراض وأنواع الآلام ، وكإبليس وجنوده وغير ذلك من شرور المخلوقات كإيلام الأطفال وذبح الحيوان ، فهذا النوع هو الذى كدر على القدرية أصولهم وشوش عليهم قواعدهم وقالوا : ذلك كله حسن لما فيه من اللطف والمصلحة

---

(١) أصحاب الطريق الاول هم الجهمية القائلون بالجبر . وأصحاب الطريق الثانى هم المعتزلة — وأذنابهم من الشيعة — المنكرون على الله أنه خالق أفعال الخلق

العاجلة والآجلة . قالوا : أما الآلام والأمراض فمفعولة لغرض صحيح وهو ما ضمن الرب سبحانه لمن أصابه بها من العوض الوافى ، قالوا : وذلك يجرى مجرى استئجار أجير فى فعل شاق ، فانه بفرض الاستئجار أخرج الاستئجار عن كونه عبثا ، وبالاجرة عن كونه ظلما ، فكان حسنا . قالوا : فان قيل اذا كان الله قادرا على التفضل بالعوض وبأضعافه بدون توسط الألم فأى حاجة الى توسطه ؟ وأيضا فاذا حسن الألم لأجل العوض فهل يحسن منا أن يؤلم أحدنا [غيره] بغير إذنه لعوض يصل اليه ؟ فالجواب أن الله سبحانه لا يُمرض ولا يؤلم إلا من يعلم من حاله أنه لو أطلعه على الأعواض التى تصل اليه لرضى بالالم ولرغب فيه لوفور الأعواض وعظمها ، وليس كذلك فى شاهد استئجار الاجير من غير اختياره ، قالوا : وليس كذلك إيلام أحدنا لغيره لأجل التعويض ، فان من قطع يد غيره أو رجله ليعوضه عنها لم يحسن ذلك منه ، لأن العوض يصل اليه وهو مقطوع اليد والرجل ، وليس من العقلاء من يختار ملك الدنيا مع ذلك ، والله يوصل الأعواض فى الآخرة الى الأحياء وهم أكمل شيء خلقا وأتمه أعضاء ، فلذلك افترق الشاهد والغائب فى هذا . قالوا : فان فرضتموه فى ضرب وجلد مع سلامة الأعضاء قبح لأنه عيب ، فان فرض فيه مصلحة ورضى المضروب بذلك وعظمت الأعواض عنه فهو حسن فى العقل لا محالة . قالوا : وسر الأمر أن بالعوض يخرج الألم عن كونه ظلما لأنه نفع موقوف على مضرة الألم ، وباعتبار كونه لطفا فى الدين يخرج عن كونه عبثا . قالوا : وقد رأينا فى المشاهد حسن الألم للنفع ، فانه يحسن فى المشاهد إيلام أنفسنا . وإتعابها فى طلب العلوم والأرباح التى لا نصل اليها إلا على جنس من التعب والمشقة ، قالوا : وهذا الوجه هو الذى حسن لأجله إيلام الأطفال والبهائم فانه إيلام للنفع ، فان أبدان الأطفال لا تستقيم إلا على الأسباب الجالبة للآلام ، وكذلك نفوسهم إنما تكمل بذلك ، وإيلام الحيوان لنفع الآدمى به غير قبيح ، قالوا : وأما الالم المستحق للعقوبة فانه حسن فى المشاهد ولكنه غير متحقق فى الغائب بالنسبة الى الأطفال والبهائم لعدم تكليفها ، ولكن لا بد فى إيلامها من مصلحة ترجع اليها وهى ما يحصل لهم من العوض فى الآخرة . قالوا : ويجب إعادتها لاستيفاء ذلك الحق الذى لها وهو العوض على الآلام التى حصلت لها . قالوا : وبقاؤها بعد الاعادة

موقوف (١) ونعيم الاطفال والمجانين دائم . واختلفوا فى البهائم فقال بعضهم : يدوم عوضهم وقال آخرون بانقطاعه فانهم يصيرون ترابا . قالوا : فان لم يكن للبهائم عوض يجب لأجله أن تعاد لم تجب إعادتها عقلا ، وتحسن إعادتها ، وما يحسن قد يفعله الله وقد لا يفعله . وهل تجوز الآلام للتعويض المجرد ؟ فيه قولان لهم مبنيان على أصل اختلفوا فيه وهو أنه هل يحسن منه سبحانه التفضل بمثل العوض ابتداء ؟ فصار بعضهم الى امتناعه ، كما يمتنع التفضل بمثل الثواب ابتداء عندهم ، وهم مجمعون على امتناعه لئلا يسوى بين العامل وغيره ، وصار من ينتمى الى التحصيل منهم الى أن التفضل بمقدار الأعواض ممكن غير ممتنع ، فمن قال بامتناع التفضل بمقدار العوض جوز وقوع الآلام للتعويض المجرد ، ومن جوز التفضل بأمثال الأعواض لم تحسن عنده الآلام بمجرد التعويض ، بل قالوا : إنما تحسن لوجهين لا بد من اقترانهما : أحدهما التزام التعويض ، والثانى اعتبار غير المؤلم بتلك الآلام ، وكونها ألطافا فى زجر غاو عن غوايته اذا شاهدها فى غيره . وذهب عباد الصيمرى منهم الى أن الآلام تحسن لمجرد الاعتبار من غير تعويض لمن أصابته ، ورد عليه جماهير القدَرية ذلك ، قالوا : والآلام التى يفعلها سبحانه إما أن تكون مستحقة كعقوبات الدنيا وعذاب الاخرة ، وإما للتعويض ، وإما للمصلحة الراجحة ، قالوا : وما يفعله فى الآخرة منها فكله للاستحقاق ، وما يفعله فى الدنيا فللعوض والمصلحة ، وقد يفعله عقوبة ، وأما ما شرعه من أسباب الألم فعقوبات محضة . وأما مشايخ القوم فقالوا : إنما يحسن منه سبحانه الإيلام لأنه المنعم بالصحة والحياة ، ولأنه فى حكم من أعار تلك المنفعة لمن لا يملكها فله قطعها إذا شاء ، ولأنه قادر على التعويض عالم بقدره ، وليس كذلك الواحد من الخلق . قالوا : فاذا استرجع عارية الصحة والحياة خلفها الألم ولا بد . وأطالوا الكلام فى الآلام وأسبابها ، وما يحسن منها وما يقبح ، وعلى أى وجه يقع ؟ وحصروا أنفسهم غاية الحصر ، فاستطالت عليهم الجبرية بالأسئلة والمضايقات ، وألجأوهم الى مضايق تضايق عنها أن تولجها الإبر ، وأضحكوا العقلاء منهم بابداء تناقضهم ، وألزموهم إلزامات لا بد من التزامها أو ترك المذهب . وسأل أبو الحسن الأشعرى أبا على الجبائى عن ثلاثة إخوة لأب وأم مات

(١) هنا بياض فى الأصل

أحدهم صغيرا ، وبلغ الآخر فاختار الاسلام ، وبلغ الآخر فاختار الكفر ، فاجتمعوا عند رب العالمين ، فرفع درجة البالغ المسلم ، فقال أخوه الصغير : يا رب ، ارفع درجتى حتى أبلغ منزلة أخى ، فقال : إنك لا تستحق ، إن أخاك بلغ فعمل أعمالا استحق بها تلك الدرجة . فقال : يا رب ، فهلا أحييتنى حتى أبلغ فأعمل عمله ؟ فقال : كانت تلك المصلحة تقتضى اخترامك قبل البلوغ ، لأنى علمت أنك لو بلغت لاخترت الكفر ، فكانت المصلحة فى قبضك صغيرا . قال : فصاح الثالث بين أطباق النار وقال : يا رب لم لم تمتنى صغيرا ؟ فما جواب هذا أيها الشيخ ؟ فلم يرد اليه جوابا . قالوا : واذا علم سبحانه من بعض العبيد أنه لا يختار إلا الإسلام وأنه لا يكون إلا كافرا مفسدا فى الأرض ، فأى مصلحة لهذا العبد فى إيجاده ؟ قالوا : وأى مصلحة لإبليس وذريته الكفار فى إيجادهم ؟ فان قلتم : عرضهم للثواب ، قيل لكم : كيف يعرضهم لأمر قد يعلم أنهم لا يفعلونه ولا يقع منهم البتة ؟ ومن هنا أنكر غلاتهم العلم القديم ، وكفَّرهم السلف على ذلك ، ومن أقرَّ به منهم فاقراره به مبطل لمذهبه وأصله فى وجوب مراعاة الصلاح والأصلح . وهذا معنى قول السلف : ناظروا القدَرية بالعلم ، فان جحدوه كفروا ، وان أقروا به خُصموا . قالوا : وأما حديث العوض على الآلام فالرب سبحانه قادر على إيصال تلك المنافع بدون توسط الآلام . قالوا : وهذا بخلاف المستأجر فان له منفعة وحاجة فى توسط تعب الأجير واستيفاء منفعته ، فأما من تعالى عن الانتفاع بخلقه ولا يحتاج الى أحد منهم البتة فلا يعقل فى حقه ذلك . قالوا : وأما وقوع الآلام على وجه العقوبات فذلك إنما يحسن فى الشاهد لحصول التشفى من الجنـــاة وإطفاء نار الغيظ والغضب بالانتقام منهم ، وذلك لحاجة المعاقب إلى العقاب وانتفاعه به ، وقياس الغائب على الشاهد فى ذلك ممتنع . قالوا : وأما الإيلام للاعتبار بأن يعتبر الغير بالألم الواقع بغيره فيكون ذلك أدعى له إلى الاذعان والانقياد ، فلا ريب أن الصبى إذا شاهد المعلم يضرب غيره على لعبه وتفريطه كان ذلك مصلحة واعتبارا له ، ولعله أن ينتفع بضرب ذلك الغير أكثر من انتفاع المضروب ، أو حيث لا ينتفع المضروب ، ولكن إنما يحسن ذلك اذا كان المضروب مستحقا للضرب ، فأين استحقاق الأطفال والبهائم ؟ قالوا : وكذلك تمكينه تعالى عباده أن يؤلم بعضهم بعضا ويضر بعضهم بعضا ــ مع

قدرته على منع المؤلم المضر - أى مصلحة لمن مكن من ذلك وأقدر عليه ، وهل كانت مصلحته إلا تعجيزه وأن يحال بينه وبين القدرة على الأداء وصون العباد ؟ قالوا : فهذه الشريعة التى وضعتموها لرب العباد ، وأوجبتم عليه ما أوجبتم ، وحرمتم عليه ما حرمتم ، وحجدتم عليه فى تصرفه فى ملكه بغير ما أصلتم وفرعتم بعقولكم وآرائكم ، تشبيها له وتمثيلا بخلقه فيما يحسن منهم ويقبح ، مع أنها شريعة باطلة ما أنزل الله بها من سلطان فانكم لم تطردوها ، بل أنتم متناقضون فيها غاية التناقض ، خارجون فيها عما يوجبه كل عقل صحيح وفطرة سليمة ، فلا للتشبيه والتمثيل طردتم ، ولا بالتعويض قلتم ، ولا على حقيقة الحكمة والحمد وقفتم ، بل أثبتم له نوع حكمة لا تقوم به ولا ترجع اليه بل هى قائمة بالخلق فقط ، وقدحتم بها فى تمام ملكه ، كما أثبت له إخوانكم من الجبرية قدرة مجردة عن حكمة وحمد وغاية يفعل لأجلها ، بل جعلوا حمده وحكمته اقتران أفعاله بما اقترنت به من المصالح عادة ووقوعها مطابقة لمشيئته وعلمه فقط ، فقدحوا بذلك فى تمام حمده

وقام حزب الله وحزب رسوله وأنصار الحق بلا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير حق القيام(١) ورعوا هذه الكلمة حق رعايتها علما ومعرفة وبصيرة ، ولم يلقوا الحرب بين حمده وملكه ، بل أثبتوا له الملك التام الذى لا يخرج عنه شيء من الموجودات أعيانها وأفعالها ، والحمد التام الذى وسع كل معلوم وشمل كل مقدور ، وقالوا : إن له فى كل ما خلقه وشرعه حكمة بالغة ونعمة سابغة لأجلها خلق وأمر ، ويستحق أن يثنى عليه ويحمد لأجلها ، كما يثنى عليه ويحمد لأسمائه الحسنى ولصفاته العليا ، فهو المحمود على ذلك كله أتم حمد وأكمله ، لما اشتملت عليه صفاته من الكمال وأسماؤه من الحسن وأفعاله من الحكم والغايات المقتضية لحمده المطابقة لحكمته الموافقة لمحابه ، فانه سبحانه كامل الذات كامل الأسماء والصفات لا يصدر عنه إلا كل فعل كريم مطابق للحكمة موجب للحمد يترتب عليه من محابه ما فعل لأجله ، وهذا أمر ذهب عن طائفتى الجبرية والقدرية(٢) وحال بينهم وبينه أصول فاسدة أصلوها

---

(١) وهم أصحاب (الطريق الثالث)

(٢) الجبرية أتباع جهم ، والقدرية هم المعتزلة والشيعة منكرو القدر ومنكرو خلق الله أفعال مخلوقاته

وقواعد باطلة أسسوها ، من تعطيل بعض صفات كماله ، كما عطل الفريقان حقيقة محبته : عند الجبرية مشيئته وإرادته ، ومحبة العباد له إرادتهم لما يخلقه من النعيم فى دار الثواب ، فالمحبة عندهم إنما تعلقت بمخلوقاته لا بذاته . وحقيقة محبته وكراهته عند القدرية : أمره ونهيه ، ومحبة العباد له محبتهم لثوابه المنفصل . وأصّل الفريقان أنه لا تقوم بذاته حكمة ولا غاية يفعل لأجلها . ثم اختلفوا فقالت الجبرية : لا يفعل لغاية ولا لحكمة أصلا . وتكايست القدرية بعض التكايس فقالت : يفعل لغاية وحكمة لا ترجع اليه ولا تقوم به ولا يعود اليه منها وصف . وأصّل الفريقان أيضا أنه لا يقوم بذاته فعل البتة ، بل فعله عين مفعوله ، فعطلوا أفعاله القائمة به وجعلوها نفس المخلوقات المشاهدة التى لا تقوم به ، فلم يقم به عندهم فعل البتة . كما عطل غلاة الجهمية صفاته فلم يثبتوا له صفة تقوم به وإن تناقضوا ، وكما عطلت « السينائية » أتباع ابن سينا ذاته فلم يثبتوا له ذاتا زائدة على وجود مجرد لا يقارن ماهية ولا حقيقة ، وأصلت الجبرية أنه تعالى لا ينزه عن فعل مقدور يكون قبيحا بالنسبة اليه ، بل كل مقدور ممكن فهو جائز عليه ، وان علم عدم فعله فبالسمع وإلا فالعقل يقضى بجوازه عليه فلا ينزه عن ممكن مقدور إلا ما دل عليه بالسمع فيكون تنزيهه عنه لا لقبحه فى نفسه بل لأن وقوعه يتضمن الخلف فى خبره وخبر رسوله ووقوع الأمر على خلاف علمه ومشيئته ، فهذا حقيقة التنزيه عند القوم . وأصلت القدَرية أن ما يحسن من عباده يحسن منه وما يقبح منهم يقبح منه ، مع تناقضهم فى ذلك غاية التناقض . فاقتضت هذه الأصول الفاسدة والقواعد الباطلة فروعا ولوازم كثيرة ، منها مخالف لصريح العقل ولسليم الفطرة كما هو مخالف لما أخبرت به الرسل عن الله ، فجعل أرباب هذه القواعد والأصول قواعدهم وأصولهم محكمة ، وما جاء به الرسول متشابها ! ثم أصلوا أصلا فى رد هذا المتشابه الى المحكم وقالوا : الواجب فيما خالف هذه القواطع العقلية بزعمهم من الظواهر الشرعية أحد أمرين : إما يخرجها على ما يعلم العقلاء أن المتكلم لم يرده بكلامه من المجازات البعيدة والألغاز المعقدة ووحشى اللغات والمعانى المهجورة التى لا يعرف أحد من العرب عبر عنها بهذه العبارة ولا تحتملها لغة القوم البتة ، وانما هى محامل انشأوها هم ثم قالوا : نحمل اللفظ عليها ! فانشأوا محامل من تلقاء أنفسهم ، وحكموا على الله أو رسوله بارادتها بكلامه ، فانشأوا

منكرا وقالوا زورا . فاذا ضاق عليهم المجال وغلبتهم النصوص وبهرتهم شواهد الحقيقة من اطرادها وعدم فهم العقلاء سواها ومجيئها على طريقة واحدة وتنوع الألفاظ الدالة على الحقيقة واحتفافها بقرائن من السياق والتأكيد وغير ذلك مما يقطع كل سامع بأن المراد حقيقتها وما دلت عليه ، قالوا : الواجب ردها وأن لا يشتغل بها ! وان أحسنوا العبارة والظن قالوا : الواجب تفويضها وأن نكل علمها الى الله من غير أن يحصل لنا بها هدى أو علم أو معرفة بالله وأسمائه وصفاته ، أو ننتفع بها فى باب واحد من أبواب الايمان بالله وما يوصف به وما ينزه عنه ، بل نجرى ألفاظها على ألسنتنا ولا نعتقد حقيقتها لمخالفتها للقواطع العقلية ! فسموا أصولهم الفاسدة وشبههم الباطلة ـ التى هى كبيت العنكبوت وكما قال فيها القائل شعرا :

شبه تهافت كالزجاج تخالها حقا وكل كاسر مكسور ـ

قواطعَ عقلية ، مع اختلافهم فيها وتناقضهم فيها ومناقضتها لصريح المعقول وصحيح المنقول ، فسموا كلام الله ورسوله « ظواهر سمعية » إزالة لحرمته من القلوب ، ومنعا للتعلق به والتمسك بحقيقته فى باب الايمان والمعرفه بالله وأسمائه وصفاته ، فعبروا عن كلامهم بأنه « قواطع عقلية » فيظن الجاهل بحقيقته أنه اذا خالفه فقد خالف صريح المعقول ، وخرج عن حد العقلاء ، وخالف القاطع ! وعبروا عن كلام الله ورسوله بأنه « ظواهر » فلا جناح على من صرفه عن ظاهره وكذّب بحقيقته واعتقد بطلان الحقيقة ، بل هذا عندهم هو الواجب ! وقد أشهد اللهُ عبادَه الذين أوتوا العلم والايمان أن الأمر بعكس ما قالوه ، وأن كلامه وكلام رسوله هو الشفاء والعصمة والنور الهادى والعلم المطابق لعلومه ، وأنه هو المشتمل على القواطع العقلية السمعية والبراهين اليقينية ، وأن كلام هؤلاء المتهوكين الحيارى المتضمن خلاف ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله هو الشبهات الفاسدة والخيالات الباطلة ، وأنه كالسراب الذى يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ، ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، وهؤلاء هم أهل العلم حقا الذين شهد الله لهم به فقال (سبأ ٦) : ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ الَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلىٰ صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ومن سواه من الصم البكم الذين قال الله فيهم (الملك ١٠) : ﴿ وقالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ما كُنَّا

فى أصحاب السعير ﴾ وقال تعالى (الرعد ١٩) : ﴿ أفمن يعلم أنّ ما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولو الألباب ﴾ وكان ما شهدوه من ذلك بالعقل والفطرة لا بمجرد الخبر ، بل جاء إخبار الرب وإخبار رسوله مطابقا لما فى فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة فتضافر على إيمانهم به الشريعة المنزلة والفطرة المكملة والعقل الصريح ، فكانوا هم العقلاء حقا وعقولهم هى المعيار ، فمن خالفها فقد خالف صريح المعقول والقواطع العقلية ، ومن أراد معرفة هذا فليقرأ كتاب شيخنا وهو (بيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح) فانه كتاب لم يطرق العالم له نظير فى بابه ، فانه هدم فيه قواعد أهل الباطل من أسها فخرت عليهم سقوفه من فوقهم ، وشيد فيه قواعد أهل السنة والحديث وأحكمها ورفع أعلامها وقررها بمجامع الطرق التى تقرر بها الحق من العقل والنقل والفطرة والاعتبار فجاء كتابا لا يستغنى عنه من نصح نفسه من أهل العلم ، فجزاه الله عن أهل العلم والايمان أفضل الجزاء ، وجزى العلم والايمان عنه كذلك

﴿ فصل ﴾ عدنا إلى تمام الكلام فى كيفية دخول الشر فى القضاء الإلهى ، وبيان طرق الناس فى ذلك ، واختلافهم فى إيلام الأطفال والبهائم . وقالت « البكرية » وهم أتباع بكر ابن أخت عبد الواحد بن زيد البصرى : إن البهائم والأطفال لا تألم البتة ، والذى حملهم على هذا موجب التعليل والحكمة ، ولم يرتضوا ما قالت الجبرية من نفى ذلك ، ولا ما قالت المعتزلة من حديث الأعواض وما فرّعوه عليه ، ولم يمكنهم القول بمذهب « التناسخية » القائلين بأن الأرواح الفاجرة الظالمة تودع فى الحيوانات التى تناسبها فينالها من ألم الضرب والعذاب بحسبها ، ولا بمذاهب « المجوس » من اسناد الشر والخير الى إلهين مستقلين كل منهما يذهب بخلقه ، ولا بقول من يقول : ان البهائم مكلفة مأمورة منهية مثابة معاقبة ، وانه فى كل أمة منها رسول ونبى منها ! وهذه الآلام والعقوبات الدنياوية جزاء على مخالفتها لرسولها ونبيها ، فلم يجدوا بدا من التزام ما ذهبوا اليه من إنكار وقوع الآلام بها ووصولها اليها . وقد رد عليهم الناس بأنهم كابروا الحس وجحدوا الضرورة ، وأن العلم بخلاف ما ذهبوا اليه ضرورى . وقال من أنصف القوم : لا سبيل الى نسبة هؤلاء الى جحد الضرورة مع كثرتهم ، ولكنهم ربما رأوا أن الطفل والبهيمة لا تدرك الآلام حسبما يدركها العقلاء ، فان العاقل اذا أدرك تألم

جوارحه وأحس به تألم قلبه وطال حزنه وكثر همّ روحه وغمها واشتدت فكرته فى ذلك وفى الأسباب الجالبة له والأسباب الدافعة له ، وهذه الآلام زائدة على مجرد ألم الطبيعة ، ولا ريب أن البهائم والأطفال لا تحصل لها تلك الآلام كما يحصل للعاقل المميز ، فان أراد القوم هذا فهم مصيبون ، وإن أرادوا أنها لا شعور لها بالآلام البتة وأنها لا تحس بها فمكابرة ظاهرة ، فان الواحد منا يعلم باضطرار أنه كان يتألم فى طفوليته بمس النار له وبالضرب وغير ذلك . وقالت طائفة : كل ما يتألم به الطفل والبهيمة ليس من قبل الله ، ولا فعل الله فيه الألم لما ثبت من حكمته ، وهذا يشبه قولهم فى أفعال الحيوان أنها ليست من خلق الله ولا كانت بمشيئته ، لكن هذا أشد فسادا من ذلك ، فان هذه الآلام حوادث لا تتعلق باختيار من قامت به ولا بارادته ، فلا بد لها من محدث ، إذ وجود حادث بلا محدث محال ، والله خالقها بأسبابها المفضية اليها ، فخالق السبب خالق للمسبب . فان أراد هؤلاء نفى فعلها عن الله مباشرة من غير توسط بسبب أصلا فهذا قد يكون حقا ، وأن أرادوا أنها غير منسوبة الى قدرته ومشيئته البتة فباطل . وذهبت طائفة الى أن فى كل نوع من أنواع الحيوانات أنبياء ورسلا ، وأنها مستحقة للثواب والعقاب ، وأن ما ينزل بها من الآلام فجزاء لها وعقوبات على معاصيها ومخالفتها ، واحتجوا بقوله تعالى (الانعام ٣٨) : ﴿ وما مِنْ دابَّةٍ فى الْأَرْضِ ولا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَناحَيْهِ إلاَّ أُمَمٌ أَمْثالُكُمْ ﴾ وقال تعالى (فاطر ٢٤) : ﴿ وَإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلا فِيها نَذِير ﴾ وقالت طائفة من التناسخية : ان الله خلق خلقه كلهم جملة واحدة بصفة واحدة ثم أمرهم ونهاهم ، فمن عصى منهم نسخ روحه فى جسد بهيمة تبتلى بالذبح والقتل كالدجاج والغنم والابل والبقر والبراغيث والقمل ، فما سلط على هذه البهائم من الآلام فهو للارواح الآدمية التى أودعت هذه الأجساد ، فمن كان منهم زانيا أو زانية كوفئ بأن جعل فى بدن حيوان ما يمكنه الجماع كالبغال ، ومن كان منهم عفيفا عن الزنا مع ظلمه وغشمه كوفئ بأن جعل فى بدن تيس أو عصفور أو ديك ، ومن كان منهم جبارا عنيدا كوفئ بأن جعل فى بدن قملة أو قرادة ونحوهما ، الى أن يقتصّ منهم ثم يردّون ، فمن عصا منهم بعد ردّه كرر أيضا عليه ذلك التناسخ هكذا أبدا حتى يطيع طاعة لا معصية بعدها أبدا فينتقل إلى الجنة من وقته . وقد ذهب الى هذا المذهب من المنتسبين الى

الاسلام رجل يقال له أحمد بن حائط طرد أصول القدرية وشريعتهم التى شرعوها لله فأوجبوا بها عليه وحرّموا . وذهب المجوس الى أن هذه الآلام والشرور من الإله الشرير المظلم فلا تضاف إلى الاله الخير العادل ولا تدخل تحت قدرته ، ولهذا كان أشبه أهل البدع بهم القدَرية النفاة . وقالت الزنادقة والدهرية : كل ذلك من تصرف الطبيعة وفعلها ، وليس لذلك فاعل مختار مدبر بمشيئته وقدرته ، ولا بد فى النار من إحراق ونفع وفى الماء من اغراق ونفع ، وليس وراء ذلك شيء[1] ، فهذه مذاهب أهل الأرض فى هذا المقام

ولما انتهى أبو عيسى الوراق[2] الى حيث انتهت اليه أرباب المقالات فطاش عقله ولم يتسع لحكمة إيلام الحيوان وذبحه صنف كتابا سماه (النوح على البهائم) فاقام عليها المآتم وناح ، وباح بالزندقة الصراح . وممن كان على هذا المذهب أعمى البصر والبصيرة كلب معرّة النعمان المكنى بأبى العلاء المعرى ، فانه امتنع من أكل الحيوان زعم لظلمه بالإيلام والذبح ، وأما ابن خطيب الرى فانه سلك فى ذلك طريقة مركبة من طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة المشائين وهذبها ونقحها واعترف فى آخرها بأنه لا سبيل الى الخلاص من الشبه التى أوردها على نفسه إلا بالتزام أنه تعالى موجب بالذات لا فاعل بالقصد والاختيار ! فأقر على نفسه بالعجز عن أجوبة تلك المطالبات إلا بانكار قدرة الله ومشيئته وفعله الاختيارى ، وذلك جحد لربوبيته ، فزعم أنه لا يمكنه تقرير حكمته إلا بجحد ربوبيته ، ونحن نذكر كلامه بألفاظه . قال فى مباحثه المشرقية :

« الفصل السادس فى كيفية دخول الشر فى القضاء الالهى ، وقبل الخوض فيه لا بد من تقديم مقدمتين : المقدمة الأولى — الأمور التى يقال إنها شر إما أن تكون أمورا عدمية ، أو أمورا وجودية . فان كانت أمورا عدمية فهى على أقسام ثلاثة : لأنها إما أن تكون عدما لامور ضرورية للشيء فى وجوده مثل عدم الحياة ، وإما أن تكون عدما لأمور نافعة قريبة من الضرورة كالأعمى ، أو أن لا تكون كذلك كعدم العلم

---

(١) أجمل المؤلف في (الطريق الرابع) النحل الخارجة عن أهل السنة كالجهمية والمعتزلة وأذنابهم ، ثم النحل الخارجة عن أهل القبلة

(٢) اسمه محمد بن هارون ، وهو من متكلمى الشيعة ، انظر (المنتقى من منهاج الاعتدال) ص ٨٣

بالفلسفة والهندسة . وأما الأمور الوجودية التى يقال انها شرور فهى كالحرارة المفرقة لاتصال العضو . واعلم أن الشر بالذات هو عدم ضروريات الشىء وعدم منافعه ، مثل عدم الحياة وعدم البصر ، فان الموت والعمى لا حقيقة لهما إلا أنهما عدم الحياة وعدم البصر ، وهما من حيث هما كذلك شر ، فاذن ليس لهما اعتبار آخر بحسبه يكونان شرين . وأما عدم الفضائل المستغنى عنها ـ مثل عدم العلم بالفلسفة ـ فظاهر أن ذلك ليس بشر ، وأما الأمور الوجودية فانها ليست شرورا بالذات بل بالعرض ، من حيث أنها تتضمن عدم أمور ضرورية أو نافعة ، ويدل عليه أنا لا نجد شيئا من الأفعال التى يقال لها شر إلا وهو كمال بالنسبة الى الفاعل ، وأما شرّيته فبالقياس الى شىء آخر ، فالظلم مثلا يصدر عن قوة ظلامة للغلبة وهى القوة الغضبية والغلبة هى كمالها وفائدة خلقتها ، فهذا الفعل بالقياس اليها خير لأنها إن ضعفت عنه فهو بالقياس اليها شر ، وانما كان شرا للمظلوم لفوات المال وغيره عنه ، والنفس الناطقة كمالها الاستيلاء على هذه القوة ، فعند قهر القوة الغضبية يفوت النفس ذلك الاستيلاء ولا جرم كان شرا لها . وكذلك النار إذا أحرقت فان الإحراق كمالها ، ولكنها شر بالنسبة الى من زالت سلامته بسببها . وكذلك القتل وهو استعمال الآلة القطاعة فى قطع رقبة إنسان ، فان كون الانسان قويا على استعمال الآلة ليس شرا له بل خير ، وكذلك كون الآلة قطاعة هو خير لها ، وكذلك كون الرقبة قابلة للانقطاع كل ذلك خيرات ، ولكن القتل شر من حيث أنه متضمن لزوال الحياة ، فثبت بما ذكرنا أن الأمور الوجودية ليست شرا بالذات بل بالعرض . والله أعلم

المقدمة الثانية ـ أن الأشياء إما أن تكون مادية ، أو لا تكون . فان لم تكن مادية لم يكن فيها ما بالقوة فلا يكون فيها شر أصلا ، وان كانت مادية كانت فى معرض الشر ، وعروض الشر لها إما أن يكون فى ابتداء تكونها أو بعد تكونها ، أما الأول فهو إما أن تكون المادة التى تتكون انسانا أو فرسا يعرض لها من الأسباب ما يجعلها رديئة المزاج رديئة الشكل والخلقة ، فرداءة مزاج ذلك الشخص ورداءة خلقه ليس لأن الفاعل حرم بل لأن المنفعل له لم يقبل ، وأما الثانى وهو أن يعرض الشر للشىء وطروء طارىء عليه بعد تكونه فذلك الطارىء إما شىء يمنع المكمل من الاكمال

مثل تراكم السحب وإظلال الجبال الشاهقات إذ صار مانعا من تأثير الشمس فى النبات ، وإما شيء يفسد مثل البرد الذى يصل الى النبات فيفسد بسبب ذلك استعداده للنشو والنمو

وإذا عرفت ذلك فنقول : قد بينا أن الشرّ بالحقيقة إما عدم ضروريات الشيء ، وإما عدم منافعه . فنقول : الموجود إما أن يكون خيرا من كل الوجوه ، أو شرا من كل الوجوه ، أو خيرا من وجه وشرا من وجه . وهذا على تقدير أقسام : فانه إما أن يكون خيره غالبا على شره ، أو يكون شره غالبا على خيره ، أو متساويا خيره وشره . فهذه أقسام خمسة . أما الذى يكون خيرا من كل الوجوه وهو موجود ـ أى الذى يكون كذلك لذاته ـ فهو الله تبارك وتعالى . وأما الذى يكون [خيره] لغيره فهو العقول والافلاك ، لأن هذه الأمور ما فاتها شيء من ضروريات ذاتها ولا من كمالاتها ، والذى كله شر أو الغالب فيه أو المساوى فهو غير موجود ، لأن كلامنا فى الشيء بمعنى عدم الضروريات والمنافع ، لا بمعنى عدم الكمال الزائد ، فلا شك أن ذلك مغلوب والخير غالب ، لأن الأمراض وإن كثرت إلا أن الصحة أكثر منها ، فالحرق والغرق والخسف وإن كانت قد تكثر إلا أن السلامة أكثر منها . فأما الذى يكون خيره غالبا على شره فالأولى فيه أن يكون موجودا لوجهين : الأول أنه إن لم يوجد فلا بد وأن يفوت الخير الغالب ، وفوت الخير الغالب شر غالب ، فاذاً فى عدمه يكون الشر أغلب من الخير ، وفى وجوده يكون الخير أغلب من الشر ، ويكون وجود هذا القسم أولى . مثاله النار : فى وجودها منافع كثيرة ، وأيضا مفاسد كثيرة مثل إحراق الحيوانات . ولكنا إذا قابلنا منافعها بمفاسدها كانت مصالحها أكثر بكثير من مفاسدها ، ولو لم توجد لفاتت تلك المصالح ، وكانت مفاسد عدمها أكثر من مصالحها ، فلا جرم وجب إيجادها وخلقها . الثانى ـ وهو الذى يكون خيره ممزوجا بالشر ـ ليس إلا الأمور التى تحت كرة القمر ، فلا شك أنها معلولات العلل العالية ، فلو لم يوجد هذا القسم لكان يلزم من عدمها عدم عللها الموجبة لها ، وهى خيرات محضة ، فيلزم من عدمها عدم الخيرات المحضة وذلك شر محض ، فاذاً لا بد من وجود هذا القسم . فان قيل : فلم لم يخلق الخالق هذه الأشياء عرية عن كل الشرور ؟ فنقول : لأنه لو جعلها كذلك لكان هذا هو القسم الأول ، وذلك مما قد فرغ منه . وبقى فى العقل قسم آخر وهو الذى يكون

خيره غالبا على شره ، وقد بينا أن الأولى بهذا القسم أن يكون موجودا . قال[1] : وهذا الجواب لا يعجبنى ، لان لقائل أن يقول : إن جميع هذه الخيرات والشرور إنما توجد باختيار الله وارادته ، مثلا الاحتراق الحاصل عقيب النار ليس موجبا من النار ، بل الله اختار خلقه عقيب مماسة النار ، واذا كان حصول الاحتراق عقيب مماسة النار باختيار الله وإرادته فكان يمكنه أن يختار خلق الإحراق عندما يكون خيرا ولا يختار خلقه عند ما يكون شرا ، ولا خلاص عن هذه المطالبة إلا ببيان كونه سبحانه فاعلا بالذات لا بالقصد والاختيار ، ويرجع الكلام فى هذه المسألة الى مسألة القدم والحدوث

قلت : لما لم يكن عند الرازى إلا مذهب الفلاسفة المشائين ، والقائلين بوجوب رعاية الصلاح أو الأصلح ، أو مذهب الجبرية نفاة الاسباب والعلل والحكم ، وكان الحق عنده مترددا بين هذه المذاهب الثلاثة ، فتارة يرجح مذهب المتكلمين ، وتارة مذهب المشائين ، وتارة يلقى الحرب بين الطائفتين ويقف فى النظارة ، وتارة يتردد بين الطائفتين ، وانتهى الى هذا المضيق ورأى أنه لا خلاص له منه إلا بالتزام طريق الجبرية ـ وهى غير مرضية عنده ، وان كان فى كتبه الكلامية يعتمد عليها ويرجع فى مباحثه اليها ـ وطريق المعتزلة القائلين برعاية الصلاح وهى متناقضة غير مطردة ، لم يجد بدا من تحيزه الى أعداء الملة القائلين بأن الله لا قدرة له ولا مشيئة ولا اختيار ولا فعل يقوم به . ومعلوم أن هذه المذاهب بأسرها باطلة متناقضة وإن كان بعضها أبطل من بعض ، وإنما ألجأه الى التزام القول بانكار الفاعل المختار فى هذا المقام تسليمه لهم الأصول الفاسدة والقواعد الباطلة التى قادت الى التزام بعض أنواع الباطل ، ولو أعطى الدليل حقه ، وضم ما مع كل طائفة من الحق الى حق الطائفة الأخرى ، وتحيز الى ما جاءت به الرسل على علم وبصيرة ، وهو تقرير لما جاءوا به بجميع طرق الحق ، لتخلص من تلك المطالبات مع إقراره بأن رب العالمين فعال لما يريد يفعل بمشيئته وقدرته وحكمته ، وأن له المشيئة النافذة والحكمة البالغة ، وأن تقدير تجريد النار عما خلقت عليه من الإحراق ، والماء عما خلق عليه ، والرياح ، والنفوس البشرية عما هيئت له وخلقت عليه ، مناف للحكمة المطلوبة المحبوبة للرب سبحانه ، وأن هذا تقرير لعالم آخر وتعطيل للأسباب التى نصبها

---

(١) أى الفخر الرازى فى (المباحث المشرقية)

الله سبحانه مقتضيات لمسبياتها ، وأن تلك الأسباب مظهر حكمته وحمده وموضع تصرفه لخلقه وأمره ، فتقدير تعطيلها تعطيل للخلق والأمر ، وهو أشد منافاة للحكمة وإبطالا لها ، واقتضاء هذه الأسباب لمسبياتها كاقتضاء الغايات لأسبابها ، فتعطيلها منها قدح فى الحكمة وتفويت لمصلحة العالم التى عليها نظامه وبها قوامه . ولكن الرب سبحانه قد يخرق العادة ويعطلها عن مقتضياتها أحيانا اذا كان فيه مصلحة راجحة على مفسدة فوات تلك المسبيات ، كما عطل النار التى ألقى فيها إبراهيم وجعلها عليه بردا وسلاما عن الإحراق لما فى ذلك من المصالح العظيمة ، وكذلك تعطيل الماء عن إغراق موسى وقومه وعما خلق عليه من الأسالة والتقاء أجزائه بعضها ببعض هو لما فيه من المصالح العظيمه والآيات الباهرة والحكمة التامة التى ظهرت فى الوجود وترتب عليها من مصالح الدنيا والآخرة ما ترتب ، فهكذا سائر أفعاله سبحانه ، مع أنه أشهد عباده بذلك أنه مسبب الأسباب ، وأن الاسباب خلقه ، وأنه يملك تعطيلها عن مقتضياتها وآثارها ، وأن كونها كذلك لم يكن من ذاتها وأنفسها بل هو الذى جعلها كذلك وأودع فيها من القوى والطبائع ما اقتضت به آثارها ، وأنه إن شاء أن يسلبها إياها سلبها لا كما يقول أعداؤه من الفلاسفة والطبائعيين وزنادقة الأطباء أنه ليس فى الامكان تجريد هذه الأسباب عن آثارها وموجباتها ، ويقولون : لا تعطيل فى الطبيعة ، وليست الطبيعة عندهم مربوبة مقهورة تحت قهر قاهر وتسخير مسخر يصرفها كيف يشاء ، بل هى المتصرفة المدبرة . ولا كما يقول من نقص علمه ومعرفته بأسرار مخلوقاته وما أودعها من القوى والطبائع والغرائز وبالأسباب التى ربط بها خلقه وأمره وثوابه وعقابه ، فجحد ذلك كله ورد الأمر الى مشيئة محضة مجردة عن الحكمة والغاية وعن ارتباط العالم بعضه ببعض ارتباط الأسباب بمسبياتها والقوى بمحالها . ثم المحذور اللازم من إنكار الفاعل المختار الفعال لما يريد بقدرته ومشيئته فوق كل محذور ، فان القائل بذلك يجعل هذه الشرور بأسرها لازمة له لزوم الطفل لحامله والحرارة للنار ولا يمكنه دفعها ولا تخليص الحرارة منها ، فهم فروا من إضافة الشر إلى خلقه ومشيئته واختياره ، ثم ألزموه اياه وأضافوه اليه إضافة لا تمكن إزالتها ، مع تعطيل قدرته ومشيئته وخلقه ، وعلمه بتفاصيل أحوال عباده ، وفى ذلك تعطيل ربوبيته للعالمين ، ففروا من محذور بالتزام

عدة محاذير ، واستجاروا من الرمضاء بالنار . وهذا كما نزهه الجهمية عن استوائه على عرشه وعلوّه على مخلوقاته ، فانه فرار من التحيز والجهة ، ثم جعلوه سبحانه فى كل مكان مخالطا للقاذورات والأماكن المكروهات وكل مكان يأنف العاقل من مجاورته ، ففروا من تخصيصه بالعلوّ فعمموا به كل مكان . ولما علمت الفرعونية بطلان هذا المذهب فروا إلى شر منه فأخلوا داخل العالم وخارجه منه البتة وقالوا : ليس فوق العرش رب يعبد ، ولا إله يصلى له ويسجد ، ولا ترفع اليه الأيدى ، ولا يصعد اليه الكلم الطيب والعمل الصالح ، ولا عرج بمحمد اليه بل عرج به الى عدم صرف ، ولا فرق بالنسبة اليه بين العرش وبين أسفل سافلين ، ومن المعلوم أنه ليس موجودا فى أسفل سافلين ، فاذا لم يكن موجودا فوق العرش فهذا إعـــدام له البتة وتعطيل لوجوده . فلما رأت الحلولية (١) واخوانهم من الاتحادية (٢) أشباه النصارى مافى ذلك من الإحالة قالوا : بل هو هذا الوجود السارى فى الموجودات الظاهر فيها على اختلاف صورها وأنواعها بحسنها ، فهو فى الماء ماء وفى الخمر خمر وفى النار نار ، وهو حقيقة كل شيء وماهيته . فنزهوه عن استوائه على عرشه وجعلوه وجود كل موجود خسيس أو شريف صغير أو كبير طيب أو غيره ، تعالى الله عما يقول أعداؤه علوا كبيرا . وكذلك القائلون بقدم العالم نزهوه عن قيام الإرادات والأفعال المتجددة به ، ثم جعلوا جميع الحوادث لازمة له لا ينفك عنها . ونزهوه عن إرادته لخلق العالم وأن يكون صدوره عن مشيئته وإرادته وجعلوه لازما لذاته كالمضطر الى صدوره عنه . وكذلك المعتزلة الجهمية نزهوه عن صفات كماله لئلا يقعوا فى تشبيه ، ثم شبهوه بخلقه فى أفعاله ، وحكموا عليه بحسن ما يحسن منهم وقبح ما يقبح منهم ، مع تشبيهه فى سلب صفات كماله بالجمادات والناقصات . وان من فر من إثبات السمع والبصر والكلام والحياة له ـ لئلا يشبّهه ـ فقد شبهه بالأحجار التى لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم . ومن عطله عن صفة الكلام لما يلزم من تشبيه بزعمه فقد شبهه بأصحاب الخرس والآفات الممتنع منهم الكلام . ومن نزهه عن نزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا ودنوه عشية عرفة من أهل الموقف ومجيئه يوم القيامة

---

(١) ومنهم الاسماعيليون ، وغلاة الشيعة (وكلهم الآن غلاة) ، نابتتهم من الشيخية والبهائية وأمثالهم

(٢) القائلين بوحدة الوجود من البراهمة وفلاسفة الصوفية وشعرائهم

القضاء بين عباده فرارا من تشبيهه بالأجسام فقد شبهه بالجماد الذى لا يتصرف ولا يفعل ولا يجىء ولا يأتى ولا ينزل. ومن نزهه عن أن يفعل لغرض أو حكمة أو لداع إلى الفعل حذرا من تشبيهه بالفاعلين لذلك فقد شبهه بأهل السفه والعبث الذين لا يقصدون بأفعالهم غاية محمودة ولا غرضا مطلوبا محبوبا. ومن نزهه عن خلق أفعال عباده وتصرفه فيهم بالهداية والإضلال وتخصيص من شاء منهم بفضله أو منعه لمن شاء حذرا من الظلم بزعمه فقد وصفه بأقبح الظلم والجور حيث يخلد فى أطباق النيران من استنفد عمره كله فى طاعته إذا فعل قبل الموت كبيرة واحدة فانها تحبط جميع تلك الطاعات وتجعلها هباء منثورا، ويخلد فى جهنم مع الكفار ما لم يتب منها، الى غير ذلك من أصولهم الفاسدة ﴿ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ، واللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (البقرة ٢١٣)

﴿ قاعدة ﴾ كمال العبد وصلاحه يتخلف عنه من إحدى جهتين: إما أن تكون طبيعته يابسة قاسية غير لينة ولا منقادة ولا قابلة لما به كمالها وفلاحها، وإما أن تكون لينة منقادة سلسة القياد، لكنها غير ثابتة على ذلك، بل سريعة الانتقال عنه كثيرة التقلب. فمتى رزق العبد انقيادا للحق وثباتا عليه فليبشر، فقد بشر بكل خير، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

﴿ قاعدة ﴾ إذا ابتلى الله عبده بشىء من أنواع البلايا والمحن فان رده ذلك الابتلاء والمحن الى ربه وجمعه عليه وطرحه ببابه فهو علامة سعادته وإرادة الخير به. والشدة بتراء لا دوام لها وان طالت، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجلّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شارداً عنه، وإقباله عليه بعد أن كان نائيا عنه، وانطراحه على بابه بعد أن كان معرضا، وللوقوف على أبواب غيره متعرضا. وكانت البلية فى حق هذا عين النعمة، وان ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببا ما مثله سبب، وقوله تعالى فى ذلك (البقرة ٢١٦) هو الشفاء والعصمة: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ، واللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾. وإن لم يردَّه ذلك البلاء

اليه بل شرد قلبه عنه ورده إلى الخلق وأنساه ذكر ربه والضراعة اليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع اليه فهو علامة شقاوته وإرادة الشرّ به ، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده الى حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه ، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء ، كما أعرض عن ذكره والتضرع اليه فى الضراء ، فبلية هذا وبال عليه وعقوبة ونقص فى حقه ، وبلية الأول تطهير له ورحمة وتكميل . وبالله التوفيق

قاعدةٌ فى مَشاهِدِ الناس فى المعاصى والذُنوب

الناس فى البلوى التى تجرى عليهم أحكامها بارادتهم وشهواتهم متفاوتون ـ بحسب شهودهم لأسبابها وغاياتها ـ أعظم تفاوت . وجماع ذلك ثمانية مشاهد :

أحدها ـ شهود السبب الموصل اليها ، والغاية المطلوبة منها فقط . وهو شهود الحيوانات ، إذ لا تشهد إلا طريق وطرها ، وبرد النفس بعد تناولها . وهذا الضرب من الناس ليس بينه وبين الحيوان البهيم فى ذلك فرق إلا بدقيق الحيلة فى الوصول اليها ، وربما زاد غيره من الحيوانات عليه مع تناولها ولذتها

المشهد الثانى ـ من يشهد مع ذلك مجرد الحكم القدرى وجريانه عليه ، ولا يجوز شهوده ذلك . وربما رأى أن الحقيقة هى توفية هذا المشهد حقه ، ولا يتم له ذلك الا بالفناء عن شهود فعله هو جملة ، فيشهد الفاعل فيه غيره والمحرك سواه ، فلا ينسب إلى نفسه فعلا ولا يرى لها إساءة ، ويزعم أن هذا هو التحقيق والتوحيد . وربما زاد على ذلك أنه يشهد نفسه مطيعا من وجه وان كان عاصيا من وجه آخر فيقول : أنا مطيع الارادة والمشيئة ، وان كنت عاصيا للأمر . وإن كان ممن يرى الأمر تلبيسا وضبطا للرعاع عن الخبط والحرمان مع حكم الطبيعة الحيوانية فقد رأى نفسه مطيعا لا عاصيا ، كما قال قائلهم فى هذا المعنى :

أصبحت منفعلا لما يختاره مني ففعلى كله طاعات

وأصحاب المشهد الأول أقرب الى السلامة من هؤلاء وخير منهم . وهذا المشهد بعينه هو المشهد الذى يشهده المشركون عباد الأصنام ووقفوا عنده كما قالوا (الزخرف

٢٠) : ﴿لَوْ شاءَ الرَّحْمٰنُ ما عَبَدْناهُمْ﴾ وقالوا (الانعام ١٤٨) : ﴿لَوْ شاءَ اللهُ ما أَشْرَكْنا ولا آباؤُنا ولا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ﴾ ، و (يس ٤٧) : ﴿وإذا قيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَطْعَمَه﴾ ، فهذا مشهد من أشرك بالله ورد أمره ، وهو مشهد إبليس الذى انتهى اليه إذ يقول لربه (الحجر ٣٩) : ﴿رَبِّ بِما أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين﴾ . والله أعلم

المشهد الثالث ـ مشهد الفعل الكسبي القائم بالعبد فقط ، ولا يشهد إلا صدوره عنه وقيامه به ، ولا يشهد مع ذلك مشيئة الرب له ، ولا جريان حكمه القدرى به ، ولا عزة الرب فى قضائه ونفوذ أمره ، بل قد فنى بشهود معصيته بذنبه وقبح ما اجترمه عن شهود المشيئة النافذة والقدر السابق : إما لعدم اتساع قلبه لشهود الأمرين ـ فقد امتلأ من شهود ذنبه وجرمه وفعله ـ مع أنه مؤمن بقضاء الرب وقدره ، وأن العبد أقل قدرا من أن يحدث فى نفسه ما لم يسبق به مشيئة بارئه وخالقه . وإما لإنكاره القضاء والقدر جملة وتنزيه للرب أن يقدر على العبد شيئا ثم يلومه عليه . فأما الأول وان كان مشهده صحيحا نافعا له موجبا له أن لا يزال لائما لنفسه مزريا عليها ناسبا للذنب والعيب اليها معترفا بأنه يستحق العقوبة والنكال وأن الله سبحانه ان عاقبه فهو العادل فيه وأنه هو الظالم لنفسه ، وهذا كله حق لا ريب فيه ، لكن صاحبه ضعيف مغلوب مع نفسه غير معان عليها ، بل هو معها كالمقهور المخذول ، فانه لم يشهد عزة الرب فى قضائه ونفوذ أمره الكونى ومشيئته ، وأنه لو شاء لعصمه وحفظه ، وأنه لا معصوم إلا من عصمه ولا محفوظ الا من حفظه ، وانه هو محل لجريان أقضيته وأقداره ، مسوق اليها فى سلسلة إرادته وشهوته ، وأن تلك السلسلة طرفها بيد غيره فهو القادر على سوقه فيها الى ما فيه صلاحه وفلاحه والى ما فيه هلاكه وشقاؤه ، فهو لغيبته عن هذا المشهد وغلبة شهود المعصية والكسب على قلبه لا يعطى التوحيد حقه ولا الاستعاذة بربه والاستغاثة به والالتجاء اليه والافتقار والتضرع والابتهال حقه ، بحيث يشهد سر قوله ﷺ : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » فانه سبحانه رب كل شيء وخالق كل شيء ، والمستعاذ منه واقع بخلقه ومشيئته ، ولو شاء لم يكن ، فالفرار

منه اليه والاستعاذة منه به ولا ملجأ منه إلا اليه ولا مهرب منه إلا اليه ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم . وأما الثانى ـ وهو منكر القضاء والقدر ـ فمخذول محجوب عن شهود التوحيد ، مصدود عن شهود الحكمة الالهية ، موكول الى نفسه ، ممنوع عن شهود عزة الرب فى قضائه وكمال مشيئته ونفوذ حكمه ، وعن شهود عجزه هو وفقره وأنه لا توفيق له إلا بالله ، وأنه ان لم يعنه الله فهو مخذول وان لم يوفقه ويخلق له عزيمة الرشد وفعله فهو عنه ممنوع ، فحجابه عن الله غليظ ، فانه لا حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق الى الله أقرب من دوام الافتقار اليه

المشهد الرابع ـ مشهد التوحيد والأمر ، فيشهد انفراد الرب بالخلق ، ونفوذ مشيئته وتعلق الموجودات بأسرها به ، وجريان حكمه على الخليقة وانتهاءها الى ما سبق لها فى علمه وجرى به قلمه ، ويشهد مع ذلك أمره ونهيه وثوابه وعقابه ، وارتباط الجزاء بالأعمال واقتضاءها له ارتباط المسببات بأسبابها التى جعلت أسبابا مقتضية لها شرعا وقدرا وحكمة ، فشهوده توحيد الرب وانفراده بالخلق ونفوذ مشيئته وجريان قضائه وقدره يفتح له باب الاستعاذة ودوام الالتجاء اليه والافتقار اليه ، وذلك يدنيه من عتبة العبودية ويطرحه بالباب فقيرا عاجزا مسكينا لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وشهوده أمره تعالى ونهيه وثوابه وعقابه يوجب له الحمد والتشمير وبذل الوسع والقيام بالأمر والرجوع على نفسه باللوم والاعتراف بالتقصير ، فيكون سيره بين شهود العزة والحكمة والقدرة الكاملة والعلم السابق والمنة العظيمة ، وبين شهود التقصير والاساءة منه وتطلب عيوب نفسه وأعمالها . فهذا هو العبد الموفق المعان الملطوف به المصنوع له الذى أقيم مقام العبودية وضمن له التوفيق ، وهذا هو مشهد الرسل فهو مشهد أبيهم آدم اذ يقول (الاعراف ٢٣) : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ومشهد أول الرسل نوح إذ يقول (هود ٤٧) : ﴿ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ومشهد إمام الحنفاء وشيخ الأنبياء إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين إذ يقول (الشعراء ٧٨ - ٨٢) : ﴿ الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِين ، وَالَّذِى هُوَ

يُطْعِمُنِى ويَسْقِين ، وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين ، وَالَّذى يُمِيتُنى ثُمَّ يُحْيِين ، وَالَّذى أَطْمَعُ أنْ يَغفِرَ لى خَطِيئَتِى يَوْمَ الدِّين ﴾ وقال فى دعائه (ابراهيم ٣٥) : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هٰذا الْبَلَدَ آمِنا واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنام ﴾ فعلم ﷺ أن الذى يحول بين العبد وبين الشرك وعبادة الأصنام هو الله لا رب غيره ، فسأله ان يجنبه وبنيه عبادة الأصنام . وهـذا هو مشهد موسى إذ يقول فى خطابه لربه (الاعراف ١٥٥) : ﴿ أَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إنْ هِيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنا فاغْفِرْ لَنا وارْحَمْنا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِين ﴾ أى إنْ ذلك إلا امتحانك واختبارك ، كما يقال فتنت الذهب إذا امتحنته واختبرته ، وليس من الفتنة التى هى الفعل المسىء كما فى قوله تعالى (البروج ١٠) : ﴿ إنَّ الَّذينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنين وَالْمُؤْمِنات ﴾ وكما فى قوله تعـالى (البقرة ١٩٣) : ﴿ وقاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَة ﴾ فان تلك فتنة المخلوق ، فان موسى أعلم بالله أن يضيف اليه هذه الفتنة ، وانما هى كالفتنة فى قوله (طه ٤٠) : ﴿ وفَتَنَّاكَ فُتُونا ﴾ أى ابتليناك واختبرناك وصرفناك ، فى الأحوال التى قصها الله علينا من لدن ولادته الى وقت خطابه له وإنزاله عليه كتابه . والمقصود أن موسى شهد توحيد الرب وانفراده بالخلق والحكم وفعل السفهاء ومباشرتهم الشرك ، فتضرع اليه بعزته وسلطانه وأضاف الذنب الى فاعله وجانيه ، ومن هذا قوله (القصص ١٦) : ﴿ رَبِّ إنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِي فاغْفِرْ لى ﴾ قال تعالى : ﴿ فَغَفَرَ لَهُ ، إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيم ﴾ وهذا مشهد ذى النون اذ يقول (الأنبياء ٨٧) : ﴿ لا إلٰهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمين ﴾ فوحد ربه ونزهه عن كل عيب وأضاف الظلم الى نفسه ، وهـذا مشهد صاحب سيد الاستغفار إذ يقول فى دعائه : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ، خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى ، فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » فأقر بتوحيد الربوبية المتضمن لانفراده سبحانه بالخلق وعموم المشيئة ونفوذها ، وتوحيد الإلهية المتضمن لمحبته وعبادته وحده لا شريك له ، والاعتراف بالعبودية المتضمن للافتقار من جميع

الوجوه اليه سبحانه ؛ ثم قال « وأنا على عهدك ووعدك » فتضمن ذلك التزام شرعه وأمره ودينه ، وهو عهده الذى عهده إلى عباده ، وتصديق وعده وهو جزاؤه من ثوابه فتضمن التزام الأمر والتصديق بالموعود وهو الايمان والاحتساب ، ثم لما علم أن العبد لا يوفى هذا المقام حقه الذى يصلح له تعالى علق ذلك باستطاعته وقدرته التى لا يتعداها فقال « ما استطعت » أى ألتزم ذلك بحسب استطاعتى وقدرتى . ثم شهد المشهدين المذكورين ـ وهما مشهد القدرة والقوة ، ومشهد التقصير من نفسه ـ فقال « أعوذ بك من شر ما صنعت » فهذه الكلمة تضمنت المشهدين معا ، ثم أضاف النعم كلها إلى وليها وأهلها والمبتدئ بها ، والذنب إلى نفسه وعمله ، فقال « أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى » فانت المحمود والمشكور الذى له الثناء كله والاحسان كله ومنه النعم كلها ، فلك الحمد كله ولك الثناء كله ولك الفضل كله ، وأنا المذنب المسيء المعترف بذنبه المقر بخطاه كما قال بعض العارفين : العارف يسير بين مشاهدة المنة من الله ، ومطالعة عيب النفس والعمل . فشهود المنة يوجب له المحبة لربه سبحانه وحمده والثناء عليه ، ومطالعة عيب النفس والعمل يوجب استغفاره ودوام توبته وتضرعه واستكانته لربه سبحانه ، ثم لما قام هذا بقلب الداعى وتوسل اليه بهذه الوسائل قال « فاغفر لى ، فانه لا يغفر الذنوب إلا أنت »

ثم أصحاب هذا المشهد فيه قسمان : أحدهما (١) من يشهد تسليط عدوه عليه وفساده إياه وسلسلة الهوى وكبحه إياه بلجام الشهوة ، فهو أسير معه بحيث يسوقه إلى ضرب عنقه وهو مع ذلك ملتفت الى ربه وناصره ووليه ، عالم بأن نجاته فى يديه وناصيته بين يديه وأنه لو شاء طرده عنه وخلصه من يديه ، فكلما قاده عدوه وكبحه بلجامه أكثر الالتفات الى وليه وناصره والتضرع اليه والتذلل بين يديه ، وكلما أراد اغترابه وبعده عن بابه تذكر عطفه وبره وإحسانه وجوده وكرمه وغناه وقدرته ورأفته ورحمته فانجذبت دواعى قلبه هاربة اليه بترامية على بابه منطرحة على فنائه ، كعبد قد شدت يداه الى عنقه وقدم لتضرب عنقه وقد استسلم للقتل ، فنظر الى سيده أمامه وتذكر عطفه ورأفته به ووجد فرجة فوثب اليه منها وثبة طرح نفسه بين يديه ومد له عنقه وقال :

---

(١) وهو المشهد الخامس

أنا عبيدك ومسكينك ، وهذه ناصيتى بين يديك ، ولا خلاص لى من هذا العدو إلا بك وإنى مغلوب فانتصر . فهذا مشهد عظيم المنفعة جليل الفائدة تحته من أسرار العبودية ما لا يناله الوصف . وفوقه مشهد أجل منه وأعظم وأخص[1] ، تجفو عنه العبارة ، وإن الاشارة اليه بعض الاشارة ، وتقريبه الى الفهم بضرب مثل تعبر منه اليه ، وذلك مثل عبد أخذه سيده بيده وقدمه ليضرب عنقه بيده ، فهو قد أحكم ربطه وشد عينيه وقد أيقن العبد أنه فى قبضته وأنه هو قاتله لا غيره ، وقد علم مع ذلك بره به ولطفه ورحمته ورأفته وجوده وكرمه ، فهو يناشده بأوصافه ويدخل عليه به ، قد ذهب عن وهمه وشهوده كل نسب ، فانقطع تعلقه بشىء سواه ، فهو معرض عن عدوّه الذى كان سبب غضب سيده عليه ، قد محا شهوده من قلبه ، فهو مقصور النظر الى سيده وكونه فى قبضته ناظر الى ما يصنعه ، منتظر منه ما يقتضيه عطفه وبره وكرمه . ومثل الأول مثل عبد أمسكه عدوه وهو يخنقه للموت وذلك العبد يشهد دنوّ عدوه له ، ويستغيث بسيده وسيده يغيثه ويرحمه . ولكن ما يحصل للثانى فى مشهده ذلك من الأمور العجيبة فوق ما يحصل للاول ، وهو بمنزلة من قد أخذه محبوبه فهو يخنقه خنقة وهو لا يشهد إلا خنقه له ، فهو يقول : اخنق خنقك ، فانت تعلم أن قلبى يحبك . وفى هذا المثل إشارة وكفاية ، ومن غلظ حجابه وكثفت طباعه لا ينفعه التصريح فضلا عن ضرب الأمثال . والله المستعان وعليه التكلان ولا قوة الا بالله . فهذه ستة مشاهد

المشهد السابع ـ مشهد الحكمة ، وهو أن يشهد حكمة الله فى تخليته بينه وبين الذنب وإقداره عليه وتهيئته أسبابه له ، وأنه لو شاء لعصمه وحال بينه وبينه ، ولكنه خلى بينه وبينه لحكم عظيمة لا يعلم مجموعها الا الله : (أحدها) أنه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم ، فلمحبته للتوبة وفرحه بها قضى على عبده بالذنب ، ثم اذا كان ممن سبقت له العناية قضى له بالتوبة . (الثانى) تعريف العبد عزة الله سبحانه فى قضائه ونفوذ مشيئته وجريان حكمه . (الثالث) تعريفه حاجته الى حفظه وصيانته ، وأنه إن لم يحفظه ويصنه فهو هالك ولا بد ، والشياطين قد مدت أيديها اليه تمزقه كل ممزق . (الرابع) استجلابه من العبد استعانته به واستعاذته به من عدوه وشر نفسه ودعاءه والتضرع اليه والابتهال

---

(١) وهو المشهد السادس

بين يديه . (الخامس) إرادته من عبده تكميل مقام الذل والانكسار ، فانه متى شهد صلاحه واستقامته شمخ بأنفه وظن أنه وأنه .. فاذا ابتلاه بالذنب تصاغرت عنده نفسه وذلت وتيقن وتمنى أنه وأنه .. (السادس) تعريفه بحقيقة نفسه وأنها الخطالة الجاهلة ، وأن كل ما فيها من علم أو عمل أو خير فمن الله منَّ به عليه لا من نفسه . (السابع) تعريفه عبده سعة حلمه وكرمه فى ستره عليه ، فانه لو شاء لعاجله على الذنب ولهتكه بين عباده فلم يصفُ له معهم عيش . (الثامن) تعريفه أنه لا طريق الى النجاة إلا بعفوه ومغفرته . (التاسع) تعريفه كرمه فى قبول توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته . (العاشر) إقامة الحجة على عبده ، فان له عليه الحجة البالغة ، فان عذبه فبعدله وببعض حقه عليه بل باليسير منه . (الحادى عشر) أن يعامل عباده فى إساءتهم اليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به ، فان الجزاء من جنس العمل ، فيعمل فى ذنوب الخلق معه ما يحب أن يصنعه الله بذنوبه . (الثانى عشر) أن يقيم معاذير الخلائق ، وتتسع رحمته لهم ، مع إقامة أمر الله فيهم ، فيقيم أمر الله فيهم رحمة لهم ، لا قسوة وفظاظة عليهم . (الثالث عشر) أن يخلع صولة الطاعة والاحسان من قلبه ، فتتبدل برقة ورأفة ورحمة . (الرابع عشر) أن يعريه من رداء العجب بعمله كما قال النبى ﷺ : « لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أشد منه ، العجب » أو كما قال . (الخامس عشر) أن يعريه من لباس الادلال الذى يصلح للملوك ، ويلبسه لباس الذل الذى لا يليق بالعبد سواه . (السادس عشر) أن يستخرج من قلبه عبوديته بالخوف والخشية ، وتوابعهما من البكاء والاشفاق والندم . (السابع عشر) أن يعرف مقداره مع معافاته وفضله فى توفيقه وعصمته ، فان من تربى فى العافية لا يعرف ما يقاسيه المبتلى ولا يعرف مقدار العافية . (الثامن عشر) أن يستخرج منه محبته وشكره لربه إذا تاب اليه ورجع اليه ، فان الله يحبه ويوجب له بهذه التوبة مزيد محبة وشكر ورضا لا يحصل بدون التوبة ، وان كان يحصل بغيرها من الطاعات أثر آخر ، لكن هذا الأثر الخاص لا يحصل إلا بالتوبة . (التاسع عشر) أنه إذا شهد إساءته وظلمه ، واستكثر القليل من نعمة الله لعلمه بان الواصل اليه منها كثير على مسىء مثله ، فاستقل الكثير من عمله لعلمه بان الذى يصلح له أن يغسل به نجاسته وذنوبه أضعاف أضعاف ما يفعله ، فهو دائما مستقل لعمله كائنا ما كان ، ولو لم يكن فى فوائد الذنب وحكمه إلا هذا وحده لكان كافيا . (العشرون) أنه يوجب له التيقظ

والحذر من مصايد العدو ومكايده ، ويعرفه من أين يدخل عليه ، وبما ذا يحذر منه ، كالطبيب الذى ذاق المرض والدواء . (الحادى والعشرون) أن مثل هذا ينتفع به المرضى ، لمعرفته بامراضهم وادوائها . (الثانى والعشرون) أنه يرفع عنه حجاب الدعوى ، ويفتح له طريق الفاقة ، فانه لا حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق أقرب من العبودية ، فان دوام الفقر الى الله مع التخليط خير من الصفاء مع العجب . (الثالث والعشرون) أن تكون فى القلب أمراض مزمنة لا يشعر بها ، فيطلب دواءها فيمن عليه اللطيف الخبير ، ويقضى عليه بذنب ظاهر فيجد ألم مرضه فيحتمى ويشرب الدواء النافع فتزول تلك الأمراض التى لم يكن يشعر بها ، ومن لم يشعر بهذه اللطيفة فغلظ حجابه كما قيل :

لعل عتبك محمود عواقبه　　وربما صحت الأجسام بالعلل

(الرابع والعشرون) أن يذيقه ألم الحجاب والبعد بارتكاب الذنب ليكمل له نعمته وفرحه وسروره إذا أقبل بقلبه اليه وجمعه عليه وأقامه فى طاعته ، فيكون التذاذه فى ذلك ـ بعد أن صدر منه ما صدر ـ بمنزلة التذاذ الظمآن بالماء العذب الزلال ، والشديد الخوف بالأمن ، والمحب الطويل الهجر بوصل محبوبه . وان لطف الرب وبره واحسانه ليبلغ بعبده أكثر من هذا ، فيابؤس من أعرض عن معرفة ربه ومحبته . (الخامس والعشرون) امتحان العبد واختباره هل يصلح لعبوديته وولايته أم لا ، فانه اذا وقع الذنب ، سلب حلاوة الطاعة والقرب ، ووقع فى الوحشة . فان كان ممن يصلح اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة ، فحنت وأنت وتضرعت واستعانت بربها ليردّها الى ما عوّدها من بره ولطفه ، وإن ركنت عنها واستمر إعراضها ولم تحن الى تعهدها الأول ومألفها ولم تحس بضرورتها وفاقتها الشديدة الى مراجعة قربها من ربها علم أنها لا تصلح لله ، وقد جاء هذا بعينه فى أثر إلهى لا أحفظه . (السادس والعشرون) أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب فى الانسان أو بعضها ، ولو لم يخلق فيه هذه الدواعى لم يكن انسانا بل ملكا ، فالذنب من موجبات البشرية ، كما أن النسيان من موجباتها ، كما قال النبى ﷺ « كل بنى آدم خطّاء ، وخير الخطائين التوّابون » ولا يتم الابتلاء والاختبار إلا بذلك . والله أعلم . (السابع والعشرون) أن ينسيه رؤية طاعته ويشغله برؤية ذنبه ، فلا يزال نصب عينيه ، فان الله إذا أراد بعبد خيرا سلب رؤية

أعماله الحسنة من قلبه والإخبار بها من لسانه ، وشغله برؤية ذنبه ، فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة ، فان ما تقبل من الأعمال رفع من القلب رؤيته ومن اللسان ذكره ، وقال بعض السلف : ان العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة ، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار . قالوا : كيف ؟ قال : يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه ، اذا ذكرها ندم واستقال وتضرع إلى الله وبادر إلى محوها وانكسر وذل لربه وزال عنه عجبه وكبره . ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه ، يراها ويمنّ بها ويعتد بها ويتكبر بها حتى يدخل النار . (الثامن والعشرون) أن شهود ذنبه وخطيئته يوجب له أن لا يرى له على أحد فضلا ، ولا له على أحد حقا . فانه إذا شهد عيب نفسه بفاحشة وخطأها وذنوبها لا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر ، واذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقا من الإكرام يتقاضاهم إياها ويذمهم على ترك القيام بها ، فانها عنده أخس قدرا وأقل قيمة من أن يكون لها على عباد الله حقوق يجب مراعاتها ، أو لها عليهم فضل يستحق أن يلزموه لأجله ، فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط قد أحسن اليه وبذل له مالا يستحقه ، فاستراح فى نفسه واستراح الناس من عتبه وشكايته ، فما أطيب عيشه وما أنعم باله وما أقر عينه ، وأين هذا ممن لا يزال عاتبا على الخلق شاكيا ترك قيامهم بحقه ساخطا عليهم وهم عليه أسخط ؟ فسبحان ذى الحكمة الباهرة التى بهرت عقول العالمين . (التاسع والعشرون) أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها ، فانه فى شغل بعيبه ونفسه ، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، وويل لمن نسى عيبه وتفرغ لعيوب الناس ، فالاول علامة السعادة والثانى علامة الشقاوة . (الثلاثون) أنه يوجب له الإحسان الى الناس والاستغفار لاخوانه الخاطئين من المؤمنين فيصير هجّيراه : ربِّ اغفر لى ولوالدى وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ، فانه يشهد أن إخوانه الخاطئين يصابون بمثل ما أصيب به ، ويحتاجون الى مثل ما هو محتاج اليه ، فكما يحب أن يستغفر له أخوه المسلم يحب أن يستغفر هو لأخيه المسلم ، وقد قال بعض السلف : ان الله لما عتب على الملائكة فى قولهم (البقرة ٣٠) : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ وامتحن هاروت وماروت جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبنى آدم ويدعون الله لهم . (الحادى والثلاثون) أنه يوجب

له سعة إبطائه وحلمه ومغفرته لمن أساء اليه ، فانه إذا شهد نفسه مع ربه سبحانه مسيئا خاطئا مذنبا ـ مع فرط إحسانه اليه وبره وشدة حاجته الى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين وهذا حاله مع ربه ـ فكيف يطمع أن يستقيم له الخلق ويعاملوه بمحض الإحسان وهو لم يعامل ربه بتلك المعاملة ؟ وكيف يطمع أن يطيعه مملوكه وولده وزوجته فى كل ما يريد وهو مع ربه ليس كذلك ، وهذا يوجب أن يغفر لهم ويسامحهم ويعفو عنهم ويغضى عن الاستقصاء فى طلب حقه قبلهم

﴿ قاعدة ﴾ كثيرا ما يتكرر فى القرآن ذكر الإنابة والأمر بها كقوله تعالى (الزمر ٥٤) : ﴿ وأَنِيبُوا إلىٰ رَبِّكُمْ وأَسْلِمُوا لَه ﴾ ، وقوله حكاية عن شعيب أنه قال (هود ٨٨) : ﴿ وما تَوْفِيقِى إلاَّ باللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإليهِ أُنِيب ﴾ وقوله (ق ٨) ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ وقوله (الرعد ٢٧) : ﴿ إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِى الَيْه مَنْ أَناب ﴾ وقوله عن نبيه داود (ص ٢٤) : ﴿ وَخَرَّ راكِعاً وأَناب ﴾ والإنابة الرجوع الى الله وانصراف دواعى القلب وجواذبه اليه ، وهى تتضمن المحبة والخشية ، فان المنيب محب لمن أناب اليه خاضع له خاشع ذليل . والناس فى إنابتهم على درجات متفاوتة ، فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع اليه من المخالفات والمعاصى ، وهذه الانابة مصدرها مطالعة الوعيد ، والحامل عليها العلم والخشية والحذر . ومنهم المنيب اليه بالدخول فى أنواع العبادات والقربات ، فهو ساع فيها بجهده وقد حبب اليه فعل الطاعات وأنواع القربات ، وهذه الانابة مصدرها الرجاء ومطالعة الوعد والثواب ومحبة الكرامة من الله ، وهؤلاء أبسط نفوسا من أهل القسم الأول وأشرح صدورا ، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم ، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعا ولكن خوف هؤلاء اندرج فى رجائهم فانابوا بالعبادات ، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات . ومنهم المنيب الى الله بالتضرع والدعاء والافتقار اليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه ، ومصدر هذه الانابة شهود الفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة ، فانزلوا به حوائجهم وعلقوا به آمالهم ، فانابتهم اليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهى ، ولكن إنابتهم الخاصة إنما هى من هذه الجهة ، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الانابة الخاصة وأملهم المنيب اليه عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار

لا إنابة اختيار كحال الذين قال الله فى حقهم (الاسراء ٦٧) : ﴿ وإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فى البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاَّ إيَّاه ﴾ وقوله تعالى (العنكبوت ٦٥) : ﴿ فاذا رَكِبُوا فى الفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصين لَهُ الدِّين ﴾ وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه معرضة عنه الى مألوف طبيعى نفسانى قد حال بينها وبين إنابتها بذاتها الى معبودها وإلهها الحق ، فهى ملتفتة إلى غيره ، ولها اليه انابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له ، فأعلى أنواع الانابات إنابة الروح بجملتها اليه لشدة المحبة الخالصة المغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم ، وحين أنابت اليه أرواحهم لم يتخلف منهم شيء عن الانابة ، فان الأعضاء كلها رعيتها وملكها تبع للروح ، فلما أنابت الروح بذاتها اليه إنابة محب صادق المحبة ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه ، أنابت جميع القوى والجوارح : فأناب القلب أيضا بالمحبة والتضرع والذل والانكسار . وأناب العقل بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه ، وتسليمه لها ، وتحكيمه إياها دون غيرها ، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها . وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والارادات الفاسدة ، وانقادت لأوامره خاضعة له وداعية فيه مؤثرة إياه على غيره ، فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر ، وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضا الى مولاها ورضى بقضائه وتسليما لحكمه ، وقد قيل : ان تدبير العبد لنفسه هو آخر الصفات المذمومة فى النفس . وأناب الجسد فى الأعمال والقيام بها فرضها وسننها على أكمل الوجوه . وأنابت كل جارحة وعضو إنابتها الخاصة فلم يبق من هذا العبد المنيب عرق ولا مفصل إلا وله إنابة ورجوع الى الحبيب الحق الذى كل محبة سوى محبته عذاب على صاحبها ، وان كانت عذبة فى مباديها فانها عذاب فى عواقبها ، فانابة العبد ولو ساعة من عمره هذه الانابة الخالصة أنفع له وأعظم ثمرة من إنابة سنين كثيرة من غيره ، فأين إنابة هذا من إنابة من قبله ؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، بل هذه روحه منيبة أبدا ، وان توارى عنه شهود إنابتها باشتغال فهى كامنة فيها كمون النار فى الزناد . وأما أصحاب الانابات المتقدمة فان أناب أحدهم ساعة بالدعاء والذكر والابتهال فلنفسه وروحه وقلبه وعقله التفاتات عمن قد أناب اليه ، فهو ينيب ببعضه ساعة ثم يترك ذلك مقبلا على دواعى نفسه وطبعه . والله الموفق المعين ، لا رب

غيره ولا إله سواه

﴿ قاعـدة ﴾ فى ذكر طريق قريب يوصل الى الاستقامة فى الأحوال والأقوال والأعمال . وهى شيئان : أحدهما حراسة الخواطر وحفظها ، والحذر من إهمالها والاسترسال معها ، فان أصل الفساد كله من قبلها يجىء ، لأنهـا هى بذر الشيطان ، والنفس فى أرض القلب ، فاذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى حتى تصير إرادات ، ثم يسقيها حتى تكون عزائم ، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال . ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الارادات والعزائم ، فيجد العبد نفسه عاجزا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة ، وهو المفرط اذا لم يدفعهـا وهى خاطر ضعيف ، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت فى حطب يابس فلما تمكنت منه عجز عن اطفائها . فان قلت : فما الطريق الى حفظ الخواطر ؟ قلت أسباب عدة : (أحدها) العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره الى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك . (الثانى) حياؤك منه . (الثالث) اجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر فى بيته الذى خلق لمعرفته ومحبته . (الرابع) خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر . (الخامس) إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته . (السادس) خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها فتأكل مافى القلب من الايمان ومحبة الله فتذهب به جملة وأنت لا تشعر . (السابع) أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحب الذى يلقى للطائر ليصاد به ، فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة فى فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر . (الثامن) أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هى وخواطر الايمان ودواعى المحبة والانابة أصلا ، بل هى ضدها من كل وجه ، وما اجتمعا فى قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه ، فما الظن بقلب غلبت خواطر النفس والشيطان فيه خواطر الايمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها واستوطنت مكانها ، لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحس بمصابه . (التاسع) أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له ، فاذا دخل القلب فى غمراته غرق فيه وتاه فى ظلماته فيطلب الخلاص منه فلا يجد اليه سبيلا ، فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح معذب مشغول بما لا يفيد . (العاشر) أن تلك الخواطر هى وادى الحمقى وأمانى الجاهلين ، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة

والخزى ، واذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانها وأفسدت عليه رعيته وألقته فى الأسر الطويل . وكما أن هذا معلوم فى الخواطر النفسانية فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هى أصل الخير كله ، فان أرض القلب اذا بذر فيها خواطر الايمان والخشيه والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب ، وسقيت مرة بعد مرة ، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها ، أثمرت له كل فعل جميل ، وملأت قلبه من الخيرات ، واستعملت جوارحه فى الطاعات ، واستقر بها الملك فى سلطانه واستقامت له رعيته ، ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك عملت على حفظ الخواطر فكان ذلك هو سيرها وجل عملها . وهذا نافع لصاحبه بشرطين : أحدهما أن لا يترك به واجبا ولا سنة ، الثانى أن لا يجعل مجرد حفظها هو المقصود ، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والمحبة والإنابة والتوكل والخشية فيفرّغ قلبه من تلك الخواطر ويعمره باضدادها ، وإلا فتى عمل على تفريغه منهما معا كان خاسرا ، فلا بد من التفطن لهذا . ومن هنا غلط أقوام من أرباب السلوك وعملوا على القاء الخواطر وازالتها جملة ، فبذر فيها الشيطان أنواع الشبه والخيالات فظنوها تحقيقا وفتحا رحمانيا ، وهم فيها غالطون ، وإنما هى خيالات شيطانية ، والميزان هو الكتاب الناطق والفطرة السليمة والعقل المؤيد بنور النبوة . والله المستعان

﴿ فصل ﴾ صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه فى حصول استقامته ، فان من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها ، وخمدت من نفسه نيران الشهوات وأخبتَ قلبه الى الله وعكفت همته على الله وعلى محبته وايثار مرضاته ، واستحدثت همة أخرى وعلوما أخر ، وولد ولادة أخرى تكون نسبة قلبه فيها الى الدار الآخرة كنسبة جسمه الى هذه الدار بعد أن كان فى بطن أمه ، فيولد قلبه ولادة حقيقية كما ولد جسمه حقيقة ، وكما كان بطن أمه حجابا لجسمه عن هذه الدار فهكذا نفسه وهواه حجاب لقلبه عن الدار الآخرة ، فخروج قلبه عن نفسه بارزا إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزاً الى هذه الدار ، وهذا معنى ما يذكر عن المسيح أنه قال « يا بنى إسرائيل ، إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين » ولما كان أكثر الناس لم يولدوا هذه الولادة الثانية ولا تصوروها ـ فضلا عن أن

يصدقوا بها - فيقول القائل : كيف يولد الرجل الكبير أو كيف يولد القلب ، لم يكن لهم إليها همة ولا عزيمة ، اذ كيف يعزم على الشيء من لا يعرفه ولا يصدقه ؟ ولكن اذا كشف حجاب الغفلة عن القلب صدّق بذلك وعلم أنه لم يولد قلبه بعد . والمقصود أن صدق التأهب للقاء الله هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة والأحوال الايمانية ومقامات السالكين إلى الله ومنازل السائرين اليه ، من اليقظة والتوبة والإنابة والمحبة والرجاء والخشية والتفويض والتسليم وسائر أعمال القلوب والجوارح ، فمفتاح ذلك كله صدق التأهب والاستعداد للقاء الله ، والمفتاح بيد الفتاح العليم لا إله غيره ولا رب سواه

﴿ قاعدة شريفة ﴾ الناس قسمان : علية ، وسفلة . فالعلية من عرف الطريق الى ربه وسلكها قاصدا الوصول اليه ، وهذا هو الكريم على ربه . والسفلة من لم يعرف الطريق الى ربه ولم يتعرفها ، فهذا هو اللئيم الذى قال الله فيه (الحج ١٨) : ﴿ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ﴾ والطريق الى الله فى الحقيقة واحد لا تعدد فيه ، وهو صراطه المستقيم الذى نصبه موصلا لمن سلكه ، قال الله تعالى (الأنعام ١٥٣) : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ فوحد سبيله لأنه فى نفسه واحد لا تعدد فيه ، وجمع السبل المخالفة لأنها كثيرة متعددة ، كما ثبت أن النبي ﷺ خط خطا ثم قال : هذا سبيل الله . ثم خط خطوطا عن يمينه وعن يساره ثم قال : هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو اليه ، ثم قرأ ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ ومن هذا قوله تعالى (البقرة ٢٥٧) : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ ، فوحد النور الذى هو سبيله ، وجمع الظلمات التى هى سبل الشيطان . ومن فهم هذا فهم السر فى إفراد النور وجمع الظلمات فى قوله تعالى (الانعام ١) : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ مع أن فيه سرا ألطف من هذا يعرفه من يعرف منبع النور ومن أين فاض وعما ذا حصل وأن أصله كله واحد ، وأما الظلمات فهى متعددة بتعدد الحجب المقتضية لها ، وهى كثيرة جدا ، لكل حجاب ظلمة خاصة ، ولا ترجع الظلمات الى النور الهادى جل جلاله أصلا

لا وصفا ولا ذاتا ولا اسما ولا فعلا ، وإنما ترجع الى مفعولاته ، فهو جاعل الظلمات ومفعولاتها متعددة متكثرة ، بخلاف النور فانه يرجع الى اسمه وصفته ، تعالى أن يكون كمثله شيء ، وهو نور السموات والأرض . قال ابن مسعود : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السموات والارض من نور وجهه . ذكره الدارمى عنه . وفى صحيح مسلم عن أبي ذر قلت : يا رسول الله هل رأيت ربك ؟ قال : نور ، أنى أراه !

والمقصود أن الطريق الى الله واحد ، فانه الحق المبين . والحق واحد ، مرجعه الى واحد . وأما الباطل والضلال فلا ينحصر ، بل كل ما سواه باطل ، وكل طريق الى الباطل فهو باطل . فالباطل متعدد ، وطرقه متعددة . وأما ما يقع فى كلام بعض العلماء أن الطريق الى الله متعددة متنوعة ، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها ، رحمة منه وفضلا ، فهو صحيح لا ينافى ما ذكرناه من وحدة الطريق . وكشف ذلك وإيضاحه أن الطريق هى واحدة جامعة لكل ما يرضى الله ، وما يرضيه متعدد متنوع فجميع ما يرضيه طريق واحد ، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال ، وكلها طرق مرضاته . فهذه التى جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم ، ولو جعلها نوعا واحدا مع اختلاف الأذهان والعقول وقوة الاستعدادات وضعفها لم يسلكها إلا واحد بعد واحد ولكن لما اختلفت الاستعدادات تنوعت الطرق ليسلك كل امرئ الى ربه طريقا يقتضيها استعداده وقوته وقبوله ، ومن هنا يعلم تنوع الشرائع واختلافها مع رجوعها كلها إلى دين واحد مع وحدة المعبود ودينه ، ومنه الحديث المشهور « الأنبياء أولاد عَلات دينهم واحد » ، فأولاد العلات أن يكون الأب واحدا والأمهات متعددة ، فشبه دين الأنبياء بالأب الواحد وشرائعهم بالامهات المتعددة ، فانها وإن تعددت فمرجعها الى أب واحد كلها . وإذا علم هذا فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذى يعد سلوكه الى الله طريق العلم والتعليم ، قد وفر عليه زمانه مبتغيا به وجه الله ، فلا يزال كذلك عاكفا على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق الى الله ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت فى طريق طلبه فيرجى له الوصول إلى مطلبه بعد مماته قال تعالى (النساء ١٠٠) : ﴿ ومَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهاجِراً إلى اللهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ

أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ ، وقد حكى عن جماعة كثيرة ممن أدركه الأجل وهو حريص طالب للقرآن أنه رؤى بعد موته وأخبر أنه فى تكميل مطلوبه وأنه يتعلم فى البرزخ ، فان العبد يموت على ما عاش عليه . ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله ، فمتى فتر عنه أو قصر رأى أنه قد غبن وخسر . ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة ، فمتى قصر فى ورده منها أو مضى عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره . ومن الناس من يكون طريقه الاحسان والنفع المعتدى ، كقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات وأنواع الصدقات ، قد فتح له فى هذا وسلك منه طريقا الى ربه . ومن الناس من يكون طريقه الصوم ، فهو متى أفطر تغير عليه قلبه وساءت حاله . ومن الناس من يكون طريقه تلاوة القرآن وهى الغالب على أوقاته وهى أعظم أوراده . ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قد فتح الله له فيه ونفذ منه الى ربه . ومنهم من يكون طريقه الذى نفذ فيه الحج والاعتمار . ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة ومراعاة الخواطر وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة . ومنهم جامع المنفذ السالك الى الله فى كل واد الواصل اليه من كل طريق ، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه يؤمها أين كانت ويسير معها حيث سارت قد ضرب مع كل فريق بسهم ، فاين كانت العبودية وجدته هناك : ان كان علم وجدته مع أهله ، أو جهاد وجدته فى صف المجاهدين ، أو صلاة وجدته فى القانتين ، أو ذكر وجدته فى الذاكرين ، أو إحسان ونفع وجدته فى زمرة المحسنين ، أو محبة ومراقبة وإنابة الى الله وجدته فى زمرة المحبين المنيبين ، يدين بدين العبودية أنى استقلت ركائبها ، ويتوجه اليها حيث استقرت مضاربها ، لو قيل له : ما تريد من الأعمال ؟ لقال : أريد أن أنفذ أوامر ربى حيث كانت وأين كانت جالبة ما جلبت مقتضية ما اقتضت جمعتى أو فرقتى ، ليس لى مراد إلا تنفيذها والقيام بأدائها مراقبا له فيها عاكفا عليه بالروح والقلب والبدن والسر قد سلمت اليه المبيع منتظرا منه تسليم الثمن ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ (التوبة ١١١) ، فهذا هو العبد السالك إلى ربه النافذ اليه حقيقة ، ومعنى النفوذ اليه أن يتصل به قلبه ويعلق به تعلق المحب التام المحبة بمحبوبه فيسلو به عن جميع

المطالب سواه ، فلا يبقى فى قلبه الا محبة الله وأمره وطلب التقرب اليه . فاذا سلك العبد على هذا الطريق عطف عليه ربه فقربه واصطفاه وأخذ بقلبه اليه وتولاه فى جميع أموره فى معاشه ودينه وتولى تربيته أحسن وابلغ مما يربى الوالد الشفيق ولده ، فانه سبحانه القيوم المقيم لكل شيء من المخلوقات طائعها وعاصيها ، فكيف تكون قيوميته بمن أحبه وتولاه وآثره على ما سواه ، ورضى به من الناس حبيبا وربا ووكيلا وناصرا ومعينا وهاديا ، فلو كشف الغطاء عن ألطافه وبره وصنعه له من حيث يعلم ومن حيث لا يعلم لذاب قلبه محبة له وشوقا اليه ويقع شكرا له ، ولكن حجب القلوب عن مشاهدة ذلك إخلادها الى عالم الشهوات والتعلق بالأسباب ، فصدت عن كمال نعيمها ، وذلك تقدير العزيز العليم . وإلا فأى قلب يذوق حلاوة معرفة الله ومحبته ثم يركن الى غيره ويسكن الى ما سواه ؟ هذا ما لا يكون أبدا . ومن ذاق شيئا من ذلك وعرف طريقا موصلة الى الله ثم تركها واقبل على إراداته وراحاته وشهواته ولذاته وقع فى آثار المعاطب وأودع قلبه سجون المضايق وعذب فى حياته عذابا لم يعذب به أحد من العالمين ، فحياته عجز وغم وحزن ، وموته كدر وحسرة ، ومعاده أسف وندامة ، قد فرط عليه أمره وشتت عليه شمله ، وأحضر نفسه الغموم والاحزان ، فلا لذة الجاهلين ولا راحة العارفين ، يستغيث فلا يغاث ويشتكى فلا يشكى ، فقد ترحلت أفراحه وسروره مدبرة وأقبلت آلامه وأحزانه وحسراته ، فقد أبدل بأنسه وحشة وبعزه ذلا وبغناه فقرا وبجمعيته تشتيتا ، وأبعدوه فلم يظفر بقربهم ، وأبدلوه مكان الانس إيحاشا ، ذلك بأنه عرف طريقه الى الله ثم تركها ناكبا عنها مكبا على وجهه ، فأبصر ثم عمى وعرف ثم أنكر وأقبل ثم أدبر ودعى فما أجاب وفتح له فولى ظهره الباب ، قد ترك طريقَ مولاه وأقبل بكليته على هواه ، فلو نال بعض حظوظه وتلذذ براحاته وشئونه فهو مقيد القلب عن انطلاقه فى فسيح التوحيد وميادين الأنس ورياض المحبة وموائد القرب ، قد انحط بسبب إعراضه عن إلهه الحق الى أسفل سافلين ، وحصل فى عـــداد الهالكين ، فنار الحجاب تطلع كل وقت على فؤاده ، وإعراض الكون عنه ـ إذ أعرض عن ربه ـ حائل بينه وبين مراده ، فهو قبر يمشى على وجه الأرض وروحه فى وحشة من جسمه وقلبه فى ملال من حياته ، يتمنى الموت ويشتهيه ولو كان فيه ما فيه ، حتى اذا جاءه الموت على

تلك الحال والعياذ بالله فلا تسأل عما يحل به من العذاب الأليم بسبب وقوع الحجاب بينه وبين مولاه الحق وإحراقه بنار البعد عن قربه والإعراض عنه وقد حيل بينه وبين سعادته وأمنيته . فلو توهم العبد المسكين هذه الحال وصورتها له نفسه وأرته إياها على حقيقتها لتقطع والله قلبه ولم يلتذ بطعام ولا شراب ، ولخرج إلى الصعدات يجأر الى الله ويستغيث به ويستعتبه فى زمن الاستعتاب ، هذا مع أنه إذا آثر شهواته ولذاته الفانية التى هى كخيال طيف أو مزنة صيف نغصت عليه لذتها أحوج ما كان اليها ، وحيل بينه وبينها أقدر ما كان عليها ، وتلك سنة الله فى خلقه كما قال تعالى (يونس ٢٤) : ﴿ حَتَّى إذا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَها وازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ ، كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾ . وهذا هو غب إعراضه وإيثار شهوته على مرضاة ربه ، يعوق القدر عليه أسباب مراده فيخسر الأمرين جميعا ، فيكون معذبا فى الدنيا بتنغيص شهواته وشدة اهتمامه بطلب ما لم يقسم له ، وإن قسم له منه شىء فحشوه الخوف والحزن والنكد والألم ، فهمّ لا ينقطع وحسرة لا تنقضى وحرص لا ينفد وذل لا ينتهى وطمع لا يقلع ، هذا فى هذه الدار ، وأما فى البرزخ فأضعاف اضعاف ذلك : قد حيل بينه وبين ما يشتهى ، وفاته ماكان يتمناه من قرب ربه وكرامته ونيل ثوابه ، وأحضر جميع غمومه وأحزانه . وأما فى دار الجزاء فسجن أمثاله من المبعودين المطرودين . فواغوثاه ثم واغوثاه بغياث المستغيثين وأرحم الراحمين . فمن أعرض عن الله بالكلية أعرض الله عنه بالكلية ، ومن أعرض الله عنه لزمه الشقاء والبؤس والبخس فى أحواله وأعماله وقارنه سوء الحال وفساده فى دينه ومآله ، فان الرب إذا أعرض عن جهة دارت بها النحوس وأظلمت أرجاؤها وانكسفت أنوارها وظهرت عليها وحشة الاعراض وصارت مأوى للشياطين وهدفا للشرور ومصبا للبلاء ، فالمحروم كل المحروم من عرف طريقا اليه ثم أعرض عنها أو وجد بارقة من حبه ثم سلبها لم ينفذ الى ربه منها ، خصوصا إذا مال بتلك الإرادة الى شىء من اللذات ، وانصرف بجملته الى تحصيل الاغراض والشهوات ، عاكفا على ذلك فى ليله ونهاره وغدوه ورواحه ، هابطا من الأوج الأعلى الى الحضيض الأدنى ، قد مضت عليه برهة من أوقاته وكان همه الله وبغيته قربه ورضاه

وإيثاره على كل ما سواه ، على ذلك يصبح ويمسى ويظل ويضحى ، وكان الله فى تلك الحال وليه لانه ولى من تولاه وحبيب من أحبه ووالاه ، فأصبح فى سجن الهوى ثاويا وفى أسر العدو مقيما وفى بئر المعصية ساقطا وفى أودية الحيرة والتفرقة هائما ، معرضا عن المطالب العالية الى الأغراض الخسيسة الفانية ، كان قلبه يحوم حول العرش فأصبح محبوسا فى أسفل الحش :

فأصبح كالبازى المنتّف ريشه يرى حسرات كلما طار طائر
وقد كان دهرا فى الرياض منعما على كل ما يهوى من الصيد قادر
إلى أن أصابته من الدهر نكبة إذا هو مقصوص الجناحين حاسر

فيامن ذاق شيئا من معرفة ربه ومحبته ثم أعرض عنها واستبدل بغيرها منها ، يا عجبا له بأى شىء تعوض ، وكيف قر قراره فما طلب الرجوع الى أحنيته وما تعرض . وكيف اتخذ سوى احنيته سكنا ، وجعل قلبه لمن عاداه مولاه من أجله وطنا . أم كيف طاوعه قلبه على الاصطبار ، ووافقه على مساكنة الأغيار . فيامعرضا عن حياته الدائمة ونعيمه المقيم ، ويابائعا سعادته العظمى بالعذاب الأليم . ويامسخطا من حياته وراحته وفوزه فى رضاه وطالبا رضى من سعادته فى إرضاء سواه ، إنما هى لذة فانية وشهوة منقضية تذهب لذاتها وتبقى تبعاتها ، فرح ساعة لا شهر وغم سنة بل دهر ، طعام لذيذ مسموم أوله لذة وآخره هلاك ، فالعامل عليها والساعى فى تحصيلها كدودة القز يسد على نفسه المذاهب بما نسج عليها من المعاطب ، فيندم حين لا تنفع الندامة ويستقيل حين لا تقبل الاستقالة ، فطوبى لمن أقبل على الله بكليته وعكف عليه بارادته ومحبته ، فان الله يقبل عليه بتوليه ومحبته وعطفه ورحمته ، وان الله سبحانه إذا أقبل على عبد استنارت جهاته وأشرقت ساحاته وتنورت ظلماته وظهرت عليه آثار إقباله من بهجة الجلال وآثار الجمال ، وتوجه اليه أهل الملأ الأعلى بالمحبة والموالاة لأنهم تبع لمولاهم ، فاذا أحب عبدا أحبوه واذا والى وليا والوه ، إذا أحب الله العبد نادى : يا جبرائيل إنى أحب فلانا فأحبه ، فينادى جبرائيل فى السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه . فيحبه أهل السماء ثم يحبه أهل الأرض ، فيوضع له القبول بينهم ، ويجعل الله قلوب أوليائه تفد اليه بالود والمحبة والرحمة ، وناهيك بمن يتوجه اليه مالك الملك ذو الجلال والاكرام بمحبته ويقبل

عليه بانواع كرامته ، ويلحظه الملأ الاعلى وأهل الأرض بالتبجيل والتكريم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

﴿ قاعدة ﴾ السائر الى الله والدار الآخرة ، بل كل سائر الى مقصد ، لا يتم سيره ولا يصل الى مقصوده إلا بقوتين : قوة علمية ، وقوة عملية . فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرا فيها ، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل . فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشى فى ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة ، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشى فى الظلمة فى مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره ، ويبصر بذلك النور أيضا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها ، فيكشف له النور عن الأمرين : أعلام الطريق ، ومعاطبها . وبالقوة العملية يسير حقيقة ، بل السير هو حقيقة القوة العملية ، فان السير هو عمل المسافر . وكذلك السائر الى ربه اذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح ، وبقى عليه الشطر الآخر وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرا فى الطريق قاطعا منازلها منزلة بعد منزلة ، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر ، وكلما سكنت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعدها قرب التلاقى وبرد العيش عند الوصول ، فيحدث لها ذلك نشاطا وفرحا وهمة ، فهو يقول : يا نفس أبشرى فقد قرب المنزل ودنا التلاقى ، فلا تنقطعى فى الطريق دون الوصول فيحال بينك وبين منازل الأحبة ، فان صبرت وواصلت المسرى وصلت حميدة مسرورة جذلة ، وتلقتك الاحبة بأنواع التحف والكرامات ، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة ، فان الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة ، وعمرك درجة من درج تلك الساعة ، فالله الله لا تنقطعى فى المفازة ، فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين . فان استصعبت عليه فليذكرها ما أمامها من أحبابها ، وما لديهم من الإكرام والإنعام ، وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء ، فان رجعت فالى أعدائها رجوعها ، وإن تقدمت فالى أحبابها مصيرها ، وإن وقفت فى طريقها أدركها أعداؤها ، فانهم وراءها فى

الطلب . ولا بد لها من قسم من هذه الاقسام الثلاثة فلتختر ايها شاءت . وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها ، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها ، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها ، ولا يوحشه انفراده فى طريق سفره ، ولا يغتر بكثرة المنقطعين ، فألم انقطاعه وبعاده واصل اليه دونهم ، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم ، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم ؟ وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم بل هى من عوارض الطريق ، فسوف تبدو له الخيام ، وسوف يخرج اليه المتلقون يهنئونه بالسلامة والوصول اليهم ، فياقرة عينه إذ ذاك ويافرحته اذ يقول (يس ٢٦ - ٢٧) : ﴿ لَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِين ﴾ . ولا يستوحش مما يجده من كثافة الطبع وذوب النفس وبطء سيرها ، فكلما أدمن على السير وواظب عليه غدوا ورواحا وسحرا قرب من الدار وتلطفت تلك الكثافة وذابت تلك الخبائث والأدران ، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم ، فتبدلت وحشته انسا وكثافته لطافة ودرنه طهارة

فصل فى تقسيم الناس من حيث القوّة العلمية والعملية

فمن الناس من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها ، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه ، ويكون ضعيفا فى القوة العملية يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها ، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها ، فهو فقيه ما لم يحضر العمل ، فاذا حضر العمل شارك الجهال فى التخلف وفارقهم فى العلم ، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ، والمعصوم من عصمه الله ولا قوة إلا بالله . ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه وتقتضى هذه القوة السير والسلوك والزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة والجد والتشمير فى العمل ، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات فى العقائد والانحرافات فى الأعمال والأقوال والمقامات كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات ، فداء هذا من جهله وداء الاول من فساد إرادته وضعف عقله ، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم ، بل على طريق الذوق

والوجد والعادة ، يرى أحدهم أعمى عن مطلوبه لا يدرى من يعبد ولا بماذا يعبده ، فتارة يعبده بذوقه ووجده ، وتارة يعبده بعادة قومه وأصحابه من لبس معين أو كشف رأس أو حلق لحية ونحوها ، وتارة يعبده بالأوضاع التى وضعها بعض المتحذلقين وليس له أصل فى الدين ، وتارة يعبده بما تحبه نفسه وتهواه كائنا ما كان . وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد . فهؤلاء كلهم عمى عن ربهم وعن شريعته ودينه لا يعرفون شريعته ودينه الذى بعث به رسله وأنزل به كتبه ولا يقبل من أحد دينا سواه ، كما أنهم لا يعرفون صفات ربهم التى تعرّف بها الى عباده على ألسنة رسله ودعاهم الى معرفته ومحبته من طريقها ، فلا معرفة له بالرب ولا عبادة له . ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره الى الله ورجى له النفوذ وقوى على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته ، فان القواطع كثيرة شأنها شديد لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد ، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين ، ولو شاء الله لأزالها وذهب بها ، ولكن الله يفعل ما يريد ، والوقت كما قيل سيف فان قطعته وإلا قطعك . فاذا كان السير ضعيفا والهمة ضعيفة والعلم بالطريق ضعيفا والقواطع الخارجة والداخلة كثيرة شديدة فانه جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الاعداء ، إلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده ويخلصه من أيدى القواطع . والله ولى التوفيق

﴿قاعدة نافعة﴾ العبد من حين استقرت قدمه فى هذه الدار فهو مسافر فيها الى ربه ، ومدة سفره هى عمره الذى كتب له ، فالعمر هو مدة سفر الانسان فى هذه الدار الى ربه ، ثم قد جعلت الايام والليالى مراحل لسفره : فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل ، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهى السفر . فالكيس الفطن هو الذى يجعل كل مرحلة نصب عينيه فيهتم بقطعها سالما غانما ، فاذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه ، ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه ويمتد أمله ويحضر بالتسويف والوعد والتأخير والمطل ، بل يعدّ عمره تلك المرحلة الواحدة فيجتهد فى قطعها بخير ما بحضرته ، فانه اذا تيقن قصرها وسرعة انقضائها هان عليه العمل فطوّعت له نفسه الانقياد الى التزود ، فاذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك ، فلا يزال هذا دأبه حتى يطوى مراحل عمره كلها فيحمد سعيه ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته ، فاذا طلع صبح

الآخرة وانقشع ظلام الدنيا فحينئذ يحمد سراه وينجاب عنه كراه ، فما أحسن ما يستقبل يومه وقد لاح صباحه واستبان فلاحه

ثم الناس فى قطع هذه المراحل قسمان : فقسم قطعوها مسافرين فيها الى دار الشقاء ، فكلما قطعوا منها مرحلة قربوا من تلك الدار وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته ، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته ومعاداة رسله وأوليائه ودينه والسعى فى إطفاء نوره وإبطال دعوته وإقامة دعوة غيرها ، فهؤلاء جعلت أيامهم يسافرون فيها الى الدار التى خلقوا لها واستعملوا بها ، فهم مصحوبون فيهـــا بالشياطين الموكلة بهم يسوقونهم إلى منازلهم سوقا كما قال تعالى (مريم ٨٣) : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ أى تزعجهم إلى المعاصى والكفر إزعاجا وتسوقهم سوقا . القسم الثانى قطعوا تلك المراحل سائرين فيها الى الله والى دار السلام . وهم ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات باذن الله . وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى الى الله ، ولكن متفاوتون فى التزود وتعبئة الزاد واختياره ، وفى نفس السير وسرعته وبطئه . فالظالم لنفسه مقصر فى الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا فى قدره ولا فى صفته ، بل مفرط فى زاده الذى ينبغى له أن يتزوده ، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به فى طريقه ، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذى الضار . والمقتصد اقتصر من الزاد على ما يبلغه ، ولم يشدّ مع ذلك أحمال التجارة الرابحة ، ولم يتزود ما يضره ، فهو سالم غانم ، لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة . والسابق بالخيرات همه فى تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات ، لعلمه بمقدار الربح الحاصل ، فيرى خسرانا أن يدخر شيئا مما بيده ولا يتجر به ، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم ، فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر ، وعنده حاصل ، وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة بالتجارة ، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يجىء به تجارة الى ذلك البلد لفعل ، فهكذا حال السابق بالخيرات باذن الله : يرى خسرانا بينا أن يمر عليه وقت فى غير متجر . فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الاقسام الثلاثة ليعلم العبد من أى التجار هو :

فاما الظالم لنفسه فانه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته الى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها ، فاذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة ، فمرة يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة ، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاونا ووعدا بالتوبة . فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والايمان بالله ورسوله واليوم الآخر والتصديق بالثواب والعقاب . فمرحلة هذا مقطوعة بالربح والخسران ، وهو للاغلب منهما . فاذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده ، وكان الحكم للراجح منهما ، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله

وأما المقتصدون فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها ، فلا حصلوا على أرباح التجار ولا بخسوا الحق الذى عليهم . فاذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة فى وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها ، ثم ينصرف منها الى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التى أذن الله فيها مشتغلا بها قائما بأعيانها مؤديا واجب الرب فيها ، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الاذكار والتوجه ، فاذا حضرت الفريضة الأخرى بادر اليها كذلك ، فاذا أكملها انصرف إلى حاله الأول . فهو كذلك سائر يومه . فاذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر ، فيقوم الى غذائه ووظيفته ، فاذا جاء الصوم الواجب قام بحقه ، وكذلك الزكاة الواجبة والحج الواجب ، وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط ، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم

وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان : أبرار ، ومقربون . وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين ، وهم المقتصدون والابرار والمقربون . وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الاطلاق ، وإن كان مآله الى أصحاب اليمين ، كما أنه لا يسمى مؤمنا عند الإطلاق وان كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه . وقد اختلف فى قوله (فاطر ٣٣) : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فيها منْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَب ﴾ الآية هل ذلك راجع الى الأصناف الثلاثة : الظالم لنفسه والمقتصد والسابق بالخيرات ، أو يختص بالقسمين الأخيرين وهما المقتصد والسابق دون الظالم ، على قولين : فذهبت طائفة إلى أن الأصناف الثلاثة كلهم فى الجنة ، وهذا يروى عن ابن مسعود وابن عباس

وأبى سعيد الخدرى وعائشة أم المؤمنين ، قال أبو اسحق السبيعى : أما الذى سمعت منذ ستين سنة فكلهم ناج ، قال أبو داود الطائى : أنبأنا الصلت بن دينار حدثنا عقبة بن صهبان الهنائى قال : سألت عائشة عن قول الله (فاطر ٣٢) : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ فقالت لى : يا بنى ، كل هؤلاء فى الجنة ، فاما السابق بالخيرات فمن مضى على عهد رسول الله يشهد له رسول الله بالخيرة والرزق ، وأما المقتصد فمن تبع أثره من أصحابه حتى لحق به ، وأما الظالم لنفسه فمثلى ومثلك . قال : فجعلت نفسها معنا . وقال ابن مسعود : هذه الأمة يوم القيامة أثلاث : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حسابا يسيرا ثم يدخلون الجنة ، وثلث يجيئون بذنوب عظام فيقول الله : ما هؤلاء ؟ وهو أعلم بهم ، فتقول الملائكة : هم مذنبون ، إلا أنهم لم يشركوا . فيقول الله : أدخلوهم فى سعة رحمتى . وقال كعب : تحاذت مناكبهم ورب الكعبة وتفاضلوا بأعمالهم . وقال الحسن : السابقون من رجحت حسناتهم ، والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته ، والظالم من خفت موازينه . واحتجت هذه الفرقة بانه سبحانه سمى الكل « مصطفين » وأخبر أنه اصطفاهم من جملة العباد ، ومحال أن يكون الكافر والمشرك من المصطفين ، لأن الاصطفاء هو الاختيار ، وهو الافتعال من صفوة الشىء وهو خياره ، فعلم أن هؤلاء الأصناف الثلاثة صفوة الخلق ، وبعضهم خير من بعض : فسابقهم مصطفى عليهم ، ثم مقتصدهم مصطفى على ظالمهم ، ثم ظالمهم مصطفى على الكافر والمشرك . واحتجت أيضا بآثار روتها تؤيد ما ذهبت اليه : فمنها ما رواه سليمان الشاذكونى حدثنا حصين بن بهز عن أبى ليلى عن أخيه عن أبيه عن أسامة بن زيد عن النبى ﷺ فى هذه الآية قال : كلهم فى الجنة . ومنها ما رواه الطبرانى حدثنا أحمد بن حماد بن رعبة حدثنا يحى بن بكير حدثنا ابن لهيعة عن أحمد بن حازم المعارفى عن صالح مولى التوأمة عن أبى الدرداء قال : قرأ النبى هذه الآية ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ فقال : أما السابق فيدخل الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيراً ، واما الظالم فيجلس فى طول المحبس ثم يتجاوز الله عنه . ومنها ما رواه زكريا الساجى عن الحسن بن على الواسطى عن أبى سعيد الخزاعى عن الحسن بن سالم عن سعد بن ظريف عن أبى هاشم الطائى قال : قدمت

المدينة فدخلت مسجدها فجلست إلى سارية ، فجاء حذيفة فقال : ألا أحدثك بحديث سمعته من رسول الله ﷺ ؟ يقول « يبعث الله تبارك وتعالى هذه الأمة - أو كما قال - ثلاثة أصناف ، وذلك فى قوله تعالى ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ﴾ فالسابق بالخيرات يدخل الجنة بلا حساب ، والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا ، والظالم لنفسه يدخل الجنة برحمة الله » . ومنها ما رواه الطبرانى عن محمد بن إسحق بن راهويه حدثنا أبى حدثنا جرير عن الأعمش عن رجل سماه عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى قوله تعالى ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ﴾ الآية قال « السابق بالخيرات والمقتصد يدخلان الجنة بغير حساب ، والظالم لنفسه يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة » . ومنها ما رواه ابن لهيعة عن أبى جعفر عن يونس بن عبد الرحمن عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول هذه الآية (فاطر ٣٢) : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا الْكتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادنا - الى قوله - سابِقٌ بِالْخَيْرات ﴾ قال : فاما السابقون فيدخلون الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيراً ، وأما الظالمون فيحاسبون فيصيبهم عناء وكرب ثم يدخلون الجنة ثم يقولون (فاطر ٣٤) : ﴿ الْحَمْدُ لله الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُور ﴾ . ومنها ما رواه الحميدى حدثنا سفيان حدثنا طعمة بن عمرو الجعفرى عن رجل قال : قال أبو الدرداء لرجل : ألا أحدثك بحديث أخصك به لم أحدث به أحدا ؟ قال رسول الله ﷺ ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِه وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ . . . جنات عدن ﴾ قال « دخلوا الجنة جميعا » . واحتجت أيضا بالآيات والأحاديث التى تشهد بنجاة الموحدين من أهل الكبائر ودخولهم الجنة . واحتجت أيضا بان ظلم النفس إنما يراد بها ظلمها بالذنوب والمعاصى ، فان الظلم ثلاثة أنواع : ظلم فى حق النفس باتباعها شهواتها وإيثارها لها على طاعة ربها ، وظلم فى حق الخلق بالعدوان عليهم ومنعهم حقوقهم ، وظلم فى حق الرب بالشرك به . فظلم النفس إنما هو بالمعاصى وقد تواترت النصوص بأن العصاة من الموحدين مآلهم إلى الجنة

وقالت طائفة : بل الوعد بالجنات إنما هو للمقتصد والسابق دون الظالم لنفسه ، فان الظالم لنفسه لا يدخل تحت الوعد المطلق ، والظالم لنفسه هنا هو الكافر ، والمقتصد المؤمن العاصى ، والسابق المؤمن التقى . وهذا يروى عن عكرمة والحسن وقتادة ، وهو

اختيار جماعة من المفسرين منهم صاحب الكشاف ومنذر بن سعيد فى تفسيره والرمانى وغيرهم ، قالوا : وهذه الآية متناولة لجميع أقسام الخلق شقيهم وسعيدهم ، وهى نظير آية الواقعة (٧ - ١٠) قوله ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجاً ثَلاثَةً : فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ ، وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ قالوا : فأصحاب الميمنة هم المقتصدون ، وأصحاب المشأمة الظالمون لأنفسهم ، والسابقون السابقون هم السابقون بالخيرات . قالوا : ولم يصطف الله من خلقه ظالما لنفسه ، بل المصطفون من عباده هم صفوته وخيارهم ، والظالمون لأنفسهم ليسوا خيار العباد بل شرارهم ، فكيف يوقع عليهم اسم المصطفين ويتناولهم فعل الاصطفاء ؟ قالوا : وأيضا صفوة الله هم أحباؤه ، والله لا يحب الظالمين ، فلا يكونون مصطفين . قالوا : ولأن الظالم لنفسه وإن كان ممن أورث الكتاب ، فهو بتركه العمل بما فيه قد ظلم نفسه ، والله سبحانه إنما اصطفى من عباده من أورثه كتابه ليعمل بما فيه ، فأما من نبذه وراء ظهره فليس من المصطفين من عباده . قالوا : ولان الاصطفاء افتعال من صفوة الشيء وهو خلاصته ولبه ، وأصله اصتفى فأبدلت التاء طاء لوقوعها بعد الصاد كالاصطباح والاصطلام ونحوه ، والظالم لنفسه ليس صفوة العباد ولا خلاصتهم ولا لبهم فلا يكون مصطفى ، قالوا : ولان الله سلم على المصطفين من عباده فقال (النمل ٥٩) : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ وهذا يقتضى سلامتهم من كل شر وكل عذاب ، والظالم لنفسه غير سالم من هذا ولا هذا ، فكيف يكون من المصطفين ؟ قالوا : وأيضا فطريقة القرآن أن الوعد المطلق بالثواب انما يكون للمتقين لا للظالمين كقوله تعالى (مريم ٦٣) : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا ﴾ فاين الظالم لنفسه هنا ؟ وقوله تعالى (الفرقان ١٥) : ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَم جَنَّةُ الْخُلْدِ التى وُعِدَ الْمُتَّقون ﴾ وقوله تعالى (آل عمران ١٣٣) ﴿ وَسارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰوٰتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ وقوله (النبأ ٣١ - ٣٦) : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً . حَدائِقَ وأَعْناباً . وَكَواعِبَ أَتْراباً . وَكَأْساً دِهاقاً . لا يَسْمَعُونَ فيها لَغْواً وَلا كِذّاباً . جَزاءً مِنْ رَبِّكَ عَطاءً حِساباً ﴾ والقرآن مملوء من هذا ، ولم يجيء فيه موضع واحد باطلاق الوعد بالثواب للظالم لنفسه أصلا ،

قالوا : وأيضا فلم يجيء فى القرآن ذكر الظالم لنفسه إلا فى معرض الوعيد لا الوعد ، كقوله تعالى (الزخرف ٧٤ - ٧٦) : ﴿ إنَّ المُجْرِمينَ فى عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُون . لا يُفتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فيه مُبْلِسُون . وما ظَلَمْناهُمْ وَلَكِنْ كانُوا هُمُ الظّالِمين ﴾ وقوله (سبأ ١٩) : ﴿ فقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحاديثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّق ﴾ وقوله (النحل ١١٨) : ﴿ وما ظَلَمْناهُمْ وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون ﴾ قالوا : وأيضا فالظالم لنفسه هو الذى خفت موازينه ورجحت سيئاته ، والقرآن كله يدل على خسارته وأنه غير ناج كقوله تعالى (الأعراف ٨-٩) : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون . وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُون ﴾ وقوله (القارعة ٨ - ٩) : ﴿ وأَمّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُمُّهُ هاوِيَة ﴾ فكيف يذكر وعده بجناته وكرامته للظالمين أنفسهم الخفيفة موازينهم ؟ قالوا : وأيضا فقوله تعالى : ﴿ جنات عدن ﴾ مرفوع لأنه بدل من قوله ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ وهو بدل نكرة من معرفة كقوله (العلق ١٥ - ١٦) : ﴿ لَنَسْفَعاً بالناصِيَة ، ناصِيَةٍ كاذِبَة ﴾ وحسن وقوعه مجيء النكرة موصوفة لتخصيصها بالوصف وقربها من المعرفة ، ومعلوم أن المبدل منه وهو ﴿ الفضل الكبير ﴾ مختص بالسابقين بالخيرات ، والمعنى أن سبقهم بالخيرات باذنه (١) ذلك هو الفضل الكبير وهو جنات عدن يدخلونها ، وجعل السبق بالخيرات نفس الجنات لأنه سببها وموجبها . قالوا : وأيضا فانه وصف حليتهم فيها بأنها أساور من ذهب ولؤلؤ ، وهذه جنات السابقين لا جنات المقتصدين ، فان جنات الفردوس أربع كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما . وما بين القوم وبين أن ينظروا الى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن » ومعلوم أن الجنتين الذهبيتين أعلى وأفضل من الفضيتين فاذا كانت الجنتان الذهبيتان للظالمين لأنفسهم فمن يسكن الجنتين الفضيتين ؟ فعلم أن هذه الجنات المذكورة لا تتناول الظالمين لأنفسهم . قالوا : وأيضا فان أقرب المذكورات الى ضمير الداخلين

---

(١) بياض فى الأصل

هم السابقون بالخيرات فوجب اختصاصهم بالدخول الى الجنات المذكورات . قالوا : وفى اختصاصهم ـ بعد ذكر الأقسام ـ بذكر ثوابهم والسكوت عن الآخرين ما هو معلوم من طريقة القرآن إذ يصرح بذكر ثواب الأبرار والمتقين والمخلصين والمحسنين ومن رجحت حسناتهم ، ويذكر عقاب الكفار والفجار والظالمين لانفسهم ومن خفت موازينهم ، ويسكت عن القسم الذى فيه شائبتان وله مادتان ، هذه طريقة القرآن كقوله (الانفطار ١٣ - ١٤) : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ وقوله (النازعات ٣٧-٤١) : ﴿ فأَمَّا مَنْ طَغَى ، وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا ، فَانَّ الجحِيمَ هِىَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَانَّ الْجَنَّةَ هىَ الْمَأْوَى ﴾ وهذا كثير فى القرآن . قالوا : وفى السكوت عن شأن صاحب الشائبتين تحذير عظيم وتخويف له بأن أمره مرجأ الى الله وليس عليه ضمان ولا له عنده وعد ، وليحذر كل الحذر وليبادر بالتوبة النصوح التى تلحقه بالمضمون لهم النجاة والفلاح . قالوا : وأيضا فمن المحال أن يقع على أحد من المصطفين اسم الظالم مطلقا ، وإنما يقع اسم الظلم مطلقا على الكافر ، كما قال تعالى (البقرة ٢٥٤) : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ ولا خُلَّةٌ ولا شَفاعَةٌ والْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُون ﴾ وقال (الشورى ٨) : ﴿ والظَّالِمونَ ما لَهُمْ مِنْ وَلِىٍّ وَلا نَصِير ﴾ مع قوله (البقرة ٢٥٧) : ﴿ اللّهُ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ والظالم لا ولىّ له فلا يكون من المؤمنين . قالوا : وأيضا فمن تدبر الآيات وتأمل سياقها وجدها قد استوعبت جميع أقسام الخلق ، ودلت على مراتبهم فى الجزاء ، فذكر سبحانه أن الناس نوعان : ظالم ، ومحسن . ثم قسم المحسن الى قسمين : مقتصد ، وسابق ثم ذكر جزاء المحسن ، فلما فرغ منه ذكر جزاء الظالم فقال (فاطر ٣٦) : ﴿ والَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ولا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها ، كَذٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُور ﴾ وقال (الانبياء ٢٩) : ﴿ ومَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّى إِلٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِى الظالمين ﴾ فذكر أنواع العباد وجزاءهم . قالوا : وأيضا فهذه طريقة القرآن فى ذكر أصناف الخلق الثلاثة كما ذكرهم الله تعالى فى سورة

الواقعة والمطففين وسورة الانسان ، فاما سورة الواقعة فذكرهم فى أولها وفى آخرها فقال فى أولها (٧ - ١٢) : ﴿ وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً : فَأَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ ما أَصْحابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ ما أَصْحابُ الْمَشْأَمَةِ ، والسَّابِقُونَ السَّابِقُون ، أُولئِكَ الْمُقَرَّبُون ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ فأصحاب المشأمة هم الظالمون . وأما أصحاب اليمين فقسمان : أبرار وهم أصحاب الميمنة ، وسابقون وهم المقربون . وفى آخرها (٨٨ - ٩٤) : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ ورَيْحانٌ وَجَنَّةُ نَعِيم . وَأَمَّا إِنْ كان مِنْ أَصْحابِ الْيَمِين ، فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحابِ الْيَمِين . وأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّين ، فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيم ، وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ فذكر حالهم فى القيامة الكبرى فى أول السورة ، ثم ذكر حالهم فى القيامة الصغرى فى البرزخ فى آخر السورة ، ولهذا قدم قبله ذكر الموت ومفارقة الروح فقال (٨٣ - ٨٧) : ﴿ فَلَوْلا إِذا بَلَغَتِ الْحُلْقُوم ، وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُون ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ولٰكِنْ لا تُبْصِرُون . فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِين ، تَرْجِعُونَها إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين ﴾ ثم قال (٨٨) : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِين ﴾ الى آخرها . وأما فى أولها فذكر أقسام الخلق عقب قوله (١ - ٧) : ﴿ إِذا وَقَعَتِ الْواقِعَة ، لَيْسَ لِوَقْعَتِها كاذِبَة ، خافِضَةٌ رافِعَة . وإِذا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وبُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا ، فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا . وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً ﴾ وأما سورة الانسان فقال (٤) : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَلاسِلَ وأَغْلالاً وسَعِيرا ﴾ فهؤلاء الظالمون أصحاب المشأمة ، ثم قال (٥) : ﴿ إِنَّ الْأَبْرار يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً ﴾ فهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين ، ثم قال (٦) : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِها عِبادُ اللهِ يُفَجِّرُونَها تَفْجِيرا ﴾ فهؤلاء المقربون السابقون ، ولهذا خصهم بالإضافة اليه ، وأخبر أنهم يشربون بتلك العين صرفا محضا ، وأنها تمزج للابرار مزجا كما قال فى سورة المطففين (٢٧ - ٢٨) فى شراب الأبرار ﴿ ومِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيم ، عَيْناً يَشْرَبُ بِها الْمُقَرَّبُون ﴾ وقال يشرب « بها » المقربون ولم يقل « منها » إشعارا بأن شربهم بالعين نفسها خالصة لا بها وبغيرها ، فضمن

« يشرب » معنى يروى ، فعدّى بالباء ، وهذا ألطف مأخذا وأحسن معنى من أن يجعل الباء بمعنى من ويضمن يشرب الفعل معنى فعل آخر فيتعدى تعديته ، وهذه طريقة الحذاق من النحاة وهى طريقة سيبويه وأئمة أصحابه ، وقال فى الأبرار (الانسان ٥) : ﴿ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً ﴾ لأن شرب المقربين لما كان أكمل استعير له الباء الدالة على شرب الرى بالعين خالصة ، ودلالة القرآن ألطف وأبلغ من أن يحيط بها البشر . وقال تعالى فى سورة المطففين (٧ - ١٧) : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ، وَما أَدْراكَ ما سِجِّينٌ ، كِتابٌ مَرْقُومٌ ـ الى قوله ـ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصالُوا الْجَحِيمِ ، ثُمَّ يُقالُ هٰذا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُون ﴾ فهؤلاء الظالمون أصحاب الشمال ثم قال (١٨ - ١٩) : ﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتابَ الأَبْرارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ، وَما أَدْراكَ ما عِلِّيُّون ﴾ فهؤلاء الأبرار المقتصدون ، وأخبر أن المقربين يشهدون كتابهم ـ أى يكتب بحضرتهم ومشهدهم ـ لا يغيبون عنه ، اعتناء به وإظهارا لكرامة صاحبه ومنزلته عند ربه . ثم ذكر سبحانه نعيم الأبرار ومجالستهم ونظرهم إلى ربهم وظهور نضرة النعيم فى وجوههم ، ثم ذكر شرابهم فقال (٢٥ - ٢٦) : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ، خِتامُهُ مِسْكٌ وفِي ذٰلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُون ﴾ ثم قال (٢٧-٢٨) ﴿ وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ، عَيْناً يَشْرَبُ بِها الْمُقَرَّبُون ﴾ والتسنيم أعلى أشربة الجنة ، فأخبر سبحانه أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم ، وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج ، ولهذا قال : ﴿ عَيْناً يَشْرَبُ بِها الْمُقَرَّبُون ﴾ كما قال تعالى فى سورة الانسان سواء ، قال ابن عباس وغيره : يشرب بها المقربون صرفا ، ويمزج لأصحاب اليمين مزجا . وهذا لأن الجزاء وفاق العمل ، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم ، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم ، فمن أخلص أخلص شرابه ، ومن مزج مزج شرابه

يالاهيا فى غمرة الجهل والهوى   صريعا على فرش الردى يتقلب
تأمل ـ هداك الله ـ ما ثم وانتبه   فهذا شراب القوم حقا يركب
وتركيبه فى هذه الدار إن تفت   فليس له بعد المنية مطلب

فيا عجبا من معرض عن حياته وعن حظه العالى ويلهو ويلعب
ولو علم المحروم أى بضاعة أضاع لأمسى قلبه يتلهب
فان كان لا يدرى فتلك مصيبة وإن كان يدرى فالمصيبة أصعب
بلى سوف يدرى حين ينكشف الغطا ويصبح مسلوبا ينوح ويندب
ويعجب ممن باع شيئا بدون ما يساوى بلا علم وأمرك أعجب
لانك قد بعت الحياة وطيبها بلذة حلم عن قليل سيذهب
فهلا عكست الأمر إن كنت حازما ولكن أضعت الحزم والحكم يغلب
تصد وتنأى عن حبيبك دائما فاين عن الاحباب ويحك تذهب
ستعلم يوم الحشر أى تجارة أضعت إذا تلك الموازين تنصب

قالوا : فهكذا هذه الآيات التى فى سورة الملائكة ذكر فيها الأقسام الثلاثة : الظالم لنفسه وهو من أصحاب الشمال ، وذكر المقتصد وهو من أصحاب اليمين ، وذكر السابقين وهم المقربون . قالوا : وليس فى الآية ما يدل على اختصاص الكتاب بالقرآن والمصطفين بهذه الأمة ، بل الكتاب اسم جنس للكتب التى أنزلها على رسله ، فانه أورثها المصطفين من عباده من كل أمة ، والأنبياء هم الذين أورثوه أولا ثم أورثوه المصطفين من أممهم بعدهم ، قال تعالى (غافر ٥٣ - ٥٤) : ﴿ ولَقَدْ آتَينْا مُوسَى الهُدَى وأَوْرَثْنا بنى إسرائيلَ الكِتابَ ، هُدًى وذِكْرَى لِأُولِى الْأَلْباب ﴾ فاخبر أنه إنما يكون هدى وذكرى لمن له لب عقل به الكتاب وعمل بما فيه ، والعامل بما فيه هو الذى أورثه الله علمه . وتأمل قوله تعالى (الشورى ١٤) : ﴿ وَانَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الكِتابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ مُرِيب ﴾ كيف حذف الفاعل هنا وبنى الفعل للمفعول لما كان فى معرض الذم لهم ونفى العلم عنهم ، ولما كان فى سياق ذكر نعمه وآلائه ومنته عليهم قال (غافر ٥٣) : ﴿ وأَوْرَثْنا بَنِى إسْرائيلَ الكِتابَ ﴾ ونظير هذه الآية (فاطر ٣٢) : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا الكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ﴾ ومن ذلك قوله (الاعراف ١٦٩) ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذا الأَدْنىٰ ويَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنا وَإنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوه ﴾ وانه لما كان الكلام فى سياق ذمهم على اتباعهم شهواتهم وإيثارهم العرض الفانى على حظهم من الآخرة وتماديهم فى ذلك لم

ينسب التوريث اليه ، بل نسبه الى المحل فقال أورثوا الكتاب ولم يقل أو رثناهم الكتاب . وقد ذكرت نظير هذا فى قوله ﴿ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ ﴾ أنه للمدح ، وأورثوا الكتاب إما فى سياق الذم ، وإما منقسم فى كتاب (التحفة المكية) . والمقصود أن الذين أورثهم الكتاب هم المصطفون من عباده أولا وآخراً ، قالوا : وقوله تعالى ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِه ﴾ لا يرجع الى المصطفين ، بل إما أن يكون الكلام قد تم عند قوله ﴿ مِنْ عِبادِنا ﴾ ثم استأنف جملة أخرى وذكر فيها أقسام العباد وأنهم منهم ظالم ومنهم مقتصد ومنهم سابق . ويكون الكلام جملتين مستقلتين : بين فى إحداهما أنه أورث كتابه من اصطفاه من عباده ، وبين فى الأخرى أن من عباده ظالما ومقتصدا وسابقا . وإما أن يكون المعنى تقسيم المرسل اليهم بالنسبة الى قبول الكتاب وأن منهم من لم يقبله وهو الظالم لنفسه ، ومنهم من قبله مقتصدا فيه ، ومنهم من قبله سابقا بالخيرات باذن الله ، قالوا : والذى يدل على هذا الوجه أنه سبحانه ذكر إرساله فى كل أمة نذيرا ممن تقدم هذه الأمة فقال (فاطر ٢٤) : ﴿ وإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خَلا فيها نَذير ﴾ ثم ذكر (٢٥) أن رسلهم جاءتهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير ، الآيات الدالة على صدقهم وصحة رسالاتهم ، والزبر الكتاب واحدها زبور بمعنى مزبور أى مكتوب ، الكتاب المنير من باب عطف الخاص على العام لتميزه عن المسمى العام بفضله وشرفه امتاز بها واختص بها عن غيره ، وهو كعطف جبريل وميكال على الملائكة ، وكعطف أولى العزم على النبيين من قوله (الاحزاب ٧) : ﴿ وإذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّنَ مِيثاقَهُمْ ومِنْكَ ومِنْ نُوحٍ وإبْراهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى بنِ مَرْيَمَ ﴾ والكتاب المنير هنا التوراة والانجيل . ثم ذكر إهلاك المكذبين لكتابه ورسله فقال (فاطر ٢٦) : ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذينَ كَفَرُوا ، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ ﴾ ثم ذكر التالين لكتابه وهم المتبعون له العاملون بشرائعه فقال (فاطر ٢٩ - ٣٠) : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وأنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرّاً وعَلانيةً يَرْجُونَ تِجارةً لنْ تَبُور . لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ويَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إنه غَفُورٌ شَكُور ﴾ ثم ذكر الكتاب الذى خص به خاتم أنبيائه ورسله محمدا فقال (٣١) : ﴿ والَّذى أوْحَيْنا إلَيْكَ مِنَ الكِتابِ هُوَ الحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ ، إنَّ اللهَ بِعِبادِهِ

خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾ ثم ذكر من أورثهم الكتاب بعد أولئك وأنه اصطفاهم لتوريث كتابه إذ رده المكذبون ولم يقبلوا توريثه

قالوا : وأما قولكم ان الاصطفاء افتعال من الصفوة وهى الخيار ، وهى إنما تكون فى السعداء ، فهذا بعينه حجة لنا فى أن الظالم لنفسه ليس ممن اصطفاه الله من عباده وقد تقدم تقريره . قالوا : وأما الآثار التى رويتموها عن النبى ﷺ فى ذلك فكلها ضعيفة الأسانيد ومنقطعة لا تثبت ، كيف وهى معارضة بآثار مثلها أو أقوى منها ، قال ابن مردويه فى تفسيره : حدثنا الحسن بن عبد الله حدثنا صالح بن أحمد حدثنا أحمد بن محمد ابن المعلى الأدمى حدثنا حفص بن عمار حدثنا مبارك بن فضالة عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ قال : الكافر . قالوا : وأما النصوص الدالة على أن أهل التوحيد يدخلون الجنة فصحيحة لا ننازعكم فيها ، غير أنها مطلقة ، ولها شروط وموانع ، كما أن النصوص الدالة على عذاب أهل الكبائر صحيحة متواترة ، ولها شروط وموانع يتوقف لحوق الوعيد عليها ، فكذلك نصوص الوعد يتوقف مقتضاها على شروطها وانتفاء موانعها . قالوا : وأما قولكم إن ظلم النفس إنما يراد به ظلمها بالذنوب والمعاصى دون الكفر فليس بصحيح ، فقد ذكر فى القرآن ما يدل على أن ظلم النفس يكون بالكفر والشرك ، ولو لم يكن فى هذا إلا قول موسى (البقرة ٥٤) : ﴿ يا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ ﴾ وقوله عز وجل (سبأ ٢٠) : ﴿ وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ ونظائره كثيرة . قالت الطائفة الأولى : لو تدبرتم القرآن حق تدبره ، وأعطيتم الآيات حقها من الفهم ، وراعيتم وجوهه الدالة وسياق الكلام ، لعلمتم أن الصواب معنا وأن هذا التقسيم الذى دلت عليه أخص من التقسيم المذكور فى سورة الواقعة والانسان والمطففين ، فان ذلك تقسيم للناس الى شقى وسعيد ، وتقسيم السعداء الى أبرار ومقربين ، وتلك القسمة خالية عن ذكر العاصى الظالم لنفسه ، وأما هذه الآيات ففيها تقسيم الأمة الى محسن ومسىء ، فالمسىء هو الظالم لنفسه ، والمحسن نوعان مقتصد وسابق بالخيرات ، فان الوجود شامل لهذا القسم ، بل هو أغلب أقسام الأمة ، فكيف يخلو القرآن عن

ذكره وبيان حكمه . ثم لما استوفى أقسام الأمة ذكر الخارجين عنهم وهم الذين كفروا فعمت الآية أقسام الخلق كلهم ، وعلى ما ذهبتم اليه تكون الآية قد أهملت ذكر القسم الأغلب الأكثر ، وكررت ذكر حكم الكافر أولا وآخرا . ولا ريب أن ما ذكرناه أولى لبيان هذا القسم وعموم الفائدة ، وأيضا فان قوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ﴾ صريح فى أن الذين أورثهم الكتاب هم المصطفون من عباده ، وقوله عز وجل ﴿ فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِه ﴾ إما أن يرجع الى الذين اصطفاهم وإما أن يرجع الى العباد ، ورجوعه الى الذين اصطفاهم لوجهين : أحدهما أن قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ . وَمِنْهُمْ سابِقٌ ﴾ انما يرجع الى المصطفين لا الى العباد فكذلك قوله تعالى ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسه ﴾ ، ولا يقال : بل الضمائر كلها تعود على العباد لان سياق الآية والإتيان بالفاء والتقسيم المذكور كله يدل على أن المراد بيان أقسام الوارثين للكتاب لا بيان أقسام العباد ، إذ لو أراد ذلك لأتى بلفظ يزيل الوهم ولا يلتبس به المراد بغيره ، وكأن وجه الكلام على هذا أن يقال : ومن عبادنا ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا منهم ، وهذا معنى الكلام عندكم ، ولا ريب أن سياق الآية لا يدل عليه ، إنما يدل على أنه أورث الكتاب طائفة من عباده وان تلك الطائفة ثلاثة أقسام ، هذا وجه الكلام الذى يدل عليه ظاهره . الثانى أنك إذا قلت : أعطيت مالى البالغين من أولادى فمنهم تاجر ومنهم خازن ومنهم مبذر ومسرف ، هل يفهم من هذا أحد قط أن هذا التقسيم لجملة أولاده ، بل لا يفهم منه إلا أن أولاده كانوا فى أخذهم المال أقساما ثلاثة ، ولهذا أتى فيها بالفاء الدالة على تفصيل ما أجمله أولا كما إذا قلت : خذ هذا المال فأعط فلانا كذا وأعط فلانا كذا ، ونظائره متعددة ، ولا وجه للإتيان بالفاء ههنا إلا تفصيل المذكور أولا ، لا تفصيل المسكوت عنـــه ، والآية قد سكتت عن تفصيل العباد الذين اصطفى منهم من أورثه الكتاب ، فالتفصيل للمذكور ليس إلا ، فتأمله فانه واضح . قالوا : وأما قولكم ان الله لا يصطفى من عباده ظالما لنفسه لأن الاصطفاء هو الاختيار من الشيء صفوته وخياره الى آخر ما ذكرتم ، فجوابه أن كون العبد مصطفى لله ووليا لله ومحبوبا لله ونحو ذلك من الاسماء الدالة على شرف منزلة العبد وتقريب الله له لا ينافى ظلم العبد نفسه أحيانا بالذنوب

والمعاصى ، بل أبلغ من ذلك أن صدّيقيته لا تنافى ظلمه لنفسه ، ولهذا قال صدّيق الأمة وخيارها للنبي ﷺ : علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، فقال « قل : اللهم انى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب الا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » وقد قال تعالى (آل عمران ١٣٣ - ١٣٥) : ﴿ وسارِعُوا إلىٰ مَغْفَرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰوٰاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذينَ يُنْفِقونَ فى السَّرَّاء والضَرَّاء والكاظمينَ الغَيْظَ والعافينَ عَنِ النَّاسِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسنين . والَّذينَ إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ . وأخبر سبحانه عن صفات المتقين وأنهم يقع منهم ظلم النفس والفاحشة لكن لا يصرون على ذلك ، وقال تعالى (الزمر ٣٣ - ٣٥) : ﴿ وَالَّذى جاء بالصِّدْق وَصَدَّق به أُولٰئكَ هُمُ المُتَّقُونَ ، لَهُمْ ما يَشاءونَ عندَ رَبِّهِمْ ذٰلكَ جَزاءُ الْمُحْسِنينَ . لِيُكَفِّرَ اللهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بأَحْسَنِ الَّذى كانُوا يَعْمَلُون ﴾ فهؤلاء الصديقون المتقون قد أخبر سبحانه أن لهم أعمالا سيئة يكفرها ، ولا ريب أنها ظلم للنفس ، وقال موسى (القصص ١٦) : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسى فَاغْفِرْ لى فَغَفَرَ لهُ إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم ﴾ وقال آدم عليه السلام (الاعراف ٢٣) : ﴿ رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وإنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخاسِرِين ﴾ وقال يونس عليه السلام (الانبياء ٨٧) : ﴿ لاَ إلٰهَ إلاَّ أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظاَّلمين ﴾ وقال تعالى (النمل ١٠-١١) : ﴿ إِنِّى لا يَخافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ . إلاَّ مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَحِيم ﴾ . واذا كان ظلم النفس لا ينافى الصدّيقية والولاية ، ولا يخرج العبد عن كونه من المتقين ، بل يجتمع فيه الأمران : يكون وليا لله صديقا متقيا وهو مسىء ظالم لنفسه ، علم أن ظلمه لنفسه لا يخرجه عن كونه من الذين اصطفاهم الله من عباده وأورثهم كتابه ، إذ هو مصطفى من جهة كونه من ورثة الكتاب علما وعملا ، ظالم لنفسه من جهة تفريطه فى بعض مما أمر به وتعديه بعض ما نهى عنه ، كما يكون الرجل وليا لله محبوبا له من جهة ومبغوضا

له من جهة أخرى ، وهذا عبد الله حمار(١) كان يكثر شرب الخمر والله يبغضه من هذه الجهة ، ويحب الله ورسوله ويحبه الله ويواليه من هذه الجهة ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن لعنته وقال : انه يحب الله ورسوله . ونكتة المسألة أن الاصطفاء والولاية والصديقية وكون الرجل من الأبرار ومن المتقين ونحو ذلك كلها مراتب تقبل التجزى والانقسام والكمال والنقصان كما هو ثابت باتفاق المسلمين فى أصل الايمان ، وعلى هذا فيكون هذا القسم مصطفى من وجه ظالما لنفسه من وجه آخر . وظلم النفس نوعان : نوع لا يبقى معه شيء من الايمان والولاية والصديقية والاصطفاء وهو ظلمها بالشرك والكفر ، ونوع يبقى معه حظه من الايمان والاصطفاء والولاية وهو ظلمها بالمعاصى ، وهو درجات متفاوتة فى القدر والوصف ، فهذا التفصيل يكشف قناع المسألة ويزيل اشكالها بحمد الله . قالوا : وأما قولكم إن قوله تعالى ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ مرفوع لانه بدل من قوله ﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾ وهو مختص بالسابقين ، وذكر حليتهم فيها من أساور من ذهب يدل على ذلك إلخ ، فجوابه من وجهين : أحدهما أن هذا بعينه وارد عليكم ، فان المقتصد من أهل الجنات ، ومعلوم أن جنات السابقين بالخيرات أعلى وأفضل من جناته ، فما كان جوابكم عن المقتصد فهو الجواب بعينه عن الظالم لنفسه ، فان التفاوت حاصل بين جنات الاصناف الثلاثة ، ويختص كل صنف بما يليق بهم ويقتضيه مقامهم وعلمهم . الجواب الثانى أنه سبحانه ذكر جزاء السابقين بالخيرات هنا مشوقا لعباده اليه منبها لهم على مقداره وشرفه ، وسكت عن جزاء الظالمين لانفسهم والمقتصدين ليحذر الظالمون ويجدّ المقتصدون ، وذكر فى سورة الانسان جزاء الأبرار منبها على ما هو أعلى وأجل منه وهو جزاء المقربين السابقين ليدل على أن هذا إذا كان جزاء للأبرار المقتصدين فما الظن بجزاء المقربين السابقين فقال (الانسان ٥ - ٢١) : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُها كافُوراً - الى قوله - ويُطافُ عَلَيهِمْ بآنِيةٍ مِنْ فِضَّةٍ وأَكْوابٍ كانَتْ قَوارِيرَ قَوارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ - الى قوله - عالِيَهُمْ ثِيابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وإسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أساوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وسَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً ﴾ فذكر

(١) ترجم له الحافظ فى الاصابة وقال : يسمى عبد الله ويلقب حمارا

هنا الأساور من الفضة والأكواب من الفضه فى جزاء الأبرار ، وذكر فى سورة الملائكة الأساور من الذهب فى جزاء السابقين بالخيرات ، فعلم جزاء المقتصدين من سورة الانسان ، وعلم جزاء السابقين من سورة الملائكة ، فانتظمت السورتان جزاء المقربين على أتم الوجوه . والله أعلم بأسرار كلامه وحكمه . قالوا : وهذا هو الجواب عن قولكم إن الضمير يختص به أقرب مذكور اليه . قالوا : وأما قولكم إن الظالم لنفسه إنما هو الكافر فقد تقدم جوابه وذكر ما يبطله ، قالوا : وأما قولكم إن هذه الآيات نظير آيات الواقعة وسورة الانسان وسورة المطففين فى تقسيم الناس الى ثلاثة أقسام : أصحاب الشمال ، وأصحاب اليمين ، والمقربون . فلا ريب أن هذه الآية وافية بالأقسام الثلاثة مع مزيد تقسيم آخر وهو تقسيم أصحاب اليمين الى ظالم لنفسه ومقتصد فهى مشتملة على تلك الاقسام وزيادة

قالوا : وأما قولكم : إن الآثار الدالة على أن الأصناف الثلاثة هم السعداء أهل الجنة ضعيفة لا تقوم بها حجة ، فجوابه : انها قد بلغت فى الكثرة الى حد يشد بعضها بعضا ويشهد بعضها لبعض ، ونحن نسوق منها آثارا غير ما ذكرناه يعلم به كثرتها وتعدد طرقها ، فروى ابن مردويه فى تفسيره من حديث سفيان عن الأعمش عن رجل عن أبى ثابت أن رجلا دخل المسجد فقال : اللهم ارحم غربتى وآنس وحشتى وسق لى جليسا صالحا . فقال أبو الدرداء : إن كنت صادقا لأنا أسعد بذلك منك ، سمعت رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ قال : أما السابق بالخيرات فيدخله الجنة بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حسابا يسيرا ، وأما الظالم لنفسه فيحبس فى المقام حتى يدخله الهم والحزن ثم يدخل الجنة . ثم قرأ هذه الآية ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ . وقد ذكرنا فيما تقدم حديث أبى ليلى عن أخيه عيسى عن أبيه عن أسامة بن زيد فى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ قال : قال رسول الله ﷺ « كلهم من هذه الأمة » . وروى ابن مردويه أيضا من حديث الفضل بن عمرة العبسى عن ميمون بن سياه عن أبى عثمان النهدى قال : سمعت عمر بن

الخطاب يقول على المنبر : سمعت رسول الله ﷺ يقول « سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له » وقرأ عمر ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات ﴾ ، وروى أيضا من حديث أبى داود عن شعبة عن الوليد بن العيزار قال سمعت رجلا من ثقيف يحدث عن رجل من كنانة عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال فى هذه الآية ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ﴾ قال « كلهم فى الجنة » . أو قال « كلهم بمنزلة واحدة » قال شعبة أحدهما ، ورواه داود بن ابراهيم عن شعبة به وقالوا دخلوا الجنة كلهم بمنزلة واحدة . فهذا حديث صحيح إلى شعبة واذا كان شعبة فى حديث لم يطرح ، بل شد يديك به . ورواه يحي بن سعيد عن الوليد بن العيزار فذكره بمثله ، وروى محمد بن سعد[1] عن أبيه عن عمه حدثنا أبى عن أبيه عن ابن عباس فى قوله عز وجل ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ الآية قال : جعل الله أهل الإيمان على ثلاث منازل كقوله وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين والسابقون السابقون أولئك المقربون فهم على هذا المثال . قلت : يريد ابن عباس أن الله قسم أصحاب اليمين الى ثلاث منازل كما قسم الخلق فى الواقعة الى ثلاث منازل ، فان أصحاب الشمال المذكورين فى الواقعة هم الكفار المنكرون للبعث ، فكيف تكون هذه منزلة من منازل أهل الايمان ؟ ويجوز أن يريد أن الظالمين لأنفسهم المستحقين للعذاب هم من أهل الشمال ، ولكن إيمانهم يجعلهم آخرا من أهل اليمين . وروى من حديث معاوية بن صالح عن على بن أبى طالب [2] عن ابن عباس فى هذه الآية قال : هم أمة محمد ، ورثهم الله كل كتاب أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حسابا يسيرا ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب . وروى من حديث عثمان بن أبى شيبة حدثنا الحسن بن عبد الرحمن بن أبى ليلى حدثنا عمران بن محمد بن أبى ليلى حدثنا أبى عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن البراء بن عازب ـ أو عن رجل عن البراء بن عازب ـ قال : قال رسول الله ﷺ ﴿ فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ قال « كلهم ناج وهى هذه الأمة » . ورواه الفريابى حدثنا سفيان عن أبى ليلى عن الحكم عن رجل حدثه عن البراء قال : قال رسول الله

(١) هو غير محمد بن سعد صاحب الطبقات ، وقد ضعفوا سنده هذا (٢) هنا بياض فى الأصل

صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ﴾ الآية قال « كل ناج » . وقال آدم بن أبي اياس حدثنا أبو فضالة عن الأزهرى عبد الله الخزاز حدثنا من سمع عثمان بن عفان يقول : ألا إن سابقنا أهل جهادنا ، ألا وإن مقتصدنا أهل حضرنا ، ألا وإن ظالمنا أهل بدونا . وقد تقدم حديث عائشة وأبى الدرداء وحذيفة . قالوا : فهذه الآثار يشد بعضها بعضا ، وانها قد تعددت طرقها واختلفت مخارجها ، وسياق الآية يشهد لها بالصحة فلا نعدل عنها

والمقصود الكلام على مراحل العالمين وكيفية قطعهم إياها ، فلنرجع اليه فنقول : أما الأشقياء فقطعوا تلك المراحل سائرين إلى دار الشقاء متزودين غضب الرب سبحانه ومعاداة كتبه ورسله وما بعثوا به ، ومعاداة أوليائه والصد عن سبيله ، ومحاربة من يدعو الى دينه ، ومقاتلة الذين يأمرون بالقسط من الناس ، وإقامة دعوة غير دعوة الله التى بعث بها رسله لتكون الدعوة له وحده ، فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل أعمارهم فى ضد مايحبه الله ويرضاه . وأما السائرون اليه فظالمهم قطع مراحل عمره فى غفلاته وإيثار شهواته ولذاته على مراضى الرب سبحانه وأوامره ، مع ايمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر ، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه ، يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع الى الله . فهذا حال المسلم . وأما من زين له سوء عمله فرآه حسنا وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع الى الله والانابة اليه أصلا ، فهذا لا يكاد اسلامه أن يكون صحيحا أبدا ، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الايمان ، ونعوذ بالله من الخذلان

وأما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام باقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه ، فهممهم مصروفة الى القيام بالأعمال الصالحة واجتناب الأعمال القبيحة ، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق الى قلبه القيام الى الوضوء والصلاة كما أمره الله ، فاذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار الى حين تطلع الشمس فيركع الضحى ، ثم ذهب الى ما أقامه الله فيه من الأسباب ، فاذا حضر فرض الظهر بادر الى التطهر والسعى الى الصف الاول من المسجد فأدى فريضته كما أمر مكملا لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور

بين يدى الرب ، فينصرف من الصلاة وقد أثرت فى قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارا تبدو على صفحاته ولسانه وجوارحه ، ويجد ثمرتها فى قلبه من الانابة الى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور وقلة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها ، قد نهته صلاته عن الفحشاء والمنكر ، وحببت اليه لقاء الله ونفرته من كل قاطع يقطعه عن الله ، فهو مغموم مهموم كأنه فى سجن حتى تحضر الصلاة ، فاذا حضرت قام الى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه ، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة . هذا وهم فى ذلك كله مراعون لحفظ السنن لا يخلون منها بشىء ما أمكنهم ، فيقصدون من الوضوء أكمله ، ومن الوقت أوله ، ومن الصفوف أولها عن يمين الإمام أو خلف ظهره ، ويأتون بعد الفريضة بالأذكار المشروعة كالاستغفار ثلاثا . وقول « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام » . وقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد . لا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » . ثم يسبحون ويحمدون ويكبرون تسعا وتسعين ، ويختمون المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير . ومن أراد المزيد قرأ آية الكرسى والمعوذتين عقيب كل صلاة فان فيها أحاديث رواها النسائى وغيره ، ثم يركعون السنة على أحسن الوجوه . هذا دأبهم فى كل فريضة . فاذا كان قبل غروب الشمس توفروا على أذكار المساء الواردة فى السنة نظير أذكار الصباح الواردة فى أول النهار لا يخلون بها أبدا ، فاذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الرب سبحانه التى قسمها بين عباده ، فاذا أخذوا مضاجعهم أتوا باذكار النوم الواردة فى السنة ، وهى كثيرة تبلغ نحوا من أربعين ، فيأتون منها بما علموه وما يقدرون عليه من قراءة سورة الإخلاص والمعوذتين ثلاثا ثم يمسحون بها رءوسهم ووجوههم وأجسادهم ثلاثا ويقرأون آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة ويسبحون ثلاثا وثلاثين ويحمدون ثلاثا وثلاثين ويكبرون أربعا وثلاثين ، ثم يقول أحدهم : اللهم إنى أسلمت نفسى اليك ، ووجهت وجهى اليك ، وفوضت أمرى اليك ، وألجأت ظهرى اليك ، رغبة ورهبة اليك ،

لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك . آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت . وان شاء قال : باسمك ربى وضعت جنبي وبك أرفعه ، فان أمسكت نفسى فاغفر لها ، وان أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين . وان شاء قال : اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، ربى ورب كل شيء ، فالق الحب والنوى ، منزل التوراة والانجيل والفرقان ، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها ، أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء ، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء ، وأنت الباطن فليس دونك شيء ، اقض عنى الدين وأغننى من الفقر . وبالجملة فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله ، فهذا منامه عبادة وزيادة له فى قربه من الله . فاذا استيقظ عاد الى عادته الأولى ، ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من عيادة المرضى وتشييع الجنائز وإجابة الدعوة والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس والمال وزيارتهم وتفقدهم ، وقائم بحقوق أهله وعياله ، فهو متنقل فى منازل العبودية كيف نقله فيها الأمر ، فاذا وقع منه تفريط فى حق من حقوق الله بادر الى الاعتذار ، والتوبة والاستغفار ، ومحوه ومداواته بعمل صالح يزيل أثره ، فهذا وظيفته دائما

وأما السابقون المقربون فنستغفر الله الذى لا إله إلا هو أولا من وصف حالهم وعدم الاتصاف به ، بل ما شممنا له رائحة . ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم بها وان كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم ، ففى معرفة حال القوم فوائد عديدة : منها أن لا يزال المتخلف المسكين مزريا على نفسه ذاماً لها . ومنها أن لا يزال منكسر القلب بين يدى ربه تعالى ذليلا له حقيرا يشهد منازل السابقين وهو فى زمرة المنقطعين ، ويشهد بضائع التجار وهو فى رفقة المحرومين . ومنها أنه عساه أن تنهض همته يوما الى التشبث والتعلق بساقة القوم ولو من بعيد . ومنها أنه لعله أن يصدق فى الرغبة واللجأ الى من بيده الخير كله أن يلحقه بالقوم ويهيئه لأعمالهم فيصادف ساعة إجابة لا يسأل الله فيها شيئا إلا أعطاه . ومنها أن هذا العلم هو من أشرف علوم العباد ، وليس بعد علم التوحيد أشرف منه ، وهو لا يناسب إلا النفوس الشريفة ولا يناسب النفوس الدنيئة المهينة ، فاذا رأى نفسه تناسب هذا العلم وتشتاق اليه وتحبه وتأنس بأهله فليبشر بالخير فقد أهل له ، فليقل لنفسه : يا نفس فقد حصل لك شطر

السعادة فاحرصى على الشطر الآخر ، فان السعادة فى العلم بهذا الشأن والعمل به ، فقد قطعت نصف المسافة فهلا تقطعين باقيها فتفوزين فوزا عظيما . ومنها أن العلم بكل حال خير من الجهل ، فاذا كان اثنان أحدهما عالم بهذا الشأن غير موصوف به ولا قائم به ، وآخر جاهل به غير متصف به فهو خلو من الأمرين ، فلا ريب أن العالم به خير من الجاهل ، وإن كان العالم المتصف به خيرا منهما فينبغى أن يعطى كل ذى حق حقه وينزل فى مرتبته . ومنها أنه اذا كان العلم بهذا الشأن همه ومطلوبه فلا بد أن ينال منه بحسب استعداده ولو لحظة ، ولو بارقة ، ولو أنه يحدث نفسه بالنهضة اليه . ومنها أنه لعله يجرى منه على لسانه ما ينتفع به غيره بقصده أو بغير قصده ، والله لا يضيع مثقال ذرة فعسى أن يرحم بذلك العامل . وبالجملة ففوائد العلم بهذا الشأن لا تنحصر ، فلا ينبغى أن تصغى الى من يثبطك عنه وتقول : إنه لا ينفع ، بل احذره واستعن بالله ولا تعجز ولكن لا تغتر ، وفرق بين العلم والحال ، وإياك أن تظن أن بمجرد علم هذا الشأن قد صرت من أهله ، هيهات ما أظهر الفرق بين العلم بوجوه الغنى وهو فقير وبين الغنى بالفعل ، وبين العالم بأسباب الصحة وحدودها وهو سقيم وبين الصحيح بالفعل . فاسمع الآن وصف القوم وأحضر ذهنك لشأنهم العجيب وخطرهم الجليل ، فان وجدت من نفسك حركة وهمة الى التشبه بهم فاحمد الله وادخل فالطريق واضح والباب مفتوح

اذا أعجبتك خصال امرئ ... فكنه تكن مثل ما يعجبك
فليس على الجود والمكرما ... ت اذا جئتها حاجب يحجبك

فنبأ القوم عجيب ، وأمرهم خفى إلا على من له مشاركة مع القوم ، فانه يطلع من حالهم على ما يريه إياه القدر المشترك . وجملة أمرهم أنهم قوم قد امتلأت قلوبهم من معرفة الله ، وغمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته ، فسرت المحبة فى أجزائهم فلم يبق فيها عرق ولا مفصل إلا وقد دخله الحب . قد أنساهم حبه ذكر غيره ، وأوحشهم أنسهم به ممن سواه . قد فنوا بحبه عن حب من سواه ، وبذكره عن ذكر من سواه ، وبخوفه ورجائه والرغبة اليه والرهبة منه والتوكل عليه والانابة اليه والسكون اليه والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذلك منهم بغيره . فاذا وضع أحدهم جنبه على مضجعه صعدت أنفاسه الى إلهه ومولاه ، واجتمع همه عليه متذكرا صفاته العلى

وأسماءه الحسنى ، مشاهدا له فى أسمائه وصفاته ، قد تجلت على قلبه أنوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته ، فبات جسمه فى فراشه يتجافى عن مضجعه ، وقلبه قد أوى الى مولاه وحبيبه فآواه اليه ، وأسجده بين يديه خاضعا خاشعا ذليلا منكسرا من كل جهة من جهاته . فيالها سجدة ما أشرفها من سجدة ، لا يرفع رأسه منها الى يوم اللقاء . وقيل لبعض العارفين : أيسجد القلب بين يدى ربه ؟ قال : أى والله ، بسجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم القيامة . فشتان بين قلب يبيت عند ربه قد قطع فى سفره اليه بيداء الأكوان ، وخرق حجب الطبيعة ، ولم يقف عند رسم ، ولا سكن الى علم ، حتى دخل على ربه فى داره فشاهد عز سلطانه وعظمة جلاله وعلو شأنه وبهاء كماله ، وهو مستو على عرشه يدبر أمر عباده وتصعد اليه شئون العباد وتعرض عليه حوائجهم وأعمالهم ، فيأمر فيها بما يشاء ، فينزل الأمر من عنده نافذا كما أمر ، فيشاهد الملك الحق قيوما بنفسه مقيما لكل ما سواه غنيا عن كل من سواه وكل من سواه فقير اليه ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فى السَّمٰوٰاتِ والْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فى شَأْنٍ ﴾ (الرحمن ٢٩) : يغفر ذنبا ويفرج كربا ويفك عانيا وينصر ضعيفا ويجبر كسيرا ويغنى فقيرا ويميت ويحيى ويسعد ويشقى ويضل ويهدى وينعم على قوم ويسلب نعمته عن آخرين ويعز أقواما ويذل آخرين ويرفع أقواما ويضع آخرين . ويشهده كما أخبر عنه أعلم الخلق به وأصدقهم فى خبره حيث يقول فى الحديث الصحيح : يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق فانه لم يغض مافى يمينه . وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع ، فيشاهده كذلك يقسم الأرزاق ويجزل العطايا ويمن بفضله على من يشاء من عباده بيمينه ، وباليد الأخرى الميزان يخفض به من يشاء ويرفع به من يشاء عدلا منه وحكمة لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، فيشهده وحده القيوم بأمر السموات والأرض ومن فيهن ، ليس له بواب فيستأذن ، ولا حاجب فيدخل عليه ، ولا وزير فيؤتى ، ولا ظهير فيستعان به ، ولا ولى من دونه فيشفع به اليه ، ولا نائب عنه فيعرفه حوائج عباده ، ولا معين له فيعاونه على قضائها . أحاط سبحانه بها علما ووسعها قدرة ورحمة ، فلا تزيده كثرة الحاجات إلا جودا وكرما ، ولا يشغله منها شأن عن شأن ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بالحاح الملحين . لو اجتمع أول خلقه وآخرهم وإنسهم وجنهم وقاموا فى

صعيد واحد ثم سألوه فأعطى كلا منهم مسألته ما نقص ذلك مما عنده ذرة واحدة إلا كما ينقص المخيط البحر إذا غمس فيه . ولو أن أولهم وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد ذلك فى ملكه شيئا ، ذلك بأنه الغنى الجواد الماجد ، فعطاؤه كلام وعذابه كلام ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس ٨٢) . ويشهده كما أخبر عنه أيضا الصادق المصدوق حيث يقول « ان الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع اليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه » . وبالجملة فيشهده فى كلامه فقد تجلى سبحانه وتعالى لعباده فى كلامه وتراءى لهم فيه وتعرف اليهم فيه ، فبعدا وتبا للجاحدين والظالمين ﴿ أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . فاذا صارت صفات ربه وأسماؤه مشهداً لقلبه أنسته ذكر غيره وشغلته عن حب من سواه وحديث دواعى قلبه الى حبه تعالى بكل جزء من أجزاء قلبه وروحه وجسمه ، فحينئذ يكون الرب سبحانه سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها : فبه يسمع ، وبه يبصر ، وبه يبطش ، وبه يمشى . كما أخبر عن نفسه على لسان رسوله . ومن غلظ حجابه وكثف طبعه وصلب عوده فهو عن فهم هذا بمعزل ، بل لعله أن يفهم منه ما لا يليق به تعالى من حلول أو اتحاد ، أو يفهم منه غير المراد منه فيحرف معناه ولفظه ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ (سورة النور ٤٠) . وقد ذكرت معنى الحديث والرد على من حرفه وغلط فيه فى كتاب (التحفة المكية) . وبالجملة فيبقى قلب العبد ـ الذى هـــذا شأنه ـ عرشا للمثل الأعلى ، أى عرشا لمعرفة محبوبه ومحبته وعظمته وجلاله وكبريائه ، وناهيك بقلب هذا شأنه فياله من قلب من ربه ما أدناه ومن قربه ما أحظاه ، فهو ينزه قلبه أن يساكن سواه أو يطمئن بغيره ، فهؤلاء قلوبهم قد قطعت الأكوان وسجدت تحت العرش وأبدانهم فى فرشهم ، كما قال أبو الدرداء : إذا نام العبد المؤمن عرج بروحه حتى تسجد تحت العرش ، فان كان طاهرا أذن لها فى السجود ، وإن كان جنبا لم يؤذن لها بالسجود . وهذا والله أعلم هو السر الذى لأجله أمر النبى ﷺ الجنب اذا أراد النوم أن يتوضأ ، وهو إما واجب على أحد القولين ،

أو مؤكد الاستحباب على القول الآخر ، فان الوضوء يخفف حدث الجنابة ويجعله طاهرا من بعض الوجوه ، ولهذا روى الامام أحمد وسعيد بن منصور وغيرهما عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم إذا كان أحدهم جنبا ثم أراد أن يجلس فى المسجد توضأ ثم جلس فيه ، وهذا مذهب الإمام أحمد وغيره ، مع أن المساجد لا تحل لجنب ، على أن وضوءه رفع حكم الجنابة المطلقة الكاملة التى تمنع الجنب من الجلوس فى بيت الله وتمنع الروح من السجود بين يدى الله سبحانه . فتأمل هذه المسألة وفقهها واعرف بها مقدار فقه الصحابة وعمق علومهم ، فهل ترى أحدا من المتأخرين وصل الى مبلغ هذا الفقه الذى خص الله به خيار عباده وهم أصحاب نبيه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . فاذا استيقظ هذا القلب من منامه صعد إلى الله بهمه وحبه وأشواقه مشتاقا اليه طالبا له محتاجا اليه عاكفا عليه ، فحاله كحال المحب الذى غاب عن محبوبه الذى لا غنى له عنه ولابد له منه ، وضرورته اليه أعظم من ضرورته الى النفس والطعام والشراب ، فاذا نام غاب عنه ، فاذا استيقظ عاد إلى الحنين اليه ، والى الشوق الشديد والحب المقلق ، فحبيبه آخر خطراته عند منامه وأولها عند استيقاظه كما قال بعض المحبين لمحبوبه :

وآخر شىء أنت فى كل هجعة وأول شىء أنت عند هبوبى

فقد أفصح هذا المحب عن حقيقة المحبة وشروطها ، فاذا كان هذا فى محبة مخلوق لمخلوق فما الظن فى محبة المحبوب الأعلى ، فأف لقلب لا يصلح لهذا ولا يصدق به ، لقد صرف عنه خير الدنيا والآخرة

﴿ فصل ﴾ فاذا استيقظ أحدهم وقد بدر الى قلبه هذا الشأن فأول ما يجرى على لسانه ذكر محبوبه والتوجه اليه واستعطافه والتملق بين يديه والاستعانة به أن لا يخلى بينه وبين نفسه وأن لا يكله اليها فيكله إلى ضعة وعجز وذنب وخطيئة ، بل يكلأه كلاءة الوليد الذى لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، فأول ما يبدأ به الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور ، متدبرا لمعناها من ذكر نعمة الله عليه بأن أحياه بعد نومه الذى هو أخو الموت وأعاده إلى حاله سويا سليما محفوظا مما لا يعلمه ولا يخطر بباله من المؤذيات والمهلكات التى هو غرض وهدف لسهامها كلها

تقصده بالهلاك أو الأذى والتى من بعضها شياطين الانس والجن ، فانها تلتقى بروحه إذا نام فتقصد اهلاكه وأذاه ، فلولا أن الله سبحانه يدفع عنه لما سلم . هذا ويلقى الروح فى تلك الغيبة من أنواع الأذى والمخاوف والمكاره والتفزيعات ومحاربة الأعداء والتشويش والتخبيط بسبب ملابستها لتلك الأرواح ، فمن الناس من يشعر بذلك لرقة روحه ولطافتها ويجد آثار ذلك فيها إذا استيقظ من الوحشة والخوف والفزع والوجع الروحى الذى ربما غلب حتى سرى الى البدن ، ومن الناس من تكون روحه أغلظ وأكثف وأقسى من أن تشعر بذلك ، فهى مثخنة بالجراح مزمنة بالأمراض ولكن لنومها لا تحس بذلك . هذا وكم من مريد لاهلاك جسمه من الهوام وغيرها وقد حفظه منه فهى فى أجحارها محبوسة عنه لو خليت وطبعها لاهلكته ، فمن ذا الذى كلأه وحرسه وقد غاب عنه حسه وعلمه وسمعه وبصره ، فلو جاءه البلاء من أى مكان جاء لم يشعر به ، ولهذا ذكر سبحانه عباده هذه النعمة وعدها عليهم من جملة نعمه فقال (الانبياء ٤٢) : ﴿مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ فاذا تصور العبد ذلك فقال « الحمد لله » كان حمده أبلغ وأكمل من حمد الغافل عن ذلك ، ثم تفكر فى أن الذى أعاده بعد هذه الإماتة حيا سليما قادرا على أن يعيده بعد موتته الكبرى حيا كما كان ، ولهذا يقول بعدها « واليه النشور » ثم يقول « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة الا بالله » ثم يدعو ويتضرع ، ثم يقوم الى الوضوء بقلب حاضر مستصحب لما فيه ، ثم يصلى ما كتب الله له صلاة محب ناصح لمحبوبه متذلل منكسر بين يديه ، لا صلاة مدل بها عليه يرى من أعظم نعم محبوبه عليه أن أقامه وأنام غيره ، واستزاره وطرد غيره ، وأهله وحرم غيره ، فهو يزداد بذلك محبة الى محبته ، ويرى أن قرة عينه وحياة قلبه وجنة روحه ونعيمه ولذته وسروره فى تلك الصلاة ، فهو يتمنى طول ليله ويهتم بطلوع الفجر كما يتمنى المحب الفائز بوصل محبوبه ذلك ، فهو كما قيل :

يود أن ظلام الليل دام له ⁂ وزيد فيه سواد القلب والبصر

فهو يتملق فيها مولاه تملق المحب لمحبوبه العزيز الرحيم ، ويناجيه بكلامه معطيا

لكل آية حظها من العبودية فتجذب قلبه وروحه اليه آيات المحبة والوداد ، والآيات التى فيها الأسماء والصفات ، والآيات التى تعرف بها إلى عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإحسانه اليهم ، وتطيب له السير آيات الرجاء والرحمة وسعة البر والمغفرة فتكون له بمنزلة الحادى الذى يطيب له السير ويهونه ، وتقلقه آيات الخوف والعدل والانتقام وإحلال غضبه بالمعرضين عنه العادلين به غيره المائلين الى سواه ، فيجمعه عليه ويمنعه أن يشرد قلبه عنه . فتأمل هذه الثلاثة وتفقه فيها ، والله المستعان ولا حول ولا قوة الا بالله . وبالجملة فيشاهد المتكلم سبحانه وقد تجلى فى كلامه ويعطى كل آية حظها من عبودية قلبه الخاصة الزائدة على مجرد تلاوتها والتصديق بأنها كلام الله ، بل الزائدة على نفس فهمها ومعرفة المراد منها . ثم شان آخر لو فطن له العبد لعلم أنه كان قبل يلعب ، كما قيل :

وكنت أرى أن قد تناهى بى الهوى الى غاية ما بعدها لى مذهب
فلما تلاقينا وعاينت حسنها تيقنت أنى إنما كنت ألعب

فوا أسفاه وواحسرتاه كيف ينقضى الزمان وينفد العمر والقلب محجوب ما شم لهذا رائحة ، وخرج من الدنيا كما دخل اليها وما ذاق أطيب ما فيها ، بل عاش فيها عيش البهائم وانتقل منها انتقال المفاليس ، فكانت حياته عجزا وموته كمدا ومعاده حسرة وأسفا . اللهم فلك الحمد واليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة الا بك

﴿ فصل ﴾ فاذا صلى ما كتب الله جلس مطرقا بين يدى ربه هيبة له وإجلالا ، واستغفره استغفار من قد تيقن أنه هالك إن لم يغفر له ويرحمه . فاذا قضى من الاستغفار وطرا وكان عليه بعد ليل اضطجع على شقه الأيمن جما نفسه مريحا لها مقويا لها على أداء وظيفة الفرض ، فيستقبله نشيطا بجده وهمته كأنه لم يزل نائما طول ليلته لم يعمل شيئا ، فهو يريد أن يستدرك ما فاته فى صلاة الفجر ، فيصلى السنة ويبتهل الى الله بينها وبين الفريضة ، فان لذلك الوقت شأنا يعرفه من عرفه ، ويكثر فيه من قول « يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت » فلهذا الذكر فى هذا الموطن تأثير عجيب . ثم ينهض الى صلاة الصبح قاصدا الصف الاول عن يمين الإمام أو خلف قفاه ، فان فاته ذلك قصد القرب منه مهما أمكن فان للقرب من الامام تأثيرا فى سر الصلاة ، ولهذا القرب تأثير

فى صلاة الفجر خاصة يعرفه من عرف قوله تعالى (الاسراء ٧٨) : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودا ﴾ قيل : يشهده الله عز وجل وملائكته ، وقيل : يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار ، فيتفق نزول هؤلاء البدل عند صعود أولئك فيجتمعون فى صلاة الفجر ، وذلك لأنها هى أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهدها ملائكة الليل والنهار ، واحتج لهذا القول بما فى الصحيح من حديث الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة ، ويجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الفجر لقول أبى هريرة : واقرأوا إن شئتم ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودا ﴾ رواه البخارى فى الصحيح ، قال أصحاب القول الأول : وهذا لا ينافى قولنا وهو أن يكون الله سبحانه وملائكة الليل والنهار يشهدون قرآن الفجر ، وليس المراد الشهادة العامة فان الله على كل شىء شهيد ، بل المراد شهادة خاصة وهى شهادة حضور ودنوّ متصل بدنو الرب ونزوله الى سماء الدنيا فى الشطر الأخير من الليل . وقد روى الليث بن سعد حدثنى زيادة بن محمد بن كعب القرظى عن فضالة بن عبيد الأنصارى عن أبى الدرداء عن رسول الله ﷺ قال « إن الله عز وجل ينزل فى ثلاث ساعات يبقين من الليل ، فيفتح الذكر فى الساعة الاولى الذى لم يره غيره فيمحو الله ما يشاء ويثبت ، ثم ينزل فى الساعة الثانية الى جنة عدن وهى داره التى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر وهى مسكنه لا يسكنها معه من بنى آدم غير ثلاث وهم النبيون والصديقون والشهداء ، ثم يقول : طوبى لمن دخلك . ثم ينزل فى الساعة الثالثة الى سماء الدنيا بروحه وملائكته فتنتفض فيقول : قومى بعزتى . ثم يطلع الى عباده فيقول : هل من مستغفر فاغفر له ؟ ألا من سائل يسألنى فاعطيه ؟ ألا داع يدعونى فاجيبه ؟ حتى تكون صلاة الفجر . ولذلك يقول الله عز وجل ﴿ وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا ﴾ يشهده الله عز وجل وملائكته ملائكة الليل والنهار » . ففى هذا الحديث أن النزول يدوم الى صلاة الفجر ، وعلى هذا فيكون شهود الله سبحانه لقرآن الفجر مع شهود ملائكة الليل والنهار له ، وهذه خاصة بصلاة الصبح ليست لغيرها من الصلاة ، وهذا لا ينافى دوام النزول فى سائر الأحاديث الى طلوع الفجر ولا سيما وهو معلق فى بعضها على

انفجار الصبح ، وهو اتساع ضوئه . وفى لفظ « حتى يضيء الفجر » وفى لفظ « حتى يسطع الفجر » وذلك هو وقت قراءة الفجر ، وهذا دليل على استحباب تقديمها مع مواظبة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين على تقديمها فى أول وقتها ، فكان النبي ﷺ يقرأ فيها بالستين الى المائة ويطيل ركوعها وسجودها وينصرف منها والنساء لا يعرفن من الغلس ، وهذا لا يكون إلا مع شدة التقديم فى أول الوقت لتقع القراءة فى وقت النزول فيحصل الشهود المخصوص ، مع أنه قد جاء فى بعض الأحاديث مصرحا به دوام ذلك الى الانصراف من صلاة الصبح رواه الدارقطني فى « كتاب نزول الرب كل ليلة الى سماء الدنيا » من حديث محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ينزل الله عز وجل الى سماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو الثلث الآخر يقول : من ذا الذى يدعونى فأستجيب له ؟ من ذا الذى يسألنى فاعطيه ؟ من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له ؟ حتى يطلع الفجر أو ينصرف القارىء من صلاة الصبح » رواه عن محمد جماعة : منهم سليمان بن بلال واسماعيل بن جعفر والدراوردى وحفص بن غياث ويزيد ابن هرون وعبد الوهاب بن عطاء ومحمد بن جعفر والنضر بن شميل كلهم قال « أو ينصرف القارىء من صلاة الفجر » فان كانت هذه اللفظة محفوظة عن النبي ﷺ فهى صريحة فى المعنى كاشفة للمراد ، وان لم تكن محفوظة وكانت من شك الراوى هل قال هذا أو هذا فقد قدمنا أنه لا منافاة بين اللفظين ، وأن حديث الليث بن سعد عن محمد بن زياد يدل على دوام النزول الى وقت صلاة الفجر ، وأن تعليقه بالطلوع لكونه أول الوقت الذى يكون فيه الصعود ، كما رواه يونس بن أبى اسحق عن أبيه عن الأغر أبى مسلم قال : شهدت على أبى هريرة وأبى سعيد الخدرى أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال « ان الله عز وجل يمهل ، حتى إذا كان ثلث الليل هبط الى هذه السماء ثم أمر بابواب السماء ففتحت ثم قال : هل من سائل فاعطيه ؟ هل من داع فاجيبه ؟ هل من مستغفر فاغفر له ؟ هل من مستغيث أغيثه ؟ هل من مضطر أكشف عنه ؟ فلا يزال ذلك مكانه حتى يطلع الفجر فى كل ليلة من الدنيا ، ثم يصعد الى السماء » قال الدارقطني : فزاد فيه يونس بن أبى اسحق زيادة حسنة . والمقصود ذكر القرب من الإمام فى صلاة الفجر وتقديمها فى أول وقتها . والله أعلم

﴿ فصل ﴾ فاذا فرغ من صلاة الصبح أقبل بكليته على ذكر الله والتوجه اليه بالأذكار التى شرعت أول النهار فيجعلها وردا له لا يخل بها أبدا ، ثم يزيد عليها ما شاء من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتى تطلع الشمس ، فاذا طلعت فان شاء ركع ركعتى الضحى وزاد ما شاء ، وإن شاء قام من غير ركوع ثم يذهب متضرعا الى ربه سائلا له أن يكون ضامنا عليه متصرفا فى مرضاته بقية يومه ، فلا ينقلب إلا فى شىء يظهر له فيه مرضاة ربه ، وان كان من الأفعال العادية الطبيعية قلبه عبادة بالنية وقصد الاستعانة به على مرضاة الرب . وبالجملة فيقف عند أول الداعى الى فعله ، فيفتش ويستخرج منه منفذا ومسلكا يسلك به الى ربه ، فينقلب فى حقه عبادة وقربة . وشتان كم بين هذا وبين من إذا عرض له أمر من أوامر الرب لا بد له من فعله وفتش فيه على مراد لنفسه وغرض لطبعه ففعل لأجل ذلك وجعل الأمر طريقا له ومنفذا لمقصده ، فسبحان من فاوت بين النفوس الى هذا الحد والغاية ، فهذا عباداته عادات ، والأول عاداته عبادات . فاذا جاء فرض الظهر بادر اليه مكملا له ناصحا فيه لمعبوده كنصح المحب الصادق المحبة لمحبوبه الذى قد طلب منه أن يعمل له شيئا ما ، فهو لا يبقى مجهودا ، بل يبذل مقدوره كله فى تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإكماله ليقع موقعا من محبوبه فينال به رضاه عنه وقربه منه . أفلا يستحى العبد من ربه ومولاه ومعبوده أن لا يكون فى عمله هكذا وهو يرى المحبين فى أشغال محبوبيهم من الخلق كيف يجتهدون فى إيقاعها على أحسن وجه وأكمله ، بل هو يجد من نفسه ذلك مع من يحبه من الخلق ، فلا أقل من أن يكون مع ربه بهذه المنزلة . ومن أنصف نفسه وعرف أعماله استحى من الله أن يواجهه بعمله أو يرضاه لربه وهو يعلم من نفسه أنه لو عمل لمحبوب له من الناس لبذل فيه نصحه ولم يدع من حسنه شيئا إلا فعله

وبالجملة فهذا حال هذا العبد مع ربه فى جميع أعماله فهو يعلم أنه لا يوفى هذا المقام حقه فهو أبدا يستغفر الله عقيب كل عمل ، وكان النبى ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر الله ثلاثا ، وقال تعالى (الذاريات ١٨) : ﴿ وبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون ﴾ قال الحسن : مدوا الصلاة الى السحر ، ثم جلسوا يستغفرون ربهم . وقال تعالى (البقرة ١٩٩) : ﴿ ثمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فأمر

سبحانه بالاستغفار بعد الوقوف بعرفة والمزدلفة ، وشرع للمتوضىء أن يقول بعد وضوئه « اللهم اجعلنى من التوابين واجعلنى من المتطهرين » فهذه توبة بعد الوضوء ، وتوبة بعد الحج ، وتوبة بعد الصلاة ، وتوبة بعد قيام الليل . فصاحب هذا المقام مضطر الى التوبة والاستغفار كما تبين ، فهو لا يزال مستغفرا تائبا ، وكلما كثرت طاعاته كثرت توبته واستغفاره

﴿ فصل ﴾ وجماع الأمر فى ذلك إنما هو بتكميل عبودية الله فى الظاهر والباطن ، فتكون حركات نفسه وجسمه كلها فى محبوبات الله ، وكمال عبودية العبد موافقته لربه فى محبته ما أحبه ، وبذل الجهد فى فعله وموافقته فى كراهة ما كرهه وبذل الجهد فى تركه ، وهذا إنما يكون للنفس المطمئنة ، لا للأمارة ولا للوامة . فهذا كمال من جهة الإرادة والعمل ، وأما من جهة العلم والمعرفة فأن تكون بصيرته منفتحة فى معرفة الأسماء والصفات والافعال ، له شهود خاص فيها مطابق لما جاء به الرسول ﷺ لا مخالف له ، فان بحسب مخالفته له فى ذلك يقع الانحراف ويكون مع ذلك قائما بأحكام العبودية الخاصة التى تقتضيها كل صفة بخصوصها ، وهذا سلوك الأكياس الذين هم خلاصة العالم ، والسالكون على هذا الدرب أفراد من العالم ، طريق سهل قريب موصل ، طريق آمن ، أكثر السالكين فى غفلة عنه ، ولكن يستدعى رسوخا فى العلم ومعرفة تامة به وإقداما على رد الباطل المخالف له ولو قاله من قاله ، وليس عند أكثر الناس سوى رسوم تلقوها عن قوم معظمين عندهم ، ثم لاحسان ظنهم بهم قد وقفوا عند أقوالهم ولم يتجاوزوها فصارت حجابا لهم وأى حجاب . فمن فتح الله عليه بصيرة قلبه وإيمانه حتى خرقها وجاوزها الى مقتضى الوحى والفطرة والعقل فقد أوتى خيرا كثيرا ولا يخاف عليه إلا من ضعف همته ، فاذا انضاف الى ذلك الفتح همة عالية فذاك السابق حقا ، واحد الناس بزمانه ، لا يلحق شأوه ولا يشق غباره ، فشتان ما بين من يتلقى أحواله وارداته عن الأسماء والصفات ، وبين من يتلقاها عن الاوضاع الاصطلاحية والرسوم أو عن مجرد ذوقه ووجده ، إذا استحسن شيئا قال هذا هو الحق ، فالسير الى الله من طريق الأسماء والصفات شأنه عجب ، وفتحه عجب ، صاحبه قد سيقت له السعادة وهو مستلق على فراشه غير تعب ولا مكدود ولا مشتت عن وطنه ولا مشرد عن سكنه

﴿ وَتَرَى الْجِبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحاب ﴾ (النمل ٨٨) . وليس العجب من سائر في ليله ونهاره وهو فى الثرى لم يبرح من مكانه ، وإنما العجب من ساكن لا يرى عليه أثر السفر وقد قطع المراحل والمفاوز ، فسائر قد ركبته نفسه فهو حاملها سائر بها ملبوك يعاقبها وتعاقبه ويجرها وتهرب منه ويخطو بها خطوة الى أمامه فتجذبه خطوتين الى ورائه ، فهو معها فى جهد وهى معه كذلك ، وسائر قد ركب نفسه وملك عنانها فهو يسوقها كيف شاء وأين شاء لا تلتوى عليه ولا تنجذب ولا تهرب منه ، بل هى معه كالاسير الضعيف فى يد مالكه وآسره ، وكالدابة الريضة المنقادة فى يد سائسها وراكبها ، فهى منقادة معه حيث قادها ، فاذا رام التقدم جمزت به وأسرعت ، فاذا أرسلها سارت به وجرت فى الحلبة الى الغاية ولا يردها شىء ، فتسير به وهو ساكن على ظهرها ، ليس كالذى نزل عنها فهو يجرها بلجامها ويشحطها ولا تنشحط ، فشتان ما بين المسافرَين . فتأمل هذا المثل فانه مطابق لحال السائرين المذكورين ، والله يختص برحمته من يشاء

﴿فصل﴾ ومن شأن القوم أن تنسلخ نفوسهم من التدبير والاختيار الذى يخالف تدبيره تعالى واختياره ، بل قد سلموا اليه سبحانه التدبير كله ، فلا يزاحم تدبيرهم تدبيره ولا اختيارهم اختياره ، لتيقنهم أنه الملك القاهر القابض على نواصى الخلق المتولى تدبير أمر العالم كله ، وتيقنهم مع ذلك أنه الحكيم فى أفعاله الذى لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمة ، فلم يدخلوا أنفسهم معه فى تدبيره لملكه وتصريفه أمور عباده بلو كان كذا وكذا ، ولا بعسى ولعل ، ولا بليت ، بل ربهم أجل وأعظم فى قلوبهم من أن يعترضوا عليه أو يتسخطوا تدبيره أو يتمنوا سواه ، وهم أعلم به وأعرف باسمائه وصفاته من أن يتهموه فى تدبيره أو يظنوا به الاخلال بمقتضى حكمته وعدله ، بل هو ناظر بعين قلبه إلى بارىء الأشياء وفاطرها ، ناظر الى إتقان صنعه ، مشاهد لحكمته فيه وان لم يخرج ذلك على مكاييل عقول البشر وعوائدهم ومألوفاتهم . قال بعض السلف : لو قرض جسمى بالمقاريض أحب الى من أن أقول لشىء قضاه الله : ليته لم يقضه . وقال آخر : أذنبت ذنبا أبكى عليه منذ ثلاثين سنة . وكان قد اجتهد فى العبادة ، قيل له : وما هو ؟ قال : قلت مرة لشىء كان : ليته لم يكن . وبعض العارفين يجعل عيب المخلوقات

وتنقيصها بمنزلة العيب لصانعها وخالقها ، لأنها صنعه وأثر حكمته ، وهو سبحانه أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل شيء ، وهو أحكم الحاكمين وأحسن الخالقين ، له فى كل شيء حكمة بالغة وفى كل مصنوع صنع متقن ، والرجل اذا عاب صنعة رجل آخر وذمها سرى ذلك الى صانعها ، فمن عاب صنعة الرب سبحانه بلا إذنه سرى ذلك الى الصانع ، لأنه كذلك صنعها وعن حكمته أظهرها ، إذ كانت الصنعة مجبولة لم تصنع نفسها ولا صنع لها فى خلقها . فالعارف لا يعيب إلا ما عابه الله ولا يذم الا ما ذمه ، وإذا سبق الى قلبه ولسانه عيب ما لم يعبه الله وذم ما لم يذمه الله تاب الى الله منه كما يتوب صاحب الذنب من ذنبه فانه يستحى من الله أن يكون فى داره وهو يعيب آلات تلك الدار وما فيها ، فهو يرى نفسه بمنزلة رجل دخل الى دار ملك من الملوك ورأى ما فيها من الآلات والبناء والترتيب ، فأقبل يعيب منها بعضها ويذمه ويقول : لو كان كذا بدل كذا لكان خيرا ، ولو كان هذا فى مكان هذا لكان أولى . وشاهد الملكَ يولى ويعزل ويحرم ويعطى فجعل يقول : لو ولى هذا مكان فلان كان خيرا ، ولو عزل هذا المتولى لكان أولى ، ولو عوفى هذا . . ولو أغنى هذا . . فكيف يكون مقت الملك لهذا المعترض وإخراجه له من قربه ؟ وكذلك لو أضافه صاحب له فقدم اليه طعاما فجعل يعيب صفته ويذمه ، أكان ذلك يهون على صاحب الطعام ؟ قالت عائشة : « ما عاب رسول الله ﷺ طعاما قط ، إن اشتهى شيئا أكله وإلا تركه » . والمقصود أن من شأن القوم ترك الاهتمام بالتدبير والاختيار ، بل همهم كله فى إقامة حقه عليهم ، وأما التدبير العام والخاص فقد سلموه لولى الأمر كله ومالكه الفعال لما يريد . ولعلك تقول : من ذا الذى ينازع الله فى تدبيره ؟ فانظر الى نفسك - فى عجزها وضعفها وجهلها - كيف هى عرضت للمنازعة ، منازعة جاهل عاجز ضعيف لو قدر لظهرت منه العجائب ، فسبحان من أذله بعجزه وضعفه وجهله ، وأراه العبر فى نفسه لو كان ذا بصر : كيف هو عاجز القدرة ، جبار الارادة ، عبد مربوب ، مدبر مملوك ، ليس له من الامر شيء ، وهو مع ذلك ينازع الله ربوبيته وحكمته وتدبيره ، لا يرضى بما رضى الله به ، ولا يسكن عند مجارى أقداره ، بل هو عبد ضعيف مسكين يتعاطى الربوبية ، فقير مسكين فى مجموع حالاته ويرى نفسه غنيا ، جاهل ظالم ويرى نفسه عارفا محسنا ، فما أجهله بنفسه وبربه

وما أتركه لحقه ، وأشد اضاعته لحظه . ولو أحضر رشده لرأى ناصيته ونواصي الخلائق بيد الله سبحانه وتعالى يخفضها ويرفعها كيف يشاء ، وقلوبهم بيده سبحانه وفي قبضته يقلبها كيف يشاء ، يزيغ منها من يشاء ويقيم من يشاء ، ولكان هذا غالبا على شهود قلبه فيغيب به عن مشيئاته وارادته واختياره ، ولعرف أن التدبير والركون الى حول العبد وقوته من الجهل بنفسه وبربه ، فينفي العلمُ بالله الجهلَ عن قلبه ، فتمحى منه الارادات والمشيئات والتدبيرات ، ويفوضها الى مالك القلوب والنواصي ، فيصير بذلك عبدا لربه تقلبه يد القدرة ، ويصير ابن وقته لا ينتظر وقتا آخر يدبر نفسه فيه ، لأن ذلك الوقت بيد موقته ، فيرى نفسه بمنزلة الميت في قبره ينتظر ما يفعل به ، مستسلم لله منقطع المشيئة والاختيار . هذا ما يجرى على أحدهم من فعل الله وحكمه وقضائه الكوني فاذا جاء الأمر جاءت الارادة والاختيار والجد والسعي واستفراغ الفكر وبذل الجهد ، فهو قوى حي فعال يشاهد عبودية مولاه في أمره ، فهو متحرك فيها بظاهره وباطنه قد أخرج مقدوره من القوة الى الفعل ، وهو مع ذلك مستعين بربه قائم بحوله وقوته ملاحظ لضعفه وعجزه قد تحقق بمعنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ ، فهو ناظر بقلبه الى مولاه الذي حركه ، مستعين به في أن يوفقه لما يحبه ويرضاه ، عينه في كل لحظة شاخصة الى حقه المتوجه عليه لربه ليؤديه في وقته على أكمل أحواله ، فاذا وردت عليهم أقداره التي تصيبهم بغير اختيارهم قابلوها بمقتضاها من العبودية ، وهم فيها على مراتب ثلاثة : (إحداها) الرضا عنه فيها والمزيد من حبه والشوق اليه ، وهذا نشأ من مشاهدتهم للطفه فيها وبره وإحسانه العاجل والآجل ، ومن مشاهدتهم حكمته فيها ونصبها سببا لمصالحهم ، وشوقهم بها الى حبه ورضوانه ، ولهم من ذلك مشاهد أخر لا تسعها العبارة وهي فتح من الله على العبد لا يبلغه علمه ولا عمله . (المرتبة الثانية) شكره عليها كشكره على النعم ، وهذا فوق الرضا عنه بها ومنه ينتقل الى هذه المرتبة ، فهذه مرتبتان لأهل هذا الشأن . و (الثالثة) للمقتصدين وهي مرتبة الصبر التي إذا نزل منها نزل الى نقصان الايمان وفواته من التسخط والتشكي ، واستبطاء الفرج ، واليأس من الروح ، والجزع الذي لا يفيد إلا فوات الأجر وتضاعف المصيبة . فالصبر أول منازل الايمان ودرجاته وأوسطها وآخرها ، فان صاحب الرضا والشكر لا يعدم الصبر في مرتبته ، بل الصبر

معه وبه يتحقق الرضا والشكر ، لا تصور ولا تحقق لهما دونه ، وهكذا كل مقام مع الذى فوقه ، كالتوكل مع الرضا ، وكالخوف والرجاء مع الحب ، فان المقام الأول لا ينعدم بالترقى الى الآخر ولو عدم لخلفه ضده ، وذلك رجوع الى نقص الطبيعة وصفات النفس المذمومة ، وإنما يندرج حكمه فى المقام الذى أعلى منه فيصير الحكم له كما يندرج مقام التوكل فى مقام المحبة والرضا ، وليس هذا كمنازل سير الابدان الذى اذا قطع منها منزلا خلفه وراء ظهره واستقبل المنزل الآخر معرضا عن الأول بارتحاله ، بل هذا كمنزلة التاجر الذى كلما باع شيئا من ماله وربح فيه ثم باع الثانى وربح فقد ربح بهما معا ، وهكذا أبدا يكون ربحه فى كل صفقة متضاعفا بانضمامه الى ما قبله ، فالربح الأول اندرج فى الثانى ولم يعدم . فتأمل هذا الموضع وأعطه حقه يزل عنك ما يعرض من الغلط فى علل المقامات ، وتعلم أن دعوى المدعى أنها من منازل العوام ودعوى أنها معلولة غلط من وجهين : أحدهما أن أعلى المقامات مقرون بادناها مصاحب له كما تقدم ، متضمن له تضمن الكل لجزئه ، أو مستلزم له استلزام الملزوم للازمه لا ينفك عنه أبدا ، ولكن لاندراجه فيه وانطواء حكمه تحته يصير المشهد والحكم للعالى . الوجه الثانى أن تلك المقامات والمنازل إنما هى منازل العوام وتعرض لها العلل بحسب متعلقاتها وغاياتها ، فان كان متعلقها وغاياتها بريئا من شوائب العلل وهو أجلّ متعلق وأعظمه فلا علة فيها بحال ، وهى من منازل الخواص حينئذ . وان كان متعلقها حظا للعبد أو أمرا مشوبا بحظه فهى معلولة من جهة تعلقها بحظه . ولنذكر لذلك أمثلة : المثال الأول الارادة ، فان الله جعلها من منازل صفوة عباده ، وأمر رسوله أن يصبر نفسه مع أهلها فقال (الكهف ٢٨) : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وقال (الليل ١٩ – ٢٠) : ﴿وما لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ وقال حكاية عن أوليائه قولهم (الانسان ٩) : ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ﴾ وهى لام التعليل الداخلة على الغايات المرادة ، وهى كثيرة فى القرآن ، فقالت طائفة : الإرادة حلية العوام ، وهى تجريد القصد ، وجزم النية ، والجد فى الطلب[1] . وذلك

---

(١) سيأتى أن هذا من كلام أبى العباس بن الصائف فى علل المقامات . وانظر لمنزلة الارادة كتاب (مدارج السالكين) ٢ : ٢٠٣ – ٢٠٩ طبعة المنار

غيره فى طريق الخواص : تفرق ، ورجوع الى النفس . فان إرادة العبد عين حظه وهو رأس الدعوى ، وانما الجمع والوجود فيما يراد بالعبد لا فيما يريد ، كقوله تعالى (يونس ١٠٧) : ﴿ وإنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فلا رادَّ لِفَضْلِه ﴾ فيكون مراده ما يراد به واختياره ما اختير له ، إذ لا إرادة للعبد مع سيده ولا نظر ، كما قال :

أريد وصاله ويريد هجرى   فأترك ما أريد لما يريد

ومن هذا قول أبى يزيد : قيل لى ما تريد ؟ قلت : أريد أن لا أريد ، لأنى أنا المراد وأنت المريد . فيقال : ليس المراد من « العوام » فى كلامهم العامة الجهال ، وإنما مرادهم بهذه اللفظة عموم السالكين ، دون أهل الخصوص الواصلين منازل الفناء وعين الجمع

واذا عرف هذا فالكلام على ما ذكر فى الارادة من وجوه :

أحدها : أن الإرادة هى مركب العبودية ، وأساس بنائها الذى لا تقوم إلا عليه ، فلا عبودية لمن لا إرادة له ، بل أكمل الخلق أكملهم عبودية ومحبة وأصحهم حالا وأقومهم معرفة وأتمهم إرادة ، فكيف يقال : إنها حلية العوام أو من منازل العوام

الوجه الثانى : أنه يلزم من هذا أن تكون المحبة من منازل العوام ، وتكون معلولة أيضا لانها إرادة تامة للمحبوب ، ووجود المحبة بلا إرادة كوجود الانسانية من غير حيوانية وكوجود مقام الإحسان بدون الإيمان والسلام ، فاذا كانت الارادة معلولة وهى من منازل العوام لزم أن تكون المحبة كذلك . فان قيل : المحبة التى لا علة فيها هى تجرد المحب عن الإرادة وفناؤه بارادة محبوبه عن إرادته ، قيل : هذا هو حقيقة الإرادة أن يبقى مراده مراد محبوبه ، فلو لم يكن مريدا لمراد محبوبه لم يكن موافقا له فى الارادة . والمحبة هى موافقة المحبوب فى إرادته ، فعاد الامر الى ما أشرنا اليه أن المعلول من ذلك ما تعلق بحظ المريد دون محبوبه ، فاذا صارت إرادته موافقة لإرادة محبوبه لم تكن تلك الإرادة من منازل العوام ولا معلولة ، بل هذه أشرف منازل الخواص وغاية مطالبهم ، وليس وراءها الا التجرد عن كل ارادة والفناء بشهوده عن إرادة ما يريد ، وهذا هو الذى يشير اليه السالكون الى منازل الفناء ويجعلونه غاية الغايات ، وهذا عند أهل الكمال نقص وتغيير فى وجه المحبة وهضم لجانب العبودية وفناء بحظ المحب من مشاهدته

جمال محبوبه وفنائه فيه عن حق المحبوب ومراده ، فهو الوقوف مع نفس الحظ ، والهروب عن حق المحبوب ومراده ، وهل مثل هذا إلا كمثل رجلين ادعيا محبة ملك فحضرا بين يديه فقال : ما تريدان ؟ فقال أحدهما : أريد أن لا أريد شيئا بل أفنى عن إرادتى وأكون أنا المراد وأنت تريد بى ما تشاء . وقال الآخر : أريد أن أنفق أنفاسى وذراتى فى محابك ومرضاتك منفذا لاوامرك مشمرا فى طاعتك : أتوجه حيث توجهنى وأفعل ما تأمرنى ، هذا الذى أريده . فقال للآخر : وأنا أريد منك أن تفعل مثل هذا ، فانى سأبعثكما فى أشغالى ومهماتى ، فاما أحدهما فقال : لا حظ لى سوى اتباع مرضاتك والقيام بحقوقك ، وقال الآخر : لا أريد إلا مشاهدتك والنظر اليك والفناء فيك ، فهل يكونان فى نظره سواء ، وهل تستوى منزلتهما عنده ؟ ولو أنعموا النظر لعلموا أن صاحب الفناء هو طالب الحظ الواقف معه ، وأن الآخر وان لم ينسلخ من الحظ ولكن حظه مراد المحبوب منه لا مراده هو من المحبوب ، وبين الامرين من الفرق كما بين الأرض والسماء . فالعجب ممن يفضل صاحب الحظ الذى يريده من محبوبه على من صار حظه مراد محبوبه منه ، بل الفناء الكامل أن يفنى بارادته عن إرادة من سواه وبحبه عن حب ما سواه وبرجائه عن رجاء ما سواه وبخشيته عن خشية ما سواه وبالتوكل عليه عن التوكل على ما سواه ، ليس أن تفنى بحظك منه عن مراده منك . وهذا موضع يشتبه علما وحالا وذوقا إلا على من فتح الله عليه بفرقان بين هذا وهذا

الوجه الثالث : أن الإرادة إنما تكون ناقصة بحسب نقصان المراد ، فاذا كان مرادها أشرف المرادات فارادته أشرف الارادات ، ثم اذا كانت الوسيلة اليه أجل الوسائل وأنفعها وأكملها فارادتها كذلك ، فلا تخرج إرادته عن إرادة أشرف الغايات وإرادة أقرب الوسائل اليه وأنفعها ، فأى علة فى هذه الإرادة وأى شىء فوقها للخواص ؟

الوجه الرابع : أن نقصان الشىء يكون من وجهين : أحدهما أن يوجب ضررا ، والثانى أن تكون له ثمرة نافعة لكن يشغل عما هو أكمل منه ، وكلاهما منتف عن الإرادة ، فكيف تكون ناقصة معلولة ؟ فان قيل : لما كان الوقوف معها رجوعا الى النفس وتفرقا ووقوفا مع حظ المريد كانت ناقصة ، قيل : هذا منشأ الغلط

وجوابه بالوجه الخامس ، وهو أن يقال : قوله « إن الارادة تفرق » فان أردتم

بالتفرق شهود المريد لارادته ولمراده ولعبوديته ولمعبوده ولمحبته ولمحبوبه فلم قلتم ان هذا التفرق نقص ؟ وهل هذا إلا عين الكمال ، وهل تتم العبودية إلا بهذا ؟ فان من شهد عبوديته وغاب بها عن معبوده كان محجوبا ، ومن شهد المعبود وغاب به عن شهود عبوديته وقيامه بما أمره به كان ناقص العبودية ضعيف الشهود ، وهل الكمال إلا شهود المعبود مع شهود عبادته ، فانها عين حقه ومراده ومحبوبه من عبده ، فهل يكون شهود العبد لحق محبوبه ومراده منـــه وأنه قائم به ممتثل له نقصا ، ويكون غيبته عن ذلك واعراضه عنه وفناؤه عن شهوده كمالا ، وهل هذا الا قلب للحقائق ؟ فغاية صاحب هذا الحـال والمقام أن يكون معذورا بضيق قلبه عن شهود هذا وهذا إما لضعف المحل أو لغلبة الوارد وعجزه عن احتمال شيء آخر معه ، فأما أن يكون هذا هو الكمال المطلوب والآخر نقص فكلا . وأين مقام من يشهد عبوديته ومنـة الله عليه فيها وتوفيقه لها وجعله محلا وآلة ـ وهو ناظر مع ذلك الى معبوده بقلبه ، شاهدا له ، فانيا عن شهود غيره فى عبوديته ـ من مقام من لا يتسع لهذا وهذا ؟ وتأمل حال أكمل الخلق وأفضلهم وأشدهم حبا لله كيف كان فى عبادته جامعا بين الشهودين ، حتى كان لا يغيب عن أحوال المأمومين فضلا عن شهود عبادته ، وكان يراعى أحوالهم وهو فى ذلك المقام بين يدى ربه سبحانه ، فالكملة من أمته على منهاجه وطريقته ﷺ فى ذلك ، فالواجب التمييز بين المراتب وإعطاء كل ذى حق حقه ، فقد جعل الله لكل شيء قدرا . وإن أردتم بالتفرق شتات القلب فى شعاب الحظوظ وأودية الهوى فهذه الإرادة لا تستلزم شيئا من ذلك ، بل هى جمعية القلب على المحبوب وعلى محابه ومراداته ، ومثل هـذا التفرق هو عين البقاء ومحض العبودية ونفس الكمال ، وما عداه فمحض حظ العبد لا حق محبوبه

الوجه السادس : أن قوله « ان الارادة رجوع الى النفس ، وان ارادة العبد عين حظه » كلام فيه اجمال وتفصيل ، فيقال : ما تريدون بقولكم « ان الارادة رجوع الى النفس » ؟ أتريدون أنها رجوع عن ارادة الرب وارادة محابه الى ارادة النفس وحظوظها ، أم تريدون أنها رجوع الى إرادة النفس لربها ولمرضاته ؟ فان أردتم الأول علم أن هذه الارادة معلولة ناقصة فاسدة ، ولكن ليست هذه الارادة التى تتكلم فيها . وان أردتم المعنى الثانى فهو عين الكمال ، وإنما النقصان خلافه

الوجه السابع : أن قولكم « إن هذه الارادة عين حظ العبد » قلنا : نعم وهى أكبر حظ له وأجله وأعظمه ، وهل للعبد حظ أشرف من أن يكون الله وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه ومراده ؟ فهذا هو الحظ الأوفر والسعادة العظمى ، ولكن لم قلتم « ان اشتغال العبد بهذا الحظ نقص فى حقه » وهل فوق هذا كمال فيطلبه العبد ؟ ثم يقال : لو كان فوقه شيء أكمل منه لكان اشتغال العبد به وطلبه إياه اشتغالا بحظه أيضا ، فيكون ناقصا ، فأين الكمال ؟ فان قلتم : فى تركه حظوظه كلها ، قيل لكم : وتركه هذا الحظ أيضا هو من حظوظه ، فانه لا يبقى معطلا فارغا من الإرادة أصلا ، بل لا بد له من إرادة ومراد ، وكل إرادة لكم رجوع الى الحظ ، فأى اشتغال به وبارادته كان وقوفا عن حظه ، فياالله العجب ، متى يكون عبدا محضا خالصا لربه ؟

يوضح هذا الوجه الثامن : أن الحى لا ينفك عن الإرادة ما دام شاعرا بنفسه ، وإنما ينفك عنها اذا غاب عنه شعوره بعارض من العوارض ، فالارادة من لوازم الحياة فدعوى أن الكمال فى التجرد عنها دعوى باطلة مستحيلة طبعا وحسا ، بل الكمال فى التجرد عن الارادة التى تزاحم مراد المحبوب ، لا عن الإرادة التى توافق مراده

الوجه التاسع : قوله « الجمع والوجود فيما يراد بالعبد لا فيما يريد إلخ » فيقال هذا على نوعين : أحدهما ما يراد بالعبد من المقدور الذى يجرى عليه بغير اختياره كالفقر والغنى والصحة والمرض والحياة والموت وغير ذلك ، فهذا لا ريب أن الكمال فناء العبد فيه عن إرادته ، ووقوفه مع ما يراد به لا يكون له إرادة تزاحم إرادة الله منه ، كحال الثلاثة الذين قال أحدهم : أنا أحب الموت للقاء الله . وقال الآخر : أحب البقاء لطاعته وعبادته . فقال الثالث : غلطتما ، ولكن أنا أحب من ذلك ما يحب ، فان كان يحب إماتتى أحببت الموت . وإن كان يحب حياتى أحببت الحياة . فانا أحب ما يحبه من الحياة والموت . فهذا أكمل منهما وأصح حالا فيما يراد بالعبد . والنوع الثانى ما يراد من العبد من الأوامر والقربات ، فهذا ليس الكمال إلا فى إرادته ، وان فرقته فهو مجموع فى تفرقته متفرق فى جمعيته ، وهذا حال الكملة من الناس : متفرق الإرادة فى الأمر ، مجتمع على الأمر ـ فهو مجموع عليه ، متفرق فيه ـ ولا يكون فعل المرادات المختلفة بارادة واحدة بالعين ، وإنما غايتها أن تكون هنا إرادتان : إحداهما إرادة واحدة للمراد المحبوب ،

والثانية إرادات متفرقة لحقه ومحابه وما أمر به . فهى وإن تعددت وتكثرت فمرجعها الى مراد واحد بارادة كلية ، وكل فعل منها له ارادة جزئية محضة

الوجه العاشر : أن قول أبى يزيد « أريد أن لا أريد » تناقض بين ، فانه قد أراد عدم الإرادة . فاذا قال « أريد أن لا أريد » يقال له : فقد أردت ! وأحسن من هذا أن يكون الجواب : أريد ما يريد لا ما أريد . واذا كان لا بد من إرادة ففرق بين الإرادتين : إرادة سلب الإرادة ، وإرادة موافقة المحبوب فى مراده . والله أعلم

الوجه الحادى عشر : أنه فسر الإرادة بتجريد القصد ، وجزم النية ، والجد فى الطلب . وهذا هو عين كمال العين وهو متضمن للصدق والاخلاص والقيام بالعبودية ، فأى نقص فى تجريد القصد وهو تخليصه من كل شائبة نفسانية أو طبيعية ، وتجريده لمراد المحبوب وحده ، والجد فى طلبه وطلب مرضاته ، وجزم النية وهو أن لا يعتريها وقفة ولا تأخير ، وهـــذا الأمر هو غاية منازل الصديقين ، وصديقية العبد بحسب رسوخه فى هذا المقام ، وكلما ازداد قربه وعلا مقامه قوى عزمه وتجرد صدقه ، فالصادق لا نهاية لطلبه ولا فتور لقصده ، بل قصده أتم وطلبه أكمل ونيته أحزم . قال تعالى (الحجر ٩٩) : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِين ﴾ واليقين هنا الموت باتفاق الاسلام ، فجاهه ﷺ إذ جاهه وإرادته وقصده ونيته فى الذروة العليا ونهاية كمالها وتمامها ، فاين العلة فى هذه الإرادة ؟ ولكن العلة والنقص فى الإرادة التى يكون مصدرها النفس والهوى ، وغايتها نيل حظ المريد من محبوبه ، وان كان المحبوب يريد ذلك لكن غيره أحب اليه منه ، وهو أن يكون مراده محض حق محبوبه وحصول مرضاته ، فانيا عن حظه هو من محبوبه ، بل قد صار حظه منه نفس حقه ومراده ، فهذه هى الارادة والمحبة التى لا علة فيها ولا نقص . نسأل الله تعالى أن يمن علينا ويحيينا ولو بنفس منها كما منّ بتعليمها ومعرفتها إنه جواد كريم

الوجه الثانى عشر : أنه قال بعد هذا « فصحة الارادة بذل الوسع واستفراغ الطاقة مع ترك الاختيار والسكون الى مجارى الأقدار ، فيكون كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء » فاين هذا من قوله « وذلك فى طريق الخواص نقص وتفرق » وهل

يكون بذل الوسع واستفراغ الطاقة إلا مع تمام الارادة ؟ وانما الذى يفرض له النقص من الارادة نوعان : أحدهما إرادة مصدرها طلب الحظ ، والثانى اختياره فيما يفعل به بغير اختياره . فعن هاتين الارادتين ينبغى الفناء ، وفيهما يكون النقص ، فالكمال ترك الاختيار فيهما ، والسكون الى مراد المحبوب وحقه فى الأولى ، والى مجارى أقداره وحكمه فى الثانية ، فيكون فى الأولى حيا فعالا منازعا لقواطعه عن مراد محبوبه ، وفى الثانية كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء . وبهذا التفصيل ينكشف سر هذه المسألة ، ويحصل التميز بين محض العبودية وحظ النفس . والله الموفق للصواب

﴿ فصل ﴾ المثال الثانى الزهد . قال أبو العباس « هو للعوام أيضا ، لأنه حبس النفس عن الملذوذات ، وإمساكها عن فضول الشهوات ، ومخالفة دواعى الهوى ، وترك ما لا يغنى من الأشياء . وهذا نقص فى طريق الخاصة ، لأنه تعظيم للدنيا واحتباس عن انتقادها ، وتعذيب للظاهر بتركها مع تعلق الباطن بها . والمبالاة بالدنيا عين الرجوع الى ذاتك ، وتضييع الوقت فى منازعة نفسك وشهود جنسك وبقائك معك ، ألا ترى إلى من أعطاه الله الدنيا بحذافيرها كيف قال (ص ٣٩) : ﴿هٰذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِساب﴾ وذلك حيث عافى باطنه من شهودها ، وظاهره من التعلق بها . فالزهد صرف الرغبة اليه وتعلق الهمة به والاشتغال به عن كل شيء يشغل عنه ، ليتولى هو حسم هذه الأسباب عنك . كما قيل : إن بعض المريدين سأل بعض المشايخ فقال : أيها الشيخ بأى شيء تدفع إبليس اذا قصدك بالوسوسة ؟ فقال الشيخ : إنى لا أعرف إبليس فأحتاج الى دفعه ، نحن قوم صرفنا هممنا اليه فكفانا مادونه . وكما قال :

تسترت عن دهرى بظل جناحه فعينى ترى دهرى وليس يرانى
فلو تسأل الأيام ما اسمىَ ما درت وأين مكانى ما عرفن مكانى »

فيقال الكلام على هذا من وجوه : احدها أن جعل الزهد للعوام لما ذكره انما يتم إذا كان الزهد ملزوما لمنازعة النفس ومجاذبتها لدواعى الشهوة والهوى ، وحينئذ فيكون قلبه مشغولا بتلك الدواعى والجواذب ونفسه تطالبه بها وزهده يأمره باجتنابها . ولا ريب أن فوق هذا مقاما أعلى منه ، وهو طمأنينة نفسه وسكونها الى محبوبها وانجذاب دواعيها إلى محابه ومرضاته ، وهذا للخواص من المؤمنين . ولكن هذه المنازعة غير

لازمة للزهد ، وان كان لا بد منها فى حكم الطبيعة لتحقق الابتلاء والامتحان ، وليتحقق ترك العبد حظه وهواه لربه ايثارا له على هواه ونفسه . الثانى أنه ولو كانت هذه المنازعة وحبس النفس عن الملذوذات من لوازم الزهد لم يكن فيها نقص ولا علة ، فانها من لوازم الطبيعة وأحكام الجبلة ، وهى كالجوع والعطش والألم والتعب ، فحبس النفس عن إجابة دواعيها إيثارا لله ومرضاته عليها لا يكون نقصا ولا مستلزما لنقص . وقد اختلف أرباب السلوك هنا فى هذه المسألة ، وهى أيهما أفضل : من له داعية وشهوة وهو يحبسها لله ولا يطيعها حبا له وحياء منه وخوفا . أو من لا داعية له تنازعه ، بل نفسه خالية من تلك الدواعى والشهوة ، قد اطمأنت الى ربها واشتغلت به عن غيره ، وامتلأت بحبه وارادته ، فليس فيها موضع لارادة غيره ولا حبه ؟ فرجحت طائفة الأول وقالت هذا يدل على قوة تعلقه وشدة محبته ، فهو يعاصى دواعى الطبع والشهوة ويقهرها بسلطان محبته وإرادته وخوفه من الله ، وهذا يدل على تمكنه من نفسه وتمكن حاله مع الله وغلبة داعى الحق عنده على داعى الطبع والنفس . قالوا : وأيضا فله مزيد فى حاله وايمانه بهذا الإيثار والترك ، مع حضور داعى الفعل عنده ، ومزيد مجاهدة عدوه الباطن ونفسه وهواه ، كما يكون له مزيد مجاهدة عدوه الظاهر . قالوا : والذوق والوجد يشهد لمزيده من الحب والأنس والسرور والفرح بربه عند إيثاره على دواعى الهـــوى والنفس ، والمطمئن الذى ليس فيه هذا الداعى ليس له مزيد من هذه الجهة ، وان كان مزيده من جهة أخرى فهى مشتركة بينهما ، ويختص هـذا بمزيده من الايثار والمجاهدة . قالوا : وأيضا فهذا مبتلى بهذه الدواعى والإرادات ، وذلك معافى منها . وقد جرت سنة الله فى المؤمنين من عباده أن يبتليهم على حسب إيمانهم ، فمن ازداد إيمانه زيد فى بلائه ، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال « يبتلى المرء على حسب دينه ، فان كان فى دينه صلابة شدد عليه البلاء ، وإن كان فى دينه رقة خفف عنه البلاء » والمراد بالدين هنا الايمان الذى يثبت عند نوازل البلاء ، فان المؤمن يبتلى على قدر ما يحمله إيمانه من وارد البلاء . قالوا : فالبلاء بمخالفة دواعى النفس والطبع من أشد البلاء ، فانه لا يصبر عليه إلا الصدّيقون . وأما البلاء الذى يجرى على العبد بغير اختياره كالمرض والجوع والعطش ونحوها فالصبر عليه لا يتوقف على الإيمان ، بل يصبر عليه البر والفاجر ، لا سيما إذا علم أنه لا معول

له إلا الصبر ، فانه ان لم يصبر اختيارا صبر اضطرارا . ولهذا كان بين ابتلاء يوسف الصديق بما فعل به إخوته من الأذى والالقاء فى الجب وبيعه بيع العبيد والتفريق بينه وبين أبيه ، وابتلائه بمراودة المرأة وهو شاب عزب غريب بمنزلة العبد لها وهى الداعية الى ذلك ، فرق عظيم لا يعرفه إلا من عرف مراتب البلاء ، فان الشباب داع الى الشهوة والشاب قد يستحى من أهله ومعارفه من قضاء وطره ، فاذا صار فى دار الغربة زال ذلك الاستحياء والاحتشام ، واذا كان عزبا كان أشد لشهوته ، واذا كانت المرأة هى الطالبة كان أشد ، وإذا كانت جميلة كان أعظم ، فان كانت ذات منصب كان أقوى فى الشهوة ، فان كان ذلك فى دارها وتحت حكمها بحيث لا يخاف الفضيحة ولا الشهرة كان أبلغ ، فان استوثقت بتغليق الأبواب والاحتفاظ من الداخل كان أقوى أيضا للطلب ، فان كان الرجل كمملوكها وهى كالحاكمة عليه الآمرة الناهية كان أبلغ فى الداعى ، فاذا كانت المرأة شديدة العشق والمحبة للرجل قد امتلأ قلبها من حبه فهذا الابتلاء الذى صبر معه مثل الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم صلوات الله عليهم أجمعين . ولا ريب أن هذا الابتلاء أعظم من الابتلاء الأول ، بل هو من جنس ابتلاء الخليل بذبح ولده ، اذ كلاهما ابتلاء بمخالفة الطبع ودواعى النفس والشهوة ومفارقة حكم طبعه ، وهذا بخلاف البلوى التى أصابت ذا النون والتى أصابت أيوب . قالوا : وأيضا فان هذه هى النكتة التى من أجلها كان صالحو البشر أفضل من الملائكة لأن الملائكة عبادتهم بريئة عن شوائب دواعى النفس والشهوات البشرية ، فهى صادرة عن غير معارضة ولا مانع ولا عائق ، وهى كالنفس للحى ، وأما عبادات البشر فمع منازعات النفوس وقمع الشهوات ومخالفة دواعى الطبع فكانت أكمل ، ولهذا كان أكثر الناس على تفضيلهم على الملائكة لهذا المعنى ولغيره ، فمن لم يخلق له تلك الدواعى والشهوات فهو بمنزلة الملائكة ، ومن خلقت له وأعانه الله على دفعها وقهرها وعصيانها كان أكمل وأفضل . قالوا : وأيضا فان حقيقة المحبة إيثار المحبوب ومرضاته على ما سواه . قالوا : وكيف يصح الايثار ممن لا تنازعه نفسه وطبعه إلى غير المحبوب . قالوا : وليس العجب من قلب خال عن الشهوات والارادات قد ماتت دواعى طبعه وشهوته إذا عكف على محبوبه ومعبوده واطمأن اليه واجتمعت همته ، وإنما العجب من قلب قد ابتلى بما ابتلى به من

الهوى والشهوة ودواعى الطبيعة مع قوة سلطانها وغلبتها وضعفه وكثرة الجيوش التى تغير على قلبه كل وقت إذا آثر ربه ومرضاته على هواه وشهوته ودواعى طبعه ، فهو هارب إلى ربه من بين تلك الجيوش ، وعاكف عليه فى تلك الزعازع والأهوية التى تغشى على الاسماع والابصار والافئدة يتحمل منها لأجل محبوبه ما لا تتحمله الجبـــال الراسيات . قالوا : وأيضا فنهى النفس عن الهوى عبودية خاصة لها تأثير خاص ، وإنما يحصل إذا كان ثم ما ينهى عنه النفس . قالوا : وأيضا فالهوى عدو الانسان ، فاذا قهر عدوه وصار تحت قبضته وسلطانه كان أقوى وأكمل ممن لا عدو له يقهره . قالوا : ولهذا كان حالُ النبي ﷺ فى قهره قرينه حتى انقاد وأسلم له فلم يكن يأمره إلا بخير أكملَ من حال عمر حيث كان الشيطان إذا رآه يفر منه وكان إذا سلك فجا سلك غير فجه . وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو : كيف لا يقف الشيطان لعمر بل يفر منه ، ومع هذا قد تفلت على النبي ﷺ وتعرض له وهو فى الصلاة وأراد أن يقطع عليه الصلاة ؟ ومعلوم ان حال الرسول أكمل وأقوى . والجواب ما ذكرناه أن شيطان عمر كان يفر منه فلا يقدر أحدهما على قهر صاحبه ، وأما الشيطان الذى تعرض للنبي ﷺ فقد أخذه وأسره وجعله فى قبضته كالاسير ، وأين من يهرب منه عدوه فلا يظفر به الى من يظفر بعدوه فيجعله فى أسره وتحت يده وقبضته ، فهذا ونحوه مما احتج به أرباب هذا القول

واحتج أرباب القول الثانى ـ وهم الذين رجحوا من لا منازعة فى طباعه ولا هوى له يغالبه ـ بأن قالوا : كيف تستوى النفس المطمئنة الى ربها العاكفة على حبـــه التى لا منازعة فيها أصلا ولا داعية تدعوها الى الإعراض عنه ، والنفس المشغولة بمحاربة هواها ودواعيها وجواذبها ؟ قالوا : وأيضا فى الزمن الذى يشتغل هذا بنفسه ومحاربة هواه وطبعه يكون صاحب النفس المطمئنة قد قطع مراحل من سيره وفاز بقرب فات صاحب المحاربة والمنازعة . قالوا : وهذا كما لو كان رجلان مسافرين فى طريق فطلع على أحدهما قاطع اشتغل بدفعه عن نفسه ومحاربته ليتمكن من سيره ، والآخر سائر لم يعرض له قاطع بل هو على جادة سيره ، فان هـذا يقطع من المسافة أكثر مما يقطع الأول ويقرب الى الغاية أكثر من قربه . قالوا : وأيضا فان للقلب قوة يسير بها ، فاذا

صرف تلك القوة فى دفع العوارض والدواعى القاطعة له عن السير اشتغل قلبه بدفعها عن السير فى زمن المدافعة. قالوا: ولان المقصود بالقصد الأول إنما هو السير الى الله، والاشتغال بدفع العوارض مقصود لغيره، فالاشتغال بالمقصود لنفسه أولى وأفضل من الاشتغال بالوسيلة. قالوا: وأيضا فالعوارض المانعة للقلب من سيره هى من باب المرض، واجتماع القلب على الله وطمأنينته به وسكونه اليه بلا منازع ولا جاذب ولا معارض هو صحته وحياته ونعيمه، فكيف يكون القلب الذى يعرض له مرض وهو مشغول بدوائه أفضل من القلب الذى لا داء به ولا علة؟ قالوا: وأيضا فهذه الدواعى والميول والارادات التى فى القلب تقتضى جذبه وتعويقه عن وجه سيره، وما فيه من داعى المحبة والايمان يقتضى جذبه عن طريقها فتتعارض الجواذب فان لم توقفه عوقته ولا بد، فأين السير بلا معوق من السير مع المعوق؟ قالوا: وأيضا فالذى يسير العبد باذن ربه إنما هو همته، والهمة اذا علت وارتفعت لم تلحقها القواطع والآفات، كالطائر اذا علا وارتفع فى الجو فات الرماة ولم يلحقه الحصا ولا البنادق ولا السهام، وانما تدرك هذه الاشياء للطائر اذا لم يكن عاليا، فكذلك الهمة العالية قد فاتت الجوارح والكواسر، وانما تلحق الآفات والدواعى والارادات الهمة النازلة، فاما اذا علت فلا تلحقها الآفات. قالوا: وأيضا فالحس والوجود شاهد بان قلب المحب متى خلا من غير المحبوب واجتمعت شئونه كلها على محبوبه ولم يبق فيه التفات الى غيره كان أكمل محبة من القلب الملتفت الى الرقباء المهتم بمحاربتهم ومدافعتهم والهرب منهم والتوارى عنهم. قالوا: فكم بين محب يجتاز على الرقباء فيطرقون من هيبته وخشيته ولا يرفع أحد منهم رأسه اليه، وبين محب اذا اجتاز بالرقباء هاشوا عليه كالزنابير أو كالكلاب فاشتغل بدفعهم وحرابهم أو جد فى الهرب منهم، فكيف يسوى هذا بهذا، أم كيف يفضل عليه مع هذا التباين؟ قالوا: وأيضا فالمحبة الخالصة الصادقة حقيقتها أنها نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، واذا احترق ما سوى مراده عدم وذهب أثره، فاذا بقى فى القلب شىء من سوى مراده لم تكن المحبة تامة ولا صادقة بل هى محبة مشوبة بغيرها، فالمحب الصادق ليس فى قلبه سوى مراد محبوبه حتى ينازعه ويدافعه، والآخر فى قلبه بقية لغير المحبوب فهو جاهد على إخراجها وإعدامها. قالوا:

وأيضا فالواردات الإلهيـة ترد على القلوب على قدر استعدادها وقبولها ، فاذا صادفت القلب خاليـا فارغا من العوارض والمنازعات ودواعى الطبع والهوى ملأته على قدر فراغه ، واذا امتلأ منها لم يبق لأضدادها وأعدائها فيه مسلك ، واذا صادفت فيه موضعا مشغولا بغير من الأغيار لم يساكن ذلك الموضع فيدخل الضد والعدو من تلك الثلمة ، كما قال القائل :

لا كان من لسواك فيـه بقيـة … يجد السبيل بها اليـه العـذل

وقال : ومهمـا بقى للصحو فيه بقيـة … يجد نحوك اللاحى سبيلا الى العذل

قالوا : وأيضا فدواعى الطبع وإرادات النفس وشهواتها مصدرها إما جهل واما ضعف ، فانها لا تصدر إلا من جهل العبد بآثارها وموجباتها ، أو يكون عالما بذلك لـكن فيه ضعف وعجز يمنعه عن محوها من قلبه بالـكلية ، وما كان سببه جهلا أو عجزا لا يكون كمالا ولا مستلزما لـكمال ، وأما القلب الخالى منها ومن الاشتغال بدفعها فقلب شريف قوى علوى رفيع . قالوا : وأيضا فهذه الإرادات والدواعى لا تسير العبد ، بل إما أن تنكسه إن أجابها ، وإما أن تعوقه وتوقفه إن اشتغل بمدافعتها ، وأما إرادات القلب السليم منها والنفس المطمئنة بربها فـكل إرداة منها تسير به مراحل على مهلة ، فهو يسير رويداً وقد سبق السعادة كما قيل :

من لى بمثل سـيرك المذلل … تمشى رويداً وتجى فى الأول

قالوا : وأيضا فان هذه الدواعى والإرادات إنما تحمد عاقبتها اذا ردت صاحبها الى حال السليم منها فيـكون كماله فى تشبهه به وسيره معه ، فـكيف يكون أكمل ممن كماله إنما هو فى تشبهه به ؟ قالوا : وأيضا فالنفوس ثلاثة : أمارة ، ولوامة ، ومطمئنة . والنفس الأمارة هى المطيعة لدواعى طباعها وشهواتها ، فمبادى كونها أمارة هى تلك الدواعى والإرادات فتستحكم فتصير عزمات ، ثم توجب الأفعال . فمبدأ صفة الذم فيها تلك الدواعى . وأما النفس المطمئنة فهى التى عدمت هذه المبادى فعدمت غاياتها ، فـكيف تـكون مبادى النفس الأمارة مما يوجب لها مزية على النفس المطمئنة ؟ فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة أيضا لقولها

والحق ان كلا الطائفتين على صواب من القول ، لـكن كل فرقة لحظت غير ملحظ

الفرقة الاخرى ، فكأنهما لم يتواردا على محل واحد ، بل الفرقة الاولى نظرت الى نهاية سير المجاهد لنفسه وإرادته وما ترتب له عليها من الاحوال والمقامات فأوجب لها شهود نهايته رحجانه فحكمت بترجيحه واستحلت بتفضيله ، والفرقة الثانية نظرت الى بدايته فى شأنه ذلك ونهاية النفس المطمئنة فأوجب لها شهود الأمرين الحكم بترجيح القلب الخالى من تلك الدواعى ومجاهدتها ، وكل واحدة من الطائفتين فقد أدلت بحجج لا تمانع ، وأتت ببينات لا ترد ولا تدافع . وفصل الخطاب فى هذه المسألة يظهر بمسألة يرتضع معها من لبانها ويخرج من مشكاتها ، وهى ان العبد إذا كان له حال أو مقام مع الله ثم نزل عنه الى ذنب ارتكبه ثم تاب من ذنبه هل يعود الى مثل ما كان ؟ أو لا يعود ، بل ان رجع رجع الى أنزل من مقامه وأنقص من رتبته ؟ أو يعود خيرا مما كان ؟ فقالت طائفة : يعود بالتوبة الى مثل حاله الاولى ، فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، واذا محى أثر الذنب بالتوبة صار وجوده كعدمه فكأنه لم يكن ، فيعود الى مثل حاله . قالوا : ولأن التوبة هى الرجوع الى الله بعد الاباق منه ، فان المعصية إباق العبد من ربه ، فاذا تاب الى الله فقد رجع اليه ، واذا كان مسمى التوبة هو الرجوع ، فلو لم يعد الى حالته الاولى مع الله لم تكن توبته تامة ، والكلام انما هو فى التوبة النصوح . قالوا : ولأن التوبة كما ترفع أثر الذنب فى الحال بالاقلاع عنه وفى المستقبل بالعزم على أن لا يعود فكذلك ترفع أثره فى الماضى جملة ، ومن أثره فى الماضى انحطاط منزلته عند الله ونقصانه عنده ، فلا بد من ارتفاع هذا الأثر بالتوبة ، واذا ارتفع بها عاد الى مثل حاله . قالوا : ولأنه لو بقى نازلا من مرتبته منحطا عن منزلته بعد التوبة كما كان قبلها لم تكن التوبة قد محت أثر الذنب ولا أفادت فى الماضى شيئا ، وإن عاد الى دون منزلته ولم يبلغها فبلوغه تلك الدرجة إنما كان بالتوبة فلو ضعف تأثير التوبة عن اعادته الى منزلته الأولى لضعف عن تبليغه تلك المنزلة التى وصل اليها ، وان لم تكن التوبة ضعيفة التأثير عن تبليغه تلك المنزلة لم تكن ضعيفة التأثير عن إعادته الى المنزلة الأولى . قالوا : وأيضا ربط سبحانه الجزاء بالأعمال ربط الأسباب بمسبباتها ، فالجزاء من جنس العمل ، فكما رجع التائب الى الله بقلبه رجوعا تاما رجع الله عليه بمنزلته وحاله ، بل ما رجع العبد الى الله حتى رجع الله بقلبه اليه أولا فرجع الله اليه وتاب عليه ثانيا ، فتوبة العبد محفوفة بتوبتين من الله : توبة منه

إذنا وتمكينا فتاب بها العبد ، وتاب الله عليه قبولا ورضى . فتوبة العبد بين توبتين من الله ، وهذا يدل على عنايته سبحانه وبره ولطفه بعبده التائب ، فكيف يقال : انه لا يعيده مع هذا اللطف والبر الى حاله ؟ قالوا : وأيضا فان التوبة من أجلّ الطاعات وأوجبها على المؤمنين : وأعظمها غناء عنهم ، وهم اليها أحوج من كل شيء ، وهى من أحب الطاعات الى الله فانه يحب التوابين ، ويفرح بتوبة عبده اذا تاب اليه أعظم فرح وأكمله ، واذا كانت بهذه المثابة فالآتى بها آت بما هو من أفضل القربات وأجل الطاعات ، فاذا كان قد حصل له بالمعصية انحطاط ونزول مرتبة فبالتوبة يحصل له مزيد تقدم وعلو درجة ، فان لم تكن درجته بعد التوبة أعلى فانها لا تكون أنزل . قالوا : وأيضا فانا إذا قابلنا بين جناية المعصية والتقرب بالتوبة وجدنا الحاصل من التوبة أرجح من الأثر الحاصل من المعصية ، والكلام انما هو فى التوبة النصوح الكاملة ، وجانب الفضل أرجح من جانب العدل ، ولهذا كان فى جانب العدل آحاد بآحاد ، وجانب الفضل آحاد بعشرات الى سبعمائة الى أضعاف كثيرة ، وهذا يدل على رجحان جانب الفضل وغلبته ، وكذلك مصدرهما من الغضب والرحمة فان رحمة الرب تغلب غضبه . قالوا : وأيضا فالذنب بمنزلة المرض ، والتوبة بمنزلة العافية ، والعبد اذا مرض ثم عوفى وتكاملت عافيته رجعت صحته الى ما كانت ، بل ربما رجعت أقوى وأكمل مما كانت عليه ، لأنه ربما كان معه فى حال العافية آلام وأسقام كامنة فاذا اعتل ظهرت تلك الأسقام ثم زالت بالعافية جملة فتعود قوته خيرا مما كانت وأكمل ، وفى مثل هذا قال الشاعر :

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

وهذا الوجه هو أحد ما احتج به من قال : انه يعود بالتوبة خيرا مما كان قبل التوبة واحتجوا لقولهم أيضا بأن التوبة تثمر للعبد محبة من الله خاصة لا تحصل بدون التوبة ، بل التوبة شرط فى حصولها ، وإن حصل له محبة أخرى بغيرها من الطاعات فالمحبة الحاصلة له بالتوبة لا تنال بغيرها ، فان الله يحب التوابين ، ومن محبته لهم فرحه بتوبة أحدهم أعظم فرح وأكمله ، فاذا أثمرت له التوبة هذه المحبة ورجع بها الى طاعاته التى كان عليها أولا انضم أثرها إلى أثر تلك الطاعات فقوى الأثران فحصل له المزيد من القرب والوسيلة ، وهذا بخلاف ما يظنه من نقصت معرفته بربه من أنه سبحانه إذا غفر

لعبده ذنبه فانه لا يعود الود الذى كان له منه قبل الجنـاية . واحتجوا فى ذلك بأثر إسرائيلى مكذوب أن الله قال لداود عليه السلام : يا داود أما الذنب فقد غفرناه وأما الود فلا يعود . وهذا كذب قطعا ، فان الود يعود بعد التوبة النصوح أعظم مما كان ، فانه سبحانه يحب التوابين ، ولو لم يعد الود لما حصلت له محبته . وأيضا فانه يفرح بتوبة التائب ، ومحال أن يفرح بها أعظم فرح وأكمله وهو لا يحبه ، وتأمل سر اقتران هذين الاسمين فى قوله تعالى (البروج ١٣ - ١٤) : ﴿ انَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيد ، وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُود ﴾ تجد فيه من الرد والانكار على من قال : لا يعود الود والمحبة منه لعبده أبدا ، ما هو من كنوز القرآن ولطائف فهمه ، وفى ذلك ما يهيج القلب السليم ويأخذ بمجامعه ويجعله عاكفا على ربه ـ الذى لا إله إلا هو ولا رب له سواه ـ عكوف المحب الصادق على محبوبه الذى لا غنى له عنه ولا بد له منه ولا تندفع ضرورته بغيره أبدا . واحتجوا أيضا بأن العبد قد يكون بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، لأن الذنب يحدث له من الخوف والخشية والانكسار والتذلل لله والتضرع بين يديه والبكاء على خطيئته والندم عليها والأسف والاشفاء ما هو من أفضل أحوال العبد وأنفعها له فى دنياه وآخرته ، ولم تكن هذه الأمور لتحصل بدون أسبابها ، إذ حصول الملزوم بدون لازمه محال ، والله يحب من عبده كسرته وتضرعه وذله بين يديه واستعطافه وسؤاله أن يعفو عنـه ويغفر له ويتجاوز عن جرمه وخطيئته ، فاذا قضى عليه بالذنب فترتبت عليه هذه الآثار المحبوبة له كان ذلك القضاء خيرا له ، وليس ذلك إلا للمؤمن . ولهذا قال بعض السلف لو لم تكن التوبة أحب الأشياء اليه لما بالذنب أكرم الخلق عليه . وقيل إن فى بعض الآثار يقول الله تعالى لداود عليه السلام : يا داود كنت تدخـل علىَّ دخول الملوك على الملوك ، واليوم تدخل على دخول العبيد على المـلوك . قالوا وقد قال غير واحد من السلف : كان داود بعد التوبة خيرا منه قبل الخطيئة ، قالوا : ولهذا قال سبحانه (ص٢٥و٤٠) : ﴿ فَغَفَرْنا لَهُ ذٰلكَ وإنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب ﴾ فزاده على المغفرة أمرين : الزلفى وهى درجة القرب منه ، وقد قال فيها سلف الامة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وفراخهم ، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف . والثانى حسن المـآب وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله . قالوا : ومن تأمل زيادة القرب التى

أعطيها داود بعد المغفرة على صحة ما قلنا ، وأن العبد بعد التوبة يعود خيرا مما كان . قالوا وأيضا فان للعبودية لوازم وأحكاما وأسرارا وكمالات لا تحصل إلا بها ، ومن جملتها تكميل مقام الذل للعزيز الرحيم ، فان الله سبحانه يحب من عبده أن يكمل مقام الذل له وهذه هي حقيقة العبودية ، واشتقاقها يدل على ذلك ، فان العرب تقول : طريق معبَّد أي مذلل بوطء الاقدام . والذل أنواع : أكملها ذل المحب لمحبوبه ، الثاني ذل المملوك لمالكه ، الثالث ذل الجاني بين يدي المنعم عليه المحسن اليه المالك له ، الرابع ذل العاجز عن جميع مصالحه وحاجاته بين يدي القادر عليها التي هي في يده وبأمره . وتحت هذا قسمان : أحدهما ذل له في أن يجلب له ما ينفعه . والثاني ذل له في أن يدفع عنه ما يضره على الدوام . ويدخل في هذا ذل المصائب كالفقر والمرض وأنواع البلاء والمحن . فهذه خمسة أنواع من الذل اذا وفاها العبد حقها وشهدها كما ينبغي وعرف ما يراد به منه وقام بين يدي ربه مستصحبا لها شاهدا لذله من كل وجه ولعزة ربه وعظمته وجلاله كان قليل أعماله قائما مقام الكثير من أعمال غيره . قالوا : وهذه أسرار لا تدرك بمجرد الكلام ، فمن لا نصيب له منها فلا يضره أن يخلي المطي وحاديها ، ويعطي القوس باريها

فللكثافة أقوام لها خلقوا وللمحبة أكباد وأجفان

قالوا : وأيضا فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال « لله أشدّ فرحا بتوبة عبده من أحدكم أضل راحلته » . قالوا : وهذا أعظم ما يكون من الفرح وأكمله ، فان صاحب هذه الراحلة كان عليها مادة حياته من الطعام والشراب ، وهي مركبه الذي يقطع به مسافة سفره ، فلو عدمه لا نقطع في طريقه ، فكيف اذا عدم مع مركبه طعامه وشرابه . ثم إنه عدمها في أرض دوِّية لا أنيس بها ولا معين ولا من يأوي له ويرحمه ويحمله ، ثم إنها مهلكة لا ماء بها ولا طعام ، فلما أيس من الحياة بفقدها وجلس ينتظر الموت ، اذا هو براحلته قد أشرفت عليه ودنت منه ، فأي فرحة تعدل فرحة هذا ؟ ولو كان في الوجود فرح أعظم من هذا لمثل به النبي ﷺ ، ومع هذا ففرح الله بتوبة عبده إذا تاب اليه أعظم من فرح هذا براحلته . وتحت هذا سر عظيم يختص الله بفهمه من يشاء ، فان كنت ممن غلظ حجابه وكثفت نفسه وطباعه فعليك بوادي الخفا وهو وادي المحرِّفين للكلم عن مواضعه ، الواضعين له على غير المراد منه ، فهو واد قد سلكه خلق وتفرقوا

فى شعابه وطرقه ومتاهاته ، ولم تستقر لهم فيه قدم ولا لجأوا منه الى ركن وثيق ، بل هم كحاطب الليل وحاطم السيل . وإن نجاك الله من هذا الوادى فتأمل هذه الألفاظ النبوية المعصومة التى مقصود المتكلم بها غاية البيان مع مصدرها عن كمال العلم بالله وكمال النصيحة للامة . ومع هذه المقامات الثلاث ـ أعنى كمال بيان المتكلم وفصاحته وحسن تعبيره عن المعانى ، وكمال معرفته وعلمه بما يعبر عنه ، وكمال نصحه وارادته لهداية الخلائق ـ يستحيل عليه أن يخاطبهم بشيء وهو لا يريد منهم ما يدل عليه خطابه ، بل يريد منه أمرا بعيدا عن ذلك الخطاب ، إنما يدل عليه كدلالة الألغاز والأحاجى مع قدرته على التعبير عن ذلك المعنى بأحسن عبارة وأوجزها ، فكيف يليق به أن يعدل عن مقتضى البيان الرافع للاشكال المزيل للاجمال ، ويوقع الأمة فى أودية التأويلات وشعاب الاحتمالات والتجويزات ، سبحانك هذا بهتان عظيم . وهل قدر الرسولَ حق قدره أو مرسله حق قدره من نسب كلامه سبحانه أو كلام رسوله الى مثل ذلك ؟ ففصاحة الرسول وبيانه وعلمه ومعرفته ونصحه وشفقته يحيل عليه أن يكون مراده من كلامه ما يحمله عليه المحرفون للكلم عن مواضعه المتأولون له غير تأويله ، وأن يكون كلامه من جنس الألغاز والأحاجى . والحمد لله رب العالمين

فان قلت : فهل من مسلك غير هذا الوادى الذى ذممته فنسلك فيه ، أو من طريق يستقيم عليه السالك ؟ قلت : نعم بحمد الله ، الطريق واضحة المنار بينة الأعلام مضيئة للسالكين ، وأولها أن تحذف خصائص المخلوقين عن إضافتها الى صفات رب العالمين . فان هذه العقدة هى أصل بلاء الناس ، فمن حلها فما بعدها أيسر منها ، ومن هلك بها فما بعدها أشد منها . وهل نفى أحد ما نفى من صفات الرب ونعوت جلاله إلا لسبق نظره الضعيف اليها واحتجابه بها عن أصل الصفة وتجردها عن خصائص المحدث ، فان الصفة يلزمها لوازم باختلاف محلها ، فيظن القاصر إذا رأى ذلك اللازم فى المحل المحدث أنه لازم لتلك الصفة مطلقا فهو يفر من إثباتها للخالق سبحانه حيث لم يتجرد فى ظنه عن ذلك اللازم ، وهــــذا كما فعل من نفى عنه سبحانه الفرح والمحبة والرضى والغضب والكراهة والمقت والبغض ، وردها كلها الى الإرادة ، فانه فهم فرحا مستلزما لخصائص المخلوق من انبساط دم القلب وحصول ما ينفعه ، وكذلك فهم غضبا هو غليان دم

القلب طلبا للانتقام ، وكذلك فهم محبة ورضى وكراهة ورحمة مقرونة بخصائص المخلوقين ، فان ذلك هو السابق الى فهمه ، وهو المشهود فى علمه الذى لم تصل معرفته الى سواه ولم يحط علمه بغيره . ولما كان هو السابق الى فهمه لم يجد بدا من نفيه عن الخالق ، والصفة لم تتجرد فى عقله عن هذا اللازم فلم يجد بدا من نفيها . ثم لأصحاب هذه الطريق مسلكان : أحدهما مسلك التناقض البين ، وهو إثبات كثير من الصفات ، ولا يلتفت فيها الى هذا الخيال ، بل يثبتها مجردة عن خصائص المخلوق ـ كالعلم والقدرة والارادة والسمع والبصر وغيرها ـ فان كان إثبات تلك الصفات التى نفاها يستلزم المحذور الذى فر منه فكيف لم يستلزمه إثبات ما أثبته ؟ وإن كان إثبات ما أثبته لا يستلزم محذورا فكيف يستلزمه إثبات ما نفاه ؟ وهل فى التناقض أعجب من هذا ؟ والمسلك الثانى مسلك النفى العام والتعطيل المحض هربا من التناقض والتزاما لاعظم الباطل وأمحل المحال ، فاذا الحق المحض فى الاثبات المحض الذى أثبته الله لنفسه فى كلامه وعلى لسان رسوله من غير تشبيه ولا تمثيل ومن غير تحريف ولا تبديل . ومنشأ غلط المحرّفين إنما هو ظنهم أن ما يلزم الصفة فى المحل المعين يلزمها لذاتها ، فينفون ذلك اللازم عن الله ، فيضطرون فى نفيه الى نفى الصفة ! ولا ريب أن الأمور ثلاثة : أمر يلزم الصفة لذاتها من حيث هى ، فهذا لا يجب ـ بل لا يجوز ـ نفيه ، كما يلزم العلم والسمع والبصر من تعلقها بمعلوم ومسموع ومبصر فلا يجوز نفى هذه التعلقات عن هذه الصفات اذ لا تحقق لها بدونها ، وكذلك الارادة مثلا تستلزم العلم لذاتها فلا يجوز نفى لازمها عنها ، وكذلك السمع والبصر والعلم يستلزم الحياة فلا يجوز نفى لوازمها ، وكذلك كون المرئى مرئيا حقيقة له لوازم لا ينفك عنها ولا سبيل الى نفى تلك اللوازم إلا بنفى الرؤية ، وكذلك الفعل الاختيارى له لوازم لا بد فيه منها ، فمن نفى لوازمه نفى الفعل الاختيارى ولا بد . ومن هنا كان أهل الكلام أكثر الناس تناقضا واضطرابا فانهم ينفون الشئ ويثبتون ملزومه ، ويثبتون الشئ وينفون لازمه ، فتتناقض أقوالهم وأدلتهم ، ويقع السالك خلفهم فى الحيرة والشك . ولهذا يكون نهاية أمر أكثرهم الشك والحيرة ، حاشى من هو فى خفارة بلادته منهم ، أو من قد خرق تلك الخيالات وقطع تلك الشبهات وحكم الفطرة والشرعة والعقل المؤيد بنور الوحى عليها ، فنقدها نقد

الصيارف فنفى زغلها ، وعلم أن الصحيح منها إما أن يكون قد تولت النصوص بيانه ، وإما أن يكون فيها غنية عنه بما هو خير منه وأقرب طريقا وأسهل تناولا ، ولا يستفيد المؤمن ـ البصير بما جاء به الرسول العارف به ـ من المتكلمين سوى مناقضة بعضهم بعضا ومعارضته وابداء بعضهم عوار بعض ومحاربة بعضهم بعضا ، فيتولى بعضهم محاربة بعض ويسلم ما جاء به الرسول . فاذا رأى المؤمن العالم الناصح لله ولرسوله أحدهم قد تعدى الى ما جاء به الرسول يناقضه ويعارضه ، فليعلم أنهم لا طريق لهم الى ذلك أبدا ، ولا يقع ردهم إلا على آراء أمثالهم وأشباههم . وأما ما جاء به الرسول فمحفوظ محروس مصون من تطرق المعارضة والمناقضة اليه . فان وجدت شيئا من ذلك فى كلامهم فبدار بدار الى إبداء فضائحهم وكشف تلبيسهم ومحالهم وتناقضهم وتبيين كذبهم على العقل والوحى ، فانهم لا يردون شيئا مما جاء به الرسول إلا بزخرف من القول يغتر به ضعيف العقل والايمان ، فاكشفه ولا تهن ، تجده كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب . ولولا أن كل مسائل القوم وشبههم التى خالفوا فيها النصوص بهذه المثابة لذكرنا من أمثلة ذلك ما تقرّ به عيون أهل الايمان السائرين الى الله على طريق الرسول وأصحابه ، وان وفق الله سبحانه جردنا لذلك كتابا مفردا ، وقد كفانا شيخ الاسلام ابن تيمية هذا المقصد فى عامة كتبه ، لا سيما كتابه الذى وسمه ببيان موافقة العقل الصريح للنقل الصحيح ، فمزق فيه شملهم كل ممزق ، وكشف أسرارهم وهتك استارهم ، فجزاه الله عن الاسلام وأهله من أفضل الجزاء . واعلم أنه لا ترد شبهة صحيحة قط على ما جاء به الرسول ، بل الشبهة التى يوردها أهل البدع والضلال على أهل السنة لا تخلو من قسمين : إما أن يكون القول الذى أوردت عليه ليس من أقوال الرسول بل تكون نسبته اليه غلطا ، وهذا لا يكون متفقا عليه بين أهل السنة أبداً ، بل يكون قد قاله بعضهم وغلط فيه ، فان العصمة انما هى لمجموع الامة لا لطائفة معينة منها . وإما أن يكون القول الذى أوردت عليه قولا صحيحا لكن لا ترد تلك الشبهة عليه ، وحينئذ فلا بد له من أحد أمرين : إما أن تكون لازمة ، وإما ألا تكون لازمة . فان كانت لازمة لما جاء بها الرسول فهى حق لا شبهة ، إذ لازم الحق حق ، ولا ينبغى الفرار منها كما يفعل الضعفاء

من المنتسبين إلى السنة ، بل كل ما لزم من الحق فهو حق يتعين القول به كائنا ما كان ، وهل تسلط أهل البدع والضلال على المنتسبين للسنة إلا بهذه الطريق ، ألزموهم بلوازم تلزم الحق فلم يلتزموها ودفعوها وأثبتوا ملزوماتها ، فتسلطوا عليهم بما أنكروه لا بما أثبتوه ، فلو أثبتوا لوازم الحق ولم يفروا منها لم يجد أعداؤهم اليهم سبيلا ، وان لم تكن لازمة لهم فالزامهم إياها باطل ، وعلى التقدين فلا طريق لهم الى رد أقوالهم . وحينئذ فلهم جوابان : مركب مجمل ، ومفرد مفصل . أما الأول فيقولون لهم : هذه اللوازم التى تلزمونا بها إما أن تكون لازمة فى نفس الأمر ، وإما أن لا تكون لازمة . فان كانت لازمة فهى حق إذ قد ثبت أن ما جاء به الرسول ﷺ فهو الحق الصريح ، ولازم الحق حق . وان لم تكن لازمة فهى مندفعة ولا يجوز إلزامها . وأما الجواب المفصل فيفردون كل إلزام بجواب ، ولا يردونه مطلقا بل ينظرون إلى ألفاظ ذلك الالزام ومعانيه ، فان كان لفظها موافقا لما جاء به الرسول يتضمن إثبات ما أثبته ونفى ما نفاه فلا يكون المعنى إلا حقا ، فيقبلون ذلك الإلزام . وان كان مخالفا لما جاء به الرسول ﷺ متضمنا لنفى ما أثبته أو إثبات ما نفاه كان باطلا لفظا ومعنى فيقابلونه بالرد . وإن كان لفظا مجملا محتملا لحق وباطل لم يقبلوه مطلقا ولم يردوه مطلقا حتى يستفسروا قائله ماذا أراد به ، فان أراد معنى صحيحا مطابقا لما جاء به الرسول ﷺ قبلوه ولم يطلقوا اللفظ المحتمل إطلاقا ، وان أراد معنى باطلا ردوه ولم يطلقوا نفى اللفظ المحتمل أيضا . فهذه قاعدتهم التى بها يعتصمون وعليها يعولون . وبسط هذه الكلمات يستدعى أسفارا لا سفرا واحدا ، ومن لا ضياء له لا ينتفع بها ولا بغيرها ، فلنقتصر عليها ، ولنعد الى المقصود فنقول وبالله التوفيق :

فرح الرب سبحانه هذا الفرح العظيم بتوبة عبده اذا تاب اليه هو من ملزومات محبته ولوازمها ، أعنى كونه محبا لعباده المؤمنين ، محبوبا لهم ، وإنما خلق خلقه لعبادته المتضمنة لكمال محبته والخضوع له ، ولهذا خلق الجنة والنار ، ولهذا أرسل الرسل وأنزل الكتب ، وهذا هو الحق الذى خلق به السموات والأرض وأنزل به الكتاب ، قال تعالى (الحجر ٨٥) : ﴿وما خَلَقْنا السَّمٰوٰاتِ والْأَرْضَ وما بَيْنَهُما إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ وقال تعالى (يونس ٣-٥) : ﴿ إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ فى سِتَّةِ أيَّام

ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إلاَّ مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ ، ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ — الى قوله — هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللهُ ذَٰلِكَ إلاَّ بِالْحَقِّ ﴾ وقوله (آل عمران ١-٣) : ﴿ الم . اللهُ لا إِلٰهَ إلاَّ هُوَ الْحَىُّ القَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ ﴾ فهذا أمره وتنزيله مصدره الحق ، والأول خلقه وتكوينه مصدره الحق أيضا ، فبالحق كان الخلق والأمر وعنه صدر الخلق والأمر ، وقال (الذاريات ٥٦) : ﴿ وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هى عبادته التى أصلها كمال محبته ، وهو سبحانه كما أنه يحب أن يعبد ، يحب أن يحمد ويثنى عليه ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى . كما قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح « لا أحد أحب اليه المدح من الله ، ومن أجل ذلك أثنى على نفسه » وفى المسند من حديث الأسود بن سريع أنه قال : يا رسول الله ، إنى حمدت ربى بمحامد فقال « ان ربك يحب الحمد » فهو يحب نفسه ومن أجل ذلك يثنى على نفسه . ويحمد نفسه ، ويقدس نفسه ، ويحب من يحبه ويحمده ويثنى عليه . بل كلما كانت محبة عبده له أقوى كانت محبة الله له أكمل وأتم ، فلا أحد أحب اليه ممن يحبه ويحمده ويثنى عليه . ومن أجل ذلك كان الشرك أبغض الأشياء اليه لانه ينقص هذه المحبة ويجعلها بينه وبين من أشرك به ، ولهذا لا يغفر الله أن يشرك به لان الشرك يتضمن نقصان هذه المحبة ، والتسوية فيها بينه وبين غيره ، ولا ريب أن هذا من أعظم ذنوب المحب عند محبوبه التى يسقط بها من عينه ، وتنقص بها مرتبته عنده اذا كان من المخلوقين ، فكيف يحتمل رب العالمين أن يشرك بينه وبين غيره فى المحبة . والمخلوق لا يحتمل ذلك ولا يرضى به ولا يغفر هذا الذنب لمحبه أبدا ، وعساه أن يتجاوز لمحبه عن غيره من الهفوات والزلات فى حقه ، ومتى علم بأنه يحب غيره كما يحبه لم يغفر له هذا الذنب ، ولم يقربه اليه . هذا مقتضى الطبيعة والفطرة . أفلا يستحى العبد أن يسوى بين إلهه ومعبوده وبين غيره فى هذه العبودية والمحبة ؟ قال تعالى (البقرة ١٦٥) : ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾ فأخبر سبحانه أن من أحب شيئا دون الله كما يحب الله

فقد اتخذه نداً ، وهذا معنى قول المشركين لمعبوديهم (الشعراء ٩٧ - ٩٨) : ﴿ تاللهِ إنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ . إذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمِينَ ﴾ فهذه تسوية فى المحبة والتأليه ، لا فى الذات والأفعال والصفات . والمقصود أنه سبحانه يحب نفسه أعظم محبة ويحب من يحبه ، وخلق خلقه لذلك ، وشرع شرائعه وأنزل كتبه لأجل ذلك ، وأعد الثواب والعقاب لأجل ذلك ، وهذا هو محض الحق الذى به قامت السموات والأرض وكان الخلق والامر ، فاذا قام به العبد فقد قام بالأمر الذى خلق له فرضى عنه صانعه وبارئه وأحبه اذ كان يحب ويرضى ، فاذا صدف عن ذلك وأعرض عنه وأبق عن مالكه وسيده أبغضه ومقته ، لأنه خرج عما خلق له وصار الى ضد الحال التى هو لها ، فاستوجب منه غضبه بدلا من رضاه وعقوبته بدلا من رحمته ، فكأنه استدعى من رحمته أن يعامله من نفسه بخلاف ما يحب ، فانه سبحانه عفوٌّ يحب العفو ، محسن يحب الاحسان ، جواد يحب الجود ، سبقت رحمته غضبه . فاذا أبق منه العبد وخامر عليه ذاهبا الى عدوه فقد استدعى منه أن يجعل غضبه غالبا على رحمته وعقوبته على احسانه ، وهو سبحانه يحب من نفسه الإحسان والبر والإنعام ، فقد استدعى من ربه فعل ما غيره أحب اليه منه . وهو بمنزلة عبد السوء الذى يحمل أستاذه من المخلوقين المحسن اليه ، الذى طبيعته الاحسان والكرم ، على خلاف مقتضى طبيعته وسجيته . فأستاذه يحب لطبعه الاحسان ، وهو باساءته ولؤمه يكلفه ضد طباعه ويحمله على خلاف سجيته ، فاذا راجع هذا العبد ما يحب سيده ورجع اليه وأقبل عليه ورجع عن عدوه فقد صار الى الحال التى تقتضى محبة سيده له وإنعامه عليه وإحسانه اليه ، فيفرح به ولا بد أعظم فرح ، وهذا الفرح هو دليل غاية الكمال والغنى والمجد . فليتدبر اللبيب وجود هذا الفرح ولوازمه وملزوماته يجد فى طيه من المعارف الالهية مالا تتسع له إلا القلوب المهيأة لهذا الشأن المخلوقة له ، وهذا فرح محسن بر لطيف جواد غنى حميد ، لا فرح محتاج الى حصول متكمل به مستقيل له من غيره ، فهو عين الكمال ، لازم للكمال ، ملزوم له . وألطف من هذا الوجه أن الله سبحانه خلق عباده المؤمنين وخلق كل شيء لاجلهم ، كما قال تعالى (لقمان ٢٠) : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مافى السَّمٰوٰاتِ وما فى الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وباطِنَةً ﴾ وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق

فقال (الاسراء ٧٠) : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلا ﴾ [وقال] لصالحيهم وصفوتهم (آل عمران ٣٣) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْراهِيمَ وَآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمِينَ ﴾ وقال لموسى (طه ٤١) : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ واتخذ منهم الخليلين ، والخلة أعلى درجات المحبة . وقد جاء فى بعض الآثار : يقول تعالى « ابن آدم خلقتك لنفسى ، وخلقت كل شيء لك ، فبحقى عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له » . وفى أثر آخر يقول تعالى « ابن آدم ، خلقتك لنفسى فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب . ابن آدم اطلبنى تجدنى ، فان وجدتنى وجدت كل شيء ، وإن فتك فاتك كل شيء ، وأنا أحب اليك من كل شيء » . فالله سبحانه خلق عباده له ، ولهذا اشترى منهم أنفسهم ، وهذا عقد لم يعقده مع خلق غيرهم فيما أخبر به على لسان رسوله ﷺ ، ليسلموا اليه النفوس التى خلقها له . وهذا الشراء دليل على أنها محبوبة له ، مصطفاة عنده ، مرضية لديه . وقدر السلعة يعرف بجلالة قدر مشتريها وبمقدار ثمنها ، هذا اذا جهل قدرها فى نفسها ، فاذا عرف قدر السلعة وعرف مشتريها ، وعرف الثمن المبذول فيها ، علم شأنها ومرتبتها فى الوجود . فالسلعة أنت ، والله المشترى ، والثمن جنته والنظر الى وجهه وسماع كلامه فى دار الأمن والسلام . والله لا يصطفى لنفسه إلا أعز الأشياء وأشرفها وأعظمها قيمة . واذا كان قد اختار العبدَ لنفسه ، وارتضاه لمعرفته ومحبته ، وبنى له دارا فى جواره وقربه ، وجعل ملائكته خدَمه يسعون فى مصالحه فى يقظته ومنامه وحياته وموته ، ثم إنّ العبد أبق عن سيده ومالكه ، معرضا عن رضاه ، ثم لم يكفه ذلك حتى خامر عليه وصالح عدوه ووالاه من دونه وصار من جنده مؤثرا لمرضاته على مرضاة وليه ومالكه ، فقد باع نفسه ـ التى اشتراها منه إلهه ومالكه وجعل ثمنها جنته والنظر الى وجهه ـ من عدوه وأبغض خلقه اليه ، واستبدل غضبه برضاه ولعنته برحمته ومحبته . فأى مقت خلى هذا المخدوع عن نفسه لم يتعرض له من ربه ؟ قال تعالى (الكهف ٥٠) ﴿ وإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ، بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾

فتأمل ما تحت هذه المعاتبة وما فى طى هذا الخطاب من سوء هذا العبد وما تعرض له من المقت والخزى والهوان، ومن استعطاف ربه واستعتابه ودعائه إياه الى العود الى وليه ومولاه الحق الذى هو أولى به ، فاذا عاد اليه وتاب اليه فهو بمثابة من أسر له العدو محبوبا له ، واستولوا عليه وحالوا بينه وبينه ، فهرب منهم ذلك المحبوب وجاء الى محبه اختيارا وطوعا حتى توسد عتبة بابه ، فخرج المحب من بيته فوجد محبوبه متوسدا عتبة بابه واضعا خده وذقنه عليها ، فكيف يكون فرحه به؟ ولله المثل الأعلى . ويكفى فى هذا المثل الذى ضربه رسول الله ﷺ لمن فتح الله عين قلبه فأبصر ما فى طيه وما فى ضمنه ، وعلم أنه ليس كلام مجاز ولا مبالغة ولا تخييل ، بل كلام معصوم فى منطقه وعلمه وقصده وعمله ، كل كلمة منه فى موضعها ومنزلتها ومقرها لايتعدى بها عنه ولا يقصر بها . والذى يزيد هذا المعنى تقريرا أن محبة الرب لعبده سبقت محبة العبد له سبحانه ، فانه لولا محبة الله له لما جعل محبته فى قلبه ، فانه ألهمه حبه وآثره به ، فلما أحبه العبد جازاه على تلك المحبة محبة أعظم منها ، فانه من تقرب إليه شبرا تقرب اليه ذراعا ، ومن تقرب اليه ذراعا تقرب اليه باعا ، ومن أتاه مشيا أتاه هرولة (١) ، وهذا دليل على أن محبة الله لعبده الذى يحبه فوق محبة العبد له . واذا تعرض هذا المحبوب لمساخط حبيبه فهو بمنزلة المحبوب الذى فر من محبه وآثر غيره عليه ، فاذا عاوده وأقبل اليه وتخلى عن غيره ، فكيف لا يفرح به محبة أعظم فرح وأكمله ، والشاهد أقوى شاهد تؤيده الفطرة والعقل ، فلو لم يخبر الصادق المصدوق بما أخبر به من هذا الامر العظيم لكان فى الفطرة والعقل ما يشهد به ، فاذا انضافت الشرعة المنزلة الى العقل المنور فذلك الذى لا غاية له بعده ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

﴿ فصل ﴾ ومتى أراد العبد شاهداً هذا من نفسه فلينظر الى الفرحة التى يجدها بعد التوبة النصوح ، والسرور واللذة التى تحصل له ، والجزاء من جنس العمل . فلما تاب الى الله ففرح الله بتوبته أعقبه فرحا عظيما . وههنا دقيقة قل من يتفطن لها إلا فقيه فى هذا الشأن . وهى أن كل تائب لا بد له فى أول توبته من عصرة وضغطة فى قلبه من هم أو غم أو ضيق أو حزن ، ولو لم يكن إلا تألمه بفراق محبوبه فينضغط لذلك وينعصر

(١) كما فى صحيح البخارى من حديث أنس

قلبه ويضيق صدره ، فأكثر الخلق رجعوا من التوبة ونكسوا على رءوسهم لاجل هذه المحبة . والعارف الموفق يعلم أن الفرحة والسرور واللذة الحاصلة عقيب التوبة تكون على قدر هذه العصرة ، فكلما كانت أقوى وأشد كانت الفرحة واللذة أكمل وأتم ، ولذلك أسباب عديدة : منها أن هذه العصرة والقبض دليل على حياة قلبه ، وقوة استعداده ، ولو كان قلبه ميتا واستعداده ضعيفا لم يحصل له ذلك . وأيضا فان الشيطان لص الايمان ، واللص إنما يقصد المكان المعمور ، وأما المكان الخراب الذى لا يرجو أن يظفر منه بشئ فلا يقصده ، فاذا قويت المعارضات الشيطانية والعصرة دل على أن فى قلبه من الخير ما يشتد حرص الشيطان على نزعه منه . وأيضا فان قوة المعارض والمضاد تدل على قوة معارضه وضده ، ومثل هذا إما أن يكون رأسا فى الخير أو رأسا فى الشر ، فان النفوس الأبية القوية إن كانت خيرة رأست فى الخير ، وإن كانت شريرة رأست فى الشر . وأيضا فان بحسب موافقته لهذا العارض وصبره عليه يثمر له ذلك من اليقين والثبات والعزم ما يوجب زيادة انشراحه وطمأنينته . وأيضا فانه كلما عظم المطلوب كثرت العوارض والموانع دونه ، هذه سنة الله فى الخلق : فانظر الى الجنة وعظمها والى الموانع والقواطع التى حالت دونها حتى أوجبت أن ذهب من كل ألف رجل واحد اليها ، وانظر الى محبة الله والانقطاع اليه والانابة اليه والتبتل اليه وحده والأنس به واتخاذه وليا ووكيلا وكافيا وحسيبا هل يكتسب العبد شيئا أشرف منه ؟ وانظر الى القواطع والموانع الحائلة دونه ، حتى قد تعلق كل قوم بما تعلقوا به دونه ، والطالبون له منهم الواقف مع عمله ، والواقف مع علمه ، والواقف مع حاله ، والواقف مع ذوقه وجمعيته وحظه من ربه ، والمطلوب منهم وراء ذلك كله . والمقصود أن هذا الامر الحاصل بالتوبة لما كان من أجلّ الأمور وأعظمها نصبت عليه المعارضات والمحن ، ليتميز الصادق من الكاذب وتقع الفتنة ويحصل الابتلاء ويتميز من يصلح ممن لا يصلح ، قال تعالى (العنكبوت ١ ـ ٢) : ﴿ الم . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُون . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِين ﴾ وقال (الملك ٢) : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ ، ولكن إذا صبر على هذه العصرة قليلا أفضت به الى رياض الأنس وجنات الانشراح ، وإن

لم يصبر لها انقلب على وجهه . والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه . والمقصود أن هذا الفرح من الله بتوبة عبده ـ مع أنه لم يأت نظيره فى غيرها من الطاعات ـ دليل على عظم قدر التوبة وفضلها عند الله ، وأن التعبد له بها من أشرف التعبدات ، وهذا يدل على أن صاحبها يعود أكمل مما كان قبلها ، فهذا بعض ما احتج به لهذا القول

وأما الطائفة التى قالت : لا يعود الى مثل ما كان ، بل لا بد أن ينقص حاله ، فاحتجوا بأن الجناية توجب الوحشة وزوال المحبة ونقص العبودية بلا ريب . فليس العبد الموفر أوقاته على طاعة سيده كالعبد المفرط فى حقوقه ، وهذا مما لا يمكن جحده ومكابرته . فاذا تاب الى ربه ورجع اليه أثرت توبته ترك مؤاخذته بالذنب والعفو عنه ، وأما مقام القرب والمحبة فهيهات أن يعود . قالوا : ولان هذا فى زمن اشتغاله بالمعصية قد فاته فيه السير الى الله ، فلو كان واقفا فى موضعه لفاته التقدم ، فكيف وهو فى زمن المعصية كان سيره الى وراء وراء ؟ فاذا تاب واستقبل سيره فانه يحتاج الى سير جديد وقطع مسافة حتى يصل الى الموضع الذى تأخر منه . قالوا : ونحن لا ننكر أنه قد يأتى بطاعات وأعمال تبلغه الى منزلته ، وهذا مما لا يكون ، فانه بالتوبة قد وجه وجهه الى الطريق ، فلا يصل الى مكانه الذى رجع منه إلا بسير مستأنف يوصله اليه . ونحن لا ننكر أن العبد بعد التوبة يعمل أعمالا عظيمة لم يكن ليعملها قبل الذنب توجب له التقدم . قالوا : وأيضا فلو رجع الى حاله التى كان عليها أو الى أرفع منها لكان بمنزلة المداوم على الطاعة أو أحسن حالا منه ، فكيف يكون هذا ، وأين مسير صاحب الطاعة فى زمن اشتغال هذا بالمعصية ؟ وكيف يلتقى رجلان أحدهما سائر نحو المشرق والآخر نحو المغرب ، فاذا رجع أحدهما الى طريق الآخر والآخر مجدّ على سيره فانه لا يزال سابقه ما لم يعرض له فتور أو توان ؟ هذا مما لا يمكن جحده ودفعه . قالوا : وأيضا فمرض القلب بالذنوب على مثال مرض الجسم بالاسقام ، والتوبة بمنزلة شرب الدواء ، والمريض اذا شرب الدواء وصح فانه لا تعود اليه قوته قبل المرض ، وان عادت فبعد حين . قالوا : وأيضا فهذا فى زمن معالجة التوبة ملبوك فى نفسه ، مشغول بمداواتها ومعالجتها ، وفى زمن الذنب مشغول بشهوتها ، والسالم من ذلك مشغول بربه قد قرب منه فى سيره ، فكيف يلحقه هذا ؟ فهذا ونحوه مما احتجت به هذه الطائفة لقولها

وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الاسلام ابن تيمية ، فسمعته يحكى هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجردة ، فإما سألته وإما سئل عن الصواب منها ، فقال : الصواب أن من التائبين من يعود الى مثل حاله ، ومنهم من يعود الى أكمل منها ، ومنهم من يعود الى أنقص مما كان . فان كان بعد التوبة خيرا مما كان قبل الخطيئة وأشد حذرا وأعظم تشميرا وأعظم ذلا وخشية وإنابة عاد الى أرفع مما كان ، وإن كان قبل الخطيئة أكمل فى هذه الامور ولم يعد بعد التوبة اليها عاد الى أنقص مما كان عليه ، وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع الى مثل منزلته . هذا معنى كلامه

قلت : وههنا مسألة هذا الموضع أخص المواضع ببيانها ، وهى أن التائب إذا تاب الى الله توبة نصوحا فهل تمحى تلك السيئات ويذهب لا له ولا عليه ، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة ؟ هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديما وحديثا فقال الزجاج : ليس يجعل مكان السيئة الحسنة ، لكن يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . قال ابن عطية : يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة ، فيكون ذلك سببا لرحمة الله إياهم . قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن ، ورد على من قال هو فى يوم القيامة . قال : وقد ورد حديث فى كتاب مسلم من طريق أبى ذر يقتضى أن الله سبحانه يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين بدل سيئاته حسنات ، وذكره الترمذى والطبرى ، وهذا تأويل سعيد بن المسيب فى هذه الآية . قال ابن عطية وهو معنى كرم العفو . هذا آخر كلامه . قلت : سيأتى إن شاء الله ذكر الحديث بلفظه والكلام عليه . قال المهدوى : وروى معنى هذا القول عن سلمان الفارسى وسعيد بن جبير وغيرهما . وقال الثعلبى : قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد ﴿ يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴾ (الفرقان ٧٠) : يبدلهم الله بقبيح أعمالهم فى الشرك محاسن الأعمال فى الاسلام ، فيبدلهم بالشرك إيمانا ، وبقتل المؤمنين قتل المشركين ، وبالزنا عفة وإحصانا . وقال آخرون : يعنى يبدل الله سيئاتهم التى عملوها فى حال إسلامهم حسنات يوم القيامة

وأصل القولين أن هذا التبديل هل هو فى الدنيا أو يوم القيامة ؟ فمن قال إنه فى الدنيا قال : هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها ، وهى حسنات ،

وهذا تبديل حقيقة . والذين نصروا هذا القول احتجوا بأن السيئة لا تنقلب حسنة ، بل غايتها أن تمحى وتكفَّر ويذهب أثرها ، فاما أن تنقلب حسنة فلا ، فانها لم تكن طاعة ، وإنما كانت بغيضة مكروهة للرب فكيف تنقلب محبوبة مرضية ؟ قالوا : وأيضا فالذى دل عليه القرآن إنما هو تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ، كقوله تعالى (آل عمران ١٩٣) : ﴿ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ وقوله تعالى (الشورى ٢٥) : ﴿ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ وقوله تعالى (الزمر ٥٣) : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ والقرآن مملوء من ذلك . وفى الصحيح من حديث قتادة عن صفوان بن محرز قال : قال رجل لابن عمر : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ؟ قال : سمعته يقول « يدنىُ المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه ، فيقول : هل تعرف ؟ فيقول : رب أعرف . قال : فانى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . فيعطى صحيفة حسناته . وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على الله عز وجل » فهذا الحديث المتفق عليه الذى تضمن العناية بهذا العبد إنما فيه ستر ذنوبه عليه فى الدنيا ، ومغفرتها له يوم القيامة ، ولم يقل له : وأعطيتك بكل سيئة منها حسنة . فدل على أن غاية السيئات مغفرتها وتجاوز الله عنها ، وقد قال الله فى حق الصادقين (الزمر ٣٥) : ﴿ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِى عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِى كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فهؤلاء خيار الخلق ، وقد أخبر عنهم أنه يكفر عنهم سيئات أعمالهم ، ويجزيهم بأحسن ما يعملون . وأحسن ما عملوا إنما هو الحسنات لا السيئات ، فدل على أن الجزاء بالحسنى إنما يكون على الحسنات وحدها وأما السيئات فأن تلغى ويبطل أثرها . قالوا : وأيضا فلو انقلبت السيئات أنفسها حسنات فى حق التائب لكان أحسن حالا من الذى لم يرتكب منها شيئا وأكثر حسنات منه ، لأنه إذا أساء شاركه فى حسناته التى فعلها وامتاز عنه بتلك السيئات ثم انقلبت له حسنات ترجح عليه ، وكيف يكون صاحب السيئات أرجح ممن لا سيئة له ؟ قالوا : وأيضا فكما أن العبد إذا فعل حسنات ثم أتى بما يحبطها فانها لا تنقلب سيئات يعاقب عليها ، بل يبطل أثرها ويكون لا له ولا عليه ، وتكون عقوبته عدم ترتب ثوابه عليها ، فهكذا من فعل سيئات ثم تاب منها فانها لا تنقلب حسنات . فان قلتم : وهكذا التائب

يكون ثوابه عدم ترتب العقوبة على سيئاته ، لم ننازعكم فى هذا ، وليس هذا معنى الحسنة فان الحسنة تقتضى ثوابا وجوديا

واحتجت الطائفة الأخرى التى قالت : هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم القيامة بان قالت : حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة . وهذا إنما يكون فى السيئة المحققة وهى التى قد فعلت ووقعت ، فاذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت وأثبت مكانها حسنة قالوا : ولهذا قال تعالى (الفرقان ٧٠) : ﴿ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَات ﴾ فاضاف السيئات اليهم لكونهم باشروها واكتسبوها ، ونكر الحسنات ولم يضفها اليهم لانها من غير صنعهم وكسبهم ، بل هى مجرد فضل الله وكرمه . قالوا : وأيضا فالتبديل فى الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم . فانه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات ، ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل اليهم فانهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات ، والأعمال إنما تضاف الى فاعلها وكاسبها كما قال الله تعالى (البقرة ٥٩) : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ ﴾ . وأما ما كان من غير الفاعل فانه يجعله من تبديله هو كما قال الله تعالى (سبأ ١٦) : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ﴾ فلما أخبر سبحانه أنه هو الذى يبدل سيئاتهم حسنات دل على أنه شىء فعله هو سبحانه بسيئاتهم ، لا أنهم فعلوه من تلقاء أنفسهم ، وإن كان سببه منهم ، وهو التوبة والايمان والعمل الصالح . قالوا : ويدل عليه ما رواه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش عن المعرور بن سُويد عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنى لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة ، وآخر أهل النار خروجا منها : رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها . فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ؟ فيقول : نعم . لا يستطيع أن ينكر ، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، فيقال له : فان لك مكان كل سيئة حسنة . فيقول : رب ، قد عملت أشياء لا أراها ههنا » فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه . وقال الامام أحمد : حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه . قال : فتعرض عليه ، ويخبأ عنه كبارها . فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ وهو مقر لا ينكر

وهو مشفق من الكبار . فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة . قال فيقول : إن لى ذنوبا ما أراها » . فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه . قالوا : وأيضا فروى أبو حفص المستملى عن محمد بن عبد العزيز بن أبى رزمة حدثنا الفضل بن موسى القطيعى عن أبى العنبس عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات » . قيل : من هم ؟ قال « الذين بدل سيئاتهم حسنات » . قالوا : وهؤلاء هم الأبدال فى الحقيقة ، فانهم إنما سموا أبدالا لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة بالأعمال الحسنة ، فبدل الله سيئاتهم التى عملوها حسنات . قالوا : وأيضا فالجزاء من جنس العمل ، فكما بدلوا هم أعمالهم السيئة بالحسنة بدلها الله من صحف الحفظة حسنات جزاء وفاقا

قالت الطائفة الأولى : كيف يمكنكم الاحتجاج بحديث أبى ذر على صحة قولكم وهو صريح فى أن هذا الذى قد بدلت سيئاته حسنات قد عذب عليها فى النار حتى كان آخر أهلها خروجا منها ؟ فهذا قد عوقب على سيئاته فزال أثرها بالعقوبة ، فبدل مكان كل سيئة منها حسنة . وهذا حكم غير ما نحن فيه ، فان الكلام فى التائب من السيئات ، لا فيمن مات مصرا عليها غير تائب ، فاين أحدهما من الآخر ؟ وأما حديث الإمام أحمد فهو الحديث بعينه إسنادا ومتنا ، إلا أنه مختصر . وأما حديث أبى هريرة فلا يثبت مثله ومَن أبو العنبس ومن أبوه حتى يقبل منهما تفردهما بمثل هذا الامر الجليل ؟ وكيف يصح مثل هذا الحديث عن رسول الله ﷺ مع شدة حرصه على التنفير من السيئات وتقبيح أهلها وذمهم وعيبهم والاخبار بأنها تنقص الحسنات وتضادها ؟ فكيف يصح عنه ﷺ أنه يقول « ليتمنين أقوام أنهم أكثروا منها » ؟ ثم كيف يتمنى المرء إكثاره منها ، مع سوء عاقبتها ، وسوء مغبتها ؟ وانما يتمنى الإكثار من الطاعات ؟ وفى الترمذى مرفوعا « ليتمنين أقوام يوم القيامة أن جلودهم كانت تقرض بالمقاريض ، لما يرون من ثواب أهل البلاء » فهذا فيه تمنى البلاء يوم القيامة لأجل مزيد ثواب أهله ، وهو تمنى الحسنات . وأما تمنى الحسنات فهذا لا ريب فيه ، وأما تمنى السيئات فكيف يتمنى العبد أنه أكثر من السيئات ؟ هذا مالا يكون أبدا ، وإنما يتمنى المسيء أن لو لم يكن أساء ، وأما تمنيه أنه ازداد من إساءته فكلا . قالوا : وأما ما ذكرتم من أن التبديل هو إثبات

الحسنة مكان السيئة فحق . وكذلك نقول : ان الحسنة المفعولة صارت فى مكان السيئة التى لولا الحسنة لحلت محلها . قالوا : وأما احتجاجكم باضافة السيئات اليهم ، وذلك يقتضى أن تكون هى السيئات الواقعة . وتنكير الحسنات ، وهو يقتضى أن تكون حسنات من فضل الله ، فهو حق بلا ريب ، ولكن من أين يبقى أن يكون فضل الله بها مقارنا لكسبهم إياها بفضله ؟ قالوا : وأما قولكم : إن التبديل مضاف الى الله لا اليهم ، وذلك يقتضى أنه هو الذى بدلها من الصحف لا أنهم هم الذين بدلوا الأعمال باضدادها فهذا لا دليل لكم فيه ، فان الله خالق أفعال العباد ، فهو المبدل للسيئات حسنات خلقا وتكوينا ، وهم المبدلون لها فعلا وكسبا . قالوا : وأما احتجاجكم بأن الجزاء من جنس العمل ، فكما بدلوا سيئات أعمالهم بحسناتهم بدلها الله كذلك فى صحف الأعمال ، فهذا حق وبه نقول ، وأنه بدلت السيئات التى كانت مهيأة ومعدة أن تحل فى الصحف بحسنات حلت موضعها

فهذا منتهى إقدام الطائفتين ، ومحط نظر الفريقين . واليك أيها المنصف الحكم بينهما ، فقد أدلى كل منهما بحجته ، وأقام بينته ، والحق لا يعدوهما ولا يتجاوزهما ، فارشد الله من أعان على هدى فنال به درجة الداعين الى الله القائمين ببيان حججه ودينه ، أو عذر طالبا منفردا فى طريق مطلبه قد انقطع رجاؤه من رفيق فى الطريق ، فغاية أمنيته أن يخلى بينه وبين سيره ، وأن لا يقطع عليه طريقه . فمن رفع له مثل هذا العلم ولم يشمر اليه فقد رضى بالدون ، وحصل على صفقة المغبون . ومن شمر اليه ورام أن لا يعارضه معارض ، ولا يتصدى له مانع فقد منى نفسه المحال . وإن صبر على لأوائها وشدتها فهو والله الفوز المبين والحظ الجزيل . وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب . فالصواب إن شاء الله فى هذه المسالة أن يقال : لا ريب أن الذنب نفسه لا ينقلب حسنة ، والحسنة إنما هى أمر وجودى يقتضى ثوابا ، ولهذا كان تارك المنهيات إنما يثاب على كف نفسه وحبسها عن مواقعة المنهى ، وذلك الكف والحبس أمر وجودى وهو متعلق الثواب . وأما من لم يخطر بباله الذنب أصلا ولم يحدّث به نفسه فهذا كيف يثاب على تركه ، ولو أثيب مثل هذا على ترك هذا الذنب لكان مثابا على ترك ذنوب العالم التى لا تخطر بباله ، وذلك أضعاف حسناته بما لا يحصى ، فان الترك

مستصحب معه ، والمتروك لا ينحصر ولا ينضبط ، فهل يثاب على ذلك كله ؟ هذا مما لا يتوهم . واذا كانت الحسنة لا بد أن تكون أمرا وجوديا فالتائب من الذنوب التى عملها قد قارن كلَّ ذنب منها ندما عليه ، وكف نفسه عنه ، وعزم على ترك معاودته . وهذه حسنات بلا ريب . وقد محت التوبة أثر الذنب وخلفه هذا الندم والعزم ، وهو حسنة قد بدلت تلك السيئة حسنة . وهذا معنى قول بعض المفسرين : يجعل مكان السيئة التوبة ، والحسنة مع التوبة . فاذا كانت كل سيئة من سيئاته قد تاب منها فتوبته منها حسنة حلت مكانها ، فهذا معنى التبديل ، لا أن السيئة نفسها تنقلب حسنة . وقال بعض المفسرين فى هذه الآية : يعطيهم بالندم على كل سيئة أساءوها حسنة . وعلى هذا فقد زال بحمد الله الاشكال ، واتضح الصواب ، وظهر أن كل واحدة من الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم والحجة . وأما حديث أبى ذر ـ وان كان التبديل فيه فى حق المصرّ الذى عذب على سيئاته ـ فهو يدل بطريق الأولىٰ على حصول التبديل للتائب المقلع النادم على سيئاته ، فان الذنوب التى عذب عليها المصر لما زال أثرها بالعقوبة بقيت كأن لم تكن ، فأعطاه الله مكان كل سيئة منها حسنة ، لأن ما حصل له يوم القيامة من الندم المفرط عليها مع العقوبة لا يقتضى زوال أثرها وتبديلها حسنات ، فان الندم لم يكن فى وقت ينفعه ، فلما عوقب عليها وزال أثرها بدلها الله له حسنات . فزوال أثرها بالتوبة النصوح أعظم من زوال أثرها بالعقوبة . فاذا بدلت بعد زوالها بالعقوبة حسنات فلأن تبدل بعد زوالها بالتوبة حسنات أولى وأحرى . وتأثير التوبة فى هذا المحو والتبديل أقوى من تأثير العقوبة ، لأن التوبة فعل اختيارى أتى به العبد طوعا ومحبة لله وفرقا منه . وأما العقوبة فالتكفير بها من جنس التكفير بالمصائب التى تصيبه بغير اختياره بل بفعل الله . ولا ريب أن تأثير الأفعال الاختيارية التى يحبها الله ويرضاها فى محو الذنوب أعظم من تأثير المصائب التى تناله بغير اختياره

ولنرجع الآن الى المقصود ، وهو ما ذكره أبو العباس بن الصائف فى علل المقامات فقد ذكرنا كلامه فى علة مقام الارادة(١) ، وذكرنا أن الكلام على ذلك من وجوه هذا آخر الوجه الثانى منها (٢)

---

(١) فى ص ٢١٩ (٢) لعله أراد المثال الثانى منها وهو فى الزهد ، وأوله فى ص ٢٢٥

الوجه الثالث أن يقال : قوله « الزهد تعظيم للدنيا ، واحتباس عن الانتفاع بها » الى آخر الفصل ، إن أراد به أن زهده دليل على تعظيم الدنيا وأن لها فى قلبه من القدر والمنزلة ما يكره لاجله نفسه على تركها ، أو مستلزم لذلك ، فان الزهد لا يدل على هذا التعظيم ، ولا يستلزمه ـ وإن كان من عوارض غلبات الطبع التى تذم مساكنتها وانحجاب القلب بها ـ بل زهده فيها دليل على خروج عظمها من قلبه ومبالاته بها وترك الاهتبال بشأنها ، فكيف يكون هذا نقصا بوجه ؟ بل النقص فى الزهد يكون من أحد وجوه :

أولها أن يزهد فيما ينفعه منها ، ويكون قوة له على سيره ، ومعونة له على سفره ، فهذا نقص . فأن حقيقة الزهد هى أن تزهد فيما لا ينفعك . والورع أن تتجنب ما قد يضرك . فهذا الفرق بين الأمرين

الثانى أن يكون زهده مشوبا إما بنوع عجز أو ملالة وسآمة ، وتأذيه بها وبأهلها ، وتعب قلبه بشغله بها ، ونحو هذا من المزهدات فيها ، كما قيل لبعضهم : ما الذى أوجب زهدك فى الدنيا ؟ قال : قلة وفائها ، وكثرة جفائها ، وخسة شركائها . فهذا زهد ناقص ، فلو صفت للزاهد من تلك العوارض لم يزهد فيها . بخلاف من كان زهده فيها لامتلاء قلبه من الآخرة ، ورغبته فى الله وقربه ، فهذا لا نقص فى زهده ولا علة من جهة كونه زهدا

الثالث أن يشهد زهده ويلحظه ولا يفنى عنه بما زهد لأجله ، فهذا نقص أيضا ، فالزهد كله أن تزهد فى رؤية زهدك وتغيب عنه برؤية الفضل ومطالعة المنة ، وأن لا تقف عنده فتنقطع ، بل أعرض عنه جادا فى سيرك غير ملتفت اليه مستصغرا لحاله بالنسبة الى مطلوبك ، مع أن هذه العلة مطردة فى جميع المقامات على ما فيها كما سننبه عليه إن شاء الله ، فان ربط هذا الشأن بالنصوص النبوية والعقل الصريح والفطرة الكاملة من أهم الأمور ، فلا يحسن بالناصح لنفسه أن يقنع فيه بمجرد تقليد أهله ، فما أكثر غلطهم فيه وتحكيمهم مجرد الذوق ، وجعل حكم ذلك الذوق كليا عاما ، فهذا ونحوه من مثارات الغلط

الوجه الرابع ان الزهد على أربعة أقسام : (أحدها) فرض على كل مسلم وهو

الزهد فى الحرام ، وهذا متى أخل به انعقد سبب العقاب ، فلا بد من وجود مسببه ما لم ينعقد سبب آخر يضاده . (الثانى) زهد مستحب ، وهو على درجات فى الاستحباب بحسب المزهود فيه ، وهو الزهد فى المكروه وفضول المباحات والتفنن فى الشهوات المباحة . (الثالث) زهد الداخلين فى هذا الشأن ، وهم المشمرون فى السير الى الله وهو نوعان :

(أحدهما) الزهد فى الدنيا جملة ، وليس المراد تخليها من اليد ولا إخراجها وقعوده صفرا منها ، وإنما المراد إخراجها من قلبه بالكلية : فلا يلتفت اليها ، ولا يدعها تساكن قلبه وان كانت فى يده . فليس الزهد أن تترك الدنيا من يدك وهى فى قلبك وانما الزهد أن تتركها من قلبك وهى فى يدك . وهذا كحال الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز الذى يضرب بزهده المثل مع أن خزائن الأموال تحت يده ، بل كحال سيد ولد آدم ﷺ حين فتح الله عليه من الدنيا ما فتح ، ولا يزيده ذلك إلا زهدا فيها . ومن هذا الأثر المشهور وقد روى مرفوعا وموقوفا « ليس الزهد فى الدنيا بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك » والذى يصحح هذا الزهد ثلاثة أشياء : (أحدها) علم العبد أنها ظل زائل وخيال زائر وانها كما قال الله تعالى فيها (الحديد ٢٠) : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّما الْحَيَاةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوالِ وَالْأَوْلادِ ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونَ حُطاماً ﴾ وقال الله تعالى (يونس ٢٤) : ﴿ إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ وقال تعالى (الكهف ٤٥) : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾ ، وسماها سبحانه « متاع الغرور » ونهى عن الاغترار بها ،

وأخبرنا عن سوء عاقبة المغترين ، وحذرنا مثل مصارعهم ، وذم من رضى بها واطمأن اليها ، وقال النبي ﷺ « مالى وللدنيا ، إنما أنا كراكب قال فى ظل شجرة ثم راح وتركها » وفى المسند عنه ﷺ حديث معناه : ان الله جعل طعام ابن آدم وما يخرج منه مثلا للدنيا فانه وان فوّحه وملحه فلينظر إلى ماذا يصير ، فما اغتر بها ولا سكن اليها إلا ذو همة دنية ، وعقل حقير ، وقدر خسيس . (الثانى) علمه أن وراءها داراً أعظم منها قدراً وأجل خطرا وهى دار البقاء ، وأن نسبتها اليها كما قال النبي ﷺ « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم ، فلينظر بم يرجع » فالزاهد فيها بمنزلة رجل فى يده درهم زغل قيل له : اطرحه فلك عوضه مائة الف دينار مثلا ، فألقاه من يده رجاء ذلك العوض ، فالزهد فيها لكمال الرغبة فيما هو أعظم منها زهد فيها . (الثالث) معرفته أن زهده فيها لا يمنعه شيئا كتب له منها ، وأن حرصه عليها لا يجلب له مالم يقض له منها فمتى تيقن ذلك وصار له به علم يقين هان عليه الزهد فيها ، فانه متى تيقن ذلك وثلج له صدره وعلم أن مضمونه منها سيأتيه بقى حرصه وتعبه وكده ضائعا ، والعاقل لا يرضى لنفسه بذلك . فهذه الأمور الثلاثة تسهل على العبد الزهد فيها ، وتثبت قدمه فى مقامه . والله الموفق لمن يشاء

(النوع الثانى[1]) الزهد فى نفسك ، وهو أصعب الأقسام وأشقها ، وأكثر الزاهدين إنما وصلوا اليه ولم يلجوه ، فان الزاهد يسهل عليه الزهد فى الحرام لسوء مغبته وقبح ثمرته ، وحماية لدينه وصيانة لإيمانه ، وإيثارا للذة والنعيم على العذاب ، وأنفة من مشاركة الفساق والفجرة ، وحمية من أن يستأسر لعدوه . ويسهّل عليه الزهد فى المكروهات وفضول المباحات علمه بما يفوته بايثارها من اللذة والسرور الدائم والنعيم المقيم . ويسهل عليه زهده فى الدنيا معرفته بما وراءها وما يطلبه من العوض التام والمطلب الاعلى . وأما الزهد فى النفس فهو ذبحها بغير سكين ، وهو نوعان : (أحدهما) وسيلة وبداية ، وهو أن تميتها فلا يبقى لها عندك من القدر شيء ، فلا تغضب لها ولا ترضى لها ولا تنتصر لها ولا تنتقم لها ، قد سبّلت عرضها ليوم فقرها وفاقتها ، فهى أهون عليك من أن تنتصر لها أو تنتقم لها أو تجيبها إذا دعتك أو تكرمها اذا عصتك

---

(١) من نوعى زهد المشمرين فى السير الى الله

أو تغضب لها اذا ذُمت ، بل هى عنـدك أخس مما قيل فيها ، أو ترفهها عما فيه حظك وفلاحك وأن كان صعبا عليها . وهذا وإن كان ذبحا لها وإماتة عن طباعها وأخلاقها فهو عين حياتها وصحتها ، ولا حياة لها بدون هذا البتة . وهذه العقبة هى آخر عقبة يشرف منها على منازل المقربين ، وينحدر منها الى وادى البقاء ويشرب من عين الحياة ، ويخلص روحه من سجون المحن والبلاء وأسر الشهوات ، وتتعلق بربها ومعبودها ومولاها الحق ، فياقرة عينها به ويانعيمها وسرورها بقربه ، ويابهجتها بالخلاص من عدوها ، و[اللجوء الى] مولاها ومالك أمرها ومتولى مصالحها . وهذا الزهد هو أول نقدة من مهر الحب ، فيامفلس تأخر . و (النوع الثانى) غاية وكمال ، وهو أن يبذلها للمحبوب جملة بحيث لا يستبقى منها شيئا . بل يزهد فيها زهد المحب فى قدر خسيس من ماله قد تعلقت رغبة محبوبه به ، فهل يجد من قلبه رغبة فى إمساك ذلك القدر وحبسه عن محبوبه ؟ فهكذا زهد المحب الصادق فى نفسه قد خرج عنها وسلمها لربه ، فهو يبذلها له دائما بتعرض منه لقبولها . وجميع مراتب الزهد المتقدمة مباد ووسائل لهذه المرتبة ، ولكن لا يصح إلا بتلك المراتب ، فمن رام الوصول الى هذه المرتبة بدون ما قبلها فمتعن متمن كمن رام الصعود الى أعلى المنارة بلا سلم . قال بعض السلف : انما حرموا الوصول بتضييع الأصول ، فمن ضيع الأصول حرم الوصول . واذا عرف هذا فكيف يدعى أن الزهد من منازل العوام ، وأنه نقص فى طريق الخاصة ؟ وهل الكمال إلا فى الزهد ؟ وما النقص إلا فى نقصانه . والله الموفق للصواب

﴿ فصل ﴾ المثال الرابع التوكل ، قال أبو العباس[1] : هو للعوام أيضا ، لأنه وكل أمرك الى مولاك والتجاؤك الى علمه ومعرفته لتدبير أمرك وكفاية همك ، وهذا فى طريق الخواص عمى عن الكفاية به ورجوع الى الأسباب ، لأنك رفضت الأسباب ووقفت مع التوكل فصار بدلا عن تلك الأسباب ، فانك معلق بما رفضته من حيث معتقدك الانفصال . وحقيقة التوكل عند القوم التوكل فى تخليص القلب من علة التوكل وهو أن يعلم أن الله لم يترك أمرا مهملا بل فرغ من الأشياء وقدرها ، وإن اختلف منها

(١) هو ابن الصائف ، وتقدم المثال الأول للارادة فى ص ٢١٩ ، والثانى للزهد فى ص ٢٢٥ . وكان ينبغى أن يكون التوكل المثال الثالث لا الرابع ، وأن يكون الصبر المثال الرابع لا الخامس . وهو خطأ فى العدد فقط وأمره هين

شيء فى العقول أو تشوش فى المحسوس أو اضطرب فى المعهود فهو المدبر له ، وشأنه سوق المقادير الى المواقيت ، والمتوكل من أراح نفسه من كل النظر فى مطالعة السبب سكونا الى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين عنده وهو أن يعلم أن الطلب لا يجمع والتوكل لا يمنع ، ومتى طالع بتوكله عرضا كان توكله مدخولا وقصده معلولا ، فاذا خلص من رق هذه الاسباب ولم يلاحظ فى توكله سوى خالص حق الله كفاه الله كل مهم » . ثم ذكر حكاية عن موسى أنه فى رعايته نام عن غنمه ، فاستيقظ فوجد الذئب واضعا عصاه على عاتقه يرعاها ، فعجب من ذلك ، فاوحى الله اليه : يا موسى ، كن لى كما أريد ، أكن لك كما تريد

فيقال : الكلام على هذا من وجوه :

(أحدها) أن جعله التوكل من منازل العوام باطل كما تقدم ، بل الخاصة أحوج اليه من العامة ، وتوكل الخواص أعظم من توكل العوام . والتوكل مصاحب للصادق من أول قدم يضعه فى الطريق الى نهايته ، وكلما ازداد قربه وقوى سيره ازداد توكله . فالتوكل مركب السائر الذى لا يتأتى له السير إلا به ، ومتى نزل عنه انقطع لوقته ، وهو من لوازم الايمان ومقتضياته قال الله تعالى (المائدة ٢٦) : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين ﴾ فجعل التوكل شرطا فى الإيمان ، فدل على انتفاء الايمان عند انتفاء التوكل ، وفى الآية الاخرى (يونس ٨٤) : ﴿ وَقالَ مُوسَى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمين ﴾ فجعل دليل صحة الاسلام التوكل ، وقال تعالى (آل عمران ١٢١ ، ١٦٠ المائدة ١١ التوبة ٥١ ابراهيم ١١ المجادلة ١٠ التغابن ١٣) : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون ﴾ فذكر اسم الايمان ههنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل ، وان قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الايمان وضعفه ، وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى ، واذا ضعف الايمان ضعف التوكل ، واذا كان التوكل ضعيفا فهو دليل على ضعف الايمان ولا بد ، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، وبين التوكل والايمان ، وبين التوكل والاسلام ، وبين التوكل والتقوى ، وبين التوكل والهداية ، فاما التوكل والعبادة فقد جمع بينهما فى سبعة مواضع من كتابه : أحدها فى

سورة أم القرآن (٥) فقال ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ ، الثانى قوله حكاية عن شعيب أنه قال (هود ٨٨) : ﴿ وَما تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيب ﴾ ، الثالث قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا (الممتحنة ٤) : ﴿ رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا وَإِلَيْكَ أَنَبْنا وَإِلَيْكَ المَصِير ﴾، الرابع قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ (المزمل ٨، ٩): ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلا رَبُّ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ فاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ ، الخامس قوله (هود ١٢٣) : ﴿ وَلِلهِ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمرُ كُلُّهُ فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عليْهِ وما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُون ﴾ ، السادس قوله (الحج ٧٨) : ﴿ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ واعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ المَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِير ﴾ ، السابع قوله : (الرعد ٣٠) : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتاب ﴾ فهذه السبعة المواضع جمعت الأصلين : التوكل وهو الوسيلة ، والانابة وهى الغاية . فان العبد لا بد له من غاية مطلوبة ، ووسيلة موصلة الى تلك الغاية فأشرف غاياته التى لا غاية له أجل منها عبادة ربه ، والانابة اليه . وأعظم وسائله التى لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به ، ولا سبيل له الى هذه الغاية الا بهذه الوسيلة . فهذه أشرف الغايات ، وتلك أشرف الوسائل . وأما الجمع بين الإيمان والتوكل ففى مثل قوله تعالى (الملك ٢٩): ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنا ﴾ ونظيره قوله (المائدة ٢٣) : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين ﴾ وقوله تعالى (آل عمران ١٢١) : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون ﴾ . وأما الجمع بين التـــوكل والاسلام ففى قوله تعالى (يونس ٨٤) : ﴿ وَقالَ مُوسَى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِين ﴾ . وأما الجمع بين التقوى والتوكل ففى مثل قوله تعالى (الاحزاب ١-٣) : ﴿ يا أَيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ ولا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ — الى قوله تعالى — وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلا ﴾ وقوله (الطلاق ٢ ، ٣) : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ . وأما الجمع بين التوكل والهداية ففى مثل قول الرسل لقومهم (إبراهيم ١٢) :

﴿ وما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا ﴾ وقال الله تعالى لنبيه ﷺ (النمل ٧٩) : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِين ﴾ فأمر سبحانه بالتوكل عليه ، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه ، وهو قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِين ﴾ فان كون العبد على الحق يقتضى تحقيق مقام التوكل على الله ، والاكتفاء به ، والايواء إلى ركنه الشديد . فان الله هو الحق ، وهو ولى الحق وناصره ومؤيده ، وكافى من قام به . فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه ؟ وكيف يخاف وهو على الحق ؟ كما قالت الرسل لقومهم (ابراهيم ١٢) : ﴿ وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا ﴾ فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم ، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدا . وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان : فصاحب الحق ـ لعلمه بالحق ، ولثقته بأن الله ولى الحق وناصره ـ مضطر إلى توكله على الله ، لا يجد بدا من توكله . فان التوكل يجمع أصلين : علم القلب ، وعمله . أما علمه : فيقينه بكفاية وكيله ، وكمال قيامه بما وكله اليه ، وأن غيره لا يقوم مقامه فى ذلك . وأما عمله : فسكونه الى وكيله ، وطمأنينته اليه ، وتفويضه وتسليمه أمره اليه ، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه . فبهذين الأصلين يتحقق التوكل ، وهما جماعه ، وان كان التوكل دخل فى عمل القلب من علمه ، كما قال الامام أحمد : التوكل عمل القلب ، ولكن لا بد فيه من العلم . وهو إما شرط فيه ، وإما جزء من ماهيته . والمقصود أن القلب متى كان على الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بان الله وليه وناصره وسكونه اليه ، فما له أن لا يتوكل على ربه ؟ واذا كان على الباطل علما وعملا أو أحدهما لم يكن مطمئنا واثقا بربه فانه لا ضمان له عليه ، ولا عهد له عنده ، فان الله لا يتولى الباطل ولا ينصره ، ولا ينسب اليه بوجه ، فهو منقطع النسب اليه بالكلية ، فانه سبحانه هو الموفق ، وقوله الحق ، ودينه الحق ، ووعده حق ، ولقاؤه حق ، وفعله كله حق . ليس فى أفعاله شىء باطل ، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل ، كما أقواله كذلك . فلما كان الباطل لا يتعلق به ، بل هو مقطوع البتة كان صاحبه كذلك . ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم ، وكان منقطعا عن ربه ، لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله . فتدبر هذا السر العظيم فى اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى وارتباط أحدهما بالآحر . ولو لم يكن فى هذه

الرسالة إلا هذه الفائدة السرية لكانت حقيقة أن تودع فى خزانة القلب، لشدة الحاجة اليها . والله المستعان وعليه التكلان . فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الايمان والاحسان ، ولجميع أعمال الاسلام ، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس ، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن ، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل . والله أعلم

(الوجه الثانى) أن قوله[1] فى التوكل « انه فى طريق الخواص عمى عن الكفاية ، ورجوع الى الاسباب . . إلخ » مضمونه أن التوكل لا يتم إلا برفض الأسباب ، والإعراض عنها جملة . والتوكل من أقوى الأسباب وأعظمها فى حصول المطلوب فكأنه قد رفض سببا وتعلق بسبب ، وقد ناقض فى أمره ، ولهذا قال « فصار بدلا عن تلك الأسباب » وكأنك تعلقت بما رفضته ، فهذه هى النكتة التى لأجلها صار التوكل عنده من منازل العوام . وهذه هى غير مسألة الجمع بين التوكل والسبب ؛ بل هذه مسألة تعليل نفس التوكل . فيقال : قولك « انه عمى عن الكفاية » ليس كذلك ، بل هو نظر الى نفس الكفاية وملاحظة لها . ولا ريب أن الكفاية من الله لا تنال إلا بأسبابها من عبوديته ، وسببها المقتضى لها هو التوكل ، كما قال الله تعالى (الطلاق ٣) : ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ أى كافيه ، فجعل التوكل سببا للكفاية ، فربط الكفاية بالتوكل كربط سائر الأسباب بمسبباتها ، فكيف يقال : « ان التوكل عمى عن الكفاية ! » وهل التوكل الا محض العبودية التى جزاؤها الكفاية ، وهى لا تحصل بدونه ؟ بل العلة ههنا شهود حصولها بفعلك وتوكلك ، غير ناظر الى مسبب الأسباب الذى أجرى عليك هذا السبب ليوصلك به الى الكفاية ، فأول الامر وآخره منه ، فهو المنعم بالسبب والمسبب جميعا ، ولكن لا يوجب نظر العبد الى المسبب المنعم بالسبب قطع نظره عن السبب والقيام به ، بل الواجب القيام بالأمرين معا

(الوجه الثالث) أن قوله « انه رجوع الى الأسباب » إن أراد به أنه رجوع الى سبب ينقص العبودية ويضعف التوكل فليس كذلك ، وظاهر أن الامر ليس كذلك ،

---

(١) أى قول أبى العباس ، وتقدم أنه ابن الصائف ، وسيأتى أنه (ابن العريف) ولعله الصواب

وان أراد به أنه رجوع الى سبب نصبه الله مقتضيا للكفاية منه ، ورتب عليه جزاء لا يحصل بدونه فهذا حق ، ولكن القيام بهذا السبب محض الكمال ، ونفس العبودية . وهو كجعل الاسلام والايمان والاحسان أسبابا مقتضية للفلاح والسعادة ، بل كجعل سائر أعمال القلوب والجوارح أسبابا مقتضية لما رتب عليها من الجزاء ، وهل الكمال إلا القيام بهذه الأسباب ؟ فالأسباب التى تكون مباشرتها نقصا هى الأسباب التى تضعف التوكل ، وأما أن يكون التوكل نفسه ناقصا لكون التحقق به تحققا بالسبب فقلب للحقائق !

(الوجه الرابع) أن قوله « لانك رفضت الأسباب ووقفت مع التوكل » إن أراد به رفض الأسباب جملة ، فهذا كما أنه ممتنع عقلا وحسا فهو محرّم شرعا ودينا ، فان رفض الأسباب بالكلية انسلاخ من العقل والدين ، وان أراد به رفض الوقوف معها والوثوق بها وأنه يقوم بها قيام ناظر الى سببها فهذا حق ، ولكن النقص لا يكون فى السبب ولا فى القيام به ، وإنما يكون فى الإعراض عن المسبب تعالى كما تقدم ، فمنع الأسباب أن تكون أسبابا قدح فى العقل والشرع ، وإثباتها والوقوف معها وقطع النظر عن مسببها قدح فى التوحيد والتوكل ، والقيام بها وتنزيلها منازلها والنظر الى مسببها وتعلق القيام به جمع بين الأمر والتوحيد ، وبين الشرع والقدر ، وهو الكمال ، والله أعلم

(الوجه الخامس) قوله « فصار التوكل بدلا عن تلك الاسباب » هذا حق ، فان التوكل من أعظم الأسباب ، ولكنه بدل عنها ، كما تكون الطاعة بدلا عن المعصية ، والتوحيد بدلا عن الشرك ، فهو بدل واجب مأمور به مطلوب من العبد ، والمذموم أن يجعل العبد الأسباب بدلا عن التوكل ، لا أن يجعل التوكل بدلا عن الأسباب

(الوجه السادس) قوله « فكأنك تعلقت بما رفضته من حيث معتقدك الانفصال » ليس كذلك ، فان المرفوض هو التعلق بغير الله والالتفات إلى سواه ، فهذا هو الذى رفضه ، وأما الذى تعلق به فهو التوكل على الله واللجأ اليه والتفويض اليه والاستعانة به . فقد رفض المخلوق وتعلق بالخالق ، فكيف يقال : انه تعلق بما رفضه ؟

(الوجه السابع) أن قوله « من حيث معتقدك الانفصال » يشير به الى أن التوكل

نوع تفرقة وانفصال يشهد فيه مع الله غيره ، وهـذا مناف للفناء فى التوحيد ، وأن لا يشهد مع الله غيره أصلا ، وهذا قطب رحى السير الذى يشير اليه القوم ، والعلم الذى يشمرون اليه ، ولأجله يجعلون كل ما دونه من المقامات معلولا ، ولا بد من فصل القول فيه بعون الله وتأييده ، فانه نهاية إقدامهم وغاية مرماهم . فنقول وبالله التوفيق :

الفناء الذى يشار اليه على ألسنة السالكين ثلاثة أقسام : فناء عن وجود السوى ، وفناء عن شهود السوى ، وفناء عن عبادة السوى وإرادته ؛ وليس هنا قسم رابع

فأما القسم الأول : فهو فناء القائلين بوحدة الوجود ، فهو فناء باطل فى نفسه ، مستلزم جحد الصانع ، وانكار ربوبيته وخلقه وشرعه ؛ وهو غاية الإلحاد والزندقة . وهذا هو الذى يشير اليه علماء الاتحادية ، ويسمونه « التحقيق » ، وغاية أحدهم فيه أن لا يشهد ربا وعبدا ، وخالقا ومخلوقا ، وآمرا ومأمورا ، وطاعة ومعصية ، بل الأمر كله واحد ! فيكون السالك عندهم فى بدايته يشهد طاعة ومعصية . ثم يرتفع عن هذا الفرق بكشف عندهم الى أن يشهد الأفعال كلها طاعة لله لا معصية فيها ، وهو شهود الحكم والقدر ، فيشهدها طاعة لموافقتها الحكم والمشيئة . وهذا ناقص عندهم أيضا إذ هو متضمن للفرق ، ثم يرتفع عندهم عن هذا الشهود الى أن لا يشهد لا طاعة ولا معصية ، إذ الطاعة والمعصية إنما تكون من غير لغير ، وما ثم غير . فاذا تحقق بشهود ذلك وفنى فيه فقد فنى عن وجود السوى ، فهذا هو غاية التحقيق عندهم ومن لم يصل اليـه فهو محجوب . ومن أشعارهم فى هذا قول قائلهم :

وما أنت غير الكون ، بل أنت عينه ويفهم هـــذا السر من هو ذائق !

وقول الآخر :

ما الأمر إلا نسق واحد ما فيه من مدح ولا ذم
وانما العادة قد خصصت والطبع والشارع بالحكم

وقول الآخر :

وما الموج إلا البحر لا شىء غيره وان فرقته كثرة المتعـــدد

والقسم الثانى من أقسام الفناء هو الذى يشير اليه المتأخرون من أرباب السلوك ،

وهو الفناء عن شهود السوى ، مع تفريقهم بين الرب والعبد وبين الطاعة والمعصية وجعلهم وجود الخالق غير وجود المخلوق . ثم هم مختلفون فى هذا الفناء على قولين : أحدهما أنه الغاية المطلوبة من السلوك ، وما دونه بالنسبة اليه ناقص ، ومن هنا يجعلون المقامات والمنازل معلولة . والقول الثانى أنه من لوازم الطريق لا بد منه للسالك ، ولكن البقاء أكمل منه . وهؤلاء يجعلونه ناقصا ولكن لا بد منه ، وهذه طريقة كثير من المتقدمين . وهؤلاء يقولون : إن الكمال شهود العبودية مع شهود المعبود ، فلا يغيب بعبادته عن معبوده ، ولا بمعبوده عن عبادته . ولكن لقوة الوارد وضعف المحل وغلبة استيلاء الوارد على القلب ـ حتى يملكه من جميع جهاته ـ يقع الفناء . والتحقيق أن هذا الفناء ليس بغاية ، ولا هو من لوازم الطريق ، بل هو عارض من عوارض الطريق يعرض لبعض السالكين دون جميعهم وسببه أمور ثلاثة :

أحدها : قصده وإرادته والعمل عليه ، فانه إذا علم أنه الغاية المطلوبة شمر سائراً اليه عاملا عليه ، فاذا أشرف عليه وقف معه ونزل بواديه وطلب مساكنته . فهؤلاء إنما يحصل لهم الفناء لان سيرهم كان على طلب حظهم ومرادهم من الله وهو الفناء ، لم يكن سيرهم على تحصيل مراد الله منهم وهو القيام بعبوديته والتحقق بها . والسائر على طلب تحصيل مراد الله منه لا يكاد الفناء يحل بساحته ولا يعتريه . السبب الثانى قوة الوارد بحيث يغمره ويستولى عليه ، فلا يبقى فيه متسع لغيره أصلا . السبب الثالث ضعف المحل عن احتمال ما يرد عليه . فمن هذه الاسباب الثلاثة يعرض الفناء . ولما رأى الصادق فى طريقه السالك الى ربه أن أكثر أصحاب الفرق محجوبون عن هذا المقام مشتتون فى أودية الفرق وشهدوا نقصهم ورأوا ما هم فيه من الفناء أكمل ظنوا أنه لا كمال وراء ذلك وأنه الغاية المطلوبة ، فمن هنا جعلوه غاية

ولكن أكمل من ذلك وأعلى وأجل هو القسم الثالث ، وهو الفناء عن عبادة السوى وارادته ومحبته وخشيته ورجائه والتوكل عليه والسكون اليه ، فيفنى بعبادة ربه ومحبته وخشيته ورجائه والتوكل عليه ، وبالسكون اليه عن عبادة غيره وعن محبته ورجائه والتوكل عليه ، مع شهود الغير ومعاينته . فهذا أكمل من فنائه عن عبودية الغير ومحبته مع عدم شهوده له وغيبته عنه ، فاذا شهد الغير فى مرتبته أوجب شهوده له زيادة

فى محبة معبوده وتعظيما له وهروبا إليـه وضنا به ، فان نظر المحب الى مبادى محبوبه ومضاده يوجب زيادة حبه له ، وفى هذا المعنى قال القائل :

وإذا نظرت الى أميرى زادنى حبا له نظـرى الى الأمراء

وكان النبي ﷺ يقول فى دعائه « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت » واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت » وفى سجوده « اللهم لك سجدت ، وبك آمنت » وكذلك فى ركوعه « اللهم لك ركعت ، وبك آمنت » فهذا دعاء من قد جمع بين شهود عبوديته وشهود معبوده ، ولم يغب بأحدهما عن الآخر ، وهل هذا إلا كمال العبودية : أن يشهد ما يأتى به من العبودية موجها لها الى المعبود الحق ، محضرا لها بين يديه ، متقربا بها اليه . فأما الغيبة عنها بالكلية بحيث تبقى الحركات كأنها طبيعية غير واقعة بالإرادة فهذا ـ وان كان أكمل من حال الغائب بشهود عبوديته عن معبوده ـ فحال الجامع بين شهود العبودية والمعبود أكمل منهما . واذا عرفت هـذه القاعدة ظهر أن تعليله التوكل بما ذكر تعليل باطل

(الوجه الثامن) أن التوكل على الله نوعان : أحـدهما توكل عليه فى تحصيل حظ العبد من الرزق والعافية وغيرها ، والثانى توكل عليه فى تحصيل مرضاته . فاما النوع الاول فغايته المطلوبة وان لم تكن عبادة لأنها محض حـظ العبد فالتوكل على الله فى حصوله عبادة ، فهو منشأ لمصلحة دينه ودنياه . وأما النوع الثانى فغايته عبادة ، وهو فى نفسه عبادة . فلا علة فيه بوجه . فانه استعانة بالله على ما يرضيه . فصاحبه متحقق بإياك نعبد وإياك نستعين ، فتركه ترك لشطر الايمان . والعلة انما هى فى ضعف هذا التوكل . فهب أن التوكل فى حصول الحظ معلول ، فيلزم من هذا أن يكون التوكل فى حصول مراد الرب سبحانه ومرضاته معلولا

(الوجه التاسع) قوله[1] « وحقيقة التوكل عند القوم التوكل فى تخليص القلوب من علة التوكل » فيقال : إذا كان هذا التوكل عندك ليس بمعلول ، ولا هو عمى عن الكفاية ، ولا رجوع الى الأسباب بعد رفضها ، بطل تعليل التوكل بما عللته به . وان

---

(١) أى ابن العريف (انظر هامش ص ٢٥٨)

كانت هذه العلة بعينها موجودة فى هذا التوكل بطل أن يكون علة ، فلزم بطلان كونه معلولا على التقديرين . وظهر أن العلة فى التوكل لا تخرج عن أحد شيئين : إما أن يكون متعلقه حظا من حظوظك ، وإما وقوفك معه وركونك اليه فقط . فاذا خاص التوكل من هذا وهذا فلا علة تلحقه ولا نقيصة تدركه

(الوجه العاشر) أن علة التوكل عنده هى ترك التوكل كما فسره ، فكيف يتوكل فى ترك التوكل ؟ وهل هذا إلا جمع بين متضادين ؟

(الوجه الحادى عشر) قوله « وهو أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى لم يترك أمرا مهملا ، بل فرغ من الأشياء وقدرها ، وان اختلف منها شيء فى العقول أو تشوش فى المحسوس أو اضطرب فى المعهود فهو المدبر له ، وشأنه سوق المقادير الى المواقيت . والمتوكل من أراح نفسه من كد النظر فى مطالعة السبب ، سكونا الى ما سبق من القسمة مع استواء الحالين عنده » الى آخر كلامه . فيقال : هو سبحانه فرغ من الأشياء وقدرها بأسبابها المفضية اليها ، فكما أن المسببات من قدره الذى فرغ منه فاسبابها أيضا من قدره الذى فرغ منه ، فتقديره المقادير بأسبابها لا ينافى القيام بتلك الأسباب ، بل يتوقف حصولها عليها . وقد سئل النبى ﷺ فقيل له : أرايت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقى بها ، هل تردُّ من قدر الله شيئا ؟ فقال « هى من قدر الله » وسئل ﷺ : أعلم أهل الجنة والنار؟ فقال « نعم » . قالوا : ففيم العمل ؟ قال « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » فأمرهم بالاعمال ، وأخبرهم أن الله يسر كل عبد لما خلق له ، فجعل عمله سببا لنيل ما خلق له من الثواب والعقاب ، فلا بد من اثبات السبب والمسبب جميعا

(الوجه الثانى عشر) قوله « المتوكل من أراح نفسه من كد النظر فى مطالعة السبب سكونا الى ما سبق من القسمة ، مع استواء الحالين عنده » فهذا الكلام إن أخذ على إطلاقه فهو باطل قطعا ، فان السكون الى ما سبق من القسمة وترك السبب فى أعمال البر عين العجز وتعطيل الامر والشرع ، ولا يجوز شرعا ولا عقلا التسوية بين الحالين . وأما السكون الى ما سبق من القسمة فى أسباب المعيشة فهو حق ، ولكن الكمال أن يكون ساكنا الى ما سبق مع قيامه ، وهذه حال الكملة من الصحابة ومن بعدهم . فالكمال هو تنزيل الأسباب منازلها علما وعملا ، لا الاعراض عنها ومحوها ، ولا الانتهاء اليها

والوقوف عندها

(الوجه الثالث عشر) قوله « مع استواء الحالين عنده ، وهو أن يعلم أن الطلب لا يجمع ، والتوكل لا يمنع » يشير به الى استواء الحالين فى مباشرة السبب وتركه نظرا الى ما سبق . وهذا ليس بمأمور ولا معذور ، فانه لا تستوى الحالتان شرعا ولا قدرا ، وكيف يستوى ما لم يسوّه الله شرعا ولا قدرا ؟

(الوجه الرابع عشر) قوله « الطلب لا يجمع ، والتوكل لا يمنع » فقد بين أن التوكل لا ينافى الطلب ، بل حقيقة التوكل وكماله مقارنته للطلب ومصاحبته للسبب ، وأما توكل مجرد عن الطلب والسبب فعجز وأمانىّ . فتوكل الحراث إنما هو بعد شق الأرض وبذرها ، وحينئذ يصح منه التوكل فى طلوع الزرع . وأما توكله من غير حرث ولا بذر فعجز وبطالة

(الوجه الخامس عشر) قوله « ومتى طالع بتوكله عرضا كان توكله مدخولا وقصده معلولا . فاذا خلص من رق هذه الأسباب ولم يلاحظ فى توكله سوى خالص حق الله كفاه كل مهم » فيقال : التوكل يكون فى أحد شيئين : إما فى حصول حظ العبد ورزقه ونصره وعافيته ، وإما فى حصول مراد ربه منه . وكلاهما عبادة مأمور بها ، والثانى أكمل من الأول بحسب المتوكل فيه . ولكن توكله فى الأول لا يكون معلولا من حيث هو توكل ، وانما تكون علته ان صرف توكله الى غيره أولى بالتوكل منه . وهذا إنما يكون نقصا إذا أضعف توكله فى الأمر ومراد الله منه . وأما إن لم يضعفه بل أعطى كل مقام حقه من التوكل فهذا محض العبودية . والله أعلم

(فصل) المثال الخامس الصبر . قال أبو العباس « وهو من منازل العوام أيضا ، لأن الصبر حبس النفس على مكروه ، وعقل اللسان عن شكوى ، ومكابدة الغصص فى تحمله ، وانتظار الفرج عند عاقبته . وهـــذا فى طريق الخاصة تجلد ومناوأة وجرأة ومنازعة ، فان حاصله يرجع إلى كتمان الشكوى فى تحمل الأذى بالبلوى . وتحقيقه الخروج عن الشكوى بالتلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى . وقيل : انه على ثلاث مقامات مرتبة بعضها فوق بعض : فالاول التصبر ، وهو تحمل مشقة ، وتجرع غصة ،

والثبات على ما يجرى من الحكم . وهذا هو التصبر لله وهو صبر العوام . والثانى الصبر وهو نوع سهولة تخفف على المبتلى بعض الثقل ، وتسهل عليه صعوبة المراد . وهو الصبر لله ، وهو نوع سهولة ، وهو صبر المريدين . والثالث الاصطبار وهو التلذذ بالبلوى ، والاستبشار باختيار المولى ، وهذا هو الصبر على الله ، وهو صبر العارفين »

والكلام على هذا من وجوه :

(أحدها) أن يقال : الصبر نصف الدين ، فان الايمان نصفان : نصف صبر ، ونصف شكر . قال تعالى (سبأ ١٩) : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وقال النبي ﷺ « والذى نفسى بيده ، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له : إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك إلا للمؤمن » فمنازل الايمان كلها بين الصبر والشكر . والذى يوضح هذا :

(الوجه الثانى) وهو أن العبد لا يخلو قط من أن يكون فى نعمة أو بلية ، فان كان فى نعمة ففرضها الشكر والصبر . أما الشكر فهو قيدها وثباتها والكفيل بمزيدها ، وأما الصبر فعن مباشرة الأسباب التى تسلبها ، وعلى القيام بالأسباب التى تحفظها ، فهو أحوج الى الصبر فيها من حاجة المبتلى . ومن هنا يعلم سر مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر[1] وأن كلا منهما محتاج الى الشكر والصبر . وأنه قد يكون صبر الغنى أكمل من صبر الفقير كما قد يكون شكر الفقير أكمل . فأفضلهما أعظمهما شكرا وصبرا ، فان فضل أحدهما فى ذلك فضل صاحبه . فالشكر مستلزم للصبر لا يتم إلا به ، والصبر مستلزم للشكر لا يتم الا به . فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر ، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر . وان كان فى بلية ففرضها الصبر والشكر أيضا : أما الصبر فظاهر ، وأما الشكر فللقيام بحق الله عليه فى تلك البلية ، فان لله على العبد عبودية فى البلاء ، كما له عليه عبودية فى النعماء ، وعليه أن يقوم بعبوديته فى هذا وهذا . فعلم أنه لا انفكاك له عن الصبر ، ما دام سائرا الى الله

(الوجه الثالث) أن الصبر ثلاثة أقسام : إما صبر عن المعصية فلا يرتكبها ، وإما صبر على الطاعة حتى يؤديها ، وإما صبر على البلية فلا يشكو ربه فيها . واذا كان العبد

---

(١) للمؤلف كتاب فى هذه المسألة عنوانه (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)

لا بد له من واحد من هذه الثلاثة فالصبر لازم له أبدا لا خروج له عنه البتة

(الوجه الرابع) أن الله سبحانه ذكر الصبر فى كتابه فى نحو تسعين موضعا ، فمرة أمر به ، ومرة أثنى على أهله ، ومرة أمر نبيه ﷺ أن يبشر به أهله ، ومرة جعله شرطا فى حصول النصر والكفاية ، ومرة أخبر أنه مع أهله ، وأثنى به على صفوته من العالمين وهم أنبياؤه ورسله فقال عن نبيه أيوب (ص ٤٤) : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صابِراً ، نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾ وقال لخاتم أنبيائه ورسله (الاحقاف ٣٥) : ﴿ فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ وقال (النحل ١٢٧) : ﴿ وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ وقال يوسف الصديق وقد قال له إخوته (يوسف ٩٠) : ﴿ أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ ؟ قَالَ أَنا يُوسُفُ وَهٰذا أَخِي ، قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا ، إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِين ﴾ وهذا يدل على أن الصبر من أجلّ مقامات الايمان ، وأن أخصّ الناس بالله وأولاهم به أشدهم قياما وتحققا به ، وأن الخاصة أحوج اليه من العامة

(الوجه الخامس) أن الصبر سبب فى حصول كل كمال ، فأكمل الخلق أصبرهم ، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره . فان كمال العبد بالعزيمة والثبات ، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص ، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص . فاذا انضم الثبات الى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل ، ولهذا فى دعاء النبى ﷺ الذى رواه الامام أحمد وابن حبان فى صحيحه « اللهم إنى أسألك الثبات فى الامر والعزيمة على الرشد » ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة لا تقوم إلا على ساق الصبر ، فلو علم العبد الكنز الذى تحت هذه الأحرف الثلاثة أعنى اسم « الصبر » لما تخلف عنه . قال النبى ﷺ « ما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر » وقال عمر بن الخطاب حين غشى عليه : أدركناه بالصبر . وفى مثل هذا قال القائل :

نزه فؤادك عن سوانا والقنا   فجنابنا حـل لكل منزه
والصبر طلسم لكنز وصالنا   من حل ذا الطلسم فاز بكنزه

فالصبر طلسم على كنز السعادة ، من حله ظفر بالكنز

(الوجه السادس) قوله « الصبر حبس النفس على مكروه ، وعقل اللسان عن

الشكوى ، ومكابدة الغصص فى تحمله ، وانتظار الفرج عند عاقبته » فيقال : هذا أحد اقسام الصبر ، وهو الصبر على البلاء . وأما الصبر على الطاعة فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه ، وقد لا يعرض فيه ، بل يتحلى بها ويأتى بها محبة ورضى ، ومع هذا فالصبر واقع عليها ، فانه حبس النفس على مداومتها والقيام بها ، قال الله تعالى (الكهف ٢٨) : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ ﴾ الآية . وأما الصبر عن المعصية فقد يعرض فيه ذلك أو بعضه ، وقد لا يعرض فيه ، لتمكن الصابر من قهر داعيها وغلبته . وإذا كان ما ذكر من الأمور الأربعة إنما يعرض فى الصبر على البلية فقوله « انه فى طريق الخاصة تجلد ومناوأة وجرأة ومنازعة » ليس كذلك ، وإنما فيه التجلد ، فأين المناوأة والجرأة والمنازعة ؟ وأما لوازم الطبيعة من وجود ألم البلوى فلا تنقلب ولا تعدم فلا يصح أن يقال : إن وجود التألم والتجلد عليه وحبس النفس عن التسخط واللسان عن الشكوى جرأة ومنازعة ، بل هو محض العبودية والاستكانة وامتثال الأمر ، وهو من عبودية الله المفروضة على عبده فى البلاء ، فالقيام بها عين كمال العبد ، ولوازم الطبيعة لا بد منها ، ومن رام أن لا يجد البرد والحر والجوع والعطش والألم عند تمام أسبابها وعللها فقد رام الممتنع . وهل يكون الأجر إلا على وجود تلك الآلام والمشاق والصبر عليها ؟ وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال « أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل » وقيل له فى مرضه : إنك لتوعك وعكا شديداً ، قال « أجل إن لى أجر رجلين منكم » يعنى فى وعكه . ولا ريب أن ذلك الوعك مؤلم له ﷺ . وأيضا فى مرض موته قال : « وا رأساه » وهذا إنما هو من وجود ألم الصداع . وكان يقول فى غمرات الموت « اللهم أعنى على سكرات الموت » وهــذا كله لتكميل أجره وزيادة رفعة درجاته ﷺ . وهل كان ذلك إلا محض العبودية وعين الكمال ؟ وهل الجرأة والمناواة والمنازعة إلا فى ترك الصبر ، وفى التسخط والشكوى ؟

(الوجه السابع) قوله « فان حامله يرجع الى كتمان الشكوى فى تحامل الأذى بالبلوى ، والاستبشار باختيار المولى » فيقال : الذى يمكن الخروج عنه هو الشكوى ، وأما أن يخرج عن ذوق البلوى فلا يجده أو يتلذذ به فهذا غير ممكن ، ولا هو فى الطبيعة . وانما الممكن أن يشاهد العبد فى تضاعيف البلاء لطف صنع الله به وحسن اختياره له

وبره به فى حمله عنه مؤنة حمله ، وتشتغل النفس باستخراج لطائف صنع الله به وبره وحسن اختياره عن شهود حمله فيحصل له لذة بما شهده من ذلك ، وفوق هذا مرتبة أرفع منه ، وهى أن يشهد أن هذا مراد محبوبه ، وانه بمرأى منه ومسمع ، وأنه هديته الى عبده ، وخلعته التى خلعها عليه ليرفل له فى أذيال التذلل والمسكنة والتضرع لعزته وجلاله ، فيعلم العبد أن حقيقة المحبة هى موافقة المحبوب فى محابه فيحب ما يحبه محبوبه ، فيحب العبد تلك الحال من حيث موافقته لمحبوبه وان كرهها من حيث الطبع البشرى ، فان هذه الكراهة لا تنافى محبته لها كما يكره طبعه الدواء الكريه وهو يحبه من وجه آخر وهذا لا ينكر فى المحبة المتعلقة بالمخلوق مع ضعفها وضعف أسبابها ، كما قال القائل فى ذلك :

أهوى هواه وبعدى عنه يعجبه　　فالبعد قد صار لى فى حبه أربا

وقال الآخر :

أريد وصاله ويريد هجرى　　فأترك ما أريد لما يريد

وقال الآخر :

وأهنتنى فأهنت نفسى جاهدا　　ما من يهون عليك ممن أكرم

وانه لتبلغ المحبة بالعبد الى حيث يفنى بمراد محبوبه عن مراده هو منه . فاذا شهد مراد محبوبه أحبه وان كان كريها اليه . فهذا لا ينكر ولا ينافى التألم بمراد المحبوب المنافى للحب وصبره عليه ، بل يجتمع فى حقه الأمران ، وتقوى هذه المحبة باستبشاره وعلمه بعاقبة تلك البلوى وافضائها الى غاية النعيم واللذة ، فكلما قوى علمه بذلك وقويت محبته لمن ذكره بابتلائه ازداد تلذذه بها مع الكراهة الطبيعية التى هى من لوازم الخلقة ، ولا سيما اذا علم المحب الذى أحب الأشياء اليه أن يجرى ذكره على بال محبوبه أن محبوبه قد ذكره بنوع من الامتحان ، فانه يفرح بذكره له وإن ساءه ما ذكره به كما قال القائل :

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة　　لقد سرنى أنى خطرت ببالكا

(الوجه الثامن) قوله « وهو على ثلاث مقامات مرتبة بعضها فوق بعض . فالاول التصبر ـ الى قوله ـ وهو صبر العوام » . فيقال : لا ريب أن التصبر مؤذن بتكلف

وتحمل على كره ، ولـكن هذا لا بد منه فى الصبر . وهو سببه الذى ينال به ، فالتصبر من العبد ، والصبر ثمرته التى يفرعها الله اذا تعاطاه وتكلفه ، كما قال النبى ﷺ « ومن يتصبر يصبره الله » فمنزلة التصبر من الصبر منزلة التعلم والتفهم من العلم والفهم ، فلا بد منه فى حصول الصبر

(الوجه التاسع) قوله « والثانى الصبر ، وهو نوع سهولة يخفف على المبتلى بعض الثقل ، ويسهل عليه صعوبة المراد وهو الصبر لله ، وهو صبر المريدين » فقد تقدم أن الصبر ثمرة التصبر ، وكلاهما إنما يحمد اذا كان لله . وإنما يكون اذا كان بالله فما لم يكن به لا يكون ، وما لم يكن له لا ينفع ولا يثمر ، فـكلاهما لا يحصل للمريد السالك مقصوده إلا أن يكون بالله ولله . قال تعالى فى الصبر به (النحل ١٢٧) : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ وقال فى الصبر له (الطور ٤٨) : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُـكْمِ رَبِّكَ ﴾ . واختلف الناس أى الصبرين أعلى وأفضل : الصبر له ، أو به ؟ فقالت طائفة منهم صاحب منازل السائرين[1] : وأضعف الصبر الصبر لله وهو صبر العامة ، وفوقه الصبر بالله ، وهو صبر العابد الذى تصبر نفسه لامر الله طالبا لمرضاته وثوابه ، فهو صابر على العمل صابر عن المحرمات ، وأما الصبر به فهو تبرؤ من الحول والقوة وإضافة ذلك الى الله وهو صبر المريد . واما الصبر على الله فصبر السالك على ما يجىء به متعلق اقداره واحكامه . والصواب أن الصبر لله أكمل من الصبر به ، فان الصبر له متعلق بإلهيته ومحبته ، والصبر به متعلق بربوبيته ومشيئته ، وما هو له أكمل مما هو به ، فان ما هو له هو الغاية وما هو به هو الوسيلة ، فالصبر به وسيلة والصبر له غاية ، وبينهما من التفاوت ما بين الغايات والوسائل . وأيضا فان الصبر له متعلق بقوله تعـالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وهاتان الـكلمتان منقسمتان بين العبد وبين الله كما ثبت عن النبى ﷺ فيما يروى عن ربه . و « إياك نعبد » هى التى لله « وإياك نستعين » هى التى للعبد ، وما لله أكمل مما للعبد فما تعلق بما هو له أفضل مما تعلق بما هو للعبد . وأيضا فالصبر له مصدره المحبة ، والصبر به مصدره الاستعانة ، والمحبة أكمل من الاستعانة . وأما الصبر على الله فهو الصبر على

---

(١) الذى شرحه الامام ابن القيم بكتابه (مدارج السالـكين)

أحكامه الدينية والكونية ، فهو يرجع الى الصبر على أوامره والصبر على ابتلائه ، فليس فى الحقيقة قسما ثالثا . والله أعلم . فقد تبين أن الصبر بجميع أقسامه أصل مقامات الايمان ، وهو أصل لكمال العبد الذى لا كمال له بدونه ، ولا يذم منه إلا قسم واحد وهو الصبر عن الله فانه صبر المعرضين المحجوبين ، فالصبر عن المحبوب أقبح شئ وأسوأه ، وهو الذى يسقط المحب من عين محبوبه ، فان المحب كلما كان أكمل محبة كان صبره عن محبوبه متعذرا

(الوجه العاشر) قوله « الثالث الاصطبار ، وهو التلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى . وهذا هو الصبر على الله وهو صبر العارفين » . فيقال : الاصطبار افتعال من الصبر كالاكتساب والاتخاذ ، وهو مشعر بزيادة المعنى على الصبر ، كأنه صار سجية وملكة : فان هــذا البناء مؤذن بالاتخاذ والاكتساب ، قال تعالى (القمر ٢٧) : ﴿ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾ فالاصطبار أبلغ من الصبر ، كما أن الاكتساب أبلغ من الكسب ، ولهذا كان فى العمل الذى يكون على صاحبه ، والكسب فيما له ، قال تعالى (البقرة ٢٨٦) : ﴿ لَهَا ما كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا ما اكْتَسَبَتْ ﴾ تنبيها على أن الثواب يحصل لها بأدنى سعى وكسب ، وأن العقاب إنما هو باكتسابها وتصرفها وما تعانيه . وإذا علم هذا فالتلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار الله سبحانه لا يخص الاصطبار ، بل يكون مع الصبر ومع التصبر . ولكن لما كان الاصطبار أبلغ من الصبر وأقوى كان بهذا التلذذ والاستبشار أولى . والله أعلم

(قاعدة) الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديدة :

أحدها علم العبد بقبحها ورذالتها ودناءتها ، وأن الله إنما حرّمها ونهى عنها صيانة وحماية عن الدنايا والرذائل ، كما يحمى الوالد الشفيق ولده عما يضره . وهذا السبب يحمل العاقل على تركها ولو لم يعلق عليها وعيد بالعذاب

السبب الثانى الحياء من الله سبحانه ، فان العبد متى علم بنظره اليه ومقامه عليه وأنه بمرأى منه ومسمع ـ وكان حييا ـ استحي من ربه أن يتعرض لمساخطه

السبب الثالث مراعاة نعمه عليك وإحسانه اليك ، فان الذنوب تزيل النعم ولا بد ،

فما اذنب عبد ذنبا إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب ، فان تاب وراجع رجعت اليه أو مثلها ، وإن أصر لم ترجع اليه ، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة نعمة حتى تسلب النعم كلها ، قال الله تعالى (الرعد ١١) : ﴿ إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ وأعظم النعم الايمان ، وذنب الزنا والسرقة وشرب الخمر وانتهاب النهبة يزيلها ويسلبها . وقال بعض السلف : أذنبت ذنبا فحرمت قيام الليل سنة . وقال آخر : اذنبت ذنبا فحرمت فهم القرآن . وفى مثل هذا قيل :

اذا كنت فى نعمة فارعها فان المعـاصى تزيل النعم

وبالجملة فان المعاصى نار النعم تأكلها كما تأكل النار الحطب ، عياذا بالله من زوال نعمته وتحويل عافيته

السبب الرابع خوف الله وخشية عقابه . وهذا إنما يثبت بتصديقه فى وعده ووعيده والايمان به وبكتابه وبرسوله . وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين ، ويضعف بضعفهما . قال الله تعالى (فاطر ٢٨) : ﴿ إنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ ﴾ . وقال بعض السلف : كفى بخشية الله علما ، وبالاغترار بالله جهلا

السبب الخامس محبة الله ، وهى من أقوى الأسباب فى الصبر عن مخالفته ومعاصيه . فان المحب لمن يحب مطيع ، وكلما قوى سلطان المحبة فى القلب كان اقتضاؤه للطاعة وترك المخالفة أقوى . وانما تصدر المعصية والمخالفة من ضعف المحبة وسلطانها ، وفرق بين من يحمله على ترك معصية سيده خوفه من سوطه وعقوبته ، وبين من يحمله على ذلك حبه لسيده ، وفى هذا قال عمر « نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه » يعنى أنه لو لم يخف من الله لـكان فى قلبه من محبة الله وإجلاله ما يمنعه من معصيته . فالمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرعى قلبه وجوارحه ، وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه . وههنا لطيفة يجب التنبه لها ، وهى أن المحبة المجردة لا توجب هذا الاثر ما لم تقترن باجلال المحبوب وتعظيمه ، فاذا قارنها بالاجلال والتعظيم أوجبت هذا الحياء والطاعة ، وإلا فالمحبة الخالية عنهما إنما توجب نوع أنس وانبساط وتذكر واشتياق ، ولهذا يتخلف عنها أثرها وموجبها ، ويفتش العبد قلبه فيرى نوع محبة لله ، ولـكن

لا تحمله على ترك معاصيه . وسبب ذلك تجردها عن الاجلال والتعظيم ، فما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة باجلال الله وتعظيمه ، وتلك من أفضل مواهب الله لعبده أو أفضلها ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء

السبب السادس شرف النفس وزكاؤها وفضلها وأنفتها وحميتها أن تختار الأسباب التى تحطها وتضع قدرها ، وتخفض منزلتها وتحقرها ، وتسوى بينها وبين السفلة

السبب السابع قوة العلم بسوء عاقبة المعصية ، وقبح أثرها ، والضرر الناشىء منها : من سواد الوجه ، وظلمة القلب ، وضيقه وغمه ، وحزنه وألمه ، وانحصاره ، وشدة قلقه واضطرابه ، وتمزق شمله ، وضعفه عن مقاومة عدوه ، وتعريه من زينته بالثوب الذى جمله الله وزينه به ، والعصرة التى تناله ، والقسوة والحيرة فى أمره ، وتخلى وليه وناصره عنه ، وتولى عدوه المبين له ، وتوارى العلم الذى كان مستعدا له عنه ، ونسيان ما كان حاصلا له أو ضعفه ولا بد ، ومرضه الذى اذا استحكم به فهو الموت ولا بد ، فان الذنوب تميت القلوب ، ومنها ذله بعد عزه . ومنها أنه يصير أسيرا فى يد أعدائه بعد أن كان ملكا متصرفا يخافه أعداؤه . ومنها أنه يضعف تأثيره فلا يبقى له نفوذ فى رعيته ولا فى الخارج ، فلا رعيته تطيعه إذا أمرها ، ولا ينفذ فى غيرهم . ومنها زوال أمنه وتبدله به مخافة ، فأخوف الناس أشدهم إساءة . ومنها زوال الأنس والاستبدال به وحشة ، وكلما ازداد إساءة ازداد وحشة . ومنها زوال الرضى واستبداله بالسخط . ومنها زوال الطمأنينة بالله والسكون اليه والايواء عنده واستبدال الطرد والبعد منه . ومنها وقوعه فى بئر الحسرات ، فلا يزال فى حسرة دائمة كلما نال لذة نازعته نفسه الى نظيرها ان لم يقض منها وطرا ، أو الى غيرها ان قضى وطره منها ، وما يعجز عنه من ذلك أضعاف ما يقدر عليه ، وكلما اشتد نزوعه وعرف عجزه اشتدت حسرته وحزنه . فيالها نارا قد عذب بها القلب فى هذه الدار قبل نار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة . ومنها فقره بعد غناه ، فانه كان غنيا بما معه من رأس مال الايمان وهو يتجر به ويربح الأرباح الكثيرة ، فاذا سلب رأس ماله أصبح فقيرا معدما ، فاما أن يسعى بتحصيل رأس مال آخر بالتوبة النصوح والجد والتشمير [وإلا] فقد فاته ربح كثير بما أضاعه من رأس ماله . ومنها نقصان رزقه ، فان العبد يحرم الرزق بالذنب يصيبه . ومنها

ضعف بدنه . ومنها زوال المهابة والحلاوة التى لبسها بالطاعة فتبدل بها مهانة وحقارة . ومنها حصول البغضة والنفرة منه فى قلوب الناس . ومنها ضياع أعز الأشياء عليه وأنفسها وأعلاها ، وهو الوقت الذى لا عوض منه ، ولا يعود اليه أبدا . ومنها طمع عدوه فيه وظفره به ، فانه إذا رآه منقادا مستجيبا لما يأمره اشتد طمعه فيه وحدث نفسه بالظفر به وجعله من حزبه حتى يصير هو وليه دون مولاه الحق . ومنها الطبع والرين على قلبه ، فان العبد اذا أذنب نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فان تاب منها صقل قلبه ، وإن أذنب ذنبا آخر نكت فيه نكتة أخرى ولا تزال حتى تعلو قلبه ، فذلك هو الران قال الله تعالى (المطففين ١٤) : ﴿ كَلاَّ بَلْ رانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُون ﴾ . ومنها أنه يحرم حلاوة الطاعة ، فاذا فعلها لم يجد أثرها فى قلبه من الحلاوة والقوة ومزيد الايمان والعقل والرغبة فى الآخرة ، فان الطاعة تثمر هذه الثمرات ولا بد . ومنها أن تمنع قلبه من ترحله من الدنيا ونزوله بساحة القيامة ، فان القلب لا يزال مشتتا مضيعا حتى يرحل من الدنيا وينزل فى الآخرة ، فاذا نزل فيها أقبلت اليه وفود التوفيق والعناية من كل جهة ، واجتمع على جمع أطرافه وقضاء جهازه وتعبئة زاده ليوم معاده ، وما لم يترحل الى الآخرة ويحضرها فالتعب والعناء والتشتت والكسل والبطالة لازمة له لا محالة . ومنها إعراض الله وملائكته وعباده عنه ، فان العبد إذا أعرض عن طاعة الله واشتغل بمعاصيه أعرض الله عنه فأعرضت عنه ملائكته وعباده ، كما أنه إذا أقبل على الله أقبل الله عليه وأقبل بقلوب خلقه اليه . ومنها أن الذنب يستدعى ذنبا آخر ، ثم يقوى أحدهما بالآخر فيستدعيان ثالثا ، ثم تجتمع الثلاثة فتستدعى رابعا وهلم جرا حتى تغمره ذنوبه وتحيط به خطيئته ، قال بعض السلف : ان من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها . ومنها علمه بفوات ما هو أحب اليه وخير له منها من جنسها وغير جنسها ، فانه لا يجمع الله لعبده بين لذة المحرمات فى الدنيا ولذة ما فى الآخرة . كما قال تعالى (الاحقاف ٢٠) : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها ﴾ ، فالمؤمن لا يذهب طيباته فى الدنيا ، بل لا بد أن يترك بعض طيباته للآخرة . وأما الكافر فانه لا يؤمن بالآخرة فهو حريص على تناول حظوظه كلها وطيباته فى الدنيا . ومنها علمه بأن أعماله هى زاده

ووسيلته الى دار اقامته ، فان تزود من معصية الله أوصله ذلك الزاد الى دار العصاة والجناة ، وإن تزود من طاعته وصل الى دار أهل طاعته وولايته . ومنها علمه بأن عمله هو وليه فى قبره وأنيسه فيه وشفيعه عند ربه والمخاصم والمحاج عنه ، فان شاء جعله له ، وان شاء جعله عليه . ومنها علمه بأن أعمال البر تنهض بالعبد وتقوم به وتصعد الى الله به ، فبحسب قوة تعلقه بها يكون صعوده مع صعودها . وأعمال الفجور تهوى به وتجذبه الى الهاوية وتجره الى أسفل سافلين ، وبحسب قوة تعلقه بها يكون هبوطه معها ونزوله الى حيث يستقر به ، قال الله تعالى (فاطر ١٠) : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ وقال تعالى (الأعراف ٤٠) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ﴾ فلما لم تفتح أبواب السماء لأعمالهم بل أغلقت عنها ، لم تفتح لأرواحهم عند المفارقة بل أغلقت عنها . وأهل الايمان والعمل الصالح لما كانت أبواب السماء مفتوحة لأعمالهم حتى وصلت الى الله سبحانه ، فتحت لأرواحهم حتى وصلت اليه تعالى وقامت بين يديه ، فرحمها وأمر بكتابة اسمها فى عليين . ومنها خروجه من حصن الله الذى لا ضيعة على من دخله ، فيخرج بمعصيته منه الى حيث يصير نهبا للصوص وقطاع الطريق . فما الظن بمن خرج من حصن حصين لا تدركه فيه آفة ، إلى خربة موحشة هى مأوى اللصوص وقطاع الطريق ، فهل يتركون معه شيئا من متاعه ؟ ومنها أنه بالمعصية قد تعرّض لمحق بركته . وبالجملة فآثار المعصية القبيحة أكثر من أن يحيط بها العبد علما ، وآثار الطاعة الحسنة أكثر من أن يحيط بها علما ، فخير الدنيا والآخرة بحذافيره فى طاعة الله ، وشر الدنيا والآخرة بحذافيره فى معصيته ، وفى بعض الآثار يقول الله سبحانه وتعالى : من ذا الذى أطاعنى فشقى بطاعتى ؟ ومن ذا الذى عصانى فسعد بمعصيتى ؟

السبب الثامن قصر الأمل ، وعلمه بسرعة انتقاله ، وأنه كمسافر دخل قرية وهو مزمع على الخروج منها ، أو كراكب قال فى ظل شجرة ثم سار وتركها . فهو لعلمه بقلة مقامه وسرعة انتقاله حريص على ترك ما يثقله حمله ويضره ولا ينفعه ، حريص على الانتقال بخير ما بحضرته ، فليس للعبد أنفع من قصر الأمل ، ولا أضر من التسويف وطول الأمل

السبب التاسع مجانبة الفضول فى مطعمه ومشربه وملبسه ومنامه واجتماعه بالناس ، فان قوة الداعى الى المعاصى إنما تنشأ من هذه الفضلات ، فانها تطلب لها مصرفا فيضيق عليها المباح فتتعداه الى الحرام . ومن أعظم الأشياء ضررا على العبد بطالته وفراغه ، فان النفس لا تقعد فارغة ، بل إن لم يشغلها بما ينفعها شغلته بما يضره ولا بد

السبب العاشر ، وهو الجامع لهذه الأسباب كلها : ثبات شجرة الايمان فى القلب ، فصبر العبد عن المعاصى إنما هو بحسب قوة إيمانه ، فكلما كان إيمانه أقوى كان صبره أتمّ واذا ضعف الايمان ضعف الصبر . فان من باشر قلبه الايمان بقيام الله عليه ، ورؤيته له ، وتحريمه لما حرم عليه ، وبغضه له ، ومقته لفاعله ، وباشر قلبه الايمان بالثواب والعقاب والجنة والنار ، امتنع من أن لا يعمل بموجب هذا العلم . ومن ظن أنه يقوى على ترك المخالفات والمعاصى بدون الإيمان الراسخ الثابت فقد غلط ، فاذا قوى سراج الايمان فى القلب ، وأضاءت جهاته كلها به ، وأشرق نوره فى أرجائه ، سرى ذلك النور الى الأعضاء ، وانبعث اليها ، فأسرعت الإجابة لداعى الايمان ، وانقادت له طائعة مذللة غير متثاقلة ولا كارهة ، بل تفرح بدعوته حين يدعوها ، كما يفرح الرجل بدعوة حبيبه المحسن اليه الى محل كرامته . فهو كل وقت يترقب داعيه ، ويتأهب لموافاته . والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم

﴿ فصل ﴾ والصبر على الطاعة ينشأ من معرفة هذه الأسباب ، ومن معرفة ما تجلبه الطاعة من العواقب الحميدة والآثار الجميلة . ومن أقوى أسبابها الايمان والمحبة ، فكلما قوى داعى الايمان والمحبة فى القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه

وههنا مسألة تكلم فيها الناس ، وهى أى الصبرين أفضل : صبر العبد عن المعصية ، أم صبره على الطاعة ؟ فطائفة رجحت الأول وقالت : الصبر عن المعصية من وظائف الصدّيقين ، كما قال بعض السلف : أعمال البر يفعلها البر والفاجر ، ولا يقوى على ترك المعاصى الا صدّيق . قالوا : ولان داعى المعصية أشد من داعى ترك الطاعة ، فان داعى المعصية إلى أمر وجودى تشتهيه النفس وتلتذ به ، والداعى الى ترك الطاعة الكسل والبطالة والمهانة ، ولا ريب أن داعى المعصية أقوى . قالوا : ولأن العصيان قد اجتمع عليه داعى النفس والهوى والشيطان وأسباب الدنيا وقرناء الرجل وطلب التشبه

والمحاكاة وميل الطبع ، وكل واحد من هذه الدواعي يجذب العبد الى المعصية ويطلب أثره ، فكيف اذا اجتمعت وتظاهرت على القلب ؟ فأى صبر أقوى من صبر عن اجابتها ؟ ولولا أن الله يصبره لما تأتى منه الصبر . وهذا القول كما ترى حجته فى غاية الظهور . ورجحت طائفة الصبر على الطاعة بناء منها على أن فعل المأمور أفضل من ترك المنهيات ، واحتجت على ذلك بنحو من عشرين حجة . ولا ريب أن فعل المأمورات إنما يتم بالصبر عليها ، فاذا كان فعلها أفضل كان الصبر عليها أفضل . وفصل النزاع فى ذلك أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية : فالصبر على الطاعة المعظمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية ، والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة ، وصبر العبد على الجهاد مثلا أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر ، وصبره عن كبائر الاثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الصبح وصوم يوم تطوعا ونحوه . فهذا فصل النزاع فى المسألة . والله أعلم

﴿ فصل ﴾ والصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديدة :

أحدها شهود جزائها وثوابها

الثانى شهود تكفيرها للسيئات ومحوها لها

الثالث شهود القدر السابق الجارى بها ، وأنها مقدرة فى أم الكتاب قبل أن تخلق فلا بد منها ، فجزعه لا يزيده إلا بلاء

الرابع شهوده حق الله عليه فى تلك البلوى ، وواجبه فيها الصبر بلا خلاف بين الأمة ، أو الصبر والرضا على أحد القولين ، فهو مأمور بأداء حق الله وعبوديته عليه فى تلك البلوى ، فلا بد له منه وإلا تضاعفت عليه

الخامس شهود ترتبها عليه بذنبه ، كما قال الله تعالى (الشورى ٣٠) : ﴿ وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ فهذا عام فى كل مصيبة دقيقة وجليلة ، فشغله شهود هذا السبب بالاستغفار الذى هو أعظم الأسباب فى دفع تلك المصيبة . قال على بن أبى طالب : ما نزل بلاء الا بذنب ، ولا رفع بلاء الا بتوبة

السادس أن يعلم أن الله قد ارتضاها له واختارها وقسمها ، وأن العبودية تقتضى

رضاه بما رضى له به سيده ومولاه ، فان لم يوف قدر المقام حقه فهو لضعفه ، فلينزل الى مقام الصبر عليها ، فان نزل عنه نزل الى مقام الظلم وتعدى الحق

السابع أن يعلم أن هذه المصيبة هى دواء نافع ساقه اليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به ، فليصبر على تجرعه ، ولا يتقيأه بتسخطه وشكواه فيذهب نفعه باطلا

الثامن أن يعلم أن فى عقبى هذا الدواء من الشفاء والعافية والصحة وزوال الألم ما لم تحصل بدونه ، فاذا طالعت نفسه كراهة هذا الدواء ومرارته فلينظر الى عاقبته وحسن تأثيره . قال الله تعالى (البقرة ٢١٦) : ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ وقال الله تعالى (النساء ١٩) : ﴿ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فيه خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ وفى مثل هذا قال القائل :

لعلَّ عتبكَ محمودٌ عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

التاسع أن يعلم أن المصيبة ما جاءت لتهلكه وتقتله ، وإنما جاءت لتمتحن صبره وتبتليه ، فيتبين حينئذ هل يصلح لاستخدامه وجعله من أوليائه وحزبه أم لا ؟ فان ثبت اصطفاه واجتباه وخلع عليه خلع الاكرام وألبسه ملابس الفضل وجعل أولياءه وحزبه خدما له وعونا له ، وإن انقلب على وجهه ونكص على عقبيه طرد وصفع قفاه وأقصى وتضاعفت عليه المصيبة ، وهو لا يشعر فى الحال بتضاعفها وزيادتها ، ولكن سيعلم بعد ذلك بأن المصيبة فى حقه صارت مصائب ، كما يعلم الصابر أن المصيبة فى حقه صارت نعما عديدة . وما بين هاتين المنزلتين المتباينتين إلا صبر ساعة ، وتشجيع القلب فى تلك الساعة . والمصيبة لا بد أن تقلع عن هذا وهذا ، ولكن تقلع عن هذا بأنواع الكرامات والخيرات ، وعن الآخر بالحرمان والخذلان ، لأن ذلك تقدير العزيز العليم ، وفضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم

العاشر أن يعلم أن الله يربى عبده على السراء والضراء ، والنعمة والبلاء ، فيستخرج منه عبوديته فى جميع الأحوال . فان العبد على الحقيقة من قام بعبودية الله على اختلاف الأحوال ، وأما عبد السراء والعافية الذى يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به

وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ، فليس من عبيده الذين اختارهم لعبوديته . فلا ريب أن الايمان الذى يثبت على محل الابتلاء والعافية هو الايمان النافع وقت الحاجة ، وأما إيمان العافية فلا يكاد يصحب العبد ويبلغه منازل المؤمنين ، وإنما يصحبه إيمان يثبت على البلاء والعافية . فالابتلاء كير العبد ومحك إيمانه : فإما أن يخرج تبرا أحمر ، وإما أن يخرج زغلا محضا ، وإما أن يخرج فيه مادتان ذهبية ونحاسية ، فلا يزال به البلاء حتى يخرج المادة النحاسية من ذهبه ، ويبقى ذهبا خالصا . فلو علم العبد أن نعمة الله عليه فى البلاء ليست بدون نعمة الله عليه فى العافية لشغل قلبه بشكره ولسانه ، اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك . وكيف لا يشكر من قيض له ما يستخرج خبثه ونحاسه وصيره تبرا خالصا يصلح لمجاورته والنظر اليه فى داره ؟ فهذه الأسباب ونحوها تثمر الصبر على البلاء ، فان قويت أثمرت الرضا والشكر . فنسأل الله أن يسترنا بعافيته ولا يفضحنا بابتلائه بمنه وكرمه

﴿ فصل ﴾ المثال السادس الحزن ، قال أبو العباس « وهو من منازل العوام ، وهو انخلاع عن السرور ، وملازمة الكآبة لتأسف عن فائت أو توجع لممتنع . وانما كان من منازل العوام لأن فيه نسيان المنة ، والبقاء فى رق الطبع ، وهو فى مسالك الخواص حجاب ، لأن معرفة الله جلا نورها كل ظلمة ، وكشف سرورها كل غمة . فبذلك فليفرحوا . وقيل : أوحى الله الى داود : يا داود بى فافرح ، وبذكرى فتلذذ ، وبمعرفتى فافتخر . فعما قليل أفرغ الدار من الفاسقين . وأنزل نقمتى على الظالمين »

اعلم أن الحزن من عوارض الطريق ، ليس من مقامات الايمان ، ولا من منازل السائرين . ولهذا لم يأمر الله به فى موضع فقط ، ولا أثنى عليه ، ولا رتب عليه جزاء ولا ثوابا ، بل نهى عنه فى غير موضع كقوله تعالى (آل عمران ١٣٩) : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وقال تعالى (النحل ١٢٧) : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ وقال تعالى (المائدة ٢٦) : ﴿ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ وقال (التوبة ٤٠) : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ فالحزن هو بلية من البلايا التى نسأل الله دفعها وكشفها ، ولهذا يقول أهل الجنة (فاطر

٣٤) : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ ﴾ فحمده على أن أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها . وفى الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول فى دعائه « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن ، والعجز والكسل ، والجبن والبخل ، وضلع الدين[1] وغلبة الرجال » فاستعاذ ﷺ من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان : فالهم والحزن قرينان ، وهما الألم الوارد على القلب ، فان كان على ما مضى فهو الحزن ، وإن كان على ما يستقبل فهو الهم . فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضى أثر الحزن ، وإن كان مصدره خوف الآتى أثر الهم . والعجز والكسل قرينان ، فانّ تخلف مصلحة العبد وبعدها عنه إن كان من عدم القدرة فهو عجز ، وان كان من عدم الإرادة فهو كسل . والجبن والبخل قرينان ، فان الاحسان يفرح القلب ويشرح الصدر ويجلب النعم ويدفع النقم ، وتركه يوجب الضيم والضيق ويمنع وصول النعم اليه ، فالجبن ترك الاحسان بالبدن ، والبخل ترك الاحسان بالمال . وغلبة الدين وقهر الرجال قرينان ، فانّ القهر والغلبة الحاصلة للعبد إما منه وإما من غيره ، وإن شئت قلت : إما بحق وإما بباطل من غيره . والمقصود أن النبي ﷺ جعل الحزن مما يستعاذ منه . وذلك لأن الحزن يضعف القلب ، ويوهن العزم ، ويضر الإدارة ، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن ، قال تعالى (المجادلة ١٠) : ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره ، والثواب عليه ثواب المصائب التى يبتلى العبد بها بغير اختياره ، كالمرض والألم ونحوهما . وأما أن يكون عبادة مأمورا بتحصيلها وطلبها فلا . ففرق بين ما يثاب عليه العبد من المأمورات ، وما يثاب عليه من البليات . ولكن يحمد فى الحزن سببه ومصدره ولازمه لا ذاته ، فان المؤمن إما أن يحزن على تفريطه وتقصيره فى خدمة ربه وعبوديته ، وإما أن يحزن على تورّطه فى مخالفته ومعصيته وضياع أيامه وأوقاته . وهذا يدل على صحة الإيمان فى قلبه وعلى حياته ، حيث شغل قلبه بمثل هذا الالم فحزن عليه . ولو كان قلبه ميتا لم يحس بذلك ولم يحزن ولم يتألم ، فما لجرح بميت إيلام ، وكلما كان قلبه أشد حياة كان شعوره بهذا الألم أقوى ، ولكن الحزن لا يجدى عليه ، فانه يضعفه كما تقدم . بل الذى ينفعه أن يستقبل السير ويجد ويشمر .

---

(١) ثقله وغلبته ، وفى رواية « من غلبة الدين وقهر الرجال »

ويبذل جهده ، وهذا نظير من انقطع عن رفقته فى السفر ، فجلس فى الطريق حزينا كئيبا يشهد انقطاعه ويحدث نفسه باللحاق بالقوم . فكلما فتر وحزن حدث نفسه باللحاق برفقته ، ووعدها إن صبرت أن تلحق بهم ، ويزول عنها وحشة الانقطاع . فهكذا السالك إلى منازل الابرار ، وديار المقربين . وأخص من هذا الحزن حزنه على قطع الوقت بالتفرقة المضعفة للقلب عن تمام سيره وجده فى سلوكه ، فان التفرقة من أعظم البلاء على السالك ، ولا سيما فى ابتداء أمره ، فالأول حزن على التفريط فى الاعمال ، وهذا حزن على نقص حاله مع الله وتفرقة قلبه ، وكيف صار وقته ظرفا لتفرقة حاله ، واشتغال قلبه بغير معبوده ؟ وأخص من هذا الحزن حزنه على جزء من أجزاء قلبه كيف هو خال عن محبة الله ؟ وعلى جزء من أجزاء بدنه كيف هو منصرف فى غير محاب الله ؟ فهذا حزن الخاصة ، ويدخل فى هذا حزنهم على كل معارض يشغلهم عما هم بصدده من خاطر أو إرادة أو شاغل من خارج . فهذه المراتب من الحزن لا بد منها فى الطريق . ولكن الكيس لا يدعها تملكه وتقعده ، بل يجعل عوض فكرته فيها فكرته فيما يدفعها به ، فان المكروه إذا ورد على النفس فان كانت صغيرة اشتغلت بفكرها فيه وفى حصوله عن الفكرة فى الاسباب التى يدفعها به فأورثها الحزن ، وان كانت نفسا كبيرة شريفة لم تفكر فيه ، بل تصرف فكرها الى ما ينفعها ، فان علمت منه مخرجا فكرت فى طريق ذلك المخرج وأسبابه . وان علمت أنه لا مخرج منه ، فكرت فى عبودية الله فيه . وكان ذلك عوضا لها من الحزن ، فعلى كل حال لا فائدة لها فى الحزن أصلا والله أعلم . وقال بعض العارفين : ليست الخاصة من الحزن فى شيء . وقوله « معرفة الله جلا نورها كل ظلمة ، وكشف سرورها كل غمة » كلام فى غاية الحسن ، فان من عرف الله أحبه ولا بد ، ومن أحبه انقشعت عنه سحائب الظلمات ، وانكشفت عن قلبه الهموم والغموم والأحزان ، وعمر قلبه بالسرور والأفراح ، وأقبلت اليه وفود التهانى والبشائر من كل جانب ، فانه لا حزن مع الله أبدا ، ولهذا قال حكاية عن نبيه ﷺ (التوبة ٤٠) أنه قال لصاحبه أبى بكر ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ فدل أنه لا حزن مع الله ، وأن من كان الله معه فما له وللحزن ؟ وإنما الحزن كل الحزن لمن فاته الله ، فمن حصل الله له فعلى أى شيء يحزن ؟ ومن فاته الله فبأى شيء يفرح ؟ قال تعالى (يونس

٥٨) : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ فالفرح بفضله ورحمتــــه تبع للفرح به سبحانه ، فالمؤمن يفرح بربه أعظم من فرح كل أحد بما يفرح به : من حبيب أو حياة ، أو مال ، أو نعمة ، أو ملك . يفرح المؤمن بربه أعظم من هذا كله ، ولا ينال القلب حقيقة الحياة حتى يجد طعم هذه الفرحة والبهجة ، فيظهر سرورها فى قلبه ونضرتها فى وجهه ، فيصير له حال من حال أهل الجنة حيث لقّاهم الله نضرة وسرورا . فلمثل هذا فليعمل العاملون ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، فهذا هو العلم الذى شمر اليه أولو الهمم والعزائم ، واستبق اليه أصحاب الخصائص والمكارم

تلك المكارم لا قعبانِ من لبن　　شيبا بماء فعادا بعـــد أبوالا

﴿ فصل ﴾ والمثال السابع الخوف . قال أبو العباس « هو الانخلاع عن طمأنينة الأمن ، والتيقظ لنداء الوعيد ، والحذر من سطوة العقاب . وهو من منازل العوام أيضا ، وليس فى منازل الخواص خوف ، لانه لا أمان للغافل ، إنما يعبد مولاه على وحشة من نظره ، ونفرة من الانس به عند ذكره (الشورى ٢٢) : ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ . وأما الخواص أهل الاختصاص ، فانهم جعلوا الوعيد منه وعداً ، والعذاب فيه عذبا . لانهم شاهدوا المبتلى فى البلاء ، والمعذب فى العذاب ، فاستعذبوا ما وجدوا فى جنب ما شاهدوا فى ذلك . قال قائلهم :

سقمى فى الحـــب عافيتى　　ووجودى فى الهوى عدمى
وعـــذاب ترتضون به　　فى فمى أحلى من النعم

ومن كان مستغرقا فى المشاهدة حل فى بساط الأنس ، فلا يبقى للخوف بساحته ألم . لأن المشاهدة توجب الأنس ، والخوف يوجب القبض » . ثم ذكر حكاية المضروب الذى ضرب مائة سوط فلم يتألم لاجل نظر محبوبه اليه ، ثم ضرب سوطا فصاح لما توارى عنه محبوبه . قال « وقد قيل فى قوله تعالى (الشورى ٢٦) : ﴿ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ دليل خطابه أن المؤمنين لهم عذاب ولكن ليس بشديد ، وإنما كان عذاب الكافرين شديداً لانهم لا يشاهدون المعذب لهم ، والعذاب على شهود المعذب عذب ، والثواب على الغفلة من المعطى صعب ، فالخوف اذاً من منازل العوام »

والكلام على ما ذكره من وجوه :

(أحدها) أن الخوف أحد أركان الإيمان والاحسان الثلاثة التى عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهى : الخوف ، والرجاء ، والمحبة . وقد ذكره سبحانه فى قوله (الاسراء ٥٦ - ٥٧) : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً . أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ فجمع بين المقامات الثلاثة ، فان ابتغاء الوسيلة اليه هو التقرب اليه بحبه وفعل ما يحبه . ثم يقول ﴿ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ فذكر الحب والخوف والرجاء ، والمعنى أن الذين تدعونهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون الى ربهم ويخافونه ويرجونه ، فهم عبيده كما أنكم عبيده ، فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له ؟ وقد أمر سبحانه بالخوف منه فى قوله (آل عمران ١٧٥) : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فجعل الخوف منه شرطا فى تحقق الإيمان ، وإن كان الشرط داخلا فى الصيغة على الإيمان فهو المشروط فى المعنى ، والخوف شرط فى حصوله وتحققه ، وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه ، وحصول المسبب شرط فى تحقق السبب كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه ، فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف انتفاء للمشروط عند انتفاء شرطه ، وانتفاء الخوف عند انتفاء الايمان انتفاء للمعلول عند انتفاء علته . فتدبره . والمعنى : إن كنتم مؤمنين نخافونى . والجزاء محذوف مدلول عليه بالأول عند سيبويه وأصحابه ، أو هو المتقدم نفسه ، وهو جزاء وان تقدم كما هو مذهب الكوفيين . وعلى التقديرين فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضى للخوف وهو الإيمان ، وكل منهما مستلزم للآخر . لكن الاستلزام مختلف ، وكل منهما منتف عند انتفاء الآخر ، لكن جهة الانتفاء مختلفة كما تقدم . والمقصود : أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه . وقال تعالى (المائدة ٤٤) : ﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ وقد أثنى سبحانه على أقرب عباده اليه بالخوف منه ، فقال عن أنبيائه بعد أن اثنى عليهم ومدحهم (الأنبياء ٩٠) : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً ﴾ فالرغب :

الرجاء والرغبة ، والرهب : الخوف والخشية . وقال عن ملائكته الذين قد أمنهم من عـــذابه (النحل ٥٠) : ﴿ يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُون ﴾ وفى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « انى أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » وفى لفظ آخر « إنى أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى » . وكان ﷺ يصلى ولصدره أزيز كازيز المرجل من البكاء وقد قال تعالى (فاطر ٢٨) : ﴿ إِنَّما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ ﴾ فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف . قال ابن مسعود : وكفى بخشية الله علما . ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به ، فأعرف الناس أخشاهم لله ، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه له وحبه له ، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفا وحبا ، فالخوف من أجلّ منازل الطريق ، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة ، وهم اليه أحوج ، وهو بهم اليق ، ولهم ألزم . فان العبد إما أن يكون مستقيما أو مائلا عن الاستقامة ، فان كان مائلا عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله ، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف ، وهو ينشأ من ثلاثة أمور : (احدها) معرفته بالجناية وقبحها . و (الثانى) تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها . و (الثالث) أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها اذا ارتكب الذنب . فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف ، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف وضعفه ، فان الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه ، وإما عدم علمه بسوء عاقبته ، وإما أن يجتمع له الأمران لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة ، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان ، فاذا علم قبح الذنب وعلم سوء مغبته وخاف ان لا يفتح له باب التوبة بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه . هذا قبل الذنب ، فاذا عمله كان خوفه اشد . وبالجملة فمن استقر فى قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها ، وذكر المعصية والتوعد عليها ، وعدم الوثوق باتيانه بالتوبة النصوح هاج فى قلبه من الخوف مالا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو . وأما إن كان مستقيما مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس ، لعلمه بأن الله مقلب القلوب ، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل ، فان شاء أن يقيمه أقامه ، وان شاء أن يزيغه أزاغه ، كما ثبت عن النبي ﷺ . وكانت أكثر يمينه « لا ومقلب القلوب ، لا ومقلب القلوب » وقال بعض السلف : القلب أشد تقلبا من القِدْر اذا استجمعت غليانا . وقال

بعضهم : مثل القلب فى سرعة تقلبه كريشة ملقاة بأرض فلاة ، تقلبها الرياح ظهرا لبطن . ويكفى فى هذا قوله تعالى (الأنفال ٢٤) : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فأى قرار لمن هذه حاله ؟ ومن أحق بالخوف منه ؟ بل خوفه لازم له فى كل حال وإن توارى عنه بغلبة حالة أخرى عليه . فالخوف حشو قلبه ، لكن توارى عنه بغلبة غيره فوجود الشيء غير العلم به ، فالخوف الأول ثمرة العلم بالوعد والوعيد ، وهذا الخوف ثمرة العلم بقدرة الله وعزته وجلاله وأنه الفعال لما يريد وانه المحرك للقلب المصرف له المقلب له كيف يشاء لا اله الا هو

(الوجه الثانى) قوله « ليس فى منازل الخواص خوف » قد تبين فساده ، وأن الخاصة أشد خوفا من العامة

(الوجه الثالث) قوله « العاقل يعبد ربه على وحشة من نظره ، ونفرة من الأنس به عند ذكره (الشورى ٢٢) : ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ الآية » فهذا إنما هو وحشة ونفار ، وهو غير الخوف ، فان الوحشة إنما تنشأ من عدم الخوف ، وأما الخوف فانه يوجب هروبا الى الله وجمعية عليه وسكونا اليه ، فهى مخافة مقرونة بحلاوة وطمانينة وسكينة ومحبة ، بخلاف خوف المسيء الهارب من الله فانه خوف مقرون بوحشة ونفرة فخوف الهارب اليه سبحانه محشو بالحلاوة والسكينة والأنس لا وحشة معه ، وإنما يجد الوحشة من نفسه ، فله نظران : نظر الى نفسه وجنايته فيوجب له وحشة ، ونظر الى ربه وقدرته عليه وعزه وجلاله فيوجب له خوفا مقرونا بانس وحلاوة وطمأنينة

(الوجه الرابع) أن استشهاده بقوله (الشورى ٢٢) : ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾ ليس استشهادا صحيحا ، فان هذا وصف لحالهم فى الآخرة عند معاينة العذاب أو عند الموت . فهذا إشفاق مقرون بالاستيحاش ، لانه قد علم أنه صائر اليه كمن قدم الى العقوبة ورأى أسبابها ، فهو مشفق منها اذا رآها ، لعلمه بأنه صائر اليها . فليست الآية من الخوف المأمور به فى شيء

(الوجـــه الخامس) أن الخوف يتعلق بالافعال ، وأما الحب فانه يتعلق بالذات والصفات . ولهذا يزول الخوف فى الجنة ، وأما الحب فيزداد . ولما كان الحب يتعلق

بالذات كان من أسمائه سبحانه « الودود » ، قال البخارى فى صحيحه : « الحبيب » . وأما الخوف فان متعلقه أفعال الرب ، ولا يخرج عن كون سببه جناية العبد ، وان كانت جنايته من قدر الله . ولهذا قال على بن أبى طالب : لا يرجونّ عبد إلا ربه ، ولا يخافن عبد الا ذنبه . فمتعلق الخوف ذنب العبد وعاقبته ، وهى مفعولات للرب ، فليس الخوف عائدا الى نفس الذات . والفرق بينه وبين الحب أن الحب سببه الكمال ، وذاته تعالى لها الكمال المطلق ، وهو متعلق الحب التام . وأما الخوف فسببه توقع المكروه وهذا إنما يكون فى الأفعال والمفعولات . وبهذا يعلم بطلان قول من زعم أنه سبحانه يُخاف لا لعلة ولا لسبب ، بل كما يخاف السيل الذى لايدرى العبد من أين يأتيه . وهذا بناء من هؤلاء على نفى محبته سبحانه وحكمته . وأنه ليس إلا محض المشيئة والارادة التى ترجح مثلا على مثل بلا مرجح ، ولا يراعى فيها حكمة ولا مصلحة . وهؤلاء عندهم الخوف يتعلق بنفس الذات من غير نظر الى فعل العبد ، وأنه سبب المخافة ، اذ ليس عندهم سبب ولا حكمة ، بل إرادة محضة يفعل بها ما يشاء من تنعيم وتعذيب . وعند هؤلاء فالخوف لازم للعبد فى كل حال ، أحسن أم أساء . وليس لافعاله تأثير فى الخوف . وهذا من قلة نصيبهم من المعرفة بالله وكماله وحكمته . وأين هذا من قول أمير المؤمنين على : لا يرجون عبد إلا ربه ، ولا يخافن الا ذنبه ؟ فجعل الرجاء متعلقا بالرب سبحانه وتعالى ، لأن رحمته من لوازم ذاته ، وهى سبقت غضبه . وأما الخوف فمتعلق بالذنب ، فهو سبب المخافة ، حتى لو قدر عدم الذنب بالكلية لم تكن مخافة

فان قيل : فما وجه خوف الملائكة وهم معصومون من الذنوب التى هى أسباب المخافة ، وشدة خوف النبى ﷺ مع علمه بأن الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأنه أقرب الخلق الى الله ؟ قيل : عن هذا أربعة أجوبة :

الجواب الأول : ان هذا الخوف على حسب القرب من الله والمنزلة عنده . وكلما كان العبد أقرب الى الله كان خوفه منه أشد ، لأنه يطالب بما لا يطالب به غيره ، ويجب عليه من رعاية تلك المنزلة وحقوقها ما لا يجب على غيره . ونظير هذا فى المشاهد أن الماثل بين يدى أحد الملوك المشاهد له أشد خوفا منه من البعيد عنه ، بحسب قربه منه ومنزلته عنده ومعرفته به وبحقوقه ، وأنه يطالب من حقوق الخدمة وأدائها بما

لا يطالب به غيره ، فهو أحق بالخوف من البعيد . ومن تصور هذا حق تصوره فهم قوله ﷺ « إنى أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » وفهم قوله ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو داود وغيره من حديث زيد بن ثابت عن النبى ﷺ أنه قال « ان الله تعالى لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم » وليس المراد به لو عذبهم لتصرف فى ملكه - والمتصرف فى ملكه غير ظالم - كما يظنه كثير من الناس ، فان هذا يتضمن مدحا ، والحديث إنما سيق للمدح بغير استحقاق ، فان حقه سبحانه عليهم أضعاف أضعاف ما أتوا . ولهذا قال بعده « ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم » يعنى أن رحمته لهم ليست على قدر أعمالهم ، اذ أعمالهم لا تستقل باقتضاء الرحمة ، وحقوق عبوديته وشكره التى يستحقها عليهم لم يقوموا بها . فلو عذبهم والحالة هذه لكان تعذيبا لحقه ، وهو غير ظالم لهم فيه . ولا سيما فان أعمالهم لا توازى القليل من نعمه عليهم . فتبقى نعمه الكثيرة لا مقابل لها من شكرهم ، فاذا عذبهم على ترك شكرهم وأداء حقه الذى ينبغى له سبحانه عذبهم ولم يكن ظالما لهم

فان قيل : فهم اذا فعلوا مقدورهم من شكره وعبوديته لم يكن ما عداه مما ينبغى له مقدورا لهم . فكيف يحسن العذاب عليه ؟ قيل : الجواب من وجهين :

أحدهما : أن المقدور للعبد لا يأتى به كله ، بل لا بد من فتور وإعراض وغفلة وتوان . وأيضا ففى نفس قيامه بالعبودية لا يوفيها حقها الواجب لها من كمال المراقبة والاجلال والتعظيم والنصيحة التامة لله فيها بحيث يبذل مقدوره كله فى تحسينها وتكميلها ظاهرا وباطنا ، فالتقصير لازم فى حال الترك وفى حال الفعل . ولهذا سأل الصديق النبى ﷺ دعاء يدعو به فى صلاته ، فقال له « قل : اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت . فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » فأخبر عن ظلمه لنفسه مؤكدا له بان المقتضية ثبوت الخبر وتحققه ، ثم أكده بالمصدر النافى للتجوز والاستعارة ، ثم وصفه بالكثرة المقتضية لتعدده وتكثره ، ثم قال « فاغفر لى مغفرة من عندك » أى لا ينالها عملى ولا سعيى ، بل عملى يقصر عنها ، وإنما هى من فضلك وإحسانك ، لا بكسبى ولا باستغفارى وتوبتى . ثم قال « وارحمنى » أى

ليس معولى إلا على مجرد رحمتك ، فان رحمتنى وإلا فالهلاك لازم لى . فليتدبر اللبيب هذا الدعاء وما فيه من المعارف والعبودية ، وفى ضمنه : إنه لو عذبتنى لعدلت فىَّ ولم تظلمنى ، وإنى لا أنجو إلا برحمتك ومغفرتك . ومن هذا قوله ﷺ « لن ينجى أحداً منكم عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » فاذا كان عمل العبد لا يستقل بالنجاة ، فلو لم ينجه الله فلم يكن قد بخسه شيئا من حقه ولا ظلمه ، فانه ليس معه ما يقتضى نجاته ، وعمله ليس وافيا بشكر القليل من نعمه ، فهل يكون ظالما له لو عذبه ؟ وهل تكون رحمته له جزاء لعمله ، ويكون العمل ثمنا لها مع تقصيره فيه وعدم توفيته ما ينبغى له من بذل النصيحة فيه ، وكمال العبودية من الحياء والمراقبة ، والمحبة والخشوع ، وحضور القلب بين يدى الله فى العمل له ؟ ومن علم هذا علم السر فى كون أعمال الطاعات تختم بالاستغفار ، ففى صحيح مسلم عن ثوبان قال : « كان رسول الله ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثا . وقال : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام » قال تعالى (الذاريات ١٧-١٨) : ﴿ كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُون ، وبالأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون ﴾ فأخبر عن استغفارهم عقيب صلاة الليل . قال الحسن : مدوا الصلاة الى السحر ، فلما كان السحر جلسوا يستغفرون الله . وأمر الله تعالى عباده بالاستغفار عقيب الإفاضة فى الحج فقال (البقرة ١٩٩) : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُوا اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم ﴾ . وشرع رسول الله ﷺ للمتوضىء أن يختم وضوءه بالتوحيد والاستغفار فيقول « أَشْهَدُ أَنْ لا إلٰهَ إلاَّ اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه . اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابين وَاجْعَلْنِي مِنَ المُتَطَهِّرِين » فهذا ونحوه مما يبين حقيقة الأمر ، وأن كل أحد محتاج الى مغفرة الله ورحمته ، وأنه لا سبيل الى النجاة بدون مغفرته ورحمته أصلا

الجواب الثانى : أنه لو فرض أن العبد يأتى بمقدوره كله من الطاعة ظاهرا وباطنا ، فالذى ينبغى لربه فوق ذلك وأضعاف أضعافه . فاذا عجز العبد عنه لم يستحق ما يترتب عليه من الجزاء . والذى أتى به لا يقابل أقل النعم . فاذا حرم جزاء العمل الذى ينبغى للرب من عبده كان ذلك تعذيبا له ، ولم يكن الرب ظالما له فى هذا الحرمان . ولو كان

عاجزا عن أسبابه فانه لم يمنعه حقا يستحقه عليه فيكون ظالما بمنعه . فاذا أعطاه الثواب كان مجرد صدقة منه وفضل تصدق بها عليه لا ينالها عمله ، بل هى خير من عمله وأفضل وأكثر ، ليست معاوضة عليه . والله أعلم

الجواب الثالث عن السؤال الأول : إن العبد إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو مقلب القلوب ، وأنه يحول بين المرء وقلبه ، وأنه تعالى كل يوم هو فى شأن ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأنه يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء ، فما يؤمنه أن يقلب الله قلبه ويحول بينه وبينه ويزيغه بعد إقامته ؟ وقد أثنى الله على عباده المؤمنين بقولهم (آل عمران ٨) : ﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ فلولا خوف الازاغة لما سألوه أن لا يزيغ قلوبهم . وكان من دعاء النبى ﷺ « اللهم مصرف القلوب ، صرف قلوبنا على طاعتك . ومثبت القلوب ، ثبت قلوبنا على دينك » وفى الترمذى عنه ﷺ أنه كان يدعو « أعوذ بعزتك أن تضلنى ، أنت الحى الذى لا تموت » وكان من دعائه « اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » ، فاستعاذ بصفة الرضا من صفة الغضب ، وبفعل العافية من فعل العقوبة ، واستعاذ به منه باعتبارين . وكان استعاذته منه جمعا لما فصله فى الجملتين قبله . فان الاستعاذة به منه ترجع الى معنى الكلام قبلها ، مع تضمنها فائدة شريفة وهى كمال التوحيد وأن الذى يستعيذ به العائذ ويهرب منه إنما هو فعل الله ومشيئته وقدره ، فهو وحده المنفرد بالحكم . فاذا أراد بعبده سوءاً لم يعذه منه إلا هو . فهو الذى يريد به ما يسوءه ، وهو الذى يريد دفعه عنه . فصار سبحانه مستعاذا به منه باعتبار الإرادتين (الانعام ١٧) : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ فهو الذى يمس بالضر ، وهو الذى يكشفه ، لا إله إلا هو ، فالمهرب منه اليه ، والفرار منه اليه ، واللجأ منه اليه ، كما أن الاستعاذة منه ، فانه لا رب غيره ولا مدبر للعبد سواه . فهو الذى يحركه ويقلبه ، ويصرفه كيف يشاء

الجواب الرابع : أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يخلق أفعال العبد الظاهرة والباطنة ، فهو الذى يجعل الإيمان والهدى فى القلب ، ويجعل فيه التوبة والإنابة والإقبال والمحبة

والتفويض وأضدادها . والعبد فى كل لحظة مفتقر الى هـــداية يجعلها الله فى قلبه ، وحركات يحركه بها فى طاعته . وهذا الى الله سبحانه وتعالى ، فهو خلقه وقدره ، وكان من دعاء النبي ﷺ « اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها » ، وعلم حصين بن المنذر أن يقول « اللهم ألهمنى رشدى ، وقنى شر نفسى » وعامة أدعيته ﷺ متضمنة لطلب توفيق ربه وتزكيته له واستعماله فى محابه ، فمن هداه وصلاحه وأسباب نجاته بيد غيره ، وهو المالك له ولها ، المتصرف فيه بما يشاء ليس من أمره شيء ، من أحق بالخوف منه ؟ وهب أنه قد خلق له فى الحال الهداية ، فهل هو على يقين وعلم أن الله سبحانه وتعالى يخلقها له فى المستقبل ويلهمه رشده أبدا ؟ فعلم أن خوف المقربين عند ربهم أعظم من خوف غيرهم والله المستعان . ومن ههنا كان خوف السابقين من فوات الإيمان كما قال بعض السلف : أنتم تخافون الذنب ، وأنا أخاف الكفر. وكان عمر بن الخطاب يقول لحذيفة : نشدتك الله هل سمانى لك رسول الله ﷺ ؟ (يعنى فى المنافقين[١]) فيقول : لا ، ولا أزكى بعدك أحدا » (رواه البخارى) يعنى لا أفتح علىَّ هذا الباب فى سؤال الناس لى ، وليس مراده أنه لم يخلص من النفاق غيرك

الوجه السادس قوله[٢] « وأما الخواص فانهم جعلوا الوعيد منه وعدا ، والعذاب فيه عذبا ، لانهم شاهدوا المبتلى والمعذب ، فاستعذبوا ما وجدوا فى جنب ما شاهدوا » الى آخر كلامه . فيقال : هذا الكلام ونحوه من رعونات النفس ، ومن الشطحات التى يجب إنكارها . فمن ذا الذى جعل وعيد الله وعدا ، وعقابه ثوابا ، وعذابه عذبا ؟ وهل هذا إلا إنكار لوعيده وعذابه فى الحقيقة ؟ وأى عذاب أشد من عذابه نعوذ بالله منه ؟ قال تعالى (الحج ٢) : ﴿ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيد ﴾ وقال (الفجر ٢٥ - ٢٦) : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذابَهُ أَحَدٌ ، ولا يُوثِقُ وَثاقَهُ أَحَد ﴾ وهذا أظهر فى كل ملة من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه . وإنما ينسب هذا المذهب إلى الملاحدة من القائلين بوحدة الوجود . كما قال قائلهم :

---

(١) لأن حذيفة كان موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذه الناحية

(٢) أى قول أبى العباس بن العريف ، وتصحف اسمه فى ص ٢١٩ وبعدها برسم (ابن الصائف) انظر ص ٢٩٤

ولم يبق إلا صادق الوعد وحده ... فما لوعيد الحق عين تعاين
وإن دخلوا دار الشقاء فانهم ... على لذة فيها نعيم مباين
يسمى عذابا من عذوبة طعمه ... وذاك له كالقشر والقشر صائن
نعيم جنان الخلد والأمر واحد ... وبينهما عند التجلى تباين

فهذا القائل خط على تلك النقطة التى نقطها أبو العباس ، ولعل الكلامين من مشكاة واحدة ، وهذا مباين للمعلوم بالاضطرار من دين الرسل وما أخبرت به عن الله وأخبر به على لسان رسوله ﷺ . فان قيل : ليس مراده ما ذكرتم وفهمتم من كلامه ، وإنما مراده أنه سبحانه إذا ابتلى عبده فى الدنيا فهو لكمال محبته له يتلذذ بتلك البلوى ويعدها نعمة ، وليس مراده عذاب الآخرة . قيل قوله عن الخواص « انهم جعلوا الوعيد منه وعدا » ينفى ما ذكرتم من التأويل ، فان ابتلاء الدنيا غير الوعيد . وأيضا فانه فى مقام الخوف ونفيه عن الخاصة ، محتجا عليه بأنهم يرون العذاب عذبا والوعيد وعدا ، فما لهم وللخوف ؟ هذا مقصوده من سياق كلامه واحتجاجه عليه بهذا الهذيان الذى يسخر منه العقلاء . بل نحن لا ننكر أن العبد اذا تمكن حب الله فى قلبه حتى ملك جميع أجزائه فانه قد يتلذذ بالبلوى أحيانا . وليس ذلك دائما ولا أكثريا ، ولكنه يعرض عند هيجان الحب وغلبة الشوق ، فيقهر شهود الالم ، ثم يراجع طبيعته فيذوق الالم . ولكن أين هذا من جعل الوعيد وعدا ، والعذاب عذبا ؟ وإن أحسن الظن بصاحب هذا الكلام ظن به أنه ورد عليه وارد من الحب يخيل فى نفسه أن محبوبه اذا توعده كان ذلك منه وعدا وان عذّبه كان عذابه عنده عذبا لموافقته مراد محبوبه ، وهذا خيال فاسد وتقدير فى النفس ، والا فالحقيقة الخارجية تكذّب هذا الخيال الباطل . بل لو صب عليه أدنى شىء من عذابه لصاح واستغاث وطلب العفو والعافية . وحكمة الله تقتضى تعجيز هذه النفوس الجاهلة الرعناء الحمقاء بأدنى شىء يكون من الألم والوجع ، حتى يتبين لها دعاويها الكاذبة ، وشطحها الباطل . وهذا سيد المحبين وسيد ولد آدم استعاذته بالله من عذابه وبلائه ، وسؤاله عافيته ومعافاته ، معلومة فى أدعيته وتضرعه الى ربه وابتهاله اليه فى ذلك ، وهى أكثر وأشهر من أن تذكر ههنا ، وان مافى سيد المحبين أسوة وقدوة ، ولكن قد ابتلى كثير من أهل الارادة بالشطح ، كما ابتلى كثير من أهل الكلام

بالشك . والمعافى من عافاه الله من هذا وهذا . فنسأل الله عافيته ومعافاته

الوجه السابع قوله « ان عذاب الكافرين إنما كان شديداً لأنهم لا يشاهدون المعذب لهم ، والمؤمنون يشاهدونه فلم يكن عذابهم شديدا » وليس كذلك ، فان عذاب الكافرين شديد فى نفسه لغلظ جرمهم وهو الكفر ، وهو دائم لا انقطاع له . وأما المؤمنون الذين يعذبون بذنوبهم فعذابهم أضعف من عذاب الكافرين ، لأن عذابهم على الذنوب وهى دون الكفر ، وهو منقطع . والآية لم يرد بها إثبات عذاب المؤمنين دون عذاب الكافرين ، وانما سيقت لبيان عذاب الكافرين حسبُ ، فمفهومها نفى العذاب عن المؤمنين ، لا إثبات عذاب غير شديد . والله أعلم

الوجه الثامن قوله « وللخواص الهيبة ، وهى أقصى درجة يشار اليها فى غاية الخوف ، والخوف يزول بالامن وينتهى به خوف الشخص على نفسه من العقاب ، فاذا أمن العقاب زال الخوف ، والهيبة لاتزول أبدا لأنهامستحقة للرب بوصف التعظيم والاجلال وذلك الوصف مستحق على الدوام . وهذه المعارضة والهيبة تعارض المكاشف أوقات المناجاة ، وتصدم المشاهد أحيان المشاهدة ، وتعصم العائن بصدمة العزة ، ومنه قال قائلهم :

أشتاقه ، فاذا بدا أطرقت من إجلاله
لا خيفة ، بل هيبة وصيانة لجماله
وأصدّ عنه تجلدا وأروم طيف خياله »

فيقال : من العجائب أن المعنى الذى أمر الله به فى كتابه وأثنى به على خاصة عباده وأقربهم اليه ـ وهم أنبياؤه ورسله وملائكته ـ يُجعل ناقصا من منازل العوام ، ويعمد الى معنى لم يذكره الله ولا رسوله ، ولا علق به على المدح والثناء فى موضع واحد ، فيجعل هو الكمال ، وهو للخواص من العباد . فاين فى القرآن والسنة ذكر الهيبة والأمر بها ووصف خاصته بها ؟ ونحن لا ننكر أن الهيبة من لوازم الإيمان وموجباته ، ولكن المنكر أن يكون الوصف الذى وصف به أنبياءه وملائكته ناقصا ، والوصف الذى لم يذكره هو الكامل التام ! وهذا المعنى المعبر عنه بالهيبة حق ، ولكن لم تجىء العبارة عنه فى القرآن والسنة بلفظ الهيبة ، وانما جاءت بلفظ الإجلال ، كقول النبى ﷺ

« إن من إجلال الله إجلال ذى الشيبة المسلم وحامل القرآن غير الغالى فيه والجافى عنه ، والامام العادل » فالاجلال هو التعظيم ، وكذلك الهيبة . يوضح هذا :

الوجه التاسع وهو أن الهيبة والاجلال يجوز تعلقهما بالمخلوق ، كما قال النبي ﷺ « ان من إجلال الله إجلال ذى الشيبة المسلم ـ الحديث » وقال ابن عباس عن عمر : هبته وكان مهيبا . وأما الخشية والمخافة فلا تصلح إلا لله وحده ، قال تعالى (المائدة ٤٤) ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ وقال (آل عمران ١٧٥) : ﴿ فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين ﴾ وقال (التوبة ١٨) : ﴿ إِنَّما يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقامَ الصَّلاةَ وَآتَىٰ الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِين ﴾ فالخوف عبودية القلب فلا تصلح الا لله ، كالذل والمحبة والانابة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب ، وكيف يجعل المهابة المشتركة أفضل منه وأعلى ؟ وتأمل قوله تعالى (النور ٥٢) : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الفائِزُون ﴾ كيف جعل الطاعة لله ولرسوله ، والخشية والتقوى له وحده ، وقال تعالى (الفتح ٩) : ﴿ لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوه ﴾ كيف جعل التوقير والتعزير للرسول وحده ، والتوقير هو التعظيم الصادر عن الهيبة والإجلال . هذه حقيقته ، فعلم أن الخوف من أجلّ مقامات الخواصّ ، وأنهم اليه أحوج وبه أقوم من غيرهم

الوجه العاشر : قوله « الخوف يزول بالأمن ، والهيبة لا تزول أبدا إلخ » فيقال : هذا حق ، فان الخوف إنما يكون قبل دخول الجنة ، فاذا دخلوها زال عنهم الخوف الذى كان يصحبهم فى الدنيا وفى عرصات القيامة ، وبدلوا به أمنا ، لأنهم قد أمنوا العذاب فزايلهم الخوف منه . ولكن لا يدل هذا على أنه كان مقاما ناقصا فى الدنيا ، كما أن الجهاد من أشرف المقامات ، وقد زال عنهم فى الآخرة . وكذلك الإيمان بالغيب أجلّ المقامات على الاطلاق ، وقد زال فى الآخرة وصار الامر شهادة . وكذلك الصلاة والحج والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وبذل النفس لله ، وهى من أشرف الأعمال ، وكلها تزول فى الجنة . وهذا لا يدل على نقصانها ، فان الجنة ليست دار سعى

وعمل ، إنما هى دار نعيم وثواب

الوجه الحادى عشر : أن الخوف إنما زال فى الجنة لأن تعلقه إنما هو بالأفعال لا بالذات كما تقدم ، وقد أمنهم ما كانوا يخافون منه . فقد أمنوا أن لا يفعلوا ما يخافون منه وأن يفعل بهم ربهم ما يخيفهم . ولكن كان الخوف فى الدنيا أنفع لهم ، فبه وصلوا الى الأمن التام ، فان الله سبحانه وتعالى لا يجمع على عبده مخافتين اثنتين ، فمن خافه فى الدنيا أمنه يوم القيامة ، ومن أمنه فى الدنيا ولم يخفه أخافه فى الآخرة . وناهيك شرفا وفضلا بمقام ثمرته الأمن الدائم المطلق

الوجه الثانى عشر : أن الاجلال والمهابة والتعظيم إنما لم تزل لأنها متعلقة بنفس الذات ، وهى موجودة فى دار النعيم . وأما الخوف فانه إنما زال لأنه وسيلة الى توفية العبودية والقيام بالأمر . والوسيلة تزول عند حصول الغاية ، ولكن زوال الوسيلة عند حصول الغاية لا يدل على أنها ناقصة . واذا كانت تلك الغاية لا كمال للعبد بدونها فالوسيلة اليها كذلك

الوجه الثالث عشر : قوله « وهذه المعارضة والهيبة تعارض المكاشف أوقات المناجاة ، وتصون المشاهد أحيان المشاهدة ، وتعصم المعانى بصدمة العزة » . فيقال : لا ريب أن الحب والأنس المجرد عن التعظيم والإجلال يبسط النفس ، ويحملها على بعض الدعاوى والرعونات والأمانى الباطلة وإساءة الأدب والجناية على حق المحبة . فاذا قارن المحبة مهابة المحبوب وإجلاله وتعظيمه وشهود عز جلاله وعظيم سلطانه ، انكسرت نفسه له وذلت لعظمته واستكانت لعزته وتصاغرت لجلاله وصفت من رعونات النفس وحماقاتها ودعاويها الباطلة وأمانيها الكاذبة ، ولهذا فى الحديث « يقول الله عز وجل : أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل الا ظلى » ، فقال « أين المتحابون بجلالى » فهو حب بجلاله وتعظيمه ومهابته ، ليس حبا لمجرد جماله ، فانه سبحانه الجليل الجميل . والحب الناشىء عن شهود هذين الوصفين هو الحب النافع الموجب لكونهم فى ظل عرشه يوم القيامة . فشهود الجلال وحده يوجب خوفا وخشية وانكسارا ، وشهود الجمال وحده يوجب حبا بانبساط وإدلال ورعونة . وشهود الوصفين معا يوجب حبا مقرونا بتعظيم واجلال ومهابة . وهذا هو غاية كمال

العبد . والله أعلم . وإنشاده هذه الأبيات الثلاثة فى هذا المقام فى غاية القبح[1] ، فان هذا المحب ينفى خوفه من محبوبه ، ويعرض عنه إظهارا للتجلد أمام رقيبه ، وذلك قبيح فى حكم المحبة ، فان التذلل للمحبوب وتملقه واستعطافه والانكسار له أولى بالمحب من تجلده وتعززه كما قيل :

اخضع وذل لمن تحب فليس فى   شرع الهوى أنف يشال ويعقد

ثم أخبر أنه يروم طيف خياله ، فهو طالب لحظّه من محبوبه لا لمراد محبوبه منه . فهذا محب لنفسه ، وقد جعل طيف محبوبه وسيلة إلى حصول مراده فاحبه حب الوسائل ، بخلاف من قد أحب محبوبه لذات المحبوب ففنى عن مراده هو منه بمراد محبوبه ، فصار مراده مراد محبوبه ، فحصل الاتحاد فى المراد لا فى الإرادة ولا فى المريد ، هذا إن كان صبره عنه تجلدا عليه ، وإن كان تجلدا على الرقيب خوفا منه فهو ضعيف المحبة ، لأن فيه بقية ليست مع محبوبه بل مع رقيبه ، فهلا ملأ الحب قلبه فلم يبق فيه بقية يلاحظ بها الرقيب والعاذل ؟ كما قيل :

لا كان من لسواك فيه بقية   يجد السبيل بها اليه العذّل

وبالجملة فهذه أبيات ناقصة المعنى لا يصلح الاستشهاد بها . والله أعلم

﴿ فصل ﴾ والمقصود الكلام على علل المقامات وبيان ما فيها من خطأ وصواب ، ولما كان أبو العباس بن العريف[2] قد تعرض لذلك فى كتابه (محاسن المجالس) ذكرنا كلامه فيه وما له وما عليه . ثم ذكر بعد هذا فصلا فى المحبة وفصلا فى الشوق ، فنذكر كلامه فى ذلك وما يفتح الله به تتميما للفائدة ورجاء للمنفعة ، وأن يمن الله العزيز الوهاب بفضله ورحمته ويرقى عبده من العلم الى الحال ، ومن الوصف الى الاتصاف . إنه قريب مجيب

قال أبو العباس « وأما المحبة فقد أشار أهل التحقيق فى العبارة عنها ، وكل نطقّ

---

(١) وهى « أشتاقه ، فاذا بدا » وتقدمت فى ص ٢٩١

(٢) هو الذى تصحف اسمه فى ص ٢١٩ وما بعدها برسم « ابن الصائف » وما هنا هو الصواب » وهو أبو العباس حمد بن محمد الصنهاجي الاندلسى المعروف بابن العريف المتوفى سنة ٥٣٦ كما جاء فى كشف الظنون عند التعريف بكتابه (محاسن المجالس)

بحسب ذوقه ، وانفسح بمقدار شوقه » . قلت : الشيء اذا كان فى الأمور الوجدانية الذوقية التى إنما تعلم بآثارها وعلاماتها ، وكان مما يقع فيه التفاوت بالشدة والضعف ، وكان له لوازم وآثار وعلامات متعددة ، اختلفت العبارات عنه بحسب اختلاف هذه الأشياء . وهذا شأن المحبة ، فانها ليست ـ بحقيقة معانيها ـ ترى بالأبصار ، فيشترك الواصفون لها فى الصفة . وهى فى نفسها متفاوتة أعظم تفاوت . كما بين العلاقة التى هى تعلق القلب بالمحبوب ، والخلة التى هى أعلى مراتب الحب ، وبينهما درجات متفاوتة تفاوتا لا ينحصر . ولها آثار توجبها وعلامات تدل عليها ، فكل أدرك بعض علاماتها فعبر بحسب ما أدركه ، وهى وراء ذلك كله : ليس اسمها كمسماها ، ولا لفظها مبين لمعناها . وكذلك اسم المصيبة والبلية والشدة والألم إنما تدل أسماؤها عليها نوع دلالة لا تكشف حقيقتها ، ولا تعلم حقيقتها إلا بذوقها ووجودها . وفرق بين الذوق والوجود وبين التصور والعلم . فالحدود والرسوم التى قيلت فى المحبة صحيحة غير وافية بحقيقتها ، بل هى اشارات وعلامات وتنبيهات

﴿ فصل ﴾ قال « وهى ـ على الإجمال قبل أن ننتهى إلى التفصيل ـ وجود تعظيم فى القلب يمنع الانقياد لغير محبوبه » . فيقال : هذا التعظيم المانع من الانقياد لغير المحبوب هو أثر من آثار المحبة ، وموجب من موجباتها ، لا أنه نفس المحبة ، فان المحبة إذا كانت صادقة أوجبت للمحب تعظيما لمحبوبه يمنعه من انقياده الى غيره . وليس مجرد التعظيم هو المانع له من الانقياد إلى غيره بل التعظيم المقارن للحب هو الذى يمنع من الانقياد الى غير المحبوب . فان التعظيم إذا كان مجردا عن الحب لم يمنع انقياد القلب الى غير المعظم . وكذلك إذا كان الحب خاليا عن التعظيم لم يمنع المحب أن ينقاد إلى غير محبوبه فاذا اقترن الحب بالتعظيم وامتلأ القلب بهما امتنع انقياده إلى غير المحبوب . والمحبة المشتركة ثلاثة أنواع : (أحدها) محبة طبيعية مشتركة ، كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء وغير ذلك ، وهذه لا تستلزم التعظيم . (والنوع الثانى) محبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها ، وهذه أيضا لا تستلزم التعظيم . (والنوع الثالث) محبة أنس وإلف ، وهى محبة المشتركين ـ فى صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر ـ بعضهم بعضا ، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضا . فهذه الأنواع الثلاثة هى المحبة التى تصلح

للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركا فى محبة الله سبحانه. ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، وكان أحب الشراب اليه الحلو البارد، وكان أحب اللحم اليه الذراع، وكان يحب نساءه، وكانت عائشة رضى الله عنها أحبهن اليه. وكان يحب أصحابه، وأحبهم اليه الصديق. وأما المحبة الخاصة التى لا تصلح إلا لله وحده ومتى أحب العبد بها غيره كان شركا لا يغفره الله، فهى محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة وإيثاره على غيره. فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلا، وهى التى سوّى المشركون بين آلهتهم وبين الله فيها كما قال تعالى (البقرة ١٦٥): ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ ﴾ واصح القولين أن المعنى يحبونهم كما يحبون الله. وسووا بين الله وبين أندادهم فى الحب. ثم نفى ذلك عن المؤمنين فقال ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أشدُّ حباً لله ﴾ فان الذين آمنوا أخلصوا حبهم لله لم يشركوا به معه غيره، وأما المشركون فلم يخلصوه لله. والمقصود من الخلق والأمر إنما هو هذه المحبة، وهى أول دعوة الرسل، وآخر كلام العبد المؤمن الذى اذا مات عليه دخل الجنة اعترافه وإقراره بهذه المحبة وإفراد الرب بها، فهو أول ما يدخل به فى الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا الى الله؛ وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل اليها، وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل؛ فهى قطب رحى السعادة، وروح الايمان، وساق شجرة الاسلام، ولأجلها انزل الله الكتاب والحديد: فالكتاب هاد اليها ودال عليها ومفصل لها، والحديد لمن خرج عنها وأشرك فيها مع الله غيره، ولأجلها خلقت الجنة والنار، فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده فأخلصهم لها، والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره وسوى بينه وبين الله فيها، كما أخبر تعالى عن أهلها أنهم يقولون فى النار لآلهتهم (الشعراء ٩٧ – ٩٨): ﴿ تاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ ﴾ وهذه التسوية لم تكن منهم فى الأفعال والصفات بحيث اعتقدوا أنها مساوية لله سبحانه فى أفعاله وصفاته، وإنما كانت تسوية منهم بين الله وبينها فى المحبة والعبودية مع إقرارهم بالفرق بين الله وبينها، فتصحيح هذه هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله، فحقيق لمن نصح نفسه وأحب سعادتها ونجاتها أن يتيقظ لهذه المسألة

علما وعملا وحالا وتكون أهم الأشياء عنده ، وأجل علومه وأعماله ، فان الشأن كله فيها والمدار عليها والسؤال يوم القيامة عنها ، قال تعالى (الحجر ٩٢ - ٩٣) : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ قال غير واحد من السلف : هو عن قول « لا إله إلا الله » ، وهذا حق ، فان السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها وواجباتها ولوازمها ، فلا يسأل أحد قط إلا عنها وعن واجباتها ولوازمها وحقوقها ، قال أبو العالية : كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا اجبتم المرسلين ؟ فالسؤال عما ذا كانوا يعبدون هو السؤال عنها نفسها ، والسؤال عما ذا أجابوا المرسلين سؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية اليها : هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دعوهم اليها ؟ فعاد الأمر كله اليها . وأمر هذا شأنه حقيق بأن تنعقد عليه الخناصر ، ويعض عليه بالنواجذ ، ويقبض فيه على الجمر ولا يؤخذ باطراف الأنامل ، ولا يطلب على فضلة ، بل يجعل هو المطلب الأعظم وما سواه إنما يطلب على الفضلة . والله الموفق لا إله غيره ولا رب سواه

﴿ فصل ﴾ قال « وقيل المحبة ايثار المحبوب على غيره » . وهذا الحد أيضا من جنس ما قبله فان إيثار المحبوب على غيره موجب المحبة ومقتضاها ، فاذا استقرت المحبة فى القلب استدعت من المحب إيثار محبوبه على غيره ، وهذا الإيثار علامة ثبوتها وصحتها ، فاذا آثر غير المحبوب عليه لم يكن محبا له ، وان زعم أنه محب فانما هو محب لنفسه ولحظه ممن يحبه ، فاذا رأى حظا آخر هو أحب اليه من حظه الذى يريده من محبوبه آثر ذلك الحظ المحبوب اليه . فهذا موضع يغلط فيه الناس كثيرا إذ أكثرهم إنما هو يحب لحظّه ومراده ، فاذا علم أنه عند غيره أحب ذلك الغير حب الوسائل لا حبا له لذاته ، ويظهر هذا عند حالتين : إحداهما : أنه يرى حظا له آخر عند غيره فيؤثر ذلك الحظ ويترك محبوبه . الثانية : أنه اذا نال ذلك الحظ من محبوبه فترت محبته وسكن قلبه وترحل قاطن المحبة من قلبه ، كما قيل : من ودك لأمر ولى عند انقضائه . فهذه محبة مشوبة بالعلل . بل المحبة الخالصة أن يحب المحبوب لكماله ، وأنه أهل أن يحب لذاته وصفاته . وأن الذى يوجب هذه المحبة فناء العبد عن إراداته لمراد محبوبه ، فيكون عاملا على مراد محبوبه منه لا على مراده هو من محبوبه . فهذه هى المحبة الخالصة من

درن العلل وشوائب النفس ، وهى التى تتزايد ، وفى مثل هذا قيل :

تعصى الإله وأنت تزعم حبه   هذا لعمرك فى القياس شنيع
لو كان حبك صادقا لأطعته   إن المحب لمن يحب مطيع

وههنا دقيقة ينبغى التفطن لها ، وهى أن إيثار المحبوب نوعان : ايثار معاوضة ومتاجرة ، وايثار حب وارادة . فالأول : يؤثر محبوبه على غيره طلبا لحظه منه . فهو يبذل ما يؤثره ليعاوضه بخير منه . والثانى يؤثره إجابة لداعى محبته ، فان المحبة الصادقة تدعوه دائما الى إيثار محبوبه ، فايثاره هو أجلّ حظوظه ، فحظه فى نفس الإيثار لا فى العوض المطلوب بالإيثار ، وهذا لا تفهمه إلا النفس اللطيفة الورعة المشرقة ، وأما النفس الكثيفة فلا خبر عندها من هذا ، وما هو بعشها فلتدرج

والدين كله والمعاملة فى الإيثار ، فانه تقديم وتخصيص لمن تؤثره بما تؤثره به على نفسك ، حتى ان من شرطه الاحتياج من جهة المؤثر ، إذ لو لم يكن محتاجا اليه لكان بذله سخاء وكرما . وهذا إنما يصح فى ايثار المخلوق ، والله سبحانه يؤثر عبده على غيره من غير احتياج منه سبحانه فانه الغنى الحميد . وفى الدعاء المرفوع « اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأعطنا ولاتحرمنا ، وأكرمنا ولاتهنا ، وآثرنا ولا تؤثرعلينا ، وأرضنا وارض عنا » وقيل : من آثر الله على غيره آثره الله على غيره . والفرق بين الايثار والأثرة أن الإيثار تخصيص الغير بما تريده لنفسك ، والأثرة اختصاصك به على الغير ، وفى الحديث « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى عسرنا ويسرنا ، ومنشطنا ومكرهنا ، وأثرة علينا »

فاذا عرف هذا فالايثار إما أن يتعلق بالخلق ، وإما أن يتعلق بالخالق . وإن تعلق بالخلق فكماله أن تؤثرهم على نفسك بما لا يضيع عليك وقتا ، ولا يفسد عليك حالا ، ولا يهضم لك دينا ، ولا يسد عليك طريقا ، ولا يمنع لك واردا . فان كان فى إيثارهم شىء من ذلك فايثار نفسك عليهم أولى ، فان الرجل من لا يؤثر بنصيبه من الله أحدا كائنا من كان . وهذا فى غاية الصعوبة على السالك ، والأول أسهل منه . فان الايثار المحمود الذى أثنى الله على فاعله : الايثار بالدنيا لا بالوقت والدين وما يعود بصلاح القلب . قال الله تعالى (الحشر ٩) : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ

وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ المُفْلِحُون ﴾ فاخبر أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذى إذا وقى الرجل الشح به كان من المفلحين ، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة فى الطاعات . فان الفلاح كل الفلاح فى الشح بها ، فمن لم يكن شحيحا بوقته تركه الناس على الأرض عيانا مفلسا . فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله . ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة فى أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة اليها ، وهذا ضد الايثار بها . قال الله تعالى (آل عمران ١٣٣) : ﴿ وَسارِعُوا إِلىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰواتُ وَالْأَرْض ﴾ وقال تعالى (البقرة ١٤٨) : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرات ﴾ وقال تعالى (المطففين ٢٦) : ﴿ وفى ذٰلِكَ فَلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسُون ﴾ وقال النبى ﷺ : « لو يعلم الناس مافى النداء والصف الأول لكانت قرعة » والقرعة إنما تكون عند التزاحم والتنافس لا عند الايثار ، فلم يجعل الشارع الطاعات والقربات محلا للايثار ، بل محلا للتنافس والمسابقة ، ولهذا قال الفقهاء : لا يستحب الايثار بالقربات . والسر فيه ـ والله أعلم ـ أن الايثار إنما يكون بالشيء الذى يضيق عن الاشتراك فيه ، فلا يسع المؤثِر والمؤثَر ، بل لا يسع إلا أحدهما . وأما أعمال البر والطاعات فلا ضيق على العباد فيها ، فلو اشترك الألوف المؤلفة فى الطاعة الواحدة لم يكن عليهم فيها ضيق ولا تزاحم ووسعتهم كلهم ، وإن قدّر التزاحم فى عمل واحد أو مكان لا يمكن أن يفعله الجميع ـ بحيث اذا فعله واحد فات على غيره ـ فان فى العزم والنية الجازمة على فعله من الثواب ما لفاعله كما ثبت عن النبى ﷺ فى غير حديث ، فاذا قدر فوت مباشرته له فلا يفوت عليه عزمه ونيته لفعله . وأيضا فانه إذا فات عليه كان فى غيره من الطاعات والقربات عوض منه : إما مساو له ، وإما أزيد ، وإما دونه . فمتى أتى بالعوض وعلم الله من نيته وعزيمته الصادقة إرادته لذلك العمل الفائت أعطاه الله ثوابه وثواب ما تعوض به عنه ، فجمع له الأمرين . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . وأيضا فان المقصود رغبة العبد فى التقرب الى الله ، وابتغاء الوسيلة اليه ، والمنافسة فى محابه . والايثار بهذا التقرب يدل على رغبته عنه ، وتركه له ، وعدم المنافسة فيه ، وهذا بخلاف ما يحتاج اليه العبد من طعامه وشرابه ولباسه اذا كان أخوه محتاجا اليه فاذا اختص به أحدهما فات الآخر ، فندب الله عبده اذا وجد من نفسه قوة وصبرا

على الايثار به ما لم يخرم عليه دينا ، أو يجلب له مفسدة ، أو يقطع عليه طريقا عزم على سلوكه الى ربه ، أو شوش عليه قلبه بحيث يجعله متعلقا بالخلق ، فمفسدة إيثار هذا أرجح من مصلحته ، فاذا ترجحت مصلحة الإيثار بحيث تتضمن إنقاذ نفسه من هلكة أو عطب أو شدة ضرورة ـ وليس للمؤثر نظيرها ـ تعين عليه الايثار ، فان كان به نظيرها لم يتعين عليه الايثار ، ولكن لو فعله لكان غاية الكرم والسخاء والاحسان ، فانه من آثر حياة غيره على حياته وضرورته على ضرورته فقد استولى على أمد الكرم والسخاء وجاوز أقصاه وضرب فيه بأوفر الحظ . وفى هذا الموضع مسائل فقهية ليس هذا موضع ذكرها . فان قيل : فما الذى يسهل على النفس هذا الايثار ، فان النفس مجبولة على الاثرة لا على الايثار ؟ قيل يسهله أمور :

أحدها : رغبة العبد فى مكارم الأخلاق ومعاليها ، فان من أفضل أخلاق الرجل وأشرفها وأعلاها الايثار ، وقد جبل الله القلوب على تعظيم صاحبه ومحبته ، كما جبلها على بغض المستأثر ومقته ، لا تبديل لخلق الله . والأخلاق ثلاثة : خلق (الايثار) وهو خلق الفضل . وخلق (القسمة والتسوية) وهو خلق العدل . وخلق (الاستئثار والاستبداد) وهو خلق الظلم . فصاحب الايثار محبوب مطاع مهيب ، وصاحب العدل لا سبيل للنفوس الى أذاه والتسلط عليه ولكنها لا تنقاد اليه انقيادها لمن يؤثرها ، وصاحب الاستئثار النفوس الى أذاه والتسلط عليه أسرع من السيل فى حدوره . وهل أزال الممالك وقلعها الا الاستئثار ؟ فان النفوس لا صبر لها عليه[1] ولهذا أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالسمع والطاعة لولاة الأمر وإن استأثروا عليهم ، لما فى طاعة المستأثر من المشقة أو لكره الاستئثار

الثانى : النفرة من أخلاق اللئام ، ومقت الشح وكراهته له

الثالث : تعظيم الحقوق التى جعلها الله سبحانه وتعالى للمسلمين بعضهم على بعض ، فهو يرعاها حق رعايتها ، ويخاف من تضييعها ، ويعلم أنه إن لم يبذل فوق العدل لم يمكنه

(١) وفى ذلك يقول مصطفى صادق الرافعى :

إن ملكت النفوس فابغ رضاها   فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأسـر   فكيف الخلائق العقلاء

الوقوف مع حده ، فان ذلك عسر جدا ، بل لا بد من مجاوزته الى الفضل ، أو التقصير عنه الى الظلم ، فهو لخوفه من تضييع الحق والدخول فى الظلم يختار الايثار بما لا ينقصه ولا يضره ويكتسب به جميل الذكر فى الدنيا وجزيل الأجر فى الآخرة ، مع ما يجلبه له الايثار من البركة وفيضان الخير عليه ، فيعود عليه من إيثاره أفضل مما بذله . ومن جرب هذا عرفه ، ومن لم يجربه فليستقرِ أحوال العالم . والموفق من وفقه الله سبحانه وتعالى

﴿ فصل ﴾ والايثار المتعلق بالخالق أجل من هذا وأفضل ؛ وهو إيثار رضاه على رضى غيره ، وإيثار حبه على حب غيره ، وايثار خوفه ورجائه على خوف غيره ورجائه ، وإيثار الذل له والخضوع والاستكانة والضراعة والتملق على بذل ذلك لغيره . وكذلك ايثار الطلب منه والسؤال وإنزال الفاقات به على تعلق ذلك بغيره ، فالأول آثر بعض العبيد على نفسه فيما هو محبوب له ، وهذا آثر الله على غيره ونفسه من أعظم الاغيار . فآثر الله عليها فترك محبوبها لمحبوب الله . وعلامة هذا الايثار شيئان : أحدهما فعل ما يحب الله اذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه ، الثانى ترك ما يكرهه اذا كانت النفس تحبه وتهواه ، فبهذين الأمرين يصح مقام الايثار ، ومؤنة هذا الايثار شديدة لغلبة الأغيار وقوة داعى العادة والطبع ، فالمحنة فيه عظيمة والمؤنة فيه شديدة والنفس عنه ضعيفة ، ولا يتم فلاح العبد وسعادته إلا به ، وانه ليسير على من يسره الله عليه ، فحقيق بالعبد أن يسمو اليه وان صعب المرتقى ، وأن يشمر اليه وان عظمت فيه المحنة ، ويحمل فيه خطرا يسيرا لملك عظيم وفوز كبير ، فان ثمرة هذا فى العاجل والآجل ليست تشبه ثمرة شيء من الأعمال ، ويسير منه يرقى العبد ويسيره ما لا يرقى غيره اليه فى المدد المتطاولة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ولا تتحقق المحبة الا بهذا الايثار . والذى يسهله على العبد أمور : أحدها أن تكون طبيعته لينة منقادة سلسة ، ليست بجافية ولا قاسية ، بل تنقاد معه بسهولة . الثانى أن يكون إيمانه راسخا ويقينه قويا ، فان هذا ثمرة الإيمان ونتيجته . الثالث قوة صبره وثباته . فبهذه الثلاثة الأمور ينهض إلى هذا المقام ويسهل عليه دركه . والنقص والتخلف فى النفس عن هذا يكون من أمرين : أحدهما أن تكون جامدة غير سريعة الادراك ، بل بطيئة ولا تكاد ترى حقيقة الشيء إلا بعد عسر . وإن رأتها اقترنت به الأوهام والشكوك والشبهات والاحتمالات ، فلا

يتخلص له رؤيتها وعيانها . الثانى أن تكون القريحة وقادة دراكة ، لكن النفس ضعيفة مهينة اذا أبصرت الحق والرشد ضعفت عن ايثاره ، فصاحبها يسوقها سوق العليل المريض ، كلما ساقه خطوة وقف خطوة ، أو كسوق الطفل الصغير الذى تعلقت نفسه بشهواته ومألوفاته ، فهو يسوقه الى رشده وهو ملتفت الى لهوه ولعبه لا ينساق معه الا كرها . فاذا رزق العبد قريحة وقادة ، وطبيعة منقادة : اذا زجرها انزجرت ، واذا قادها انقادت بسهولة وسرعة ولين ، وارتدى مع ذلك بعلم نافع وايمان راسخ ، أقبلت اليه وفود السعادة من كل جانب

ولما كانت هذه القرائح والطبائع ثابتة للصحابة رضى الله عنهم[١] ، وكملها الله لهم بنور الاسلام وقوة اليقين ومباشرة الايمان لقلوبهم ، كانوا أفضل العالمين بعد الأنبياء والمرسلين ، وكان من بعدهم لو أنفق مثل جبل أحد ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . ومن تصور هذا الموضع حق تصوره علم من أين يلزمه النقص والتأخر ، ومن اين يتقدم ويترقى فى درجات السعادة . وبالله التوفيق . والله أعلم

﴿ فصل ﴾ قال[٢] « وقيل : المحبة موافقة المحبوب فيما ساء وسر ، ونفع وضر ، كما قيل :

واهنتنى فأهنتُ نفسى صاغرا ما من يهون عليك ممن أكرم »

فيقال : وهذا الحد أيضا من جنس ما قبله ، فان موافقة المحبوب من موجبات المحبة وثمراتها ، وليست نفس المحبة ، بل المحبة تستدعى الموافقة ، وكلما كانت المحبة أقوى كانت الموافقة أتم ، قال الله تعالى (آل عمران ٣١) : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ قال الحسن : قال قوم على عهد النبى ﷺ : إنا نحب ربنا ، فانزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾ وقال الجنيد : ادّعى قوم محبة الله فأنزل الله آية المحبة ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾

(١) أى انها كانت ثابتة لهم فى طبائعهم وقرائحهم وأصالة معدنهم ، فاختارهم الله — لذلك — من بين الأمم لحمل أمانات الرسالة المحمدية ، وجعلهم (الرعيل الاول) فى كتائب الاسلام

(٢) أى أبو العباس بن العريف فى كتابه (محاسن المجالس) وتحرف اسمه قبلا بابن الصائف

يعنى أن متابعة الرسول هى موافقة حبيبكم ، فانه المبلغ عنه ما يحبه وما يكرهه . وقال مالك فى هذه الآية : من أحب طاعة الله أحبه الله وحببه الى خلقه . وانما كانت موافقة المحبوب دليلا على محبته لأن من أحب حبيبا فلا بد أن يحب ما يحبه ويبغض ما يبغضه وإلا لم يكن محبا له محبة صادقة ، بل إن تخلف ذلك عنه لم يكن محبا له ، بل يكون محبا لمراده منه أحبه محبوبه أم كرهه ، ومحبوبه عنده وسيلة الى ذلك المراد فلو حصل له حظه من غيره ترحل عوضه . فهذه المحبة المدخولة الفاسدة ، واذا كانت المحبة الصحيحة تستدعى حب ما يحبه المحبوب وبغض ما يبغضه فلا بد أن يوافقه فيه

ولكن ههنا مسألة يغلط فيها كثير من المدعين للمحبة ، وهى أن موافقة المحبوب فى مراده ليس المعنى بها مراده الخلقى الكونى ، فان كل الكون مراده ، وكل ما يفعله الخلائق فهو موجب مشيئته وإرادته الكونية ، فلو كانت موافقته فى هذا المراد هى محبته لم يكن له عدو أصلا ، وكانت الشياطين والكفار والمشركون عباد الأوثان والشمس والقمر أولياءه وأحبابه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وانما يظن ذلك من يظنه من أعدائه الجاحدين لمحبته ودينه ، الذين يسوون بين أوليائه وأعدائه . قال الله تعالى (ص ٢٨) : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ وقال الله تعالى (الجاثية ٢١) : ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ، ساءَ ما يَحْكُمُونَ ﴾ وقال الله تعالى (القلم ٣٥-٣٦) : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ وبين المطيعين والمفسدين مع أن الكل تحت المراد الكونى والمشيئة العامة . وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية يقول : قال لى بعض شيوخ هؤلاء : المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب ، والكون كله مراده ، فأى شىء أبغض منه ؟ قال فقلت له : فاذا كان المحبوب قد أبغض بعض ما فى الكون ، فأبغض قوما ومقتهم ولعنهم وعاداهم ، فأحببتهم أنت وواليتهم ، تكون مواليا للمحبوب موافقا له ، أو مخالفا له معاديا له ؟ قال : فكأنما ألقم حجرا . ويبلغ الجهل والكفر ببعض هؤلاء إلى حد بحيث إذا فعل محظورا يزعم أنه مطيع لله سبحانه وتعالى ، ويقول

أنا مطيع لارادته ، وينشد فى ذلك :

أصبحتُ منفعلا لما يختاره منى ، ففعلى كله طاعات !

ويقول أحدهم : إبليس وان عصى الامر ، لـكنه أطاع الارادة ! يعنى أن فعله طاعة لله من حيث موافقة إرادته ، وهذا انسلاخ من ربقة العقل والدين ، وخروج عن الشرائع كلها ، فان الطاعة إنما هى موافقة الامر الدينى الذى يحبه الله ويرضاه ، وأما دخوله تحت القدر الـكونى الذى يبغضه ويسخطه ويكفر فاعله ويعاقبه ، فهى المعصية والـكفر ومعاداته ومعاداة دينــــه . ولا ريب أن المسرفين على أنفسهم المنهمكين فى الذنوب والمعاصى المعترفين بأنهم عصاة مذنبون أقرب الى الله من هؤلاء العارفين (!) المنسلخين عن دين الأنبياء كلهم ، الذين لا عقل لهم ولا دين , فنسأل الله أن يثبت قلوبنا على دينه

أما البيت الذى استشهد به فهو من أبيات لأبى الشيص من قصيدة يقول فيها :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى متـأخر عنـــه ولا متقـدم
وأهنتنى فأهنـت نفسى جاهـدا ما من يهون عليـك ممن يكرم
أشبهت أعـدائى فصرت أحبهـم اذ كان حظى منك حظى منهم
أجـــد الملامة فى هواك لذيذة حبـــا لذكـرك فليلمنى اللوم

وقد ناقض فيها فى دعواه مناقضة بينة ، فانه أخبر أن هواه قد صار وقفا عليها لا يزول عنها ولا يتحول بتقدم ولا تأخر ، ثم أخبر أنه قد بلغ به حبها وهواها الى أن صار مرادها من نفسه غير مراده هو ، فلما أرادت إهانته بالصد والهجران والبعد سعى هو فى إهانة نفسه بجهده موافقة لها فى إرادتها ، فصارت إهانته لنفسه مرادة محبوبة له من حيث هى مرادة محبوبة لها ، وزعم أنه لو أكرم نفسه لـكان مخالفا لمحبوبته مكرما لمن اهانته . ثم نقض هذا الغرض من حيث شبهها بأعدائه الذين هم أبغض شىء اليــه . ووجه هذا التشبيه أنه لم يحصل منها من حظه ومراده على شىء ، بل الذى يحصل له منها مثل ما يحصل له من أعدائه من إهانتهم له وأذاه ، فصار حظه منها ومن أعدائه واحدا ، فصارت شبيهه بهم . فأين هذا من الموافقة التامة لها فى مرادها ، بحيث يهين نفسه لمحبتها فى اهانته ؟ ثم أخبر أن له منها حظا مرادا ، وان ذلك الحظ الذى يريده لم يحصل له ،

وانما حصل له منه نظير ما يحصل له من أعدائه . وهذه شكاية فى الحقيقة وإخبار عن محبه ببخله بالحظ ، وشكاية للحبيب بتفويته عليه . ثم انه أخبر عن جناية أخرى وهى أنه شرك بينها وبين أعدائه فى حبه لها ، فصار حبه منقسما بعضه له وبعضه لأعدائه لشبههم اياها . ثم إن فى الشعر جناية أخرى عليها وهو أنه شبهها بمن جبلت القلوب على بغضه وهو العدو ، واللائق تشبيه الحبيب بما هو أحب الأشياء الى النفس كالسمع والبصر والحياة والروح والعافية ، كما هو عادة الشعراء والناس فى نظمهم ونثرهم كما هو معروف بينهم وهو جادة كلامهم . ثم أخبر بمحبته لأعدائه لشبههم بها ، فتضمن كلامه معاداة من يحبه ومحبة من يعاديه ، فانها إذا أشبهت أعداءه لزم أن يحصل لها نصيب من معاداته ، وإذا أشبهها أعداؤه لزم أن يحصل لهم نصيب من محبته كما صرح به فى جانبهم وترك التصريح فى جانبها ، وهو مفهوم من كلامه . ثم أخبر أنه يلتذ بملامة اللوام فى هواها لما يتضمن من ذكراها . وهذا يدل على قوة محبتها وسماع ذكرها . وهذا غرض صحيح مع أنه مدخول أيضا ، فان محبوبته قد تكره ذلك لما يتضمن من فضيحتها به وجعلها مضغة للماضغين ، فيكون محبا لنفس ما تكرهه . وهذه محبة فاسدة معلولة ناقضة لدعواه موافقتها فى محابها

﴿ فصل ﴾ قال « وقيل : المحبة القيام بين يديه وأنت قاعد ، ومفارقة المضجع وأنت راقد ، والسكوت وأنت ناطق ، ومفارقة المألوف والوطن وأنت مستوطن » . فيقال : وهذا أيضا أثر من آثار المحبة وموجب من موجباتها وحكم من أحكامها . وهو صحيح ، فان المحبة توجب سفر القلب نحو المحبوب دائما ، والمحبة وطنه ، وتوجب مثوله وقيامه بين يدى محبوبه وهو قاعد ، وتجافيه عن مضجعه ومفارقته إياه وهو فيه راقد ، وفراغه لمحبوبه كله وهو مشغول فى الظاهر بغيره . كما قال بعضهم :

وأديم نحو محدثى ليرى أن قد عقلت وعندكم عقلى

وقال بعض المريدين لشيخه : أيسجد القلب بين يدى الله ؟ فقال : نعم سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة . فهذه سجدة متصلة بقيامه وقعوده وذهابه ومجيئه وحركته وسكونه . وكذلك يكون جسده فى مضجعه وقلبه قد قطع المراحل مسافرا إلى حبيبه ، فاذا أخذ مضجعه اجتمع عليه حبه وشوقه ، فيهزه المضجع إلى سكنه . كما

قال تعـالى فى حق المحبين (السجدة ١٦) : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ فلما تجافت جنوبهم عن المضاجع جافت الجنوب عنها واستخدمتها وأمرتها فاطاعتها . وقال القائل :

نهارى نهار الناس ، حتى إذا بدا لىَ الليل هزتنى اليك المضاجع

ويحكى أن بعض الصالحين اجتاز بمسجد ، فرأى الشيطان واقفا ببابه لا يستطيع دخوله . فنظر فاذا فيه رجل نائم وآخر قائم يصلى . فقال له : أيمنعك هذا المصلى من دخوله ؟ فقال : كلا ، إنما يمنعنى ذلك الأسد الرابض ، ولولا مكانه لدخلت . وبالجملة فقلب المحب دائما فى سفر لا ينقضى نحو محبوبه ، كلما قطع مرحلة له ومنزلة تبدت له أخرى كما قيل « إذا قطعت علما بدا علم » ، فهو مسافر بين أهله ، وظاعن وهو فى داره ، وغريب وهو بين إخوانه وعشيرته ، يرى كل أحد عنده ولا يرى نفسه عند أحد . فقوة تعلق المحب بمحبوبه توجب له أن لا يستقر قلبه دون الوصول اليه ، وكلما هدأت حركاته وقلت شواغله اجتمعت عليه شئون قلبه ، بله قوى سيره إلى محبوبه

ومحك هذا الحال يظهر فى مواطن أربعة :

أحدها : عند أخذ مضجعه وتفرغ حواسه وجوارحه من الشواغل ، واجتماع قلبه على ما يحبه . فانه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به

الموطن الثانى : عند انتباهه من النوم ، فأول شىء يسبق الى قلبه ذكر محبوبه . فانه اذا استيقظ وردت اليه روحه رد معها اليه ذكر محبوبه الذى كان قد غاب عنه فى النوم . ولـكن كان قد خالط روحه وقلبه ، فلما ردت اليه الروح أسرع من الطرف رد اليه ذكر محبوبه متصلا بها ، مصاحبا لها . فورد عليه قبل كل وارد ، وهجم عليه قبل كل طارق . فاذا وردت عليه الشواغل والقواطع وردت على محل ممتلىء بمحبة ما يحبه فوردت على ساحته من ظاهرها ، فاذا قضى وطره منها قضاه بمصاحبته لما فى قلبه من الحب ، فانه قد لزمه ملازمة الغريم لغريمه ولذلك يسمى غراما ، وهو الحب اللازم الذى لا يفارق : فسمع بمحبوبه وأبصر به وبطش به ومشى به ، فصار محبوبه فى وجوده فى محل سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ،

ورجله التي يمشي بها . هذا مثل محبوبه في وجوده وهو غير متحد به ، بل هو قائم بذاته مباين له . وهذا المعنى مفهوم بين الناس لا ينكره منهم إلا غليظ الحجاب ، أو قليل العلم ، ضعيف العقل ، يجد محبوبه قد استولى على قلبه وذكره ، فيظن أنه هو نفس ذاته الخارجة قد اتحدت به أو حلت فيه ، فينشأ من قسوة الاول وكثافته غلظ حجاب ، ومن قلة علم الثاني ومعرفته وضعف تمييزه ضلال الحلول والاتحاد ، وضلال الانكار والتعطيل والحرمان ، ويخرج [للبصير] من بين فرث هذا ودم هذا لبن الفطرة الأولى خالصا سائغا للشاربين

الموطن الثالث : عند دخوله في الصلاة ، فانها محك الاحوال وميزان الايمان ، بها يوزن ايمان الرجل ويتحقق حاله ومقامه ومقدار قربه من الله ونصيبه منه ، فانها محل المناجاة والقربة ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه ، فلا شيء أقر لعين المحب ولا ألذ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إذا كان محبا ، فانه لا شيء آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه ومناجاته له ومثوله بين يديه وقد اقبل محبوبه عليه ، وكان قبل ذلك معذبا بمقاساة الاغيار ومواصلة الخلق والاشتغال بهم ، فاذا قام الى الصلاة هرب من سوى الله اليه وآوى عنده واطمأن بذكره وقرت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته ، فلا شيء أهم اليه من الصلاة ، كأنه في سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح ، كما قال النبي ﷺ لبلال : « يا بلال ، أرحنا بالصلاة » ولم يقل : ارحنا منها ، كما يقول المبطلون الغافلون . وقال بعض السلف : ليس بمستكمل الإيمان من لم يزل في هم وغم حتى تحضر الصلاة فيزول همه وغمه ، أو كما قال . فالصلاة قرة عيون المحبين ، وسرور أرواحهم ، ولذة قلوبهم ، وبهجة نفوسهم ، يحملون هم الفراغ منها إذا دخلوا فيها كما يحمل الفارغ البطال همها حتى يقضيها بسرعة ، فلهم فيها شأن وللنقّارين شأن ، يشكون الى الله سوء صنيعهم بها إذا ائتموا بهم ، كما يشكو الغافل المعرض تطويل إمامه ، فسبحان من فاضل بين النفوس وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم . وبالجملة فمن كان قرة عينه في الصلاة فلا شيء أحب اليه ولا أنعم عنده منها ، ويودّ أن لو قطع عمره بها غير مشتغل بغيرها ، وإنما يسلي نفسه اذا فارقها ، بانه سيعود اليها عن قرب ، فهو دائما يثوب اليها ولا يقضي منها وطرا ،

فلا يزن العبد إيمانه ومحبته لله بمثل ميزان الصلاة ، فانها الميزان العادل ، الذى وزنه غير عائل

الموطن الرابع : عند الشدائد والاهوال ، فان القلب فى هذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء اليه ، ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم عنده . ولهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبونهم عند الحرب واللقاء ، وهو كثير فى اشعارهم كما قال :

ذكرتك والخطىّ يخطر بيننا وقد نهلت منى المثقفة السمر

وقال غيره :

ولقد ذكرتك والرماح كأنها أشطان بئر فى لبان الأدهم

وقد جاء فى بعض الآثار : يقول تبارك وتعالى « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه » ، والسر فى هذا ـ والله أعلم ـ أن عند مصائب الشدائد والأهوال يشتد خوف القلب من فوات أحب الأشياء اليه ، وهى حياته التى لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوبه ، فهو إنما يحب حياته لتنعمه بمحبوبه ، فاذا خاف فوتها بدر الى قلبه ذكر المحبوب الذى يفوت بفوات حياته . ولهذا ـ والله أعلم ـ كثيرا ما يعرض للعبد عند موته لهجه بما يحبه وكثرة ذكره له ، وربما خرجت روحه وهو يلهج به . وذكر ابن أبى الدنيا فى (كتاب المحتضرين) عن زفر أنه جعل يقول عند موته : لها ثلاثة أخماس الصداق ، لها ربع الصداق ، لها كذا ومات . لامتلاء قلبه من محبة الفقه والعلم . وأيضا فانه عنـــد الموت تنقطع شواغله وتبطل حواسه ، فيظهر ما فى القلب ويقوى سلطانه ، فيبدو ما فيه من غير حاجب ولا مدافع . وكثيرا ما سمع من بعض المحتضرين عند الموت : شاه مات[1] ، وسمع من آخر بيت شعر لم يزل يغنى به حتى مات وكان مغنيا ، وأخبرنى رجل عن قرابة له أنه حضره عند الموت ـ وكان تاجرا يبيع القماش ـ قال فجعل يقول : هذه قطعة جيدة ، هذه على قدرك ، هذه مشتراها رخيص يساوى كذا وكذا حتى مات . والحكاية فى هذا كثيرة جدا . فمن كان مشغولا بالله وبذكره ومحبته فى حال حياته وجد ذلك أحوج ما هو اليه عند خروج روحه الى الله ، ومن

(١) لأنه كان مشغولا بلعب الشطرنج

كان مشغولا بغيره فى حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت ما لم تدركه عناية من ربه ، ولأجل هذا كان جديرا بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان لأجل تلك اللحظة التى إن فاتت شقى شقاوة الأبد . فنسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته

﴿ فصل ﴾ وقد قيل فى المحبة حدود كثيرة غير ما ذكره أبو العباس ، فقيل : المحبة ميل القلب إلى محبوبه . وهذا الحد لا يعطى تصور حقيقة المحبة . فان المحبة أعرف عند القلب من الميل . وأيضا فان الميل لا يدل على حقيقة المحبة . فانها أخص من مجرد ميل القلب ، اذ قد يميل قلب العبد الى الشيء ولا يكون محبا له لمعرفته بمضرته له ، فان سمى هذا الميل محبة فهو اختلاف عبارة . وقيل : المحبة علم المحب بجمال المحبوب ومحاسنه . وهذا حد قاصر ، فان العلم بجماله ومحاسنه هو السبب الداعى الى محبته ، فعبر عن المحبة بسببها . وقيل : المحبة تعلق القلب بالمحبوب . وقيل : انصباب القلب الى المحبوب . وقيل : سكون القلب اليه . وقيل : اشتغال القلب بالمحبوب بحيث لا يتفرغ قلبه لغيره . وقيل : المحبة بذل المجهود فى معرفة محبوبك ، وبذل المجهود فى مرضاته . وقيل : هيجان القلب عند ذكر المحبوب . وقيل : شجرة تنبت فى القلب تسقى بماء المراقبة ، وايثار رضى المحبوب . وقيل : المحبة حفظ الحدود ، فليس بصادق من ادعى محبة الله ولم يحفظ حدوده . وقيل : المحبة ارادة لا تنقص بالجفاء ولا تزيد بالبر . وقيل : فطام الجوارح عن استعمالها فى غير مرضاة المحبوب . وقيل : المحبة هى السخاء بالنفس للمحبوب . وقيل : المحبة أن لا يزال عليك رقيب من المحبوب لا يمكنك من الانصراف عنه أبدا . وأنشد فى ذلك :

أبت غلبات الشوق إلا تقربا ... اليك ، ويأبى العذل إلا تجنبا
وما كان صدى عنك صد ملامة ... ولا ذلك الاعراض إلا تقربا
وما كان ذاك العذل إلا نصيحة ... ولا ذلك الاغضاء إلا تهيبا
علىَّ رقيب منك حــل بمهجتى ... اذا رمت تسهيلا علىَّ تصعبا

وقيل : المحبة سقوط كل محبة من القلب سوى محبة حبيبك . وقيل : المحبة صدق المجاهدة فى أوامر الله ، وتجريد المتابعة لسنة رسول الله ﷺ . وقيل : المحبة أن

لا يفتر من ذكره ، ولا يأنس بغيره . وقال أبو يزيد : المحبة استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك . وقيل : المحبة أن يميتك حبيبك وتحيا به . وقال أبو عبد الله القرشى : المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شىء . وقيل : أن تمحو من قلبك ما سوى المحبوب . وقيل : المحبة نسيان حظك من محبوبك وفقرك بكلك اليه . وقال النصر اباذى : المحبة مجانبة السلوّ على كل حال . وقال الحارث بن أسد : المحبة ميلك الى المحبوب بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا ، ثم علمك بتقصيرك فى حبه . وقيل : المحبة سكر لا يصحو إلا بمشاهدة المحبوب . وقيل : المحبة إقامتك بالباب على الدوام . وقيل : المحبة حرفان : حاء ، وباء . فالحاء الخروج عن الروح ، وبذلها للمحبوب . والباء الخروج عن البدن وصرفه فى طاعة المحبوب . وقال أبو عمر الزجاجى : سألت الجنيد عن المحبة فقال : تريد الاشارة ؟ قلت : لا . قال : تريد الدعوى ؟ قلت : لا . قال : فايش تريد ؟ قلت : عين المحبة . فقال : أن تحب ما يحب الله فى عباده ، وتكره ما يكره الله فى عباده . وقيل : المحبة معية القلب والروح مع المحبوب معيةً لا تفارقه ، فان المرء مع من أحب . وقد قيل فى المحبة حدود أكثر من هذا وكل هذا تعن . ولا توصف المحبة ولا تحدّ بحد أوضح من المحبة ، ولا أقرب الى الفهم من لفظها . وأما ذكر الحدود والتعريفات فانما يكون عند حصول الاشكال والاستعجام على الفهم ، فاذا زال الإشكال وعدم الاستعجام فلا حاجة الى ذكر الحدود والتعريفات ، كما قال بعض العارفين : ان كل لفظ يعبر به عن الشىء فلا بد أن يكون ألطف وأرق منه . والمحبة ألطف وأرق من كل ما يعبر به عنها

﴿ فصل ﴾ قال أبو العباس « وقال قوم : ليس للمحبة صيغة يعبر بها عن حقيقتها . فان الغيرة من أوصاف المحبة ، والغيرة تأبى الا التستر والاختفاء ، وكل من بسط لسانه بالعبارة عنها والكشف عن سرها فليس له منها ذوق ، وإنما حركه وجدان الرائحة ، ولو ذاق منها شيئا لغاب عن الشرح والوصف ، فان المحبة لا تظهر على المحب بلفظه وإنما تظهر عليه بشمائله ونحوله ، ولا يفهم حقيقتها من المحب سوى المحبوب ، لموضع اقتداح الأسرار من القلوب ، كما قيل :

تشير فأدرى ما تقول بطرفها   وأطرق طرفى عند ذاك فتعلم
تكلم منا فى الوجوه عيوننا   فنحن سكوت والهوى يتكلم »

قلت : كل معنى فله صيغة تعبر به عنه ، ولا سيما اذا كانت من المعانى المعروفة للخاص والعام . ولكن العبارة قد تكون كاشفة للمعنى مطابقة له ، كلفظ الدراهم والخبز والماء واللبن ونحوها ، وهى أكبر الألفاظ . وقد يكون المعنى فوق ما يشير اليه اللفظ ويعبر عنه ، وهو أجل من أن يدل لفظه على كمال ماهيته ، وهذا كأسماء الرب سبحانه وأسماء كتابه . وكذلك اسم الحب فانه لا يكشف اسمه مسماه ، بل مسماه فوق لفظه ، وكذلك اسم الشوق والعشق والموت والبلاء ونحوها . وقد يكون المعنى دون اللفظ بكثير ، واللفظ أجل منه وأعظم . وهذا كلفظ الجوهر الفرد ، الذى هو عبارة عن أقل شىء وأصغره وأدقه وأحقره ، فليس معناه على قدر لفظه . وإذا عرف هذا فقولهم « ليس للمحبة صيغة يعبر بها عن حقيقتها » المراد به أن لفظها لا يفهم حقيقة معناها ، ومعناها فوق ما يفهم من لفظها . وقوله « الغيرة من أوصاف المحبة ، وهى تأبى إلا التستر والاختفاء » هذا كلام فى حكم المحبة ومقتضاها ، لا فى حقيقتها ومعناها . والمحبون متباينون فى هذا الحكم ، فمنهم من يجعل الغيرة من لوازم المحبة وعلامة ثبوتها وتمكنها ويجعل نداء المرء عليها وبسط لسانه بالاخبار بها دليلا على أنه دعىّ فيها ، وأن ما معه منها رائحتها لا حقيقتها ، وحقيقتها تأبى إلا التستر والكتمان . وهذه طريقة الملامين . كما قيل :

لا تنكرى جحدى هواك ، فانما   ذاك الجحود عليه ستر مسبل

ولهذا قيل : المحبة كتمان الارادة ، واظهار الموافقة . وهذه الطائفة رأت أن كمال المحبة بكتمانها لأسباب عديدة :

أحدها : أن الحب كلما كان مكتوما كان أشد وأعظم سريانا وسكونا فى أجزاء القلب كلها ، كما قيل : الحب أقتله أكتمه ، فاذا أفشاه المحب وأظهره وباح به ونادى عليه ضعف أثره وصار عرضة للزوال

الثانى : أن الحب كنز من الكنوز ، بل هو أعظم الكنوز المودعة فى سر العبد

وقلبه ، فلا طريق للصوص اليه ، فاذا باح به ونادى عليه فقد دل قطاع الطريق واللصوص على موضع كنزه ، وعرضه لسلبه منه ، فان النفوس غيارة مغيرة ، تغار على المحبوب أن يشاركها فى حبه أحد . فاذا غارت عليه أغارت على القلوب التى فيها حبه فانتزعته منه . وهذه الآفة قد ابتلى بها كثير من السالكين الذين هم فى الحقيقة قطاع الطريق على السالكين إلى الله ، وسولت لهم أنفسهم أن هذه غيرة منهم على محبوبهم أن يحب مثل هذه النفوس المتلوثة بالدنيا ، وغرتهم أنفسهم ومنتهم أنهم يغارون على الله ويحولون بين تلك النفوس وبين المحبة ، فغاروا وأغاروا ونهبوا واستلبوا . وهذه الطريقة عند المحبين المخلصين أولياء الله الداعين إلى الله عداوة لله فى الحقيقة ، ومعاونة للشيطان ، وقعود على طريق الله المستقيم الذى خلق عباده لأجله وأمرهم به . فالحذر من هؤلاء القطاع اللصوص حمل أهل المحبة على المبالغة فى كتمانها ، وإظهار التخلى منها بأسباب يلامون عليها ظاهراً وقلوبهم مغمورة بالمحبة مأهولة بها . وهذا الذى ظنوه غيرة هو من تلبيس الشيطان وخدعه لهم ومكره بهم ، وإنما هو حسد حملهم على أن يردوه وصالوا به وسموه غيرة . وانما غيرة المحبين لله أن يغار أحدهم لمحارم الله إذا انتهكت ، فيغار لله لا على الله ، كما قال النبى ﷺ « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله أن يأتى العبد ما حرم عليه » . فغيرة المحب هى الموافقة لغيرة محبوبه ، وهى أن يغار مما يغار منه المحبوب ، واذا كان المحبوب ممن يحبه ، وهذا يغار ممن يحبه الله فهو فى الحقيقة ساع فى خلاف مراد محبوبه وفى إعدام ما يحبه محبوبه ، فأين هذا من الغيرة المحبوبة لله ؟ وإنما هذه غيرة من أخيه المسلم كيف خصه الله بعطائه وألبسه ثوب نعمائه ، فهى غيرة منه لا غيرة على الله ، فان الله لا يغار عليه بل يغار له . وسنفرد ان شاء الله للغيرة فصلا نذكر فيه أقسامها وحقيقتها

الثالث : أن المحبة التامة تستدعى شغل القلب بالمحبوب ، وعدم تفرغه للشرح والوصف ، فلو صدقت محبته لاستغرق فيها عن شرح حاله ووصفه ، فهذه طريقة هؤلاء . ومنهم من يجعل تهتكه وبوحه بها وإعلامه لها من تمامها وقوتها ومن علامات قهرها له وأنها غلبت على سره حتى لم يطق صبره كتمانها ، كما قال النورى[1] : المحبة هتك

(١) هو أبو الحسين أحمد بن محمد النورى البغدادى المتوفى سنة ٢٩٥

الاستار ، وكشف الاسرار . فهذا حال النورى واضرابه . وعند هؤلاء التكتم ضعف فى المحبة وجور فيها ، وحقيقتها أن تخليها ومقتضاها من ظهور آثارها على الجوارح والبدن ، فان أثرت حركة لم يسكنها وان أثرت دمعة لم يمسكها وان أثرت تنفسا لم يكظمه وان اثرت بذلا وايثارا لم يمسكه . وكمال المحبة عندهم أن تنادى عليه أعضاؤه وألفاظه وألحاظه وحركاته وسكناته بالحب نداء لا يملك إنكاره . وقال على بن عبيد وكتب يحيى بن معاذ الى أبى يزيد : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته . فكتب اليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السمٰوات والارض ما روى بعد ، ولسانه خارج وهو يقول : هل من مزيد . فلم ير هذان العارفان التكتم بها وإخفاءها وجحدها وهما هما . وكان الاستاذ أبو على الدقاق ينشد كثيرا :

لى سكرتان وللندمان واحدة   شىء خصصت به من بينهم وحدى

وجاء رجل[(١)] الى عبد الله بن المنازل فقال : رأيت فى المنام كأنك تموت إلى سنة ، فقال عبد الله : لقد أجلتنى الى أجل بعيد ، أعيش الى سنة ! لقد كان لى أنس ببيت سمعته من أبى على [الثقفى[(٢)]] :

يا من شكى شوقه من طول فرقته   اصبر لعلك تلقى من تحب غدا

وقال الشبلى : المحب إذا سكت هلك ، والعارف ان لم يسكت هلك . والتحقيق : أن هذا هو حال المتمكن فى حبه ، الذى تزول الجبال الراسيات وقلبه على الود لا يلوى ولا يتغير . والاول حال المريد المبتدئ الذى قد علقت نار المحبة فى قلبه ، ولم يتمكن اشتعالها ، فهو يخاف عليها عواصف الرياح أن تطفئها ، فهو يخبأها ويكتمها ويسترها من الرياح جهده ، فاذا اشتعلت وتمكن وقودها فى القلب لم تزدها كثرة الرياح إلا وقودا واشتعالا . فهذا يختلف باختلاف الناس وتفاوتهم فى قوة المحبة وضعفها . والمقصود أن من بسط لسانه بالعبارة عنها والكشف عن سرها وأحكامها لن يؤمن أن يكون من أهل العلم بالمحبة لا من المتصفين بها حالا ، فكم بين العلم بالشىء والاتصاف به ذوقا وحالا ، فعلم المحبة شىء ووجودها فى القلب شىء . وكثير من المحبين الذين

(١) هو أحمد بن حامد الأسود كما فى باب الشوق من رسالة أبى القاسم القشيرى (٣٧٦ — ٤٦٥)
(٢) هو محمد بن عبد الوهاب مات سنة ٣٢٨

امتلأت قلوبهم محبة لو سئل عن حدها وأحكامها وحقيقتها لم يطق أن يعبر عنها ، ولا يتهيأ له أن يصفها ويصف أحكامها ، وأكثر المتكلمين فيها إنما تكلموا فيها بلسان العلم لا بلسان الحال . وهذا والله أعلم هو معنى قول بعض المشايخ : أعظم الناس حجابا عن الله أكثرهم اليه إشارة ، فانه إنما حظه منه الاشارة اليه لا علوق القلب عليه ، كالفقير الذى دأبه وصف الاغنياء وأموالهم ، ووصف الدنيا وممالكها ، وهو خلو من ذلك . ولا ريب أن وجود الحب فى القلب وترك الكلام علما خير من كثرة الكلام فى هذه المسألة وخلو القلب منها . وخير من الرجلين من امتلأ قلبه منها حالا وذوقا ، وفاضت على لسانه إرشادا وتعليما ونصيحة للامة . فهذا حال الكملة من الناس . والله المسئول من فضله وكرمه

قوله « المحبة لا تظهر على المحب بلفظه ، وإنما تظهر عليه بشمائله ونحوله » هذا حق فان دلالة الحال على المحبة أعظم من دلالة القال عليها ، بل الدلالة عليها فى الحقيقة هو شاهد الحال لا صريح المقال . ففرق بين من يقول لك بلسانه إنى أحبك ولا شاهد عليه من حاله ، وبين من هو ساكت لا يتكلم وأنت ترى شواهد أحواله كلها ناطقة بحبه لك . قال جعفر قال الجنيد : دفع السرى إلىّ رقعة وقال : هذه خير لك من سبعمائة قصة وكذا . فاذا فيها :

ولما ادعيت الحب قالت كذبتنى　　فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا　　وتذبل حتى لا تجيب المناديا
وتنحل حتى ليس يبقى لك الهوى　　سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

وبالجملة فشاهد الحب الذى لا يكذب هو شاهد الحال ، وأما شاهد المقال فصادق وكاذب

قوله « ولا يفهم حقيقتها من المحب سوى المحبوب ، لموضع اقتداح الاسرار من القلوب » يعنى أن حقيقة المحبة وسرها لا يفهمه من المحب إلا محبوبه . وذلك لشدة الاتصال الذى بينه وبين محبوبه فى الباطن ، فروحه أقرب شىء اليه ، والغير وإن علم أنه محب بظهور أثر المحبة عليه وقيام شاهدها لكن لا يدرك تلك اللطيفة والحقيقة التى يدركها المحبوب من محبه ، لموضع اتصال سره ، وقرب ما بين الروحين ، ولا سيما إذا

كانت المحبة من الطرفين فهناك العجب والمناجاة والملاطفة والاشارة والعتاب والشكوى، وهما ساكنان لا يدرى جليسهما بشأنهما

﴿فصل فى محبة العوام﴾ قال[١] «وأما محبة العوام فهى محبة تنبت من مطالعة المنة وتثبت باتباع السنة ، وتنمو على الإجابة للغاية ، وهى محبة تقطع الوسواس ، وتلذذ الخدمة ، وتسلى عن المصائب ، وهى فى طريق العوام عمدة الايمان» . فيقال : لا ريب أن المحبة درجات متفاوتة ، بعضها أكمل من بعض . وكل درجة خاصة بالنسبة الى ما تحتها ، عامة بالنسبة الى ما فوقها ، فليس انقسامها الى خاص وعام انقساما حقيقيا متميزا بالنسبة بفصل يميز أحد النوعين عن الآخر ، وإنما تنقسم باعتبار الباعث عليها وسببها ، وتنقسم بذلك الى قسمين : أحدهما محبة تنشأ من الاحسان ، ومطالعة الآلاء والنعم ، فان القلوب جبلت على حب من أحسن اليها ، وبغض من أساء اليها . ولا أحد أعظم إحسانا من الله سبحانه ، فان إحسانه على عبده فى كل نفَس ولحظة ، وهو يتقلب فى إحسانه فى جميع أحواله ، ولا سبيل له إلى ضبط أجناس هذا الإحسان فضلا عن أنواعه أو عن أفراده ، ويكفى أن من بعض أنواعه نعمة النفَس التى لا تكاد تخطر ببال العبد ، وله عليه فى كل يوم وليلة فيه أربعة وعشرون ألف نعمة ، فانه يتنفس فى اليوم والليلة أربعة وعشرين ألف نفس . وكل نفس نعمة منه سبحانه ، فاذا كان أدنى نعمة عليه فى كل يوم أربعة وعشرين ألف نعمة فما الظن بما فوق ذلك وأعظم منه ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ (ابراهيم ٣٤ ، النحل ١٨) ، هذا الى ما يصرف عنه من المضرات وأنواع الأذى التى تقصده ، ولعلها توازن النعم فى الكثرة ، والعبد لا شعور له بأكثرها أصلا ، والله سبحانه يكلأه منها بالليل والنهار كما قال تعالى (الانبياء ٤٢) : ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمٰنِ﴾ وسواء كان المعنى من يكلأكم ويحفظكم منه إذا أراد بكم سوءا ويكون يكلأكم مضمنا معنى يجيركم وينجيكم من بأسه ، أو كانت «من» البدلية أى من يكلأكم بدل الرحمن ، أى هو الذى يكلأكم وحده لا كالئ لكم غيره ، ونظير «من» هذه قوله (الزخرف ٦٠) : ﴿وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا

---

(١) أى أبو العباس بن العريف الصنهاجى فى (محاسن المجالس)

منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ على أحد القولين ، أى عوضكم وبدلكم ، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر :

جارية لم تأكل المرقّقا   ولم تذق من البقول الفستقا

أى لم تأكل الفستق بدل البقول ، وعلى كلا القولين فهو سبحانه منعم عليهم بكلاءتهم وحفظهم وحراستهم مما يؤذيهم بالليل والنهار وحده ، لا حافظ لهم غيره . هذا مع غناه التام عنهم وفقرهم التام اليه سبحانه وتعالى ، فانه غنى عن خلقه من كل وجه وهم فقراء محتاجون اليه من كل وجه ، وفى بعض الآثار يقول تعالى « أنا الجواد ، ومن أعظم منى جوداً وكرماً ؟ أبيت أكلأ عبادى فى مضاجعهم وهم يبارزونى بالعظائم » وفى الترمذى أن النبى ﷺ لما رأى السحاب قال « هذه روايا الأرض ، يسوقها الله الى قوم لا يذكرونه ، ولا يعبدونه » وفى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم ليجعلون له الولد ، وهو يرزقهم ويعافيهم » وفى بعض الآثار « يقول الله : ابن آدم ، خيرى اليك نازل ، وشرك الى صاعد . كم أتحبب اليك بالنعم ، وأنا غنى عنك . وكم تتبغض الى بالمعاصى ، وأنت فقير الى . ولا يزال الملك الكريم يعرج الىّ منك بعمل قبيح » ولو لم يكن من تحببه الى عباده وإحسانه اليهم وبره بهم إلا أنه خلق لهم مافى السموات والأرض وما فى الدنيا والآخرة ، ثم أهلهم وكرمهم ، وأرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وشرع لهم شرائعه ، وأذن لهم فى مناجاته كل وقت أرادوا ، وكتب لهم بكل حسنة يعملونها عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف الى أضعاف كثيرة ، وكتب لهم بالسيئة واحدة فان تابوا منها محاها وأثبت مكانها حسنة ، وإذا بلغت ذنوب أحدهم عَنان السماء ثم استغفره غفر له ، ولو لقيه بقراب الأرض خطايا ثم لقيه بالتوحيد لا يشرك به شيئا لأتاه بقرابها مغفرة ، وشرع لهم التوبة الهادمة للذنوب فوفقهم لفعلها ثم قبلها منهم ، وشرع لهم الحج الذى يهدم ما قبله فوفقهم لفعله وكفر عنهم سيئاتهم به ، وكذلك ما شرعه لهم من الطاعات والقربات هو الذى أمرهم بها وخلقها لهم واعطاهم اياها ورتب عليها جزاءها ، فمنه السبب ومنه الجزاء ، ومنه التوفيق ومنه العطاء أولا وآخرا ، وهم محل إحسانه فقط ليس منهم شيء ، إنما الفضل كله والنعمة كلها والاحسان كله منه أولا وآخرا : أعطى عبده ماله وقال : تقرب بهذا إلىّ أقبله منك

فالعبد له والمال له والثواب منه ، فهو المعطى أولا وآخرا فكيف لا يحب من هذا شأنه؟ وكيف لا يستحى العبد أن يصرف شيئا من محبته إلى غيره؟ ومن أولى بالحمد والثناء والمحبة منه؟ ومن أولى بالكرم والجود والاحسان منه؟ فسبحانه وبحمده لا إله إلا هو العزيز الحكيم . ويفرح سبحانه وتعالى بتوبة أحدهم إذا تاب اليه أعظم فرح وأكمله ، ويكفر عنه ذنوبه ، ويوجب له محبته بالتوبة ، وهو الذى ألهمه إياها ووفقه لها وأعانه عليها ، وملأ سبحانه وتعالى سماواته من ملائكته ، واستعملهم فى الاستغفار لأهل الأرض ، واستعمل حملة العرش منهم فى الدعاء لعباده المؤمنين والاستغفار لذنوبهم ووقايتهم عذاب الجحيم ، والشفاعة اليه باذنه أن يدخلهم جناته . فانظر إلى هذه العناية وهذا الإحسان وهذا التحنن والعطف والتحبب إلى العباد واللطف التام بهم ، ومع هذا كله بعد أن أرسل اليهم رسله وأنزل عليهم كتبه وتعرف اليهم بأسمائه وصفاته وآلائه ، ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يسأل عنهم ويستعرض حوائجهم بنفسه ويدعوهم الى سؤاله ، فيدعو مسيئهم إلى التوبة ومريضهم الى أن يسأله أن يشفيه وفقيرهم الى أن يسأله غناه وذا حاجتهم يسأله قضاءها كل ليلة ، ويدعوهم الى التوبة وقد حاربوه وعذبوا أولياءه وأحرقوهم بالنار ، قال تعالى (البروج ١٠) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ وقال بعض السلف : انظروا الى كرمه كيف عذبوا أولياءه وحرقوهم بالنار ، ثم هو يدعوهم إلى التوبة . فهذا الباب يدخل منه كل أحد الى محبته سبحانه وتعالى ، فان نعمته على عباده مشهودة لهم ، يتقلبون فيها على عدد الأنفاس واللحظات . وقد روى فى بعض الأحاديث مرفوعا « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبونى بحب الله » فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن والاحسان ورؤية النعم والآلاء ، وكلما سافر القلب فيها ازدادت محبته وتأكدت ، ولا نهاية لها فيقف سفر القلب عندها ، بل كلما ازداد فيها نظرا ازداد فيها اعتبارا وعجزا عن ضبط القليل منها ، فيستدل بما عرفه على ما لم يعرفه ، والله سبحانه وتعالى دعا عباده اليه من هذا الباب ، حتى إذا دخلوا منه دعوا من الباب الآخر وهو باب الأسماء والصفات الذى إنما يدخل منه اليه خواص عباده وأوليائه ، وهو باب المحبين حقا الذى لا يدخل منه غيرهم ، ولا يشبع من معرفته أحد منهم ، بل كلما بدا له منه علم ازداد شوقا ومحبة

وظمأ . فاذا انضم داعى الاحسان والإنعام الى داعى الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدها نقصا وأبعدها من كل خير ، فان الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل فى أوصافه وأخلاقه ، واذا كانت هذه فطرة الله التى فطر عليها قلوب عباده فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحسانا منه سبحانه وتعالى ولا شىء أكمل منه ولا أجمل ، فكل كمال وجمال فى المخلوق من آثار صنعه سبحانه وتعالى ، وهو الذى لا يحد كماله ، ولا يوصف جلاله وجماله ، ولا يحصى أحد من خلقه ثناء عليه بجميل صفاته وعظيم إحسانه وبديع أفعاله ، بل هو كما اثنى على نفسه . واذا كان الكمال محبوبا لذاته ونفسه وجب أن يكون الله هو المحبوب لذاته وصفاته ، إذ لا شىء أكمل منه ، وكل اسم من أسمائه وصفة من صفاته تستدعى محبة خاصة ، فان أسماءه كلها حسنى وهى مشتقة من صفاته ، وأفعاله دالة عليها . فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل وعلى كل ما أمر ، إذ ليس فى أفعاله عبث ولا فى أوامره سفه ، بل أفعاله كلها لا تخرج عن الحكمة والمصلحة والعدل والفضل والرحمة ، وكل واحد من ذلك يستوجب الحمد والثناء والمحبة عليه ، وكلامه كله صدق وعدل ، وجزاؤه كله فضل وعدل : فانه إن أعطى فبفضله ورحمته ونعمته ، وإن منع أو عاقب فبعدله وحكمته

ما للعباد عليه حق واجب كلا ولا سعى لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله ، أو نعموا فبفضله ، وهو الكريم الواسع

﴿ فصل ﴾ ولا يتصور نشر هذا المقام حق تصوره فضلا عن ان يوفاه حقه ، فأعرف خلقه به وأحبهم له ﷺ يقول « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ولو شهد بقلبه صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها وهل مع المحبين محبة إلا من آثار صفات كماله ؟ فانهم لم يروه فى هذه الدار وإنما وصل اليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعه ، فاستدلوا بما علموه على ما غاب عنهم ، فلو شاهدوه ورأوا جلاله وجماله وكماله سبحانه وتعالى لكان لهم فى حبه شأن آخر ، وانما تفاوتت منازلهم ومراتبهم فى محبته على حسب تفاوت مراتبهم فى معرفته والعلم به . فأعرفهم بالله أشدهم حبا له ، ولهذا كانت رسله أعظم الناس حبا له ، والخليلان من بينهم أعظمهم حبا ، وأعرف الأمة أشدهم له حبا ، ولهذا كان المنكرون لحبه من أجهل الخلق به ، فانهم

منكرون لحقيقة إلهيته ولخلة الخليلين ولفطرة الله التى فطر الله عباده عليها، ولو رجعوا إلى قلوبهم لوجدوا حبه فيها، ووجدوا معتقدهم نفى محبتهم يكذب فطرهم ، وانما بعثت الرسل بتكميل هذه الفطرة وإعادة ما فسد منها إلى الحالة الأولى التى فطرت عليها ، وإنما دعوا إلى القيام بحقوقها ومراعاتها لئلا تفسد وتنتقل عما خلقت له . وهل الأوامر والنواهى إلا خدم وتوابع ومكملات ومصلحات لهذه الفطرة ؟ وهل خلق الله سبحانه وتعالى خلقه إلا لعبادته التى هى غاية محبته والذل له ؟ وهل هيىء الانسان إلا لها ؟ كما قيل :

قد هيأوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وهل فى الوجود محبة حق غير باطلة إلا محبته سبحانه ؟ فان كل محبة متعلقة بغيره فباطلة زائلة ببطلان متعلقها ، وأما محبته سبحانه فهو الحق الذى لا يزول ولا يبطل ، كما لا يزول متعلقها ولا يفنى . وكل ما سوى الله باطل ، ومحبة الباطل باطل . فسبحان الله كيف ينكر المحبة الحق التى لا محبة أحق منها ، ويعترف بوجود المحبة الباطلة المتلاشية ؟ وهل تعلقت المحبة بوجود محدث إلا لكمال فى وجوده بالنسبة إلى غيره ؟ وهل ذلك الكمال إلا من آثار صنع الله الذى أتقن كل شىء ؟ وهل الكمال كله إلا له ؟ فكل من أحب شيئا لكمال ما يدعوه الى محبته فهو دليل وعبرة على محبة الله ، وأنه أولى بكمال الحب من كل شىء . ولكن إذا كانت النفوس صغارا كانت محبوباتها على قدرها ، وأما النفوس الكبار الشريفة فانها تبذل حبها لأجلّ الأشياء وأشرفها . والمقصود أن العبد إذا اعتبر كل كمال فى الوجود وجده من آثار كماله سبحانه ، فهو دال على كمال مبدعه ، كما أن كل علم فى الوجود فمن آثار علمه ، وكل قدرة فمن آثار قدرته . ونسبة الكمالات الموجودة فى العالم العلوى والسفلى الى كماله كنسبة علوم الخلق وقدرهم وقواهم وحياتهم الى علمه سبحانه وقدرته وقوته وحياته ، فاذن لا نسبة أصلا بين كمالات العالم وكمال الله سبحانه ، فيجب أن لا يكون بين محبته ومحبة غيره من الموجودات له ، بل يكون حب العبد له أعظم من حبه لكل شىء بما لا نسبة بينهما . ولهذا قال تعالى (البقرة ١٦٥) : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ فالمؤمنون أشد حبا لربهم ومعبودهم من كل محب لكل محبوب . هذا مقتضى عقد الايمان الذى لا يتم إلا

به . وليست هذه المسألة من المسائل التى للعبد عنها غنى أو منها بد ، كدقائق العلم والمسائل التى يختص بها بعض الناس دون بعض ، بل هذه مسألة تفرض على العبد ، وهى أصل عقد الإيمان الذى لا يدخل فيه الداخل إلا بها ، ولا فلاح للعبد ولا نجاة له من عذاب الله إلا بها ، فليشتغل بها العبد أو ليعرض عنها ، ومن لم يتحقق بها علما وحالا وعملا لم يتحقق بشهادة أن لا اله الا الله ، فانها سرها وحقيقتها ومعناها ، وان أبى ذلك الجاحدون وقصر عن علمه الجاهلون . فان الإله هو المحبوب المعبود الذى تألهه القلوب بحبها وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب اليه فى شدائدها وتدعوه فى مهماتها وتتوكل عليه فى مصالحها وتلجأ اليه وتطمئن بذكره وتسكن الى حبه ، وليس ذلك إلا الله وحده ، ولهذا كانت [لا إله إلا الله] أصدق الكلام ، وكان أهلها أهل الله وحزبه ، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته . فهذه المسألة قطب رحى الدين الذى عليه مداره ، واذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق ، واذا لم يصححها العبد فالفساد لازم له فى علومه وأعماله ، وأحواله وأقواله ، ولا حول ولا قوة الا بالله

فلنرجع الى شرح كلامه فقوله « وأما محبة العوام فهى محبة تنبت من مطالعة المنة » يعنى أن لهذه المحبة منشأ وثبوتا ونموّا . فمنشأها الإحسان ورؤية فضل الله ومنته على عبده ، وثبوتها باتباع أوامره التى شرعها على لسان رسوله ﷺ ، ونموّها وزيادتها يكون باجابة العبد لدواعى فقره وفاقته إلى ربه ، فكلما دعاه فقره وفاقته إلى ربه أجاب هذا الداعى ، وهو فقير بالذات فلا يزال فقره يدعوه اليه ، فاذا دامت استجابته له بدوام الداعى لم تزل المحبة تنمو وتتزايد ، فكلما أخطر الرب فى قلبه خواطر الفقر والفاقة بادر قلبه بالاجابة والانكسار بين يديه ذلا وفاقة وحبا وخضوعا ، وإنما كانت هذه محبـــة العوام عنده لأن منشأها من الأفعال ، لا من الصفات والجمال ، ولو قطع الإحسان عن هذه القلوب لتغيرت وذهبت محبتها أو ضعفت ، فان باعثها إنما هو الإحسان ، ومن ودّك لأمر ولى عند انقضائه ، فهو برؤية الاحسان مشغول ، وبتوالى النعم عليه محمول

قوله « وهى محبة تقطع الوسواس ، وتلذذ الخدمة ، وتسلى على المصائب . وهى فى طريق العوام عمدة للايمان » . إنما كانت هذه المحبة قاطعة للوسواس لإحضار المحب

قلبه بين يدى محبوبه . والوسواس إنما ينشأ من الغيبة والبعد ، وأما الحاضر المشاهد فما له وللوسواس ؟ فالموسوس يجاهد نفسه وقلبه ليحضر بين يدى معبوده ، والمحب لم يغب قلبه عن محبوبه فيجاهده على إحضاره ، فالوسواس والمحبة متنافيان . ومن وجه آخر أن المحب قد انقطعت عن قلبه وساوس الأطماع لامتلاء قلبه من محبة حبيبه فلا تتوارد على قلبه جواذب الأطماع والأمانى لاشتغاله بما هو فيـــه . وأيضا فان الوسواس والأمانى إنما تنشأ من حاجته وفاقته الى ما تعلق طمعه به . وهذا عبد قد جنى من الاحسان ، وأعطى من النعم ما سد حاجتـه وأغنى فاقتـه ، فلم يبق له طمع ولا وسواس ، بل بقى حبه للمنعم عليه وشكره له وذكره اياه فى محل وساوسه وخواطره لمطالعة نعم الله عليه ، وشهوده منها ما لم يشهد غيره . وقوله « وتلذذ الخدمة » هو صحيح فان المحب يتلذذ بخدمة محبوبه وتصرفه فى طاعته ، وكلما كانت المحبة أقوى كانت لذة الطاعة والخدمة أكمل . فليزن العبد إيمانه ومحبته لله بهذا الميزان ، ولينظر هل هو ملتذ بخدمة محبوبه ، أو متكره لها يأتى بها على السآمة والملل والكراهة ؟ فهذا محك إيمان العبد ومحبته لله . قال بعض السلف : إنى أدخل فى الصلاة فأحمل هم خروجى منها ، ويضيق صدرى إذا فرغت أنى خارج منها . ولهذا قال النبى ﷺ « جعلت قرة عينى فى الصلاة » ، ومن كانت قرة عينه فى شىء فانه يود أن لا يفارقه ولا يخرج منه ، فان قرة عين العبد نعيمه وطيب حياته به ، وقال بعض السلف : إنى لأفرح بالليل حين يقبل ، لما يلتذ به عيشى وتقر به عينى من مناجاة من أحب وخلوتى بخدمته والتذلل بين يديه . وأغتم للفجر اذا طلع ، لما أشتغل به بالنهار عن ذلك ، فلا شىء ألذ للمحب من خدمة محبوبه وطاعته . وقال بعضهم : تعذبت بالصلاة عشرين سنة ، ثم تنعمت بها عشرين سنة . وهذه اللذة والتنعم بالخدمة انما تحصل بالمصابرة على التكره والتعب أولا ، فاذا صبر عليه وصدق فى صبره أفضى به الى هذه اللذة . قال أبو يزيد : سقت نفسى الى الله وهى تبكى ، فما زلت أسوقها حتى انساقت اليه وهى تضحك . ولا يزال السالك عرضة للآفات والفتور والانتكاس حتى يصل الى هذه الحالة ، فحينئذ يصير نعيمه فى سيره ولذته فى اجتهاده وعذابه فى فتوره ووقوفه ، فترى أشد الأشياء عليه ضياع شىء من وقته ووقوفه عن سيره ، ولا سبيل الى هذا الا بالحب المزعج

وقوله « وسلا عن المصائب » صحيح ، فان المحب يتسلى بمحبوبه عن كل مصيبة يصاب بها دونه ، فاذا سلم له محبوبه لم يبال بما فاته فلا يجزع على ما ناله ، فانه يرى فى محبوبه عوضا عن كل شىء ، ولا يرى فى شىء غيره عوضا منه أصلا ، فكل مصيبة عنده هينة اذا أبقت عليه محبوبه . ولهذا لما خرجت تلك المرأة الأنصارية يوم أحد تنظر ما فعل برسول الله ﷺ مرت بابيها وأخيها مقتولين ، فلم تقف عندهما ، وجاوزتهما تقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقيل لها : ها هو ذا حى ، فلما نظرت اليه قالت : ما أبالى اذا سلمتَ هلك من هلك . ولو لم يكن فى المحبة من الفوائد إلا هذه الفائدة وحدها لـكفى بها شرفا ، فان المصائب لازمة للعبد لا محيد له عنها ، ولا يمكن دفعها بمثل المحبة . وهكذا مصائب الموت وما بعدها إنما تسهل وتهون بالمحبة ، وكذلك مصائب القيامة ، وأعظم المصائب مصيبة النار ، ولا يدفعها إلا محبة الله وحده ومتابعة رسوله ﷺ . فالمحبة أصل كل خير فى الدنيا والآخرة كما قال سمنون (١) : ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة ، فان النبى ﷺ قال « المرء مع من أحب » فهم مع الله

وقوله « وهى فى طريق العوام عمدة الايمان » كلام قاصر ، فانها عمود الايمان وعمدته وساقه الذى لا يقوم إلا عليه ، فلا إيمان بدونها البتة . وإنما مراده هذه المحبة الخاصة التى تنشأ من رؤية النعم هى عمدة إيمان العوام ، واما الخواص فعمدة إيمانهم محبة تنشأ من معرفة الـكمال ومطالعة الأسماء والصفات . والله أعلم

قال أبو العباس « وأما محبة الخواص فهى محبة خاطفة : تقطع العبارة ، وتدقق الاشارة ، ولا تنتهى بالنعوت ، ولا تعرف إلا بالحيرة والسكوت . وقال بعضهم :

يقول ـ وقد ألبست وجدا وحيرة ... وقد ضمنا بعد التفرق محضر ـ :
ألست الذى كنا نحـدَّث أنه ... ولوع بذكراها ، فأين التذكر ؟
فرد عليها الوجـد : أفنيت ذكره ... فلم يبـق الا زفرة وتحسر »

فيقال : ههنا مرتبتان من المحبة مختلف فى أيتهما أكمل من الأخرى : إحداهما هذه المرتبة التى أشار اليها المصنف ، وهى الدرجة الثالثة التى ذكرها شيخ الاسلام (٢)

---

(١) سمنون بن حمزة الخواص ، صحب السرى ، ومات بعد الجنيد (٢) هو شيخ الاسلام الهروى مؤلف (منازل السائرين) الذى شرحه ابن القيم بكتابه (مدارج السالكين)

فى منازله فقال « والدرجة الثالثة محبة خاطفة تقطع العبارة ، وتدقق الاشارة ، ولا تنتهى بالنعوت . وهذه المحبة قطب هذا الشأن ، وما دونها مجال تنادى عليها الالسن ، وادعتها الخليقة ، وأوجبتها العقول » . والمرتبة الثانية عند صاحب المنازل ومن تبعه دون هذه المرتبة ، وهى المحبة التى تنشأ من مطالعة الصفات ، فقال فى منازله « والدرجة الثانية محبة تبعث على إيثار الحق على غيره ، ويلهج اللسان بذكره ، ويعلق القلب بشهوده ، وهى محبة تظهر من مطالعة الصفات والنظر فى الآيات ، والارتياض بالمقامات » . وإنما جعل هؤلاء هذه المحبة أنقص من المحبة الثالثة بناء على أصولهم ، فان الفناء هو غاية السالك التى لا غاية له وراءها ، فهذه المحبة لما أفنت المحب واستغرقت روحه ، بحيث غيبته عن شهوده وفنى فيها المحب وانمحت رسومه بالكلية ولم يبق هناك إلا محبوبه وحده ، فكأنه هو المحب لنفسه بنفسه إذ فنى من لم يكن وبقى من لم يزل . ولما ضاق نطاق النطق بهم عن التعبير عنها عدلوا إلى التعبير عنها بكونها « قاطعة للعبارة ، مدققة للاشارة » يعنى تدق عنها الاشارة ، ولان الاشارة تتناول محبا ومحبوبا ، وفى هذه المحبة قد فنى المحب فانقطع تعلق الاشارة به إذ الاشارة لا تتعلق بمعدوم . وسر هذا المقام عندهم هو الفناء فى الحب بحيث لا يشاهد له رسما ولا محبة ولا سببا ، ولهذا كانت الدرجتان اللتان قبله عنه معلولتين ، لانهما مصحوبتان بالبقاء وشهود الاسباب ، بخلاف الثالثة ، ولهذا قال « ولا تنتهى بالنعوت » يعنى أن النعت لا يصل اليها ولا يدركها . وهذا بناء على قاعدته فى كل باب من أبواب كتابه ، يجعل الدرجة العالية التى تتضمن الفناء أكمل مما قبلها . والصواب أن الدرجة الثانية أكمل من هذه وأتم ، وهى درجة الكملة من المحبين ، ولهذا كان إمامهم ﷺ وسيدهم وأعظمهم حبا فى الذروة العليا من المحبة ، وهو مراع لجريان الامور ولجريان الامة ، مثل سماعه بكاء الصبى فى الصلاة فيخففها لاجله ، ومثل التفاته فى صلاته إلى الشعب الذى بعث منه العين يتعرف له أمر العدو ، وهذا وهو فى أعلى درجة المحبة . ولهذا رأى ما رأى فى ليلة الاسراء وهو ثابت الجأش حاضر القلب لم يفن عن تلقى خطاب ربه وأوامره ، ومراجعته فى أمر الصلاة مرارا . ولا ريب أن هذا الحال أكمل من حال موسى الكليم ، فان موسى خر صعقا وهو فى مقامه فى الارض لما تجلى ربه للجبل ، والنبى ﷺ قطع تلك المسافات وخرق تلك الحجب

ورأى ما رأى وما زاغ بصره وما طغى ، ولا اضطرب فؤاده ولا صعق ﷺ . ولا ريب أن الوراثة المحمدية أكمل من الوراثة الموسوية . وتأمل شأن النسوة اللاتى رأين يوسف كيف أدهشهن حسنه ، وتعلقت قلوبهن به ، وأفناهن عن أنفسهن حتى قطعن أيديهن . وامرأة العزيز أكمل حبا منهن له وأشد ولم يعرض لها ذلك ، مع أن حبها أقوى وأتم ، لان حبها كان مع البقاء وحبهن كان مع الفناء ، فالنسوة غيبهن حسنه وحبه عن أنفسهن ، فبلغن من تقطيع أيديهن ما بلغن ، وامرأة العزيز لم يغيبها حبه لها عن نفسها بل كانت حاضرة القلب متمكنة فى حبها ، فحالها حال الاقوياء من المحبين ، وحال النسوة حال أصحاب الفناء . ومما يدل على ان حال البقاء فى الحب أكمل من حال الفناء أن الفناء إنما يعرض لضعف النفس عن وارد المحبة ، فتمتلئ به وتضعف عن حمله فيفنيها ويغيبها عن تميزها وشهودها فيورثها الحيرة والسكوت ، وأما حال البقاء فيدل على ثبات النفس وتمكنها وأنها حملت من الحب ما لم يطق حمله صاحب الفناء ، فتصرفت فى حبها ولم يتصرف فيها ، والكمال من اذا ورد عليه الحال تصرف هو فيه ولا يدع حاله يتصرف فيه . وأيضا فان البقاء متضمن لشهود كمال المحبوب ، ولشهود ذل عبوديته ومحبته ، ولشهود مراضيه وأوامره ، والتميز بين ما يحبه ويكرهه ، والتميز بين المحبوب اليه والأحب ، والعزم على إيثار الأحب اليه ، فكيف يكون الفانى عن شهود هذا التغييب الحب له أكمل وأقوى ؟ وأى عبودية للمحبوب فى فناء المحب فى محبته ؟ وهل العبودية كل العبودية إلا فى البقاء والصحو ، وكمال التميز وشهود عزة محبوبه وذله ، وهو فى حبه واستكانته فيه ، واجتماع إرادته كلها فى تنفيذ مراد محبوبه ؟ فهذا وأمثاله مما يدل على أن الدرجة الثانية التى أشار اليها أكمل من الثالثة وأتم ، وهكذا فى جميع أبواب الكتاب . والله أعلم

وكأنى بك تقول لا يقبل فى هذا إلا كلام من قطع هذه المفاوز حالا وذوقا ، وأما الكلام فيها بلسان العلم المجرد فغير مقبول ، والمحبون أصحاب الحال والذوق فى المحبة لهم شأن وراء الأدلة والحجج . فاعلم أولا أن كل حال وذوق ووجد وشهود لا يشرق عليه نور العلم المؤيد بالدليل فهو من عبث النفس وحظوظها ، فلو قدر أن المتكلم إنما تكلم بلسان العلم المجرد فلا ريب أن ما كشفه العلم الصحيح المؤيد بالحجة أنفع من حاله

يخالف العلم والعلم يخالفه . وليس من الانصاف رد العلم الصحيح بمجرد الذوق والحال ، وهذا أصل الضلالة ، ومنه دخل الداخل على كثير من السالكين فى تحكيم أذواقهم ومواجيدهم على العلم فكانت فتنة فى الأرض وفساد كبير . وكم قد ضل وأضل محكم الحال على العلم ، بل الواجب تحكيم العلم على الحال ورد الحال اليه ، فما زكاه شاهد العلم فهو المقبول وما جرحه شاهد العلم فهو المردود . وهذه وصية أرباب الاستقامة من مشايخ الطريق ، يوصون بذلك ويخبرون أن كل ذوق ووجد لا يقوم عليه شاهدان اثنان من العلم فهو باطل . ويقال ثانياً : ليس من شرط قبول العلم بالشيء من العالم به أن يكون ذائقا له ، أفتراك لا تقبل معرفة الآلام والأوجاع وأدويتها إلا ممن قد مرض بها وتداوى بها ؟ أفيقول هذا عاقل ؟ ويقال ثالثا : أتريد بالذوق أن يكون القائل قد بلغ الغاية القصوى فى هذه المرتبة فلا يقبل إلا ممن هذا شأنه ، أو تريد أنه لا بد أن يكون له أذواق أهله من حيث يحمله ؟ فان أردت الأول لزمك أن لا يقبل أحد من أحد ، اذ ما من ذوق إلا وفوقه أكمل منه ، وان أردت الثانى فمن أين لك نفيه عن صاحب العلم ؟ ولكن لإعراضك عن العلم وأهله صرت تظن أن أهل العلم لهم العلم والكلام والوصف وللمعرضين عنه الذوق والحال والاتصاف ، والظن يخطىء تارة ويصيب . والله أعلم

﴿ فصل ﴾ قال أبو العباس « فعند القوم كل ما هو من العبد فهو علة تليق بعجز العبد وفاقته ، وانما عين الحقيقة عندهم أن يكون قائما باقامته له ، محبا بمحبته له ، ناظرا بنظره ، لا من غير أن يبقى معه بقية تناط باسم أو تقف على رسم أو تتعلق بنظر أو تنعت بنعت أو توصف بوصف أو تنسب الى وقت ، صم بكم عمى لدينا محضرون » . فيقال : هذا هو مقام الفناء الذى يشير اليه كثير من المتأخرين ، ويجعلونه غاية الغايات ونهاية النهايات ، وكل ما دونه فمرقاة اليه وعيلة عليه . ولهذا كانت المحبة عندهم آخر منازل الطريق ، وأول أودية الفناء ، والعقبة التى ينحدر منها على منازل المحو ، وهى آخر منزل يلتقى فيه مقدمة العامة ساقة الخاصة ، وما دونها أعراض الأعراض . فجعلوا المحبة منزلا من المنازل ليست غاية ، وجعلوها أول الأودية التى سلك فيها أصحاب الفناء ، فهى أول أوديتهم والعقبة التى ينحدرون منها الى منازل الفناء والمحو . فليست هى الغاية عندهم ، وأصحابها عندهم مقدمة العامة ، وساقة أصحاب الفناء عندهم مقدمون عليهم

سابقون لهم . فانهم ساقة الخاصة وهؤلاء مقدمة العامة ، فهذا كله بناء على أن الفناء هو الغاية التى لا غاية للعبد وراءها ولا كمال له يطالبه فوقها . وقد تبين ما فى ذلك وما هو الصواب بحمد الله . فقوله « كل ما هو من العبد فهو علة تليق بعجز العبد وفاقته » يقال له : اذا كان انما منته العبودية التى يحبها الله كسبا ومباشرة فهو قائم بها شاهد لمقيمه فيها مطالع لمنته وفضله ، فأى علة هنا سوى وقوفه مع شهودها منه ، وغيبته عن شهود إقامة الله وتحريكه اياه وتوفيقه له ؟ فالعلة هى بهذا الشهود وهذه الغيبة المنافية لكمال الافتقار والفاقة إلى الله ، وأما شهود فقره وفاقته ومجموع حالاته وحركاته وسكناته الى وليه وباريه مستعينا به أن يقيمه فى عبودية خالصة له ، فلا علة هناك . قوله « وانما عين الحقيقة أن يكون قائما باقامته له » إلى آخر كلامه ، يقال : إن أردت أنه يشهد إقامة الله له حتى قام ومحبته له حتى أحبه ونظره إلى عبده حتى أقبل عبده عليه ناظراً اليه بقلبه فهذا حق ، فان ما من الله سبق ما من العبد ، فهو الذى أحب عبده أولا فأحبه العبد ، وأقام العبد فى طاعته فقام باقامته ، ونظر اليه فأقبل العبد عليه ، وتاب عليه أولا فتاب اليه العبد . وإن أردت أنه لا يشهد فعله البتة بل يفنى عنه جملة ويشهد أن الله وحده هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه المحب لنفسه ، وأن هذه الأسباب والرسوم تصير عدما فى شهوده وإن لم تفن وتعدم فى الخارج ـ وهذا هو مراد القوم ـ فدعوى أن هذا هو الكمال الذى لا كمال فوقه ولا غاية وراءه دعوى مجردة لا يستدل عليها مدعيها بأكثر من الذوق والوجد ، وقد تقدم أن هذا ليس بغاية ، وإنما غايته أن يكون من عوارض الطريق ، وأن شهود الأشياء فى مراتبها ومنازلها التى أنزلها سبحانه إياها أكمل وأتم . ويكفى فى بعض هذا الاحتجاج عليه بصفات الكفار ، فان الله ذمهم بأنهم صم بكم عمى فهذه صفات نقص وذم لا صفات كمال ومدحة ، وهل الكمال إلا فى حضور السمع والبصر والعقل وكمال التمييز وتنزيل الخلق والأمر منازلها والتفريق بين ما فرق الله بينه ؟ فالأمر كله فرقان وتمييز وتبيين ، فكلما كان تمييز العبد وفرقانه أتم كان حاله أكمل وسيره أصح وطريقه أقوم وأقرب . والحمد لله رب العالمين

﴿ فصل ﴾ قال أبو العباس « وأما الشوق فهو هبوب القلب الى غائب ، وإعواز الصبر عن فقده ، وارتياح السر الى طلبه . وهو من مقامات العوام ، وأما الخواص

فهو عندهم مخلة عظيمة ، لأن الشوق إنما يكون الى غائب . ومذهب هذه الطائفة انما قام على المشاهدة ، والطريق عندهم أن يكون العبد غائبا والحق ظاهرا . ولهذا المعنى لم ينطق بالشوق كتاب ولا سنة صحيحة . إلا أن الشوق مخبر عن بعد ، ومشير الى غائب ، وهو يطلع الى إدراك ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ ﴾ (الحديد ٤) وقيل :

ولا معنى لشكوى الشوق يوما   إلى من لا يزول عن العيان »

اختلف الناس فى الشوق والمحبة أيهما أعلى ؟ فقالت طائفة : المحبة أعلى من الشوق هذا قول ابن عطاء الله وغيره . واحتجوا بأن الشوق غايته أن يكون أثرا من آثار المحبة ، ومتولدا عنها : فهى أصله وهو فرعها . قالوا : والمحبة توجب آثارا كثيرة فمن آثارها الشوق . وقالت طائفة منهم سرى السقطى وغيره : الشوق أعلى . قال الجنيد : سمعت السرى يقول : الشوق أجل مقامات العارف ، إذا تحقق فى الشوق لها عن كل شىء يشغله عمن يشتاق اليه . وانما يظهر سر المسألة بذكر فصلين : الفصل الأول فى حقيقة الشوق ، والثانى فى الفرق بينه وبين المحبة . ويتبع ذلك خمس مسائل : (إحداها) هل يجوز إطلاقه على الله كما يطلق عليه أنه يحب عباده أم لا ؟ (الثانية) هل يجوز إطلاقه على العبد فيقال يشتاق الى الله كما يقال يحبه ؟ (الثالثة) أنه هل يقوى بالوصول والقرب ، أم يضعف بهما ؟ فأى الشوقين أعلى : شوق القريب الدانى ، أم شوق البعيد الطالب ؟ (الرابعة) ما الفرق بينه وبين الاشتياق ، فهل هما بمعنى واحد أم بينهما فرق ؟ (الخامسة) فى بيان مراتبه وأقسامها ومنازل أهله فيه

﴿ الفصل الأول ﴾ فى حقيقة الشوق . هو سفر القلب فى طلب محبوبه ، بحيث لا يقر قراره حتى يظفر به ويحصل له . وقيل : هو لهيب ينشأ بين أثناء الحشا ، سببه الفرقة . فاذا وقع اللقاء أطفأ ذلك اللهيب . وقيل : الشوق هبوب القلب الى محبوب غائب . وقال ابن خفيف : الشوق ارتياح القلوب بالوجد ، ومحبة اللقاء بالقرب . وقيل : الشوق تروّح القلب نحو المحبوب من غير منازع . ويقال : الشوق انتظار اللقاء بعد البعاد . فهذه الحدود ونحوها مشتركة فى أن الشوق إنما يكون مع الغيبة من المحبوب وأما مع حضوره ولقائه فلا شوق . وهذه حجة من جعل المحبة أعلى منه فان المحبة لا تزول باللقاء ، وبهذا يتبين الكلام فى الفصل الثانى وهو الفرق بينه وبين المحبة

[الفصل الثانى] الفرق بينهما فرق ما بين الشيء وأثره . فان الحامل على الشوق هو المحبة ولهذا يقال : لمحبتى له اشتقت اليه ، وأحببته فاشتقت إلى لقائه . ولا يقال : لشوقى اليه أحببته ، ولا اشتقت إلى لقائه فاحببته . فالمحبة بذر فى القلب ، والشوق بعض ثمرات ذلك البذر . وكذلك من ثمراتها حمد المحبوب والرضى عنه وشكره وخوفه ورجاؤه والتنعم بذكره والسكون اليه والانس به والوحشة بغيره ، وكل هذه من أحكام المحبة وثمراتها ، وهو حياتها ، فمنزلة الشوق من المحبة منزلة الهرب من البغضاء والكراهة : فان القلب إذا أبغض الشيء وكرهه جد فى الهرب منه ، واذا أحبه جد فى الهرب اليه وطلبه ، فهو حركة القلب فى الظفر بمحبوبه . ولشدة ارتباط الشوق بالمحبة يقع كل واحد منهما موقع صاحبه ويفهم منه ويعبر به عنه

﴿ فصل ﴾ وأما المسائل [الخمس] فاحداها : هل يجوز إطلاقه على الله ؟ فهذا مما لم يرد به القرآن ولا السنة بصريح لفظه . قال صاحب (منازل السائرين) وغيره : وسبب ذلك أن الشوق إنما يكون لغائب . ومذهب هذه الطائفة إنما قام على المشاهدة ، ولهذا السبب عندهم لم يجيء فى حق الله ولا فى حق العبد . وجوزت طائفة إطلاقه كما يطلق عليه سبحانه ، ورووا فى أثر أنه يقول : « طال شوق الأبرار الى لقائى ، وأنا الى لقائهم أشوق » . قالوا : وهذا الذى تقتضيه الحقيقة ، وان لم يرد به لفظ صريح . فالمعنى حق فان كل محب فهو مشتاق الى لقاء محبوبه . قالوا : وأما قولكم ان الشوق انما يكون الى غائب وهو سبحانه لا يغيب عن عبده ولا يغيب العبد عنه ، فهذا حضور العلم ، وأما اللقاء والقرب فامر آخر ، فالشوق يقع بالاعتبار الثانى وهو قرب الحبيب ولقاؤه والدنوّ منه ، وهذا له أجل مضروب لا ينال قبله . قال تعالى (العنكبوت ٥) : ﴿ مَنْ كانَ يَرْجُو لقاءَ اللهِ فَانَّ أَجَلَ اللهِ لآت ﴾ قال أبو عثمان الحيرى : هذا تعزية للمشتاقين ، معناه : إنى أعلم أن اشتياقكم الىّ غالب ، وأنا أجلت للقائكم أجلا ، وعن قريب يكون وصولكم الى من تشتاقون اليه . والصواب أن يقال : إطلاقه متوقف على السمع ، ولم يرد به ، فلا ينبغى إطلاقه . وهذا كلفظ العشق أيضا ، فانه لما لم يرد به سمع فانه يمتنع إطلاقه عليه سبحانه . واللفظ الذى أطلقه سبحانه على نفسه وأخبر به عنها أتم من هذا وأجل شأنا هو لفظ المحبة ، فانه سبحانه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها

وأعلاها ، فيوصف من الإرادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بارادته كما قال تعالى (البروج ١٦) : ﴿ فَعَّالٌ لِما يُرِيدُ ﴾ وبارادة اليسر لا العسر . كما قال (البقرة ١٨٥) : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ وبارادة الإحسان وإتمام النعمة على عباده كقوله (النساء ٢٧) : ﴿ وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ فارادة التوبة لله وإرادة الميل لمبتغي الشهوات. وقوله تعالى (المائدة ٦) : ﴿ ما يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون ﴾ وكذلك الكلام يصف نفسه منه بأعلى أنواعه كالصدق والعدل والحق . وكذلك الفعل يصف نفسه منه بأكمله وهو العدل والحكمة والمصلحة والنعمة . وهكذا المحبة وصف نفسه منها بأعلاها وأشرفها فقال (المائدة ٥٤) : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَه ﴾ و (البقرة ٢٢٢) : ﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِب الْمُتَطَهِّرِين ﴾ و (البقرة ١٩٥) : ﴿ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين ﴾ و (آل عمران ١٤٦) : ﴿ يُحِبُّ الصَّابِرِين ﴾ ولم يصف نفسه بغيرها من العلاقة والميل والصبابة والعشق والغرام ونحوها ، فان مسمى المحبة أشرف وأكمل من هذه المسميات ، فجاء فى حقه اطلاقه دونها . وهذه المسميات لا تنفك عن لوازم ومعان تنزه تعالى عن الاتصاف بها، وهكذا جميع ما أطلقه على نفسه من صفاته العلى أكمل معنى ولفظا مما لم يطلقه : فالعليم الخبير أكمل من الفقيه والعارف ، والكريم الجواد أكمل من السخى . والخالق البارئ المصور أكمل من الصانع الفاعل ، ولهذا لم تجيء هذه فى أسمائه الحسنى ، والرحيم والرءوف أكمل من الشفيق ، فعليك بمراعاة ما أطلقه سبحانه على نفسه من الأسماء والصفات والوقوف معها ، وعدم إطلاق ما لم يطلقه على نفسه ما لم يكن مطابقا لمعنى أسمائه وصفاته ، وحينئذ فيطلق المعنى لمطابقته له دون اللفظ ولا سيما إذا كان مجملا أو منقسما إلى ما يمدح به ، وغيره فانه لا يجوز إطلاقه إلا مقيدا ، وهذا كلفظ الفاعل والصانع فانه لا يطلق عليه فى أسمائه الحسنى إلا إطلاقا مقيدا أطلقه على نفسه كقوله تعالى (البروج ١٦) : ﴿ فَعَّالٌ لِما يُرِيد ﴾ ، (ابراهيم ٢٧) : ﴿ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاء ﴾ وقوله (النمل ٨٨) : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْء ﴾ فان اسم الفاعل والصانع

منقسم المعنى الى ما يمدح عليه ويذم ، ولهذا المعنى ـ والله أعلم ـ لم يجىء فى الأسماء الحسنى المريد كما جاء فيها السميع البصير ، ولا المتكلم ولا الآمر الناهى ، لانقسام مسمى هذه الأسماء ، بل وصف نفسه بكمالاتها وأشرف أنواعها . ومن هنا يعلم غلط بعض المتأخرين وزلقه الفاحش فى اشتقاقه له سبحانه من كل فعل أخبر به عن نفسه اسما مطلقا فأدخله فى اسمائه الحسنى ! فاشتق له اسم الماكر ، والخادع ، والفاتن ، والمضل ، والكاتب ، ونحوها من قوله (الأنفال ٣٠) : ﴿ وَيَمْكُرُ اللهُ ﴾ ومن قوله (النساء ١٤٢) : ﴿ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴾ ومن قوله (طه ١٣١) : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فيه ﴾ ومن قوله (الرعد ٢٧) : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشاء ﴾ وقوله تعالى (المجادلة ٢١) : ﴿ كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ ﴾ وهذا خطأ من وجوه : (أحدها) أنه سبحانه لم يطلق على نفسه هذه الأسماء ، فاطلاقها عليه لا يجوز . (الثانى) أنه سبحانه أخبر عن نفسه بأفعال مختصة مقيدة ، فلا يجوز أن ينسب اليه مسمى الاسم عند الاطلاق . (الثالث) أن مسمى هذه الأسماء منقسم إلى ما يمدح عليه المسمى به ، وإلى ما يذم . فيحسن فى موضع ، ويقبح فى موضع . فيمتنع إطلاقه عليه سبحانه من غير تفصيل . (الرابع) أن هذه ليست من الأسماء الحسنى التى يسمى بها سبحانه ، فلا يجوز أن يسمى بها ، فان أسماء الرب سبحانه كلها حسنى . كما قال تعالى (الأعراف ١٨٠) : ﴿ وللهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ وهى التى يحب سبحانه أن يثنى عليه ويحمد ويمجد بها دون غيرها . (الخامس) أن هذا القائل لو سُمى بهذه الأسماء ، وقيل له هذه مدحتك وثناء عليك ، فأنت الماكر الفاتن المخادع المضل اللاعن الفاعل الصانع ونحوها لما كان يرضى باطلاق هذه الأسماء عليه ويعدها مدحة ، ولله المثل الأعلى سبحانه وتعالى عما يقول الجاهلون به علوا كبيرا . (السادس) أن هذا القائل يلزمه أن يجعل من أسمائه اللاعن والجائى والآتى والذاهب والتارك والمقاتل والصادق والمنزل والنازل والمدمدم والمدمر وأضعاف أضعاف ذلك ، فيشتق له اسما من كل فعل أخبر به عن نفسه ، وإلا تناقض تناقضا بينا ، ولا أحد من العقلاء طرد ذلك ، فعلم بطلان قوله والحمد لله رب العالمين

﴿ فصل ﴾ وأما المسألة الثانية وهى : هل يطلق على العبد أنه يشتاق إلى الله وإلى لقائه ؟ فهذا غير ممتنع ، فقد روى الامام أحمد فى مسنده والنسائى وغيرهما من حديث

حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن أبيه قال : صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فاوجز فيها ، فقلت : خففتَ يا أبا اليقظان ، فقال : وما عليَّ من ذلك ، ولقد دعوت الله بدعوات سمعتها من رسول الله ﷺ . فلما قام تبعه رجل من القوم فسأله عن الدعوات فقال « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحينى ما علمت الحياة خيرا لى وتوفنى إذا علمت الوفاة خيراً لى . اللهم انى أسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ، وأسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك ، فى غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة . اللهم زيّنّا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين » فهذا فيه إثبات لذة النظر إلى وجهه الكريم ، وشوق أحبابه إلى لقائه . فان حقيقة الشوق اليه هو الشوق إلى لقائه ، قال أبو القاسم القشيرى سمعت الاستاذ أبا على يقول فى قوله ﷺ « أسألك الشوق إلى لقائك » قال : كان الشوق مائة جزء ، فتسعة وتسعون له ، وجزء متفرق فى الناس . فاراد أن يكون ذلك الجزء له أيضا ، فغار أن تكون شظية من الشوق فى غيره . قال : وسمعته يقول فى قول موسى (طه ٨٤) : ﴿ وعَجِلْتُ اليكَ ربِّ لِترْضىٰ ﴾ قال : معناه شوقا اليك ، فستره بلفظ الرضا ، وهذا أكثر مشايخ الطريق يطلقونه ولا يمتنعون منه . وقيل : ان شعيبا بكى حتى عمى بصره ، فأوحى الله اليه : ان كان هذا لأجل الجنة فقد أبحتها لك ، وان كان لأجل النار فقد أجرتك منها . فقال : لا بل شوقا اليك . وقال بعض العارفين : من اشتاق الى الله اشتاق اليه كل شىء . وقال بعضهم : قلوب العاشقين منورة بنور الله ، فاذا تحرك اشتياقهم أضار النور ما بين السماء والارض ، فيعرضهم الله على الملائكة فيقول : هؤلاء المشتاقون إلىّ ، أشهدكم أنى اليهم أشوق ، واذا كان الشوق هو سفر القلب فى طلب محبوبه ونزوعه اليه فهو من أشرف مقامات العبيد وأجلها وأعلاها ، ومن أنكر شوق العبد الى ربه فقد أنكر محبته له ، لأن المحبة تستلذ الشوق ، فالمحب دائما مشتاق الى لقاء محبوبه : لا يهدأ قلبه ولا يقر قراره إلا بالوصول اليه

فاما قوله « ان الشوق عند الخواص علة عظيمة ، لأن الشوق إنما يكون الى غائب ، ومذهب هذه الطائفة إنما قام على المشاهدة » فيقال : المشاهدة نوعان : مشاهدة عرفان ،

ومشاهدة عيان . وبينهما من التفاوت ما بين اليقين والعيان . ولا ريب أن مشاهدة العرفان متفاوتة بحسب تفاوت الناس بالمعرفة ورسوخهم فيها ، وليس للمعرفة نهاية تنتهى اليها بحيث إذا وصل اليها العارف سكن قلبه عن الطلب ، بل كلما وصل منها الى مَعلم ومنزلة اشتد شوقه إلى ما وراءه ، وكلما ازداد معرفة ازداد شوقا ، فشوق العارف أعظم الشوق ، فلا يزال فى مزيد من الشوق ما دام فى مزيد من المعرفة ، فكيف يكون الشوق عنده علة عظيمة ؟ هذا من المحال البين . بل من عرف الله اشتاق اليه ، واذا كانت المعرفة لا نهاية لها فشوق العارف لا نهاية له . هذا مع الشوق الناشىء عن طلب اللقاء والرؤية والمعرفة العيانية ، فاذا كان القلب حاضرا عند ربه وهو غير غائب عنه لم يوجب له هذا أن لا يكون مشتاقا الى لقائه ورؤيته ، بل هذا يكون أتم لشوقه وأعظم . فظهر أن قوله «وان الشوق علة عظيمة فى طريق الخواص» كلام باطل على كل تقدير ، وان الشوق بالحقيقة إنما هو شوق الخواص العارفين بالله ، والعبد إذا كان له مع الله حال أو مقام وكشف له عما هو أفضل منه وأجل اشتاق اليه بالضرورة ، ولم يكن شوقه علة له ونقصا فى حاله بل زيادة وكمالا ، ويكون ترك الشوق هو العلة . وقد تقدم أن لا غاية للمعرفة تنتهى اليها فيبطل الشوق بنهايتها ، بل لا يزال العارف فى مزيد من معرفته وشوقه . والله المستعان

﴿ فصل ﴾ وأما المسألة الثالثة وهى : هل يزول الشوق باللقاء ، أم يقوى ؟ فقالت طائفة : الشوق يزول باللقاء ، لأنه طلب ، فاذا حصل المطلوب زال الطلب ، لأن تحصيل الحاصل محال ، ولا معنى للشوق إلى شيء حاصل وإنما يكون الشوق الى شيء مراد الحصول محبوب الإدراك ، وقالت طائفة اخرى : ليس كذلك ، بل الشوق يزيد بالوصل واللقاء ويتضاعف بالدنوّ ، ولهذا قال القائل :

وأعظم ما يكون الشوق يوما إذا دنت الديار من الديار

ولهذا قال بعضهم : شوق أهل القرب أتم من شوق المحجوبين ، واحتجت هذه الطائفة بأن الشوق من آثار الحب ولوازمه ، فكما أن الحب لا يزول باللقاء فهكذا الشوق الذى لا يفارقه . قالوا : ولهذا لا يزول الرضى والحمد والاجلال والمهابة التى هى من آثار المحبة باللقاء ، فهكذا الشوق يتضاعف ولا يزول ، والقولان حق . وفصل

الخطاب فى المسألة أن المحب إذا اشتاق إلى لقاء محبوبه فاذا حصل له اللقاء زال ذلك الشوق الذى كان متعلقا بلقائه ، وخلفه شوق آخر أعظم منه وأبلغ إلى ما يزيد قربه والحظوة عنده . وأما إذا قدر أنه لقيه ثم احتجب عنه ازداد شوقه إلى لقاء آخر ولا يزال يحصل له الشوق كلما احتجب عنه ، فهذا لا ينقطع شوقه أبدا ، فهو إذا رآه بلّ شوقه برؤيته وإذا زال عنه الطرف عاوده الشوق كما قيل :

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته حتى يعود اليه الطرف مشتاقا

وإنما الشأن فى دوام الشوق حال الوصول واللقاء ، فاعلم أن الشوق نوعان : شوق الى اللقاء ، فهذا يزول باللقاء . وشوق فى حال اللقاء ، وهو تعلق الروح بالمحبوب تعلقا لا ينقطع أبدا فلا تزال الروح مشتاقة الى مزيد هذا التعلق وقوته اشتياقا لا يهدأ . وقد أفصح بعض المحبين للمخلوق عن هذا المعنى بقوله :

أعانقها والنفس بعد مشوقة اليها وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاها كى تزول صبابتى فيشتد ما ألقى من الهيمان

فالشوق فى حال الوصل والقرب الى مزيد النعيم واللذة لا ينقطع ، والشوق فى حال السير الى اللقاء ينقطع . ونستغفر الله من الكلام فيما لسنا بأهل له :

فالخوف أولى بالمسى ء إذا تأله والحزن
والحب يجمل بالتقى وبالنقاء من الدرن
لكن اذا ما لم يحب كم المسىء إذن فمن
وإذا تخوّن فعلنا فعل المحبة مؤتمن
أيحب شىء غيركم وحياتكم كلا ولن
أيحب من تأتى محب ته بأنواع المحن
والسعد فيها ذابح والقلب فيها ممتحن
دون الذى فى حبه نيل السعادة والمنن
ومحل بدر كمالها سعد السعود هو الوطن
والقلب حين يحل فى تلك المنازل والدمن
يمسى ويصبح من رضا ه ومن مناه فى وطن
أيحبهم قلب ويخ شى أن يضام ؟ فلا إذن

﴿ فصل ﴾ وأما المسألة الرابعة وهي : الفرق بين الشوق والاشتياق ، فقال أبو عبد الرحمن السلمي : سمعت النصر ابا ذى يقول[1] : للخلق كلهم مقام الشوق ، وليس لهم مقام الاشتياق . ومن دخل فى حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار . وهذا يدل على أن الاشتياق عنده غير الشوق . ولا ريب أن الاشتياق مصدر اشتاق يشتاق اشتياقا ، كما أن التشوق مصدر تشوق تشوقا ، والشوق فى الأصل اسم مصدر شاقه يشوقه شوقا مثل شاقه شوقا إذا دعاه الى الاشتياق ، فالاشتياق مطاوع شاقه يقال شاقنى فاشتقت اليه ، ثم صار الشوق اسم مصدر الاشتياق وغلب عليه حتى لا يفهم عند الاطلاق إلا الاشتياق القائم بالمشوق ، والمشوق هو الصب المشتاق ، والشائق هو الذى قام به وادعى الشوق . فههنا ألفاظ الشوق والاشتياق والتشوق والشائق والمشوق والشيق . فهذه ستة ألفاظ : أحدها : الشوق ، وهو فى الأصل مصدر الفعل المتعدى شاقه يشوقه ، ثم صار اسم مصدر الاشتياق . اللفظ الثانى : الاشتياق ، وهو مصدر اشتاق اشتياقا ، والفرق بينه وبين الشوق هو الفرق بين المصدر واسم المصدر . اللفظ الثالث : التشوق ، وهو مصدر تشوق إذا اشتاق مرة بعد مرة كما يقال : تجرع وتعلم وتفهم . وهذا البناء مشعر بالتكلف وتناول الشيء على مهلة . اللفظ الرابع : الشائق ، وهو الداعي للشوق الى الاشتياق . اللفظ الخامس : المشوق ، وهو المشتاق الذى قد حصل له الشوق . اللفظ السادس : الشيق ، وهو فيعل بمنزلة هين ولين ، وهو المشتاق . فهذه فروق ما بين هذه الألفاظ ، وأما كون الاشتياق أبلغ من الشوق فهذا قد يقال فيه إنه الأصل وهو أكثر حروفا من الشوق ، وهو يدل على المصدر والفاعل . وأما الشوق ففرع عليه لأنه اسم مصدر وأقل حروفا ، وهو إنما يدل على المصدر المجرد ، فهذه ثلاثة فروق منها . والله أعلم

﴿ فصل ﴾ وأما المسألة الخامسة وهي : فى مراتب الشوق ومنازله ، فقال صاحب (منازل السائرين) : « هو على ثلاث درجات : (الدرجة الأولى) شوق العابد الى

(١) النصر ابا ذى الذى صحبه أبو عبد الرحمن السلمى هو أبو القاسم ابراهيم بن محمد بن أحمد بن محمويه المتوفى سنة ٣٦٧ ، ترجم له السلمى فى (طبقات الصوفية) ص ٤٨٤ — ٤٨٨ وروى بعض ما سمعه منه من كلامه ، وليس منه ما ورد هنا ، فلعله فى كتابه (تاريخ الصوفية) أو غيره

الجنة ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل . و (الدرجة الثانية) شوق الى الله سبحانه وتعالى ، زرعه الحب الذى ينبت على حافات المنن ، تعلق قلبه بصفاته المقدسة ، واشتاق الى معاينة لطائف كرمه وآيات بره وعلامة فضله . وهذا شوق تغشاه المبارّ ، وتخالجه المسار ، ويقارنه الاصطبار . و (الدرجة الثالثة) نار أضرمها صفو المحبة ، فنغصت العيش وسلبت السلو ، ولم ينهنها مقر دون اللقاء » . قلت : الدرجة الأولى هى شوق إلى فضل الله وثوابه . والثانية شوق الى لقائه ورؤيته . والثالثة شوق اليه لا لعلة ولا لسبب ولا ملاحظ فيه غير ذاته . فالأول حظ المشتاق من إفضاله وإنعامه ، والثانى حظه من لقائه ورؤيته ، والثالث قد فنيت فيه الحظوظ واضمحلت فيه الأقسام

وقوله فى الدرجة الأولى « ليأمن الخائف ويفرح الحزين ويظفر الآمل » هذه ثلاث فوائد ذكرها فى هذا الشوق : أمن الخائف ، وفرح الحزين ، والظفر بالأمل . فهذه المقاصد لما كانت حاصلة بدخول الجنة كانت مصورة للنفس أشد الشوق الى حصول هذه المطالب وهى الفوز والفرح . وجماع ذلك أمران : أحدهما النجاة من كل مكروه ، والثانى الظفر بكل محبوب . فهذان هما المشوقان الى الجنة

وقوله فى الثانية « شوق الى الله سبحانه وتعالى زرعه الحب » قد تقدم أن الشوق ثمرة الحب . وقوله « الذى ينبت على حافات المنن » أى أنشأه الفكر فى منن الله وأياديه وأنعامه المتواترة . وفيه إشارة الى أن هذا الحب الذى هو نابت على الحافات والجوانب بعده حب أكمل منه وهو الحب الناشىء من شهود كمال الأسماء والصفات ، وذلك ليس من نبات الحافات ولكن من الحب الأول يدخل فى هذا كما تقدم ، ولهذا قال « تعلق قلبه بصفاته المقدسة » . وقوله « واشتاق إلى معاينة لطائف كرمه وآيات بره وعلامة فضله » يشير به إلى ما يكرم الله به عبده من أنواع كراماته التى يستدل بها على أنه مقبول عند ربه ملاحظ بعنايته ، وأنه قد استخدمه وكتبه فى ديوان أوليائه وخواصه . ولا ريب أن العبد متى شاهد تلك العلامات والآيات قوى قلبه وفرح بفضل ربه وعلم أنه قد أهل فطاب له السير ودام اشتياقه وزالت عنه العلل ، وما لم ينعم عليه بشىء من ذلك لم يزل كئيبا حزينا خائفا أن يكون ممن لا يصلح لذلك الجناب ولم يصل لتلك المنزلة . وقوله « وهذا شوق تغشاه المبارّ » هى جمع مبرة وهى البر ، أى ان هـــذا الشوق

مشحون بالبر مغشى به ، وهو إما بر القلب وهو كثرة خيره ، فهذا القلب أكثر القلوب خيرا ، فيفعل البر تقربا الى من هو مشتاق اليه ، فهو يجيش بأنواع البر ، وهذه من فوائد المحبة أن قلب صاحبها ينبع منه عيون الخير وتتفجر منه ينابيع البر ، يريد به أن مبارّ الله و نعمه تغشاه على الدوام . وقوله « وتخالجه المسار » يخالطه السرور فى غضون أشواقه ، فانها أشواق لا وحشة معها ولا ألم ، بل هى محشوة بالمسرات . وقوله « ويقارنه الاصطبار » أى صاحبه له قوة على اصطباره على مرضاة حبيبه لشوقه اليه ، وإنما يضعف الصبر لضعف المحبة ، والمحب من أصبر الخلق كما قيل :

نفس المحب على الآلام صابرة   لعل مسقمها يوما يداويها

وقوله فى الدرجة الثالثة « انها نار أضرمها صفو المحبة » يعنى أن هذا الشوق يتوقد من خالص المحبة التى لا تشوبها علة ، فهو أشد أنواع الشوق ، ولهذا « نغصت العيش » أى كدرته و نغصت المشتاق فيه لأنه لا يصل الى محبوبه ما دام فيـــه ، فهو يترقب مفارقته . وقوله « وسلبت السلوّ » يعنى أن صاحبه لم يبق له مطمع فى سلوه أبدا ، وهذا أعظم ما يكون من الحب والشوق ، أن المحب أيس من السلو وانقطع طمعه منه كما أيس من الأمور الممتنعة كرجوع أيام الشباب عليه وعوده طفلا ونحو ذلك . وقوله « ولم ينهنها مقرّ دون اللقاء » أى إن هذه النار لا يبردها ولا يفتر حرها مقصود ولا مطلب ولا مراد دون لقاء محبوبه ، فليس له سبيل الى تبريدها وتسكينها إلا بلقاء محبوبه

﴿ فصل ﴾ قال أبو العباس « فهذه كلها علل أنف الخواص منها وأسباب انفطموا عنها ، فلم يبق لهم مع الحق إرادة ، ولا فى عطائه تشوق الى استزادة . فهو منتهى زادهم وغاية رغبتهم ، فيعتقدون أن ما دونه قاطع عنه ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ ﴾ (الانعام ١٩) ، وإنما زهدهم جمع الهمة عن تعريفات الكون لأن الحق عافاهم بنور الكشف عن التعلق بالأحوال ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ، وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (ص ٤٦-٤٧) . قلت : يشير بذلك الى المحو ومقام الفناء الذى هو غاية الغايات عنده ، وقد تقدم الكلام عليه وأن مقام الصحو والبقاء أفضل منه وأتم عبودية . وينبغى أن يعرف أن مراعاة مقام الفناء الذى جعلوه غاية آلَ

بكثير من طالبيه الى ترك القيام بالأعمال جملة ورأوا أنها علل قاطعة عنه ! واشتد نكير الشيوخ والأئمة عليهم حتى قال شيخ الطائفة الجنيد : إن الذى يزنى ويسرق خير من هؤلاء . وهم نوعان : نوع جردوا الفناء فى شهود الحكم وهو الحكم القدرى ورأوا أنه نهاية التوحيد ، فآل بهم استغراقهم فيه الى اطراح الأسباب ، حتى قال قائلهم : العارف لا يعرّف معروفا ولا ينكر منكراً لاستبصاره بسر الله فى القدر . والنوع الثانى أصحاب تجريد الفناء والإرادة ، فجردوا الفناء والارادة تجريدا آل بهم الى ترك الأسباب جملة . والطائفتان منحرفتان ضالتان خارجتان عن العلم والدين ، ولهذا قال لهم شيخ القوم الجنيد : عليكم بالفرق الثانى . يعنى أن الفرق فرقان : فرق بالطبع والهوى ، وهو الفرق الذى شهدوه وفروا منه الى معنى الجمع . ولكن بعد الجمع فرق ثان وهو الفرق بالأمر والمحبة ، لا بالشهوة والطبع ، وهو دين الرسل ، فان دينهم مبناه على الفرق الأمرى الشرعى بين محبوب الرب ومأموره وبين مسخوطه ومنهيه ، فمن لم يشهد هذا الفرق ولم يكن من أهله لم يكن من أتباع الرسل ، فان الكمال شهود الجمع فى هذا الفرق فيشهد انفراد الله وحده بالخلق والأمر ، ويشهد الفرق بين ما يحبه فيؤثره ويقدمه وبين ما يبغضه فيتركه ويتجنبه ، فيصير له هذا الفرق فى محل فرقه الطبعى الحسى بين ما يلائمه وينافره . ومن المعلوم أن صاحب الجمع لا بد أن يفرق بطبعه وحسه ، وان ادعى عدم التفريق طبعا فانه كاذب مفتر . واذا كان لا بد من الفرق فالفرق الشرعى الايمانى الذى بعث الله به رسله أولى به من الفرق الطبعى الحيوانى الذى شاركه فيه سائر البهائم .
وأبطل من هذا الجمع الجمع فى الوجود ، وهو أن يرى الوجود كله واحدا لا فرق فيه أصلا وانما التفريق بالعادة والوهم فقط كما يقوله زنادقة القائلين بوحدة الوجود الذين لا يفرقون بين الخالق والمخلوق بل يجعلون وجود أحدهما وجود الآخر ، بل ليس عندهم فرق بين أحدهما والآخر اذ ما ثم غير . فهذا جمع فى الوجود وجمع أولئك جمع فى الشهود ﴿ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ﴾ فكانوا أصحاب الجمع فى الفرق ، ففرقوا بين ما فرق الله بينه باذنه ، وجمعوا الأشياء كلها فى خلقه وأمره ، وجمعوا إراداتهم ومحبتهم وشهودهم فيه ، فكانوا أصحاب جمع فى فرق وفرق فى جمع . فهؤلاء خواص الخلق ، فنسأل الله العظيم من فضله وكرمه أن يجعلنا منهم . فهؤلاء هم

الذين لم يبق لهم مع الحق إرادة ، بل صارت إرادتهم تابعة لإرادته ، فحصل الاتحاد فى المراد فقط لا فى الارادة ولا فى المريد . فأصحاب الوحدة ظنوا الاتحاد فى المريد ، وأصحاب الحلول توهموا الاتحاد فى الارادة ﴿ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإذْنِهِ ﴾ فعلموا أن المراد واحد ، فالاتحاد وقع فى المراد فقط ، لا فى الارادة ولا فى المريد . وقوله « فيعتقدون أن ما دونه قاطع عنه » إنما يكون ما دونه قاطعا عنه إذا وقف العبد معه وتعلقت إرادته به وانصرف طلبه اليه ، وأما إذا جعله وسيلة الى الله وطريقا يصل بها اليه لم يكن قاطعا ولا حجابا ، بل يكون حاجبا موصلا اليه ، وقوله تعالى (الانعام ١٩) : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ المراد بالآية شهادته سبحانه لرسوله بتصديقه على رسالته ، فان المشركين قالوا لرسول الله ﷺ : من يشهد لك على ما تقول ؟ فانزل الله سبحانه آيات شهادته له وشهادة ملائكته وشهادة علماء أهل الكتاب به فقال تعالى (الرعد ٤٣) : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ ﴾ أى ومن عنده علم الكتاب يشهد لى وشهادته مقبولة لأنها شهادة بعلم ، قال الله تعالى (النساء ١٦٦) : ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِما أَنْزَلَ الَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، والْمَلائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ وقال تعالى (الانعام ١٩) : ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً ، قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ ، فاخبر سبحانه فى هذه المواضع بشهادته لرسوله وكفى بشهادته اثباتا لصدقه وكفى به شهيدا . فان قيل : وما شهادته لرسوله ؟ قيل : هى ما أقام على صدقه من الدلالات والآيات المستلزمة لصدقه بعد العلم بها ضرورة ، فدلالتها على صدقه أعظم من دلالة كل بينة وشاهد على حق ، فشهادته سبحانه لرسوله أصدق شهادة وأعظمها وأدلها على ثبوت المشهود به ، فهذا وجه . ووجه آخر أنه صدقه بقوله وأقام الأدلة القاطعة على صدقه فيما يخبر به عنه . فاذا أخبر عنه أنه شهد له قولا لزم ضرورة صدقه فى ذلك الخبر وصحت الشهادة له به قطعا ، فهذا معنى الآية وكان أجنبيا عما استدل به المصنف

ونظير هذا استشهادهم بقوله تعالى (الأنعام ٩١) : ﴿ وَعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ ولا آباؤُكُمْ ، قُلِ اللهُ ، ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾ حتى رتب على ذلك بعضهم أن الذكر بالاسم المفرد

وهو « الله ، الله » أفضل من الذكر بالجملة المركبة كقوله « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » وهذا فاسد مبنيّ على فاسد . فان الذكر بالاسم المفرد غير مشروع أصلا ، ولا مفيد شيئا ، ولا هو كلام أصلا ، ولا يدل على مدح ولا تعظيم ، ولا يتعلق به إيمان ، ولا ثواب ، ولا يدخل به الذاكر فى عقد الاسلام جملة ، فلو قال الكافر « الله ، الله » من أول عمره الى آخره لم يصر بذلك مسلما فضلا عن أن يكون من جملة الذكر أو يكون أفضل الأذكار . وبالغ بعضهم فى ذلك حتى قال : الذكر بالاسم المضمر أفضل من الذكر بالاسم الظاهر ! فالذكر بقوله « هو ، هو » أفضل من الذكر بقولهم « الله ، الله » وكل هذا من أنواع الهوس والخيالات الباطلة المفضية بأهلها الى أنواع من الضلالات ، فهذا فساد هذا البناء الهائر ، وأما فساد المبنى عليه فانهم ظنوا أن قوله تعالى ﴿قُلِ اللهُ﴾ أى قل هذا الاسم ، فقل : الله الله ، وهذا من عدم فهم القوم لكتاب الله ، فان اسم الله هنا جواب لقوله (الانعام ٩١) : ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ ، تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً﴾ الى أن قال ﴿قُلِ اللهُ﴾ أى قل : الله أنزله . فان السؤال معاد فى الجواب فيتضمنه فيحذف اختصارا كما يقول : من خلق السموات والارض ؟ فيقال : الله . أى الله خلقهما ، فيحذف الفعل لدلالة السؤال عليه . فهذا معنى الآية الذى لا تحتمل غيره

قوله « وإنما زهدهم جمع الهمة عن تعريفات الكون لأن الحق عافاهم بنور الكشف عن التعلق بالاحوال » فيقال : الكشف الذى أوجب لهم هذا الجمع وقطع هذا التعلق هو الكشف الايمانى القرآنى ، فهو فى الحقيقة الكشف النافع الجاذب لصاحبه الى سلوك منازل الأبرار والوصول الى مقامات القرب ، ولا سيما اذا قارنه الكشف عن عيوب النفس وعلى الأعمال ، فناهيك به من كشف . والكرامة المرتبة عليه هى لزوم الاستقامة ودوام العبودية ، فهذا أفضل كشف يعطاه العبد ، وهذه أفضل كرامة يكرم بها الولى . رزقنا الله من فضله وبره . وأما استشهاده بقوله تعالى (ص ٤٦) : ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ فهذه الآية يخبر فيها سبحانه عما أخلص له أنبياءه ورسله من اختصاصهم بالآخرة ، وفيها قولان : أحدهما ان المعنى نزعنا من قلوبهم

حب الدنيا وذكرها وإيثارها والعمل بها . والقول الثانى إنا أخلصناهم بأفضل ما فى الدار الآخرة واختصصناهم به عن العالمين

قوله : وتوكلهم رضاهم بتدبير الحق ، وتخلصهم من تدبيرهم ، وفراغ همهم من احتيالها فى اصلاح شئونها ، بوقوفهم على فراغ المدبر منها ، ومرها على علمه بمصالحهم فيها ، ونفوسهم مطمئنة بذلك ﴿ يا أيتها النفس المطمئنة ﴾ الآية (الفجر ٢٧) . قد تقدم الكلام على التوكل وبيان أنه من مقامات العارفين ، وأنه لا انفكاك للمؤمن منه ، وذكر العلة فيه ما هى . وقوله « وتوكلهم رضاهم بتدبير الحق » الرضا بالتدبير ثمرة التوكل وموجبه لا أنه نفس التوكل فى المقدور ، يكشفه أمران : التوكل قبل وقوعه ، والرضا به بعد وقوعه . ومن هنا قال بعضهم : حقيقة التوكل الرضا ، لأنه لما كان ثمرته وموجبه استدل به عليه استدلالا بالأثر على المؤثر وبالمعلول على العلة ، ولهذا قال فى الحديث الذى رواه الامام أحمد والنسائى وغيرهما عن النبى ﷺ أنه قال فى دعائه « اللهم إنى أسألك بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق ، أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى . اللهم وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفد ، وأسألك قرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك برد العيش بعد الموت » الحديث ، وقد تقدم ، فقال « وأسألك الرضا بعد القضاء » وأما التوكل فانما يكون قبله ، وقوله « وتخلصهم من تدبيرهم » هذا مقام كثيرا ما يشير اليه السالكون ، وهو ترك التدبير ، وينبغى أن لا يؤخذ على إطلاقه ، بل لا بد فيه من التفصيل فيقال : العبد دائر بين مأمور يفعله ، ومحظور يتركه . وقد يجرى عليه بلا ارادة منه ولا كسب فوظيفته فى المأمور كمال التدبير والجد والتشمير ، وأن يدبر الحيلة فى تنفيذه بكل ما يمكنه ، فترك التدبير هنا تعطيل للامر . بل يدبر فعله ناظرا الى تدبير الحق له ، وأن تدبيره إنما يتم بتدبير الله له ، فلا يكون هنا قدريا مجوسيا ناظرا الى فعله جاحدا لتدبير الله وتقديره ومعونته ، ولا قدريا مجبرا ولا واقفا مع القدر جاحدا لفعله وتدبيره ومحلى أمر الله ونهيه ، فان فعله الاختيارى هو محل الأمر والنهى ، فمن جحد فعل نفسه فقد عطل الأمر والنهى وجحد محلهما ، ووظيفته فى المحظور الفناء عن إرادته وفعله ، فانه

عارضته أسباب الفعل فالواجب عليه الجد فى الهرب والتشمير فى الكف والبعد ، وهذا تدبير للنهى . وأما القدر الذى يصيبه بغير إرادته فهذا الذى يحسن فيه إسقاط التدبير جملة ، وصبره ورضاه بما قسم له من محبوب ومكروه . فعلى هذا التفصيل ينبغى أن يوضع إسقاط التدبير . وجماع ذلك أنك تسقط التدبير فى حظك وتكون قائما بالتدبير فى حق ربك ، وهكذا ينبغى أن تفرغ الهمة من إجالتها فى إصلاح شأنك ، فان اصلاح شأنك بحصول حظوظك يحصل فيه فراغ الهمة وترك التدبير ، وأما إصلاح شأنك بأداء حق الله فالواجب شغل الهمة وإجالتها فى القيام به . وقوله « بوقوفهم على فراغ المدبر منها ، ومرها على علمه بمصالحهم فيها » فلا ريب أن الله سبحانه وتعالى قضى القضية وفرغ من تدبير أمور الخلائق ، ولكن قدرها بأسبابها المفضية اليها ، فلا يكون وقوف العبد على فراغه سبحانه وتعالى من أقضيته فى خلقه وتدبيره مانعا له من قيامه بالأسباب التى جعلها طرقا لحصول ما قضاه منها . وكذلك يباشر العبد الأسباب التى بها حفظ حياته من الطعام والشراب واللباس والمسكن ، ولا يكون وقوفه مع فراغ المدبر منها مانعاً له من تعاطيها . وكذلك يباشر الأسباب الموجبة لبقاء النوع من النكاح والتسرى ولا يكون وقوفه مع فراغ الله من خلقه مانعا له . وهكذا جميع مصالح الدنيا والآخرة وإن كانت مفروغا منها قضاء وقدرا فهى منوطة بأسبابها التى يتوقف حصولها عليها شرعا وخلقا . وأما استدلاله بقوله تعالى (الفجر ٢٧) : ﴿ يا أَيَّتُها النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِى إِلى رَبِّكِ ﴾ فالنفس المطمئنة هى التى اطمأنت إلى ربها وسكنت الى حبه واطمأنت بذكره وأيقنت بوعده ورضيت بقضائه ، وهى ضد النفس الأمارة بالسوء ، فلم تكن طمأنينتها بمجرد إسقاط تدبيرها ، بل بالقيام بحقه والطمانينة بحبه وبذكره

﴿ فصل ﴾ قال : وصبرهم صونهم قلوبهم عن خاطر السوء أن الله قضى قضاء عاريا عن المرافقة خارجا عن الخيرة قال الله تعالى (الانفال ١٧) : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً ﴾ قد تقدم الكلام فى الصبر وأقسامه وبيان مرتبته من الإيمان . وما ذكره فى تفسيره ههنا غير مطابق لمعناه ، وهو تفسير بعيد جدا ، فان الصبر من أعمال القلوب ، وهو حبس النفس وكفها عن السخط ، وأما صون القلب عن اعتقاد ما لا يليق بالله فلا يقال له صبر بل هذا من لوازم الايمان ، وهو كاعتقاد أنه سبحانه وتعالى حكيم رحيم

عليم سميع بصير إلى غير ذلك من صفات كماله ، فلا يقال : الصبر صون القلب عن اعتقاد أضدادها ، هذا بعيد جدا وتكلف زائد لتفسير الصبر ، وهل فهم أحد قط هذا المعنى من قوله تعالى (آل عمران ٢٠٠) : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا ﴾ وقوله تعالى (الطور ٤٨) : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ﴾ وقوله تعالى (النحل ١٢٧) : ﴿ وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ ﴾ وقوله تعالى (طه ١٣٠ ، ق ٣٩) : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ ﴾ ، (الانفال ٤٦) : ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِين ﴾ وسائر نصوص الصبر . ومن العجب جعل الصبر الذى هو نصف الإيمان من منازل العوام ، وتفسيره بهذا التفسير ! نعم يجب على كل مسلم أن ينزه الله سبحانه وتعالى عن أن يقضى قضاء ينافى حكمته وعدله وفضله وبره وإحسانه ، بل كل أقضيته لا تخرج عن الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة ، وإن كان كثير من المتكلمين ينازع فى هذا الأصل ويقول : الذى ينزه الله عنه من الأقضية هو المستحيل الممتنع ، وأما الممكن فلا يقبح منه شىء ، وهؤلاء لا يمكن صون القلب عن خواطر السوء المتعلقة بما يقضيه الله عندهم إلا صونها عن خواطر الممتنعات والمستحيلات فقط . وبالجملة هذا مقام آخر غير مقام الصبر ، بل هذا باب من أبواب المعرفة والعلم ، ولكل مقام مقال . وأما استشهاده بقوله تعالى (الانفال ١٧) : ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَناً ﴾ فالبلاء الحسن هنا هو النعمة بالظفر والغنيمة والنصر على الأعداء ، وليس من الابتلاء الذى هو الامتحان بالمكروه ، بل من أبلاه بلاء حسنا إذا أنعم عليه ، يقال : أبلاك الله ولا ابتلاك ، فأبلاه بالخير ، وابتلاه بالمكاره غالبا ، كما فى الحديث « إنى مبتليك ومبتل بك »

﴿ فصل ﴾ قال : وحزنهم يأسهم عن أنفسهم الأمارة بالسوء ﴿ إِنَّ الإنسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود ﴾ . وقد تقدم أيضا الكلام على ما ذكره فى الحزن ، وأما تفسيره إياه أنه « يأسهم عن أنفسهم الأمارة بالسوء » فليس بالبين ، فان الحزن هو الأسف على فوت محبوب أو حصول مكروه ، وان تعلق ذلك بالماضى كان حزنا ، وان تعلق بالمستقبل كان خوفا وهمّا . واما « اليأس عن النفس الأمارة بالسوء » فليس بحزن ، ويمكن أنه يكون مراده أن حزنهم ينشأ عن النفس الأمارة بالسوء لا عن المطمئنة ، فان المطمئنة

لا تحزن وإنما تحزن الأمارة لفوات محبوبها ، وليس هذا كما قال ، فان النفس المطمئنة تحزن على تقصيرها فى أداء الحق وعلى تضييعها الوقت وإيثارها غير الله عليه فى الأحيان ، وهذا الحزن لا بد منه ، إذ التقصير والتضييع لازم ، وأما استشهاده على ذلك بقوله تعالى (العاديات ٦) : ﴿ إِنَّ الإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُود ﴾ فوجهه أن الكنود هو الكفور ، وهو الذى يذكر المصائب وينسى النعم ، ولا ريب أن الحزن ينشأ عن هذين ، ولا ريب أن الحزن الناشىء عن الكنود حزن ناشىء عن النفس الأمارة بالسوء ، وأما الحزن على تقصيره وتضييع وقته فليس من هذا ، وقد تقدم ذلك وذكر أقسام الحزن ومتعلقاته . والله أعلم

﴿ فصل ﴾ قال : وخوفهم هيبة الجلال لا خوف العذاب ، فان خوفهم مناضلة عن النفس وضنّ بها ، وهيبة الجلال تعظيم الحق ونسيان النفس ﴿ يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِم ﴾ . وقال فى حق العوام (النور ٣٧) : ﴿ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصار ﴾ وقد تقدم أيضا الكلام على ما ذكره فى الحديث وعلته . وقوله هو « هيبة الجلال لا خوف العذاب » تقدم بيان بطلانه ، وأن الله سبحانه أثنى على خاصة أوليائه من الملائكة والأنبياء وغيرهم ممن عبدهم المشركون بانهم (الاسراء ٥٧) : ﴿ يَبْتَغونَ إلى رَبِّهِمُ الوسيلةَ أَيُّهِمْ أقربُ ويَرْجونَ رَحْمتَهُ ويَخافونَ عَذابَه ﴾ فكيف يقال : ان خوف العذاب نقص ومناضلة عن النفس ؟ هذا من الترهات ، والزعوم ، ودعاوى الأنفس . وقوله « ان الخوف مناضلة عن النفس » فسبحان الله ، هل يقال لمن خاف الله وخاف عقوبته إنه مناضل ربه ؟ ولو كان مناضلة فهو مناضلة العدو والهوى والشهوة وهذه المناضلة من أعظم أنواع العبودية ، فان من خاف شيئا ناضل عنه فهو مناضلة عن العذاب وأسبابه ، وما ثَمَّ إلا مناضلة وإلقاء باليد إلى التهلكة ، ولولا هذه المناضلة لحصل الاستسلام للعقوبة . والمناضلة المحذورة المناضلة عن محبوبات الرب وأوامره ، وليس الضن بالنفس عن عذاب الله نقصا ، بل الكمال والفوز والنعيم فى ضن العبد بنفسه عن أن يسلمها لعذاب الله ، ومن لم يضن بنفسه فليس فيه خير ألبتة ، والضن بالنفس إنما يذم إذا ضن بها عن بذلها فى محبوب الرب وأوامره ، وأما إذا ضن بها عن

عذابه فهل يكون هذا علة ؟ وهل العلة كلها إلا فى عدم هـــذه المناضلة والضن ؟ قوله « وهيبة الجلال تعظيم الحق ونسيان النفس » قد تقدم الكلام فى الهيبة والتعظيم وأنهما غير الخوف والخشية . ولا تستلزم هذه الهيبة أيضا نسيان النفس ، ولا يكون شعور العبد بنفسه فى هذا المقام نقصا ولا علة كما تقدم ، بل هو أكمل ، لاستلزامه البقاء الذى هو أقوى وأكمل من الفناء . وأما قوله تعالى ﴿ يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ فهو حجة عليه كما تقدم . ولا يصح تفسير الخوف هنا بالهيبة لوجهين : أحدهما أنه خروج عن حقيقة اللفظ ووضعه الأصلى بلا موجب ، الثانى أن هذا وصف للملائكة وقد وصفهم سبحانه بخوفه وخشيته ، فالخوف فى هذه الآية والخشية فى قوله تعالى (الانبياء ٢٨) : ﴿ يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُون ﴾ فوصفهم بالخشية والاشفاق ، ووصفهم بخوف العذاب فى قوله تعالى (الاسراء ٥٧) : ﴿ يَبْتَغُونَ إلىَ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَه ﴾ وهم خواص خلقه . فإياك ورعونات النفس وحماقاتها وجهالاتها ، ولا تكن ممن لا يقدر الله حق قدره ، وقد قال النبى ﷺ « إن الله لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم » فاذا علم المقرب العارف أن الله لو عذبه لم يظلمه ، فمن أحق بالخوف منه ؟ قوله : وقال فى حقّ العوام ﴿ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيه القُلُوبُ والأَبْصارُ ﴾ هذا من الشطحات القبيحة الباطلة ، فان هذا صفة خواص عباده وعارفيهم ، وهم الذين قال فيهم (النور ٣٧ - ٣٨) : ﴿ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فيهِ القُلُوبُ والأَبْصارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِه ﴾ فهؤلاء خواص الخلق ، وهم أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم باحسان ، أفلا يستحى من جعل هذا الوصف للعوام ؟ ولا ريب أن هذا مصدره إما جهل مفرط ، وإما تقليد لقائل لا يدرى لازم قوله . هذا إن أحسن الظن بقائله ، وإن كان مصدره غير ذلك فأدهى وأمر . ولولا أن هذه الكلمات ونحوها مهاو ومعاطب فى الطريق لكان الإعراض عنها إلى ما هو أهم منها أولى . والله المستعان

﴿ فصل ﴾ قال : ورجاؤهم ظمأهم إلى الشراب الذى هم فيه غرقى ، وبه سكرى ،

﴿ ألم ترَ إلى رَبِّكَ كيفَ مَدَّ الظِّل ﴾ وهذا أيضا من ذلك النمـــط ، ورجاء الأنبياء والرسل فمن دونهم إنما هو طمعهم فى رحمته ومغفرته . وانظر الى دعوى هؤلاء والى قول إمام الحنفاء خليل الرحمن (الشعراء ٨٢) : ﴿ والَّذِي أطْمَعُ أنْ يَغفِرَ لى خَطِيئَتى يومَ الدِّين ﴾ كيف علق رجاءه وطمعه بمغفرة الله له ، قال تعالى عن خاصة خلقه وأعلمهم به انهم ﴿ يرْجُونَ رَحْمتَهُ ويخافُونَ عَذابه ﴾ (الاسراء ٥٧) ، ومن العجب استدلاله بقوله تعالى (الفرقان ٤٥) : ﴿ ألمْ تر إلى رَبِّكَ كيفَ مَدَّ الظِّلّ ﴾ فما لهذه الآية وما للرجاء ، ولا سيما ما ذكره المصنف فى تفسيره رجاء القوم ، والاستشهاد بهذا من جنس الالغاز . ومعنى الآية التنبيه على هذه الدلالة الباهرة على قدرة الرب سبحانه وعجائب مخلوقاته الدالة عليه ، والمعنى : انظر كيف بسط ربك الظل ، والظل ما قبل الزوال ، والفىء بعده ، فمده سبحانه وبسطه عند طلوع الشمس فانه يكون مديدا أطول ما يكون ، وجعل الشمس دليلا عليه فانها هى التى تظهره وتبينه ، ثم كلما ارتفعت الشمس شيئا انقبض من الظل جزء ، فلا يزال ينقص يسيرا حتى ينتهى الى غايته ، فاذا أخـــذت الشمس فى الجانب الغربى انبسط بعد انقباضه شيئا فشيئا حتى يصير كهيئته عند طلوعها . ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل فى قصره ، فاذا أخذ فى الزيادة بعد تناهى قصره فقد تحقق الزوال ، ولو شاء الله لجعله ساكنا دائما على حالة واحدة فلا يتحرك بالزيادة والنقصان ، فالظل أحد الأدلة الدالة على الخالق سبحانه ، وأما دلالة هذه الآية على الرجاء فيحتاج الى اشارة وتكلف غير مقصود بها ، وآيات الرجاء فى القرآن أكثر وأظهر وأصرح فى المقصود ظاهرة واستنباطا ، فالظاهرة كقوله تعالى (الكهف ١١٠) : ﴿ فمَنْ كانَ يرْجُو لِقاءَ ربِّهِ ﴾ وقوله تعالى (الاسراء ٥٧) : ﴿ وَيرْجُونَ رَحْمتَه ﴾ وقوله (العنكبوت ٥) : ﴿ مَنْ كانَ يرْجُو لِقاءَ الله ﴾ . والمستنبطة كآيات البشارة كلها كقوله ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِين ﴾ (البقرة ٢٢٣) ، ﴿ وَبَشِّرِ الصابِرِين ﴾ (البقرة ١٥٥) ، ﴿ فَبَشِّرْ عِبادِيَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ (الزمر ١٧ – ١٨) ، ﴿ ذلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللهُ عِبادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحات ﴾ (الشورى ٢٣)

﴿ فصل ﴾ قال : وشكرهم وسرورهم بموجودهم واستبشارهم بلقائه ﴿ فاستبشروا

ببيعكم الذى بايعتم به ﴾ وهذا أيضا من النمط المتقدم ، وشكر القوم هو عملهم بطاعة الله واستعانتهم بنعمه على محابه قال تعالى : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً ﴾ وقال النبى ﷺ لما قيل له : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال « أَفَلاَ أَكُونُ عَبْداً شَكُوراً » فسمى الأعمال شكرا وأخبر أن شكره قيامه بها ومحافظته عليها فحقيقة الشكر هو الثناء على النعم ومحبته والعمل بطاعته ، كما قال :

أفادتكم النعماء عندى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا

فاليد للطاعة ، واللسان للثناء ، والضمير للحب والتعظيم . وأما السرور به وإن كان من أجل المقامات فان العبد إنما يسرّ بمن هو أحب الأشياء اليه ، وعلى قدر حبه له يكون سروره ، وهذا السرور ثمرة الشكر لا أنه نفس الشكر ، فكذلك الاستبشار والفرح بلقائه إنما هو ثمرة الشكر وموجبه ، وهو كالرضا من التوكل ، وكالشوق من المحبة ، وكالأنس من الذكر ، وكالخشية من العلم ، وكالطمأنينة من اليقين ، فانها ثمرات لها وآثار وموجبات ، فعلى قدر شكره لله بالأعمال الظاهرة والباطنة وتصحيح العبودية يكون سروره واستبشاره بلقائه . وأما قوله سبحانه وتعالى (التوبة ١١١) : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ فهذا إنما قاله للشاكرين الذين يقاتلون فى سبيله فيقتلون ويقتلون ، ثم وصفهم بعد ذلك بقيامهم بأعمال الشكر فقال (التوبة ١١٢) ﴿ التَّائِبونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعروفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالحافِظونَ لِحُدُودِ اللهِ ﴾ فهؤلاء المستبشرون ببيعهم ، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه

﴿ فصل ﴾ قال « ومحبتهم فناؤهم فى محبة الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال » ؟ وقد تقدم الكلام على هذا بما فيه كفاية ، وبينا أن البقاء فى المحبة أفضل وأكمل من الفناء فيها من وجوه متعددة ، وأن الفناء إنما هو لضعف المحب عما حمل ، وأما الأقوياء فهم — مع شدة محبتهم — فى مقام البقاء والتميز . وأما استدلاله بقوله تعالى (يونس ٣٢) : ﴿ فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إلاَّ الضَّلال ﴾ فالآية إنما سيقت فى الكلام على من يعبد غير الله ويشرك به ، قال تعالى (يونس ٣١) : ﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِنَ السَّماءِ والْأَرْضِ أَمْ مَنْ

يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ . فَذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُون ﴾ [فمن] عبد غير الله فما عبد إلا الضلال المحض والباطل البحت ، وأما من عبد الله بأمره وكان فى مقام التمييز بين محابه ومساخطه مفرقا بينهما يحب هذا ويبغض هذا ناظرا بقلبه الى ربه عاكفا بهمته عليه منفذا لأوامره فهو مع الحق المحض . والله أعلم

﴿ فصل ﴾ قال : وشوقهم هزمهم من رسمهم وسماتهم استعجالا للوصول الى غاية المنىٰ (طٰه ٨٤) : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ . قد تقدم الكلام فى الشوق مستوفى وليس الهرب من الغير والضد هو الشوق ، بل هنا مهروب منه ومهروب اليه ، فالشوق هو سفر القلب نحو المحبوب ، وهذا لا يتم إلا بالهرب من ضده ، فليس الشوق هو نفس الهرب من الرسوم والسمات

﴿ فصل ﴾ قال « والإرادة والزهد والتوكل والصبر والحزن والخوف والرجاء والشكر والمحبة والشوق من منازل أهل الشرع السائرين الى عين الحقيقة ، فاذا شاهدوا عين الحقيقة اضمحلت فيها أحوال الشاهدين حتى يفنى ما لم يكن ، ويبقى ما لم يزل » . قلت : الحقائق التى اشار اليها على لسان أهل السلوك ثلاث : (حقيقة إيمانية نبوية) ، وهى حقيقة العبودية التى هى كمال الحب وكمال الذل ، وسير أهل الاستقامة إنما هو الى هذه الحقيقة ، ومنازل السير التى ينزلون فيها هى منازل الايمان الموصلة اليها . والمنحرفون لا يرضون بهذه الحقيقة ولا يقفون معها ويرونها منزلة من منازل العامة ! الحقيقة الثانية (حقيقة كونية قدرية) يشاهدون فيها انفراد الرب سبحانه بالتكوين والايجاد وحده ، وأن العالم كالميت يقلبه ويصرفه كيف يشاء ، وهم يعظمون هذا المشهد ويرون الفناء فيه غاية ما بعدها شيء . وهذا من أغلاطهم فى المعرفة والسلوك ، فان هذا المشهد لا يدخل صاحبه فى الإيمان فضلا عن أن يكون أفضل مشاهد أولياء الله المقربين فان عبّاد الأصنام شهدوا هذا المشهد ولم ينفعهم وحده ، قال تعالى (المؤمنون ٨٤-٨٩) ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون . سَيَقُولُونَ لِلّٰهِ ، قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُون .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلَا تَتَّقُون . قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُون ﴾ ، (الزخرف ٨٧) : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ ، (الزخرف ٢٠) : ﴿ وَقَالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمٰنُ ما عَبَدْنَاهُمْ ﴾ ، (الانعام ١٤٨) : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا ولا آباؤُنا ﴾ وهذا كثير فى القرآن ، فالفناء فى هذا المشهد لا يدخل العبد فى دائرة الاسلام ، فكيف يجعله هو الحقيقة التى ينتهى اليها سير السالكين ، ويجعل حقيقة الايمان ودعوة الرسل منزلة من منازل العامة ! وهل هذا إلا غاية الانحراف والبعد عن الصراط المستقيم وقلب للحقائق ؟ وكم قد هلك فى هذه الحقيقة من أمم لا يحصيهم إلا الله ! وكم عطل لأجلها الواقفون معها من الشرائع ، وخربوا من المنازل ! وما نجا من معاطبها إلا من شملته العناية الربانية ، ونفذ ببصره من هذه الحقيقة الى الحقيقة الايمانية النبوية ، حقيقة رسل الله وأنبيائه وأتباعهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والحقيقة الثالثة (حقيقة اتحادية) بل واحدية لا يفرق فيها بين الرب والعبد ، ولا بين القديم والمحدث ، ولا بين صانع ومصنوع ، بل الأمر كله واحد ، والأمر المخلوق هو عين الأمر الخالق . وهذه الحقيقة التى يشير الى عينها طائفة الاتحادية ، ويعدون من لم يكن من أهلها محجوبا . وهذه حقيقة كفرية اتحادية ، وهى مع ذلك خيال فاسد ، وعقل منكوس ، وذوق من عين منتنة ، وكفر أهلها أعظم من كفر كل أمة ، فانهم جحدوا الصانع حقا وان أثبتوه جعلوا وجوده وجود كل موجود ، والذين أثبتوا الصانع وعدلوا به غيره وسووا بينه وبين غيره فى العبادة مقالتهم خير من مقالة هؤلاء الذين جعلوه وجود كل موجود وعين كل شيء ، تعالى الله عما يقول الكاذبون المفترون علوا كبيرا . فعليك بالفرق بين السائرين الى هذه الحقيقة ، والسائرين الى عين الحقيقة الكونية الحكمية ، والسائرين الى عين الحقيقة المحمدية الإبراهيمية الحنيفية التى هى حقيقة جميع الأنبياء والمرسلين ، وفيها تفاوتت مراتب السالكين ومنازلهم من القرب من رب العالمين . قال شيخ هذه الحقيقة ابراهيم عليه السلام لما تحقق فناء تلك الرسوم وأفولها (الانعام ٧٩) : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ

وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وما أنا مِنَ الْمُشْرِكِين ﴾ ، وهذا التوجه يتضمن محبته دون غيره، وعبادته وطاعته دون غيره. فهذه هى الحقيقة حقا وما سواها باطل حقيقة ، قال تعالى لاكرم خلقه عليه (النحل ١٢٣) : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وما كانَ مِنَ الْمُشْرِكين ﴾ فأمره تعالى أن يقتدى بابيه إبراهيم فى هذه الحقيقة ، وكان ﷺ يعلم أصحابه إذا اصبحوا وإذا امسوا أن يقولوا « أصبحنا على فطرة الإسلام ، وكلمة الإخلاص ، ودين نبينا محمد ، وملة أبينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين » ، فنسأل الله العظيم أن يهب لنا هذه الحقيقة ويثبتنا عليها ، ويعيذنا مما سواها ، إنه قريب مجيب بمنه وكرمه . والله أعلم

فصل فى مراتب المكلفين فى الدار الآخرة
وطبقاتهم فيها . وهم ثمان عشرة طبقة

﴿ الطبقة الأولى ﴾ وهى العليا على الاطلاق مرتبة الرسالة ، فأكرم الخلق على الله وأخصهم بالزلفى لديه رسله ، وهم المصطفون من عباده الذين سلم عليهم فى العالمين كما قال تعالى (الصافات ١٨١) : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ وقال تعالى (الصافات ٧٩) : ﴿ سَلامٌ عَلىٰ نُوحٍ فِي الْعالَمِين ﴾ وقال تعالى (الصافات ١٠٩ – ١١٠) : ﴿ سَلامٌ عَلَى إِبْراهِيم . كَذٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنين ﴾ ، (الصافات ١٣٠) : ﴿ سَلامٌ عَلَى إِلْ ياسِين ﴾ وقال تعالى (النمل ٥٩) : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلّٰهِ وَسَلامٌ عَلَى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ﴾ . وكلمة « السلام » هنا تحتمل أن تكون داخلة فى حيز القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية وهى « الحمد لله » ويكون الأمر بالقول متناولا للجملتين معا ، وعلى هذا فيكون الوقف على الجملة الأخيرة ويكون محلها النصب محكية بالقول ، ويحتمل أن تكون جملة مستأنفة مستقلة معطوفة على جملة الطلب ، وعلى هذا فلا محل لها من الاعراب . وهذا التقدير أرجح ، وعليه يكون السلام من الله عليهم ، وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه وتعالى على رسله عليهم السلام . وعلى التقدير الأول يكون أمر بالسلام عليهم ، ولكن يقال على هذا : كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر ما بينهما ؟ فلا يحسن أن يقال : قم وذهب زيد ، ولا : أخرج وقعد عمرو ، أو يجاب على هذا بان جملة الطلب قد حكيت

بجملة خبرية ، ومع هذا لا يمتنع العطف فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام فيه وتباينه ، وهذا نظير قوله تعالى (يونس ١٠١) : ﴿ قُلِ انْظُرُوا ماذا فِي السَّمٰوٰاتِ وَالْأَرْضِ ، وما تُغْنِي الآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُون ﴾ فقوله تعالى ﴿ وما تُغْنِي الآياتُ ﴾ ليس معطوفا على القول وهو ﴿ انظروا ﴾ بل معطوف على الجملة الكبرى ، على أن عطف الخبر على الطلب كثير كقوله تعالى (الانبياء ١١٢) : ﴿ قالَ رَبِّ احْكُمْ بالحَقِّ ، وَرَبُّنا الرَّحْمٰنُ المُسْتَعانُ عَلَى ما تَصِفُون ﴾ وقوله تعالى (المؤمنون ١١٨) : ﴿ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِين ﴾ . والمقصود أنه على هذا القول يكون الله سبحانه وتعالى قد سلم على المصطفين من عباده ، والرسل أفضلهم ، وقد أخبر سبحانه وتعالى (ص ٤٦) أنه أخلصهم ﴿ بخالصة ذكرى الدار ، وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار ﴾ ، ويكفى فى فضلهم وشرفهم أن الله سبحانه وتعالى اختصهم بوحيه ، وجعلهم أمناء على رسالته ، وواسطة بينه وبين عباده ، وخصهم بأنواع كراماته : فمنهم من اتخذه خليلا ، ومنهم من كلمه تكليما ، ومنهم من رفعه مكانا عليا على سائرهم درجات ، ولم يجعل لعباده وصولا اليه إلا من طريقهم ، ولا دخولا الى جنته إلا خلفهم ، ولم يكرم أحدا منهم بكرامة إلا على أيديهم ؛ فهم أقرب الخلق اليه وسيلة ، وأرفعهم عنده درجة ، وأحبهم اليه وأكرمهم عليه . وبالجملة فخير الدنيا والآخرة انما ناله العباد على أيديهم وبهم عرف الله وبهم عبد وأطيع وبهم حصلت محابه تعالى فى الارض ، وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون فى قوله تعالى (الشورى ١٣) : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾ وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق ، وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم ﷺ

﴿ الطبقة الثانية ﴾ من عداهم من الرسل على مراتبهم من تفضيلهم بعضهم على بعض

﴿ الطبقة الثالثة ﴾ الذين لم يرسلوا الى أممهم وإنما كانت لهم النبوة دون الرسالة ، فاختصوا عن الامة بايحاء الله اليهم ، وإرساله ملائكته اليهم ، واختصت الرسل عنهم بارسالهم إلى الأمة بدعوتهم إلى الله بشريعته وأمره ، واشتركوا فى الوحى ونزول الملائكة عليهم

﴿ الطبقة الرابعة ﴾ ورثة الرسل وخلفاؤهم فى أممهم ، وهم القائمون بما بعثوا به علما وعملا ودعوة للخلق الى الله على طريقهم ومنهاجهم ، وهذه أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة ، وهى مرتبة الصدّيقية ، ولهذا قرنهم الله فى كتابه بالأنبياء فقال تعالى (النساء ٦٩) : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً ﴾ فجعل درجة الصدّيقية معطوفة على درجة النبوّة ، وهؤلاء هم الربانيون ، وهم الراسخون فى العلم ، وهم الوسائط بين الرسول وأمته ، فهم خلفاؤه وأولياؤه وحزبه وخاصته وحملة دينه ، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك ، وقال الله تعالى (الحديد ١٩) : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ وقيل : إن الوقف على قوله تعالى ﴿ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ﴾ ثم يبتدىء ﴿ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فيكون الكلام جملتين أخبر فى إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون ، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه ، وأخبر فى الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم ، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء ولهذا قدمهم عليهم فى الآيتين ، هنا وفى سورة النساء ، وهكذا جاء ذكرهم مقدما على الشهداء فى كلام النبى ﷺ فى قوله « اثبت أحد ، فانما عليك نبى وصديق وشهيد » ولهذا كان نعت الصديقية وصفا لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبى بكر الصديق ، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتا له رضى الله عنه ، وقيل : ان الكلام كله جملة واحدة وأخبر عن المؤمنين بأنهم هم الصديقون والشهداء عند ربهم ، وعلى هذا فالشهداء هم الذين يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة وهو قوله تعالى (البقرة ١٤٣) : ﴿ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ وهم المؤمنون ، فوصفهم بأنهم صديقون فى الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة ، ويكون الشهداء وصفا لجملة المؤمنين الصديقين ، وقيل : الشهداء هم الذين قتلوا فى سبيل الله ، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين ويكون قوله ﴿ والشهداء ﴾ مبتدأ خبره ما بعده ، لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً فى سبيل الله .

ويرجحه أيضا أنه لو كان الشهداء داخلا فى جملة الخبر لـكان قوله تعالى (الحديد ١٩) ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ داخلا أيضا فى جملة الخبر عنهم ، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء : أحدها أنهم هم الصديقون ، والثانى أنهم هم الشهداء ، والثالث أن لهم أجرهم ونورهم . وذلك يتضمن عطف الخبر الثانى على الأول . ثم ذكر الخبر الثالث مجردا عن العطف ، وهذا كما تقول : زيد كريم وعالم له مال ، والأحسن فى هذا تناسب الأخبار بان تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعاً فتقول : زيد كريم عالم له مال ، أو كريم وعالم وله مال . فتأمله . ويرجحه أيضا أن الـكلام يصير جملا مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء ، وهم الصديقون والشهداء والصالحون ، وهم المذكورون فى الآية ، وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضا حسنا ، فهؤلاء ثلاثة أصناف ، ثم ذكر الرسل فى قوله تعالى (الحديد ٢٥) : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة فى سورة النساء ، فهؤلاء هم السعداء . ثم ذكر (الحديد ١٩) الأشقياء وهم نوعان : كفار ، ومنافقون ، فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ وذكر المنافقون فى قوله تعالى (الحديد ١٣) : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ . فهؤلاء أصناف العالم كلهم ، وترك سبحانه وتعالى ذكر المخلط صاحب الشائبتين ، على طريقة القرآن فى ذكر السعداء والأشقياء دون المخلطين غالبا لسر اقتضته حكمته . فليحذر صاحب التخليط ، فانه لا ضمان له على الله ، ولا هو من أهل وعده المطلق . ولا ييأس من روح الله ، فانه ليس من الـكفار الذين قطع لهم بالعذاب ، ولـكنه بين الجنة والنار واقف بين الوعد والوعيد كل منهما يدعوه الى موجبه لأنه أتى بسببه . وهذا هو الذى لحظه القائلون بالمنزلة بين المنزلتين[1] ولـكن غلطوا فى تخليده فى النار ، ولو نزلوه منزلة بين المنزلتين ووكلوه الى المشيئة وقالوا بانه يخرج من النار بتوحيده وايمانه لأصابوا ، ولـكن منزلة بين منزلتين وصاحبهما مخلد فى النـــار ! مما لا يقتضيه عقل ولا سمع ، بل النصوص الصريحة المعلومة الصحة تشهد ببطلان قولهم

(١) أى المعتزلة وأذنابهم

والله أعلم . وأيضا فصاحب الشائبتين يعلم حكمه من نصوص الوعد والوعيد ، فان الله سبحانه وتعالى رتب على كل عمل جزاء فى الخير والشر ، فاذا أتى العبد بهما كان فيه سبب الجزاءين ، والله لا يضيع مثقال ذرة : فان كان عمل الشر مما يوجب سقوط أثر الحسنة كالكفر كان التأثير ، وان لم يسقطه كالمعصية ترتب فى حقه الأثران ما لم يسقط أحدهما بسبب من الأسباب التى نذكرها إن شاء الله فيما بعد . والمقصود أن درجة الصديقية والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هى أفضل درجات الأمة ، ولو لم يكن من فضلها وشرفها إلا أن كل من علم بتعليمهم وإرشادهم أو علم غيره شيئا من ذلك كان له مثل أجره ما دام ذلك جاريا فى الأمة على آباد الدهور ، وقد صح عن النبى ﷺ أنه قال لعلى بن أبى طالب « والله لان يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم » ، وصح عنه ﷺ أنه قال « من سن فى الاسلام سنة حسنة فعمل بها بعده كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئا » ، وصح عنه ﷺ أيضا أنه قال « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » ، وصح عنه ﷺ أنه قال « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين » ، وفى السنن عنه ﷺ أنه قال « ان العالم يستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى النملة فى جحرها » ، وعنه ﷺ أنه قال « إن الله وملائكته يصلون على معلم الناس الخير » ، وعنه ﷺ أنه قال « إن العلماء ورثة الأنبياء ، وان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ عظيم وافر » ، وعنه ﷺ « العالم والمتعلم شريكان فى الأجر ، ولا خير فى سائر الناس بعد » ، وعنه ﷺ أنه قال « نضر الله امرءا سمع مقالتى فوعاها وأداها كما سمعها » ، والأحاديث فى هذا كثيرة . وقد ذكرنا مائتى دليل على فضل العلم وأهله فى كتاب مفرد ، فيالها من مرتبة ما أعلاها ، ومنقبة ما أجلها وأسناها ، أن يكون المرء فى حياته مشغولا ببعض أشغاله ، أو فى قبره قد صار أشلاء متمزقة وأوصالا متفرقة ، وصحف حسناته متزايدة يملى فيها الحسنات كل وقت ، وأعمال الخير مهداة اليه من حيث لا يحتسب . تلك والله المكارم والغنائم ، وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ، وعليه يحسد الحاسدون ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وحقيق بمرتبة هذا شأنها أن تنفق نفائس الأنفاس عليها ، ويسبق السابقون

اليها ، وتوفر عليها الأوقات ، وتتوجه نحوها الطلبات . فنسأل الله الذى بيده مفاتيح كل خير أن يفتح علينا خزائن رحمته ، ويجعلنا من أهل هذه الصفة بمنه وكرمه . وأصحاب هذه المرتبة يُدعون عظماء فى ملكوت السماء كما قال بعض السلف : من علم وعمل وعلم فذلك يدعى عظيما فى ملكوت السماء . وهؤلاء هم العدول حقا بتعديل رسول الله ﷺ لهم ، إذ يقول فيما يروى عنه من وجوه شد بعضها بعضا « يحمل هذا العلم من كل خلف عدول ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين » وما أحسن ما قال فيهم الامام أحمد فى خطبة كتابه فى (الرد على الجهمية) : « الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، ويبصرون بنور الله أهل العمى . فكم من قتيل لإبليس قد أجبروه ، ومن ضال جاهل قد هدوه . فما أحسن أثرهم على الناس ، وأقبح أثر الناس عليهم : ينفون عن كتاب الله تأويل الجاهلين ، وتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين » . وذكر ابن وضاح هذا الكلام عن عمر بن الخطاب

﴿ الطبقة الخامسة ﴾ أئمة العدل وولاته الذين تؤمن بهم السبل ويستقيم بهم العالم ويستنصر بهم الضعيف ويذل بهم الظالم ويأمن بهم الخائف وتقام بهم الحدود ويدفع بهم الفساد ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقام بهم حكم الكتاب والسنة وتطفأ بهم نيران البدع والضلالة ، وهؤلاء الذين تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن عز وجل يوم القيامة فيكونون عليها ـ والولاة الظلمة قد صهرهم حر الشمس وقد بلغ منهم العرق مبلغه وهم يحملون أثقال مظالمهم العظيمة على ظهورهم الضعيفة فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ثم يرى سبيل أحدهم اما الى الجنة واما الى النار ـ قال النبى ﷺ « المقسطون على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن تبارك وتعالى ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهلهم وما ولوا » وعنه ﷺ « إن أحب الخلق الى الله وأقربهم منه منزلة يوم القيامة إمام عادل ، وإن أبغض الخلق الى الله وأبعدهم منه منزلة يوم القيامة إمام جائر » أو كما قال . وهم أحد السبعة الأصناف الذين يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، وكما كان الناس فى ظل عدلهم فى الدنيا كانوا فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة ظلا بظل جزاء وفاقا ، ولو لم يكن من فضلهم

وشرفهم إلا أن أهل السموات والأرض والطير فى الهواء يصلون عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم وولاة الظلم يلعنهم من بين السموات والارض حتى الدواب والطير ، كما أن معلم الناس الخير يصلى عليه الله وملائكته ، وكاتم العلم والهدى الذى أنزله الله وحامل أهله على كتمانه يلعنه الله وملائكته ويلعنه اللاعنون ، فيالها من منقبة ومرتبة ما أجلها وأشرفها أن يكون الوالى والامام على فراشه ويعمل بالخير وتكتب الحسنات فى صحائفه فهى متزايدة ما دام يعمل بعدله ، ولساعة واحدة منه خير من عبادة أعوام من غيره ، فأين هذا من الغاش لرعيته الظالم لهم قد حرم الله عليه الجنة وأوجب له النار . ويكفى فى فضله وشرفه أنه يكف عن الله دعوة المظلوم كما فى الآثار : أيها الملك المسلط المغرور ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولكن بعثتك لتكف عنى دعوة المظلوم . انى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، فانى لا أحجبها ولو كانت من كافر . فاين من هو نائم وأعين العباد ساهرة تدعو الله له ، وآخر أعينهم ساهرة تدعو عليه ؟

﴿ الطبقة السادسة ﴾ المجاهدون فى سبيل الله ، وهم جند الله الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم بأس أعدائه ويحفظ بهم بيضة الاسلام ويحمى بهم حوزة الدين ، وهم الذين يقاتلون أعداء الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هى العليا ، قد بذلوا أنفسهم فى محبة الله ونصر دينه وإعـــلاء كلمته ودفع أعدائه ، وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم فى أعمالهم التى يعملونها وإن باتوا فى ديارهم ، ولهم مثل أجور من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم فانهم كانوا هم السبب فيه . والشارع قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام فى الأجر والوزر ، ولهذا كان الداعى الى الهدى والداعى الى الضلال لكل منهما بتسببه مثل أجر من تبعه . وقد تظاهرت آيات الكتاب وتواترت نصوص السنة على الترغيب فى الجهاد والحض عليه ومدح أهله والإخبار عما لهم عند ربهم من أنواع الكرامات والعطايا الجزيلات ، ويكفى فى ذلك قوله تعالى (الصف ١٠) : ﴿ يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ﴾ فتشوقت النفوس الى هذه التجارة الرابحة التى الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم فقال (الصف ١١) : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ﴾ فكأن

النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة ، فكأنها قالت : فما لنا في الجهاد من الحظ ؟ فقال (الصف ١٢) : ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ و ﴾ مع المغفرة ﴿ يُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ فكأنها قالت : هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا ؟ فقال (الصف ١٣) : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا : نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فلله ما أحلى هذه الالفاظ وما ألصقها بالقلوب وما أعظمها جذبا لها وتسييرا الى ربها ، وما ألطف موقعها من قلب كل محب ، وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها . فنسأل الله من فضله انه جواد كريم . ومن هذا قوله تعالى (التوبة ١٩ - ٢٢) : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ لا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ فاخبر سبحانه وتعالى أنه لا يستوى عنده عمار المسجد الحرام ، وهم عماره بالاعتكاف والطواف والصلاة ، هذه هي عمارة مساجده المذكورة في القرآن ، وأهل سقاية الحاج لا يستوون هم وأهل الجهاد في سبيل الله ؛ وأخبر أن المؤمنين المجاهدين أعظم درجة عنده وانهم هم الفائزون . وأنهم أهل البشارة بالرحمة والرضوان والجنات ، فنفى التسوية بين المجاهدين وعمار المسجد الحرام مع أنواع العبادة مع ثنائه على عماره بقوله تعالى (التوبة ١٨) : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ، فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ فهؤلاء هم عمار المساجد ، ومع هذا فأهل الجهاد أرفع درجة عند الله منهم . وقال تعالى (النساء ٩٥ - ٩٦) : ﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ . فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ

بِأَمْوالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً ، وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً . دَرَجاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ فنفى سبحانه وتعالى التسوية بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين ، ثم أخبر عن تفضيل المجاهدين على القاعدين درجة ، ثم أخبر عن تفضيلهم عليهم درجات

وقد أشكل فهم هذه الآية على طائفة من الناس من جهة أن القاعدين الذين فضل عليهم المجاهدون بدرجات إن كانوا هم القاعدين الذين فضل عليهم أولو الضرر فيكون المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا ، وعلى هذا فما وجه استثناء أولى الضرر من القاعدين وهم لا يستوون والمجاهدون أصلا ؟ فيكون حكم المستثنى والمستثنى منه واحدا ، فهذا وجه الاشكال . ونحن نذكر ما يزيل الاشكال بحمد الله ، فاختلف القراء فى إعراب ﴿ غير ﴾ : فقرئ رفعا ونصبا وهما فى السبعة ، وقرئ بالجر فى غير السبعة وهى قراءة أبى حيوة ، فاما قراءة النصب فعلى الاستثناء لأن غيرا يعرب فى الاستثناء اعراب الاسم الواقع بعد الا وهو النصب ، هذا هو الصحيح . وقالت طائفة : إعرابها نصب على الحال ، أى لا يستوى القاعدون غير مضرورين ، أى لا يستوون فى حال صحتهم هم والمجاهدون . والاستثناء أصح ، فان « غير » لا تكاد تقع حالا فى كلامهم إلا مضافة إلى نكرة كقوله تعالى (البقرة ١٧٣ ، الانعام ١٤٥ ، النحل ١١٥) : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ ﴾ وقوله عز وجل (فى أول المائدة) : ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعامِ إِلاَّ ما يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ ﴾ وقوله ﷺ « مرحبا بالوفد غيرَ خزايا ولا ندامى » . فان أضيفت الى معرفة كانت تابعة لما قبلها ، كقوله تعالى ﴿ صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ولو قلت : مرحبا بالوفد غير الخزايا ولا الندامى ، لجررت غير ، هذا هو المعروف من كلامهم ، والكلام فى عدم تعرف غير بالاضافة وحسن وقوعها إذ ذاك حالا له مقام آخر . وأما الرفع فعلى النعت للقاعدين ، هذا هو الصحيح . وقال أبو اسحاق وغيره : هو خبر مبتدأ محذوف تقديره الذين هم غير أولى الضرر ، والذى حمله على هذا ظنه أن غيراً لا تقبل التعريف بالإضافة فلا تجرى صفة للمعرفة ، وليس مع من ادعى

ذلك حجة يعتمد عليها سوى أن غيرا توغلت فى الإبهام فلا تتعرف بما يضاف اليه .
وجواب هذا أنها إذا دخلت بين متقابلين لم يكن فيها إبهام لتعينها ما تضاف اليه . وأما
قراءة الجر ففيها وجهان أيضا أحدهما ـ وهو الصحيح ـ أنه نعت للمؤمنين ، والثانى ـ وهو
قول المبرد ـ انه بدل منه ، بناء على أنه نكرة فلا تنعت به المعرفة . وعلى الأقوال كلها
فهو مفهوم معنى الاستثناء ، وان نفى التسوية غير مسلط على ما أضيف اليه غيره ، وقوله
(النساء ٩٥) : ﴿ فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ ... عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً ﴾ هو مبين لمعنى نفى
المساواة ، قالوا : والمعنى فضل الله المجاهد على القاعد من أولى الضرر درجة واحدة
لامتيازه عنه بالجهاد بنفسه وماله . ثم أخبر سبحانه وتعالى أن الفريقين كليهما موعود
بالحسنى فقال ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى ﴾ أى المجاهد والقاعد المضرور ، لاشتراكهما
فى الايمان . قالوا : وفى هذا دليل على تفضيل الغنى المنفق على الفقير ، لأن الله أخبر أنه
المجاهد بماله ونفسه أفضل من القاعد ، وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ، وأما الفقير
فنفى عنه الحرج بقوله (التوبة ٩٢) : ﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهم قُلتَ لا
أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْه ﴾ فأين مقام من حكم له بالتفضيل الى مقام من نفى عنه الحرج ،
قالوا : فهذا حكم القاعد من أولى الضرر والمجاهد ، وأما القاعد من غير أولى الضرر فقال
تعالى (النساء ٩٥ – ٩٦) : ﴿ وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً . دَرَجاتٍ
مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ وقوله ﴿ درجات ﴾ قيل : هو نصب على
البدل من قوله ﴿ أجرا عظيما ﴾ ، وقيل : تأكيد له وان كان بغير لفظه ، لأنه هو فى المعنى ،
قال قتادة : كان يقال : الاسلام درجة ، والهجرة فى الاسلام درجة ، والجهاد فى الهجرة
درجة ، والقتل فى الجهاد درجة . وقال ابن زيد : الدرجات التى فضل الله بها المجاهد
على القاعد سبع ، وهى التى ذكرها الله تعالى فى براءة (١٢٠) اذ يقول تعالى ﴿ ذٰلِكَ
بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ
الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ ، إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِين ﴾ فهذه خمس ، ثم قال (١٢١) : ﴿ وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً
وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ ﴾ به عمل صالح ، فهاتان اثنتان . وقيل : الدرجات

سبعون درجة ما بين الدرجتين حُضر الفرس الجواد المضمر سبعين سنة . والصحيح أن الدرجات هى المذكورة فى حديث أبى هريرة الذى رواه البخارى فى صحيحه عن النبى ﷺ أنه قال : « من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان فان حقا على الله أن يدخله الجنة ، هاجر فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها » قالوا : يا رسول الله ، أفلا نخبر الناس بذلك ؟ قال « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله ، كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر أنهار الجنة » قالوا : وجعل سبحانه وتعالى التفضيل الأول بدرجة فقط ، وجعله ههنا بدرجات ومغفرة ورحمة ، وهذا يدل على أنه يفضل على غير أولى الضرر ، فهذا تقرير هذا القول وإيضاحه

ولكن بقى أن يقال : إذا كان المجاهدون أفضل من القاعدين مطلقا لزم أن لا يستوى مجاهد وقاعد مطلقا ، فلا يبقى فى تقييد القاعدين بكونهم من غير أولى الضرر فائدة ، فانه لا يستوى المجاهدون والقاعدون من أولى الضرر أيضا . وأيضا فان القاعدين المذكورين فى الآية الذين وقع التفضيل عليهم هم غير أولى الضرر ، لا القاعدون الذين هم أولو الضرر . فانهم لم يذكر حكمهم فى الآية ، بل استثناهم وبين أن التفضيل على غيرهم ، فاللام فى « القاعدين » للعهد ، والمعهود هم غير أولى الضرر لا المضرورون . وأيضا فالقاعد من المجاهدين لضرورة تمنعه من الجهاد له مثل أجر المجاهد ، كما ثبت عن النبى ﷺ أنه قال « إذا مرض العبد أو سافر كتب له من العمل ما كان يعمل صحيحا مقيما » وقال ﷺ « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً الا وهم معكم » قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال « وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » . وعلى هذا فالصواب أن يقال : الآية دلت على أن القاعدين عن الجهاد من غير أولى الضرر لا يستوون هم والمجاهدون ، وسكت عن حكمهم بطريق منطوقها ، ولا يدل مفهومها على مساواتهم للمجاهدين ، بل هذا النوع منقسم الى معذور من أهل الجهاد غلبه عذره وأقعده عنه ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها ، وإنما أقعده العجز ، فهذا الذى تقتضيه أدلة الشرع أن له مثل أجر المجاهد . وهذا القسم لا يتناوله الحكم بنفى التسوية ، وهذا لأن

قاعدة الشريعة أن العزم التام إذا اقترن به ما يمكن من الفعل أو مقدمات الفعل نزل صاحبه فى الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام كما دل عليه قوله ﷺ « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار » . قالوا : هذا القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال « إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » . وفى الترمذى ومسند الامام أحمد من حديث أبى كبشة الأنمارى عن النبى ﷺ أنه قال « انما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا وعلماً ، فهو يتقى فى ماله ربه ويصل به رحمه ، ويعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأحسن المنازل . وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا ، فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان ، فهو بنيته ، وهما فى الأجر سواء . وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً ، فهو لا يتقى فى ماله ربه ، ولا يصل به رحمه ، ولا يعلم لله فيه حقاً ، فهذا بأسوأ المنازل عند الله . وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان ، فهو بنيته ، وهما فى الوزر سواء » . فاخبر ﷺ أن وزر الفاعل والناوى الذى ليس مقدوره إلا بقوله دون فعله سواء ، لأنه أتى بالنية ومقدوره التام . وكذلك أجر الفاعل والناوى الذى اقترن قوله بنيته . وكذلك المقتول الذى اقترن قوله بنيته . وكذلك المقتول الذى سل السيف وأراد به قتل أخيه المسلم فقتل ، نزل منزلة القاتل لنيته التامة التى اقترن بها مقدورها من السعى والحركة . ومثل هذا قوله ﷺ « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » فانه بدلالته و نيته نزل منزلة الفاعل . ومثله « من دعا إلى هدى فله مثل أجور من اتبعه » ومن دعا الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل آثام من اتبعه لأجل نيته واقتران مقدورها بها من الدعوة ، ومثله « إذ جاء المصلى إلى المسجد ليصلى جماعة فأدركهم وقد صلوا فصلى وحده كتب له مثل أجر صلاة الجماعة بنيته وسعيه » كما قد جاء مصرحا به فى حديث مروى ، ومثل هذا من كان له ورد يصليه من الليل فنام ومن نيته أن يقوم اليه فغلب عينه نوم كتب له أجر ورده ، وكان نومه عليه صدقة ، ومثله المريض والمسافر إذا كان له عمل يعمله فشغل عنه بالمرض والسفر كتب له مثل عمله وهو صحيح مقيم ، ومثله « من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله سبحانه وتعالى منازل الشهداء ولو مات على فراشه » ، ونظائر ذلك كثيرة . والقسم الثانى معذور ليس من نيته الجهاد ولا هو عازم عليه عزما تاما ، فهذا لا يستوى هو والمجاهد فى سبيل الله ، بل قد فضل الله المجاهدين

عليه وإن كان معذوراً لأنه لا نية له تلحقه بالفاعل التام كنية أصحاب القسم الأول ، وقد قال النبي ﷺ فى حديث عثمان بن مظعون « ان الله قد أوقع أجره على قدر نيته » فلما كان القسم المعذور فيه هذا التفصيل لم يجز أن يساوى بالمجاهد مطلقا ، ولا ينفى عنه المساواة مطلقا ، ودلالة المفهوم لا عموم لها ، فان العموم إنما هو من أحكام الصيغ العامة وعوارض الألفاظ ، والدليل الموجب للقول بالمفهوم لا يدل على أن له عموما يجب اعتباره ، فان أدلة المفهوم ترجع الى شيئين : أحدهما التخصيص ، والآخر التعليل . فاما التخصيص فهو أن تخصيص الحكم بالمذكور يقتضى نفى الحكم عما عداه وإلا بطلت فائدة التخصيص ، وهذا لا يقتضى العموم وسلب حكم المنطوق عن جميع صور المفهوم ، لأن فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم الى ما يسلب الحكم عن بعضها ويثبت لبعضها ثبوت تفصيل فيه ، فيثبت له حكم المنطوق على وجه دون وجه ، إما بشرط لا تجب مراعاته فى المنطوق ، وإما فى وقت دون وقت . بخلاف حكم المنطوق فانه ثابت أبداً . ونحو ذلك من فوائد التخصيص . واذا كانت فائدة التخصيص حاصلة بالتفصيل والانقسام فدعوى لزوم العموم من التخصيص دعوى باطلة فاثباته بمجرد التحكم ، وأما التعليل فانهم قالوا : ترتيب الحكم على هذا الوصف المناسب له يقتضى نفى الحكم عما عداه وإلا لم يكن الوصف المذكور علة . وهذا أيضا لا يستلزم عموم النفى عن كل ما عداه ، وإنما غايته اقتضاؤه نفى الحكم المرتب على ذلك الوصف عن الصور المنفى عنها الوصف ، وأما نفى الحكم جملة فلا يجوز ثبوته بوصف آخر . وعلة أخرى فان الحكم الواحد بالنوع يجوز تعليله بعلل مختلفة وفى الواحد بالعين كلام ليس هذا موضعه . ومثال هذا ما نحن فيه لأن قوله تعالى (النساء ٩٥) : ﴿ لا يَسْتَوِى القاعِدُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالمُجاهِدُون ﴾ لا يدل على مساواة المضرورين المجاهدين مطلقا من حيث الضرورة ، بل إن ثبتت المساواة فانها معللة بوصف آخر وهى النية الجازمة والعزم التام ، والضرر المانع من الجهاد فى ذلك الحال لا يكون مانعا من المساواة فى الأجر ، والله أعلم

والمقصود الكلام على طبقات الناس فى الآخرة . وأما النصوص والأدلة الدالة على فضل الجهاد وأهله فأكثر من أن تذكر هنا ، ولعلها أن تفرد فى كتاب على هذا

النمط إن شاء الله . فهذه الدرجات الثلاث هى درجات السبق ، أعنى درجة العلم والعدل والجهاد ، وبها سبق الصحابة وأدركوا من قبلهم وفاتوا من بعدهم واستولوا على الأمد البعيد وحازوا قصبات العلى ، وهم كانوا السبب فى وصول الاسلام الينا وفى تعليم كل خير وهدى وسبب تنال به السعادة والنجاة ، وهم أعدل الأمة فيما ولوه ، وأعظمها جهادا فى سبيل الله . والأمة فى آثار علمهم وعدلهم وجهادهم إلى يوم القيامة ، فلا ينال أحد منهم مسألة علم نافع إلا على أيديهم ومن طريقهم ينالها ، ولا يسكن بقعة من الأرض آمنا إلا بسبب جهادهم وفتوحهم ، ولا يحكم إمام ولا حاكم بعدل وهدى إلا كانوا هم السبب فى وصولهم اليه ، فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف والقلوب بالايمان وعمروا البلاد بالعدل والقلوب بالعلم والهدى ، فلهم من الأجر بقدر أجور الأمة الى يوم القيامة مضافا الى أجر أعمالهم التى اختصوا بها[1] فسبحان من يختص بفضله ورحمته من يشاء . وإنما نالوا هذا بالعلم والجهاد والحكم بالعدل ، وهذه مراتب السبق التى يهبها الله لمن يشاء من عباده

﴿ الطبقة السابعة ﴾ أهل الإيثار والصدقة والاحسان الى النـــاس بأموالهم على اختلاف حاجاتهم ومصالحهم من تفريج كرباتهم ودفع ضروراتهم وكفايتهم فى مهماتهم وهم أحد الصنفين اللذين قال النبي ﷺ فيهم « لا حسد إلا فى اثنين : رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها الناس ، ورجل آتاه الله مالا وسلطه على هلكته فى الحق» يعنى أنه لا ينبغى لأحد أن يغبط أحدا على نعمة ويتمنى مثلها ، إلا أحد هذين ، وذلك لما فيهما من منافع النفع العام والاحسان المتعدى الى الخلق ، فهذا ينفعهم بعلمه وهذا ينفعهم بماله ، والخلق كلهم عيال الله وأحبهم اليه أنفعهم لعياله . ولا ريب أن هذين الصنفين من أنفع الناس لعيال الله ، ولا يقوم أمر الناس إلا بهذين الصنفين ولا يعمر العالم إلا بهما ، قال تعالى (البقرة ٢٦٢) : الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ

(١) ولا ينكر ذلك عليهم إلا طائفة حاربت الاسلام بالسيف وهى على المجوسية فنصر الله الاسلام عليها ، فتظاهرت بالانتساب اليه لتخونه فى داخل حصونه ، فلم تجد سبيلا لخيانته إلا بانكار السابقة والفضل على الذين حملوا عبء الاسلام وكانت لهم الفضائل التى سرد الامام ابن القيم بعضها

يَحْزَنُون ﴾ وقال تعالى (البقرة ٢٧٤) : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِراً وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ وقال تعالى (الحديد ١٨) : ﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيم ﴾ وقال تعالى (البقرة ٢٤٥) : ﴿ مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾ وقال تعالى (الحديد ١١) : ﴿ مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيم ﴾ فصدَّر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب ، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب ، وهو أبلغ فى الطلب من صيغة الأمر ، والمعنى : هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافا مضاعفة ؟ وسمى ذلك الإنفاق قرضا حسنا حثا للنفوس وبعثا لها على البذل ، لأن الباذل متى علم أن عين ماله يعود اليه ولا بد طوَّعت له نفسه بذله ، وسهل عليه إخراجه . فان علم أن المستقرض ملىّ وفىّ محسن كان أبلغ فى طيب قلبه وسماحة نفسه ، فان علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح ، فان علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم فانه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة فى نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان ، وذلك من ضعف إيمانه ، ولهذا كانت الصدقة برهانا لصاحبها . وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التى تضمنتها الآية ، فانه سماه قرضا ، وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة ولـكن قرض إحسان الى المقرض واستدعاء لمعاملته ، وليعرف مقدار الربح فهو الذى أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به . ثم أخبر عما يرجع اليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة ، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم . وحيث جاء هـــذا القرض فى القرآن قيده بكونه حسنا ، وذلك يجمع أمورا ثلاثة : أحدها أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه . الثانى : أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله . الثالث : أن لا يمن به ولا يؤذى . فالاول يتعلق بالمال ، والثانى يتعلق بالمنفق بينه وبين الله ، والثالث بينه وبين الآخذ . وقال تعالى (البقرة

٢٦١) : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاء وَاللهُ واسِعٌ عَلِيم ﴾ وهذه الآية كأنها كالتفسير والبيان لمقدار الأضعاف التى يضاعفها للقرض ، ومثل سبحانه بهذا المثل إحضارا لصورة التضعيف فى الأذهان بهذه الحبة التى غيبت فى الارض فأنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، حتى كأن القلب ينظر الى هذا التضعيف ببصيرته كما تنظر العين الى هذه السنابل التى من الحبة الواحدة فينضاف الشاهد العيانى الى الشاهد الايمانى القرآنى فيقوى إيمان المنفق وتسخو نفسه بالانفاق . وتأمل كيف جمع السنبلة فى هذه الآية على سنابل وهى من جموع الكثرة ، اذ المقام مقام تكثير وتضعيف ، وجمعها على سنبلات فى قوله تعالى (يوسف ٤٣) : ﴿ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابسات ﴾ فجاء بها على جمع القلة لأن السبعة قليلة ولا مقتضى للتكثير . وقوله تعالى (البقرة ٢٦١) ﴿ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاء ﴾ قيل : المعنى والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء لا لكل منفق بل يختص برحمته من يشاء ، وذلك لتفاوت أحوال الإنفاق فى نفسه ، ولصفات المنفق وأحواله فى شدة الحاجة وعظيم النفع وحسن الموقع . وقيل : والله يضاعف لمن يشاء فوق ذلك فلا يقتصر به على السبعمائة بل يجاوز فى المضاعفة هذا المقدار الى أضعاف كثيرة . واختلف فى تفسير الآية فقيل : مثل نفقة الذين ينفقون فى سبيل الله كمثل حبة . وقيل : مثل الذين ينفقون فى سبيل الله كمثل باذر حبة ، ليطابق الممثل للممثل به . فههنا أربعة أمور : منفق ، ونفقة ، وباذر ، وبذر . فذكر سبحانه من كل شق أهم قسميه ، فذكر من شق الممثل المنفق إذ المقصود ذكر حاله وشأنه ، وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها . وذكر من شق الممثل به البذر إذ هو المحل الذى حصلت فيه المضاعفة ، وترك ذكر الباذر لأن القرض لا يتعلق بذكره . فتأمل هذه البلاغة والفصاحة والايجاز المتضمن لغاية البيان . وهذا كثير فى أمثال القرآن ، بل عامتها ترد على هذا النمط . ثم ختم الآية باسمين من أسمائه الحسنى مطابقين لسياقها ، وهما الواسع العليم ، فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها عطنه ، فان المضاعف واسع العطاء واسع الغنى واسع الفضل ، ومع ذلك فلا يظن أن سعة عطائه تقتضى حصولها لكل منفق فانه عليم بمن تصلح له هذه المضاعفة وهو أهل لها ، ومن لا يستحقها ولا

هو أهل لها ، فان كرمه وفضله تعالى لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه لسعته ورحمته ، ويمنعه من ليس من أهله بحكمته وعلمه . ثم قال تعالى (البقرة ٢٦٢) : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا بيان للقرض الحسن ما هو ؟ وهو أن يكون فى سبيله أى فى مرضاته والطريق الموصلة اليه ، ومن أنفعها سبيل الجهاد . وسبيل الله خاص وعام ، والخاص جزء من السبيل العام . وأن لا يتبع صدقته بمن ولا أذى ، فالمن نوعان : أحدهما منّ بقلبه من غير أن يصرح به بلسانه ، وهذا إن لم يبطل الصدقة فهو من نقصان شهود منة الله عليه فى إعطائه المال وحرمان غيره ، وتوفيقه للبذل ومنع غيره منه ، فلله المنة عليه من كل وجه ، فكيف يشهد قلبه منة لغيره ؟ والنوع الثانى أن يمن عليه بلسانه فيعتدى على من أحسن اليه باحسانه ويريه أنه اصطنعه وأنه أوجب عليه حقا وطوقه منة فى عنقه فيقول : أما أعطيتك كذا وكذا ؟ ويعدد أياديه عنده . قال سفيان : يقول أعطيتك فما شكرت . وقال عبد الرحمن بن زياد كان أبى يقول : إذا أعطيت رجلا شيئا ورأيت أن سلامك يثقل عليه فكف سلامك عنه . وكانوا يقولون : إذا اصطنعتم صنيعة فانسوها ، وإذا أسديت إليكم صنيعة فلا تنسوها وفى ذلك قيل :

وإن امرءا أهدى الى صنيعة وذكرنيها مرة لبخيل

وقيل : صنوان من منح سائله ومنّ ، ومن منع نائله وضن . وحظر الله على عباده المن بالصنيعة واختص به صفة لنفسه ، لأن منّ العباد تكدير وتعيير ، ومنّ الله سبحانه وتعالى إفضال وتذكير . وأيضا فانه هو المنعم فى نفس الأمر والعباد وسائط ، فهو المنعم على عبده فى الحقيقة . وأيضا فالامتنان استعباد وكسر وإذلال لمن يمن عليه ، ولا تصلح العبودية والذل إلا لله . وأيضا فالمنة أن يشهد المعطى أنه هو رب الفضل والانعام وانه ولى النعمة ومسديها ، وليس ذلك فى الحقيقة إلا الله . وأيضا فالمان بعطائه يشهد نفسه مترفعا على الآخذ مستعليا عليه غنيا عنه عزيزاً ، ويشهد ذل الآخذ وحاجته اليه وفاقته ، ولا ينبغى ذلك للعبد . وأيضا فان المعطى قد تولى الله ثوابه ورد عليه أضعاف ما أعطى فبقى عوض ما أعطى عند الله . فأى حق بقى له قبل الآخذ ؟ فاذا امتن عليه فقد

ظلمه ظلما بينا ، وادعى أن حقه فى قلبه . ومن هنا ـ والله أعلم ـ بطلت صدقته بالمن ، فانه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله ، وعوض تلك الصدقة عنده ، فلم يرض به ولاحظ العوض من الآخذ والمعاملة عنده فمنّ عليه بما أعطاه ، أبطل معاوضته مع الله ومعاملته له . فتأمل هذه النصائح من الله لعباده ، ودلالته على ربوبيته وإلهيته وحده ، وأنه يبطل عمل من نازعه فى شىء من ربوبيته وإلهيته ، لا إله غيره ولا رب سواه .

ونبه بقوله ﴿ ثُمَّ لا يُتبِعُونَ ما أَنفَقُوا مَنّاً وَلا أَذًى ﴾ على أن المنّ والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ضر بصاحبه ، ولم يحصل له مقصود الإنفاق . ولو أتى بالواو وقال : ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى ، لأوهمت تقييد ذلك بالحال ، واذا كان المن والأذى المتراخى مبطلا لأثر الانفاق مانعا من الثواب فالمقارن أولى وأحرى .

وتأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاء فقال ﴿ لهم أجرُهم عندَ ربِّهم ﴾ وقرنه بالفاء فى قوله تعالى (البقرة ٢٧٤) : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ فان الفاء الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشرط والجزاء وأنه مستحق بما تضمنه المبتدأ من الصلة أو الصفة ، فلما كان هنا يقتضى بيان حصر المستحق للجزاء دون غيره جرد الخبر عن الفاء ، فان المعنى أن الذى ينفق ماله لله ، ولا يمن ولا يؤذى ، هو الذى يستحق الأجر المذكور ، لا الذى ينفق لغير الله ، ويمن ويؤذى بنفقته ، فليس المقام مقام شرط وجزاء بل مقام بيان للمستحق دون غيره . وفى الآية الأخرى ذكر الانفاق بالليل والنهار سراً وعلانية ، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال فأتى بالفاء فى الخبر ليدل على أن الانفاق فى أى وقت وجد من ليل أو نهار وعلى أى حالة وجد من سر وعلانية فانه سبب للجزاء على كل حال ، فليبادر اليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله ، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر الى النهار ولا نفقة النهار الى الليل ، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر ولا بنفقة السر وقت العلانية ، فان نفقته فى أى وقت وعلى أى حال وجدت سبب لاجره وثوابه . فتدبر هذه الأسرار فى القرآن فلعلك لا تظفر بها تمر بك فى التفاسير ، والمنة والفضل لله وحده لا شريك له

ثم قال تعالى (البقرة ٢٦٣) : ﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذًى

وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيم ﴾ فأخبر أن القول المعروف وهو الذى تعرفه القلوب ولا تنكره ، والمغفرة وهى العفو عمن أساء اليك خير من الصدقة بالأذى . فالقول المعروف إحسان وصدقة بالقول ، والمغفرة إحسان بترك المؤاخذة والمقابلة ، فهما نوعان من أنواع الاحسان ، والصدقة المقرونة بالأذى حسنة مقرونة بما يبطلها . ولا ريب أن حسنتين خير من حسنة باطلة . ويدخل فى المغفرة مغفرته للسائل إذا وجد منه بعض الجفوة والأذى له بسبب رده ، فيكون عفوه عنه خيراً من أن يتصدق عليه ويؤذيه . هذا على المشهور من القولين فى الآية ، والقول الثانى : أن المغفرة من الله ، أى مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرد الجميل خير من صدقة يتبعها أذى . وفيها قول ثالث أى مغفرة وعفو من السائل إذا رد وتعذر المسئول خير من أن ينال بنفسه صدقة يتبعها أذى . وأوضح الأقوال هو الأول ، ويليه الثانى ، والثالث ضعيف جداً لان الخطاب إنما هو للمنفق المسئول لا للسائل الآخذ . والمعنى أن قول المعروف له والتجاوز والعفو خير لك من أن تتصدق عليه وتؤذيه . ثم ختم الآية بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال ﴿ وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيم ﴾ ، وفيه معنيان : أحدهما أن الله غنى عنكم لن يناله شىء من صدقاتكم ، وإنما الحظ الأوفر لكم فى الصدقة فنفعها عائد عليكم لا إليه سبحانه وتعالى ، فكيف يمنّ بنفقته ويؤذى مع غنى الله التام عنها وعن كل ما سواه ، ومع هذا فهو حليم إذ لم يعاجل المانّ بالعقوبة . وفى ضمن هذا الوعيد والتحذير . والمعنى الثانى : أنه سبحانه وتعالى مع غناه التام من كل وجه فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح ، مع عطائه الواسع وصدقاته العميمة ، فكيف يؤذى أحدكم بمنه وأذاه ، مع قلة ما يعطى ونزارته وفقره . ثم قال الله تعالى (البقرة ٢٦٤) : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ ﴾ تضمنت هذه الآية الإخبار بأن المن والأذى يحبط الصدقة ، وهذا دليل على أن الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى (الحجرات ٢) : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُون ﴾ وقد تقدم الكلام على هذه المسألة فى أول هـذه الرسالة فلا حاجة الى إعادته . وقد يقال : إن المن والأذى المقارن للصدقة هو الذى يبطلها دون ما يلحقها بعدها ، إلا أنه ليس فى اللفظ ما يدل على هذا التقييد ، والسياق يدل على إبطالها به مطلقا . وقد يقال : تمثيله بالمرائى الذى لا يؤمن بالله واليوم الآخر يدل على أن المن والأذى المبطل هو المقارن كالرياء وعدم الإيمان ، فان الرياء لو تأخر عن العمل لم يبطله . ويجاب عن هذا بجوابين : أحدهما أن التشبيه وقع فى الحال التى يحبط بها العمل ، وهى حال المرائى والمانّ المؤذى فى أن كل واحد منهما يحبط العمل . الثانى أن الرياء لا يكون إلا مقارنا للعمل ، لأنه « فِعال » من الرؤية التى صاحبها يعمل ليرى الناس عمله فلا يكون متراخيا ، وهذا بخلاف المن والأذى فانه يكون مقارنا ومتراخيا ، وتراخيه أكثر من مقارنته . وقوله ﴿ كالذى ينفق ﴾ إما أن يكون المعنى كابطال الذى ينفق فيكون قد شبه الإبطال بالابطال ، أو المعنى لا تكونوا كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، فيكون تشبيها للمنفق بالمنفق . وقوله ﴿ فمثله ﴾ أى مثل هذا المنفق الذى قد بطل ثواب نفقته ﴿ كمثل صفوان ﴾ وهو الحجر الأملس ، وفيه قولان : أحدهما أنه واحد ، والثانى جمع صفوة ﴿ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ ﴾ وهو المطر الشديد ﴿ فتركه صلدا ﴾ وهو الأملس الذى لا شىء عليه من نبات ولا غيره ، وهذا من أبلغ الأمثال وأحسنها ، فانه يتضمن تشبيه قلب هذا المنفق المرائى ـ الذى لم يصدر إنفاقه عن إيمان بالله واليوم الآخر ـ بالحجر لشدته وصلابته وعدم الانتفاع به . وتضمن تشبيه ما علق به من أثر الصدقة بالغبار الذى علق بذلك الحجر ، والوابل الذى أزال ذلك التراب عن الحجر فأذهبه بالمانع الذى أبطل صدقته وأزالها كما يذهب الوابل التراب الذى على الحجر فيتركه صلدا فلا يقدر المنفق على شىء من ثوابه لبطلانه وزواله . وفيه معنى آخر وهو أن المنفق لغير الله هو فى الظاهر عامل عملا يرتب عليه الأجر ويزكو له كما تزكو الحبة التى اذا بذرت فى التراب الطيب أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، ولكن وراء هذا الانفاق مانع يمنع من نموه وزكائه كما أن تحت التراب حجرا يمنع من نبات ما يبذر من الحب فيه فلا ينبت ولا يخرج شيئا

ثم قال (البقرة ٢٦٥) : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُون أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً

مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ هذا مثل الذى مصدر نفقته عن الاخلاص والصدق ، فان ابتغاء مرضاته سبحانه هو الاخلاص ، والتثبيت من النفس هو الصدق فى البذل ، فان المنفق يعترضه عند إنفاقه آفتان إن نجا منهما كان مثله ما ذكره فى هـــذه الآية : إحداهما طلبه بنفقته محمدة أو ثناء أو غرضا من أغراضه الدنيوية ، وهذا حال أكثر المنفقين . والآفة الثانية ضعف نفسه وتقاعسها وترددها : هل يفعل ، أم لا ؟ فالآفة الأولى تزول بابتغاء مرضاة الله ، والآفة الثانية تزول بالتثبيت فان تثبيت النفس تشجيعها وتقويتها والاقدام بها على البذل . وهذا هو صدقها . وطلب مرضاة الله إرادة وجهه وحده وهذا إخلاصها . فاذا كان مصدر الإنفاق عن ذلك كان مثله كجنة ـ وهى البستان الكثير الأشجار ـ فهو مجتنّ بها أى مستتر ليس قاعا فارغا . والجنة بربوة ـ وهو المكان المرتفع ـ فانها أكمل من الجنة التى بالوهاد والحضيض ، لأنها اذا ارتفعت كانت بمدرجة الأهوية والرياح ، وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوائها وغروبها ، فكانت أنضج ثمرا وأطيبه وأحسنه وأكثره ، فان الثمار تزداد طيبا وزكاء بالرياح والشمس ، بخلاف الثمار التى تنشأ فى الظلال . وإذا كانت الجنة بمكان مرتفع لم يخش عليها إلا من قلة الماء والشراب فقال تعالى (البقرة ٢٦٥) : ﴿ أَصَابَهَا وَابِلٌ ﴾ وهو المطر الشديد العظيم القدر فأدت ثمرتها وأعطت بركتها فأخرجت ثمرتها ضعفى ما يثمر غيرها أو ضعفى ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل ، فهذا حال السابقين المقربين . ﴿ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ﴾ فهو دون الوابل ، فهو يكفيها لكرم منبتها وطيب مغرسها فتكتفى فى إخراج بركتها بالطل ، وهذا حال الأبرار المقتصدين فى النفقة ، وهم درجات عند الله ، فأصحاب الوابل أعلاهم درجة ، وهم الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . وأصحاب الطل مقتصدوهم . فمثّل حال القسمين وأعمالهم بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة بالوابل والطل ، وكما أن كل واحـــد من المطرين يوجب زكاء ثمر الجنة ونحوه بالأضعاف فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن صدرت عن ابتغاء مرضاة الله والتثبيت من نفوسهم ، فهى زاكية عند الله نامية مضاعفة

واختلف فى الضعفين ، فقيل : ضعفا الشيء مثلاه زائداً عليه ، وضعفه مثله ، وقيل :

ضعفه مثلاه وضعفاه ثلاثة أمثاله، وثلاثة أضعافه أربعة أمثاله كلما زاد ضعفا زاد مثلا. والذى حمل هـذا القائل على ذلك فراره من استواء دلالة المفرد والتثنية ، فانه رأى ضعف الشيء هو مثله الزائد عليه فاذا زاد الى المثل صار مثلين ، وهما الضعف . فلو قيل : لها ضعفان لم يكن فرق بين المفرد والمثنى ، فالضعفان عنده مثلان مضافان الى الأصل، ويلزم من هذا أن يكون ثلاثة أضعافه ثلاثة أمثال مضافة إلى الأصل، وهكذا أبداً . والصواب أن الضعفين هما المثلان فقط : الأصل ومثله . وعليه يدل قوله تعالى (البقرة ٢٦٥) : ﴿ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾ أى مثلين ، وقوله تعالى (الأحزاب ٣٠) ﴿ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ أى مثلين ، ولهذا قال فى الحسنات (الأحزاب ٣١) ﴿ نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ ﴾ وأما ما توهموه من استواء دلالة المفرد والتثنية فوهم منشأه ظن أن الضعف هو المثل مع الأصل، وليس كذلك، بل المثل له اعتباران : إن اعتبر وحده فهو ضعف ، وان اعتبر مع نظيره فهما ضعفان . والله أعلم . واختلف فى رافع قوله ﴿ فطل ﴾ فقيل : هو مبتدأ خبره محذوف أى وطله يكفيها ، وقيل : خبر مبتدأه محذوف ، فالذى يُرويها ويصيبها طل . والضمير فى ﴿ أصابها ﴾ إما أن يرجع الى الجنة أو إلى الربوة وهما متلازمان . ثم قال تعالى (البقرة ٢٦٦) : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِها الْأَنْهارُ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفاءُ فَأَصابَها إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ قال الحسن : هذا مثلٌ قلَّ والله من يعقله من الناس ، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان الى جنته ، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون الى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا . وفى صحيح البخارى عن عبيد بن عمير قال : سأل عمر يوما أصحاب النبى ﷺ : فيم هم يرون هـــذه الآية نزلت ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ ﴾ الآية ؟ قالوا : الله أعلم . فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أو لا نعلم ، فقال ابن عباس : فى نفسى منها شيء يا أمير المؤمنين . فقال عمر : قل يا ابن أخى ولا تحقر بنفسك . قال ابن عباس : ضربت مثلا لعمل . قال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس : لعمل . قال عمر : لرجل عمل بطاعة الله ، ثم بعث الله له

الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله . فقوله تعالى ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴾ أخرجه مخرج الاستفهام الانكارى ، وهو أبلغ من النفى والنهى وألطف موقعا ، كما ترى غيرك يفعل فعلا قبيحا فتقول : لا يفعل هذا عاقل ، لا يفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة وقال تعالى ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ ﴾ بلفظ الواحد لتضمنه معنى الانكار العام ، كما تقول أيفعل هذا أحد فيه خير ؟ وهو أبلغ فى الانكار من أن يقول أيودون . وقوله ﴿ أيود ﴾ أبلغ فى الإنكار من لو قيل : أيريد ، لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها أقبح وأنكر من مجرد ارادتها . وقوله تعالى ﴿ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ﴾ خص هذين النوعين من الثمار بالذكر لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعا ، فان منهما القوت والغذاء والدواء والشراب والفاكهة والحلو والحامض ، ويؤكلان رطبا ويابسا ، ومنافعهما كثيرة جدا . وقد اختلف فى الأنفع والأفضل منهما فرجحت طائفة النخيل ، ورجحت طائفة العنب ، وذكرت كل طائفة حججا لقولها فذكرناها فى غير هذا الموضع[1] . وفصل الخطاب أن هذا يختلف باختلاف البلاد ، فان الله سبحانه وتعالى أجرى العادة بأن سلطان أحدهما لا يحل حيث يحل سلطان الآخر ، فالأرض التى يكون فيها سلطان النخيل لا يكون العنب بها طائلا ولا كثيراً ، لأنه إنما يخرج فى الأرض الرخوة اللينة المعتدلة غير السبخة فينمو فيها فيكثر ، وأما النخيل فنموه وكثرته فى الأرض الحارة السبخة ، وهى لا تناسب العنب ، فالنخل فى أرضه وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها ، والعنب فى أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها . والله أعلم . والمقصود أن هذين النوعين هما أفضل أنواع الثمار وأكرمها ، فالجنة المشتملة عليهما من أفضل الجنان ، ومع هذا فالأنهار تجرى تحت هذه الجنة ، وذلك أكمل لها وأعظم فى قدرها ، ومع ذلك فلم تعدم شيئا من أنواع الثمار المشتهاة بل فيها من كل الثمرات ، ولكن معظمها ومقصودها النخيل والأعناب ، فلا تنافى بين كونها من نخيل وأعناب و ﴿ فِيها مِن كُلِّ الثَّمَرات ﴾ . ونظير هذا قوله تعالى (الكهف ٣٢-٣٣) : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما

---

(١) فى كتاب (مفتاح دار السعادة)

زَرْعاً ﴾ الى قوله تعالى ﴿ وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ وقد قيل : إن الثمار هنا وفى آية البقرة (٢٦٦) المراد بها المنافع والأموال ، والسياق يدل على أنها الثمار المعروفة لا غيرها ، لقوله هنا ﴿ لَهُ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ﴾ ثم قال تعالى ﴿ فَأَصابَها ﴾ أى الجنة ﴿ إِعْصارٌ فِيهِ نارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾ وفى الكهف (٤٢) : ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِها ﴾ وما ذلك إلا ثمار الجنة. ثم قال تعالى ﴿ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ ﴾ هذا إشارة الى شدة حاجته الى جنته ، وتعلق قلبه بها من وجوه : أحدها أنه قد كبر سنه عن الكسب والتجارة ونحوها ، الثانى أن ابن آدم عند كبر سنه يشتد حرصه ، الثالث أن له ذرية فهو حريص على بقاء جنته لحاجته وحاجة ذريته ، الرابع أنهم ضعفاء فهم كل عليه لا ينفعونه بقوتهم وتصرفهم ، الخامس أن نفقتهم عليه ، لضعفهم وعجزهم ، وهذا نهاية ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة : لخطرها فى نفسها ، وشدة حاجته وذريته اليها . فاذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة فكيف تكون مصيبة هذا الرجل إذا أصاب جنته إعصار ـ وهى الريح التى تستدير فى الأرض ثم ترتفع فى طبقات الجو كالعمود ـ وفيه نار مرت بتلك الجنة فأحرقتها وصيرتها رماداً ، فصدق والله الحسن ـ هذا مثل قلَّ من يعقله من الناس ـ ولهذا نبه سبحانه وتعالى على عظم هذا المثل ، وحدا القلوب الى التفكر فيه لشدة حاجتها اليه فقال تعالى ﴿ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ فلو فكر العاقل فى هذا المثل وجعله قبلة قلبه لكفاه وشفاه ، فهكذا العبد اذا عمل بطاعة الله ثم أتبعها بما يبطلها ويفرقها من معاصى الله كانت كالإعصار ذى النار المحرق للجنة التى غرسها بطاعته وعمله الصالح ، ولولا أن هذه المواضع أهم مما كلامنا بصدده ـ من ذكر مجرد الطبقات ـ لم نذكرها ، ولكنها من أهم المهم ، والله المستعان الموفق لمرضاته . فلو تصور العامل بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره وتأمله كما ينبغى لما سولت له نفسه والله إحراق أعماله الصالحة وإضاعتها ، ولكن لا بد أن يغيب عنه علمه عند المعصية ولهذا استحق اسم الجهل ، فكل من عصى الله فهو جاهل

فان قيل : الواو فى قوله تعالى ﴿ وَأَصابَهُ الْكِبَرُ ﴾ واو الحال ، أم واو العطف ؟

وإذا كانت للعطف فعلام عطفت ما بعدها ؟ قلت فيه وجهان : أحدهما أنه واو الحال اختاره الزمخشرى ، والمعنى : أيود أحدكم أن تكون له جنة شأنها كذا وكذا فى حال كبره وضعف ذريته . والثانى أن تكون للعطف على المعنى ، فان فعل التمنى وهو قوله ﴿ أيود أحدكم ﴾ لطلب الماضى كثيرا ، فكان المعنى : أيود لو كانت له جنة من نخيل وأعناب وأصابه الكبر فجرى عليها ما ذكر . وتأمل كيف ضرب سبحانه المثل للمنفق المرائى ـ الذى لم يصدر إنفاقه عن الإيمان ـ بالصفوان الذى عليه التراب ، فانه لم ينبت شيئا أصلا ، بل ذهب بذره ضائعا ، لعدم إيمانه وإخلاصه . ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصا بنيته لله ثم عرض له ما أبطل ثوابه بالجنة التى هى من أحسن الجنان وأطيبها وأزهرها ، ثم سلط عليها الإعصار النارى فأحرقها ، فان هذا نبت له شىء وأثمر له عمله ثم احترق ، والاول لم يحصل له شىء يدركه الحريق . فتبارك من جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء للصدور وهدى ورحمة . ثم قال (البقرة ٢٦٧) : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ أضاف سبحانه الكسب اليهم وان كان هو الخالق لأفعالهم ، لأنه فعلهم القائم بهم ، وأسند الإخراج اليه لأنه ليس فعلا لهم ، ولا هو مقدور لهم ، فأضاف مقدورهم اليهم وأضاف مفعوله الذى لا قدرة لهم عليه اليه ، ففى ضمنه الرد على من سوّى بين النوعين وسلب قدرة العبد وفعله وتأثيره عنها بالكلية ، وخص سبحانه هذين النوعين ـ وهما الخارج من الأرض والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما من المواشى ـ إما بحسب الواقع فانهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك ، فان المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب ، والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع ، فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم إلى بيان حكمهما وعموم وجودهما ، وإما لأنهما أصول الأموال وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأ ، فان الكسب تدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والامتعة وسائر ما تتعلق به التجارة ، والخارج من الأرض يتناول حبها وثمارها وركازها ومعدنها ، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الارض فكان ذكرهما أهم ، ثم قال ﴿ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ فنهى سبحانه عن قصد إخراج الردىء كما هو عادة أكثر

النفوس : تمسك الجيد لها ، وتخرج الردىء للفقير . ونهيه سبحانه عن قصد ذلك وتيممه فيه ما يشبه العذر لمن فعل ذلك لا عن قصد وتيمم بل عن اتفاق ، إذا كان هو الحاضر اذ ذاك أو كان ماله من جنسه ، فان هذا لم يتيمم الخبيث بل تيمم إخراج بعض ما منّ الله عليه ، وموقع قوله ﴿ منهُ تُنْفِقُون ﴾ موقع الحال ، أى لا تقصدوه منفقين منه . ثم قال ﴿ وَلَسْتُمْ بآخِذِيه إلاَّ أنْ تُغمِضُوا فِيه ﴾ أى لو كنتم أنتم المستحقين له وبذله لكم لم تأخذوه فى حقوقكم إلا بأن تتسامحوا فى أخذه وتترخصوا فيه ، من قولهم : أغمض فلان عن بعض حقه ، ويقال للبائع : أغمض ـ أى لا تستقص ـ كأنك لا تبصر وحقيقته من إغماض الجفن فكأن الرائى لكراهته له لا يملأ عينه منه بل يغمض من بصره ويغمض عنه بعض نظره بغضا ، ومنه قول الشاعر :

لم يفتنا بالوتر قوم وللضيـ ـم رجال يرضون بالإغماض

وفيه معنيان : أحدهما كيف تبذلون لله وتهدون له مالا ترضون ببذله لكم ولا يرضى أحدكم من صاحبه أن يهديه له ، والله أحق من يخير له خيار الأشياء وأنفسها ؟ والثانى كيف تجعلون له ما تكرهون لانفسكم وهو سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبا ؟ ثم ختم الآيتين بصفتين يقتضيهما سياقهما فقال ﴿ وَاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَنىٌّ حَميد ﴾ فغناه وحمده يأبى قبول الردىء ، فان قابل الردىء الخبيث إما أن يقبله لحاجته اليه ، وإما أن نفسه لا تأباه لعدم كمالها وشرفها ، وأما الغنى عنه الشريف القـــدر الكامل الأوصاف فانه لا يقبله . ثم قال تعالى (البقرة ٢٦٨) : ﴿ الشَّيْطانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشاء والله يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ، والله واسِعٌ عَلِيم ﴾ هـذه الآية تتضمن الحض على الإنفاق والحث عليه بأبلغ الألفاظ وأحسن المعانى ، فانها اشتملت على بيان الداعى الى البخل والداعى الى البذل والانفاق ، وبيان ما يدعوه اليه داعى البخل وما يدعو اليه داعى الانفاق وبيان ما يدعو به داعى الأمرين ، فأخبر سبحانه أن الذى يدعوهم الى البخل والشح هو الشيطان ، وأخبر أن دعوته هى بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم ، وهذا هو الداعى الغالب على الخلق ، فانه يهم بالصدقة والبذل فيجد فى قلبه داعيا يقول له : متى أخرجت هذا دعتك الحاجة اليه وافتقرت اليه بعد إخراجه ،

وإمساكه خير لك حتى لا تبقى مثل الفقير ، فغناك خير لك من غناه . فاذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهى البخل الذى هو من أقبح الفواحش . وهذا اجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا البخل . فهذا وعده وهذا أمره ، وهو الكاذب فى وعده ، الغارّ الفاجر فى أمره . فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون ، فانه يدلى من يدعوه بغروره ، ثم يورده شر الموارد . كما قال :

دلاهم بغرور ثم أوردهم   إن الخبيث لمن والاه غرّار

هذا وان وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه ، ولا محبة فى بقائه غنيا ، بل لا شىء أحب اليه من فقره وحاجته ، وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل ليسىء ظنه بربه ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه فيستوجب منه الحرمان . وأما الله سبحانه فانه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه ، وفضلا بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه إما فى الدنيا أو فى الدنيا والآخرة . فهذا وعد الله وذاك وعد الشيطان ، فلينظر البخيل والمنفق أى الوعدين هو أوثق وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه ؟ والله يوفق من يشاء ويخذل من يشاء وهو الواسع العليم . وتأمل كيف ختم هذه الآية بهذين الاسمين ، فانه واسع العطاء عليم بمن يستحق فضله ومن يستحق عدله ، فيعطى هذا بفضله ويمنع هذا بعدله وهو بكل شىء عليم . فتأمل هذه الآيات ولا تستطل بسط الكلام فيها فان لها شأنا لا يعقله إلا من عقل عن الله خطابه وفهم مراده ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (العنكبوت ٤٣) . وتأمل ختم هذه السورة التى هى سنام القرآن بأحكام الأموال وأقسام الأغنياء وأحوالهم ، وكيف قسمهم إلى ثلاثة أقسام :

[القسم الاول] محسن وهم (المتصدقون) فذكر جزاءهم ومضاعفته وما لهم فى قرض أموالهم للملىء الوفى ، ثم حذرهم مما يبطل ثواب صدقاتهم ويحرقها بعد استوائها وكمالها من المن والأذى ، وحذرهم مما يمنع ترتب أثرها عليها ابتداء من الرياء ، ثم أمرهم أن يتقربوا اليه بأطيبها ولا يتيمموا أردأها وخبيثها ، ثم حذرهم من الاستجابة لداعى البخل والفحش وأخبر أن استجابتهم لدعوته وثقتهم بوعده أولى بهم ، وأخبر أن هذا من حكمته التى يؤتيها من يشاء من عباده ، وأن من أوتيها فقد أوتى خيرا كثيرا : أوتى

ما هو خير وأفضل من الدنيا كلها ، لانه سبحانه وصف الدنيا بالقلة فقال تعالى (النساء ٧٧) : ﴿ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيل ﴾ وقال تعالى (البقرة ٢٦٩) : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ فدل على أن ما يؤتيه عبده من حكمته خير من الدنيا وما عليها ولا يعقل هذا كل أحد بل لا يعقله إلا من له لب وعقل زكى فقال تعالى ﴿ وَما يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُو الْأَلْباب ﴾ ثم أخبر أن كل ما أنفقوه من نفقة أو تقربوا به اليه من نذر فانه يعلمه ، فلا يضيع لديه ، بل يعلم ما كان لوجهه ، ويكل جزاء من عمل لغيره إلى من عمل له ، فانه ظالم لنفسه وما له من نصير . ثم أخبر سبحانه عن أحوال المتصدقين لوجهه فى صدقاتهم ، وأنه يثيبهم عليها إن أبدوها أو كتموها بعد أن تكون خالصة لوجهه فقال (البقرة ٢٧١) : ﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِي ﴾ أى فنعم شىء هى ، وهذا مدح لها موصوفة بكونها ظاهرة بادية فلا يتوهم مبديها بطلان أثره وثوابه فيمنعه ذلك من إخراجها وينتظر بها الإخفاء فتفوت أو تعترضه الموانع ويحال بينه وبين قلبه أو بينه وبين إخراجها فلا يؤخر صدقة العلانية بعد حضور وقتها الى وقت السر ، وهذه كانت حال الصحابة . ثم قال : ﴿ وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوها الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ فأخبر أن إعطاءها للفقير فى خفية خير للمنفق من إظهارها وإعلانها . وتأمل تقييده تعالى الإخفاء بإيتاء الفقراء خاصة ولم يقل : وان تخفوها فهو خير لكم ، فان من الصدقة ما لا يمكن إخفاؤه كتجهيز جيش وبناء قنطرة وإجراء نهر أو غير ذلك ، وأما إيتاؤها الفقراء ففى إخفائها من الفوائد الستر عليه وعدم تخجيله بين الناس وإقامته مقام الفضيحة وأن يرى الناس أن يده هى اليد السفلى وأنه لا شىء له فيزهدون فى معاملته ومعاوضته ، وهذا قدر زائد من الإحسان اليه بمجرد الصدقة مع تضمنه الإخلاص وعدم المراءاة وطلبهم المحمدة من الناس ، وكان اخفاؤها للفقير خيرا من إظهارها بين الناس ، ومن هذا مدح النبى ﷺ صدقة السر وأثنى على فاعلها وأخبر أنه أحد السبعة الذين هم فى ظل عرش الرحمن يوم القيامة . ولهذا جعله سبحانه خيرا للمنفق ، وأخبر أنه يكفر عنه بذلك الإنفاق من سيئاته . ولا يخفى عليه سبحانه أعمالكم ولا نياتكم . فانه بما تعملون خبير . ثم أخبر أن هذا الإنفاق إنما نفعه لأنفسهم يعود عليهم أحوج

ما كانوا اليه ، فكيف يبخل أحدكم عن نفسه بما نفعه مختص بها عائد اليها . وان نفقة المؤمنين إنما تكون ابتغاء وجهه خالصا لأنها صادرة عن إيمانهم ، وأن نفقتهم ترجع اليهم وافية كاملة ، ولا يظلم منها مثقال ذرة . وصدر هذا الكلام بأن الله هو الهادى الموفق لمعاملته وإيثار مرضاته ، وأنه ليس على رسوله هداهم ، بل عليه إبلاغهم ، وهو سبحانه الذى يوفق من يشاء لمرضاته

ثم ذكر المصرف الذى توضع فيه الصدقة فقال تعالى (البقرة ٢٧٣) : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ﴾ فوصفهم بست صفات : إحداها الفقر . الثانية حبسهم أنفسهم فى سبيله تعالى وجهاد أعدائه ونصر دينه ، وأصل الحصر المنع ، فمنعوا أنفسهم من تصرفها فى أشغال الدنيا ، وقصروها على بذلها لله وفى سبيله . الثالثة عجزهم عن الأسفار للتكسب . والضرب فى الأرض هو السفر ، قال تعالى (المزمل ٢٠) : ﴿ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُم مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللهِ ﴾ وقال تعالى (النساء ١٠١) : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾ . الرابعة شدة تعففهم ، وهو حسن صبرهم ، وإظهارهم الغنى ، يحسبهم الجاهل أغنياء من تعففهم وعدم تعرضهم وكتمانهم حاجتهم . الخامسة أنهم يعرفون بسيماهم ، وهى العلامة الدالة على حالتهم التى وصفهم الله بها ، وهذا لا ينافى حسبان الجاهل أنهم أغنياء لأن الجاهل له ظاهر الأمر ، والعارف هو المتوسم المتفرس الذى يعرف الناس بسيماهم ، فالمتوسمون خواص المؤمنين كما قال تعالى (الحجر ٧٥) : ﴿ انَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ . السادسة تركهم مسألة الناس فلا يسألونهم . والالحاف هو الالحاح ، والنفى متسلط عليهما معا ، أى لا يسألون ولا يلحفون ، فليس يقع منهم سؤال يكون بسببه إلحاف . وهذا كقوله « على لا حب لا يهتدىٰ لمناره » أى ليس فيه منار فيهتدى به . وفيه كالتنبيه على أن المذموم من السؤال هو سؤال الالحاف ، فاما السؤال بقدر الضرورة من غير إلحاف فالافضل تركه ولا يحرم . فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة ، فألغاها أكثر الناس ولحظوا منها ظاهر

الفقر وزيه من غير حقيقته ، وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها ، ومن يعرفهم أعز ، والله يختص بتوفيقه من يشاء . فهؤلاء هم المحسنون فى أموالهم

القسم الثانى (الظالمون) وهم ضد هؤلاء وهم الذين يذبحون المحتاج المضطر . فاذا دعته الحاجة اليهم لم ينفسوا كربته الا بزيادة على ما يبذلونه له وهم أهل الربا . فذكرهم تعالى بعد هذا فقال (البقرة ٢٧٨) : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ فصدَّر الآية بالأمر بتقواه المضادة للربا ، وأمر بترك ما بقى من الربا بعد نزول الآية ، وعفا لهم عما قبضوه به قبـــل التحريم ولولا ذلك لردوا ما قبضوه به قبل التحريم ، وعلق هذا الامتثال على وجود الإيمان منهم ، والمعلق على شرط منتف عند انتفائه . ثم أكد عليهم التحريم باغلظ شيء وأشده ، وهى محاربة المرابى لله ورسوله فقال تعالى (البقرة ٢٧٩) : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ففى ضمن هذا الوعيد أن المرابى محارب لله ورسوله ، قد آذنه الله بحربه ، ولم يجيء هذا الوعيد فى كبيرة سوى الربا وقطع الطريق والسعى فى الأرض بالفساد ، لأن كل واحد منهما مفسد فى الأرض ، قاطع الطريق على الناس : هـذا بقهره لهم وتسلطه عليهم ، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها . فاخبر عن قطاع الطريق بانهم يحاربون الله ورسـوله ، وآذن هؤلاء إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله . ثم قال (البقرة ٢٨٠) : ﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوالِكُمْ ﴾ يعنى إن تركتم الربا وتبتم الى الله منه وقد عاقدتم عليه فانما لـكم رءوس أموالكم : لا تزدادون عليها فتظلمون الآخذ ، ولا تنقصون منها فيظلـكم من أخذها . فان كان هذا القابض معسرا فالواجب إنظاره الى ميسرة ، وإن تصدقتم عليه وأبرأتموه فهو أفضل لـكم وخير لـكم . فان أبت نفوسكم وشحت بالعدل الواجب أو الفضل المندوب فذكروها يوما ترجعون فيه الى الله وتلقون ربكم فيوفيـكم جزاء أعمالـكم أحوج ما أنتم إليه ، فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ثم عقبه بالظالم وهو المرابى

ثم ذكر (العادل[1]) فى آية التداين فقال تعـالى (البقرة ٢٨٢) : ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ

(١) وهو القسم الثالث من أصحاب الأموال الثلاثة الذين ذكر أولهم وهم المحسنون المتصدقون فى ص ٣٧٥

آمَنُوا إذا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ ﴾ الآية ، ولولا أن هذه الآية تستدعى سِفرا وحدها لذكرت بعض تفسيرها . والغرض إنما هو التنبيه والإشارة . وقد ذكر أيضا العادل ، وهو آخذ رأس ماله من غريمه لا بزيادة ولا نقصان . ثم ختم السورة بهذه الخاتمة العظيمة التى هى من كنز تحت عرشه ، والشيطان يفر من البيت الذى تقرأ فيه ، وفيها من العلوم والمعارف وقواعد الاسلام وأصول الايمان ومقامات الاحسان ما يستدعى بيانه كتابا مفرداً . والمقصود ذكر طبقات الخلائق فى الدار الآخرة . ولنعد إلى المقصود فان هذا من سعى القلم ، ولعله أهم مما نحن بصدده : فهذه الطبقات الأربع من طبقات الأمة هم أهل الاحسان والنفع المتعدى وهم العلماء ، وأئمة العدل ، وأهل الجهاد ، وأهل الصدقة وبذل الأموال فى مرضاة الله . فهؤلاء ملوك الآخرة ، وصحائف حسناتهم متزايدة ، تملى فيها الحسنات وهم فى بطون الأرض ، ما دامت آثارهم فى الدنيا . فيالها من نعمة ما أجلها ، وكرامة ما أعظمها ، يختص الله بها من يشاء من عباده

﴿ الطبقة الثامنة ﴾ من فتح الله له بابا من أبواب الخير القاصر على نفسه كالصلاة ، والحج ، والعمرة ، وقراءة القرآن ، والصوم ، والاعتكاف ، والذكر ونحوها ، مضافا الى أداء فرائض الله عليه . فهو جاهد فى تكثير حسناته ، واملاء صحيفته ، وإذا عمل خطيئة تاب الى الله منها . فهذا على خير عظيم ، وله ثواب أمثاله من أعمال الآخرة . ولكن ليس له إلا عمله ، فاذا مات طويت صحيفته . فهذه طبقة أهل الربح والحظوة أيضا عند الله

﴿ الطبقة التاسعة ﴾ طبقة أهل النجاة ، وهى طبقة من يؤدى فرائض الله ويترك محارم الله ، مقتصراً على ذلك لا يزيد عليه ولا ينقص منه ، فلا يتعدى إلى ما حرم الله عليه ولا يزيد على ما فرض عليه . هذا من المفلحين بضمان رسول الله ﷺ لمن أخبره بشرائع الاسلام فقال : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه ، فقال ﷺ « أفلح إن صدق » وأصحاب هذه الطبقة مضمون لهم على الله تكفير سيئاتهم ، إذا أدوا فرائضه واجتنبوا كبائر ما نهاهم عنه . قال تعالى (النساء ٣١) : ﴿ إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ وصح عنه ﷺ أنه قال :

« الصلوات الخمس ورمضان الى رمضان والجمعة الى الجمعة مكفرات لما بينهن ما لم تغش كبيرة » فان غشى أهل هذه الطبقة كبيرة وتابوا منها توبة نصوحا لم يخرجوا من طبقتهم فكانوا بمنزلة من لا ذنب له. فتكفير الصغائر يقع بشيئين: أحدهما الحسنات الماحية، والثانى اجتناب الكبائر. وقد نص عليها سبحانه وتعالى فى كتابه فقال تعالى (هود ١١٤): ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ وقال تعالى (النساء ٣١): ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾

﴿ الطبقة العاشرة ﴾ طبقة قوم أسرفوا على أنفسهم، وغشوا كبائر ما نهى الله عنه، ولكن رزقهم الله التوبة النصوح قبل الموت، فماتوا على توبة صحيحة. فهؤلاء ناجون من عذاب الله، إما قطعا عند قوم، وإما رجاء وظنا عند آخرين. وهم موكولون الى المشيئة، ولكن نصوص القرآن والسنة تدل على نجاتهم وقبول توبتهم، وهو وعد وعدهم الله إياه، والله لا يخلف الميعاد. فان قيل: فما الفرق بين أهل هذه الطبقة والتى قبلها؟ فان الله اذا كفر عنهم سيئاتهم، وأثبت لهم بكل سيئة حسنة كانوا كمن قبلهم أو أرجح؟ قيل: قد تقدم الكلام على هذه المسألة بما فيه كفاية [1] فعليك بمعاودته هناك. وكيف يستوى عند الله من أنفق عمره فى طاعته ولم يغش كبيرة، ومن لم يدع كبيرة إلا ارتكبها، وفرط فى أوامره، ثم تاب؟ فهذا غايته أن تمحى سيئاته، ويكون لا له ولا عليه. وأما أن يكون هو ومن قبله سواء أو أرجح منه فكلا

﴿ الطبقة الحادية عشرة ﴾ طبقة أقوام خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا: فعملوا حسنات وكبائر، ولقوا الله مصرين عليها غير تائبين منها، لكن حسناتهم أغلب من سيئاتهم، فاذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات، فهؤلاء أيضا ناجون فائزون. قال تعالى (الأعراف ٨ - ٩): ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ قال حذيفة وعبد الله بن مسعود وغيرهما من الصحابة: يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف: فمن رجحت حسناته على سيئاته بواحدة دخل الجنة، ومن

---

(١) انظر ص ٢٣١ وما بعدها ولا سيما ص ٢٤٥ — ٢٥٠

رجحت سيئاته على حسناته بواحدة دخل النار ، ومن استوت حسناته وسيئاته فهو من أهل الاعراف . وهذه الموازنة تكون بعد القصاص ، واستيفاء المظلومين حقوقهم من حسناته . فاذا بقى شيء منها وزن هو وسيئاته

ولكن هنا مسألة ، وهى : إذا وزنت السيئات بالحسنات فرجحت الحسنات ، هل يلغى المرجوح جملة ويصير الأثر للراجح فيثاب على حسناته كلها ، أو يسقط من الحسنات ما قابلها من السيئات المرجوحة ويبقى التأثير للرجحان فيثاب عليه وحده ؟ فيه قولان . هذا عند من يقول بالموازنة والحكمة ، وأما من ينفى ذلك فلا عبرة عنده بهذا وانما هو موكول الى محض المشيئة . وعلى القول الأول فيذهب أثر السيئات جملة بالحسنات الراجحة ، وعلى القول الثانى يكون تأثيرها فى نقصان ثوابه لا فى حصول العقاب له . ويترجح هذا القول الثانى بأن السيئات لو لم تحبط ما قبلها من الحسنات وكان العمل والتأثير للحسنات كلها لم يكن فرق بين وجودها وعدمها ، ولكان لا فرق بين المحسن الذى محض عمله حسنات ، وبين من خلط عملا صالحا وآخر سيئاً . وقد يجاب عن هذا بأنها أثرت فى نقصان ثوابه ولا بد ، فانه لو اشتغل فى زمن إيقاعها بالحسنات لكان أرفع لدرجته وأعظم لثوابه . واذا كان كذلك فقد ترجح القول الأول بأن الحسنات لما غلبت السيئات ضعف تأثير المغلوب المرجوح وصار الحكم للغالب دونه ، لاستهلاكه فى جنبه كما يستهلك يسير النجاسة فى الماء الكثير ، والماء اذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث . والله أعلم

﴿ الطبقة الثانية عشرة ﴾ قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فتقابل أثراهما فتقاوما فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار وسيئاتهم المساوية من دخول الجنة . فهؤلاء هم أهل الأعراف ، لم يفضل لأحدهم حسنة يستحق بها الرحمة من ربه ، ولم يفضل عليه سيئة يستحق بها العذاب . وقد وصف الله سبحانه وتعالى أهل هذه الطبقة فى سورة الاعراف ـ بعد أن ذكر دخول أهل النار وتلاعنهم فيها ، ومخاطبة أتباعهم لرؤسائهم وردهم عليهم ، ثم مناداة أهل الجنة أهل النار ـ فقال تعالى (الاعراف ٤٦ ـ ٤٧) :

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجابٌ ، وَعَلَى الْأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ ، وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ . وَإذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ

النَّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظاَّلِمِين ﴾ فقوله تعالى ﴿ وَبَيْنَهُما حِجابٌ ﴾ أى بين أهل الجنة والنار حجاب ، قيل هور السور الذى يضرب بينهم له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب : باطنه الذى يلى المؤمنين فيه الرحمة ، وظاهره الذى يلى الكفار من جهتهم العذاب . والأعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع ، وهو سور عال بين الجنة والنار عليه أهل الاعراف . قال حذيفة وعبد الله بن عباس : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فقصرت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وتجاوزت بهم حسناتهم عن النار . فوقفوا هناك حتى يقضى الله فيهم ما يشاء ثم يدخلهم الجنة بفضل رحمته . قال عبد الله بن المبارك أخبرنا أبو بكر الهذلى قال : كان سعيد بن جبير يحدث عن ابن مسعود قال : يحاسب الله الناس يوم القيامة ، فمن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة ، ومن كانت سيئاته أكثر بواحدة دخل النار . ثم قرأ قوله تعالى (الاعراف ٨ - ٩) : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون . وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ثم قال : إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح . قال : ومن استوت حسناته وسيئاته كان من أصحاب الأعراف . فوقفوا على الصراط ثم عرفوا أهل الجنة وأهل النار ، فاذا نظروا إلى أهل الجنة نادوا : سلام عليكم وإذا صرفوا أبصارهم الى أصحاب النار قالوا (الاعراف ٤٧) : ﴿ رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظاَّلِمِين ﴾ فاما أصحاب الحسنات فانهم يعطون نورا يمشون به بين أيديهم وبأيمانهم ، ويعطى كل عبد يومئذ نورا . فاذا أتوا على الصراط سلب الله تعالى نور كل منافق ومنافقة . فلما رأى أهل الجنة ما لقى المنافقون قالوا (التحريم ٨) : ﴿ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا ﴾ ، وأما أصحاب الأعراف فان النور لم ينزع من أيديهم فيقول الله (الأعراف ٤٦) : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُون ﴾ فكان الطمع للنور الذى فى أيديهم ثم أدخلوا الجنة وكانوا آخر أهل الجنة دخولا . يريد آخر أهل الجنة دخولا ممن لم يدخل النار . وقيل هم قوم خرجوا فى الغزو بغير إذن آبائهم فقتلوا ، فأعتقوا من النار لقتلهم فى سبيل الله ، وحبسوا عن الجنة لمعصية آبائهم . وهذا من جنس القول الأول . وقيل هم قوم رضى عنهم أحد الأبوين دون الآخر ، يحبسون على الأعراف حتى يقضى

الله بين الناس ثم يدخلهم الجنة . وهى من جنس ما قبله فلا تناقض بينهما . وقيل : هم أصحاب الفترة وأطفال المشركين . وقيل هم أولو الفضل من المؤمنين علوا على الأعراف ، فيطلعون على أهل النار وأهل الجنة جميعا . وقيل هم الملائكة لا من بنى آدم . والثابت عن الصحابة هو القول الأول . وقد رويت فيه آثار كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت أسانيدها . وآثار الصحابة فى ذلك المعتمدة . وقد اختلف فى تفسير الصحابى هل له حكم المرفوع ، أو الموقوف ؟ على قولين : الأول اختيار أبى عبد الله الحاكم ، والثانى هو الصواب ، ولا نقول على رسول الله ﷺ ما لم نعلم أنه قاله . وقوله تعالى ﴿ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ ﴾ صريح فى أنهم من بنى آدم ليسوا من الملائكة . وقوله تعالى ﴿ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾ يعنى يعرفون الفريقين بسيماهم ﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أى نادى أهل الأعراف أهل الجنة بالسلام . وقوله تعالى ﴿ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ الضميران فى الجملتين لأصحاب الأعراف ، لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون فى دخولها . قال أبو العالية : ما جعل الله ذلك الطمع فيهم إلا كرامة يريدها بهم ، وقال الحسن : الذى جمع الطمع فى قلوبهم يوصلهم إلى ما يطمعون . وفى هذا رد على قول من قال : إنهم أفاضل المؤمنين علوا على الأعراف يطالعون أحوال الفريقين ، فعاد الصواب الى تفسير الصحابة وهم أعلم الأمة بكتاب الله ومراده منه . ثم قال تعالى ﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ هذا دليل على أنه بمكان مرتفع بين الجنة والنار ، فاذا أشرفوا على أهل الجنة نادوهم بالسلام وطمعوا فى الدخول إليها . وإذا أشرفوا على أهل النار سألوا الله أن لا يجعلهم معهم ، ثم قال تعالى (الأعراف ٤٨) : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ يعنى من الكفار الذين فى النار ، فقالوا لهم : ﴿ مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يعنى ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق ولا استكباركم . وهذا إما نفى ، وإما استفهام وتوبيخ ، وهو أبلغ وأفخم . ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يسترذلونهم فى الدنيا ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم بفضله كما لم يختصهم دونهم فى الدنيا ، فيقول لهم أهل الأعراف

(٤٩) : ﴿ أَهٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ ﴾ أيها المشركون أن الله تعالى لا ينالهم برحمة . فهاهم فى الجنة يتمتعون ويتنعمون وفى رياضها يحبرون ، ثم يقال لأهل الأعراف ﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُون ﴾ . وقيل إن أصحاب الأعراف إذا عيروا الكفار وأخبروهم أنهم لم يغن عنهم جمعهم واستكبارهم ، عيرهم الكفار بتخلفهم عن الجنة ، وأقسموا أن الله لا ينالهم برحمة ، لما رأوا من تخلفهم عن الجنة ، وأنهم يصيرون الى النار . فتقول لهم الملائكة حينئذ ﴿ أَهٰؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَة ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُون ﴾ والقولان قويان محتملان والله أعلم

فهؤلاء الطبقات هم أهل الجنة الذين لم تمسهم النار

﴿ الطبقة الثالثة عشرة ﴾ طبقة أهل المحنة والبلية ، نعوذ بالله . وان كانت آخرتهم الى عفو وخير ، وهم قوم مسلمون خفت موازينهم ، ورجحت سيئاتهم على حسناتهم فغلبتها السيئات ، فهذه الطبقة التى اختلفت فيها أقاويل الناس وكثر فيها خوضهم وتشعبت مذاهبهم وتشتت آراؤهم : فطائفة كفرتهم ، وأوجبت لهم الخلود فى النار . وهذا مذهب أكثر الخوارج ، بل يكفرون من هو أحسن حالا منهم وهو مرتكب الكبيرة الذى لم يتب منها ولو استغرقتها حسناته . وطائفة أوجبت لهم الخلود فى النار ولم تطلق عليهم اسم الكفر ، بل سموهم منافقين . وهذا المذهب ينسب الى البكرية أتباع بكر ابن أخت عبد الواحد . وطائفة نزلتهم منزلة بين منزلة الكفار والمؤمنين ، فجعلوا أقسام الخلق ثلاثة : مؤمنين ، وكفارا ، وقسما لا مؤمنين ولا كفارا بل بينهما وأوجبت لهم الخلود فى النار . وهذا هو الرأى الذى عليه أهل الاعتزال ، وهو أحد أصولهم الخمسة التى هى قواعد مذهبهم وهى : (التوحيد) الذى مضمونه جحد صفات الخالق ونعوت كماله والتعطيل المحض . و (العدل) الذى مضمونه نفى عموم قدرة الله وأنه لا قدرة له على أفعال الحيوانات بل هى خارجة عن ملكه وخلقه وقدرته ، وأنه يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد ، فانه لا يقدر أن يهدى ضالا ولا أن يضل مهتديا ولا يجعل المصلى مصليا ولا الذاكر ذاكرا ولا الطائف طائفا ، تعالى الله عن إفكهم

وشركهم علوا كبير . و (المنزلة بين المنزلتين) التى مضمونها إيجاب القول بالنار للمسلم المبالغ فى طاعة ربه الذى أفنى عمره فى عبادته وطاعته ومات مصرا على كبيرة واحدة ، تعالى الله عما نسبوه اليه من ذلك وجل عن هذا الافتراء . و (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) الذى مضمونه الخروج على أئمة الجور بالسيف ، وخلع اليد من طاعتهم ، ومفارقة جماعة المسلمين . والأصل الخامس (النبوة) مع أنهم لم يوفوها حقها ، بل هضموها غاية الهضم من وجوه كثيرة ليس هذا موضعها . والمقصود أن مذهبهم تخليد هذه الطبقة فى النار ، وإن لم يسموهم كفارا ، فوافقوا الخوارج فى الحكم وخالفوهم فى الاسم . ولهذا تسمى هذه المسألة من مسائل الأسماء والأحكام . فهذه ثلاث فرق أوجبت لهذه الطائفة الخلود فى النار . وقالت المرجئة على اختلاف آرائهم : لا يدرى ما يفعل الله بهم ، فيجوز أن يعذبهم كلهم ، وأن يعفو عنهم كلهم ، وأن يعذب بعضهم ويعفو عن بعضهم ، غير أنهم لا يخلد أحد منهم فى النار . فجوزوا أن يلحق بعضهم بمن ترجحت حسناته على سيئاته ، بل جوزوا أن يرفع عليه فى الدرجة . فهم موكولون عندهم الى محض المشيئة لا يدرى ما يفعل الله بهم ، بل يرجأ أمرهم الى الله وحكمه . وهذا قول كثير من المتكلمين والفقهاء والصوفية وغيرهم . فهذه الأقوال التى يعرفها أكثر الناس ، ولا يحكى أهل الكلام غيرها . وقول الصحابة والتابعين وأئمة الحديث لا يعرفونه ولا يحكونه ، وهو الذى ذكرناه [فى ص ٣٨٢] عن ابن عباس وحذيفة وابن مسعود أن من ترجحت سيئاته بواحدة دخل النار . وهؤلاء هم القسم الذين جاءت فيهم الأحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ ، فانهم يدخلون النار فيكونون فيها على مقدار أعمالهم : فمنهم من تأخذه النار الى كعبيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى أنصاف ساقيه ، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه . ويلبثون فيها على قدر أعمالهم ، ثم يخرجون منها ، فينبتون على أنهار الجنة : فيفيض عليهم أهل الجنة من الماء حتى تنبت أجسادهم ، ثم يدخلون الجنة . وهم الطبقة الذين يخرجون من النار بشفاعة الشافعين ، وهم الذين يأمر الله سيد الشفعاء مرارا أن يخرجهم من النار بما معهم من الإيمان . وإخبار النبى ﷺ أنهم يكونون فيها على قدر أعمالهم مع قوله تعالى (الاعراف ٤٣ ، النحل ٣٢ ، الزخرف ٧٢ ، الطور ١٩ ، السجدة ١٤ ، المرسلات ٤٣) : ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ و (النمل ٩٠)

﴿هَل تُجْزَوْنَ إلا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون﴾ وقوله تعالى (البقرة ٢٨١، آل عمران ١٧١): ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُون﴾ وأضعاف ذلك من نصوص القرآن والسنة يدل على ما قاله أفضل الأمة وأعلمها بالله وكتابه وأحكام الدارين أصحاب محمد ﷺ، والعقل والفطرة تشهد له، وهو مقتضى حكمة العزيز الحكيم الذى بهرت حكمته العقول. فليس الأمر سبيا خارجا عن الضبط والحكمة، بل مربوط بالأسباب، والحكم مرتب عليها أكمل ترتيب، جار على نظام اقتضاه السبب واستدعته الحكمة. وأى الطريق سلكها سالك غير هذه الطريق من الطرق المتقدمة أفضت به الى ترك بعض النصوص ولا بد، فانها تتناقض فى حقه لما أصله من الأصل الذى لا يلتئم عليه جمع النصوص، فلا بد أن يرد بعضها ببعض أو يستشكلها أو يتطلب لها مستنكر التأويلات ووجوه التحريفات. كما رد الخوارج والمعتزلة النصوص المتواترة الدالة على خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة وكذبوا بها وقالوا: لا سبيل لمن دخل النار الى الخروج منها بشفاعة ولا غيرها. ولما بهرتهم نصوص الشفاعة وصاح بهم أهل السنة وأئمة الاسلام من كل قطر وجانب ورموهم بسهام الرد عليهم أحالوا بالشفاعة على زيادة الثواب فقط لا على الخروج من النار، فردوا السنة المتواترة قطعا وصاروا مضغة فى أفواه الأمة وعارا فى فرقها، فان أمر الشفاعة أظهر عند الأمة من أن يقبل شكا أو نزاعا، وهو عندهم مثل الصراط والحساب ونحوهما مما يعلم إخبار الرسول ﷺ به قطعا، ولكن إنما أتى القوم لأنهم فى غاية البعد عما جاء به الرسول ﷺ، أجانب عنه، ليسوا من الورثة. وأما الخوارج فكذبوا الصحابة صريحا، وأما المرجئة فانهم يجوزون أن لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد. وهذا بخلاف المعلوم المتواتر من نصوص السنة بدخول بعض أهل الكبائر النار ثم خروجهم منها بالشفاعة، ومع هذا التواتر الذى لا يمكن دفعه لا يجوز أن يقال بجواز أن لا يدخل أحد منهم النار، بل لا بد من دخول بعضهم، وذلك البعض هو الذى خفت موازينه ورجحت سيئاته كما قال الصحابة، وحكى أبو محمد بن حزم هذا إجماعا من أهل السنة. ولولا أن المقصود ذكر الطبقات لذكرنا ما لهذه المذاهب وما عليها، وبينا تناقض أهلها، وما وافقوا فيه الحق وما خالفوه بالعلم والعدل لا بالجهل والظلم، فان كل طائفة منها معها حق وباطل،

قالوا جب موافقتهم فيما قالوه من الحق ، ورد ما قالوه من الباطل . ومن فتح الله له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب ، ويسر عليه فيهما الأسباب . والله المستعان

﴿ الطبقة الرابعة عشرة ﴾ قوم لا طاعة لهم ولا معصية ، ولا كفر ولا إيمان . وهؤلاء أصناف : منهم من لم تبلغه الدعوة بحال ولا سمع لها بخبر ، ومنهم المجنون الذى لا يعقل شيئا ولا يميز ، ومنهم الأصم الذى لا يسمع شيئا أبدا ، ومنهم أطفال المشركين الذين ماتوا قبل أن يميزوا شيئا . فاختلفت الأمة فى حكم هذه الطبقة اختلافا كثيرا ، والمسألة التى وسعوا فيها الكلام هى مسألة أطفال المشركين . وأما أطفال المسلمين فقال الامام أحمد : لا يختلف فيهم أحد . يعنى أنهم فى الجنة . وحكى ابن عبد البر عن جماعة أنهم توقفوا فيهم ، وأن جميع الولدان تحت المشيئة . قال : وذهب الى هذا القول جماعة كثيرة من أهل الفقه والحديث ، منهم حماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، واسحق بن راهويه قالوا : وهو شبه ما رسم مالك فى موطإه فى أبواب القدر ، وما أورده من الأحاديث فى ذلك ، وعلى ذلك أكثر أصحابه ، وليس عن مالك فيه شىء منصوص إلا أن المتأخرين من أصحابه ذهبوا الى أن أطفال المسلمين فى الجنة وأطفال المشركين خاصة فى المشيئة

وأما اطفال المشركين فللناس فيهم ثمانية مذاهب :

(أحدها) الوقف فيهم ، وترك الشهادة بأنهم فى الجنة أو فى النار ، بل يوكل علمهم إلى الله تعالى ، ويقال الله أعلم ما كانوا عاملين . واحتج هؤلاء بحجج : منها ما أخرجاه فى الصحيحين من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه . كما تنتج البهيمة من بهيمة جمعاء ، هل يحس فيها من جدعاء » ؟ قالوا : يا رسول الله ، أفرأيت من يموت وهو صغير ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » ومنها مافى الصحيحين أيضا عن ابن عباس أن النبى ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » ، وفى صحيح أبى حاتم ابن حبان من حديث جرير بن حازم قال : سمعت أبا رجاء يقول وهو على المنبر : قال رسول الله ﷺ « لا يزال أمر هذه الأمة قواما ـ أو مقاربا ـ ما لم يتكلموا فى الولدان والقدر » قال أبو حاتم : الولدان أراد به أطفال المشركين . وفى استدلال هذه الفرقة على ما ذهبت اليه من

الوقف بهذه النصوص نظر . فان النبي ﷺ لم يجب فيهم بالوقف ، وإنما وكل علم ما كانوا يعملون لو عاشوا إلى الله سبحانه وتعالى . والمعنى : الله أعلم بما كانوا يعملون لو عاشوا . فهو سبحانه وتعالى يعلم القابل منهم للهدى العامل به لو عاش ، والقابل منهم للكفر المؤثر له لو عاش . لكن لا يدل هذا على أنه يجزيهم بمجرد علمه فيهم بلا عمل يعملونه ، وإنما يدل على أنه يعلم منهم ما هم عاملون بتقدير حياتهم . وهذا الجواب خرج عن النبي ﷺ على وجهين : (أحدهما) جواب لهم إذ سألوه عنهم : ما حكمهم ؟ فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » وهو فى هذا الوجه يتضمن أن الله سبحانه وتعالى يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر بتقدير الحياة ، وأما المجازاة على العلم فلم يتضمنها جوابه ﷺ . وفى صحيح أبى عوانة الاسفرايني عن هلال بن خباب عن عكرمة عن ابن عباس : كان النبي ﷺ فى بعض مغازيه ، فسأله رجل : ما يقول فى اللاهين ؟ فسكت عنه . فلما فرغ من غزوة الطائف إذا هو بصبي يبحث فى الأرض ، فأمر مناديه فنادى « أين السائل عن اللاهين » ؟ فاقبل الرجل . فنهى رسول الله ﷺ عن قتل الأطفال . وقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » . و (الوجه الثانى) جواب لهم حين أخبرهم أنهم من آبائهم . فقالوا : بلا عمل ؟ فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » كما روى أبو داود عن عائشة قالت : قلت يا رسول الله ، ذرارى المؤمنين ؟ قال : « من آبائهم » . قلت : يا رسو الله ، بلا عمل ؟ قال « الله أعلم بما كانوا عاملين » فى هذا الحديث ما يدل على أن الذين يلحقون بآبائهم منهم هم الذين علم الله أنهم لو عاشوا لاختاروا الكفر وعملوا به . فهؤلاء مع آبائهم . ولا يقتضى أن كل واحد من الذرية مع أبيه فى النار . فان الكلام فى هذا الجنس سؤالا وجوابا ، والجواب يدل على التفصيل . فان قوله ﷺ « الله أعلم بما كانوا عاملين » يدل على أنهم متباينون فى التبعية ، بحسب نياتهم ومعلوم الله فيهم . بقى أن يقال : فالحديث يدل على أنهم يلحقون بآبائهم من غير عمل . ولهذا فهمت ذلك منه عائشة ، فقالت : بلا عمل ؟ فاقرها عليه فقال « الله أعلم بما كانوا عاملين » . ويجاب عن هذا بأن الحديث إنما دل على أنهم يلحقون بهم بلا عمل عملوه فى الدنيا ، وهو الذى فهمته عائشة . ولا ينفى هذا أن يلحقوا بهم بأسباب أخر يمتحنهم بها فى عرصات القيامة ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله . فحينئذ يلحقون بآبائهم ويكونون منهم بلا عمل عملوه فى الدنيا . وعائشة إنما

استشكلت لحاقهم بهم بلا عمل عملوه مع الآباء ، وأجابها النبي ﷺ بأن الله سبحانه وتعالى يعلم منهم ما هم عاملوه . ولم يقل لها : إنه يعذبهم بمجرد علمه فيهم . وهذا ظاهر بحمد الله لا إشكال فيه . وأما حديث أبي رجاء العطاردى عن ابن عباس ، فى القلب من رفعه شيء ، وإن أخرجه ابن حبان فى صحيحه ، وهو يدل على ذم من تكلم فيهم بغير علم . أو ضرب النصوص بعضها ببعض فيهم ، كما ذم من تكلم فى القدر بمثل ذلك . وأما من تكلم فيهم بعلم وحق فلا

(المذهب الثانى) أنهم فى النار . وهذا قول جماعة من المتكلمين وأهل التفسير ، وأحد الوجهين لأصحاب أحمد ، وحكاه القاضى نصا عن أحمد ، واحتج هؤلاء بحديث عائشة المتقدم ، واحتجوا بما رواه أبو عقيل يحي بن المتوكل عن بهية عن عائشة : سألت رسول الله ﷺ عن أولاد المسلمين أين هم ؟ قال « فى الجنة » وسألته عن أولاد المشركين أين هم يوم القيامة ؟ قال « فى النار » فقلت : لم يدركوا الأعمال ولم تجر عليهم الاقلام . قال « ربك أعلم بما كانوا عاملين » قلت : يحي بن المتوكل لا يحتج بحديثه ، فانه فى غاية من الضعف . وأما حديث عائشة المتقدم فهو من حديث عمر بن ذر ، وتفرد به عن يزيد عن أبى أمية أن البراء بن عازب أرسل الى عائشة يسألها عن الأطفال فذكرت الحديث . هكذا قال مسلم بن قتيبة . وقال غيره : عن عمر بن ذر عن يزيد عن رجل عن البراء . ورواه الإمام أحمد فى مسنده من حديث عتبة بن ضمرة بن حبيب حدثنى عبد الله بن أبى قيس مولى غطيف أنه سأل عائشة ، فذكرت الحديث . وعبد الله هذا ينظر فى حاله ، وليس بالمشهور . واحتجوا بما رواه عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه عن عثمان بن أبى شيبة عن محمد بن فضيل بن غزوان عن محمد بن عثمان عن زاذان عن على قال : سألت خديجة رسول الله ﷺ عن ولدين لها ماتا فى الجاهلية فقال « هما فى النار » فلما رأى الكراهية فى وجهها قال « لو رأيت مكانهما لأبغضتهما » قالت : يا رسول الله فولدى منك ؟ قال « ان المؤمنين وأولادهم فى الجنة ، وان المشركين وأولادهم فى النار » ثم قرأ (الطور ٢١) : ﴿ والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم ﴾ . وهذا معلول من وجهين : أحدهما أن محمد بن عثمان مجهول ، الثانى أن زاذان لم يدرك عليا . وقال جماعة عن داود بن أبى هند عن الشعبى عن علقمة عن سلمة بن قيس الأشجعى

قال : أتيت أنا وأخى النبى ﷺ فقلنا : إن أمنا ماتت فى الجاهلية وكانت تقرى الضيف وتفعل وتفعل ، فهل نافعها ذلك شيئا ؟ قال ﷺ « لا » . قلنا : فانها كانت وأدت أختا لنا فى الجاهلية لم تبلغ الحنث؟ فقال : الوائدة والموءودة فى النار ، إلا أن تدرك الوائدة الإسلام فتسلم » وهذا إسناد لا بأس به . وبحديث خديجة أنها سألت رسول الله ﷺ عن أولادها الذين ماتوا فى الشرك فقال « إن شئت أسمعتك تضاغيهم فى النار » . قال شيخنا : وهذا حديث باطل موضوع . واحتجوا أيضا بما روى البخارى فى صحيحه فى حديث احتجاج الجنة والنار عن النبى ﷺ أنه قال « وأما النار فينشىء الله لها خلقا يسكنهم إياها » قالوا : فهؤلاء ينشأون للنار بغير عمل ، فلأن يدخلها من ولد فى الدنيا بين كافرين أولى . وهذه حجة باطلة ، فان هذه اللفظة وقعت غلطا من بعض الرواة ، وبينها البخارى فى الحديث الآخر وهو الصواب ، فقال فى صحيحه : حدثنى عبد الله ابن محمد أنبأنا عبد الرزاق أنبأنا معمر عن همام عن أبى هريرة قال النبى ﷺ « تحاجت الجنة والنار ، فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين . وقالت الجنة : مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال الله عز وجل للجنة : أنت رحمتى أرحم بك من أشاء من عبادى . وقال تعالى للنار : أنت عذابى أعذب بك من أشاء من عبادى ، ولكل واحدة منكما ملؤها : فاما النار فلا تمتلىء حتى يضع الجبار عز وجل رجله ، فتقول : قط . قط . فهناك تمتلىء ويزوى بعضها إلى بعض ولا يظلم الله من خلقه أحدا . وأما الجنة فان الله ينشىء لها خلقا » فهذا هو الذى قاله رسول الله ﷺ بلا ريب . وهو الذى ذكره فى التفسير ، وفى باب ما جاء فى قول الله تعالى (الاعراف ٥٦) : ﴿ إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴾ حدثنا عبد الله بن سعد حدثنا يعقوب حدثنا أبى عن صالح بن كيسان عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « اختصمت الجنة والنار إلى ربهما ، فقالت الجنة يا رب ما لها لا يدخلها إلا ضعفاء الناس وسقطهم ؟ وقالت النار إنى أوثرت بالمتكبرين ، فقال الله تعالى للجنة : أنت رحمتى ، وقال تعالى للنار : أنت عذابى أصيب بك من أشاء ، ولكل واحدة منكما ملؤها . قال : فاما الجنة فان الله تعالى لا يظلم من خلقه أحدا ، وإنه ينشىء للنار من يشاء فيلقون فيها ، فتقول : هل من مزيد (ثلاثا) حتى يضع قدمه فيها فتمتلىء ويرد بعضها الى بعض ، فتقول : قط

قط قط » فهذا غير محفوظ ، وهو مما انقلب لفظه على بعض الرواة قطعا كما انقلب على بعضهم قوله ﷺ : « ان بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم » فقال « ان ابن أم مكتوم يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال » وله نظائر . وحديث الأعرج هذا عن أبي هريرة لم يحفظ كما ينبغي ، وسياقه يدل على أن راويه لم يقم متنه ، بخلاف حديث همام عن أبي هريرة . واحتجوا بما رواه أبو داود عن عامر الشعبي قال : قال رسول الله ﷺ : « الوائدة والموءودة فى النار » قال يحيى بن زكريا : فحدثني أبو إسحاق السبيعى أن عامراً حدثه بذلك عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ ، ويأتى الجواب عن هذا الحديث إن شاء الله . والله أعلم

(المذهب الثالث) أنهم فى الجنة ، وهذا قول طائفة من المفسرين والمتكلمين وغيرهم . واحتج هؤلاء بما رواه البخارى فى صحيحه عن سمرة بن جندب قال : كان رسول الله ﷺ مما يكثر أن يقول لأصحابه « هل رأى أحد منكم رؤيا » ؟ قال : فنقصّ عليه ما شاء الله أن نقص ، وانه قال لنا ذات غداة « إنى أتانى الليلة آتيان ـ فذكر الحديث وفيه ـ فأتينا على روضة معتمة فيها من كل لون الربيع ، واذا بين ظهرى الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولا فى السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط ـ وفيه ـ وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة » فقال بعض المسلمين : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ فقال رسول الله ﷺ « وأولاد المشركين » فهذا الحديث الصحيح صريح فى أنهم فى الجنة ، ورؤيا الأنبياء وحى . وفى مستخرج البرقانى على البخارى من حديث عوف الأعرابى عن أبي رجاء العطاردى عن سمرة عن النبي ﷺ قال « كل مولود يولد على الفطرة » فقال الناس : يا رسول الله ، وأولاد المشركين ؟ قال « وأولاد المشركين » . وقال أبو بكر بن حمدان القطيعى : حدثنا بشر بن موسى حدثنا هوذة بن خليفة حدثنا عوف عن خنساء بنت معاوية قالت : حدثتنى عمتى قالت : يا رسول الله ، من فى الجنة ؟ قال « النبي فى الجنة ، والشهيد فى الجنة ، والموءودة فى الجنة » . وكذلك رواه بندار عن غندر عن عوف . واحتجوا بقوله تعالى (الأعراف ١٧٢) : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ وبقوله تعالى (الليل ١٥) : ﴿ لا يَصْلَاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ﴾ وبقوله تعالى (البقرة ٢٤) :

﴿ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِين ﴾ وبقوله تعالى (الاسراء ١٥) : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وهؤلاء لم تقم عليهم حجة الله بالرسل فلا يعذبهم . واحتجوا بقوله تعالى (القصص ٥٩) : ﴿ وَما كانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِى أُمِّها رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِنا ، وَما كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إلاَّ وَأَهْلُها ظالِمُون ﴾ فاذا كان سبحانه لا يهلك القرى فى الدنيا ويعذب أهلها إلا بظلمهم ، فكيف يعذب فى الآخرة العذاب الدائم من لم يصدر منه ظلم ! ولا يقال : كما أهلكه فى الدنيا تبعا لأبويه وغيرهم فكذلك يدخله النار تبعا لهم ، لأن مصائب الدنيا إذا وردت لا تخص الظالم وحده بل تصيب الظالم وغيره ، ويبعثون على نياتهم وأعمالهم كما قال تعالى (الانفال ٢٥) : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خاصَّةً ﴾ وكالجيش الذين يخسف بهم جميعهم وفيهم المكره والمستبصر وغيره ، فأما عذاب الآخرة فلا يكون إلا للظالمين خاصة ، ولا يتبعهم فيه من لا ذنب له أصلا . قال تعالى فى النار (الملك ٨-٩) : ﴿ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْء ﴾ وقال لابليس (صٓ ٨٥) : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِين ﴾ واذا امتلأت بابليس وأتباعه فأين يستقر فيها من لم يتبعه ؟ قالوا : وأيضا فالقرآن مملوء من الأخبار بأن دخول النار إنما يكون بالأعمال ، كقوله تعالى (النمل ٩٠) : ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون ﴾ وقوله تعالى (الكهف ٤٩) : ﴿ وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ ، (البقرة ٢٨١) : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُون ﴾ وقوله تعالى (الزخرف ٧٦) : ﴿ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلَكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمين ﴾ إلى غير ذلك من النصوص . قالوا : وقد أخبر النبي ﷺ أن كل مولود يولد على الفطرة ، وإنما يهوده وينصره أبواه ، فاذا مات قبل التهويد والتنصير مات على الفطرة ، فكيف يستحق النار ؟ وفى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال « يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وقال محمد بن إسحق عن ثور بن يزيد عن يحيى بن جابر عن عبد الرحمن بن عائذ عن عياض عن

النبى ﷺ قال « إن الله خلق آدم وبنيه حنفاء مسلمين ، وأعطاهم المال حلالا لا حراماً » فزاد « مسلمين » . قالوا : وأيضا فان النار دار عدله ، والجنة دار فضله . فلهذا ينشىء للجنة من لم يعمل عملا قط ، وأما النار فانه لا يعذب بها إلا من عمل بعمل أهلها . قالوا : وأيضا فان النار دار جزاء ، فمن لم يعص الله طرفة عين كيف يجازى بالنار خالدا مخلدا أبد الآباد ؟ قالوا : وأيضا فلو عذب هؤلاء لكان تعذيبهم إما مع تكليفهم بالإيمان أو بدون التكليف ، والقسمان ممتنعان : أما الأول فلاستحالة تكليف من لا تمييز له ولا عقل أصلا ، وأما الثانى فيمتنع أيضا بالنصوص التى ذكرناها وأمثالها من أن الله لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه . قالوا : وأيضا فلو كان تعذيب هؤلاء لأجل عدم الايمان المانع من العذاب لاشتركوا هم وأطفال المسلمين فى ذلك ، لاشتراكهم فى عدم الايمان الفعلى علما وعملا . فان قلتم : أطفال المسلمين منعهم تبعهم لآبائهم من العذاب ، بخلاف أطفال المشركين ، قلنا : الله لا يعذب أحدا بذنب غيره قال تعالى (الأنعام ١٦٤) : ﴿ وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وقال تعالى (ياسين ٥٤) : ﴿ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إلاّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُون ﴾ وهذه حجج كما ترى قوة وكثرة ، ولا سبيل الى دفعها . وسيأتى إن شاء الله فصل النزاع فى هذه المسألة ، والقول بموجب هذه الحجج الصحيحة كلها . على أن عادتنا فى مسائل الدين كلها دقها وجلها أن نقول بموجبها ، ولا نضرب بعضها ببعض ، ولا نتعصب لطائفة على طائفة ، بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق ، ونخالفها فيما معها من خلاف الحق . لا نستثنى من ذلك طائفة ولا مقالة ، ونرجو من الله أن نحيا على ذلك ، ونموت عليه ، ونلقى الله به . ولا قوة إلا بالله

(المذهب الرابع) أنهم فى منزلة بين المنزلتين بين الجنة والنار ، فانهم ليس لهم إيمان يدخلون به الجنة ، ولا لآبائهم فوز يلحق بهم أطفالهم تكميلا لثوابهم وزيادة فى نعيمهم ، وليس لهم من الأعمال ما يستحقون به دخول النار . وهذا قول طائفة من المفسرين . قالوا : وهم أهل الأعراف . وقال عبد العزيز بن يحيى الكنانى « هم الذين ماتوا فى الفترة » . والقائلون بهذا إن أرادوا أن هذا المنزل مستقرهم أبدا فباطل ، فانه لا دار للقرار إلا الجنة أو النار ، وإن أرادوا أنهم يكونون فيه مدة ثم يصيرون إلى دار القرار

فهذا ليس بممتنع

(المذهب الخامس) أنهم تحت مشيئة الله تعالى ، يجوز أن يعمهم بعذابه ، وأن يعمهم برحمته ، وأن يرحم بعضا ويعذب بعضا بمحض الإرادة والمشيئة . ولا سبيل الى إثبات شيء من هذه الأقسام إلا بخبر يجب المصير اليه ، ولا حكم فيهم الا بمحض المشيئة . وهذا قول الجبرية نفاة الحكمة والتعليل ، وقول كثير من مثبتي القدر وغيرهم

(المذهب السادس) أنهم خدم أهل الجنة ومماليكهم ، وهم معهم بمنزلة أرقائهم ومماليكهم فى الدنيا . واحتج هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبد الرحمن القارى عن أبى حازم المدينى عن يزيد الرقاشى عن أنس ، قال الدارقطنى : ورواه عبد العزيز الماجشون عن ابن المنكدر عن يزيد الرقاشى عن أنس عن النبى ﷺ قال : « سألت ربى للاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم ، فأعطانيهم ، فهم خدام أهل الجنة » يعنى الصبيان . فهذان طريقان ، وله طريق ثالث عن فضيل بن سليمان عن عبد الرحمن بن اسحق عن الزهرى عن أنس ، قال ابن قتيبة : اللاهون من لهيت عن الشيء إذا غفلت عنه . وليس هو من لهوت ، وهذه الطرق ضعيفة . فان يزيد الرقاشى واه ، وفضيل بن سليمان متكلم فيه ، وعبد الرحمن بن اسحق ضعيف

(المذهب السابع) أن حكمهم حكم آبائهم فى الدنيا والآخرة ، فلا يفردون عنهم بحكم فى الدارين ، فكما هم منهم فى الدنيا فهم منهم فى الآخرة . والفرق بين هذا المذهب ومذهب من يقول هم فى النار ، أن صاحب هذا المذهب يجعلهم معهم تبعا لهم ، حتى لو أسلم الأبوان بعد موت أطفالهما لم يحكم لأفراطهما بالنار . وصاحب القول الآخر يقول هم فى النار لكونهم ليسوا بمسلمين ، ولم يدخلوها تبعا . وهؤلاء يحتجون بحديث عائشة الذى تقدم ذكره ، واحتجوا بما فى الصحيحين عن الصعب بن جثامة قال : سئل رسول الله ﷺ عن أهل الدار من المشركين يبيتون فيصيبون من نسائهم وذراريهم ، فقال « هم منهم » ، ومثله من حديث الأسود بن سريع . وقد تقدم حديث أبى وائل عن ابن مسعود يرفعه « الوائدة والموءودة فى النار » ، وهذا يدل على أنها كانت فى النار تبعا لها . قالوا : ويدل عليه قوله (الطور ٢١) : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ

أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ، كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ فهذا يدل على أن إتباع الذرية لآبائهم ونجاتهم إنما كان إكراما لآبائهم وزيادة فى ثوابهم وأن الإتباع إنما يستحق بايمان الآباء ، فاذا انتفى إيمان الآباء انتفى إتباع النجاة ، وبقى اتباع العذاب . ويفسره قوله ﷺ : « هم منهم » . وأجيب عن حجج هؤلاء : أما حديث عائشة الذى فيه « إنهم فى النار » فقد تقدم ضعفه . وأما حديثها الآخر « هم من آبائهم » فمثل حديث الصعب والاسود بن سريع ، وليس فيه تعرض للعذاب بنفى ولا إثبات ، وإنما فيه أنهم تبع لآبائهم فى الحكم ، وأنهم إذا اصيبوا فى الجهاد والبيات لم يضمنوا بدية ولا كفارة . وهذا مصرح به فى حديث الصعب والأسود أنه فى الجهاد . وأما حديث عائشة الآخر فضعفه غير واحد . قالوا : وعبد الله بن أبى قيس مولى غطيف راويه عنها ليس بالمعروف فيقبل حديثه . وعلى تقدير ثبوته فليس فيه تصريح بان السؤال وقع عن الثواب والعقاب . والنبى ﷺ قال : « هم من آبائهم » ولم يقل هم معهم . وفرق بين الحرفين . وكونهم منهم لا يقتضى أن يكونوا معهم فى أحكام الآخرة بخلاف كونهم منهم فانه يقتضى أن تثبت لهم أحكام الآباء فى الدنيا من التوارث والحضانة والنسب وغير ذلك من أحكام الإيلاد ، والله سبحانه يخرج الطيب من الخبيث والمؤمن من الكافر . وأما حديث ابن مسعود فليس فيه أن هذا حكم كل واحد من أطفال المشركين ، وإنما يدل على أن بعض أطفالهم فى النار ، وأن من هذا الجنس – وهن الموءودات – من يدخل النار ، وكونها موءودة لا يمنع من دخولها النار بسبب آخر ، وليس المراد أن كونها موءودة هو السبب الموجب لدخول النار ، حتى يكون اللفظ عاما فى كل موءودة . وهذا ظاهر . ولكن كونها موءودة لا يرد عنها النار إذا استحقتها بسبب ، كما سيأتى بيانه بعد هذا ان شاء الله . وأحسن من هذا أن يقال : هى فى النار ما لم يوجد سبب يمنع من دخولها النار كما سنذكره ان شاء الله . ففرق بين أن تكون جهة كونها موءودة هى التى استحقت بها دخول النار ، وبين كونها غير مانعة من دخول النار بسبب آخر . واذا كان تعالى يسأل الوائدة عن وأد ولدها بغير استحقاق ويعذبها على وأدها كما قال تعالى (التكوير ٨) : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴾ فكيف يعذب الموءودة بغير ذنب ؟ والله سبحانه لا يعذب من وأدها بغير ذنب . وأما قوله

تعالى (الطور ٢١) : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ فهذه الآية تدل على أن الله سبحانه يلحق ذرية المؤمنين بهم فى الجنة ، وانهم يكونون معهم فى درجتهم . ومع هذا فلا يتوهم نزول الآباء الى درجة الذرية ، فان الله لم يلتهم - أى لم ينقصهم - من أعمالهم شيئا ، بل رفع ذرياتهم الى درجاتهم مع توفير أجور الآباء عليهم ، ولما كان إلحاق الذرية بالآباء فى الدرجة إنما هو بحكم التبعية لا بالأعمال ، ربما توهم متوهم أن ذرية الكفار يلحقون بهم فى العذاب تبعا وإن لم يكن لهم أعمال الآباء ، فقطع تعالى هذا التوهم بقوله تعالى ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ وتأمل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ﴾ كيف أتى بالواو العاطفة فى اتباع الذرية وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شأنهم ، فجعل الخبر مستحقا بأمرين : أحدهما إيمان الآباء ، والثانى إتباع الله ذريتهم إياهم ، وذلك لا يقتضى أن كل مؤمن يتبعه كل ذرية له ، ولو أريد هذا المعنى لقيل : والذين آمنوا تتبعهم ذرياتهم ، فعطف الاتباع بالواو يقتضى أن يكون المعطوف بها قيدا وشرطا فى ثبوت الخبر ، لا حصوله لكل أفراد المبتدأ . وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة قالت : أتى النبى ﷺ بصبى من الأنصار يصلى عليه . فقلت : يا رسول الله ، طوبى لهذا ، لم يعمل شرا ، ولم يدره . قال « أو غير ذلك يا عائشة ، ان الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق النار وخلق لها أهلا وخلقها لهم وهم فى أصلاب آبائهم » . فهذا الحديث يدل على أنه لا يشهد لكل طفل من أطفال المؤمنين بالجنة ، وإن أطلق على أطفال المؤمنين فى الجملة أنهم فى الجنة ، لكن الشهادة للمعين ممتنعة ، كما يشهد للمؤمنين مطلقا أنهم فى الجنة ، ولا يشهد لمعين بذلك إلا من شهد له النبى ﷺ . فهذا وجه الحديث الذى يشكل على كثير من الناس ، ورده الامام أحمد وقال : لا يصح . ومن يشك أن أولاد المسلمين فى الجنة ؟ وتأوله قوم تأويلات بعيدة

﴿ المذهب الثامن ﴾ أنهم يمتحنون فى عرصات القيامة ، ويرسل اليهم هناك رسول والى كل من لم تبلغه الدعوة ، فمن أطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه أدخله النار . وعلى هذا فيكون بعضهم فى الجنة وبعضهم فى النار . وبهذا يتألف شمل الأدلة كلها . وتتوافق الأحاديث ويكون معلوم الله الذى أحال عليه النبى ﷺ حيث يقول « الله

أعلم بما كانوا عاملين ، يظهر حينئذ ويقع الثواب والعقاب عليه حال كونه معلوما علما خارجيا لا علما مجردا ، ويكون النبي ﷺ قد رد جوابهم إلى علم الله فيهم ، والله يرد ثوابهم وعقابهم إلى معلومه منهم ، فالخبر عنهم مردود إلى علمه ، ومصيرهم مردود إلى معلومه . وقد جاءت بذلك آثار كثيرة يؤيد بعضها بعضا : فمنها ما رواه الإمام أحمد فى مسنده والبزار أيضا باسناد صحيح ، فقال الامام أحمد : حدثنا معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال « أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لايسمع ، ورجل هرم ، ورجل أحمق ، ورجل مات فى الفترة . أما الأصم فيقول : رب لقد جاء الاسلام وأنا ما أسمع شيئاً . وأما الأحمق فيقول : رب لقد جاء الاسلام والصبيان يحذفونى بالبعر . وأما الهرم فيقول : رب لقد جاء الاسلام وما أعقل . وأما الذى فى الفترة فيقول : رب ما أتانى رسول . فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه . فيرسل اليهم رسولا أن ادخلوا النار . فوالذى نفسى بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً » قال معاذ [بن هشام] : وحدثنى أبى عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة بمثل هذا الحديث وقال فى آخره « فمن دخلها كانت عليه بردا وسلاما ومن لم يدخلها رد اليها » . وهو فى مسند اسحق عن معاذ بن هشام أيضا . ورواه البزار ولفظه عن الاسود بن سريع عن النبي ﷺ قال « يعرض على الله تبارك وتعالى الأصم الذى لا يسمع شيئا ، والاحمق ، والهرم ، ورجل مات فى الفترة . فيقول الأصم : رب جاء الاسلام وما أسمع شيئا . والأحمق يقول : رب جاء الاسلام وما أعقل شيئا . ويقول الذى مات فى الفترة : رب ما أتانى لك رسول . وذكر الهرم وما يقول . قال : فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه . فيرسل اليهم : ادخلوا النار . فوالذى نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما » قال الحافظ عبد الحق فى حديث الأسود : قد جاء هذا الحديث ، وهو صحيح فيما أعلم ، والآخرة ليست دار تكليف ولا عمل ، ولكن الله يخص من يشاء بما يشاء ، ويكلف من شاء ما شاء وحيثما شاء . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . قلت : وسيأتى الكلام على وقوع التكليف فى الدار الآخرة وامتناعه عن قريب إن شاء الله . ورواه على بن المدينى عن معاذ بنحوه . قال البيهق : حدثنا على ابن محمد بن بشران أخبرنا أبو جعفر الرازى أخبرنا حنبل بن الحسين أخبرنا على بن

عبد الله وقال : هذا اسناد صحيح . وأما حديث علي بن زيد بن جدعان عن أبي رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحوه . ورواه معمر عن عبد الله بن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة قوله . وروى محمد بن المبارك الصوري ثقة ، حدثنا عمرو بن واقد ضعيف ، حدثنا يونس بن ميسرة ثقة عن أبي ادريس الخولاني عن معاذ يرفعه « يؤتى يوم القيامة بالممسوخ عقلا ، وبالهالك في الفترة ، وبالهالك صغيراً . فيقول الممسوخ عقلا : يا رب لو آتيتني عقلا ما كان من آتيته عقلا بأسعد مني . ويقول الهالك في الفترة : يا رب لو أتاني منك عهد ما كان من أتاه منك عهد بأسعد بعهده مني . ويقول الهالك صغيراً : يا رب لو آتيتني عمرا ما كان من آتيته عمرا بأسعد مني . فيقول الرب سبحانه : لئن أمرتكم بأمر فتطيعوني؟ فيقولون : نعم وعزتك . فيقول : اذهبوا فادخلوا النار . فلو دخلوها ما ضرتهم . قال : فيخرج عليهم قوابص يظنون أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء . فيرجعون ويقولون : يا ربنا خرجنا وعزتك نريد دخولها ، فخرجت علينا قوابص من نار ظننا أنها قد أهلكت ما خلق الله من شيء . فيأمرهم الثانية ، فيرجعون كذلك ويقولون مثل قولهم ، فيقول الله : قبل أن تخلقوا علمت ما أنتم عاملون وعلى علمي خلقتكم وإلى علمي تصيرون ، فتأخذهم النار » فهذا وإن كان عمرو بن واقد لا يحتج به فله أصل وشواهد والأصول تشهد له ، وفي الباب أحاديث غير هذا . وقد رويت أحاديث الامتحان في الآخرة من حديث الأسود بن سريع وصححه عبد الحق والبيهقي من حديث أبي هريرة وأنس ومعاذ وأبي سعيد . فاما حديث الأسود فرواه معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الاسود بن سريع أن النبي ﷺ . قال معاذ : وحدثني أبي عن قتادة عن الحسن عن أبي رافع عن أبي هريرة . ورواه أحمد وإسحق عن معاذ ، ورواه حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان عن أبي رافع عن أبي هريرة ، ورواه معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبي هريرة موقوفا عليه ، وهذا لا يضر الحديث فانه إن سلك طريق ترجيح الزائد لزيادته فواضح ، وان سلك طريق المعارضة فغايتها تحقق الوقف ، ومثل هذا لا يقدم عليه بالرأى اذ لا مجال له فيقبل بجزم بأن هذا توقيف لا عن رأى . وأما حديث أنس فرواه جرير بن عبد الحميد عن ليث بن أبي سليم عن عبد الوارث عن أنس عن النبي ﷺ « يؤتى يوم القيامة باربعة :

بالمولود ، وبالمعتوه ، وبمن مات فى الفترة ، وبالشيخ الفانى كلهم يتكلم بحجته فيقول الرب سبحانه لعنق من جهنم : ابرزى . ويقول لهم : انى كنت أبعث إلى عبادى رسولا من أنفسهم وإنى رسول نفسى اليكم . قال ويقول لهم : ادخلوا هذه . ويقول من كتب عليه الشقاء : أنىٰ ندخلها ، ومنها كنا نفر ؟ فيقول الله : فأنتم لرسلى أشد تكذيباً . قال : وأما من كتب عليه السعادة فيمضى فيقتحم فيها . فيدخل هؤلاء الى الجنة وهؤلاء الى النار » وهذا وان لم يعتمد عليه بمجرده لمكان ليث بن أبى سليم عن عبد الوارث عن أنس عن النبى ﷺ [ ] . وأما حديث معاذ فتقدم الكلام عليه . وأما حديث أبى سعيد فرواه محمد بن يحيى الذهلى أخبرنا سعيد بن سليمان عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود يقول الهالك فى الفترة : لم يأتنى كتاب . ويقول المعتوه : رب لم تجعل لى عقلا أعقل به خيراً ولا شراً . ويقول المولود : رب لم أدرك العقل . فيرفع لهم نارا فيقول : ردوها . قال فيردها من كان فى علم الله سعيداً لو أدرك العمل ، ويمسك عنها من كان فى علم الله شقياً لو أدرك العمل . فيقول : إياى عصيتم . فكيف لو رسلى أتتكم » تابعه الحسن بن موسى عن فضيل . ورواه أبو نعيم عن فضيل بن مرزوق فوقفه . فهذا وإن كان فيه عطية فهو ممن يعتبر بحديثه ويستشهد به ، وإن لم يكن حجة . وأما الوقف فقد تقدم نظيره من حديث أبى هريرة . فهذه الأحاديث يشد بعضها بعضا وتشهد لها أصول الشرع وقواعده ، والقول بمضمونها هو مذهب السلف والسنة ، نقله عنهم الأشعرى رحمه الله فى (المقالات) وغيرها

فان قيل : قد أنكر ابن عبد البر هذه الأحاديث وقال : أهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب ، لأن الآخرة ليست دار عمل ولا ابتلاء ، وكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك فى وسع المخلوقين ، والله لا يكلف نفسا إلا وسعها ؟ فالجواب من وجوه : (أحدها) أن أهل العلم لم يتفقوا على إنكارها بل ولا أكثرهم ، وإن أنكرها بعضهم فقد صحح غيره بعضها كما تقدم . (الثانى) أن أبا الحسن الأشعرى حكى هذا المذهب عن أهل السنة والحديث ، فدل على أنهم ذهبوا إلى موجب هذه الأحاديث . (الثالث) أن إسناد حديث الأسود أجود من كثير من الأحاديث التى يحتج بها فى الأحكام ، ولهذا

رواه الأئمة أحمد وإسحق وعلى بن المدينى . (الرابع) أنه قد نص جماعة من الأئمة على وقوع الامتحان فى الدار الآخرة ، وقالوا : لا ينقطع التكليف إلا بدخول دار القرار ذكره البيهقى عن غير واحد من السلف . (الخامس) ما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة وأبى سعيد فى الرجل الذى هو آخر أهل الجنة دخولا اليها أن الله سبحانه وتعالى يأخذ عهوده ومواثيقه أن لا يسأله غير الذى يعطيه ، وأنه يخالفه ويسأله غيره ، فيقول الله تعالى « ما أغدرك » وهذا الغدر منه هو لمخالفته للعهد الذى عاهد ربه عليه . (السادس) قوله : وليس ذلك فى وسع المخلوقين . جوابه من وجهين ، أحدهما : أن ذلك ليس تكليفا بما ليس فى الوسع ، وانما هو تكليف بما فيه مشقة شديدة ، وهو كتكليف بنى إسرائيل قتل أولادهم وأزواجهم وآبائهم حين عبدوا العجل ، وكتكليف المؤمنين إذا رأوا الدجال ومعه مثال الجنة والنار أن يقعوا فى الذى يرونه ناراً . الثانى : أنهم لو أطاعوه ودخلوها لم يضرهم ، وكانت برداً وسلاما ، فلم يكلفوا بممتنع ولا بما لم يستطع . (السابع) أنه قد ثبت أنه سبحانه وتعالى يأمرهم فى القيامة بالسجود ويحول بين المنافقين وبينه ، وهذا تكليف بما ليس فى الوسع قطعا ، فكيف ينكر التكليف بدخول النار فى رأى العين إذا كانت سببا للنجاة؟ كما جعل قطع الصراط الذى هو أدق من الشعرة وأحد من السيف سببا كما قال أبو سعيد الخدرى « بلغنى أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف » رواه مسلم ، فركوب هذا الصراط الذى هو فى غاية المشقة كالنار ، ولهذا كلاهما يفضى منه الى النجاة والله أعلم . (الثامن) أن هذا استبعاد مجرد لا ترد بمثله الأحاديث ، والناس لهم طريقان : فمن سلك طريق المشيئة المجردة لم يمكنه أن يستبعد هذا التكليف ، ومن سلك طريق الحكمة والتعليل لم يكن معه حجة تنفى أن يكون هذا التكليف موافقا للحكم ، بل الأدلة الصحيحة تدل على أنه مقتضى الحكمة كما ذكرناه . (التاسع) أن فى أصح هذه الأحاديث وهو حديث الأسود أنهم يعطون ربهم المواثيق ليطيعنه فيما يأمرهم به ، فيامرهم أن يدخلوا نار الامتحان ، فيتركون الدخول معصية لأمره لا لعجزهم عنه . فكيف يقال انه ليس فى الوسع

فان قيل : فالآخرة دار جزاء ، وليست دار تكليف ، فكيف يمتحنون فى غير دار التكليف ؟ فالجواب : أن التكليف إنما ينقطع بعد دخول دار القرار ، وأما فى

البرزخ وعرصات القيامة فلا ينقطع ، وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسألة الملكين فى البرزخ وهى تكليف . وأما فى عرصة القيامة فقال تعالى (القلم ٤٢) : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ ساقٍ وَيُدْعَوْنَ إلىٰ السُّجُودِ فَلا يَسْتَطِيعُون ﴾ فهذا صريح فى أن الله يدعو الخلائق الى السجود يوم القيامة ، وأن الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك ، ويكون هذا التكليف بما لا يطاق حينئذ حساً عقوبة لهم ، لأنهم كلفوا به فى الدنيا وهم يطيقونه فلما امتنعوا منه وهو مقدور لهم كلفوا به وهم لا يقدرون عليه حسرة عليهم وعقوبة لهم ، ولهذا قال تعالى (٤٣) : ﴿ وَقَدْ كانُوا يُدْعَوْنَ إلىٰ السُّجُودِ وَهُمْ سالِمُون ﴾ دعوا اليه فى وقت حيل بينهم وبينه كما فى الصحيح من حديث زيد بن أسلم عن عطاء عن أبى سعيد رضى الله عنه « إن ناسا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا » ـ فذكر الحديث بطوله ، الى أن قال ـ « فيقول تتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فيقول المؤمنون : فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا اليهم ، ولم نصاحبهم . فيقول : أنا ربكم . فيقولون : نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئا ـ مرتين أو ثلاثا ـ حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها ؟ فيقولون نعم . فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ، ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقا واحدا كلما أراد أن يسجد خر على قفاه ثم يرفعون رءوسهم » وذكر الحديث . وهذا التكليف نظير تكليف البرزخ بالمسالة ، فمن أجاب فى الدنيا طوعا واختيارا أجاب فى البرزخ ، ومن امتنع من الاجابة فى الدنيا منع منها فى البرزخ ، ولم يكن تكليفه فى الحال وهو غير قادر قبيحا ، بل هو مقتضى الحكمة الإلهية ، لأنه مكلف وقت القدرة وأبىٰ ، فاذا كاف وقت العجز وقد حيل بينه وبين الفعل كان عقوبة له وحسرة . والمقصود أن التكليف لا ينقطع إلا بعد دخول الجنة أو النار . وقد تقدم أن حديث الأسود بن سريع صحيح ، وفيه التكليف فى عرصة القيامة ، فهو مطابق لما ذكرنا من النصوص الصحيحة الصريحة . فعلم أن الذى تدل عليه الأدلة الصحيحة وتأتلف به النصوص ومقتضى الحكمة هذا القول . والله أعلم

وقد حكى بعض أهل المقالات عن عامر بن أشرس أنه ذهب إلى أن الاطفال يصيرون فى يوم القيامة ترابا ، وقد نقل عن ابن عباس ومحمد بن الحنفية والقاسم بن محمد

وغيرهم انهم كرهوا الكلام فى هذه المسئلة جملة

﴿ الطبقة الخامسة عشرة ﴾ طبقة الزنادقة ، وهم قوم أظهروا الاسلام ومتابعة الرسل ، وأبطنوا الكفر ومعاداة الله ورسله . وهؤلاء المنافقون ، وهم فى الدرك الأسفل من النار . قال تعالى (النساء ١٤٥) : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ فالكفار المجاهرون بكفرهم أخف ، وهم فوقهم فى دركات النار . لأن الطائفتين اشتركتا فى الكفر ومعاداة الله ورسله ، وزاد المنافقون عليهم بالكذب والنفاق ، وبلية المسلمين بهم أعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ، ولهذا قال تعالى فى حقهم (المنافقون ٤) : ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ ومثل هذا اللفظ يقتضى الحصر ، أى لا عدو إلا هم ، ولكن لم يرد ها هنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم ، بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم فى هذا الوصف ، وأنه لا يتوهم بانتسابهم الى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا باعدائهم ، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم فى الدار ، ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها . فان ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم ـ وهم فى الباطن على خلاف دينهم ـ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم ، لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياما ثم ينقضى ويعقبه النصر والظفر ، وهؤلاء معهم فى الديار والمنازل صباحا ومساء ، يدلون العدو على عوراتهم ، ويتربصون بهم الدوائر ، ولا يمكنهم مناجزتهم . فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر ، فلهذا قيل ﴿ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ لا على معنى أنه لا عدو لكم سواهم ، بل على معنى أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدوا من الكفار المجاهرين . ونظير ذلك قول النبي ﷺ « ليس المسكين الطواف الذى ترده اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يسأل الناس ، ولا يفطن له فيتصدق عليه » فليس هذا نفيا لاسم المسكين عن الطواف ، بل إخبار بان هذا القانع الذى لا يسمونه مسكينا أحق بهذا الاسم من الطواف الذى يسمونه مسكينا . ونظيره قوله ﷺ « ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب » ليس نفيا للاسم عن الصرعة ، ولكن إخبار بان من يملك نفسه عند الغضب أحق منه بهذا الاسم . ونظيره قوله ﷺ

« ما تعدون المفلس فيكم » ؟ قالوا : من لا درهم له ولا متاع . قال « المفلس من ياتى يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ، وياتى قد لطم هذا وضرب هذا وأخذ مال هذا ، فيقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فان فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من سيئاتهم ثم طرح عليه فالقى فى النار » ونظيره قوله ﷺ « ما تعدون الرقوب فيكم[1] » ؟ قالوا : من لا يولد له . قال « الرقوب من لم يقدم من ولده شيئاً » . ومنه عندى قوله ﷺ « الربا فى النسيئة » وفى لفظ « إنما الربا فى النسيئة » هو إثبات لأن هذا النوع هو أحق باسم الربا من ربا الفضل ، وليس فيه نفى اسم الربا عن ربا الفضل . فتامله . والمقصود أن هذه الطبقة أشقى الأشقياء ، ولهذا يستهزأ بهم فى الآخرة ، وتعطى نورا يتوسطون به على الصراط ثم يطفىء الله نورهم ويقال لهم (الحديد ١٣-١٤) ﴿ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً ﴾ ويضرب بينهم وبين المؤمنين ﴿ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ . قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ ، وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح ، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة ، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه . وإنما كانت هذه الطبقة فى الدرك الأسفل لغلظ كفرهم ، فانهم خالطوا المسلمين وعاشروهم ، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء ، ووصل اليهم من معرفته وصحته ما لم يصل الى المنابذين بالعداوة ، فاذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرا وأخبث قلوبا ، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم ، وان كان البعداء متصدين لحرب المسلمين . ولهذا قال تعالى فى المنافقين (٣) : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ وقال تعالى فيهم (البقرة ١٨) : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ وقال تعالى فى الكفار (البقرة ١٧١) : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فالكافر لم يعقل ، والمنافق أبصر ثم عمى وعرف ثم تجاهل وأقر ثم

(١) الرقوب : الزوجان إذا لم يعش لهما ولد

أنكر وآمن ثم كفر ، ومن كان هكذا كان أشد كفرا وأخبث قلبا وأعتى على الله ورسله ، فاستحق الدرك الأسفل . وفيه معنى آخر أيضا ، وهو أن الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين ، فيرضوا المؤمنين ليعزوهم ، ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضا . ومن ههنا دخل عليهم البلاء ، فانهم أرادوا العزتين من الطائفتين ، ولم يكن لهم غرض فى الايمان والاسلام ولا طاعة الله ورسوله ، بل كان ميلهم وصغوهم وجهتهم إلى الكفار ، فقوبلوا على ذلك بأعظم الذل ، وهو أن جعل مستقرهم فى أسفل السافلين تحت الكفار . فما اتصف به المنافقون من مخادعة الله ورسوله والذين آمنوا ، والاستهزاء بأهل الايمان والكذب ، والتلاعب بالدين وإظهار أنهم من المؤمنين ، وأبطنوا قلوبهم على الكفر والشرك وعداوة الله ورسوله أمر اختصوا به عن الكفار فتغلظ كفرهم به ، فاستحقوا الدرك الاسفل من النار . ولهذا لما ذكر تعالى أقسام الخلق فى أول سورة البقرة (٢ ـ ٢٠) فقسمهم إلى مؤمن ظاهرا وباطنا ، وكافر ظاهرا وباطنا ، ومؤمن فى الظاهر كافر فى الباطن وهم المنافقون ، ذكر فى حق المؤمنين ثلاث آيات (٣ ـ ٥) ، وفى حق الكفار آيتين (٦ ـ ٧) . فلما انتهى إلى ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة آية (٨ ـ ٢٠) ذمهم فيها غاية الذم ، وكشف عوراتهم وقبحهم وفضحهم ، وأخـــبر أنهم هم السفهاء المفسدون فى الأرض المخادعون المستهزئون المغبونون فى اشترائهم الضلالة بالهدى ، وأنهم صم بكم عمى فهم لا يرجعون ، وأنهم مرضى القلوب وأن الله يزيدهم مرضا إلى مرضهم ، فلم يدع ذما ولا عيبا إلا ذمهم به . وهذا يدل على شدة مقته سبحانه لهم ، وبغضه إياهم ، وعداوته لهم ، وأنهم أبغض أعدائه اليه . فظهرت حكمته الباهرة فى تخصيص هذه الطبقة بالدرك الاسفل من النار . نعوذ بالله من مثل حالهم ، ونسأله معافاته ورحمته . ومن تأمل ما وصف الله به المنافقين فى القرآن من صفات الذم علم أنهم أحق بالدرك الاسفل ، فانه وصفهم بمخادعته ومخادعة عباده . ووصف قلوبهم بالمرض ، وهو مرض الشبهات والشكوك . ووصفهم بالافساد فى الارض ، وبالاستهزاء بدينه وبعباده ، وبالطغيان ، واشتراء الضلالة بالهدى ، والصمم والبكم والعمى ، والحيرة والكسل عند عبادته ، والزنا ، وقلة ذكره ، والتردد ـ وهو التذبذب ـ بين المؤمنين والكفار ، فلا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، والحلف باسمه تعالى

كذبا وباطلا وبالكذب ، وبغاية الجبن ، وبعدم الفقه فى الدين وبعدم العلم ، وبالبخل ، وبعدم الايمان بالله وباليوم الآخر وبالرب ، وبأنهم مضرة على المؤمنين ولا يحصل لهم بنصيحتهم إلا الشر من الخبال والاسراع بينهم بالشر وإلقاء الفتنة ، وكراهتهم لظهور أمر الله ، ومحو الحق ، وأنهم يحزنون بما يحصل للمؤمنين من الخير والنصر ، ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلاء ، وأنهم يتربصون الدوائر بالمسلمين ، وبكراهتهم الإنفاق فى مرضاة الله وسبيله ، وبعيب المؤمنين ورميهم بما ليس فيهم ، فيلمزون المتصدقين ، ويعيبون مزهدهم ، ويرمون بالرياء وإراءة الثناء فى الناس مكثرهم ، وأنهم عبيد الدنيا إن أعطوا منها رضوا وإن منعوا سخطوا ، وبأنهم يؤذون رسول الله ﷺ وينسبونه الى ما برأه الله منه ويعيبونه بما هو من كماله وفضله ، وأنهم يقصدون إرضاء المخلوقين ولا يطلبون إرضاء رب العالمين ، وأنهم يسخرون من المؤمنين ، وأنهم يفرحون إذا تخلفوا عن رسول الله ﷺ ، ويكرهون الجهاد فى سبيل الله ، وأنهم يتحيلون على تعطيل فرائض الله عليهم بأنواع الحيل ، وأنهم يرضون بالتخلف عن طاعة الله ورسوله ، وأنهم مطبوع على قلوبهم ، وأنهم يتركون ما أوجب الله عليهم مع قدرتهم عليه ، وأنهم أحلف الناس بالله : قد اتخذوا أيمانهم جُنة تقيهم من إنكار المسلمين عليهم ، وهذا شأن المنافق أحلف الناس بالله كاذبا قد اتخذ يمينه جنة ووقاية يتقى بها إنكار المسلمين عليه ، ووصفهم بأنهم رجس - والرجس من كل جنس أخبثه وأقذره - فهم أخبث بنى آدم وأقذرهم وأرذلهم ، وبأنهم فاسقون ، وبانهم مضرة على أهل الايمان يقصدون التفريق بينهم ، ويؤوون من حاربهم وحارب الله ورسوله ، وأنهم يتشبهون بهم ويضاهونهم فى أعمالهم ليتوصلوا منها الى الاضرار بهم وتفريق كلمتهم ، وهذا شأن المنافقين أبدا ، وبأنهم فتنوا أنفسهم بكفرهم بالله ورسوله وتربصوا بالمسلمين دوائر السوء ، وهذه عادتهم فى كل زمان ، وارتابوا فى الدين فلم يصدقوا به ، وغرتهم الأمانى الباطلة وغرهم الشيطان ، وأنهم أحسن الناس أجساما تعجب الرائى أجسامهم ، والسامع منطقهم ، فاذا جاوزت أجسامهم وقولهم رأيت خشبا مسندة ، لا إيمان ولا فقه ، ولا علم ولا صدق ، بل خشب قد كسيت كسوة تروق الناظر ، وليسوا وراء ذلك شيئا ، وإذا عرض عليهم التوبة والاستغفار أبوها

وزعموا أنهم لا حاجة لهم اليها ، إما لأن ما عندهم من الزندقة والجهل المركب مغن عنها وعن الطاعات جملة ـ كحال كثير من الزنادقة ـ وإما احتقارا وازدراء بمن يدعوهم الى ذلك ، ووصفهم سبحانه بالاستهزاء به وبآياته وبرسوله وبأنهم مجرمون وبأنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم عن الانفاق فى مرضاته ، ونسيان ذكره ، وبأنهم يتولون الكفار ويدعون المؤمنين ، وبأن الشيطان قد استحوذ عليهم وغلب عليهم حتى أنساهم ذكر الله فلا يذكرونه إلا قليلا ، وأنهم حزب الشيطان وأنهم يوادون من حاد الله ورسوله وبأنهم يتمنون ما يعنت المؤمنين ويشق عليهم ، وأن البغضاء تبدو لهم من أفواههم وعلى فلتات ألسنتهم ، وبأنهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم . ومن صفاتهم التى وصفهم بها رسول الله ﷺ الكذب فى الحديث والخيانة فى الأمانة ، والغدر عند العهد ، والفجور عند الخصام ، والخلف عند الوعد ، وتأخير الصلاة إلى آخر وقتها ، ونقرها بعجلة وإسراعا ، وترك حضورها جماعة ، وأن أثقل الصلوات عليهم الصبح والعشاء . ومن صفاتهم التى وصفهم الله بها الشح على المؤمنين بالخير ، والجبن عند الخوف ، فاذا ذهب الخوف وجاء الأمن سلقوا المؤمنين بألسنة حداد ، فهم أحدّ الناس ألسنة عليهم كما قيل :

جهلا علينا وجبنا عن عدوكم ... لبئست الخلتان الجهل والجبن

وانهم عند المخاوف تظهر كائن صدورهم ومخبآتها ، وأما عند الأمن فيجب ستره ، فاذا لحق المسلمين خوف دبت عقارب قلوبهم ، وظهرت المخبآت وبدت الأسرار . ومن صفاتهم أنهم أعذب الناس ألسنة ، وأمرّهم قلوبا ، وأعظم الناس خلفا بين أعمالهم وأقوالهم . ومن صفاتهم أنهم لا يجتمع فيهم حسن صمت وفقه فى دين أبدا . ومن صفاتهم أن أعمالهم تكذب أقوالهم ، وباطنهم يكذب ظاهرهم . وسرائرهم تناقض علانيتهم . ومن صفاتهم أن المؤمن لا يثق بهم فى شىء فانهم قد أعدوا لكل أمر مخرجا منه ، بحق أو بباطل ، بصدق أو بكذب ، ولهذا سمى منافقا أخذا من نافقاء اليربوع ـ وهو بيت يحفره ويجعل له أسرابا مختلفة ـ فكلما طلب من سرب خرج من سربه آخر ، فلا يتمكن طالبه من حصره فى سرب واحد ، قال الشاعر :

ويستخرج اليربوع من نافقائه ومن جحره بالشيحة اليتقصع[1]

فانت منه كقابض على الماء ، ليس معك منه شيء . ومن صفاتهم كثرة التلون ، وسرعة التقلب ، وعدم الثبات على حال واحد : بينا تراه على حال تعجبك من دين أو عبادة أو هدى صالح أو صدق ، إذ انقلب إلى ضد ذلك كانه لم يعرف غيره ، فهو أشد الناس تلونا وتقلبا وتنقلا ، جيفة بالليـــل قطرب بالنهار[2] . ومن صفاتهم أنك اذا دعوتهم عند المنازعة للتحاكم إلى القرآن والسنة أبوا ذلك وأعرضوا عنه ، ودعوك إلى التحاكم الى طواغيتهم ، قال تعالى (النساء ٦٠ - ٦٣) : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَىٰ الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً . وَإِذا قِيلَ لَهُمْ تَعالَوْا إِلَىٰ ما أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودا . فَكَيْفَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنا إِلاَّ إِحْساناً وَتَوْفِيقاً . أُولٰئِكَ الَّذِي يَعْلَمُ اللهُ مافِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً ﴾ . ومن صفاتهم : معارضة ما جاء به الرسول ﷺ بعقول الرجال وآرائهم ، ثم تقديمها على ما جاء به . فهم معرضون عنه ، معارضون له ، زاعمون أن الهدى فى آراء الرجال وعقولهم ، دون ما جاء به . فلو أعرضوا عنه وتعوضوا بغيره لكانوا منافقين ، فكيف اذا جمعوا مع ذلك معارضته وزعموا أنه لا يستفاد منه هدى . ومن صفاتهم : كتمان الحق ، والتلبيس على أهله ، ورميهم له بأدوائهم : فيرمونهم - إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ودعوا الى الله ورسوله - بأنهم أهل فتن مفسدون فى الارض . وقد علم الله ورسوله والمؤمنون بأنهم أهل الفتن المفسدون فى الأرض ، وإذا دعاهم ورثة الرسول الى كتاب الله وسنة رسوله خالصة غير مشوبة رموهم بالبدع والضلال ، واذا رأوهم زاهدين فى الدنيا راغبين فى الآخرة متمسكين بطاعة الله ورسوله

---

(١) البيت لذى الخرق الطهوى ، تكلم عليه البغدادى فى الشاهد الأول من (خزانة الأدب) ص ٤٠ — ٥٣ ج ١ طبع السلفية ، فارجع اليه إن شئت

(٢) القطرب : دويبة لا تستريح نهارها سعيا

رموهم بالزوكرة [1] والتلبيس والمحال . وإذا رأوا معهم حقا ألبسوه لباس الباطل ، وأخرجوه لضعفاء العقول فى قالب شنيع لينفروهم عنه ، واذا كان معهم باطل ألبسوه لباس الحق وأخرجوه فى قالبه ليقبل منهم . وجملة أمرهم أنهم فى المسلمين كالزغل فى النقود ، يروج على أكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد ، ويعرف حاله الناقد البصير من الناس ، وقليل ماهم . وليس على الأديان أضر من هذا الضرب من الناس ، وإنما تفسد الاديان من قبلهم ، ولهذا جلا الله أمرهم فى القرآن ، وأوضح أوصافهم وبين أحوالهم وكرر ذكرهم ، لشدة المؤنة على الأمة بهم وعظم البلية عليهم بوجودهم بين أظهرهم وفرط حاجتهم إلى معرفتهم والتحرز من مشابهتهم والاصغاء اليهم ، فكم قطعوا على السالكين إلى الله طرق الهدى ، وسلكوا بهم سبيل الردى : وعدوهم ومنوهم ، ولكن وعدوهم الغرور ، ومنوهم الويل والثبور . فكم لهم من قتيل ، ولكن فى سبيل الشيطان . وسليب ولكن للباس التقوى والايمان . وأسير لا يرجى له الخلاص ، وفارّ من الله لا اليه ، وهيهات ولات حين مناص . صحبتهم توجب العار والشنار ، ومودتهم تحل غضب الجبار وتوجب دخول النار . من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب رأيهم مزقت منه ثياب الدين والايمان ، وقطعت له مقطعات من البلاء والخذلان ، فهو يسحب من الحرمان والشقاوة أذيالا ، ويمشى على عقبيه القهقرى ادبارا منه وهو يحسب ذلك إقبالا . فهم والله قطاع الطريق . فيا أيها الركب المسافرون إلى منازل السعداء ، حذار منهم حذار ، إذ هم الجزارون ألسنتهم شفار البلايا . ففراراً منهم أيها الغنم فرارا . ومن البلية أنهم الأعداء حقا وليس لنا بد من مصاحبتهم ، وخلطتهم أعظم الداء وليس بد من مخالطتهم . قد جعلوا على أبواب جهنم دعاة اليها فبعداً للمستجيبين ، ونصبوا شباكهم حواليها على ما حفت به من الشهوات ، فويل للمغترين . نصبوا الشباك ومدوا الأشراك وأذن مؤذنهم : يا شياه الأنعام حى على الهلاك ، حى على التباب . فاستبقوا يهرعون اليهم ، فأوردوهم حياض العذاب ، لا الموارد العذاب . وساموهم من الخسف والبلاء أعظم خطة ، وقالوا ادخلوا باب الهوان صاغرين ولا تقولوا حطة ، فليس بيوم حطة . فواعجبا لمن نجا من شراكهم لا من علق ، وأنى ينجو من غلبت عليه شقاوته ولها خلق .

---

(١) الزوكرة : إظهار النسك وإبطان الفسق . نقله فى التاج عن نفح الطيب

لحقيق بأهل هذه الطبقة أن يحلوا بالمحل الذى أحلهم الله من دار الهوان ، وأن ينزلوا فى أردأ منازل أهل العناد والكفران . وبحسب إيمان العبد ومعرفته يكون خوفه أن يكون من أهل هذه الطبقة ، ولهذا اشتد خوف سادة الامة وسابقوها على أنفسهم أن يكونوا منهم ، فكان عمر بن الخطاب يقول : يا حذيفة ، ناشدتك الله ، هل سمانى رسول الله ﷺ مع القوم ؟ فيقول : لا ، ولا أزكى بعدك احدا (١). يعنى لا أفتح علىّ هـذا الباب فى تزكية الناس ، وليس معناه أنه لم يبرأ من النفاق غيرك . وقال ابن أبى مليكة : ادركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول إنه على إيمان جبرائيل وميكائيل

﴿ الطبقة السادسة عشرة ﴾ رؤساء الكفر وأئمته ، ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الإيمان وعن الدخول فى دينه رغبة ورهبة ، فهؤلاء عذابهم مضاعف ، ولهم عذابان : عذاب بالكفر ، وعذاب بصد الناس عن الدخول فى الايمان . قال الله تعالى (النحل ٨٨) : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذاباً فَوْقَ الْعَذابِ ﴾ فأحد العذابين بكفرهم ، والعذاب الآخر بصدهم عن سبيل الله . وقد استقرت حكمة الله وعدله أن يجعل على الداعى الى الضلال مثل آثام من اتبعه واستجاب له ، ولا ريب أن عذاب هذا يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به . وهذا النوع فى الأشقياء مقابل دعاة الهدى فى السعداء ، فأولئك يتضاعف ثوابهم وتعلو درجاتهم بحسب من اتبعهم واهتدى بهم ، وهؤلاء عكسهم ، ولهذا كان فرعون وقومه فى أشد العذاب ، قال تعالى فى حقهم (غافر ٤٦) : ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ ﴾ وهذا تنبيه على أن فرعون نفسه فى الأشد من ذلك ، لأنهم إنما دخلوا أشد العذاب تبعا له ، فانه هو الذى استخفهم فاطاعوه ، وغرهم فاتبعوه . ولهذا يكون يوم القيامة أمامهم وفرطهم فى هذا الورد ، قال تعالى (هود ٩٨) : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ . والمقصود : أنهم استحقوا أشد العذاب لغلظ كفرهم ، وصدهم عن سبيل الله ، وعقوبتهم من آمن بالله .

---

(١) رواه البخارى . وحذيفة كان موضع سر النبى صلى الله عليه وسلم فى أمر المنافقين

فليس عذاب الرؤساء فى النار كعذاب أتباعهم ، ولهذا كان فى كتاب النبي ﷺ لهرقل « فان توليت فان عليك إثم الأريسيين » والصحيح فى اللفظ أنهم الأتباع . ولهذا كان عدو الله ابليس أشد أهل النار عذابا ، وهو أول من يكسى حلة من النار ، لأنه إمام كل كفر وشرك وشر . فما عصى الله إلا على يديه وبسببه ، ثم الأمثل فالأمثل من نوابه فى الأرض ودعاته . ولا ريب أن الكفر يتفاوت ، فكفر أغلظ من كفر . كما أن الايمان يتفاوت ، فايمان أفضل من إيمان . فكما أن المؤمنين ليسوا فى درجة واحدة بل هم درجات عند الله ، فكذلك الكفار ليسوا فى طبقة واحدة ودرك واحد بل النار دركات كما أن الجنة درجات . ولا يظلم الله من خلقه أحدا . وهو الغنى الحميد

﴿ فصل ﴾ وغلظ الكفر الموجب لغلظ العذاب يكون من ثلاثة أوجه : (أحدها) من حيث العقيدة الكافرة فى نفسها ، كمن جحد رب العالمين بالكلية وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له ، فلم يؤمن بالله وملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الآخر . ولهذا لا يقر أرباب هذا الكفر بالجزية عند كثير من العلماء ، ولا تؤكل ذبائحهم ، ولا تنكح نساؤهم اتفاقا لتغلظ كفرهم ، وهولاء هم المعطلة والدهرية وكثير من الفلاسفة وأهل الوحدة القائلين بأنه لا وجود للرب سبحانه وتعالى غير وجود هـذا العالم . (الجهة الثانية) تغلظه بالعناد والضلال عمدا على بصيرة . ككفر من شهد قلبه أن الرسول حق لما رآه من آيات صدقه ، وكفر عنادا وبغيا . كقوم ثمود ، وقوم فرعون ، واليهود الذين عرفوا الرسول كما عرفوا أبناءهم ، وكفر أبى جهل ، وأمية بن أبى الصلت وأمثال هؤلاء . (الجهة الثالثة) السعى فى إطفاء نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل اليه قدرتهم ، فهؤلاء أشد الكفار عذابا بحسب تغلظ كفرهم ، ومنهم من يجتمع فى حقه الجهات الثلاث ، ومنهم من يكون فيه جهتان منها أو واحدة . فليس عذاب هؤلاء كعذاب من هو دونهم فى الكفر ممن هو ملبوس عليه لجهله ، والمؤمنون من أذاه فى سلامة لا ينالهم منه أذى ، ولم يتغلظ كفره كتغلظ هؤلاء ، بل هو مقر بالله ووحدانيته وملائكته وجنس الكتب والرسل واليوم الآخر . وإن شارك أولئك فى كفرهم بالرسول فقد زادوا عليه أنواعا من الكفر . وهل يستوى فى النار عذاب أبى طالب وأبى لهب وأبى جهل وعقبة بن أبى معيط وأبىّ بن خاف وأضرابهم ؟ والمقصود أن

هذه الطبقة وهى طبقة الرؤساء الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة من دونهم ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال « أهون أهل النار عذابا أبو طالب » ، ومعلوم أن كفر أبى طالب لم يكن مثل كفر أبى جهل وأمثاله

﴿ الطبقة السابعة عشرة ﴾ طبقة المقلدين وجهال الكفرة وأتباعهم وحميرهم الذين هم معهم تبعا لهم يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على أسوة بهم . ومع هذا فهم متاركون لأهل الاسلام غير محاربين لهم ، كنساء المحاربين وخدمهم وأتباعهم الذين لم ينصبوا أنفسهم لما نصب له أولئك أنفسهم من السعى فى إطفاء نور الله وهدم دينه واخماد كلماته ، بل هم بمنزلة الدواب . وقد اتفقت الأمة على أن هذه الطبقة كفار وان كانوا جهالا مقلدين لروسائهم وأئمتهم ، إلا ما يحكى عن بعض أهل البدع أنه لم يحكم لهؤلاء بالنار وجعلهم بمنزلة من لم تبلغه الدعوة ، وهذا مذهب لم يقل به أحد من أئمة المسلمين لا الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم ، وإنما يعرف عن بعض أهل الكلام المحدث فى الاسلام . وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال « ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » فأخبر أن أبويه ينقلانه عن الفطرة إلى اليهودية والنصرانية والمجوسية ، ولم يعتبر فى ذلك غير المربى والمنشأ على ما عليه الأبوان . وصح عنه أنه قال ﷺ « إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة » وهذا المقلد ليس بمسلم ، وهو عاقل مكلف ، والعاقل المكلف لا يخرج عن الاسلام أو الكفر . وأما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف فى تلك الحال ، وهو بمنزلة الأطفال والمجانين . وقد تقدم الكلام عليهم . والاسلام هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، والايمان بالله وبرسوله واتباعه فيما جاء به ، فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم ، وان لم يكن كافرا معانداً فهو كافر جاهل . فغاية هذه الطبقة أنهم كفار جهال غير معاندين ، وعدم عنادهم لا يخرجهم عن كونهم كفارا ، فان الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله إما عنادا أو جهلا وتقليدا لأهل العناد . فهذا وان كان غايته أنه غير معاند فهو متبع لأهل العناد ، وقد أخبر الله فى القرآن فى غير موضع بعذاب المقلدين لاسلافهم من الكفار ، وأن الأتباع مع متبوعهم وأنهم يتحاجون فى النار وأن الاتباع يقولون (الأعراف ٣٨) : ﴿ رَبَّنَا هٰؤُلاءِ أَضَلُّونا فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّار ، قالَ لِكُلٍّ

ضِعْفٌ وَلَـكِنْ لا تَعْلَمُون ﴾ وقال تعالى (غافر ٤٧ - ٤٨) : ﴿ وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ . قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيها إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِباد ﴾ وقال تعالى (سبأ ٣١ - ٣٣) : ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِين . قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِين . وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً ﴾ فهذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا فى العذاب ، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئا . وأصرح من هذا قوله تعالى (البقرة ١٦٦ - ١٦٧) : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ . وَقالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَما تَبَرَّؤُا مِنَّا ﴾ وصح عن النبي ﷺ أنه قال « من دعا الى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه . لا ينقص من أوزارهم شيئا » وهذا يدل على أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم

نعم لا بد فى هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال ، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه ، ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه ، والقسمان واقعان فى الوجود ، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله ، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذى لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان أيضا : أحدهما مريد للهدى مؤثر له محب له ، غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم من يرشده ، فهذا حكمه حكم أرباب الفترات ، ومن لم تبلغه الدعوة . الثانى معرض لا إرادة له ، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه . فالأول يقول : يا رب لو أعلم لك دينا خيرا مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه ، ولكن لا أعرف سوى ما أنا عليه ولا أقدر على غيره ، فهو غاية جهدى ونهاية معرفتى . والثانى : راض بما هو عليه لا يؤثر غيره عليه ولا تطلب نفسه

سواه ، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته ، وكلاهما عاجز ، وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق : فالأول كمن طلب الدين فى الفترة ولم يظفر به فعدل عنه بعد استفراغ الوسع فى طلبه عجزا وجهلا ، والثانى كمن لم يطلبه بل مات على شركه وإن كان لو طلبه لعجز عنه ، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض . فتأمل هذا الموضع ، والله يقضى بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله ، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل ، فهذا مقطوع به فى جملة الخلق . وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا ، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه ، بل الواجب على العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر ، وأن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول . هذا فى الجملة ، والتعيين موكول إلى علم الله وحكمه . هذا فى أحكام الثواب والعقاب ، وأما فى أحكام الدنيا فهى جارية على ظاهر الأمر : فاطفال الكفار ومجانينهم كفار فى أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم . وبهذا التفصيل يزول الاشكال فى المسألة . وهو مبنى على أربعة أصول :

(أحدها) أن الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحدا إلا بعد قيام الحجة عليه ، كما قال تعالى (الاسراء ١٥) : ﴿ وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وقال تعالى (النساء ١٦٥) : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ وقال تعالى (الملك ٧ - ٩) : ﴿ كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُها أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قالُوا بَلىٰ قَدْ جاءَنا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنا وَقُلْنا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وقال تعالى (الملك ١١) ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحابِ السَّعِيرِ ﴾ وقال تعالى (الأنعام ١٣٠) : ﴿ يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آياتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هٰذَا ؟ قالُوا شَهِدْنا عَلَى أَنْفُسِنا ، وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كانُوا كافِرِينَ ﴾ وهذا كثير فى القرآن ، يخبر أنه إنما يعذّب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة ، وهو المذنب الذى يعترف بذنبه ، وقال تعالى (الزخرف ٧٦) : ﴿ وَما ظَلَمْناهُمْ وَلٰكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ والظالم من عرف ما جاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه ، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم ؟

(الأصل الثانى) أن العذاب يستحق بسببين ، أحدهما : الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها . الثانى : العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها . فالأول كفر إعراض ، والثانى كفر عناد . وأما كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذى نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل

(الأصل الثالث) أن قيام الحجة يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأشخاص فقد تقوم حجة الله على الكفار فى زمان دون زمان وفى بقعة وناحية دون أخرى كما أنها تقوم على شخص دون آخر ، إما لعدم عقله وتمييزه كالصغير والمجنون ، وإما لعدم فهمه كالذى لا يفهم الخطاب ولم يحضر ترجمان يترجم له . فهذا بمنزلة الأصم الذى لا يسمع شيئا ولا يتمكن من الفهم ، وهو أحد الأربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيامة كما تقدم فى حديث الأسود وأبى هريرة وغيرهما

(الأصل الرابع) أن أفعال الله سبحانه وتعالى تابعة لحكمته التى لا يخل بها ، وأنها مقصودة لغاياتها المحمودة وعواقبها الحميدة . وهذا الأصل هو أساس الكلام فى هذه الطبقات ، إلا من عرف مافى كتب الناس ووقف على أقوال الطوائف فى هذا الباب وانتهى الى غاية مراتبهم ونهاية إقدامهم ، والله الموفق للسداد الهادى الى الرشاد . وأما من لم يثبت حكمة ولا تعليلا ، ورد الأمر الى محض المشيئة التى ترجح أحد المثلين على الآخر بلا مرجح ، فقد أراح نفسه من هذا المقام الضنك ، واقتحام عقبات هذه المسائل العظيمة ، وأدخلها كلها تحت قوله (الانبياء ٢٣) : ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ وهو الفعال لما يريد ، وصدق الله وهو أصدق القائلين ﴿ لا يسأل عما يفعل ﴾ لكمال حكمته وعلمه ووضعه الأشياء مواضعها ، وأنه ليس فى أفعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسأل عنه كما يسأل المخلوق ، وهو الفعال لما يريد ولكن لا يريد أن يفعل إلا ما هو خير ومصلحة ورحمة وحكمة ، فلا يفعل الشر ولا الفساد ولا الجور ولا خلاف مقتضى حكمته ، لكمال أسمائه وصفاته ، وهو الغنى الحميد العليم الحكيم

﴿ الطبقة الثامنة عشرة ﴾ طبقة الجن ، وقد اتفق المسلمون على أن منهم المؤمن والكافر والبر والفاجر . قال تعالى إخبارا عنهم (الجن ١١) : ﴿ وأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ

وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ قال مجاهد : يعنون مسلمين وكافرين . وقال الحسن والسدى : أمثالكم ، فنهم قدرية ومرجئة ورافضة . وقال سعيد بن جبير : ألوانا شتى . وقال ابن كيسان : شيعا وفرقا . ومعنى الكلام : أصنافا مختلفة ومذاهب متفرقة . ثم قيل فى اعراب الآية ﴿ ومنا دون ذلك ﴾ قوم دون ذلك فحذف الموصوف وأقام صفته مقامه كقوله (الصافات ١٦٤) : ﴿ وَما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ ﴾ أى إلا من له مقام معلوم ، وكقوله (المائدة ٤١) : ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ أى فريق سماعون ، وكقوله (النساء ٤٥) : ﴿ مِنَ الَّذِينَ هادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَواضِعِهِ ﴾ أى فريق يحرفون ، وكقوله على أظهر القولين (البقرة ٩٦) : ﴿ ومِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ ﴾ أى فريق يود أحدهم ، وقال الشاعر :

فظلوا ومنهم دمعه سابق لهم وآخر يذرى دمعة العين بالمهل

أى ومنهم من دمعه . وقولهم ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ بيان لقولهم ﴿ مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُون ذَٰلِكَ ﴾ أى كنا ذوى طرائق ـ وهى المذاهب ـ واحدها طريقة وهى المذهب ، والقدد جمع قدة ، كقطعة وقطع وزنا ومعنى . وهى من القد وهو القطع ؛ وقيل : كنا فى اختلاف أحوالنا مثل الطرائق المختلفة فى اختلافها ، وعلى هذا فالمعنى كنا طرائق قددا وليس بشىء ، وأضعف منه قول من قال : إن طرائق منصوب على الظرف ، أى كنا فى طرق مختلفة كقوله : « عسل الطريق الثعلب » وهذا مما لا يحمل عليه أفصح الكلام . وقيل : المعنى كانت طرائقنا طرائق قددا ، فحذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه . وقال تعالى إخبارا عنهم (الجن ١٤) : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا القاسِطُونَ ﴾ فالمسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله منهم ، والقاسطون الجائرون العادلون عن الحق ، قال ابن عباس : هم الذين جعلوا لله أندادا ، يقال أقسط الرجل إذا عدل ، فهو مقسط . ومنه (الحجرات ٩) : ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ ، وقسط إذا جار فهو قاسط ﴿ وَأَمَّا القاسِطُونَ فَكانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ (الجن ١٥) . قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم الى ثلاث طبقات : صالحين ، ودون الصالحين ، وكفار . وهذه

الطبقات بازاء طبقات بنى آدم فانها ثلاثة : أبرار ، ومقتصدون ، وكفار . فالصالحون بازاء الأبرار ، ومن دونهم بازاء المقتصدين ، والقاسطون بازاء الكفار . وهذا كما قسم سبحانه بنى إسرائيل الى هذه الاقسام الثلاثة فى قوله (الاعراف ١٦٨) : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ، مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ فهؤلاء الناجون منهم ، ثم ذكر الظالمين ، وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم . ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولا ازدادوا عليهم بثلاثة أصناف أخر ليس شيء منها للجن ، وهم : الرسل ، والانبياء ، والمقربون . فليس فى الجن صنف من هؤلاء ، بل حليتهم الصلاح : وذهب شذاذ من الناس الى أن فيهم الرسل والأنبياء محتجين على ذلك بقوله تعالى (الانعام ١٣٠) : ﴿ يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ وبقوله (الاحقاف ٢٩) : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ ـ الى قوله ـ مُنْذِرِين ﴾ وقد قال الله تعالى (النساء ١٦٥) : ﴿ رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ﴾ وهذا قول شاذ لا يلتفت اليه ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الاسلام ، وقوله تعالى (الانعام ١٣٠) : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ لا يدل على أن الرسل من كل واحدة من الطائفتين ، بل إذا كانت الرسل من الإنس وقد أمرت الجن باتباعهم صح أن يقال للانس والجن : ألم ياتكم رسل منكم . ونظير هذا أن يقال للعرب والعجم : ألم يجئكم رسل منكم يا معشر العرب والعجم ، فهذا لا يقتضى أن يكون من هؤلاء رسل ومن هولاء . وقال تعالى (نوح ١٦) : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾ وليس فى كل سماء قمر وقوله تعالى (الاحقاف ٢٩) : ﴿ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِين ﴾ فالانذار أعم من الرسالة والأعم لا يستلزم الأخص ، قال تعالى (التوبة ١٢٢) : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ فهولاء نذر وليسوا برسل . قال غير واحد من السلف : الرسل من الانس ، وأما الجن ففيهم النذر قال تعالى (يوسف ١٠٩) : ﴿ وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ فهذا يدل على أنه لم يرسل جنيا ولا امراة ولا بدويا ، واما تسميته تعالى الجن رجالا فى قوله (الجن ٦) : ﴿ وَأَنَّهُ كانَ رِجالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِّ ﴾

فلم يطلق عليهم الرجال ، بل هي تسمية مقيدة بقوله ﴿ مِنَ الْجِنِّ ﴾ فهم رجال من الجن ولا يستلزم ذلك دخولهم في الرجال عند الاطلاق كما تقول : رجال من حجارة ، ورجال من خشب ونحوه

﴿ فصل ﴾ وقد اتفق المسلمون على أن كفار الجن في النار ، وقد دلّ على ذلك القرآن في غير موضع كقوله تعالى (السجدة ١٣) : ﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ وقوله تعالى (صٓ ٨٥) : ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ الآية فملؤها منه به وبكفار ذريته . وقال تعالى (الأعراف ٣٨) : ﴿ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ وقال تعالى حكاية عن مؤمنهم (الجن ١٤-١٥) : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ـ إلى قوله ـ حطبا ﴾ وقال الله تعالى (الاعراف ١٧٩) : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ وقال الله تعالى (الشعراء ٩٤-٩٥) : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ وجنوده إن لم يختص بالشياطين فهم داخلون في عمومه . وبالجملة فهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الاسلام ، وهو يستلزم تكليف الجن بشرائع الأنبياء ووجوب اتباعهم لهم . فأما شريعتنا فأجمع المسلمون على أن محمدا ﷺ بعث إلى الجن والأنس ، وأنه يجب على الجن طاعته ، كما يجب على الإنس . وأما قبل نبينا ﷺ فقوله تعالى ﴿ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴾ يدل على أن الامم الخالية من كفار الجن في النار ، وذلك إنما يكون بعد إقامة الحجة عليهم بالرسالة . وقد دلت سورة الرحمن على تكليفهم بالشرائع كما كلف الانس ، ولهذا يقول في إثر كل آية (الرحمن) : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ فدل ذلك على أن السورة خطاب للثقلين معا ، ولهذا قرأها رسول الله ﷺ على الجن قراءة تبليغ وأخبر أصحابه أنهم كانوا أحسن ردا منهم ، فانهم جعلوا يقولون كلما قرأ عليهم ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ : لانكذب بشيء من آلائك ربنا فلك الحمد . ولما كان أبوهم هو أول من دعا الى معصية الله ، وعلى يده حصل كل كفر وفسوق وعصيان ، فهو الداعي الى النار ، وكان أول من يكسى حلة من النار يوم القيامة يسحبها وينادي

« واثبوراه » فأتباعه من أولاده وغيرهم خلفه ينادون « واثبوراهم » حتى قيل : إن كل عذاب يقسم على أهل النار يبدأ به فيه ، ثم يصير اليهم

﴿فصل﴾ وأما حكم مؤمنيهم فى الدار الآخرة فجمهور السلف والخلف على أنهم فى الجنة . وترجم على ذلك البخارى فى صحيحه[1] فقال « باب ثواب الجن وعقابهم لقوله تعالى (الانعام ١٣٠ - ١٣٢) : ﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتى ﴾ الآية . بخسا[2] نقصا ، قال مجاهد (الصافات ١٥٨) : ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً ﴾ قال كفار قريش : الملائكة بنات الله ، وأمهاتهم بنات سروات الجن . قال الله تعالى (الصافات ١٥٨) : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُون ﴾ ستحضر للحساب . ثم ذكر حديث أبى سعيد « اذا كنت فى غنمك أو باديتك فأذّنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء فانه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شىء إلا شهد له يوم القيامة » سمعته من رسول الله ﷺ . هذا ما ذكره فى الباب . وقد ذهب جمهور الناس الى أن مؤمنيهم فى الجنة ، وحكى عن أبى حنيفة وغيره أن ثوابهم نجاتهم من النار . واحتج لهذا بقوله تعالى حكاية عنهم (الأحقاف ٣١) ﴿ يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ الله ﴾ الآية فجعل غاية ثوابهم إجارتهم من العذاب الاليم . وأما الجمهور فقالوا : مؤمنهم فى الجنة كما أن كافرهم فى النار . ثم اختلفوا فاطلق أكثر الناس دخول الجنة ولم يقيدوه . وقال سهل بن عبد الله : يكونون فى ربض الجنة ، يراهم المؤمنون من حيث لا يرونهم . فهذه مذاهب الناس فى أحكامهم فى الآخرة ، وأما أحكامهم فى الدنيا فاختلف الناس : هل هم مكلفون بالأمر والنهى ، أم هم مضطرون على أفعالهم ؟ على قولين حكاهما أبو الحسن الاشعرى فى كتاب (المقالات) له فقال : واختلف الناس فى الجن ، هل هم مكلفون ، أم مضطرون ؟ فقال قائلون من المعتزلة وغيرهم : هم مأمورون منهيون ، وقد أمروا ونهوا ، وهم مختارون . وزعم زاعمون أنهم مضطرون. قلت : الصواب الذى عليه جمهور أهل الاسلام أنهم مأمورون منهيون مكلفون بالشريعة الاسلامية . وأدلة القرآن والسنة على ذلك أكثر من أن تحصر . فاضافة هذا

---

(١) كتاب بدء الخلق ٥٩ ، الباب ١٢

(٢) فى الآية ١٣ من سورة الجن

القول الى المعتزلة بمنزلة أن يقال : ذهبت المعتزلة الى القول بمعاد الأبدان ، ونحو ذلك مما هو من أقوال سائر أهل الإسلام . وقال الله تعالى (الاحقاف ١٨) : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ ﴾ الآية فأخبر أن منهم من حق عليه القول أى وجب عليه العذاب وأنه خاسر ، ولا يكون ذلك إلا فى أهل التكليف المستوجبين العقاب بأعمالهم . ثم قال بعد ذلك ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ﴾ أى فى الخير والشر يوفونها ولا يظلمون شيئا من أعمالهم ، وهذا ظاهر جدا فى ثوابهم وعقابهم ، وأن مسيئهم كما يستحق العذاب باساءته فمحسنهم يستحق الدرجات باحسانه ، ولكل درجات مما عملوا ، فدل ذلك لا محالة أنهم كانوا مأمورين بالشرائع ، متعبدين بها فى الدنيا ، ولذلك استحقوا الدرجات بأعمالهم فى الآخرة فى الخير والشر ، وقال الله تعالى (فصلت ٢٥) : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ الآية ، ومعنى الآية : إن الله قيض للمشركين ـ أى سبب لهم ـ قرناء من الشياطين يزينون لهم ما بين أيديهم وما خلفهم من التكذيب بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب ، وقيل عكس هذا وأن ما بين أيديهم هو ترغيبهم فى الدنيا وحرصهم عليها ، وما خلفهم هو التكذيب بالآخرة . وقال الحسن : ما بين أيديهم هو حب ما كان عليه آباؤهم من الشرك وتكذيب الرسل ، وما خلفهم تكذيبهم بالبعث وما بعده . وفى الآية قول رابع وهو أن التزيين كله راجع الى أعمالهم فزينوا لهم ما بين أيديهم : أعمالهم التى عملوها ، وما خلفهم : الأعمال التى هم عازمون عليها ولما يعملوها بعد ، وكأن لفظ التزيين بهذا القول أليق . ومن جعل ما خلفهم هو الآخرة لم يستقم قوله إلا باضمار ، أى زينوا لهم التكذيب بالآخرة ، ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر فانهم زينوا لهم ترك العمل لها والاستعداد للقائها ، ولهذا كان عليه جمهور أهل التفسير حتى لم يذكر البغوى غيره ، وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج : سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى أضلوهم فزينوا لهم ما بين أيديهم من أمر الدنيا حتى آثروه على الآخرة ، وما خلفهم من أمر الآخرة فدعوهم إلى التكذيب به وإنكار البعث

والمقصود أن قوله تعالى (فصلت ٢٥) : ﴿ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ القَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خاسِرِين ﴾ أى وجب عليهم العذاب مع أمم قد مضت من قبلهم من الجن والانس ، ففى هذا أبين دليل على تكليف الثقلين وتعلق الأمر والنهى بهم ، وكذلك تعلق الثواب والعقاب بهم ، وقال تعالى (الأنعام ١٢٨) : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقالَ أَوْلِياؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنا ــ الى قوله تعالى ــ إلاَّ ما شاءَ اللهُ ﴾ وهذا صريح فى تكليفهم ، فان هذا القول يقال للجن فى القيامة ، فيذكر الإنس استمتاع بعضهم ببعض فى الدنيا ، وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والإنس من طاعتهم إياهم فى معصية الله ، وعبادتهم لهم دون الله ، ليستعينوا بهم على شهواتهم وأغراضهم . فانهم كانوا يستوحونهم ويعوذون بهم ويذبحون لهم وبأسمائهم ويوالونهم من دون الله كما هو شأن أكثر المشركين من أولياء الشيطان . فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض ، ولهذا يقول تعالى للملائكة يوم القيامة ــ وقد جمع العابدين والمعبودين ــ (سبأ ٤٠ - ٤١) : ﴿ أَهؤُلاء إيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُون ؟ قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُون ﴾ فهؤلاء عباد الجن وأولياء الشياطين . وأكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما ينال به من المتعة بمعبوده . وكثير منهم ملبوس عليه ، فهو يعبد الشيطان ولا يشعر . وقد أشار زيد بن عمرو بن نفيل فى شعره إلى هذا الشرك بالجن فقال :

حنانيك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهى ربنا ورجاؤنا

ولهذا يقولون : فى القيامة (الانعام ١٢٨) : ﴿ رَبَّنا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنا ﴾ قال الله تعالى : ﴿ النَّارُ مَثْواكُمْ خالِدِين فِيها إلاَّ ما شاءَ الله ﴾ فهذا خطاب للصنفين ، وهو صريح فى اشتراكهم فى التكليف ، كما هو صريح فى اشتراكهم فى العذاب . وهو كثير فى القرآن . ومما يدل على تكليفهم أيضا قوله تعالى (الانعام ١٣٠) : ﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ

آياتِى ـ الى قوله تعالى ـ كافِرِين﴾ فلما اعترفوا بأنهم كانوا كافرين ، وشهدوا على أنفسهم بالكفر ، دل ذلك على تكليفهم وتوجه الخطاب اليهم . وقال تعالى (الأحقاف ٢٩ ـ ٣٢) : ﴿وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا ـ الى قوله ـ أُولَئِكَ فِى ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة : (أحدها) أن الله سبحانه وتعالى صرفهم الى رسوله يستمعون القرآن ليؤمنوا به ويأتمروا بأوامره وينتهوا عن نواهيه . (الثانى) أنهم ولوا الى قومهم منذرين . والإنذار هو الإعلام بالخوف بعد انعقاد أسبابه ، فعلم أنهم منذرون لهم بالنار إن عصوا الرسول . (الثالث) أنهم أخبروا أنهم سمعوا القرآن وعقلوه وفهموه وأنه يهدى إلى الحق ، وهذا القول منهم يدل على أنهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه ، وأن القرآن مصدق له وأنه هاد الى صراط مستقيم . وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذى تقوم به الحجة ، وهم قادرون على امتثال ما فيه ، والتكليف إنما يستلزم العلم والقدرة . (الرابع) أنهم قالوا لقومهم (الاحقاف ٣١) : ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وآمِنُوا بِهِ﴾ وهذا صريح فى أنهم مكلفون مأمورون باجابة الرسول ، وهى تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر . (الخامس) أنهم قالوا ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ والمغفرة لا تكون إلا عن ذنب وهو مخالفة الأمر . (السادس) أنهم قالوا ﴿ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ والذنب مخالفة الأمر . (السابع) أنهم قالوا ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ ﴾ وهذا يدل على أن من لم يستجب منهم لداعى الله لم يجره من العذاب الأليم . وهذا صريح فى تعلق الشريعة الاسلامية بهم . (الثامن) أنهم قالوا (الاحقاف ٣٢) : ﴿ وَمَن لا يُجِبْ داعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فى الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياء﴾ وهذا تهديد شديد لمن تخلف عن إجابة داعى الله منهم . وقد استدل بها على أنهم كانوا متعبدين بشريعة موسى كما هم متعبدون بشريعة محمد وهذا ممكن . والآية لا تستلزمه ولكن قوله تعالى (الانعام ١٣٠) : ﴿ يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ﴾ الآية يدل على أن الجن كانوا متعبدين بشرائع الرسل قبل محمد ﷺ ، والآيات المتقدمة تدل على ذلك أيضا . وعلى هذا فيكون اختصاص النبى ﷺ بالبعثة الى الثقلين هو اختصاصه بالبعثة الى جميعهم لا إلى بعضهم

ومن قبله كان يبعث الى طائفة مخصوصة . وأيضا فقد قال تعالى عن نبيه سليمان (سبأ ١٢) : ﴿ وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ ﴾ وهذا محض التكليف . وقد تقدم قوله حكاية عنهم (الجن ١٤ - ١٥) : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ - الى قوله تعالى - لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾ وقد صح أن رسول الله ﷺ قرأ عليهم القرآن وأنهم سألوه الزاد لهم ولدوابهم فجعل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه ، وكل بعرة علف لدوابهم . ونهانا عن الاستنجاء بهما . ولو لم يكن فى هذا إلا قوله تعالى (الاسراء ١٥) : ﴿ وَما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ وقد أخبر أنه يعذب كفرة الجن لكفى به حجة على أنهم مكلفون باتباع الرسل . ومما يدل على أنهم مأمورون منهيون بشريعة الاسلام ما تضمنته سورة الرحمن ، فانه سبحانه وتعالى ذكر خلق النوعين فى قوله تعالى (١٤ - ١٥) : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ ، وَخَلَقَ الْجانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ ﴾ ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الايمان منهم ، وإنكار تكذيبهم بالآية ، وترغيبهم فى وعده ، وتخويفهم من وعيده ، وتهديدهم بقوله تعالى (٣١) : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّها الثَّقَلانِ ﴾ وتخويفهم من عواقب ذنوبهم ، وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام ، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والاقدام ، ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم . وهذا كله صريح فى أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون . وفى الترمذى من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن من أولها الى آخرها فسكتوا فقال « لقد قرأتها على الجن ليلة الجن وكانوا أحسن مردوداً منكم : كنت كلما أتيت على آية ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ ﴾ قالوا : لا شىء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد » وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب ، وعلمهم أنهم مقصودون به . وقوله فى هذه السورة ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّها الثَّقَلانِ ﴾ وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع ، قال قتادة : معناه فراغ الدنيا وانقضاؤها ، ومجىء الآخرة والجزاء فيها ، والله سبحانه لا يشغله شىء عن شىء . والفراغ فى اللغة على وجهين : فراغ من

الشغل ، وفراغ بمعنى القصد . وهو فى هذا الموضع بالمعنى الثانى ، وهو قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء . وقوله (الرحمن ٣٣) : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ﴾ فيها قولان : أحدهما إن استطعتم أن تنفذوا ما فى السموات والأرض علما ـ أى أن تعلموا ما فيهما ـ فاعلموه ، ولن تعلموه إلا بسلطان ، أى إلا ببينة من الله . وعلى هذا فالنفوذ ههنا نفوذ علم الثقلين فى السموات والأرض . الثانى إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السموات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا ، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم ، فانكم تحت سلطانى وفى محل ملكى وقدرتى أين كنتم . وقال الضحاك : معنى الآية إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فانه مدرككم . وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول فى الدنيا . وفى الآية تقرير آخر ، وهو أن يكون هذا الخطاب فى الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سرادق النار بالآفاق ، فهرب الخلائق ، فلا يجدون مهربا ولا منفذا . كما قال تعالى (غافر ٣٢ - ٣٣) : ﴿ وَيَاقَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ، يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾ قال مجاهد : فارّين غير معجزين ، وقال الضحاك : إذا سمعوا زفير النار ندّوا هربا ، فلا يأتون قطرا من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفا ، فيرجعون الى المكان الذى كانوا فيه ، فذلك قوله تعالى (الحاقة ١٧) : ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا ﴾ وقوله تعالى (الرحمن ٣٣) : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ﴾ وهذا القول أظهر . والله أعلم . فاذا بده الخلائق ولوا مدبرين يقال لهم ﴿ إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ﴾ أى إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السموات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا . وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول ، فان قبلها (٣١) ﴿ سَنَفْرُغُ ﴾ الآية وهذا فى الآخرة ، وبعدها (٣٧) : ﴿ فَاذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴾ وهذا فى الآخرة . وأيضا فان هذا خطاب لجميع الإنس والجن ، فانه أتى فيه بصيغة العموم وهى قوله تعالى ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴾ فلا بد أن

يشترك الكل فى سماع هذا الخطاب ومضمونه . وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله فى صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر . وقال تعالى ﴿ إنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ولم يقل إن استطعتما ، لارادة الجماعة كما فى آية أخرى (الانعام ١٣١) : ﴿ يا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾ ، وقال تعالى ﴿ يُرْسِلُ عَلَيْكُما ﴾ ولم يقل يرسل عليكم لارادة الصنفين أى لا يختص به صنف عن صنف ، بل يرسل ذلك على الصنفين معا . وهذا وان كان مرادا بقوله تعالى ﴿ إن اسْتَطَعْتُمْ ﴾ فخطاب الجماعة فى ذلك بلفظ الجمع أحسن ، أى من استطاع منكم . وحسن الخطاب بالتثنية فى قوله تعالى ﴿ عَلَيْكُما ﴾ أمر آخر . وهو موافقة رءوس الآى ، فاتصلت التثنية بالتثنية . وفيه التسوية بين الصنفين فى العذاب بالتنصيص عليهما فلا يحتمل اللفظ ارادة أحدهما . والله أعلم . قال ابن عباس : الشواظ اللهب الذى لا دخان فيه ، والنحاس الدخان الذى لا لهب فيه . وقوله تعالى (الرحمن ٣٩) : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جانٌ ﴾ فاضاف الذنوب الى الثقلين ، وهذا دليل على أنهما سويا فى التكليف . واختلف فى هذا السؤال المنفى ، فقيل : هو وقت البعث والمصير الى الموقف ، لا يسألون حينئذ ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم الى الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك . وقيل : المنفى سؤال الاستعلام والاستخبار ، لا سؤال المحاسبة والمجازاة ، أى قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها ، وإنما يحاسبهم عليها

﴿ فصل ﴾ فاذا علم تكليفهم بشرائع الأنبياء ومطالبتهم بها ، وحشرهم يوم القيامة للثواب والعقاب ، علم أن محسنهم فى الجنة كما أن مسيئهم فى النار ، وقد دل على ذلك قوله تعالى حكاية عن مؤمنهم (الجن ١٣) : ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ ﴾ الآية ، وبهذه الحجة احتج البخارى . ووجه الاحتجاج بها أن البخس المنفى هو نقصان الثواب ، والرهق الزيادة فى العقوبة على ما عمل ، فلا ينقص من ثواب حسناته ولا يزداد فى سيئاته . ونظير هذا قوله تعالى (طه ١١٢) : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً ﴾ أى لا يخاف زيادة سيئاته ولا نقصان حسناته . وأيضا فقد قال تعالى فى سورة الرحمن (٤٦) : ﴿ وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ . فَبِأَيِّ

آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبان ﴾ وذكر مافى الجنتين إلى قوله تعالى (٥٦) : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جانٌّ ﴾ ، وهذا يدل على أن ثواب محسنهم الجنة من وجوه :

(أحدها) أن « من » من صيغ العموم ، فتتناول كل خائف

(الثانى) أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه ، فدل على استحقاقه به . وقد اختلف فى إضافة المقام إلى الرب هل هى من إضافة المصدر الى فاعله ، أو إلى مفعوله ؟ على قولين : أحدهما أن المعنى ولمن خاف مقامه بين يدى ربه ، فعلى هذا هو من إضافة المصدر الى المفعول . والثانى أن المعنى ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه ، فهو من باب إضافة المصدر الى فاعله . وكذلك القولان فى قوله تعالى (النازعات ٤٠) : ﴿ وأَمَّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ ونظيره قوله تعالى (إبراهيم ١٤) ﴿ ذٰلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ ﴾ فهذه ثلاثة مواضع . وقد يقال : الراجح هو الاول ، وان المعنى خاف مقامه بين يدى ربه لوجوه ، أحدها : أن طريقة القرآن فى التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر ، فاذا خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم . كقوله تعالى (آل عمران ١٧٥) : ﴿ فَلا تَخافُوهُمْ وَخافُونِ ﴾ وقوله تعالى (البينة ٨) : ﴿ ذٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ وقوله تعالى (النحل ٥٠) : ﴿ يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ وقوله تعالى (الملك ١٢) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِير ﴾ ففى هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم ، وانما مدحهم بخوفه وخشيته . وقد يذكر الخوف متعلقا بعذابه كقوله تعالى (الاسراء ٥٧) : ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ ﴾ وأما خوف مقامه عليهم فهو وان كان كذلك فليس طريقة القرآن . الثانى : ان هذا نظير قوله تعالى (الانعام ٥١) : ﴿ وَأَنْذِرْ به الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ ﴾ فخوفهم أن يحشروا اليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه . والقرآن يفسر بعضه بعضا . الثالث : أن خوف مقام العبد بين يدى ربه فى الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر وبالبعث بعد الموت . وهذا هو الذى يستحق الجنتين المذكورتين ، فانه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل ، وهو من الايمان بالغيب الذى جاءت به الرسل . وأما مقام الله على عبده فى الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه فهذا يقرّ به المؤمن والكافر والبر والفاجر ، وأكثر

الكفار يخافون جزاء الله لهم فى الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن باحسانه، وأما مقام العبد بين يدى ربه فى الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل . فان قيل : إذا كان المعنى أنه خاف مقام ربه عليه فى الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران ، فمن أين رجحتم أحدهما ؟ قيل : التخويف بمقام العبد بين يدى ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد ، ولهذا خوفنا تعالى فى قوله (المطففين ٦) : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، ولأنه مقام مخصوص مضاف الى الله وذلك فى يوم القيامة ، بخلاف مقام الله على العبد فانه كل وقت . وأيضا فانه لا يقال لقدرة الله على العبد واطلاعه عليه وعلمه به : مقام الله ، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الرب . وأيضا فان المقام فى القرآن والسنة إنما يطلق على المكان كقوله (الاسراء ٧٩) : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً ﴾ وقوله تعالى (الدخان ٢٥ - ٢٦) : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ ، وقوله تعالى (مريم ٧٣) : ﴿ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ . والمقصود أن قوله تعالى ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان

(الثالث) قوله عقيب هذا الوعد ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

(الرابع) أنه ذكر فى وصف نسائهم أنهن ﴿ لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ﴾ وهذا والله أعلم معناه أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم ولا نساء الجن جن قبلهم

ومما يدل على أن ثوابهم الجنة قوله تعالى (الكهف ٣٠-٣١) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً . أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾ وأمثال هذه من العمومات . وقد ثبت أن منهم المؤمنين فيدخلون فى العموم ، كما أن كافرهم يدخل فى الكافرين المستحقين للوعيد . ودخول مؤمنهم فى آيات الوعد أولى من دخول كافرهم فى آيات الوعيد ، فان الوعد فضله والوعيد عدله ، وفضله من رحمته وهى تغلب غضبه . وأيضا فان دخول عاصيهم النار إنما كان لمخالفته أمر الله ، فاذا أطاع الله أدخل الجنة . وأيضا فانه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار ، وكل من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه . وأيضا فقد ثبت أنهم إذا أجابوا داعى الله غفر لهم وأجارهم من عذابه ، وكل من غفر له دخل الجنة ولا بد ، وليس

فائدة المغفرة إلا الفوز بالجنة والنجاة من النار . وأيضا فانه قد ثبت أن الرسول مبعوث اليهم وأنهم مكلفون باتباعه ، وأن مطيعهم لله ورسوله مع الذين أنعم الله عليهم ، لقوله تعالى (النساء ٦٩) : ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً ﴾ وقد أخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حولهم أنهم يستغفرون للذين آمنوا وأنهم يقولون (غافر ٧ - ٨) : ﴿ فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ فدل على أن كل مؤمن غفر الله له ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة . وقد ثبت فى حق مؤمنهم الإيمان ومغفرة الذنب ووقاية النار كما تقدم فتعين دخولهم الجنة ، والله أعلم . واذا ثبت تكليفهم بانقسامهم الى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك ، فهم فى الموازنة على نحو طبقات الإنس المتقدمة ، إلا أنهم ليس فيهم رسول . وأفضل درجاتهم درجة الصالحين ولو كان لهم درجة أفضل منها لذكروها ، فقد دل القرآن على انقسامهم الى ثلاثة أقسام : صالحين ، ودونهم ، وكفار . وزاد عليهم الإنس بدرجة الرسالة والنبوة ودرجة المقربين . والله أعلم

فهذا ما وصل اليه الإحصاء من طبقات المكلفين فى الدار الآخرة ، وهى ثمان عشرة طبقة ، وكل طبقة منها لها أعلى وأدنى ووسط . وهم درجات عند الله ، والله تعالى يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره ويقرن بينهما فى الدرجة . قال تعالى (الصافات ٢٢) ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ قال الامام أحمد وقبله عمر بن الخطاب : ﴿ أزواجهم ﴾ أشباههم ونظراءهم ، وقال تعالى (التكوير ٧) : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ روى النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب أنه سئل عن هذه الآية فقال : يقرن الرجل الصالح مع الرجل الصالح فى الجنة ، ويقرن الرجل السوء مع الرجل السوء فى النار . وقال الحسن وقتادة : يلحق كل امرىء بشيعته ، اليهودى باليهودى ، والنصرانى بالنصرانى . وقال الربيع بن خيثم : يحشر الرجل مع صاحب عمله . وفى الآية ثلاثة أقوال أخر أحدها : أن تزويج النفوس اقترانها باجسادها وردها اليها . الثانى : تزويجها اقترانها بأعمالها . الثالث : أنه تزويج المؤمنين الحور العين ، وتزويج الكفار بالشياطين . والقول الأول أظهر الأقوال . والله أعلم

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

فهرس

كتاب طريق الهجرتين